أبطال وقبور

رواية

أرنستو ساباتو



ترجمها عن الإسبانية
عبد السلام عقيل

الوطنية الجديدة

إرنستو ساباتو

أبطال وقبور

« روايــــة »

ترجمها عن الإسبانية

عبد السلام عقيل

• أبطال وقبور «رواية»
• تأليف: إرنستو ساباتو
• ترجمها عن الإسبانية: عبد السلام عقيل
• الطبعة العربية الثانية المنقحة 2004.
صدر النص المنقح النهائي من قبل المؤلف عام 1998
صدرت الطبعة العربية الأولى عن دار الأهالي بدمشق عام 1989

• **الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع**
سورية - دمشق - ص.ب: 22205
هاتف: 4418202 - 4418172

• التوزيع في جميع أنحاء العالم:
الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع
• موافقة الإعلام: (75644)

• العمليات الفنية: **مؤسسة سندباد**
سورية - دمشق - ص.ب: 9223 - هاتف: 2231055
فاكس: 2452565 - بريد الكتروني: sindbad@scs-net.org

عنوان الكتاب باللغة الإسبانية

Ernesto Sabato

Sobre Héroes Y Tumbas

هذه الطبعة

أجرى كاتب هذه الرواية تعديلات وتغييرات مهمة على بعض فصولها، وشمل التعديل أيضاً حذف بعض العبارات والفقرات والفصول. كما أنه زود المترجم ببعض النصائح والإرشادات التي تسهل ترجمة تلك الأجزاء من النص التي تتسم بخصوصية محلية، سواء من حيث اللغة أو الظروف التاريخية والسياسية وغيرها.

زد على ذلك، أن المترجم أخذ على عاتقه في هذه الطبعة العربية الجديدة إعادة تنقيح النص، سواء من حيث دقة الترجمة، أو الصياغة اللغوية، تداركاً لما اعتور الطبعة السابقة من هفوات وأخطاء من جهة، وانسجاماً مع إرشادات ونصائح المؤلف من جهة أخرى.

ولذلك تعتبر هذه الطبعة النص النهائي للرواية.

تقديم

الروائي والرواية

«إرنستو ساباتو» واحد من كبار كتاب الإسبانية في أمريكا اللاتينية. وأحد عمالقة الفكر والأدب في الأرجنتين.

ولد في ناحية «روخاس» من أعمال محافظة «بوينس أيرس» في عام 1911. نال شهادة الدكتوراه في الفيزياء، وعمل في ميدانها في فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية. درس الفلسفة، ثم هجر ميدان العلوم عام 1945 ليكرس حياته للأدب.

ألف مجموعة أبحاث وكتب عن الإنسان وأزمة الصراع، ونال عدة جوائز، وما إن نشر عام 1948 رواية «النفق» حتى تُرجمت إلى معظم لغات العالم.

ثم صدرت عام 1961 روايته الثانية «أبطال وقبور» فرفعته ليتبوأ مكانته المرموقة في مصاف كبار الكتاب، ليس في الأرجنتين وأمريكا اللاتينية وحسب، بل في العالم أجمع.

انصرف «إرنستو ساباتو» في السنوات الأخيرة، بعد أن تقدم به العمر وشح بصره، إلى الرسم، فاتخذ منه هواية له، وتخلى عن الكتابة نهائياً. وقد أقام أصدقاؤه في باريس معرضاً للوحاته عام 1989.

«إرنستو ساباتو» ليس عالماً وأديباً وفناناً كبيراً وحسب، بل مفكراً سياسياً يحظى باحترام سائر القوى الوطنية والديمقراطية والتقدمية في بلاده، وهذا ما أهله ليترأس ـ بعد سقوط الحكم العسكري في أواخر عام 1983 ـ اللجنة الوطنية للمفقودين، وكان التقرير الذي وضعته وثيقة

اتهام صارخة في أيدي القضاة الذين مثل أعضاء المجالس العسكرية أمامهم أثناء تلك المحاكمة التي سميت بحق محاكمة العصر.

عالم «ساباتو» الروائي، عالم غريب ومعقد، خفي ومتشابك، عجيب وغامض. فهو إلى جانب نوازعه الإنسانية، وشغفه بالهواجس الجنونية المبدعة، وأوهامه الغريبة عن العوالم الأخرى المشؤومة، والكائنات اللزجة المثيرة للاشمئزاز، وانشطار الشخصية الإنسانية، أو تعددها أو تمزقها، وأفكاره عن الشر، وخلاص الإنسان الذي لا يمكن إدراكه بالعقل الواعي والإرادة المباشرة، وإنما بقدرات أخرى تكمن وراء عالم المظاهر، نقول: إنه إلى جانب ذلك كله يتخذ من مجتمعه وأرضه، حاضراً وماضياً، مَعيناً لا ينضب للإبداع.. ولذلك جاءت روايته «أبطال وقبور» ملحمة رائعة ونشيداً «طقسياً»، ووثيقة اجتماعية، أخلاقية، نفسية، سياسية، تاريخية، لحقبة زاخرة من حياة بلاده.

لقد أتيح لي أن أقضي عقداً من عمري في تلك البلاد التي عرفتها من قرب كدبلوماسي في جهاز سفارة بلادي، ثم كسفير لها، في حقبتين، كانت كل منهما زاخرة بأحداث جسام، أدت إلى تحولات عميقة في مسالك الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية في الأرجنتين. انتهت الأولى بسقوط حكم الديكتاتوريات العسكرية وعودة «بيرون» إلى السلطة، بعد ثمانية عشر عاماً من حياة التشرد والمنفى، وانتهت الثانية بسقوط حكم المجالس العسكرية «لاخونتا»، وعودة الحياة الديمقراطية للبلاد، بعد ثمانية أعوام من قمع زادت ضحاياه على عشرين ألف شاب وفتاة ممّن تصدوا بصدورهم العارية وأفكارهم الناصعة لحكم لم تعرف البلاد لقسوته مثيلاً.

وحرصاً مني على أن يبقى القارئ مشدوداً إلى عالم ساباتو السحري والساحر، وجدت أنه لا بد من أن أعرض بإيجاز بالغ

الجانب التاريخي، الذي نال، بإقحامه وإسقاطاته، نصيباً وافراً من هذه الرواية.

* * *

بدأت ما تعرف اليوم بالجمهورية الأرجنتينية، تتكون كأمة مستقلة، في مطلع القرن التاسع عشر 1810. فبعد الغزو النابوليوني لإسبانيا، وإلقاء القبض على ولي العهد (فرناندو السابع) ومنح شقيق بونابرت (خوسيه الأول) عرش إسبانيا، أخذت مختلف الأقاليم التابعة للتاج الإسباني تقيم مجالس حكومية موالية لولي العهد (فرناندو السابع).

تشكل في بوينس أيرس عاصمة إقليم النهر الفضي آنذاك «مجلس حكومي» في 25 أيار/ مايو 1810، رفض الخضوع لسلطة (خوسيه الأول). ومنذ ذلك اليوم، بدأت البلاد تنعم بحكومات مستقلة.

كانت العقود الأولى التي تلت تلك الأحداث زاخرة بالفوضى والاضطرابات، واتسمت ببروز قوتين سياستين متنازعتين دائماً هما: الوحدويون والاتحاديون.

مثَّل الوحدويون المصالح التجارية المرتبطة بتصدير المنتجات الأرجنتينية الزراعية والحيوانية، وكان معقلها الرئيسي مرفأ بوينس أيرس. ومثَّل الاتحاديون القوى المختلفة الأخرى في الأقاليم التي كان يقودها زعماء محليون، ذوو تأثير ونفوذ كبيرين في مناطقهم.

ووضحت سمات هاتين القوتين خلال السنوات العشرين التالية، وتمخضت الصراعات الدموية بينهما، التي جرّت البلاد إلى ما يشبه الحرب الأهلية، عن نشوء حزبين سياسيين هما حزب الوحدويين وحزب الاتحاديين، وتوالى على زعامة كل منهما شخصيات بارزة، وأدى الحقد الذي حكم العلاقات بينهما إلى حروب ومآس.

تناوب الوحدويون والاتحاديون على حكم البلاد. وكان لا بد لأحدهما، لكي تستتب له الأمور، من أن يلجأ إلى قمع قوة خصمه. وفي العام 1828 قام الجنرال «خوان لافاجي»، وهو من الشخصيات البارزة التي تولت زعامة حزب الوحدويين، بإعدام «مانويل دورِّيغو»، زعيم الاتحاديين بعد أن هزمه عسكرياً.

أدى إعدام «دورِّيغو» إلى نشوب ثورة شملت أنحاء البلاد، قادها «خوان مانويل روساس»، فاحتل «بوينس أيرس» في أواخر عام 1828. وبدأت بذلك مرحلة جديدة من حياة البلاد استمرت عشرين عاماً، حيث أقام «روساس»، بعد أن جمع سائر السلطات في يده، حكومة ديكتاتورية، وقمع المعارضة، واعتبر جميع الوحدويين خارجين على القانون، وقضى على أي عصيان بالبطش والقسوة.

كان «خوان لافاجي» يتزعم الثورات ضد «روساس»، وكان يتعين على أنصاره بعد كل فشل، أن يهربوا من الأرجنتين، أو أن يواجهوا المطاردات والقتل.

تركت تلك الحقبة بصماتها على الحياة السياسية في الأرجنتين حتى اليوم. فقد تَم القضاء على حكم «روساس» عام 1852، ولجأ إلى خارج البلاد، بعد هزيمته في معركة «كاسيروس» التي ساهمت فيها قوى الحزب الوحدوي، إلى جانب الاتحاديين المنشقين، ووحدات برازيلية كبيرة أيضاً، لكن الأرجنتين ما زالت أسيرة أحداث تلك الحقبة من تاريخها، وما زال الأرجنتينيون منقسمين بين «روساس» و«لافاجي». يرى بعضهم أن الديكتاتور كان سياسياً عبقرياً وبطلاً قومياً، ويرى آخرون أنه لم يكن سوى حاكم مستبد، قاسي القلب. ولكن الطرفين يتفقان على أن تلك الحقبة لا يمكن أن تنسى، وأنها لا تزال تترك بصماتها على الحياة السياسية والفكرية في البلاد حتى الآن.

وقد وجد الأدب الأرجنتيني فيها معيناً للإلهام لا ينضب، كما رأى كثير من الأدباء المعاصرين مثل ساباتو أنه يكاد يستحيل التغاضي عما جرى في تلك الحقبة التي تشكل جزءاً لا يتجزأ من الوجدان الجماعي الأرجنتيني، ولا يشك أحد أبداً بأنها ما زالت تشكل القاعدة التي أرسيت عليها الانقسامات السياسية في البلاد، منذ منتصف القرن الأخير، وإن اختلفت التسميات.

عبد السلام عقيل

ثمة أنواع من التخيلات يحاول الكاتب بوساطتها التحرر من هاجس لا يكون واضحاً، حتى له هو بالذات، وكيفما كان الأمر، فهذا النوع هو ما أستطيع كتابته. زد على ذلك أنني منذ كنت يافعاً، وجدتني منساقاً إلى كتابة السير المبهمة، ولحسن الحظ كنت ضنيناً بنشرها. وفي العام 1948 نشرت إحداها، وهي رواية «النفق»، وثابرت خلال السنوات الثلاث عشرة التي انصرمت بعد ذلك، على استكشاف تلك المتاهة المظلمة التي تقود إلى سرّ حياتنا المركزي. ومرة بعد أخرى، حاولت أن أعبر عن نتائج أبحاثي، حتى قادتني الحصيلة الضحلة التي ثبطت عزائمي، إلى تمزيق ما كتبت. إلا أن بعض الأصدقاء ممن قرأه أقنعني بنشره. وأودّ هنا أن أعبر لهم جميعاً عن اعترافي بما محضوني إياه من إيمان وثقة، لم أكن، لسوء الحظ، أتمتع بهما أبداً.

أهدي هذه الرواية، إلى المرأة التي شجعتني بتصميم، في أوقات قنوطي. فلولاها لما توفر لديَّ العزم لإنجازها. وهي، وإن كانت تستحق ما هو أفضل، إلا أن هذه الرواية بكل ما فيها من عيوب، مكرسة لها وحدها.

إرنستو ساباتو

خبر أولي

دلت التحقيقات الأولية على أن باب البرج القديم الذي اتخذت منه «أليخاندرا» مخدعاً لها، كانت، هي ذاتها، قد أقفلته بالمفتاح من الداخل. ثم، (وإن كان يصعب منطقياً، تحديد الوقت الذي انقضى) قتلت والدها بأن أطلقت عليه أربع رصاصات من مسدس عيار 32 ورشت كمية من النفط في أرجاء المكان وأضرمت النار.

هذه المأساة التي هزت «بوينس أيرس»، بسبب شهرة تلك الأسرة الأرجنتينية العريقة، بدت في باديء الأمر نتيجة نوبة جنون مفاجئة، ولكن برز الآن عنصر إثبات جديد زعزع تلك الفرضية. فقد تم العثور على تقرير غريب، (تقرير حول العميان)، فرغ «فرناندو فيدال» من كتابته ليلة موته بالذات في المنـزل الذي كان يقطنه باسم مستعار، في «فيا ديفوتو». وتدل معلوماتنا على أن المخطوط قد كتبه مجنون. ومع ذلك، يقال إنه يمكن أن تستقى منه بعض التفسيرات التي تلقي ضوءاً على الجريمة، وتستبعد افتراض دافع الجنون، لتُحل محله افتراضاً أشد غموضاً. إن كان ذلك الاستنتاج صحيحاً، فهو يفسر أيضاً لماذا لم تنتحر أليخاندرا بإحدى الرصاصات التي بقيت في المسدس، وإنما اختارت أن تحرق نفسها حية.

مقطع من «خبر بوليسي» نشرته في 28 حزيران/ يونيو 1955 صحيفة لاراسون التي تصدر في «بونيس أيرس»

(1)

التنين والأميرة

1

في أحد أيام السبت من شهر أيار/ مايو 1953 قبل عامين من حادثة «بارّاكاس»، كان فتى طويل القامة محدودب الظهر، يمشي في أحد ممرات حديقة «ليساما».

جلس على مقعد قرب تمثال «سيريس»، وظل شارداً لا يفعل شيئاً، ولا يعي ما يدور حوله. (كمركب ينساب في بحيرة كبيرة تبدو من حيث الظاهر هادئة، ولكن أعماقها تموج بتيارات صاخبة). لم يكن «برونو» يفكر في ما روى له مارتين بعد موت «أليخاندرا»، على نحو متقطع وملتبس، بعضاً من فصول تلك العلاقة وحسب، بل كان يتفهمه أيضاً. ولكن بأي طريقة..! لقد كان مارتين فتى السبعة عشر ربيعاً يذكّره بماضيه، بـ«برونو» البعيد الذي كان يتراءى له أحياناً على نحو ضبابي منذ ثلاثين عاماً، عبر ديار عمَّرها ودمَّرها الحب والإخفاق والموت، كان يتخيله بكآبة في تلك الحديقة العتيقة عندما ينحسر ضوء الشفق عن التماثيل البسيطة، والأسود البرونزية الصامتة، والدروب التي تغطيها أوراق الأشجار اللدنة الميتة. في تلك الساعة عندما تبدأ الهمسات الخافتة تتناهى إلى الأسماع، ويأخذ الضجيج بالانحسار، مثلما يخفت صخب الحديث في غرفة إنسان يحتضر، حينذاك، يدرك المرء بحدة غريبة، خرير المياه في حوض، ووقع خطوات إنسان يبتعد، وزقزقة العصافير التي تأوي إلى أعشاشها، وصراخ طفل بعيد. يحدث في تلك اللحظة أمر غريب: يرخي الليل سدوله ويُمسي كل شيء مختلفاً: الأشجار، المقاعد،

الطاعنون في السن الذين يضرمون النار في بعض الأوراق الجافة، وصفارة مركب في الرصيف الجنوبي، وصدى المدينة البعيد. تحل تلك الساعة فيدخل كل شيء في حياة أشد عمقاً وإبهاماً، وأشد وطأة على أولئك الذين يعيشون في عزلة، وينـزوون صامتين، شاردي الذهن، على مقاعد ساحات وحدائق «بوينس أيرس».

التقط مارتين قطعة جريدة مهملة شبيهة بخريطة بلد ما: بلد ليس له وجود، إنما وجوده ممكن. وقرأ بكآبة كلمات عن «السويس»، وعن تجار ذهبوا إلى سجن «فياديفوتو»، وعن شيء ما قاله «جيورجي» لدى وصوله. على الجانب الآخر الملطخ بالطين، كانت تبدو صورة «بيرون» يزور مسرح «ديسيبولو». وتحت ذلك: محارب قديم قتل زوجته وأربعة أشخاص آخرين بفأس.

رمى الجريدة: (لا يكاد يحدث شيء أبداً)، هذا ما كان سيقوله له «برونو» بعد سنوات (وإن كان الوباء يجتاح منطقة في الهند). عاد مارتين يرى وجه أمه المطلي بالأصباغ وهي تقول: (إنك موجود بسبب إهمالي).شجاعة، نعم يا سيدي، كانت تنقصها الشجاعة. ولولا ذلك، لكان أمري قد انتهى إلى البالوعة.

أمّ بالوعة:

قال مارتين: عندئذ خالجني شعور بأن أحداً ما كان خلفي يتأملني.

ظل مدة من الوقت متشنجاً. مثل تلك الحالة من التشنج والحذر القلق تنتابه في ظلمة مخدعه، فيحسب أنه يسمع خشخشة مريبة. وكثيراً ما كان يشعر بذلك الإحساس خلف رقبته، ولكنه كان، بكل بساطة، مجرد إحساس مزعج مقيت؛ فقد كان (كما سبق وقال) يعتبر نفسه دائماً، قبيحاً ومثيراً للضحك، وكان يزعجه مجرد افتراض أن أحداً

يتفحصه، أو حتى يراقبه من وراء ظهره، ولذلك كان يجلس في المقاعد الخلفية في الحافلات والمركبات، أو كان يدخل إلى دور السينما بعد أن تكون الأنوار قد أطفئت. إنما في تلك اللحظة شعر بشيء مختلف، شيء ما ـ تردد كمن يبحث عن الكلمة المناسبة ـ *مقلق*، يشبه تلك الخشخشة المريبة التي نسمع، أو نخال أننا نسمعها في أعماق الليل.

بذل جهداً كي يحتفظ بعينيه مركزتين على التمثال، لكنه في الواقع، لم يكن يراه. كان بصره يرتد إلى الداخل، كما يحدث عندما نفكر بأمور مضت، أو عندما نحاول إعادة بناء ذكريات حزينة تتطلب كامل تركيزنا الروحي.

قال: إنه فكر وهو يرتعد (إن أحداً يحاول التخاطر معي).

ذلك الشعور الذي كان يجعله يحس بأنه مراقب، زاد من وطأة إحساسه بالخجل كما هي عادته: كان يرى نفسه قبيحاً وغير متناسق وأخرق. وحتى السبعة عشر عاماً من عمره كلها، خُيِّل إليه أنها تثير الضحك.

(ولكن لا، ليس كذلك). هذا ما كانت الفتاة التي تقف في تلك اللحظة خلفه، سوف تقول له بعد سنتين. وفكر برونو. إنه زمن طويل لأنه لا يقاس بالأشهر ولا بالسنوات، وإنما ـ باعتباره يخص هذا النوع من المخلوقات ـ يقاس بنكبات روحية، وبأيام عزلة مطلقة وتعاسة لا توصف. أيام تطول وتتشوه كأشباح قاتمة على جدران الزمن. (ولكن لا يمكن أن يكون كذلك أبداً).

كانت تتأمله كما يتأمل رسام (موديله)، بينما تمتص لفافتها الخالدة بانفعال.

كانت تقول:

(انتظر).

وتقول:

(أنت أكثر من فتى طيب).

(أنت مثير للاهتمام وعميق، ثم إن شكلك غريب).

ـ نعم بالطبع.

كان مارتين يجيب وهو يبتسم بمرارة بينما يفكر (ها إنك ترين إنني على حق)، ويستطرد:

ـ لأن ذلك كله يقال لمن لا يكون فتى طيباً، وكل ما عداه ليس له أي أهمية.

وكانت تردد بحدة:

(ولكن قلت انتظر).

(إنك طويل ونحيل كإحدى شخصيات «الغريكو»[1]).

همهم مارتين.

فاستطردت ساخطة (ولكن اسكت) وكأنها عالم يُقاطع، أو يُسترعى انتباهه إلى أمرٍ تافه في اللحظة التي يكون فيها على وشك التوصل إلى المعادلة النهائية التي طالما تاق إليها. ثم أضافت بعد أن قطّبت حاجبيها، وهي تمتص اللفافة بنهم كعادتها عندما تمعن في التفكير:

ولكن، أتعرف: كأنك تنتهك فجأة مشروعاً للتصوف الإسباني، فتفجِّر هاتان الشفتان الشهوانيتان كوامن الإثارة في أعماقك. ثم، لديك هاتان العينان الرطبتان. صه، فأنا أعرف أنه لا يروق لك كل ما أقول. ولكن دعني أكمل. أعتقد أن النساء لا بد وأن يجدن فيك ما يجذبهن

(1) الـ «غريكو» رسام إسباني (1541 ـ 1614)م يوناني الأصل تميز أسلوبه باستطالة وجوه شخصياته وغرابة إضاءتها، إلى جانب واقعية تكوينها. في أعماله نبرة صوفية واتقاد روحي (المترجم).

إليك، رغم كل ما تفترض. نعم، ملامحك أيضاً، خليط من الطهارة والكآبة، والشهوانية المكبوتة. ولكنك أيضاً.. انتظر لحظة.. في عينيك تحت هذا الجبين الذي يبدو كشرفة بارزة، شوق ما. ولكن لست أدري إن كان هذا هو كل ما يستهويني فيك. أظن أنه شيء آخر.. هو روحك التي تسيطر على جسدك، كما لو أنك في موقف ثابت دوماً. حسناً، لعل الإعجاب ليس هو الكلمة المناسبة. لعلك تفاجئني أو تدهشني. أو تثيرني، لا أعلم.. روحك تحكم جسمك مثل ديكتاتور صارم.

«كأنك بولص الثاني عشر يقوم على حراسة ماخور. هيا، لا تغضب فإني أعلم أنك مخلوق ملائكي. ثم، كما أقول لك، لست أدري إن كان هذا هو ما يستهويني فيك أم أنه أشد ما يثير كراهيتي».

بذل جهداً كبيراً كي يبقي نظرته مركزة على التمثال. قال إنه شعر في تلك اللحظة بأنه خائف ومفتون. خائف من أن يلتفت، وتفتنه الرغبة في أن يفعل ذلك. تذكر أنه بينما كان مرة في شعاب «هوماواكا» على حافة شلال «حنجرة الشيطان»[1] يتأمل الهاوية السوداء تحت قدميه، حفزته فجأة قوة لا تقاوم كي يقفز إلى الجانب الآخر. حدث له الآن ما يشابه ذلك، كمن يشعر بأنه مدفوع إلى أن يقفز عبر هاوية مظلمة. (نحو الجانب الآخر من وجوده). فقد أجبرته تلك القوة اللاواعية التي لا تقاوم على أن يدير رأسه.

ما إن لمحها حتى أعرض عنها بسرعة، ليعلق نظرته على التمثال. كان يخشى المخلوقات البشرية. كانت تبدو له طارئة، بل يخالها شريرة وقذرة أيضاً، بينما كانت التماثيل تمده بسعادة هادئة، ويخالها تنتمي إلى عالم منتظم، جميل ونظيف.

(1) حنجرة الشيطان ـ شلال كبير من شلالات ايغواسو التي تقع في الشمال الشرقي من الأرجنتين في منطقة الحدود مع البرازيل (المترجم).

ولكنه لم يتمكن من رؤية التمثال: كان لايزال يحتفظ بالصورة العابرة لتلك الفتاة المجهولة، البقعة الزرقاء على تنورتها، سواد شعرها الطويل المنسدل، شحوب وجهها، محياها الذي لا يحيد عنه. كانت كلها تكاد تكون بقعاً، مخطط رسام، بلا أي تفاصيل تدل على عمر محدد، أو شكل معين. لكنه كان يعلم ـ كرر التعبير ـ أن أمراً بالغ الأهمية قد حدث في حياته: ليس بسبب ما رآه وحسب، إنما بسبب الوحي الجبار الذي تلقاه بصمت.

ـ لقد قلت لي يا سيد «برونو» مراراً، إنه لا تحدث دوماً أمور ذات بال، وإنه لا يكاد يحدث شيء أبداً. رجل يعبر مضيق «الدردنيل»، سيد يتسنم سدة الرئاسة في النمسا، الوباء يجتاح منطقة في الهند، ولا شيء ذو أهمية. قلت لي إن ذلك فظيع ولكنه كذلك. لكنني شعرت في تلك اللحظة بوضوح، أن أمراً قد حدث، أمراً سوف يغير مجرى حياتي.

لم يتمكن من معرفة ما مضى من الوقت تماماً، لكنه يتذكر أنه شعر بعد مدة بدت طويلة جداً أن الفتاة نهضت ثم مضت، وبينما كانت تتوارى، تأملها: كانت طويلة القامة، تحمل كتاباً في يسراها وتسير بعزم وعصبية، نهض مارتين، ومن دون أن يعي ماذا يفعل، بدأ يسير خلفها. ولكنه ما إن وعى فجأة ما كان يحدث، وتصور أنها يمكن أن تلتفت وتراه يتبعها، حتى وقف مذعوراً، ثم رأى كيف كانت تبتعد في شارع البرازيل باتجاه شارع بالكارسي.

وسرعان ما اختفت عن ناظريه.

عاد ببطء إلى مقعده ثم جلس.

لكنه قال له: عندئذ لم أكن الشخص الذي كُنْتُهُ من قبل. ولن أعود لأكون ذلك الإنسان أبداً.

2

إنقضت أيام قلق كثيرة لأنه كان ***يعلم*** أنه سيراها ثانية، كان واثقاً بأنها ستعود إلى المكان ذاته.

لم يكن يشغله في ذلك الوقت سوى التفكير في الفتاة المجهولة، وكان يجلس عصر كل يوم على ذلك المقعد، يخالجه مزيج من ذلك الخوف والأمل.

حتى قرر في أحد الأيام ـ بعد أن فكر أن الأمر كله ليس سوى هراء ـ أن يذهب إلى حي «لابوكا»، بدلاً من أن يهرع بحماقة، إلى مقعده في حديقة «ليساما». وكان قد وصل إلى شارع «ألميرانتي براون» عندما بدأ يسير من جديد باتجاه المكان المعتاد. تمشى في البدء ببطء خجلاً، كأنه متردد، ثم بدأ يجدُّ في السير مسرعاً، حتى راح يركض، كأنه يخشى أن يتأخر عن موعد متفق عليه من قبل.

نعم، كانت هناك. رآها من بعيد تتجه نحوه.

توقف مارتين، وهو يحس كيف كان قلبه يخفق بشدة.

تقدمت الفتاة نحوه. وعندما أصبحت بجانبه، قالت له:

كنت أنتظرك.

شعر مارتين أن رجليه تتداعيان.

سألها وقد تضرج محياه:

ـ تنتظرينني..؟

لم يجرؤ على النظر إليها، إنما استطاع أن يلاحظ أنها كانت ترتدي سترة سوداء، ذات ياقة عالية، وتنورة سوداء أيضاً، أو لعلها كانت زرقاء، شديدة الزرقة (لم يستطع أن يميز ذلك تماماً، وفي الواقع ليس للأمر أي أهمية). خيل إليه أن عينيها سوداوان..

- العينان سوداوان..؟ تساءل برونو.

لا طبعاً: هكذا خُيل إليه. وعندما رآها ثانية، فوجئ بأن عينيها كانتا شديدتي الخضرة. لعل ذلك التصور الأولي كان يعود إلى الضوء الخافت، أو إلى الخجل الذي لم يمكّنه من النظر إلى وجهها، أو ربما إلى السببين معاً. وتمكن من أن يلاحظ أيضاً، عندما التقاها ثانية، أن ذلك الشعر الطويل المنسدل، الذي حسبه أسود فاحماً، كان في الواقع مخضباً بالحمرة. ثم راح فيما بعد، يكمل وصف صورتها: كانت شفتاها مكتنـزتين، وفمها كبير، ربما كبير جداً، فيه بعض التلافيف عند أسفل المبسم، توحي بالمرارة والأنفة.

وكان برونو يقول في دخيلته: «يصف لي أنا محياها، وتجاعيد فمها» وفكر أن تلك التجاعيد التي تنم عن الإباء، وذلك الوميض المظلم في عينيها كانا بالتأكيد، ورغم كل شيء، ما يميز وجه أليخاندرا عن وجه «خورخينا» التي كان قد أحبها حقاً. لأنه الآن قد أدرك، أنها هي التي أحبها فعلاً، وعندما ظن أنه يحب أليخاندرا، كان في الواقع يبحث عن أمها، مثل رهبان العصور الوسطى الذين يحاولون فك رموز نص بدائي، تحت الترميمات وتحت الكلمات الممسوحة والمستبدلة. وقد كانت تلك الحماقة هي سبب تشتته المحزن بحضور أليخاندرا، حيث يراوده أحياناً الشعور نفسه الذي يمكن أن يشعر به المرء حين يصل إلى دار الطفولة بعد غياب سنوات عديدة، وحين يفتح باباً في الليل، يجد نفسه أمام جدار. لا شك أن وجهها كاد يكون، إلى حد بعيد، وجه خورخينا: شعرها

المخضب بالحمرة هو ذاته، وكذلك عيناها الرماديتان اللتان تخالطهما الخضرة، وفمها الكبير، ووجنتاها المنغوليتان، وبشرتها الشاحبة المكمدة. ولكن عبارة «كاد» تلك، كانت فظيعة، فبقدر ما كان الشبه كبيراً، كان خفياً ومجرداً، وكان الخداع عميقاً ومؤلماً. وفكر، أن العظم واللحم وحدهما لا يكفيان لبناء محيا، ولذلك فإن الوجه «أقل مادية»، من الجسد إلى حد كبير جداً: فهو يوصف بالنظرة وبيسمة الفم، وبالتقاطيع، وبكل تلك المجموعة من الصفات الخفية التي تتجلى فيها الروح عبر اللحم. ولهذا، ما إن يموت المرء حتى يتحول جسمه فجأة إلى شيء مختلف تماماً، مختلف إلى حد يمكننا معه أن نقول (لا يبدو إنه الشخص ذاته) وإن بقيت عظامه كما هي، وبقيت كذلك المادة التي كان، منذ لحظات خلت، يتكون منها، قبل تلك اللحظة الغريبة التي تنسلّ فيها الروح من الجسد وتخلّفه ميتاً، مثل دار خلّفها قاطنوها إلى الأبد، وبخاصة أولئك الذين تألموا في ربوعها، و أحبوا في أرجائها. فليست الجدران، ولا السقف، ولا الأرض، هي ما يميّز الدار عن سواها، وإنما تلك المخلوقات التي تقطنها وتغنيها بالحياة عبر أحاديثها وضحكاتها وحبها وكراهيتها، وتضفي عليها شيئاً، ليس مادياً تماماً، ولكنه عميق، شيئاً قلّ ما تخالطه المادة، كأنه بسمة على محيا، وإن كان يتجلى عبر أشياء مادية، كالسجّاد، والكتب والألوان. فاللوحات التي نشاهدها معلقة على الجدران، والألوان التي طليت بها الأبواب والنوافذ، ورسوم السجّاد والأزهار التي نجدها في الغرف، والأسطوانات والكتب، هي كلها، وإن كانت أشياء مادية (مثلها مثل الشفاه والحواجب التي تنتمي إلى اللحم) لكنها مع ذلك تجليات الروح التي لا يمكن أن تظهر أمام أعيننا المادية إلا عبر المادة. وهذا أحد مظاهر عدم ثبات الروح، وهو في الوقت ذاته مظهر خفي عجيب.

سأل برونو:

ـ كيف، كيف؟

قال مارتين إن أليخاندرا قالت له:

(جئت لأراك).

جلست على العشب. ولا بد أن دهشة بالغة بدت على وجه مارتين عندما سمع تلك العبارة، لأن الفتاة أردفت تقول:

ـ ألا تؤمن بالتخاطر..؟ سيكون أمراً غريباً ألا تفعل، لأن هيئتك توحي به، عندما رأيتك منذ أيام على المقعد، كنت أعلم أنك لا بد أن تلتفت. ألم يكن الأمر كذلك؟ حسناً، وكنت الآن، متأكدة أيضاً من أنك ستتذكرني.

لم ينبس مارتين ببنت شفة. كم تكررت مثل تلك المشاهد: هي تحزر ما يجول في خاطره، وهو يصغي إليها بصمت!.. كان يخالجه شعور حقيقي بأنه يعرفها، شعور كالذي نحس معه أحياناً بأن إنساناً رأيناه في حياة ماضية. شعور يشبه الحقيقة، مثلما يشبه حلم وقائع عالم اليقظة. وكان لا بد أن يمر زمن طويل قبل أن يدرك لماذا كان يخال أنه يعرف أليخاندرا على نحو غامض. ***وعندئذ عاد برونو يبتسم في سره.***

تأملها مارتين مبهوراً: شعرها الأسود الداكن فوق بشرتها الكامدة الشاحبة، وجسمها الطويل بتقاطيعه البارزة، كان فيها ما يذكّره بالعارضات اللواتي يظهرن في مجلات الأزياء، لكنها كانت توحي، في الوقت ذاته، بقسوة وعمق لا يتوفران في ذلك الصنف من النساء. قليلاً، بل نادراً ما كان يرى فيها أثراً من آثار الرقة، أو من تلك الآثار التي تعتبر من الصفات المميزة للمرأة، وللأم بخاصة. كانت ابتسامتها فظة وساخرة، وضحكتها عنيفة، وكذلك حركاتها وسلوكها عموماً: قالت

له في أحد الأيام (عانيت الكثير كي أتعلم كيف أضحك ولكني لم أضحك من أعماقي قط).

واسترسل مارتين يقول، وهو ينظر إلى برونو بنهم يظن العاشقون أنه كفيل بأن يجعل الآخرين يقدرون صفات المخلوق الذي يحبونه حق قدرها: ولكن، ألم يكن الرجال، وحتى النساء، يستديرون مشدوهين كي يرونها؟

وبينما كان برونو يومئ موافقاً، ويبتسم في أعماقه لما ينطوي عليه ذلك التعبير الساذج من اعتزاز، فكر أن الأمر كذلك حقاً، وأن أليخاندرا كانت دائماً، وأينما ذهبت، تثير انتباه الرجال والنساء أيضاً، وإن كانت الأسباب مختلفة، فهي لم تكن تطيق رؤية النساء، كانت تمقتهن وتؤكد أنهن جنس منحط، كما كانت تؤكد أنها تستطيع أن تقيم صداقات مع بعض الرجال فقط. والنساء من جهتهن، كن يمقتنها بشدة أيضاً، ولأسباب معكوسة، لكن أليخاندرا كانت تقابل ذلك بإباء ولا مبالاة. ورغم أنهن كن يكرهنها، لكنهن كن في سرهن يعجبن بتلك الصورة التي كان مارتين يصفها بالغريبة، والتي كانت في الواقع أحد مفارقات كونها أرجنتينية، فمثل تلك الوجوه مألوفة في بلدان أمريكا الجنوبية حيث يمتزج لون إنسان أبيض ومعالمه، مع وجنات الهندي الأحمر وعيونه المنغولية، ولقد كانت تلك العيون العميقة القلقة، وذلك الفم الكبير الأبي، وهذا المزيج من المشاعر والعواطف المتناقضة التي تنم عنها ملامحها (من قلق وضجر، من عنف وشرود، من شهوانية طاغية وضرب من اشمئزاز عام ومتأصل)، تضفي عليها مسحة لا يمكن أن تنسى.

وقال مارتين أيضاً إنه حتى وإن لم يكن قد حدث شيء بينهما، وحتى لو أنه رآها، أو تكلم معها حول أتفه الأمور، في مناسبة واحدة

فقط، لما استطاع أن ينسى وجهها ما دام حيًّا. وكان برونو يفكر أن ذلك صحيح، إذ إنها تفوق حد الروعة. أو بالأحرى كان يستحيل الجزم بأنها فائقة الجمال وحسب. كانت شيئاً مختلفاً، لأن جاذبيتها للرجال هائلة كما يلاحظ من يسير بجانبها. كانت نظراتها تتسم بالشرود والتركيز معاً كأنها مستغرقة في تأمل أمر منغص، أو كأنها تنظر إلى داخلها. وكان من المؤكد أن من يصادفها، كائناً من كان، لا بد أن يتساءل: من تكون هذه المرأة؟ وعم تبحث؟ وبماذا تفكر..؟

كان ذلك اللقاء الأول بالنسبة إلى مارتين حاسماً. فقد كان يعتقد حتى تلك اللحظة أن النساء، إما عذراوات طاهرات وبطلات أساطير، وإما مخلوقات سطحية تافهة، ثرثارة وقذرة، أنانية ودجالة، غدارة ودنيئة («كأم مارتين»، فكر برونو، أن مارتين، كان يفكر.) وفجأة وجد نفسه أمام امرأة لا تنتمي إلى أي من هذين القالبين، اللذين كان يعتقد، حتى ذلك اللقاء، أنهما وحيدان. بقي مدة طويلة حزيناً ينغص حياته ذلك الاكتشاف الجديد: هذا الصنف الطارئ من النساء الذي يبدو أنه ينطوي على بعض فضائل الطراز البطولي، الذي كثيراً ما كان يستهويه في قراءات المراهقة من جهة، وينم من جهة أخرى، عن تلك الشهوانية التي كان مارتين يعتقد أنها وقف على صنف النساء السطحي التافه الذي يمقته. وحتى ذلك الحين ـ بعد أن ماتت أليخاندرا التي ربطته بها علاقات حميمة ـ لم يتمكن من تكوين رأي واضح حول ذلك اللغز الكبير. لقد اعتاد أن يتساءل عما كان بوسعه أن يفعل في ذلك اللقاء الثاني لو أنه تنبأ آنذاك بما كشفته الأحداث فيما بعد، عن حقيقة أليخاندرا. هل كان يهرب..؟

نظر إليه برونو بصمت (نعم، ماذا كان بوسعه أن يفعل..؟)

ونظر إليه مارتين باهتمام بالغ أيضاً، ثم قال بعد لحظات:

لقد تألمت معها كثيراً، حتى وصل بي الأمر مرات عديدة إلى حافة الانتحار.

(ولكن، مع ذلك، وحتى لو كنت أعلم مقدماً كل ما حدث لي فيما بعد، لهرعت إليها).

وفكر برونو: (طبعاً، وأي إنسان آخر سواء كان يافعاً أو بالغاً، مغفلاً أو ذكياً، ألا يفعل الشيء ذاته؟).

وأضاف مارتين:

كانت تسحرني كهاوية مظلمة، وإن كنت أشعر بالقلق، فما ذلك إلا لأنني أحبها وأحتاج إليها. كيف يمكن أن يقلقنا أمر لا نحفل به.؟

استغرق في التفكير مدة، ثم عاد إلى هاجسه: كان يُصرُّ على أن يتذكر (على محاولة أن يتذكر) اللحظات التي كان يقضيها معها، مثلما يكرر العاشق قراءة رسالة الحب القديمة التي يحتفظ بها في جيبه، عندما يكون الإنسان الذي كتبها قد رحل إلى الأبد. والذكريات أيضاً مثل الرسالة، تأخذ بالتصدع. تدركها الشيخوخة، وتضيع منها جمل كاملة في طيات النفس، ويأخذ الحبر بالزوال، وتزول معه كلمات رائعة وفاتنة كانت تخلق السحر. وإذاً كان لا بد من إعمال الذاكرة، كمن يدقق النظر ويقربه من الفجوات والأوراق المصفرة. نعم ـ نعم: هي التي سألته أين يقطن، بينما كانت تقتلع نبتة من الأرض، ثم تضعها في فمها وتلوك ساقها (واقعة كان يتذكرها بوضوح). وسألته فيما بعد مع من يعيش، فأجاب، مع أبيه. ثم، بعد لحظة تردد، أضاف يقول: إنه يعيش مع أمه أيضاً. وسألته أليخاندرا عندئذ «ماذا يفعل والدك؟». لم يجب عن سؤالها فوراً، إنما قال بعد لأيٍ إنه يعمل رساماً. ولكن عندما نطق كلمة «رسام» كان صوته قد استرعى انتباهها مثلما تسترعي انتباه الناس حتماً مشية

امرئ يسير على سطح من زجاج. وكانت أليخاندرا قد لاحظت أن أمراً غريباً خالط تلك العبارة، لأنها مالت نحوه، وراحت تتأمله.

قالت:

ـ لقد تضرج وجهك.

وسأل مارتين:

.. أنا ؟.

وكما يحدث في مثل تلك الحالات فقد احمر وجهه أكثر من ذي قبل.

وألحفت، بينما ساق، النبتة معلق في فمها:

ـ ولكن، ماذا أصابك..؟

ـ لا شيء، وماذا سيصيبني..؟

خيم الصمت مدة، ثم عادت أليخاندرا تستلقي على ظهرها فوق العشب، وتستأنف مضغ ساق النبتة. وبينما كان مارتين يشاهد معركة سفن قطنية تشكلها الغيوم في السماء، فكر أنه لا ينبغي أن يخجل من فشل والده.

تناهى إلى الأسماع صوت صفارة سفينة من رصيف الميناء، وفكر مارتين أنها قد تكون ***مرجان البحر أو جزر الماركيز***. لكنه قال:

ـ أليخاندرا. إنه اسم غريب.

سألته:

ـ وأمك؟

جلس مارتين، وبدأ يقلع بعض الأعشاب من الأرض. عثر على حصاة وبدا كأنه يتفحص طبيعتها كجيولوجي.

ـ ألا تسمعني؟

- بلى.

- سألتك عن أمك.

أجابها، إنها بالوعة.

استوت أليخاندرا قليلاً واتكأت على مرفقها وراحت تنظر إليه باهتمام. وبينما كان يتفحص الحصاة صامتاً، وفكاه مشدودان وهو يفكر، ***بالوعة أم بالوعة***، أردف قائلاً:

- كنتُ عثرة دائماً، منذ أن ولدْتُ.

شعر كأن غازات سامة نتنة تُحقن في أعماق نفسه بقوة ضغط هائلة، وأن جسمه، بعد سنوات الاحتقان الطويلة، لم يعد يحتمل أو يستوعب، ويهدد بالانفجار، ثم بتسرب القذارة وسيلانها من بين شقوقه في أي وقت.

- تصرخ دائماً: تباً لي، لماذا أهملت..!

وبينما كانت أليخاندرا تتأمله وقد استلقت متكئة على مرفقها، كان يفكر ***وكأن قذارة أمه كلها تتراكم في نفسه وتضغط عليها بشدة***، وبدأت عبارات مثل: ***جنين، حمام، دهون، بطن، إجهاض***، تطفو في ذهنه، ذهن مارتين، كبقايا روث لزج يثير الاشمئزاز تظهر فوق سطح ماء آسن ونتن. ثم أضاف يقول، كما لو أنه يحدِّث نفسه، إنه كان يعتقد خلال زمن طويل، أن أمه لم ترضعه بسبب نقص حليبها، إلى أن صرخت في وجهه ذات يوم قائلة، إنها لم تفعل ذلك كي لا تشوه نهديها، وأنها تحملت كل ما في وسعها كي تجهض ولم تتردد سوى أمام عملية التجريف، لأنها كانت تمقت الألم بقدر ما كانت تحب السكاكر والحلويات وقراءة مجلات الإذاعة وسماع الموسيقى الإيقاعية، رغم أنها كانت تقول أيضاً، إنها تحب الموسيقى الجادة، و«فالسات» فيينا، والأمير

«كالندر»، التي لم يَعُدْ لها وجود، لسوء الطالع. وهكذا يمكن للمرء أن يتصور أي سعادة تلك التي استقبلته بها، بعد أن جاهدت طيلة شهور وهي تنطّ على الحبل كالمصارعين وتسدد الضربات إلى بطنها. ولهذا السبب (كانت أمه تقول له وهي تصرخ) ولد شبه معتوه، والمعجزة أن مصيره لم يكن في البالوعة.

صمت وتفحص الحصاة ثانية، ثم طوح بها بعيداً، وأضاف:

ـ ولعل هذا هو السبب الذي يجعل كلمة بالوعة تحضرني عندما أفكر فيها.

ثم عاد يطلق تلك الضحكة.

نظرت إليه أليخاندرا وقد أدهشها أن مارتين لا يزال بعدُ قادراً على أن يضحك. ولكنها ما إن رأت دموعه حتى أدركت أن ما كانت تسمعه لم يكن ضحكاً، وإنما كان (كما أكد برونو) ضرباً من صوت غريب يصدر عن المخلوقات البشرية في مناسبات نادرة جداً، ويحار المرء ـ ربما بسبب عجز اللغة واضطرابها ـ في إدراك كنهه، أهو ضحك أم بكاء. إنه حصيلة خليط هائل من وقائع مؤلمة تثير البكاء (وحتى بكاء الحزن والأسى)، ومن أحداث ساخرة تبعث الرغبة في تحويل البكاء إلى ضحك، فينجم ذلك التعبير الهجين المريع، الذي قد يكون أفظع ما يصدر عن مخلوق بشري، ولعل هذا المزيج المعقد، بما يثيره في النفس من مشاعر، يشبه إلى حد بعيد ما نشعر به عندما نلتقي أحدبَ أو مشوهاً، ويجعل من الصعب علينا مواساة ذلك المخلوق. لقد تراكمت آلام مارتين منذ الطفولة، بعضها فوق بعضها الآخر، حتى باتت كحمل ثقيل يزداد وزنه، ويختل توازنه باستمرار (ويثير السخرية أيضاً)، الأمر الذي جعله دائماً يلتزم الحذر في تحركه، ويسير، مثل بلهوان، على حبل

مشدود فوق هاوية، ينوء بحمل ثقيل نتن من القمامة والقاذورات، تجثم فوقه قرود صخّابة، وأقزام مهرجة تثرثر جميعاً وتتدافع باستمرار، في حين يركز هو كل اهتمامه، لكي يتسنى له عبور تلك الهاوية، هاوية وجوده المظلم، رغم ما تثيره تلك الجوقة من البهائم، فوق حمل القمامة والقاذورات الذي ينوء به ظهره، من ضجيج مريع وصراخ مهين وهزء وسخرية. لا ريب أن هذا الاستعراض الذي يثير في نفوس المشاهدين (برأيه) مشاعر هي مزيج من الأسى البالغ والبهجة المهَوِّلة، مشهد مأساوي وهزلي، لم يكن مارتين يشعر معه بأن من حقه أن يستسلم إلى مجرد البكاء في مواجهة مخلوق «كأليخاندرا»، مخلوق يبدو أنه كان ينتظره منذ قرن، ففكر بأن الواجب المهني للمهرج، وهو من يقع على عاتقه عادة العبء الأكبر من المأساة، يحتم عليه أن يحول ذلك البكاء إلى نشيج مضحك، غير أنه بقدر ما كان يبوح بتلك العبارات القليلة، العصية على فهم أليخاندرا، كان يشعر بالانعتاق، وفكر للحظات بأن نشيجه المضحك يمكن أن يتحول في النهاية إلى بكاء حنون، إذا ما ارتمى فوق صدرها، وكأنه قد تمكن في نهاية المطاف، من عبور الهاوية بسلام. هكذا كان يجب أن يفعل، هكذا كان يود أن يفعل، ولكنه يا إلهي لم يفعل..! فهو، ما كاد يميل برأسه نحو صدرها، حتى استدار مشيحاً عنها بوجهه، لكي يخفي دموعه.

3

ولكن بعد انقضاء سنوات، عندما كان مارتين يتحدث مع برونو عن ذلك اللقاء، كان كل ما تبقى منه جملاً مبعثرة، ذكرى عبارة، لمسة حنان، وصفارة ذلك المركب المجهول الكئيبة: كأنها أجزاء أعمدة محطمة، وإن استقر في ذاكرته شيء، فقد كان ـ ربما بسبب ما اعتراه من دهشة ـ عبارة قالتها أثناء ذلك اللقاء وهي تنظر إليه باهتمام:

لدينا، أنت وأنا، شيء مشترك، شيء يتسم بأهمية كبيرة.

بوغت مارتين وهو يصغي إلى تلك الكلمات، فما الذي يمكن أن يكون مشتركاً بينه وبين ذلك الكائن الغريب؟

ثم قالت أليخاندرا إنها يجب أن تذهب، ولكن ستحدثه في مناسبة أخرى عن أمور كثيرة، وما بدا لمارتين أنه بالغ الغرابة، قولها إنها ***بحاجة*** إلى الحديث معه.

عندما افترقا، نظرت إليه ثانية، كما لو أنها طبيب ينظر إلى مريضه، وأضافت بضع كلمات، كان مارتين يتذكرها دائماً:

ـ ورغم اعتقادي بأنني يجب ألاّ أراك أبداً، لكن سأراك لأنني بحاجة إليك.

ما يقلقه كان مجرد فكرة، بل مجرد إمكانية، ألاّ تراه تلك الفتاة ثانية. وماذا يعنيه ما قد يكون لدى أليخاندرا من أسباب لكي تود رؤيته؟ ما كان يتوق إليه هو رؤيتها وحسب.

ورد بحماسة:

ـ دائماً، دائماً.

ابتسمت ثم أجابته:

ـ نعم، لأنك هكذا فأنا بحاجة إلى أن أراك.

وفكر برونو أن مارتين كان ما يزال بحاجة إلى سنين عديدة لكي يدرك ما يمكن أن تنطوي عليه تلك الكلمات الغامضة من معنى. وفكر أيضاً، أنه لو كان في تلك الأثناء أكبر عمراً، وأكثر خبرة، لأدهشته كلمات كتلك، تقولها ابنة ثمانية عشرة ربيعاً، ولكنها أيضاً، سرعان ما كانت ستبدو له طبيعية، لأن الفتاة ولدت ناضجة، أو أنها، بمعنى ما، قد نضجت في طفولتها، غير أنها من نواح أخرى، كانت توحي بأنها لن تنضج أبداً، وكأنها طفلة لا تزال تلعب بدُمَاها، وتتمتع، في الوقت ذاته، بما لدى الشيوخ من خبرة هائلة؛ وكما لو أن أحداثاً فظيعة كانت تدفع بها بشدة نحو النضوج، ثم نحو الموت، من دون أن يتوفر لها من الوقت ما يُمكّنها من التخلص من جميع خصائص الطفولة والمراهقة.

ما إن افترقا، وما إن سارت بضع خطوات حتى تذكر، أو أدرك أنهما لم يتفقا على موعد اللقاء، ولما استدار ليركض نحوها كي يذكّرها أجابته:

ـ لا تقلق، سأعرف دائماً كيف أجدك.

ولكن مارتين لم يفكر في تلك الكلمات الغريبة، ولم يجرؤ على الإصرار، بل عاد من حيث أتى.

4

بعد ذلك اللقاء انتظر رؤيتها في الحديقة يوماً بعد يوم. ثم أسبوعاً بعد أسبوع. وأخيراً استولى عليه القنوط أشهراً طويلة. ماذا جرى لها؟ لماذا لم تأت؟ هل أصيبت بمرض؟ لم يكن يعرف حتى اسمها كاملاً. يبدو كأن الأرض قد ابتلعتها، كان ـ آلاف المرات ـ ينحي باللائمة على بلادته، لأنه لم يسألها حتى عن اسمها الكامل. لم يكن يعرف أي شيء عنها. وكانت تلك حماقة بالغة لا تطاق. ووصل به الأمر حد الريبة بأن كل شيء كان وهماً أو حلماً. ألم يكن قد استسلم للنوم أكثر من مرة على المقعد في حديقة «ليساما»..؟ يمكن أن يكون ذلك قد تجلى له في حلم بلغ من القوة حداً جعله يعتقد ـ فيما بعد ـ أنه عاشه في الواقع. ولكنه نحّى تلك الفكرة جانباً، لأنه التقاها مرتين. ثم فكر ملياً بأن هذا الأمر لا يتعارض مع الحلم أيضاً، فقد يكون التقاها في الحلم ذاته مرتين.

لم يكن قد احتفظ بأي أثر منها يعينه على الخروج من دوامة الشك الذي يحيق به، لكنه في النهاية، اقتنع بأن ما حدث كان حقيقة، وأن جل ما في الأمر هو أنه، بكل بساطة، كان الإنسان الأبله، الذي يتصوره دائماً.

تألم في البدء كثيراً وهو يفكر فيها آناء الليل وأطراف النهار، حاول أن يرسم صورة وجهها فلم يوفق، لأنه لم يجرؤ في ذينك اللقاءين على النظر إليها جيداً إلا للحظات معدودات، ولذلك كانت رسومه محيرة لا

حياة فيها، وتشبه الكثير من الصور التي حاول مرات عديدة أن يرسمها للعذراوات المثاليات الأسطوريات اللواتي كان متيماً بهن، ولكن على الرغم من أن مخططات رسومه كانت ممسوخة، وغير واضحة المعالم، فإن ذكرى اللقاء كانت على جانب من القوة، شعر معه بأنه كان يلتقي إنساناً شديد البأس، بارز التقاطيع، تعيساً ووحيداً مثله. ومع ذلك فإن الوجه كان يتلاشى بين ظلال واهية، وكان يبدو، كما لو أن تجسيداً مادياً مبهماً لشبح، يضرب فجأة بضع ضربات واضحة على منضدة، في جلسة تحضير أرواح.

وعندما كان أمله يكاد يتلاشى، كان يتذكر العبارتين أو الثلاث التي باحت بها أثناء اللقاء: (أعتقد أنني يجب ألا أراك أبداً، إنما سأراك لأنني بحاجة إليك) و(لا تقلق، سأعرف كيف أجدك دائماً).

عبارات، فكر برونو، أن مارتين ينظر إليها بإعجاب، من زاوية مؤاتية، وكأنها مصدر سعادة لا ينضب، من دون أن يدرك آنذاك، كل ما كانت تنطوي عليه من أنانية.

وقال مارتين إنه كان يفكر في ذلك الحين أنها فتاة غريبة الأطوار. ولماذا كان يتعين على مخلوق مثلها أن يراه في اليوم التالي أو الأسبوع المقبل؟ ولماذا لا يمكن أن تنقضي أسابيع، وحتى أشهر، من دون أن تحتاج إلى لقائه؟ كانت هذه الأفكار تبعث في نفسه الدفء. ولكنه فيما بعد، في لحظات اليأس، كان يقول: (لن أراها أبداً، لقد ماتت، لعلها انتحرت، كانت تبدو يائسة وقلقة). ثم يتذكر حينئذ خواطره عن الانتحار. ولماذا لا تكون أليخاندرا قد اجتازت ظروفاً مشابهة؟ ألم تقل له بصورة واضحة إنهما متشابهان، وإن شيئاً مشتركاً يجمع بينهما؟.. أوليس الهوس بالانتحار هو ما كانت تعنيه عندما كانت تتحدث عن التشابه بينهما؟ لكنه فيما بعد، كان يفكر بأنها، حتى لو كانت تود

الانتحار، لأنه تبحث عنه قبل ذلك، وخطر له أنها إن لم تفعل، لكان ذلك ضرباً من الغدر، لا يمكنه أن يتصور أن يصدر عنها.

يالتلك الأيام الموحشة التي مرت عليه وهو في ذلك المقعد في الحديقة ما أطولها..! مر الخريف كله، ثم حل الشتاء. انقضى الشتاء وبدأ الربيع (كان يظهر للحظات مقروراً هَروباً، كمن يطل ليرى كيف تسير الأمور، ثم يمكث شيئاً فشيئاً بتصميم أشد، وفي كل مرة يحل زمنها أطول.) وراح النسغ ينساب في الأشجار تدريجياً ليزيدها دفئاً وحيوية، وأخذت البراعم تتفتح، وما إن انقضت أسابيع قليلة حتى انسحبت بقايا الشتاء من حديقة «ليساما»، نحو مناطق قصية أخرى من هذا العالم.

ووصلت بعد ذلك طلائع موجات حرارة كانون الثاني/ يناير[1]. وعمت البهجة. واكتست شجيرات «لاس تيبّاس» حلّة من الأزهار البرتقالية.

ثم جفت الأزهار وتساقطت، وبدأت طلائع رياح الخريف تعصف بالأوراق المصفرة. وحينذاك، قال مارتين، إنه فقد الأمل نهائياً في أن يراها ثانية.

(1) لا يخفى على القارئ أن كانون الثاني/ يناير، من أشهر الصيف في الأرجنتين، التي تقع في نصف الكرة الجنوبي ،حيث فصول السنة تكون عكس ما هي عليه في نصف الكرة الشمالي (المترجم).

5

"**الأمل**" في أن يراها ثانية، (فكر برونو بسخرية وكآبة). وقال في دخيلته أيضاً، أوليست آمال البشر كلها مثيرة للسخرية؟ فإننا، كما هي حال هذا العالم، نعلق آمالاً على حوادث، ما إن تقع، حتى تُخلِّف في نفوسنا خيبة الأمل والمرارة. ولذلك فإن المتشائمين يُجنّدون مع قدماء المتفائلين، لأن المرء قبل أن يكوّن نظرة سوداوية عن هذا العالم، لا بد أن يكون قد آمن به وبإمكاناته، ولكن الأمر الغريب، والمفارقة الغريبة، أن المتشائمين لا يصبحون آلياً وبصورة دائمة هكذا، بمجرد أن يصابوا بخيبة الأمل، وإنما يبدون، بشكل أو بآخر، استعداداً لتجديد أملهم في كل وقت، وإن واروا ذلك بفضل شيء من الحياء الغيبي، خلف ستار من مرارتهم الأبدية السوداء، وكما لو أن التشاؤم يحتاج ما بين حين وآخر إلى دفقة جديدة، من خيبة أمل جديدة وقاسية كي يحافظ على قوته واستمراريته.

ومارتين نفسه (كان يفكر وينظر إليه، وهو جالس هناك أمامه) مارتين ذاته ـ الذي يكمن التشاؤم في نفسه، مثله مثل أي مخلوق بالغ النقاء ومتأهب ينتظر شيئاً عظيماً من البشر بخاصة، ومن الإنسانية بعامة ـ ألم يحاول الانتحار بسبب تلك البالوعة أمه؟، ألم يعلن بوضوح أنه كان ينتظر شيئاً مختلفاً من تلك المرأة، شيئاً رائعاً بالتأكيد؟ ولكن (وهذا ما كان أشد غرابة) ألم يكن قد عاد بعد كارثة كهذه ليثق بالنساء عندما التقى أليخاندرا؟

والآن؛ فإن ذلك المشرد الصغير واحد من كثيرين ممن يعيشون في مدينة المشردين هذه، فهم، في بوينس أيرس، يتكاثرون كما يحدث في أنحاء أخرى في جميع المدن الضخمة الهائلة.

ولكن (فكر) إن ما يجري فعلاً هو أن أحداً لا ينتبه إليهم لأول وهلة، إما لأن قسماً كبيراً منهم لا يبدو عليهم أنهم متشردون، وإما لأنهم في كثير من الحالات لا يودون أن يظهروا كذلك، ولأن أعداداً كبيرة من البشر الذين يحاولون امتهان التشرد يساهمون إلى حد كبير في بلبلة المسألة، ويجعلون المرء، في نهاية المطاف، يحسب أنه ليس هناك مشردين حقيقيين فعلاً.

فلو أن رجلاً فقد ساقيه أو ذراعيه، كلنا، بطبيعة الحال يعلم، أو يحسب أنه يعلم، أن ذلك الرجل إنسان معاق بائس. وما إن ننتبه إليه ونتألم من أجله، ونشتري منه أمشاطاً لا نفع فيها، وصور (كارلوس غارديل[1]) الملونة، حتى يصبح بنظرنا أقل بؤساً. وعندئذٍ، فإن مُقطّع الأوصال هذا، الذي فقد ساقيه أو ذراعيه، لا يعود، كليّاً أو جزئيّاً، ذلك المتشرد الحقيقي الذي لا نزال نفكر فيه إلى الحد الذي يجعلنا فيما بعد نشعر بحقد أسود قد يطال الجمع الغفير من البائسين بؤساً حقيقياً مطلقاً ممن (لأنهم لا يتسمون بالجرأة والتصميم، وحتى روح العدوان التي يتسم بها بائعو الأمشاط والصور الملونة) يتألمون بصمت وأنفة رفيعة، ويندبون حظهم الذي جعل منهم بائسين حقيقيين.

كأولئك الرجال الصامتين الوحدانيين الذين لا يستجدون أحداً ولا يتكلمون مع أحد، بل يستغرقون في أفكارهم وهم جلوس على مقاعد

(1) كاولوس غارديل: أحد قدماء المغنين في الأرجنتين، اشتهر بغناء ألحان التانغو (المترجم).

حدائق المدينة وساحاتها الكبرى: بعضهم شيوخ (وهم بالتأكيد أكثر الناس بؤساً، ولذلك يكون اهتمامنا بهم، للأسباب ذاتها أقل من اهتمامنا ببائعي الأمشاط)، أولئك الشيوخ المتقاعدون، الذين يدبون على عكاكيزهم، ويشاهدون العالم يمر أمامهم كأنه ذكرى، أولئك الشيوخ الذين يتأملون، ولعلهم على طريقتهم، يطرحون المعضلات الكبرى التي طرحها كبار المفكرين عن المعنى العام للوجود، وعن ماهية كل شيء وغايته: زيجات، أولاد، سفن حربية، صراعات سياسية، أموال، ملوك، سباقات خيول أو سيارات؛ أولئك الشيوخ الذين تشرد أبصارهم، أو يخال المرء أنهم ينظرون إلى الحمائم التي تلتقط حبيبات الشوفان أو الذرة، أوإلى عصافير الدوري الناشطة، أو إلى مختلف أنواع الطيور التي تهبط فوق الساحة، أو تعشعش في أشجار الحدائق الكبرى. وبفضل تلك المزيّة البارزة التي يتسم بها عالم الاستغلال والهيمنة: بينما يُقدِمُ مصرفيّ على عقد أعظم الصفقات التي تمت بالعملات الصعبة في بلاد النهر الفضي (فيغرق بالإفلاس عَرَضَا مجموعة من شركات كذا، أو الشركة الضخمة المساهمة كذا)، يقوم عصفور على بعد مئة خطوة من المكتب الجبار بالقفز فوق عشب حديقة «كولون» يبحث عن قشة لعشه هنا، أو حبة قمح أو زيوان ضائعة هناك، أو حشرة ما، علّها تسد رمقه أو رمق فراخه؛ في حين تعيش على مسرح آخر أقل أهمية، بمنأى عن الجميع (ليس عن المصرفيّ العظيم وحسب، بل وعن عكازة المتقاعد البسيطة) كائنات بالغة الدقة، أشد غموضاً وخفاء، حياة مستقلة، ونشيطة جداً: ديدان، نمل (ليس الكبير منها والأسود وحسب، إنما الأحمر الصغير، وحتى المتناهي في الصغر الذي لا يكاد يرى) وأنواع من حشرات أخرى أقل أهمية، ذات ألوان متنوعة وعادات مختلفة جداً. تعيش تلك الكائنات كلها في

عوالم مختلفة، لا يكترث بعضها ببعض، باستثناء فترات الكوارث الكبرى، حين يشن الرجال المسلحون بالسموم والرفوش الحرب على النمل (حرباً نقول بالمناسبة ألاّ فائدة ترجى منها إطلاقاً، لأنها تنتهي دائماً بانتصار النمل)، أو حين يشن المصرفيون حروب النفط، حيث يتم القضاء بالقنابل والغازات على تلك الديدان الدقيقة التي كانت حتى تلك اللحظة، تعيش فوق المروج الخضراء الفسيحة، أو في عوالم الحدائق التحتية الهادئة، في حين تتابع أجناس أخرى محظوظة من الديدان المظفرة، أعمالها بنشاط وتزدهر بسرعة هائلة، في الوقت ذاته الذي يزدهر فيه موردو السلاح وصانعوه في العالم الفوقي.

ولكن باستثناء فترات التبادل والبلبلة تلك، فإنها لمعجزة أن نجد أنواعاً كثيرة من الكائنات، يمكنها أن تتوالد وتنتشر وتموت، من دون أن تتعارف أو تكره، أو يحترم أحدها الآخر، مثلها مثل تلك المكالمات الهاتفية المتعددة، التي يمكن، حسب ما يقال، أن تُرسل عبر سلك واحد، من دون أن تتداخل، أو يعرقل بعضها بعضاً آخر، وذلك بفضل آليات متطورة.

فلدينا من جهة (فكر برونو)، الرجال الذين يستغرقون في أفكارهم وهم جلوس في الحدائق والساحات، بعضهم يطرق دقائق، وحتى ساعات، يتأمل ما تقوم به تلك الديدان التي ذكرنا، من نشاطات متعددة ومبهمة، يتفحص النمل، ويميز بين أنواعه المختلفة، أو يقدر أي أثقال باستطاعة كل نملة أن تحمل، وكيف تتعاون اثنتان أو ثلاث لإنجاز أعمال بالغة الصعوبة.. وإلى آخر ما هنالك. وأحياناً، يتسلى بالاستعانة بقشة، أو بغصن صغير يابس مما يمكن العثور عليه بسهولة في أرض الحديقة، لتضليل إحدى النملات المجدّة عن مسيرتها، ولدى الفوز بصعود أكثرها نشاطاً على العود، تركض حتى طرفه، ثم تعود

بحركات بهلوانية حذرة إلى الخلف، وتسير حتى الطرف الآخر، وتستمر هكذا، تروح وتجيء عبثاً، إلى أن يتعب الرجل المتوحد من اللعبة، بدافع من الشفقة أو الملل غالباً، فيرمي العود، وتغتنم النملة المناسبة فتسرع إلى البحث عن رفيقاتها، فتتبادل حديثاً موجزاً وخاطفاً مع من تلتقي أولاً، لكي توضح سبب تخلفها، أو لكي تستفهم عن (المسيرة العامة للشغل) أثناء غيابها، ثم تستأنف مهمتها فوراً فتنضم إلى الصف «المصري» الطويل النشيط، بينما يعود الرجل الوحداني المفكر إلى تأملاته العامة وهو شارد قليلاً، لا يُركز انتباهه على شيء محدد: ينظر حينا إلى شجرة ؛ و حيناً آخر إلى طفل يلعب هناك، يذكّره بأيام قصيّة أصبحت الآن نائية بصورة لا تصدق، أيام في «الغابة السوداء»، أو في زقاق في «بونتيفيدرا» التي تنحدر نحو الجنوب، بينما تظلم عيناه قليلاً، ويبرز من مآقيه بريق دموع كالذي نراه في أعين الشيوخ، ولا نعرف أبداً، إن كان مصدره عضوياً خالصاً، أم كان ناجماً عن الذكريات أم الحنين أم الشعور بخيبة الأمل، أم التفكير بالموت، أم عن تلك الكآبة المبهمة التي لا تقاوم، التي تثيرها فينا دائماً نحن البشر، كلمة ***نهاية***، المعلقة في آخر سيرة يحرك شجوننا ما فيها من غموض وحزن. تلك السيرة، التي بوسعنا أن نقول إنها سيرة كل إنسان. فأي مخلوق بشري يعيش في هذا العالم لا تكون سيرته، في نهاية المطاف، محزنة أو غريبة؟

ولكن الرجال الصامتين الوحدانيين، ليسوا دائماً شيوخاً أو متقاعدين.

فهم في بعض الأحيان، فتيان نسبياً، أشخاص بلغوا الثلاثين والأربعين عاماً. ولعل الأمر العجيب الذي يستحق التأمل (فكر برونو) أن هؤلاء، بقدر ما هم أصغر سناً وأرهف عوداً، بقدر ما هم أشد بؤساً وإثارة للشجون. فما الذي يمكن أن يكون أشد هولاً من مشهد فتى يجلس

على مقعد في حديقة مستغرقاً في تأملاته، مختنقاً بأفكاره، صامتاً وغريباً عن العالم الذي يحيط به.؟ قد يكون هذا الرجل أو الفتى بحارا حيناً، أو مهاجراً حيناً آخر، يود العودة إلى وطنه ولا يملك إلى ذلك سبيلاً، ويكون هؤلاء في كثير من الحالات ممن هجرتهم المرأة التي أحبوا، أو ممن ليست لديهم قدرة على مواجهة الحياة، أو ممن غادروا بيوتهم إلى الأبد، أو ممن يفكرون في وحدتهم ومستقبلهم، وقد يكون أحدهم مثل مارتين الذي بدأ يرى، وقد تملكه الذعر، أن المطلق لا وجود له.

أو لعله رجل فجع بفقدان ابنه، ووجد نفسه وهو في طريق عودته من المقبرة وحيداً، يشعر بأن حياته باتت الآن بلا معنى، ويفكر، بينما يجد رجالاً يضحكون ويسعدون (ولو مؤقتاً)، وأطفالاً في الحديقة يلعبون (إنه يراهم)، بابنه المسجى تحت التراب في تابوت صغير، يحتضن جسده الطفولي الغض، الذي توقف في نهاية المطاف عن مقاومة عدو مخيف لا قدرة له على مواجهته. ذلك الرجل يجلس ليتأمل ويمعن النظر من جديد، وربما لأول مرة، في المعنى العام للعالم، فهو لا يستطيع أن يفهم لماذا كان ينبغي أن يموت طفله ميتة كهذه، ولماذا تعيّن عليه أن يكفر عن ذنب قديم ارتكبه آخرون، فيعاني من آلام هائلة جثمت فوق قلبه الصغير وأصابته بالاختناق أو الشلل، وهو يقاتل قتال المستميت الأشباح السوداء التي بدأت تنقض عليه من دون أن يعلم لماذا.

نعم. إن ذلك الرجل بائس حقاً. والأمر الغريب أنه قد لا يكون فقيراً، وحتى إنه يمكن أن يكون غنياً، بل، ويمكن أن يكون المصرفيّ الكبير الذي خطط للصفقة الضخمة بالعملة الصعبة التي أتى على ذكرها من قبل بأنفة وازدراء ينطويان، كما هو الحال دائماً، (كان يسهل عليه الآن أن يفهم) على إسراف وظلم. فليس هناك في نهاية المطاف إنسان يستحق الاستخفاف والازدراء، ومهما طال الزمن،

سواء بالعملة الصعبة أو من دونها، فإن المصائب ستنال منه، بموت أولاده أو إخوته، أو بشيخوخته أو وحدته في مواجهة الموت. فيصبح في نهاية المطاف أشد عجزاً من أي إنسان آخر، مثله مثل الرجل المسلح الذي يغدو، عندما يفاجأ وهو مجرد من سلاحه، أقل قدرة على الدفاع عن نفسه من رجل مسالم أعزل لا يشعر بافتقاره إلى السلاح أبداً، لأنه لم يكن امتلكه قط.

6

حقاً إنه لم يدخل أياً من غرف البيت منذ أن بلغ الحادية عشرة، وخاصة تلك القاعة الصغيرة التي اتخذتها أمه هيكلاً لها: المكان الذي تمكث فيه ساعات بعد أن تخرج من الحمّام، تتحدث بالهاتف، وتفرغ من جميع الاستعدادات قبل أن تغادر المنزل.

لكن، ووالده؟ كان يجهل في السنوات الأخيرة عاداته، إنما كان يعرف أنه حبيس مرسمه، لم يكن من الضروري، كي يذهب إلى الحمام، أن يعبر تلك القاعة، ولكن ذلك لم يكن أمراً غير ممكن أيضاً.

أكانت تراهن على احتمال أن يراها زوجها؟ أكانت فكرة إذلاله على هذا النحو جزءاً من حقدها الدفين عليه؟

كل شيء ممكن.

كان عندما لا يسمع صوت المذياع، يفترض أنها ليست موجودة، ذلك أن بقاءها في البيت وسط الصمت أمراً لا يمكن تصوره أبداً.

كان الوحش المزدوج في الظل فوق الأريكة يهتز تواقاً هائجاً.

تمشّى في الحي مدة تزيد على الساعة قليلاً، كأنه يسير وهو نائم. ثم عاد إلى غرفته واستلقى على السرير يتطلع إلى السقف وطوَّف ناظريه على الجدران إلى أن توقفتا عند صورة من مجلة (بيجيكن)[1] المثبتة بالدبابيس منذ طفولته: (بلغرانو)[1] يتلقى من جنوده قسم الولاء للراية

(1) بيجيكن مجلة أطفال أرجنتينية. (المترجم).

ذات اللونين الأزرق والأبيض عند مفترق نهر «سالادو».

وفكر، *الراية الطاهرة*[2].

وعادت إلى ذهنه أيضاً كلمات فاصلة في حياته: ***برد، نظافة، ثلج، عزلة، «باتاغونيا»***.

فكر في مراكب، في قطارات، ولكن، من أين سيأتي بالنقود؟ حينئذ تذكر تلك الشاحنة الكبيرة التي تقف في المرآب قرب محطة «سولا» عندما استوقفه مسحوراً، في أحد الأيام، ما كتب عليها:

نقليات باتاغونيا.

أيحتاجون يا ترى إلى عامل، أو معاون، أو أي شيء آخر؟

قال «بوسيتش» والسيكار مطفأ في فمه:

ـ نعم طبعاً يا فتى.

وقال مارتين:

ـ لدي ثلاثة وثمانون «بيسوس»

وأجابه «بوسيتش» وهو ينـزع السترة الملوثة بالشحم:

ـ دعك من هذا الهراء.

كان يبدو كعملاق «سيرك» محدودب الظهر قليلاً، يغطي الشعر الأبيض رأسه. عملاق عليه مسحة من براءة طفل. وكان مارتين يتأمل الشاحنة: على جانبيها، بأحرف كبيرة عبارة: ***نقليات باتاغونيا***. وفي

(1) استقل الأرجنتينيون عن إسبانيا في العام ١٨١٠. وكان الجنرال بلغوانو أحد قادة الاستقلال ممن ساقتهم الظروف إلى أن يصبحوا قادة عسكريين، بعد أن كان رجل قانون مرهف الحس، وهو الذي صمم الراية الوطنية وتلقى قسم جنوده عليها في معبر نهر سالادو في منطقة الحدود مع بوليفيا (المترجم).

(2) الراية الطاهرة مقطع من نشيد وطني مدرسي أرجنتيني (المترجم).

الخلف، بأحرف ذهبية اللون: ***آه لو أنك ترينها أيتها العجوز.***

قال بوسيتش وعقب السيكار مطفأ في فمه دائماً:

ـ هيا

فوق الأرض المرصوفة المبللة اللزجة، كان يلمع للحظات، ضوء أحمر يختلط بلون الطين اللبني المائع ثم يتلوه فجأة البرق البنفسجي، ليحل بعد ذلك الأحمر اللبني ثانية: ***«سينزانو أمريكانو غانسيا» «سينزانو أمريكانو غانسيا»***.

قال «بوسيتش»:

ـ لقد حل البرد.

أتمطر..؟ كان ضباباً مشبعاً بقطرات ماء دقيقة تطفو في الجو، وسائق الشاحنة إلى جانبه يجدُّ في السير بخطى واسعة، ساذجاً وقوياً: لعله المثل الأعلى الذي كان مارتين يبحث عنه في ذلك الرحيل نحو الجنوب. شعر بالاطمئنان وهجر أفكاره.

قال «بوسيتش»: هنا.

وما إن دخل حتى قال: مرحباً.

ورد تشيتشين وهو يضع زجاجة الـ«جين» فوق المنضدة: مرحباً

قال «بوسيتش»:

ـ هات قدحين، هذا الفتى صديق.

ثم عاد يسأل تشيتشين:

ـ والعجوز أمك؟

ـ فأجابه: لا بأس.

ـ هل عملوا التحاليل؟

ـ نعم.

ـ والنتيجة؟
أومأ تشيتشين برأسه وكأنه يقول «لا أحد يعرف» ثم أضاف:
ـ تعرف كيف تكون هذه الأمور.
ـ قال «بوسيتشن»: «وتيتو»؟
ـ سيأتي الآن.
ـ والأحد..؟
فقال تشيتشين غاضباً:
ـ وما أدراني، أقسم لك إني لن أزعج نفسي بعد الآن.
كان يمسح أحد الأقداح مغتاظاً، وهو يفكر ملياً حتى انفجر قائلاً:
ـ أبدد الوقت مع حمير كهؤلاء..!
ـ حينئذ دخل رجل نحيل الجسم عصبي المزاج، قال:
ـ مرحباً.
وقال «بوستيش»:
ـ مرحباً، هذا الفتى صديق.
قال «تيتو»:
ـ أهلاً، وهو يتأمله بعينين صغيرتين كعيني عصفور، وبتلك المسحة من القلق التي كان مارتين يراها مرتسمة على وجهه، كما لو أنه أضاع شيئاً ثميناً جداً، ويقوم بالبحث عنه في كل مكان، ويراقب كل شيء بسرعة وقلق.
ـ يا للعاهرة والشياطين الحمر.
ـ قل أنت؛ قل لهذا.
ـ بصراحة أقول لك: أنت بالشاحنة تتخلص من كل مشهد.

- ورد «تشيتشين»:

- لكنني لن أعكر حياتي بعد الآن، أبداً، أبداً، أقسم لك بصحة العجوز أمي.

فقال «هومبرتو خ. داركانخيلو»، المعروف لدى سكان الحي جميعاً باسم «تيتو»، على نحو صارم:

- زبالة حقيقية.

جلس إلى منضدة قرب النافذة، وتناول الصحيفة التي كان يحملها دائماً وهي مفتوحة على صفحة الرياضة. وضعها على المنضدة ساخطاً وهو ينكش أسنانه المنخورة بنكاشة يحتفظ بها معلقة في فمه باستمرار. وألقى نظرة كئيبة على الشارع. كان يدوبضآلة قوامه وضيق كتفيه ورثاثة ثيابه كأنه يفكر بالمصير العام للعالم.

عاد بعد مدة ينظر نحو أصدقائه ويقول:

- كان هذا الأحد مصيبة، خسرنا خسارة مهينة. فاز فريق «سان لورنسو» وفاز فريق «راسينغ» وحتى فريق «تيغرى» فاز. من منكم يخبرني أين سنقف نحن؟.

لبث ينظر إلى أصدقائه كأنه ينصبهم شهوداً ثم عاد ليحول نظره إلى الشارع وينكش أسنانه وهو يتمتم:

- هذا البلد لا يمكن إصلاحه.

أذهب بعيداً، الجنوب بارد ونقي، بينما كان لا يزال يسمع موسيقى الـ «بوليرو» ويشعر بذلك الجو الثقيل، حمام ودهون معطرة، هواء ساخن ومعكر، حمام ساخن، جسم دافئ، سرير دافئ، أم دافئة، أم ـ سرير، ساقان لبنيتان مرفوعتان نحو الأعلى كما في شعائر تثير الاشمئزاز.

7

لايمكن.. فكَّر وقد استقرت يده على كيس أمتعته، لا، ***لا يمكن***، ولكن، نعم إنه سعاله، السعال وتلك الحشرجة.

وبعد سنوات فكر وهو يتذكر تلك اللحظة أيضاً: ***كساكنين يعيشان معزولين في جزيرتين متجاورتين، إنما تفصل بينهما هاوية لا قرار لها***.
وبعد سنوات، عندما كان جسد والده يتفسخ في القبر، أدرك أن ذلك الشيطان المسكين كان على أقل تقدير، يعاني العذاب مثله، ولعله وهو في تلك الجزيرة القريبة التي لا تدرك، حيث يقطن (حيث بقي على قيد الحياة) كان قد أومأ إليه مرة بصمت مسترحماً يطلب عونه، أو عطفه وحسن تفهمه. لكنه أدرك ذلك بعد تجاربه القاسية، وبعد فوات الأوان، كما يحدث في غالب الأحيان. وهكذا فإنه الآن، في ذلك الحاضر المبكر (كما لو أن الزمن يتسلى في الحضور قبل أوانه، كي يقوم الناس بتدريبات على تمثيليات مضحكة وبدائية، كتلك التي يقوم بها بعض الهواة ممن تنقصهم الخبرة: كأن يمثل دور عطيل من لم يكن قد أحب بعد)، في ذلك الحاضر الذي كان يجب أن يكون مستقبلاً، دخل أبوه خلسة بعد أن صعد تلك الدرجات التي لم تطأها قدماه منذ سنين. وأحس مارتين، وهو يدير ظهره إلى الباب، أنه كان يطل عليه كما لو أنه دخيل: كان يسمع لهاث صدره المسلول، ويتصوره ينظر حائراً وبقسوة متعمدة، تظاهر بأنه لم ينتبه لوجوده. ***طبعاً لقد قرأ رسالتي، يريد أن يمنعني***. ولماذا يمنعه..؟ طيلة سنوات وسنوات لم يتبادلا سوى بضع

عبارات. كان يتنازعه الحقد والشفقة. حقده كان يدفعه إلى عدم النظر إليه.. وإلى تجاهل أمر دخوله إلى الغرفة، بل إلى ما هو أسوأ من ذلك: إلى إشعاره بأنه يود تجاهله. لكنه أدار رأسه، نعم أداره، ورآه كما كان يتصور. يداه متكئتان على الحاجز ليستريح من التعب. وخصلة الشعر الأشيب مسدولة على جبينه، وعيناه المحمومتان جاحظتان قليلاً، وثغره يفتّر عن ابتسامة هزيلة تخالطها أمارة شعور بالذنب كثيراً ما أغضب مارتين. قال له: (منذ عشرين سنة مضت كانت هذه الغرفة مرسمي). ثم ألقى نظرة على أنحاء الغرفة. وربما راوده شعور كالذي ينتاب مسافراً أدركته الشيخوخة، ونالت منه خيبة الأمل، لدى عودته إلى مرابع صباه بعد أن تجول بين أناس وبلدان كانت فيما مضى توقظ مخيلته وحنينه. اقترب من السرير وجلس على طرفه قلقاً، كمن ليس من حقه أن يحتل منه مكاناً أوسع، أو أن يكون مستريحاً أكثر مما يجب، ليلتزم الصمت مدة، يتنفس بصعوبة وبلا حراك كأنه تمثال خجول. ثم، يقول بصوت خافت:

ـ منذ زمن كنا أصدقاء.

وأشرقت عيناه المستغرقتان في التأمل وهو ينظر إلى البعيد:

ـ أتذكر مرة. في حديقة ريتيرو.. :كم كان عمرك.. كم يا ترى؟.. أربعة، أو ربما خمسة أعوام.. نعم خمسة أعوام.. كنت تود أن تركب العربات الكهربائية وحدك، لكنني لم أدعك تفعل، كنت أخشى أن تروّعك الصدمات.

ضحك برقة وحنين:

ـ ثم عندما كنا عائدين إلى البيت، صعدت على الطبق الدوار الذي كان مقاماً على قطعة من الأرض في شارع غاراي. لست أدري لماذا

أتذكر قفاك دائماً عندما كنت تمر أمامي بعد كل دورة. كانت الرياح تعبث بقميصك ذي الخطوط الزرقاء، كان الوقت متأخراً وأضواء الغروب تكاد تتلاشى.

استغرق في التفكير، ثم عاد يؤكد، كما لو أن الأمر بالغ الأهمية:

ـ قميص ذو خطوط زرقاء، نعم، أتذكره تماماً.

لبث مارتين صامتاً.

ـ في ذلك الوقت، كنت أحسب أننا بمرور الأعوام، سنصبح رفاقاً، وبأننا سوف نرتبط... بنوع من الصداقة...

ثم عاد ثغره يفترُّ عن تلك الابتسامة التي تخالطها أمارات الشعور بالذنب، وكأن ذلك الأمل كان عبثاً، أو شيئاً ليس له أي حق فيه. وكما لو أنه يعترف بسرقة بسيطة، مستغلاً قصور مارتين وضعفه.

تأمله ابنه: اتخذ من ركبتيه متكأ لكوعيه وحنى ظهره وراح ينظر إلى البعيد.

ـ أجل، كل شيء أصبح الآن مختلفاً. تناول قلماً كان فوق السرير وتأمله بنظرة فاحصة.

ـ لا تظن أنني لا أفهمك.. كيف يتسنى لنا أن نكون أصدقاء؟ يجب أن تصفح عني يا صغيري مارتين.

ـ ليس لدي ما أصفح عنك من أجله.

لكن نبرة كلماته القاسية، كانت تتناقض مع تأكيده.

ـ ألا ترى..؟ إنك تكرهني. لا تظنَّ أنني لا أفهمك.

كان مارتين يود أن يقول له (ليس صحيحاً، إني لا أكرهك) ولكنه كان يكرهه كرهاً شديداً، وكانت تلك الكراهية، تجعله يشعر بتعاسة أكبر، وبعزلة أشد وطأة. وعندما كان يرى أمه تخرج إلى الشارع مطلية

بالأصبغة، تدندن نغمات «البوليرو»، كانت كراهيته لها تمتد حتى تصل أباه، ثم تنصبُّ في نهاية الأمر عليه، كما لو أنه هو بيت القصيد.

ـ إنني أدرك بطبيعة الحال يا مارتين، أنك لا تستطيع أن تفخر برسام فاشل مثلي.

غصَّت عينا مارتين بالدموع.

لكن حقده الكبير حال دون أن تنهمر، وكأنما هي نقاط من الزيت تطفو على سطح الخل من دون أن تمتزج به، صاح:

ـ لا تقل ذلك يا أبي..!

نظر إليه والده متأثراً، ومستغرباً رد فعله.

ومن دون أن يعي ما كان يقول، صرخ مارتين بعنف:

ـ إن هذا البلد يثير الاشمئزاز! الأنذال فقط، هم الذين ينجحون هنا.

تأمله والده طويلاً وهو صامت، وهز رأسه يمنة ويسرة مستنكراً ثم قال:

ـ لا يا مارتين، لا تظنن أن الأمر كذلك.

وتأمل القلم الذي كان لا يزال بين يديه، ثم استأنف يقول:

يجب أن نكون منصفين، إنني شيطان بائس وفاشل بحق وفي جميع المقاييس: لا أتمتع بالألمعية وليس لدي قوة، هذه هي الحقيقة.

وبدأ مارتين ينكفئ نحو جزيرته. كان خَجِلاً مما أثاره ذلك المشهد من شجون، وأخذ استسلام والده يزيده قسوة من جديد.

وعاد الصمت يخيم ثقيلاً مزعجاً، فأخذ والده يستجمع قواه لكي يذهب، ولعله أدرك أن قرار مارتين كان قاطعاً، وأن تلك الهاوية التي تفصل بينهما كانت كبيرة ولا يمكن الخلاص منها أبداً. اقترب من

مارتين، وضغط بيمناه على أحد ذراعيه: كان يود أن يعانقه، ولكن كيف كان بوسعه أن يفعل..؟

وتمتم:

ـ حسناً..

أكان مارتين حَدَبَ عليه وأحاطه بعطفه، لو علم آنذاك، أن تلك الكلمات كانت آخر ما يسمعه من أبيه..؟

أيكون المرء بالغ القسوة على الكائنات البشرية ـ كان برونو يقول ـ لو أنه يعرف حق المعرفة أن الموت سيوافيها في يوم من الأيام لا محالة، وأنّ لا شيء مما قيل لها يمكن بعد ذلك تعديله؟

رأى كيف كان أبوه يمضي مبتعداً باتجاه السلم، ورآه أيضاً كيف كان يلتفت قبل أن يتوارى عن الأنظار ويرمقه بتلك النظرة التي بقي مارتين، بعد سنوات من وفاة والده، يتذكّرها قانطاً.

وعندما سمع سعاله حين كان يهبط درجات السلم، استلقى مارتين على السرير وبكى، ومضت ساعات قبل أن يستعيد قواه ويفرغ من ترتيب حوائجه في كيس أمتعته. وعندما خرج، كانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً، فرأى نوراً ينبعث من مرسم والده.

وفكر: (إنه هناك، يعيش رغم كل شيء. إنه لا يزال يعيش).

سار باتجاه المرآب، وفكَّر بأنه لا بد أن يشعر بالانعتاق. ولكن الأمر لم يكن كذلك. كان ضيق أصم يمنعه. سار بخطى متباطئة. ثم وقف حائراً. ما الذي كان يريده...؟

8

ـ حدثت أمور كثيرة قبل أن أراها ثانية.. قررت هجر منزلي.. وفكرت في الذهاب إلى «باتاغونيا»، وتحدثت إلى سائق شاحنة اسمه «بوسيتش» ألم أحدثك عن «بوسيتش»؟. لكنني في النهاية لم أذهب إلى الجنوب في تلك الليلة.. كما أنني لم أعد إلى منزلي ثانية.

وسكت لكي يتذكر:

عدت لأراها في المكان ذاته، في الحديقة، إنما منذ زمن قريب، في شباط/ فبراير 1955. لم أتخلف عن الذهاب إلى هناك في كل مناسبة كانت تسنح لي. ومع ذلك فلم يبدُ لي أن الفضل في لقائها يعود إلى انتظاري في ذلك المكان.

ـ إنما..؟

نظر مارتين إلى برونو وقال:

ـ لأنها هي أرادت أن تجدني.

لم يبدُ أن برونو فهم:

ـ حسناً، إن ذهبتْ إلى ذلك المكان، فلأنها أرادت أن تجدك.

ـ لا، ليس هذا ما أعنيه. فقد كان بوسعها أن تجدني في أي مكان آخر أيضاً. أفهمت؟؟. كانت تعرف أين، وكيف تجدني لو أرادت، هذا ما أعنيه. وانتظاري هناك، على ذلك المقعد طيلة أشهر، لم يكن سوى إحدى سذاجاتي الكثيرة.

استغرق يتأمل مدة، ثم أضاف وهو ينظر إلى برونو كأنه يطلب منه تفسيراً للأمر.

ـ ولهذا، لأنني أعتقد أنها هي التي بحثت عني بملء إرادتها، لهذا السبب بالذات، كان يستعصي عليّ أن أفهم أنها.. فيما بعد.. بهذه الصورة..

ظلت نظرته مركزة على برونو، الذي بقي بدوره يتأمل ذلك الوجه الشاحب المعذب.

ـ إنك تفهم ذلك؟

وأجاب برونو:

ـ الكائنات البشرية ليست منطقية. ثم، إنه يكاد يكون من المؤكد أن السبب الذي حملها على البحث عنك، هو الذي دفعها إلى...

كاد يقول (تهجرك)، عندما توقف واستدرك قائلاً: (أن تتوآرى).

تأمله مارتين قليلاً، ثم عاد يستغرق في أفكاره. ظل فترة طويلة صامتاً ثم روى كيف ظهرت من جديد.

كان الليل يلقي أول ظلاله، ولم يتبقَ من الضوء ما يمكّنه من تصحيح عينات الأوراق، فاتكأ على مسند المقعد يتأمل الأشجار. وسرعان ما استغرق في النوم.

حلم أنه كان يبحر عند الغسق في مركب مهجور ممزق الأشرعة، وسط نهر كبير هادئ المظهر، لكن أعماقه سحيقة وتنطوي على لغز كبير. كان المشهد موحشاً وساكناً، لكن الغابة التي تنتصب على حافتي النهر الكبير، كانت توحي بأنها تعج بحياة سرية مترعة بالأخطار. ثم هزه صوت بدا أنه آت من الأجمة، ولم يتمكن من إدراك ما كان يقول، لكنه كان يعلم أنه يخاطبه، يخاطب مارتين. أراد

أن يتمالك قواه ويقف لكن شيئاً ما كان يمنعه. جاهد لكي ينهض، فقد كان يسمع الصوت المبهم البعيد الذي يناديه يزداد حدة شيئاً فشيئاً، (الآن أدرك) أنه كان يناديه بقلق كما لو أن صاحبه محاط بخطر رهيب وكان هو، هو فقط، القادر على إنقاذه. صحا وهو يرتجف من الغم، وكاد يقفز من المقعد:

كانت هي.

كانت تهزه، وفي تلك اللحظة كانت تقول له، وهي تطلق ضحكتها الفَظّة:

ـ انهض أيها الكسول.

كان خائفاً، خائفاً ومشتتاً من التناقض بين صوت الحلم المروع المستغيث الذي سمعه، وبين أليخاندرا التي تقف الآن أمامه لا تبالي، فلم يتمكن من أن يتفوه بأي كلمة.

رأى كيف كانت تلملم بعض الأوراق التي سقطت من المقعد عندما كان مستغرقاً في حلمه.

وقالت وهي تضحك:

ـ لا شك أن صاحب هذه الشركة ليس «موليناري».

ـ أي شركة؟

ـ التي تنجز لها العمل أيها البليد.

ـ إنها شركة «لوبيس».

ـ لتكن ما تكون، ولكن من المؤكد أنها ليست شركة «موليناري».

لم يفهم شيئاً، ولما كان مثل ذلك قد تكرر مرات عدة، ولم تقم أليخاندرا بتوضيح الأمر، كان مارتين يشعر ـ كما قال ـ بأنه مثل تلميذ كسول أمام أستاذ ساحر.

رتب الأوراق ومنحه هذا العمل الآلي متسعاً من الوقت لكي يتحكم قليلاً بما أثاره فيه من انفعالات ذلك اللقاء الذي كان ينتظره بقلق بالغ. وكما كانت الحال في مناسبات كثيرة لاحقة، كانت أليخاندرا تعوض من صمته وعجزه عن متابعة الحوار بأن تحزر دائماً، أو في غالب الأحيان ما يجول في عقله من أفكار.

عبثت بإحدى يديها بشعره، كعادة الكبار عندما يداعبون الأطفال.

ـ قلت لك إنني سأعود لأراك. أتتذكر..؟ ولكنني لم أقل لك متى.

تأملها مارتين.

ـ هل قلت لكَ إنني سأراكَ قريباً..؟

ـ لا.

وهكذا (قال مارتين)، هكذا بدأت القصة الرهيبة. كان كل شيء غامضاً لا تفسير له. لم يكن من الممكن معها معرفة أي شيء، كانا يلتقيان في أماكن غريبة مثل بهو مصرف «لابروفينسيا»، أو جسر «أفيجانيدا» وفي أي وقت: الساعة الثانية صباحاً. كان كل شيء طارئاً ولا يمكن توقع أي أمر أو تفسيره، لا لحظات مزاحها ولا لحظات غضبها، ولا تلك الأيام التي تلتقيه فيها فتلوذ بالصمت ولا تتفوه بأي كلمة حتى لحظة مغادرتها، ولا أيام غيابها الطويلة «مع ذلك، أضاف، كانت تلك الفترة من أروع أيام حياتي»، لكنه كان يعلم أنها لن تدوم لأن ذلك كله كان ضرباً من الجنون، وكان ـ ألم يقل له من قبل ؟ ـ مثل انفجار يتتالى في ليلة عاصفة. على الرغم من أن أليخاندرا كانت في بعض الأحيان، في أحيان قليلة نادرة تبدو كأنها تقضي إلى جانبه لحظات من الراحة، وكما لو أنها مريضة وهو أشبه ما يكون بمصح أو منطقة جبلية مشمسة تستلقي فيها بصمت. أو كما لو أنها مذعورة،

وكان بوسعه أن يقدم لها شربة ماء أو جرعة دواء، أو شيئاً ما كانت بأمس الحاجة إليه، لتعود ثانية إلى تلك المنطقة المظلمة الموحشة التي يبدو أنها تعيش فيها.

ثم خلص إلى القول وهو يحملق إلى عيني برونو:

ـ تلك المنطقة التي لم أتمكن من دخولها قط.

قالت: ـ هاهي.

كان يتضوع فوح الياسمين البلدي بشدة، وكان السياج عتيقاً جداً، تكاد تغطيه أغصان شجرة «غليسينا». والباب صدئ، يتحرك بصعوبة، ويصدر صريراً قوياً.

ومياه المطر المتجمعة على الأرض تلمع وسط الظلمة. وتُرى من بعيد غرفة مضاءة، والصمت المطبق يوحي بوجود دار بلا سكان. سارا بجانب حديقة مهملة يغطيها العشب، على رصيف يحاذي بهواً جانبياً، يقوم على أعمدة حديدية. كانت الدار قديمة جداً، ونوافذها التي تطل على البهو لا تزال تحتفظ بقضبانها الحديدية التي تعود إلى العصر «الكولوني» والبلاط ذو الحجم الكبير يعود بلا شك إلى ذلك العصر أيضاً، وكان محطماً ومتآكلاً وغارقاً في الأرض.

سُمع صوت «كلارينيت»: نغمة بلا بُنية موسيقية، ضعيفة، مفككة، مكررة.

سأل مارتين:

ـ وهذا؟

فقالت أليخاندرا:

ـ إنه خالي «بيبي»، المجنون.

اجتازا ممراً ضيقاً يحفُّ به صف من الأشجار العتيقة (شم مارتين حينئذ رائحة أزهار المغنوليا)، وتابعا السير في ممر مرصوف بالآجر،

حتى انتهيا إلى سلم حلزوني.

ـ الآن انتبه، اتبعني بتؤدة.

تعثر مارتين بشيء ما: إناء أو صندوق.

ـ ألم أقل لك امشِ بحذر. انتظر.

توقفت وأشعلت عود ثقاب، أحاطته بكفها واقتربت من مارتين.

ـ ولكن، يا أليخاندرا، ألا يوجد أي مصباح هنا؟. أقصد.. في الفناء.. سمعها تضحك بجفاء وخبث.

ـ مصابيح..! تعال، ضع يدك على ردفيَّ واتبعني:

ـ مثل هذا يصلح جداً للعميان.

شعر أن أليخاندرا توقفت، كأن شحنة كهربائية صعقتها، فسألها مذعوراً:

ـ ماذا جرى لك يا أليخاندرا؟

فردت بجفاء:

ـ لا شيء، ولكن أرجوك ألاّ تحدثني عن العميان أبداً. وضع مارتين يديه على ردفيها ثانية، وتبعها وسط الظلمة. وبينما كانا يصعدان، ببطء وحذر شديدين، السلم الحديدي الذي كانت أجزاء كثيرة منه محطمة، وأجزاء أخرى مهترئة تهتز من شدة الصدأ، شعر لأول مرة بجسد أليخاندرا تحت كفيه قريباً جداً، وبعيداً وغامضاً في الوقت ذاته. هذا الشعور الخفي، عبرت عنه حركة ما، رعشة أو اهتزازة فسألته أليخاندرا حينئذ، ماذا جرى، فأجابها حزيناً، «لا شيء». وعندما وصلا إلى الأعلى قالت وهي تعالج قفل الباب محاولة فتحه (هذا هو البرج القديم).

ـ البرج؟

ـ نعم. في مطلع القرن الماضي، لم يكن في هذه الناحية سوى بعض المنتجعات، وكان آل «أولموس» وآل «أسيفيدو» يأتون إلى هنا لقضاء العطلة الأسبوعية.

ضحكت وأردفت تقول:

ـ في ذلك العصر، عندما لم يكن آل «أولموس» نفراً ممن يتضورون جوعاً، أو حفنة من المجانين.

سأل مارتين:

ـ آل «أسيفيدو»؟ أيّ «أسيفيدو»؟. الذي كان نائباً للرئيس..؟

ـ نعم، أولئك.

وأخيراً تمكنت بعد جهد كبير، من فتح الباب القديم، مدت يدها وأشعلت المصباح.

قال مارتين:

ـ حسناً، هنا يوجد مصباح، على الأقل. كنت أظن أن هذه الدار تضاء بالشموع.

ـ أوه. لن تصدق. الجد «بانشو» لا يستعمل سوى القناديل، وهو يقول إن الكهرباء تؤذي البصر.

ألقى مارتين نظرة على الغرفة، كأنه يسبر غور من روح أليخاندرا المجهولة. لم يكن السقف مكسواً، بل كانت الجذوع الخشبية الضخمة العارية مكشوفة، وكان هناك سرير تغطيه عباءة، ومجموعة من قطع الأثاث، بدت كما لو أنها قد أخرجت من مزاد، أنماطها مختلفة وتعود إلى عدة عهود، لكنها بالية وعلى شفا الانهيار كلها.

ـ تعال. إنه لمن الأفضل أن تجلس على السرير. الكراسي هنا خطرة. عُلقت على أحد الجدران مرآة كالحة تعود إلى العصر «الفينيسي» رسم

في أعلاها صورة بالدهان. وكان هناك بقايا صوان، ومنضدة، وصورة منسوخة أو مطبوعة مثبتة بأربعة دبابيس من أطرافها.

أشعلت أليخاندرا سخاناً كحولياً وبدأت تعد القهوة. تركت الماء ليسخن ثم تناولت أسطوانة، وقالت وهي تنظر شاردة نحو السقف، بينما تمتص لفافتها بنهم:

- اسمع.

كانت موسيقا مؤثرة وصاخبة.

وفجأة نزعت الأسطوانة وقالت:

- آه لا أستطيع الآن سماعها.

وتابعت إعداد القهوة. ثم قالت:

- عندما عُزفت هذه أول مرة، كان «برامز» ذاته يعزف على «البيانو». أتعلم ماذا حدث؟

- ماذا.

- لقد صفروا له. أترى ما أتعس هذه البشرية؟

- حسناً، ربما..

فصرخت أليخاندرا:

- ربما؟ ألا تعتقد أن البشرية ليست سوى زريبة خنازير؟

- لكن هذا الموسيقار ينتمي إلى البشرية أيضاً.

قالت وهي تسكب القهوة في الكوب: هؤلاء هم الذين يعانون من أجل الآخرين يا مارتين. وسواهم، إما تافهون أو أبناء عاهرات، أو مشوهون. ألا تعلم؟

أتت بالقهوة.

جلست على حافة السرير، واستغرقت في التفكير، ثم تناولت

الأسطوانة ثانية وقالت:

ـ اسمع. اسمع ما أروع هذا.

وبدأت أنغام الموسيقى تصدح من جديد.

ـ ألا ترى يا مارتين كم كان يتطلب إنتاج موسيقى كهذه من معاناة في هذا العالم.

وأضافت وهي تنحي الأسطوانة جانباً:

ـ رائع.

شربت قهوتها وهي تفكر، ثم وضعت الركوة على الأرض.

وفجأة، وسط السكون، تناهى عبر النافذة صوت الكلارنيت. نغمات مفككة. مثلها مثل الرسوم التي يخطها الأطفال على الورق.

ـ قلت إنه مجنون؟

ـ ألا ترى؟ هذه عائلة مجانين. أتعلم من عاش في هذا البرج طيلة ثمانين عاماً؟ الطفلة «اسكولاستيكا». إنك تعلم أن العادة جرت قديماً، على أن يكون في العائلة مجنون، يحتجزونه في إحدى الغرف في صدر الدار. الـ«بيبي» مجنون لكنه وديع، وهو مصاب بنوع من البلادة، وفي جميع الأحوال لا يستطيع أحد أن يسبب بالكلارينيت أي أذى، «اسكولاستيكا» كانت أيضاً مجنونة وديعة. أتدري ما حدث لها؟. تعال. نهضت واتجهت نحو الصورة المثبتة بأربعة دبابيس على الجدار. ـ انظر: إنهم ما تبقى من فيلق «لافاجي» في شعاب «هوماواكا»، ذلك الحصان يحمل جثة الجنرال. هذا هو الكولونيل «بيدرنيرا» وإلى جانبه «بيدور إيتشاغوي». وذلك الـمُلْتَحي الواقف إلى اليمين هو «الكولونيل أسيفيدو»، «بونيفاسيو أسيفيدو» شقيق جدة جدي «بانشو»، فـ«بانشو» الذي أناديه جدي هو في الواقع والد جدي.

بقيت عيناها تحملقان إلى الصورة.

ـ وذلك الملازم حامل الراية «سيليدونيو أولموس» والد الجد «بانشو»، أي أنه جد جدي. اضطر «بونيفاسيو» إلى الهرب إلى الـ«مونتيفيديو». وتزوج هناك من فتاة «أورغواجية»، فتاة كانت تدعى «انكارناسيون فلوريس». وهناك ولدت «اسكولاستيكا». قبل أن تولد، التحق «بونيفاسيو» بالفيلق، ولم يرَ الصغيرة قط. استمرت الحملة عامين، ومن هناك، من «هوماواكا» عبروا إلى بوليفيا، حيث مكث سنوات عديدة، كما قضى في تشيلي بعض الوقت. في مطلع العام 52 بعد مضي أحد عشر عاماً على فراق زوجته التي كانت تقطن هنا، في هذا المنتجع، أتى القائد «بونيفاسيو أسيفيدو»، الذي لم يخلِّف سوى الأسى، إلى بوينس أيرس تحت قناع بغّال، قادماً من تشيلي، حيث كان يقيم فيها مع لاجئين آخرين: كان يقول إن «روساس» سيسقط بين لحظة وأخرى، وإن «أوركيسا» سيدخل «بوينس أيرس» مهما كلفه ذلك من دماء ودمار. لكنه لم يطق الانتظار وأتى. لابد أن يكون هناك من وشى به، إذ لا يوجد تفسير آخر لما حدث. فما إن وصل بوينس أيرس حتى اصطادته «لاماسوركا»[1]. ذبحوه وتوجهوا نحو البيت. دقوا على النافذة وعندما فُتحت قذفوا رأسه إلى وسط الغرفة، ماتت «انكارناسيون» من هول الفاجعة وأصيبت «اسكولاستيكا» بالجنون. وبعد بضعة أيام كان «أوركيسا» يدخل وهي تسمعهم يتحدثون عن والدها ويشيرون إلى صورته.

أخذت من درج الصوان رسماً ملوناً. قالت :

ـ ها هوعندما كان ملازماً في القوة المدرعة أثناء حملة البرازيل.

(1) عصابات قمع مروعة كانت تعمل لحساب روساس. (المترجم)

كانت صورته الممزقة القديمة وهو ملتحٍ تتناقض مع زيه الجميل وشبابه وظرافته.

ـ كانت «لاماسوركا» مذعورة من إعلان «أوركسيا». أتعلم ما فعلته «اسكولاستيكا».؟ أغمي على الأم، لكن البنت تمسكت برأس والدها وركضت إلى هنا، وبقيت حبيسة مع الرأس منذ تلك السنة وحتى وفاتها في 1932.

ـ في 1932.

ـ نعم 1932. عاشت ثمانين عاماً حبيسة مع الرأس. وكان يجب أن يؤتى بطعامها إلى هنا، كما يجب إخراج فضلاتها أيضاً. لم تغادر هذا المكان ولم ترغب في مغادرته قط. هناك أمر آخر: كانت، بدافع من المكر الذي يتصف به المجانين، قد خبأت رأس والدها، بحيث لم يتمكن أحد من انتزاعه منها. لا شك أنه كان بوسعهم العثور عليه لو أنهم فتشوا عنه، لكنها كانت تثور، ولم تكن هناك أي وسيلة لخداعها. كانوا يقولون لها (يجب أن نخرج شيئاً ما من الصوان). ولكن عبثاً، لم يستطيع أحد أن يُخرج أي شيء سواء من الصوان أو المنضدة أو كيس التبغ، وبقي كل شيء على حاله كما كان في 1852 حتى ماتت في 1932. هل تصدق؟.

ـ يبدو ذلك مستحيلاً.

ـ إنه تاريخ حقيقي بكل حذافيره. أنا أيضاً، كثيراً ما تساءلت، كيف كانت تأكل؟ وكيف كانت تنظف الغرفة؟. كانوا يأتونها بالطعام، ويقومون بما يمكن القيام به من أعمال التنظيف. كانت «اسكولاستيكا» مجنونة وديعة حتى إنها كانت تتحدث بصورة طبيعية عن جميع الأمور تقريباً، إلا ما يتعلق منها بوالدها وبالرأس. فهي مثلاً لم تتحدث عن

والدها طيلة السنوات الثمانين من عزلتها على أساس أنه ميت. كانت تتحدث بصيغة الحاضر، أي كأنها في 1852، وكما لو أن عمرها اثنا عشر عاماً، وكأنَّ والدها موجود في تشيلي وسيأتي ما بين لحظة وأخرى. كانت عجوزاً هادئة، لكن حياتها، وحتى لغتها قد توقفتا في 1852 وكأن «روساس» ما يزال يحكم. كانت تقول «ومتى سيسقط هذا الرجل» وهي تومئ برأسها إلى الخارج، إلى حيث كان يوجد حافلات كهربائية، كان يبدو أن في واقعها فجوات كثيرة فارغة، أو ربما مغلقة ومقفلة تماماً، كانت تلف وتدور بمكر كطفل، لكي تتجنب الحديث عن تلك الأمور. كما لو أن عدم الحديث عنها ينفي وجودها وينفي بالتالي واقعة موت والدها. كانت قد ألغت كل ما يمت بصلة إلى ذبح «بونيفاسيو أسيفيدو».

ـ وماذا حدث للرأس؟

ـ ماتت «أسكولاسيتكا» في 1932، وتمكنوا في نهاية الأمر من تفتيش الصوان وكيس تبغ القائد. كان ملفوفاً بخرق. (ويبدو أن العجوز كانت تتناوله كل ليلة وتضعه على المنضدة، وتقضي ساعات تتأمله، أو لعلها كانت تنام وتدعه هناك كأنه «مزهرية»)، كان محنطاً بالطبع، وهكذا ظلّ محفوظاً.

ـ كيف؟

ـ حتماً، وماذا يمكن برأيك عمله بالرأس؟ ماذا يفعل المرء في مثل هذه الحالة؟

ـ حسناً. لست أدري، القصة كلها غير معقولة. لا، لست أدري.

ـ ومع ذلك، ها إن قصة أسرتي ماثلة أمامك. أعني آل «أولموس» وليس آل «أسيفيدو».

١

ـ ومن هي أسرتك؟

ـ أو تحتاج بعدُ إلى أن تسأل؟ ألم تسمع خالي «بيبي» يعزف على الكلارينيت؟ ألا ترى أين نسكن؟، بربك، هل وصل إلى مسامعك أن أحداً في هذا البلد، ممن يحمل اسم أسرة عريقة، يسكن في «بارّاكاس» وسط المساكن الجماعية والمعامل؟ ستدرك ولاشك، أنه لا يمكن لشيء أن يكون طبيعياً بوجود الرأس، وأن لا شيء مما يحدث بوجود رأس بلا الجسم يمكن أن يكون طبيعياً.

ـ وإذاً..؟

ـ الأمر في غاية البساطة: بقي الرأس في الدار.

قفز مارتين مذعوراً.

ـ ماذا دهاك، ما الذي يثيرك؟ وماذا كان بوسعهم أن يفعلوا؟ صُنعُ تابوت صغير، والقيام بمراسم متواضعة لدفن الرأس؟

ضحك مارتين وقد تملكه الاضطراب، لكن أليخاندرا بقيت رابطة الجأش تتحدث بجد، فقال:

ـ وأين تحتفظون به؟

ـ يحتفظ به الجد «بانشو»، تحت، في صندوق قبعات. أتريد أن تراه؟

صرخ مارتين:

ـ يا إلهي:

ـ لماذا ؟ إنه رأس جميل، وسأقول لك بصراحة: إني عندما أراه ما بين حين وآخر وسط هذه الحثالة، أشعر بارتياح، أولئك، على الأقل، كانوا رجالاً حقيقيين، ويفتدون بحياتهم ما يؤمنون به. وأود أن أخبرك أن جميع أفراد أسرتي تقريباً، كانوا من حزب الوحدويين. إنما الآن لسنا كذلك، لا فرناندو ولا أنا.

ـ فرناندوا؟ من هو فرناندو؟

صمتت أليخاندرا بغتة، كما لو أنها قالت ما لا يجب أن يقال.

فوجئ مارتين، وشعر بأنها ارتكبت زلة لسان. نهضت واتجهت إلى المنضدة، حيث يوجد السخان، ووضعت ماء في الركوة وتركته يسخن، وأشعلت لفافة، ثم أطلَّت من النافذة. وقالت وهي تهم بالخروج من الغرفة:

ـ تعال.

تبعها ماريتن. كان الليل مخيماً. وسارت على الشرفة حتى بلغت طرفها الأمامي، ثم اتكأت بمرفقها على الحاجز وقالت:

ـ فيما مضى، كان وصول المراكب إلى «ريوتشويلو»، يُشاهد من هنا.

ـ والآن من يسكن في هذه الناحية؟

ـ هنا؟ هنا، من المنتجع لم يبقَ شيء تقريباً. كانت مساحته فيما مضى تقدر بهكتار من الأرض. لكنهم فيما بعد بدؤوا يبيعون، وها هي الآن تلك المعامل والمستودعات، كلها أقيمت على أرض المنتجع. من هنا من الجانب الآخر، مساكن جماعية، كما أن الجزء الخلفي من البيت قد تم بيعه. وهذا الذي تبقى مرهون وسيباع في المزاد في أي لحظة.

ـ ألا تأسين لذلك؟

قالت أليخاندرا وهي تهز كتفيها:

ـ لا أدري... لعلي أتأسف على جدي، فهو يعيش في الماضي، وسيموت قبل أن يفهم ماذا حدث في هذه البلاد. أتعلم ماذا جرى للعجوز؟ جل ما في الأمر أنه طاهر لا يعرف الدنس، أتفهم؟ والآن ليس لديه لا الوقت ولا الألمعية لكي يعرف. لست أدري إن كان ذلك أفضل

أم أسوأ. عزموا مؤخراً على نشر إعلان لبيع المنـزل بالمزاد، وكان يتعين عليّ أن أذهب لمقابلة «موليناري»، كي يعالج الأمر.

ـ موليناري.؟

عاد ماريتن يسمع هذا الاسم مرة ثانية.

ـ نعم إنه ضرب من الحيوانات الأسطورية. خنـزير يدير شركة مساهمة. نظر إليها مارتين، فأردفت تقول وهي تبتسم:

ـ تربطنا علاقة ما. تصور، إن العجوز سيموت لو أنهم علقوا إعلان المزاد.

ـ والدك؟

ـ لا يا رجل: إنه جدي.

ـ ووالدك ألا يهتم بالمشكلة؟

نظرت إليه أليخاندرا وقد ارتسمت على محياها أمارة قد تشبه تصعيرة السخرية التي ينظر بها باحث إلى من يسأله إن كانت صناعة السيارات متطورة جداً في منطقة الأمازون.

ـ ووالدك؟

ألحّ مارتين رغم خجله الشديد، لأنه كان ـ بكل تأكيد ـ يشعر أنه تفوه بحماقة (وإن كان لا يعرف لماذا) وأنه كان من الأفضل ألا يلح.

قالت أليخاندرا بصوت اختلف جرسه:

ـ والدي لا يأتي إلى هنا أبداً.

وكان مارتين، كمن يتعلم قيادة الدراجة، ويترتب عليه، كيلا يسقط، أن يبقى سائراً نحو الأمام، ويودي به الأمر دائماً إلى الاصطدام بشجرة أو أي عائق آخر، فسأل:

ـ أيقطن في مكان آخر؟

- قلت لك إنه لا يسكن هنا.

تضرج وجه مارتين.

ذهبت أليخاندرا إلى الطرف الآخر من الشرفة، ومكثت هناك بعض الوقت، ثم عادت واتكأت بمرفقها على الحاجز بجانب مارتين.

- كان عمري خمس سنوات عندما توفيت والدتي. وعندما بلغت الحادية عشرة وجدت والدي هنا مع امرأة أخرى. وأحسب الآن، إنه كان يعيش معها قبل أن تموت والدتي بزمن طويل.

وبضحكة تشبه الضحكة الطبيعية، بقدر ما يمكن أن يشبه مجرم أحدب شخصاً بريئاً قالت:

- في السرير ذاته الذي أنام فيه الآن.

أشعلت لفافة، واستطاع مارتين أن يرى في ضوء الولاعة، آثار تلك الضحكة باقية على وجهها، كأنها جثة الأحدب، متفسخة كريهة الرائحة.

ثم رأى في الظلمة كيف كانت اللفافة تتأجج كلما تنفست بعمق: كانت تدخن وتمتص اللفافة بنهم وشغف شديدين.

قالت:

- حينذاك هربت من منـزلي.

10

إنها هي، تلك الفتاة النمشاء: عمرها أحد عشر عاماً، وشعرها مخضب بالحمرة. فتاة نحيلة مستغرقة بالتفكير لكنها عنيفة دائماً، كأن أفكارها ليست مجرد خواطر، وإنما أفاع مجنونة محمومة. بقي جزء خفي من تلك الفتاة، كما هو لم يتغير، وها إنها الآن، أليخاندرا بنت الثمانية عشر ربيعاً، هادئة حذرة، تحاول، كي لا يَجْفَلَ الشبح، أن تنتحي جانباً لتراقبه بحذر وفضول. إنها لعبة، كثيراً ما تستسلم إليها عندما تفكر في قدرها. لكنها لعبة محفوفة بالعقبات، دقيقة ومعرضة للفشل، كما يقول الروحانيون عن التجسيد: لا بد من الانتباه، والتحلي بالصبر، والتركيز بقوة، بعيداً عن الأفكار الجانبية المبتذلة، يأخذ الشبح بالبروز شيئاً فشيئاً، ولا بد من تسهيل ظهوره بالتزام الصمت المطبق والدقة المفرطة: فأي أمر مهما قل شأنه، سيجعله ينكفئ ويختفي في الناحية التي بدأ يخرج منها. إنه الآن هناك: لقد خرج، ويمكن رؤيته بضفائره الحمراء ووجهه النمش، يتفحص كل شيء من حوله بتينك العينين المرتابتين المحدقتين، ويتحفز للشجار والشتم. وها هي أليخاندرا تتأمله بمزيج من العطف والحقد الذي نكنه لإخوتنا الصغار، الذين نصُبّ عليهم ما يعتلج في نفوسنا من اشمئزاز من عيوبنا، عندما نصرخ بأحدهم قائلين: (لا تقرض أظافرك يا حيوان)!.

توجد في شارع «إيزابيل الكاثوليكية»، دار متداعية، والأحرى بنا أن نقول، كانت هناك دار متداعية، لأنها هدمت، ليبنى على أنقاضها مصنع برادات.

بقيت خالية سنوات طويلة، بسبب نزاع قضائي، أو اختلاف بين الورثة. أعتقد أنها كانت منتجعاً لآل «ميغنيس» ولابد أنها كانت في وقت من الأوقات جميلة جداً، مثلما كانت هذه. أتذكر أن جدرانها كانت خضراء فاتحة بلون البحر، وقد تقشرت كلها، كأنما أصيبت بالجذام. كنت ثائرة، وكانت فكرة هروبي واختبائي في بيت مهجور تمدني بشعور بالقوة يشبه إلى حد بعيد، الشعور الذي لا بد أن ينتاب الجنود عندما يشنون الهجوم رغم الخوف، أو بدافع من إحساس نقيض للخوف. لقد قرأت شيئاً عن هذا في مكان ما، وأنت ألم تقرأ عنه كذلك؟. أقول هذا لأنني كنت أعاني في الليل من مخاوف هائلة. ويمكنك أن تتصور كل ما يمكن أن ينتظرني في دار مهجورة. كنت كالمجنونة، أرى لصوصاً يدخلون غرفتي بفوانيسهم، أو جماعة «لاماسوركا» وبأيديهم رؤوس تنزف دماً (كانت «خوستينا» تقص علينا دائماً حكايات عن «لاماسوركا») كنت أسقط في آبار من الدم، أراها في اليقظة، لأنني أتذكرها، كما لو كنت أعيشها الآن في هذه اللحظة. ولذلك كنت أصرخ حتى تهرع جدتي «إيلينا» وتهدئ من روعي شيئاً فشيئاً، وكنت أمضي وقتاً طويلاً والسرير يهتز من تحتي من شدة معاناتي، لقد كانت نوبات. نوبات حقيقية.

ولذلك كان ما قمت به من تخطيط للاختباء ليلاً في دار مهجورة ومتداعية، ضرباً من الجنون. وأحسب الآن أنني خططت كي يكون انتقامي فظيعاً. شعرت بأن ذلك كان رائعاً، وأنه بقدر ما تكون الأخطار التي يتعين عليّ مواجهتها مريعة، يكون انتقامي أكثر روعة وأشدّ عنفاً. أتفهم؟. كأنما أفكر، ولعلي كنت أفكر فعلاً، (انظروا ما أعاني من جراء أبي!.). والأمر الغريب هو أن رعبي أثناء الليل تحول فجأة، منذ تلك الأمسية، إلى شجاعة مجنون. ألا يبدو ذلك أمراً عجيباً؟. وكيف يمكن

تفسير هذه الظاهرة؟. كان، كما قلت، ضرباً من العجرفة المجنونة أمام أي خطر حقيقي أو وهمي. لقد كنت في الواقع، جريئة دوماً، وفي أيام العطل التي أقضيها في مزرعة العانسين من آل «كارّاسكو»، صديقتيّ جدتي «إيلينا»، تعودت القيام بتجارب قاسية جداً: كنت أعدو في حقل وعر أمتطي مهرة أعطتاني إياها، وعمّدتها باسم أعجبني وهو: احتقار. ولم أكن أخشى القنافذ، رغم أن أنفاقها جعلتني أكبو مرات عدة. كان لديّ بندقية صيد عيار 22 مم، ومسدس هواء مضغوط، كنت أتقن السباحة جيداً، ورغم جميع النصائح، والأيمان المغلظة، كنت أتوغل في عرض البحر، وكان يتعين عليّ أن أصارع الأمواج الصاخبة أكثر من مرة (نسيت أن أقول لك إن مزرعة آل «كارّاسكو» تشرف على البحر قرب مدينة «ميرامار»)، إلا أنني، رغم كل ذلك كنت أرتجف رعباً من الوحوش الهائلة التي أتوهمها في الليل. حسناً، قلت إني قررت الهرب والاختفاء في الدار المهجورة في شارع «إيزابيل الكاثوليكية». انتظرت حلول الظلام لأتمكن من تسلق السور خلسة، كان باب الدار مغلقاً وعليه قفل، ولكن، لعل أحداً رآني، لكنه لم يعر الأمر أهمية في البداية، إذ لا شك أن أكثر من فتى قد فعل ـ بدافع من الفضول ـ ما فعلته في تلك اللحظة. وفيما بعد، عندما ذاع الخبر في الحي، وتدخل رجال الشرطة، لا بد أن يكون ذلك الرجل قد تذكر وأدلى بأقواله. وإن كانت الأمور قد سارت على هذا النحو، فيجب أن يكون ذلك قد حدث بعد ساعات من هروبي، لأن رجال الشرطة وصلوا إلى تلك الدار عند الساعة الحادية عشرة. وهكذا كان لدي الكثير من الوقت كي أواجه الرعب. ما إن تدليت من السور وهبطت حتى توجهت إلى الدار عبر مدخل الإسطبل القديم، بعد أن اجتزت أرضاً تغطيها الأعشاب والأواني البالية، والنفايات، وجثث القطط والكلاب، والمواد النتنة. نسيت أن

أقول لك إني اصطحبت مصباحي الكهربائي وسكين النزهات، ومسدس الهواء المضغوط الذي كان جدي بانشو قد أهداني إياه عندما بلغت العاشرة من عمري. وكما قلت لك فقد توجهت إلى الدار من مدخل الإسطبل حتى وصلتها. كان هناك رواق يشبه رواق دارنا، وكانت النوافذ التي تطل على ذلك الرواق أو الممر مغطاة «بأباجورات» بالية، بعضها متداع، وفي بعضها الأخر فجوات، وليس من المستبعد أن تكون الدار قد اتخذت مأوى للمشردين والمتسولين يقضون فيها الليل، أو يقطنون فيها مدة طويلة من الزمن، ومن كان يضمن ألاّ يأتي أحدهم لينام تلك الليلة هناك...؟. في ضوء مصباحي الكهربائي تفحصت الأبواب والنوافذ التي تطل على الجهة الخلفية، فرأيت باباً فُقد منه أحد صفقي الأباجور، دفعته ففتح بصعوبة، وهو يصر كما لو أنه لم يفتح منذ زمن طويل، فكرت في تلك اللحظة، بينما يتملكني الرعب، أن أحداً لم يكن يجرؤ حتى لو كان متسولاً، على اللجوء إلى تلك الدار سيئة السمعة. ترددت للحظات، وفكرت أنه يستحسن ألاّ ألج إلى الداخل، بل أقضي الليل في الممر، ولكن البرد كان شديداً، لذا رأيت بعد أن عاينت الأمر من مختلف الوجوه، أنه يتعين عليّ أن أدخل وأن أضرم النار أيضاً. فكرت أن المطبخ هو المكان الملائم الذي يمكن أن أتخذ من بلاطه موقداً، كما كنت آمل أن تنفّر النار الفئران والحيوانات التي كانت تثير اشمئزازي دائماً. كان المطبخ متداعياً كباقي أنحاء البيت الأخرى، وشعرت أنني لن أجرؤ على أن أضطجع على الأرض، إذ على الرغم من أنني جمعت كوماً من التبن، فقد تصورت أن الفئران يمكن أن تصل إلى هناك بسهولة، وبدا لي أنه يحسن أن أنام فوق الموقد. كان المطبخ من الطراز القديم، شبيه بمطبخنا، وبتلك المطابخ التي لا تزال موجودة في بعض البيوت الريفية. فيه موقد للفحم، وفرن بسيط. أما أنحاء البيت

الأخرى فقد تركت أمر استكشافها إلى اليوم التالي: لم أكن في تلك الساعة من الليل أحظى بالشجاعة الكافية لكي أتجول فيها، ثم إن ذلك لم يكن ضرورياً. كان أول ما قمت به هو جمع الحطب من الحديقة. أعني، جمع ما عثرت عليه من بقايا صناديق وأخشاب متناثرة وقش وأوراق وعيدان متساقطة، وأغصان شجرة يابسة وجدتها هناك. فأضرمت النار بعد أن قمت بتجميع ما ذكرت قرب باب المطبخ، كي أتلافى تجمع الدخان في داخله. بعد بضع محاولات، سارت الأمور على مايرام، فما إن رأيت ألسنة النار وسط الظلمة، حتى أحسست بالدفء يغمر جسدي وروحي. ثم أخرجت من محفظتي شيئاً من الطعام، وجلست فوف صندوق قرب النار، وأكلت بشهية، لحماً مقدداً وخبزاً وزبدة، وقطعة من مربى البطاطا. كانت ساعتي تشير إلى الثامنة فقط!. لم أكن أرغب في التفكير بما كان ينتظرني في ساعات الليل الطويلة.

وصل رجال الشرطة عند الساعة الحادية عشرة. لست أدري إن كان أحد رأى ـ كما قلت ـ طفلاً يتسلق السور، أم أن أحد الجيران رأى ناراً، أو دخان النار التي أضرمتها، أو لاحظ تحركاتي في الداخل وأنا أتجول بمصباحي الكهربائي. حقيقة الأمر أن رجال الشرطة وصلوا. ويجب أن أعترف بأنني استقبلت وصولهم والفرحة تغمرني، ولعله لو كان يتعين عليّ أن أقضي الليل هناك، بعد هدوء الضجيج في الخارج، وبعد أن يتملكني الإحساس بأن المدينة قد نامت حقاً، لكان تراكض الفئران والقطط، وصفير الرياح، وما يمكن لمخيلتي أن تتوهم من ضوضاء تعزوها إلى الأشباح، قد أودى بي إلى الجنون. ولذلك كنت عندما وصل رجال الشرطة، صاحية منزوية فوق الموقد أرتجف من الخوف.

يصعب أن أصف لك الحال في المنزل عندما أتوا بي، كان جدي «بانشو» المسكين لا يني يسأل، والدموع تملأ عينيه، لماذا ارتكبتُ تلك

الحماقة. وكانت جدتي «إيلينا» تنهرني حيناً وتداعبني بجنون حيناً آخر. أما الخالة «تيريسا» - وهي في الحقيقة خالة أبي - التي كانت تقضي أوقاتها في تشييع الأموات، وفي الكنائس، فكانت تصرخ مهددة بأني يجب أن أزج في المدرسة الداخلية الكائنة في شارع «مونتيس دي أوكا» بأسرع ما يمكن. ولا بد من أن يكون اجتماع العائلة السري قد استغرق زمناً طويلاً من تلك الليلة، فقد كنت أسمعهم يتناقشون هناك في القاعة الكبرى. بلغني في اليوم التالي أن الجدة «إيلينا» قررت الخضوع لرأي الخالة «تيريسا» لأنها كانت، كما أعتقد الآن، تفكر بأني يمكن أن أكرر ذلك التصرف الشنيع في أي وقت، أو لأنها بالإضافة إلى ذلك، كانت تعرف أنني أحب الراهبة «تيودلينا» كثيراً. أمام هذا كله، رفضت طبعاً أن أقول أيّ شيء وبقيت حبيسة غرفتي طول الوقت، ولكنني كنت في دخيلتي أستسيغ فكرة الخروج من ذلك البيت: كنت أفترض أن ذلك سيجعل والدي يحس بوطأة انتقامي، على نحو أفضل.

لست أدري إن كان دخولي المدرسة، أو صداقتي للراهبة «تيودولينا» أو تلك الأزمة، أو كل هذه الأمور مجتمعة هي التي جعلتني أنغمس في التدين. فقد وجدتني أتحمس للدين كحماستي للسباحة أو ركوب الخيل: كأنما كنت أقامر بحياتي، منذ ذلك الوقت، وإلى أن بلغت الخامسة عشر. كان الأمر ضرباً من جنون، ***كالجنون ذاته الذي كان يستولي عليّ وأنا أسبح في البحر في ليال عاصفة، كأنما أسبح بغضب ثائر في ليلة مقدسة عظيمة وسط الظلمات، تبهرني العاصفة الكبرى التي تضطرم في داخلي.***

هاهو «الأب أنطونيو»: يتحدث عن آلام المسيح، ويصف بحماسة المعاناة والإذلال والتضحية الدموية على الصليب، الأب أنطونيو طويل القامة، والأمر الغريب أنه يشبه والدها. أليخاندرا، تبكي بصمت أولاً،

ثم تنهمر دموعها بشدة، ثم بصخب وعنف، تهرب. تتراكض الراهبات مذعورات. ترى الأخت «تيودولينا» واقفة أمامها تواسيها، ثم يقترب الأب أنطونيو محاولاً مواساتها أيضاً. تبدأ الأرض تميد من تحتها كأنها في مركب صغير. الأرض تموج كأنها بحر، والغرفة تتسع أكثر فأكثر، ثم يبدأ كل شيء بالدوران: بطيئاً في البداية، ثم بسرعة فجأة... يتصبب منها العرق، ويقترب الأب أنطونيو منها. إن يده الآن ضخمة جداً، يده تقترب من خدها كأنها وطواط دافئ يثير الاشمئزاز. فتسقط مصعوقة بشحنة كهربائية شديدة.

صاح مارتين وهو يسرع إليها.

ـ ماذا جرى يا أليخاندرا؟.

كانت قد انهارت، تشنجت وانطرحت على الأرض لا حراك فيها. واكتسى وجهها بلون بنفسجي، ثم بدأت ترتعش فجأة.

ـ أليخاندرا...!. أليخاندرا..!.

لكنها لم تكن تسمعه، أو تشعر بذراعيه يطوقانها، كانت تئن وتعض على شفتيها.

وكعاصفة البحر التي تهدأ شيئاً فشيئاً، أخذت أناتها تتباطأ وتلين على نحو يثير الأسى، وبدأ جسدها يخمد ويرتخي كأن الروح فارقته. حملها مارتين بين ذراعيه إلى غرفتها ومددها على السرير، بعد مضي ساعة أو ربما أكثر فتحت أليخاندرا عينيها، ونظرت كأنها ثملة. ثم استوت ومسحت وجهها بيديها كما لو أنها تود أن تصحو، وبقيت صامتة مدة طويلة. كانت تبدو متعبة جداً.

ثم نهضت وبحثت عن أقراص دواء، فابتلعتها.

كان مارتين يتأملها مذعوراً.

ـ لا تقطب هكذا، إن كنت ستصبح صديقي، يتعين عليك أن تعتاد هذا كله، ليس لما حدث أي أهمية.

تناولت لفافة من فوق المنضدة، وبدأت تدخنها، واستراحت وقتاً طويلاً ثم سألت:

ـ عمّ كنت أحدثك؟.

ذكّرها مارتين.

ـ أتعلم ؛ إني في هذه الحالة لا أقوى على التذكر.

استغرقت في التفكير وهي تدخن ثم أردفت تقول:

ـ هلم بنا نخرج. أودّ أن أتنشّق الهواء.

اتكأت على حاجز الشرفة.

ـ كنتُ إذاً أحدثك عن هروبي.

دخنت بصمت.

ـ كانت الراهبة «تيودولينا» تقول إنه لم يكن ينفع معي أي شيء. كنت أعاني العذاب أياماً طويلة، أحلل مشاعري وردود أفعالي. بدأتُ سلسلة من أعمال تعذيب الذات، بعد ذلك الذي جرى مع الأب أنطونيو: كنت أركع ساعات فوق زجاج محطم. كنت أدع نقط شمع القناديل الحارة تتساقط على يدي. وحتى إني قطعت شرايين معصمي بشفرة حلاقة. وعندما أرادت الراهبة «تيودولينا» إلزامي، وهي تبكي، أن أقول لها لماذا فعلت ذلك، لم أبح بشيء. والحقيقة أنني، أنا بالذات، لم أكن أعرف، وأعتقد أنني حتى الآن لا أعرف. ولكن الراهبة «تيودلينا» كانت تقول لي إنه يجب علي ألاّ أقوم بمثل تلك الأفعال، وأن الرب لا يستسيغ هذا التصرف، وأن في تلك التصرفات كثيراً من العنفوان الشيطاني. ياله من رأي سديد...!. لقد كان ذلك الجنون أقوى وأمضى

من أي حجج ومسوغات، وسترى كيف وإلى أين انتهى.

ثم استغرقت في التفكير وقالت بعد قليل:

- يا للغرابة، أحاول أن أتذكر كيف مرت تلك السنة، ولكن لا تحضرني سوى مشاهد متفرقة وأحدها إلى جانب الآخر. وأنت أيحدث لك مثل ذلك؟. أشعر الآن بمرور الزمن كأنه يجري في شراييني، مع دمي ونبضات قلبي. ولكن، عندما أحاول أن أتذكر الماضي فإن شعوري يختلف: أرى مشاهد متفرقة كأنما هي صور جامدة.

ذاكرتها مؤلفة من شظايا وجود ساكنة وخالدة: فالزمان، في الواقع، لا يمرّ بينها، كما أن أموراً حدثت في حقب بعيد بعضها عن بعضها الآخر زمناً شاسعاً، توجد جنباً إلى جنب، تشدها أو تجمعها ضروب غريبة، من كراهية وتعاطف غريبين، أو لعلها تخرج إلى سطح الوعي، تربطها روابط سخيفة لكنها جبارة، كأغنية ما، أو دعابة، أو حقد مشترك. وكما هو حالها الآن، فإن الخيط الذي يجمع تلك الأمور، ويجعلها تخرج شيئاً فشيئاً، واحداً تلو الآخر، هو ضرب من ضراوة في البحث عن مطلق ما، ضرب من حيرة ما تربط بين كلمات مثل، أب، رب، شاطئ، خطيئة، طُهر، بحر، موت.

- وجدتني في أحد أيام الصيف أسمع «جدتي إيلينا» تقول: (يجب أن تذهب أليخاندرا إلى الريف، يجب أن تخرج من هنا لتتنشق الهواء). والأمر الغريب هو: إنني أتذكر أن جدتي «إيلينا» كانت في تلك اللحظة تضع قمع خياطة فضّياً في إصبعها.

ضحكتُ. فسألها مارتين بخبث:

- لماذا تضحكين؟.

- لا شيء، لا شيء ذا أهمية. بعثوا بي إلى مزرعة العجوزين

«كارّاسكو» اللتين تربطهما بالجدة «إيلينا» أواصر قرابة بعيدة. لست أدري إن كنت قد قلت لك إنها لم تكن تنتمي إلى آل «ألموس» وإنما إلى آل «لافيتي». كانت امرأة بالغة الطيبة. وقد تزوجت من جدي «باتريسيو» بن «دون بانشو». سأحدثك يوماً ما عن جدي «باتريسيو» وكيف مات. حسناً، قلت لك، إن العجوزين «كارّاسكو» كانتا ابنتي عم من الدرجة الثانية لجدتي «إيلينا». كانتا عانسين أبديتين. وحتى إن اسميهما كانا غريبين: «إرميليندا» و«روساليندا». كانتا قدِّيستين، وكنت لا أعيرهما أي اهتمام فعلاً، كما لو أنهما بلاطة مرمر أو قمع خياطة، وحتى إنني لم أكن أبالي بهما عندما تتحدثان. كانتا ساذجتين جداً، ولو كان بوسعهما ـ ولثانية واحدة فقط ـ قراءة ما كان يدور في رأسي من أفكار، لماتتا من الخوف. ولذا كان يطيب لي أن أذهب إلى مزرعتهما: كنت أتمتع بحريتي كاملة. فأستطيع أن أمتطي مهرتي إلى الشاطئ: لأن مزرعة العجوزين كانت مجاورة للبحر وتقع جنوب «ميرامار». ثم إن نفسي كانت تضطرم بالرغبة في أن أكون وحيدة، وفي أن أسبح وأعدو على الفرس الرقشاء وأشعر بالوحدة أمام امتداد الطبيعة اللامحدود، بعيداً عن الشاطئ، حيث يتكدس البشر الأنجاس الذين كنت أمقتهم. كان قد مضى عام لم أرَ فيه «ماركوس مولينا» وكانت فرصة لقائه تستهويني. كانت سنة بالغة الأهمية حقاً!.. كنت أود أن أحدثه عن أفكاري الجديدة، وعن مشروع عظيم جداً، وأحقنه بإيماني المضطرم. كان جسدي كله يتفجر قوة، ورغم أنني كنت دائماً شبه متوحشة، إلا أن قوتي في ذلك الصيف كانت تبدو مضاعفة، وإن اتخذت منحى آخر. لقد تألم «ماركوس» في ذلك الصيف كثيراً. كان عمره خمسة عشر عاماً، أي كان أكبر مني بعام واحد، كان طيباً رياضي الجسم، وأعتقد الآن أنه سيكون بوسعه أن يصبح رب أسرة ممتازاً، ولا شك أنه أهلْ

ليرأس أحد فروع جمعية العمل الكاثوليكي. لا تظن أنه كان خجولاً، بل كان فتىً طيباً، من ذلك النوع الكاثوليكي المخنث: عامر بالإيمان والبساطة والهدوء. فكر الآن بما يلي: ما إن وصلت المزرعة حتى احتكرتُه لنفسي، وبدأت محاولة إقناعه بأن نذهب سوياً، كمبشرين، إلى الصين، أو إلى الأمازون، عندما نبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً. أتفهم؟. كنا نمتطي الجياد، ونذهب بعيداً على طول الشاطئ نحو الجنوب حيناً، وكنا نذهب على الدرّاجات أو نمشي ساعات طويلة حيناً آخر. وكنت أحاول بخُطَبي الطويلة المليئة بالحماس، أن أجعله يدرك عظمة العمل الذي اقترحته. كنت أحدثه عن الأب «داميان» وعن عمله بين المجذومين في «بولينيزيا»، وأروي له قصص المبشرين في الصين وفي أفريقيا، وقصص الراهبات اللواتي ذبحهن الهنود في «ماتوجروسو». فيما يتصل بي، كانت أعظم متعة يمكن أن أشعر بها، هي أن أموت مثل تلك الميتة شهيدة. كنت أتصور كيف يقبض المتوحشون علينا، وكيف يعرونني، ويربطونني بحبل إلى شجرة، وكيف يبقرون، فيما بعد، وسط الصياح والرقص، بطني بسكين حجري مسنون، ثم ينتزعون قلبي وهو ينزف دماً.

صمتت أليخاندرا، ثم أشعلت لفافتها التي كانت قد انطفأت، وتابعت تقول:

ـ كان ماركوس كاثوليكياً، بيد أنه كان يستمع إليّ صامتاً كأنه أخرس حتى اعترف ذات يوم، بأن تضحيات أولئك المبشرين الذين يموتون ويستشهدون في سبيل الإيمان، أمر يثير الإعجاب، لكنه لا يشعر بأنه أهل للقيام بذلك، وهو في جميع الأحوال، يعتقد أنه يمكن أن يخدم الرب على نحو أكثر تواضعاً، وذلك بأن يكون إنساناً طيباً، وبأن لا يؤذي أحداً. ولقد أثارت تلك العبارات سخطي.

صرخت في وجهه غاضبة:

إنك جبان!.

تكرر هذا المشهد، مع تباين طفيف في التفاصيل مرتين أو ثلاثاً.

كان يمكث ذليلاً معذباً، أما أنا فكنت في تلك اللحظة أبتعد عنه، أضرب مهرتي بالسوط وأعدو بسرعة غاضبة، تفيض نفسي باحتقار ذلك الشيطان المسكين، لكن سرعان ما كنت أعود في اليوم التالي للحديث عن الأمور ذاتها تقريباً. ولست أدري حتى اليوم، سبب ذلك الإلحاح، لأن «ماركوس» لم يكن يوقظ في نفسي أي إعجاب. لكنني كنت، في الواقع، مهووسة ولم أترك له أي فرصة لالتقاط أنفاسه.

كان يقول لي بوداعة، وهو يطوقني بذراعه الضخم:

ـ دعي الوعظ الآن، وهيا بنا نسبح.

وكنت أصيح:

ـ لا.. لحظة..!.

وكأنما أحاول منعه من التخلص من وعد التزم به. ثم أبدأ من جديد.

كنت أحدثه عن الزواج أحياناً.

قلت له مرة:

ـ لن أتزوج أبداً. أعني لو أنني تزوجت، فلن أنجب أبداً.

نظر إلي مستغرباً فسألته:

أتعرف كيف يتم إنجاب الطفل؟.

فأجاب وقد تضرج وجهه:

ـ تقريباً.

ـ حسناً. إذا كنت تعرف، فلا شك أنك تدرك أنها عملية قذرة.

قلت تلك العبارات بحزم، وبشيء من الغضب، كما لو أنها حجة أخرى تؤيد نظريتي حول التبشير والتضحية.

ـ سأذهب، ولكن يجب أن أذهب مع أحد ما. أتفهم؟.

ينبغي أن أتزوج أحداً ما، وإلا جعلوا الشرطة تقوم بالبحث عني، ولما تمكنت من الخروج من البلاد. لذلك فكرت بأنني يمكن أن أتزوجك، انظر: عمري الآن أربعة عشر عاماً، وعمرك خمسة عشر. عندما يصبح عمري ثمانية عشرعاماً، أكون قد أنهيت دراستي، وحينئذ نتزوج بإذن من قاضي الأحداث. لا يستطيع أحد أن يمنعنا من ذلك. وفي أسوأ الأحوال، نهرب، ولن يكون أمامهم عندئذ سوى الاستسلام. ثم نذهب إلى الصين، أو إلى «الأمازون». ما رأيك؟. لكننا سنتزوج لكي نتمكن من الذهاب بسهولة وحسب، أتفهم؟. ليس من أجل إنجاب الأطفال. وكما قلت لك. لن ننجب أبداً. سنعيش سوياً دائماً، سنجوب بلاداً متوحشة ولكن لن يمس أحدنا الآخر، أليس ذلك رائعاً؟.

نظر إليّ وقد اعترته الدهشة.

فاسترسلت أقول:

ـ ينبغي ألاّ تخاف من الأخطار. يجب أن نواجهها ونتغلب عليها، سوف لن تصدق إن قلت لك إن لديّ نزوات، ولكنني قوية وقادرة على التحكم فيها. هل تتصور ما أجمل أن نعيش معاً سنوات طويلة، ننام في سرير واحد، وقد يرى أحدنا الآخر عارياً ومع ذلك، نتغلب على دوافع الغواية في ألا يلمس أحدنا الآخر أو يقبله؟.

كان ماركوس يتأملني مذعوراً.

قال:

ـ يبدو لي أن كل ما تقولين ليس سوى جنون محض. ألا يأمرنا الرب

أن نتزاوج وننجب؟.

فصرخت:

قلت لك إني لن أنجب أبداً..!. وحذار، أن تمسني..!. لن يمسني أحد أبداً...أبداً.

انفجرت ثورة حقدي وبدأت أنضو ملابسي عني.

وصرخت كأنما أتحداه:

ـ سترى الآن..!.

كنت قرأت أن الصينيين يحولون دون نمو أقدام نسائهم بوضعها في قوالب معدنية، وأن السوريين، على ما أعتقد، يحوِّرن شكل رؤوس أولادهم بلفها بالأقمطة. عندما أخذ نهداي ينموان بدأت استعمل قماطاً انتزعته من غطاء السرير، طوله حوالي ثلاثة أمتار: كنت أدور عدة دورات وأنا أشده بقسوة. ولكن نهديّ، مع ذلك، نموا مثلما تنمو تلك النباتات في تجاويف الصخور ثم ينتهي بها الأمر إلى تحطيمها. وهكذا، ما إن نضوت قميصي وتنورتي وسروالي الداخلي عني، حتى بدأت أنزع القماط. لم يتمكن ماركوس، الذي أصيب بالرعب، من مقاومة إغواء تأمل جسدي، كان يبدو كعصفور تفتنه أفعى. بعد أن تعريت، واضطجعت على الرمال، قلت أتحداه:

ـ هيا، انزع ثيابك الآن..!. برهن على أنك رجل..!.

تمتم ماركوس:

ـ أليخاندرا، إن كل ما تقومين به ليس سوى جنون وخطيئة..!.

ردد كأنه شبه أخرس كلمة خطيئة مرات عدة، من دون أن يرتد طرفه عن جسدي. أما أنا فتابعت أصرخ في وجهه باحتقار بالغ، أيها المخنث، إلى أن بدأ ـ وقد استبد به الغضب ـ ينزع ثيابه، ولكن ما إن

أصبح عرياناً حتى بدا كأن عزيمته قد خارت، فوقف مصعوقاً يتأملني وجلاً.

قلت له بلهجة آمرة:

ـ اضطجع هنا.

ـ إن هذا جنون وخطيئة يا أليخاندرا.

ـ هيا اضطجع هنا.

أطاعني.

مكثنا سوياً مضطجعين فوق الرمال الدافئة، أحدنا بجانب الآخر يتأمل السماء. كان يخيم صمت مطبق يمكن معه سماع دبيب فقاعات الماء في ثنايا الأحجار الكلسية، وكانت النوارس تزعق وتحوم حولنا. وأحسست بأنفاس ماركوس، كما لو أنه آت من سباق طويل.

قلت:

ـ أترى ما أبسط ذلك، يمكننا أن نبقى هكذا.

فصاح ماركوس وهو ينهض فجأة كأنه يهرب من خطر داهم:

ـ أبداً، أبداً.

ارتدى ملابسه وهو يردد: (أبداً، أبداً، أنت مجنونة، إنك مجنونة حقاً..!.).

لم أقل شيئاً، إنما كنت أبتسم بارتياح، كنت أشعر بأنني أتمتع بقوة جبارة. ثم، كأن الأمر لا ينطوي على أي أهمية. اكتفيت بالقول:

ـ لو أنك لمستني، لقتلتك بهذه السكين.

وقف ماركوس مصعوقاً من الذعر، ثم بدأ يركض فجأة نحو «ميرامار».

رأيته وأنا مستلقية، كيف كان يبتعد، ثم نهضت وانطلقت نحو الماء.

قضيت زمناً طويلاً وأنا أسبح وأحس كيف كانت المياه المالحة تلف جسمي العاري. كانت كل ذرة من جسدي تبدو كأنها تنبض بروح العالم.

بقي «ماركوس» بضعة أيام متوارياً عن شاطئ «الحجارة السوداء». حسبت أنه كان خائفاً أو أنه ربما أصيب بمرض، لكنه عاد بعد أسبوع خجلاً، تظاهرت بأن شيئاً لم يحدث، وخرجنا نتمشى كعادتنا. وما إن سرنا قليلاً حتى باغتّه القول:

ـ «ماركوس»، هل فكرت بمسألة الزواج؟.

توقف «ماركوس». نظر إليّ بجد وقال بحزم:

ـ أتزوجك يا أليخاندرا، ولكن ليس على النحو الذي ترغبين.

فصحت:

ـ كيف؟. ماذا تقول؟.

ـ قلت إنني سأتزوج لكي أنجب أطفالاً، كما يفعل جميع الناس.

شعرت بأن عيني قد احمرتا، أو بأني أرى كل ما حولي قد تخضب بالحمرة. ووجدتني أنقضّ عليه، من دون أن أنتبه لِمَ أفعل ذلك، وقعنا على الأرض وتصارعنا. وعلى الرغم من أن «ماركوس» كان قوياً ويكبرني بعام، فقد تعاركنا في البداية، وأعتقد أن غضبي ضاعف من قوتي. وأتذكر أنني تمكنت فجأة من أن أطرحه تحتي، وأن أركله بركبتي على بطنه. كان أنفي ينزف دماً، وكنا نزمجر مثل عدوين لدودين. بذل «ماركوس» جهداً كبيراً، ثم استدار فجأة وجثم على صدري، وشعرت بيديه تطبقان عليّ وتلويان ذراعي ككفكي كماشة، أخضعني وسيطر عليّ، وأحسست بوجهه يقترب من وجهي أكثر فأكثر إلى أن قبلني.

عضضت شفتيه، فتخلص مني وهو يصرخ من شدة الألم، ثم اندفع يعدو.

انكفأت على نفسي. ولكن الأمر الغريب هو أنني لم أطارده: ذهلت وأنا أراه يبتعد، تلمست فمي بيدي، وفركت شفتي كأنني أود تنظيفهما مما لحق بهما من دنس. وشعرت، شيئاً فشيئاً، بأن ثورة الغضب عادت من جديد تأجج في كياني مثلما يضطرم الماء وهو يغلي في قدر، فنضوت عني ملابسي وركضت نحو الماء. سبحت زمناً طويلاً، ربما دام ساعات، في عرض البحر بعيداً عن الشاطئ.

كنت أحس بشهوانية غريبة عندما تتقاذفني الأمواج. كنت أشعر بأنني قوية ووحيدة، ومشؤومة تسيطر علي الشياطين، في الوقت ذاته.

سبحت، وسبحت، حتى خارت عزيمتي، فبدأت أتجه نحو الشاطئ.

مكثت طويلاً مستلقية فوق الرمال الدافئة أستريح، وأراقب النوارس تحوم حولي. كانت بعض السحب الهادئة الساكنة في أعالي السماء توحي بالدعة المطلقة، بينما بدأ الليل يرخي سدوله. أما أنا، فكانت روحي تضج بأعاصير ورياح عاتية: كان يبدو لي وأنا أنظر نحو دخيلتي أن وعيي مثل مركب صغير تعصف به الزوابع.

عدت عندما خيمت الظلمة إلى المنزل، فغمرني حقد مبهم يطال كل شيء، بما في ذلك ذاتي. أحسست بأن أفكاراً إجرامية شتى تتزاحم في رأسي. كنت أمقت شيئاً واحداً: كوني أحسست بمتعة ذلك الصراع وتلك القبلة، وحتى عندما كنت مستلقية على فراشي، أنظر إلى السقف، كان يستولي عليّ إحساس مبهم تقشعر منه بشرتي، كأنما أُصبت بالحمى. والأمر الغريب أنني لم أكن أتذكر آنذاك ماركوس على اعتبار أنه الفتى ماركوس (وقد سبق وقلت لك: إنه كان يبدو بالغ البلاهة، ولم

يثر إعجابي قط). كان إحساس مبهم ينتاب بشرتي ودمي، ذكرى ذراعين تطبقان عليّ، وذكرى قبلة على نهدي وفخذي. لست أدري كيف أشرح لك، إنما كان، كما لو أن صراعاً بين قوتين متناقضتين يدور في داخلي. صراع لم أتمكن من إدراك كنهه، لكنه يسبب لي الضيق، ويشحنني بحقد، خلت أن ما يغذيه، تلك الحمّى التي اقشعرت منها بشرتي وتركزت في ذروتي نهديّ.

لم أجد إلى النوم سبيلاً. نظرت إلى ساعتي فكانت تشير إلى الثانية عشرة ليلاً. ورأيتني من دون أن أعي ما كنت أفعل تماماً، أرتدي ملابسي، ثم أقفز من نافذة غرفتي إلى الحديقة الصغيرة، مثلما فعلت في مرات سابقة. لست أدري إن قلت لك إن آل «كارّاسكو» يملكون أيضاً بيتاً صغيراً في مدينة «ميرامار»، يقضون فيه بضعة أسابيع أحياناً، أو أيام نهاية الأسبوع، كنا في ذلك الحين هناك.

ذهبت إلى منزل ماركوس مسرعة. (على الرغم من أنني أقسمت ألاّ أراه ثانية).

كانت غرفته في الطابق العلوي، تطل على الشارع. صفَّرت وانتظرت، مثلما كنت أفعل من قبل.

لم يجب، بحثت عن حصاة في الشارع وقذفت بها عبر نافذته التي كانت مفتوحة، وعدت أصفر ثانية. فأطل وسألني بدهشة، ما الأمر؟.

قلت له:

ـ انزل. أريد أن أتحدث إليك.

أعتقدُ أنني لم أكن، حتى تلك اللحظة، قد أدركت بعد، أنني كنت أود قتله؛ على الرغم من حرصي على أن آخذ سكين الرحلات معي.

أجابني:

ـ لا أستطيع يا أليخاندرا، إن والدي غاضب جداً، وإن سمعني الآن فسيكون الوضع أسوأ.

فقلت بهدوء يخالطه حقد بالغ:

ـ إن لم تنزل فسيكون الأمر أسوأ مما تتصور، أعني، إنني سوف أصعد.

تردد لحظة، ولعله قدر النتائج التي يمكن أن تترتب على تصميمي على الصعود، فطلب إلي أن أنتظر.

وما إن مضت لحظات حتى خرج من الباب الخلفي.

شرعت أسير أمامه.

سألني مذعوراً:

ـ إلى أين أنت ذاهبة؟. ماذا تنوين أن تفعلي؟.

لم أجب، وتابعت السير حتى وصلت إلى أرض بور خالية على بعد خمسين متراً من المنزل. كان يسير خلفي دوماً كما لو أنني أجره.

استدرت نحوه فجأة وقلت:

ـ لماذا قبلتني اليوم؟.

لا بد أن صوتي أو تصرفي، أو أي أمر آخر، لست أدري ما هو، قد أثر فيه لأنه أُرتج عليه فلم يستطع أن يتكلم.

فقلت له بقوة:

ـ أجب.

فتمتم قائلاً:

ـ سامحيني، لم أفعل ذلك عامداً..!.

ولعله لمح بزيق نصل السكين، أو لعل غريزة حب البقاء جعله ينقضّ عليّ في اللحظة المناسبة، قبض بكلتا يديه على ذراعي الأيمن، وأخذ

يضغط كي يسقط السكين من يدي. وبعد أن تمكن من انتزاعه، طوّح به بعيداً. ركضت وبدأت أبحث عنه وأنا أبكي من شدة الغضب، ولكن عبثاكنت أحاول العثور عليه وسط الظلمة بين تلك الأعشاب المتشابكة كالعنكبوت، ثم خرجت أعدو نحو الشاطئ، وقد هيمنت عليّ فكرة الموت غرقاً في عرض البحر. ركض «ماركوس» ورائي، ولعله ارتاب بما كنت أنوي، وأحسست فجأة بأنه تناولني بضربة خلف أذني. أغمي علي، وكما علمت فيما بعد، حملني وأخذني حتى بلغ بيت آل «كارّاسكو». تركني بجانب الباب وولى هارباً. قد يخال المرء، لأول وهلة، أن تصرفه كان في منتهى القسوة، نظراً للفضيحة التي أثارها، ولكن، ماذا كان بوسع «ماركوس» أن يفعل؟. هل تتصور ما يمكن أن يحدث لو أنه بقي إلى جانبي، وأنا مغمى علي عند منتصف الليل، في وقت كانت العجوزان تظنان أنني في سريري مستغرقة في النوم؟. لقد تصرف على النحو المناسب، ومع ذلك يمكنك أن تتصور وقع الفضيحة. عندما صحوت واستعدت وعيي، كنّ جميعهن، العجوزان والخادمة والطاهية فوق رأسي بالمراوح والعطور وما إلى ذلك.. تبكين وتتحسرن كأنهن تواجهن مأساة مستنكرة. كن تستنطقنني، تصرخن، ترسمن إشارة الصليب، تناجين الرب، تصدرن الأوامر.

كانت كارثة قد حلت.

تصور، إني رفضت أن أقدم أي إيضاحات.

أتت جدتي «إيلينا» مفجوعة، وحاولت عبثاً أن تنتزع مني أي كلمة عمّا حدث. بقيت مصابة بالحمى طيلة الصيف تقريباً.

في أواخر شباط/ فبراير، بدأت أتماثل للشفاء.

أصبحت كالخرساء، لا أكلم أحداً، ورفضت أن أذهب إلى الكنيسة،

فقد كان يخيفني مجرد التفكير في أن أعترف بما كان يدور في رأسي من أفكار في تلك الحقبة الأخيرة.

عندما عدنا إلى «بوينس أيرس» قالت الخالة «تيريسا» (لا أدري إن كنت قد حدثتك عن تلك العجوز المجنونة، كانت تقضي أيامها في المآتم والصلاة على الموتى، وتتحدث دائماً عن الأمراض والمعالجات) قالت عندما مَثَلْتُ أمامها:

- إنك على شاكلة أبيك. ستكونين فتاة ضالة، يسعدني أنك لست ابنتي.

خرجت تتملكني ثورة غضب على تلك العجوز المجنونة، ولكن من الغرابة بمكان أن جنون غضبي الأشد لم يكن ينصب عليها، وإنما على والدي، وكأن عبارة الخالة «تيريسا» كانت قد طالتني كما لو أنها «بوميرانج»[1] ذهب حتى والدي ثم ارتد إلي ثانية.

قلت لجدتي «إيلينا» إنني أود العودة إلى المدرسة، وإنني لن أنام ليلة واحدة في هذا المنزل. وعدتني أن تتحدث مع الراهبة «تيودولينا» لكي تجد وسيلة لقبولي قبل بدء العام الدراسي. لست أدري عم تحدثتا سوياً، ولكنهما بحثتا، في الواقع، عن الطريقة المناسبة لقبولي في المدرسة. ركعت في تلك الليلة أمام سريري وتوسلت الرب أن تقضي الخالة «تيريسا» نحبها. وكررت توسلاتي بخشوع طيلة أشهر في كل ليلة قبل أن آوي إلى فراشي، وأثناء ساعات الصلوات الطوال في المعبد. لكنني رغم إلحاح الراهبة «تيودولينا» رفضتُ أن أعترف: كانت فكرتي الماكرة

(1) البوميرانج: سلاح غريب متقن اخترعه الإنسان البدائي، وهو عبارة عن قرص يقوم أثناء انطلاقه برسم منحنيات معقدة، وعندما لا يصيب الهدف يعود مرة أخرى ليستقر بين قدمي راميه. (المترجم).

تتلخص في أن أشهد أولاً موت الخالة «تيريسا» ومن ثم أعترف، لأنني، (فكرت)، لو اعترفت قبل ذلك، لتعين عليّ أن أبوح بما وطدت العزم عليه أولاً، ولوجدت نفسي ملزمة أن أتخلى عنه تالياً.

لكن الخالة «تيريسا» لم تمت، بل على العكس من ذلك، كانت العجوز تبدو في أحسن أحوالها عندما عدت إلى المنزل أثناء العطلة المدرسية. وهي، وإن كانت تشكو دائماً، وتتناول أدوية من مختلف الألوان، إلا أن صحتها كانت كالحديد. كانت تقضي أوقاتها وهي تتحدث عن المرض والأموات. كانت تدخل غرفة الطعام أو قاعة الجلوس وهي تردد:

ـ احزروا من مات.

أو تقول بمزيج من العجرفة والهزء:

ـ التهاب الكبد..!. كم كنت أقول لهم إن ذلك ليس سوى سرطان..!. استأصلوا ورماً لا يقل عن ثلاثة كيلو غرامات.

وكانت تهرع إلى الهاتف، كي تنقل الأخبار، بما عرف عنها من حماسة شديدة لنشر أنباء الكوارث. كانت تدير قرص الهاتف بسرعة، أو ترسل البرقيات كي تذيع الخبر في أوساط أكبر عدد ممكن من الناس (لم يكن بوسع أحد أن يجاريها، فقد كان لها قصب السبق في هذا المضمار). كانت تقول: (خوسيفينا؛ سرطان بلا شك) ثم تنتقل إلى «ماريا روسا» و«بيبا» و«ماريا ماجدلينا» و«ماريا سانتيسيما»، حسناً، عندما رأيتها، كما قلت لك في البدء، تتمتع بصحة جيدة، انصبت كراهيتي على الرب. شعرت أنه كان يخدعني، وشعوري بانحيازه، على نحو ما، إلى تلك العجوز المجنونة الشريرة الخالة «تيريسا» كان يعزز تصوري بأنه يتمتع بصفات شبيهة بصفاتها. وبدا أن الحماسة الدينية كلها قد انقلبت

فجأة، وبالقوة ذاتها إلى نقيضها. لقد قالت الخالة «تيريسا» إنني سأكون فتاة ضالة، فالرب إذن كان يفكر كذلك، ولم يكن يفكر بذلك وحسب، إنما كان يريده أيضاً. بدأت أعد لانتقامي، وكما لو أن «ماركوس مولينا» وكيل الله على الأرض، فكرت بما سأفعل به فور وصولي إلى «ميرامار». قبل ذلك أنجزت جملة أمور أقل أهمية: حطمت الصليب الذي كان فوق سريري، ألقيت بالأيقونات إلى المرحاض، ومسحت قفاي بثوب تعميدي.. وكأنه ورق مراحيض، ثم رميته في صندوق القمامة.

علمت أن آل «مولينا» ذهبوا من فورهم إلى «ميرامار» فعمدت إلى إقناع جدتي «إيلينا» بأن تهتف إلى العجوزين «كرّاسكو»، وسافرت في اليوم التالي. وصلت إلى «ميرامار» وقت العشاء تقريباً، وكان يتعين عليّ أن أواصل السفر إلى المزرعة في السيارة التي كانت تنتظرني في المحطة، من دون أن أتمكن من لقاء «ماركوس» في ذلك اليوم.

تلك الليلة لم يغمض لي جفن.

الحر ثقيل لا يطاق. القمر بدر تحيط به هالة صفراء كالصديد. الهواء مثقل بشحنة كهربائية، ولا تتحرك ورقة على شجرة: كل شيء ينذر بالعاصفة، أليخاندرا تتقلب في فراشها عارية قلقة، تختنق بالحر المكهرب والحقد. ضوء القمر ساطع يغمر كل ما في الغرفة. تقترب أليخاندرا من النافذة وتلقي نظرة على ساعتها الصغيرة: إنها الثانية والنصف. ثم تنظر إلى الخارج: الحقل يبدو كخشبة مسرح ليلي، الجبل راسخ وصامت كأنما يحتفظ بأسرار عظيمة. الهواء مشبع بروائح لا تكاد تطاق من فوح الياسمين والمغنوليا. الكلاب قلقة تنبح بلا انقطاع، وأصواتها تبتعد ثم تقترب كتيارات مد وجزر. أمر وخيم ينطوي عليه ذلك الضوء المصفرّ الثقيل، كأنه إشعاع شرير، تتنفّس

أليخاندرا بصعوبة، وتشعر بجو الغرفة الخانق، ثم يدفعها جموح لا يقاوم فتتدلى من النافذة. تسير فوق عشب الحديقة ويشعر بها «ميلورد» فيهز ذيله. أخمصا قدميها يحسان ملمس الأعشاب الرطبة الحارة الطرية. تتجه صوب الجبل، وعندما تصبح بعيدة عن البيت، تستلقي على العشب، وتفرد ـ ما بوسعها ـ ذراعيها وساقيها. تغمر أشعة القمر جسمها العاري. تشعر ببشرتها ترتعش فوق العشب. وتمكث وقتاً طويلاً هكذا: إنها كالثملى، ذهنها خال من أي فكرة محددة، تحس جسمها يضطرم، وتتلمس بيديها خاصرتها وفخذيها وبطنها، وما أن تلامس أناملها نهديها حتى تشعر بأن بشرتها كلها تنتفض وترتعش كجلد هرة.

أسرجت المهرة في اليوم التالي باكراً، وانطلقت إلى «ميرامار». لست أدري إن قلت لك إن لقاءات «ماركوس» كانت تتم بالخفاء دوماً، فلا أفراد أسرته يطيقون رؤيتي ولا أنا أتحملهم. وكانت أختاه ـ بالإضافة إلى ذلك ـ بليدتين، ومنتهى طموحهما هو الزواج من لاعب «بولو». والظهور، ما استطاعتا إلى ذلك سبيلاً، في أماكن عامة مثل نادي «اتلانتيدا» أو «الهوغار»: لا فرق بين «مونيكا» و«باتريسيا» فكلتاهما كانتا تكرهانني، وتروجان الإشاعات المغرضة كلما شاهدتاني مع أخيهما الصغير. ولذلك كانت وسيلتي للاتصال به، إما الصفير تحت نافذته عندما أخاله هناك، أو رسالة يحملها إليه «لوموناكو»، حارس الشاطئ. عندما وصلت ذلك اليوم إلى بيته، تبين لي أنه خرج، لأنه لم يرد على صفيري. ذهبت إلى الشاطئ وسألت «لوموناكو» إن كان قد شاهده، فأجابني أنه ذهب إلى «دورمي هاوس» ولن يعود قبل المساء. فكرت للحظة بأن أذهب لآتي به، ولكنني لم أفعل، لأن الحارس أعلمني أنه ذهب بصحبة شقيقتيه وبعض الصديقات، ولم يبقَ أمامي من سبيل

سوى انتظاره، فطلبت من الحارس أن يقول له إنني سوف أنتظره في شاطئ «الحجارة السوداء» عند الساعة السادسة مساء.

عدت إلى المزرعة مستاءة.

بعد القيلولة، امتطيت المهرة واتجهت إلى شاطئ «الحجارة السوداء».

كانت نذر العاصفة التي تجمعت منذ يوم أمس تتعاظم شيئاً فشيئاً طيلة النهار: كان الهواء قد تشبع برطوبة ثقيلة لزجة. وغيوم ضخمة تصاعدت من ناحية الغرب منذ الصباح. وبدأت عند القيلولة تغطي السماء كلها، كأن مرجلاً هائلاً يغلي بصمت. وأليخاندرا تشعر وهي مستلقية في ظل أشجار الصنوبر، قلقة يتصبب منها العرق، كيف كان الجو يشحن شيئاً فشيئاً بالكهرباء قبل حلول العواصف العاتية.

وبقدر ما كان المساء يقترب كان استيائي يزداد وقلقي يشتد، وصبري يكاد ينفد، بسبب تأخر «ماركوس». عندما وصل، كان الليل قد بدأ يرخي سدوله تصاحبه الغيوم المتصاعدة من جهة الغرب.

أتى مسرعاً ففكرت: إنه يخشى العاصفة، وما زلت حتى اليوم أتساءل لماذا كنت أصبّ كل كراهيتي للرب على ذلك المسكين التعيس، الذي كان يبدو أنه لا يستحق سوى الازدراء. لست أدري إن كان ذلك يعود إلى أنه كان يبدو لي دائماً، مثال الكاثوليكي الذي يحتذى به، أم إلى أنه كان بالغ الطيبة، ولذلك فإن الظلم في معاملته بقسوة كان يكتسب طعماً أشهى. ولعل السبب يعود أيضا إلى أنه كان ينطوي على شيء ما حيواني خالص يجذبني إليه، شيء ما ـ وإن كان جسدياً خالصاً ـ لكنه يبعث الحرارة في دمي. قال:

ـ العاصفة مقبلة يا أليخاندرا، ويبدو لي أن العودة إلى «ميرامار» خير لنا.

استويت قليلاً ونظرت إليه باحتقار وقلت:

ـ ها إنك، ما إن وصلت، وما إن رأيتني، وحتى قبل أن تحاول معرفة السبب الذي من أجله كنت أبحث عنك، تفكر بالعودة إلى البيت.

جلست أنضو ثيابي عني.

ـ ينبغي أن أحدثكَ عن أمور كثيرة، ولكن قبل ذلك هيا بنا نسبح.

ـ كنت أسبح طيلة النهار يا أليخاندرا.

ثم قال وهو يشير إلى السماء بإصبعه:

ـ ثم، انظري ما سيأتي.

ـ لا أهمية لذلك، هيا بنا نسبح.

ـ لم أحضر لباس السباحة.

سألت بتهكم:

ـ لباس السباحة؟. وأنا أيضاً ليس لدي لباس سباحة.

بدأت أنضو بنطالي.

قال ماركوس بحزم استرعى انتباهي:

لا، أليخاندرا، سأذهب. ليس لدي لباس سباحة. لن أسبح معك عارياً.

كنت أنضو عني بنطالي، فتوقفت، وقلت له ببراءة مصطنعة كأنني لم أقتنع بالأسباب التي ساقها:

ـ لماذا؟. هل أنت خائف؟. أي كاثوليكي أنت، إن كنت بحاجة إلى أن تكون مرتدياً ملابسك لكي لا تقع في الخطيئة. هل تبدو وأنت عارٍ شخصاً آخر؟.

عندما بدأت أنضو عني سروالي الداخلي قلت:

كنت أفكر دائماً أنك جبان. مثال الكاثوليكي الجبان.

كنت أعلم أن ذلك سيكون له مفعول حاسم، فقد بدأ «ماركوس» - الذي أشاح بوجه عني منذ أن بدأت أنزع سروالي الداخلي - ينظر لي وقد تضرج بحمرة الخجل والغضب. ثم راح ينزع ملابسه وهو مشدود الفكين.

كان قد شبّ في تلك السنة سريعاً. أصبح جسمه الرياضي ناضجاً وتحول صوته إلى صوت رجل، واختفت أمارات الطفولة المضحكة التي كانت تهيمن على ملامحه في العام المنصرم: كان عمره سبعة عشر عاماً، وبرغم ذلك، فقد كان قوياً وناضجاً. أما أنا فقد هجرت ذلك القماط السخيف، ونما نهداي بحرية، واكتنز ردفاي أيضاً، وكنت أشعر في جسمي كله بقوة جبارة تحثّني على القيام بأعمال عجيبة.

عندما أصبح عرياناً نظرت إليه طويلاً، مدفوعة برغبة للتنكيل به:

- ها إنك لم تعد طفل العام الماضي المدلل.

كان ماركوس يقف خجلاً وقد أدار لي ظهره قليلاً.

- وها إنك تحلق ذقنك.

قال غاضباً:

- لا أرى ما يضير في حلاقة ذقني.

- لم يقل أحد إن في ذلك ضير. جل ما هنالك أنني ألاحظ أنك تحلق ذقنك.

لم يجب ولعله، لئلا يجد نفسه مضطراً إلى رؤيتي عارية، ولكي يتجنب الظهور أمامي عُرياناً، ركض نحو الماء في لحظة انفجر فيها البرق فأضاء بنوره قبةَ السماء كلها. عندئذ شرعت البروق والرعود تتوالى، كأن ذلك الانفجار كان إشارة البدء، وراح المحيط بلونه الرمادي كلون

الرصاص يظلم، بينما اشتد صخب مياهه. أما السماء المغطاة بالسحب الداكنة، فكانت تسطع ما بين لحظة وأخرى كأن أنوار عاكس آلة تصوير هائلة وجّهت إليها.

وبدأت تتساقط على جسدي المتوتر المرتعش، طلائع قطرات المطر، فاندفعت نحو البحر، كانت الأمواج الغاضبة تلاطم الشاطئ.

سبحنا في عرض البحر تتقاذفنا الأمواج كريشة في مهب الريح. وكان يتملكني إحساس هائل بالقوة والضعف في آن واحد. لم يبتعد ماركوس عني، وراودني الشك فيما إذا كان ذلك خوفاً علي أم على نفسه.

ثم صاح بي:

ـ هيا نعود يا أليخاندرا..!. بعد قليل لن نعرف أين اتجاه الشاطئ.

صحت به:

ـ حذرٌ دوماً كعادتك..!.

ـ إذاً، أعود وحدي..!.

لم أقل شيئاً، وأصبح من المستحيل سماع ما يقول. بدأت أسبح باتجاه الشاطئ. كانت السحب السوداء التي تمزقها البروق والرعود المتتالية تبدو كأنها آتية تلتف من بعيد لتنفجر فوق رأسينا.

وصلنا الشاطئ. وركضنا إلى حيث تركنا ملابسنا، في حين كانت العاصفة تصب جام غضبها: ريح جنوبية عاتية باردة تجتاح الشاطئ، بينما الأمطار تنهمر بتيارات أفقية.

كان المنظر مهيباً: عاريان وحدنا وسط شاطئ منعزل، نحس مياه العاصفة المجنونة تغمر جسمينا، و الرعود تزمجر والبروق تملأ المكان بأنوارها الخاطفة.

كان ماركوس يحاول مذعوراً أن يرتدي ملابسه فارتميت فوقه وانتزعت بنطاله.

وشعرت وأنا أضمه إليّ، بجسده المكتنز المرتعش، ملتصقاً بصدري وبطني، فرحت أقبله، وأعض على شفتيه وأذنيه، وأنشب أظافر يديّ في ظهره.

قاومني، وتصارعنا بقسوة. وكان كلما تمكن من إبعاد شفتيه عن فمي، يتمتم بكلمات غير مفهومة، لكنها تعبر، بالتأكيد، عن يأسه. وهكذا حتى تمكنت من سماعه يصرخ:

ـ دعيني يا أليخاندرا.. دعيني بحق الرب..!. سيكون مصيرنا في الجحيم سوياً..!.

فأجبته:

ـ أيها الأحمق..!. إن الجحيم لا وجود له..!. إنه حكاية من حكايات القسيسين ليخدعوا بها التعساء من أمثالك..!. الرب لا وجود له.

قاوم بكل ما لديه من قوة، وفي النهاية، تمكن من أن ينتزع جسده من بين يديّ.

لمحت في ضوء البرق على وجهه تعبير ذعر قدسي، وصاح وهو يفتح عينيه بشدة كأنه يعيش تحت وطأة كابوس:

ـ إنك مجنونة يا أليخاندرا..!. إنك مجنونة حقاً، ويسكن الشيطان روحك..!.

ـ إني أهزأ بالجحيم أيها الأحمق..!. وأهزأ من العقاب الأبدي!.

كانت تتملكني قدرة هائلة، أحسست معها بمزيج من قوة كونية، وكراهية وحزن لا يوصف. صرخت مرات عدة وأنا أتطلع إلى الأعالي

وأضحك وأبكي، وأفتح ذراعيّ بحركة مسرحية ـ كتلك التي نقوم بها في سنِ المراهقة ـ وأتحدى الرب أن يقضي عليّ بأشعته، إن كان موجوداً.

أليخاندرا تنظر إلى جسمه العاري وهو يهرب بكل ما أوتي من قوة، وأشعة البرق تغمره بالضياء على نحو متقطع، إنه مضحك ومثير، وتفكر في أنها لن تراه ثانية أبداً.

وبدا كأن زئير البحر وزمجرة العاصفة يهددانها بوعيد إلهي غامض ومريع.

11

عادا إلى الغرفة. اقتربت أليخاندرا من منضدة قرب السرير وتناولت قرصين أحمرين من أنبوب. ثم جلست على حافة السرير، وقالت وهي تربت بكفها الأيسر على حيّز بجانبها.

ـ اجلس.

وبينما كان يجلس، بلعت القرصين من دون ماء. ثم اضطجعت على السرير وساقاها ملمومتان قرب الفتى.

قالت وهي تغمض عينيها:

ـ يجب أن أرتاح قليلاً.

ـ حسناً، سأذهب إذاً.

تمتمت وكأنها توشك أن تستغرق في النوم:

ـ لا، لا تذهب الآن. سنتابع الحديث فيما بعد.. انتظر قليلاً.

ثم أخذت تتنفس بعمق. لقد نامت.

تركت حذاءها يسقط على الأرض. بينما رجلاها العاريتان ممدودتان قرب مارتين الحائر الذي لا يزال ثملاً بعد حديث أليخاندرا في الشرفة: عبثُ كل ما جرى. هذيانٌ كل ما حدث، وأي فعل سواء أقام به أم لم يقم، سيبدو غير ملائم.

ماذا كان يفعل هناك؟. شعر بأنه أبله ومغفل. ولكن يبدو أنها ـ لسبب لم يتمكن من إدراكه ـ تحتاج إليه، ألم تذهب للبحث عنه؟. ألم

تحدثه عن تجاربها مع «ماركوس مولينا»؟.. وفكر باعتزاز وحيرة، بأنها لم تحدّث أحداً بذلك من قبل. كان متأكداً، ولم تكن ترغب في أن يذهب، بل، نامت بجانبه، استسلمت للنوم بجانبه، قامت بهذه البادرة الرفيعة من الثقة، بأن نامت بجانب إنسان آخر: كمحارب يترك درعه جانباً. كانت هناك عزلاء لكنها غامضة ولا تُنال، قريبة جداً، ولكن يفصلها سور النوم الهادئ المنيع المخيف.

تأملها مارتين: كانت تدير ظهرها إليه وتتنفس بقلق من فمها المفتوح قليلاً، فمها الكبير الأبي الشهواني. وكان شعرها الطويل المنسدل الأسود الفاحم (تموجاته المخضبة بالحمرة تدل على أن أليخاندرا هذه، هي نفسها فتاة الطفولة الصغيرة، ذات الشعر الأحمر، وهي في الوقت ذاته شيء آخر مختلف جداً، كم كان مختلفاً..!.) منثوراً على المخدة، وكان وجهها مثلثي الشكل يبرز تلك الأسارير التي تنطوي على الوضوح ذاته، وعلى قسوة روحها ذاتها. كان يرتعد، وتدور في رأسه أفكار غامضة شتى، لا عهد له بها من قبل. كان نور المصباح يغمر جسمها الخامد، ونهديها البارزين من تحت قميصها الأبيض، وساقيها الململومتين اللتين تلامسانه. قرّب إحدى يديه من جسمها، لكنه قبل أن يضعها فوقه سحبها مذعوراً. ثم، بعد أن تردد طويلاً، عادت يده تقترب منها، إلى أن استقرت في نهاية المطاف فوق إحدى فخذيها. وهكذا لبث زمناً طويلاً وقلبه يخفق بشدة، كأنه يرتكب جريمة سرقة مشينة، أو يستغل لحظات نوم محارب ليسرق منه شيئاً ما للذكرى. لكنها عند ذلك استدارت فسحب يده. لمت ساقيها، ورفعت ركبتيها، وحنت جسمها كأنها تعود إلى وضعية الجنين.

كان الصمت عميقاً وكانت تُسمع أنفاس أليخاندرا المضطربة، كما تُسمع أيضاً الصافرات البعيدة الآتية من أرصفة المرفأ.

وفكر بمرارة، كأن وحياً هبط عليه فجأة، ***لن أعرفها حق المعرفة أبداً***.

كانت هناك، في متناول يده وفمه. وكانت على نحو ما عزلاء، ولكن كم كانت بعيدة المنال..!. كان يشعر أن هاوية سحيقة تفصلها عنه (ليس جحيم النوم وحسب، بل ما هو أكثر من ذلك) وأنه لكي يصل إلى أعماقها، لا بد أن يسير طيلة أيام مريعة وسط وهاد مظلمة، وفجاج تحف بها المخاطر، على شفير براكين ثائرة، بين ألسنة اللهيب والظلمات. وفكر: ***أبداً.. أبداً***.

وفكر أيضاً: ***لكنها بحاجة إليّ، لقد اختارتني***. لقد قامت فعلاً بالبحث عنه، واختارته، لأمر لم يتمكن من إدراكه، وحدّثته عن أمور كان متأكداً أنها لم تحدّث بها أحداً قط، وكان يتوقع أن تروي له المزيد عن أشياء أخرى كثيرة، أشد هولاً وروعة من تلك التي باحت له بها. وكان حدسه قد أوحى له أيضاً، بأن هناك أموراً أخرى لن يعرفها أبداً، ولن تبوح بها إطلاقاً، وتلك الظلال الغريبة المقلقة، أليست أنصع الحقائق التي تنطوي عليها روحها...؟. والوحيدة ذات الأهمية الحقيقية..؟. عندما ذكر العميان ارتعشت. فلماذا؟. ما إن لفظت فرناندو حتى ندمت. لماذا؟.

عميان، فكر يخامره شيء من الجزع، ***عميان، عميان***.

الليل، الطفولة، الظلمات، الرعب والدم، دم، دم ولحم، الأحلام، جحيم هوىً سحيقة، وحدة وحدة وحدة، نتلامس ولكن من مسافات شاسعة لا تحدها حدود. نتلامس ولكننا وحيدان. كان فتى صغيراً تحت قبة مترامية الأطراف، يعيش هناك وسط القبة، وسط صمت مرعب، وحيداً في ذلك العالم الواسع الهائل.

وفجأة سمع أليخاندرا ترتعد. استدارت نحو الأعلى، وبدت كأنها تصد شيئاً ما بيديها. وكانت تتسرب من بين شفتيها وهي تلهث تمتمات مبهمة لكنها عنيفة، ثم صرخت كأنه يتعين عليها أن تبذل جهداً فوق طاقة البشر لكي تتمكن من النطق: «لا، لا..!.» وانكفأت على نفسها فجأة.

ناداها مارتين، وهو يهز كتفيها لكي ينتزعها من ذلك الكابوس: أليخاندرا..!. أليخاندرا..!. لكنها واصلت أنينها بينما عيناها مفتوحتان تماماً، وهي تصد العدو بعنف.

أما مارتين فاستمر يهز كتفيها ويناديها:

ـ أليخاندرا..!. أليخاندرا..!.

حتى بدا أنها تصحو، وكأنها تنهض من قعر بئر عميقة مظلمة مملوءة بالعناكب والوطاويط.

قالت بصوت منهك:

ـ آه.

مكثت جالسة في السرير طويلاً، تسند رأسها إلى ركبتيها، وتطوق ساقيها بيديها.

بعد ذلك نزلت من السرير وأضاءت المصباح، وأشعلت لفافة. وبدأت تعد القهوة.

قال مارتين وهو ينظر إليها قلقاً:

ـ أيقظتك لأنني انتبهت إلى أنك كنت تحت وطأة كابوس.

فأجابت من دون أن تلتفت نحوه، وهي تضع ركوة القهوة فوق السخان:

ـ عندما أنام أقع دائماً تحت وطأة الكوابيس.

بعد أن انتهت من إعداد القهوة، قدمت له كوباً، وجلست على حافة السرير شاردة الذهن ترشف قهوتها.

وفكر مارتين: ***فرناندو.. عميان.***

كانت قد قالت: (إلا فرناندو وأنا). ورغم أنه أصبح الآن يعرف عن أليخاندرا ما يكفي لكي يدرك أنه يجب ألاّ يوجه أي سؤال يمت بصلة إلى ذلك الاسم، الذي ما إن ذكرته حتى تجنبت الحديث عنه، لكن هاجساً جنونياً كان يذهب به مرة تلو أخرى إلى تلك المنطقة المحرمة ليجوس مخاطرها.

سأل:

ـ وجدّك؟. هل هو وحدوي أيضاً؟.

قالت وهي مشتتة الذهن:

ـ ماذا؟.

ـ أسأل، إن كان جدك وحدوياً أيضاً.

تأملته أليخاندرا بشيء من الدهشة:

ـ جدي..؟. إن جدي مات.

ـ كيف؟. أظن أنك قلت لي إنه ما زال حياً.

ـ لا يا رجل: جدي «باتريسيو» مات، والذي ما يزال حياً هو «بانشو». والد جدي. ألم أشرح لك ذلك من قبل؟.

ـ حسناً. نعم، كنت أعني جدك «بانشو» هل هو وحدوي أيضاً؟. يبدو لي أنه من المضحك حقاً أن يعثر المرء في يومنا هذا على وحدويين واتحاديين في هذا البلد.

ـ ألم تدرك بعد أنهم هنا يعيشون في ذلك العصر، بل وأكثر من ذلك: تصور، إن جدي «بانشو»، على الرغم من أنه ولد بعد سقوط

«روساس» بقليل، فمازال يعيش في ذلك العصر. ألم أقل لك إن عمره خمسة وتسعون عاماً؟.

ـ خمسة وتسعون عاماً؟.

ـ ولد سنة 1858. يمكننا نحن، أن نتحدث عن وحدويين واتحاديين، أما هو فقد عاش ذلك كله. أتفهم؟. كان «روساس» لا يزال حياً عندما كان طفلاً.

ـ ويتذكر أموراً من تلك الأيام؟.

ـ لديه ذاكرة كذاكرة الفيل، ثم إنه لا يفعل شيئاً طيلة النهار، سوى الحديث عن ذلك العصر، فيضعك على مرمى حجر منه. إنه أمر طبيعي: فهو واقعه الوحيد، ولا وجود لواقع سواه.

ـ يروقني أن أستمع إليه يوماً ما.

ـ سأريك إياه الآن.

ـ كيف.. ماذا تقولين..؟. الساعة الآن، الثالثة صباحاً..!.

ـ لا تكن ساذجاً. ألا تعلم أنه بالنسبة إلى جدي ليس هناك ما يسمى الساعة الثالثة صباحاً. إنه لا ينام أبداً. أو لعله يغفو في أي ساعة، ما أدراني!. ولكن أثناء الليل ينتابه الأرق، ويقضي الوقت وهو يفكر، والقنديل مشتعل.

ـ يفكر؟.

ـ حسناً. من يدري؟. من بوسعه أن يعرف ما يدور في رأس عجوز أرق يقارب عمره مئة عام؟. لعله يتذكر وحسب. ما أدراني.. يقال إن المرء في مثل هذا العمر يتذكر فقط.

ثم أردفت تقول، وهي تطلق ضحكة فظة من ضحكاتها المعهودة:

ـ أشد ما أخشاه، أن يمتد بي العمر إلى هذا الحد.

وقالت وهي تهم بالخروج، كما لو أن الأمر يتعلق بالقيام بزيارة عادية، لأناس عاديين، في ساعة مناسبة:

ـ تعال لتراه الآن. من يدري إذا كان سيبقى حتى الغد حياً.

وتوقفت:

قف وسط الظلمة قليلاً، إذ يمكنك بعد ذلك أن تنزل بسهولة. وقفا متكئين على حاجز الشرفة، يتأملان المدينة الغافية بعض الوقت.

قالت أليخاندرا وهي تشير بيدها:

ـ انظر ذلك النور المنبعث من نافذة تلك الدار الصغيرة، إن هذه الأضواء المتلألئة تواسيني في ظلمة الليل دائماً: هل هي امرأة تضع مولودها؟. أم إنسان يحتضر؟. أو لعله تلميذ فقير يقرأ ماركس؟. يا لهذا العالم ما أغربه: السطحيون فقط هم الذين لا يرونه. تُحادث الحارس في زاوية الشارع، وما إن يركن إليك حتى تكتشف أنه لغز غريب أيضاً.

ثم قالت بعد لحظة:

ـ حسناً، هيا بنا.

12

هبطا السلم واتجها نحو الدار من الممر الجانبي، حتى وصلا إلى باب خلفي يظلله عريش. تلمست أليخاندرا الجدار بيدها وأشعلت مصباحاً. رأى مارتين أمامه مطبخاً عتيقاً، يحتوي على أشياء مكدسة بعضها فوق بعض، كأنها معدة للترحال، وكانت الحال كذلك في الممر. ولعل سكان الدارة، في غمرة الأحداث المتلاحقة، لم يقرروا التخلي عن أشياء ومفروشات، أو لم يعرفوا كيف يتخلصون منها: قطع أثاث ومقاعد محطمة، أرائك مذهبة بلا مقاعد، مرآة كبيرة مستندة إلى جدار، ساعة ذات قوائم معطلة وبعقرب واحد، صوان مزخرف.. عندما دخل غرفة العجوز تذكر إحدى دور المزاد في شارع «ماييو»، فقد أُلحقت إحدى القاعات القديمة بمخدع العجوز، وكأنما ضُمت إحدى الغرفتين إلى الأخرى. لمح بين الأمتعة، في ضوء قنديل باهت، عجوزاً يغفو على كرسي ذي عجلات. وُضع الكرسي أمام نافذة تطل على الشارع، وكأنما قصد من ذلك أن يتمكن العجوز من تأمل العالم.

قال مارتين وهو يتنفس الصعداء:

ـ إنه نائم، يحسن أن تدعيه.

ـ قلت لك، لا نعرف أبداً، إذا كان نائماً أم صاحياً.

وقفت أمام العجوز وانحنت فوقه وهزته قليلاً:

ـ كيف.. كيف..؟.

تمتم الجد وهو يفتح عينيه.

كانت عيناه صغيرتين خضراوين تحيط بهما أخاديد حمراء وسوداء، وكأنهما قد تشققتا وغرقتا في عميق محجريه، تحف بهما غضون جافة لوجه محنط عصي على الفناء. سألته أليخاندرا وهي تصرخ، بينما قربت فمها من أذنه:

ـ أنائم أنت يا جدي؟.

ـ كيف. كيف..؟. لا يا ابنتي كيف سأنام، إني أرتاح وحسب.

ـ هذا أحد أصدقائي.

هز العجوز رأسه بحركة متكررة متناقصة، كأنه نواس أبعد عن مركز ثقله. ومد له يداً برزت عظامها، وبدت أوردتها الثخينة، كما لو أنها تود الخروج من بشرة جافة شفافة أشبه ما تكون بجلد طبل عتيق.

صاحت به:

ـ حدثه يا جدي قليلاً عن الملازم «باتريك».

فتحرك النواس ثانية. وتمتم:

ـ آه، «باتريك»، نعم، «باتريك».

قالت أليخاندرا لمارتين:

ـ لا تقلق الأمر سواء، ومهما كان فإنه سينتهي دائماً إلى الحديث عن الفيلق، حتى ينسى وينام.

ـ آه، الملازم «باتريك»، نعم.

ترقرقت الدموع في عينيه الصغيرتين وتمتم:

ـ «إلمتريز» أجل «إلمتريز». الملازم «باتريك إلمتريز» في الفيلق (71) الشهير، من كان يظن أنه سيموت في الفيلق.

نظر مارتين إلى أليخاندرا. صاحت:

ـ أفصح يا جدي، أفصح.

وضع العجوز يده الضخمة، التي تشبه ساق كرمة خلف أذنه، ومال برأسه نحو أليخاندرا. بدا كأن ما تبقى من مخلوق بشري مفكر بالغ الطيبة لا يزال يعيش بصعوبة وراء قناع من رق جلدي مهترئ يتجه نحو الفناء بخطى حثيثة. وكان فكه الأسفل يترنح قليلاً كأنه لا يملك قوة لإطباقه فتبدو لثته من خلاله عارية من الأسنان.

ـ نعم. باتريك.

ـ أفصح يا جدي.

فكر، وهو يتطلع نحو ماض بعيد.

ـ «أولموس» هي ترجمة «إلمتريز»، فقد كان الغيظ يبلغ بالجد حداً لا يطاق من كثرة ما كانوا ينادونه: «إلمتري» حيناً، و«ليمتريو» حيناً آخر. وحتى «كابيتان ديميتريو» كذلك.

بدا وهو يرتعش ويرفع يده إلى فمه كأنه يضحك.

ـ نعم، حتى «كابيتان ديميتريو» كانوا ينادونه. كان يغضب لأنه اتخذ من هذه البلاد وطناً له. وكان يضايقه أن ينادوه الإنكليزي. ولذلك غيّر اسمه إلى «أولموس»[1] مثلما فعل آل «إيلاند» عندما ترجموا اسمهم إلى «إيسلا»[2] وآل «كوين فيث» عندما ترجموا اسمهم إلى «رينا في»[3]. كان ينزعج جداً (يضحك ضحكة خفيفة) لأنه كان فاتر الطبع وكان

(1) «أولموس» تعني بالإسبانية «دردار» وهي ترجمة للكلمة الإنكليزية «إلمتريز» (المترجم).

(2) «إيسلا» تعني بالإسبانية «جزيرة» وهي ترجمة للكلمة الإنكليزية «ايلاند» (المترجم).

(3) «رينا في» تعني بالإسبانية الملكة «إيمان» وهي ترجمة للكلمة الإنكليزية «كوين فايث». (المترجم).

منصفاً، منصفاً جداً. ثم، لأن وطنه الحقيقي كان هذا، فهنا تزوج، وهنا ولد أبناؤه. ولم يكن بوسع أحد ممن يراه على صهوة جواده، بالركابتين الفضيتين أن يداخله الشك بأنه «غرينغو»[1]. ومن ارتاب، رغم ذلك (ضحكة)، لم يكن ليجرؤ على أن يقول هذا الفم فمي. لأن «دون باتريسيو» كان سيتناوله بضربة سوط. (ضحكة).. «الملازم باتريك إلمتريز» نعم، من كان سيقول له لا. إن القدر أشد فوضوية من دكان «توركو»[2]. من كان سيقول إن قدره أن يموت بإمرة الجنرال؟.

بدا فجأة أنه يغفو وتنتابه حشرجة خفيفة.

سأل مارتين أليخاندرا:

- جنرال؟. أي جنرال؟.

- «لافاجي».

- ملازم إنكليزي بإمرة الجنرال «لافاجي»؟. متى؟.

- الحرب الأهلية يا غبي.

مئة وخمسة وسبعون رجلاً بائساً رثاً، تطاردهم رماح «أوريبي»، يهربون نحو الشمال، بين الشعاب، نحو الشمال دائماً، الفارس «سيليدونيو أولموس» ممتطياً جواده، يفكر بأخيه بانشيتو الذي قضى في «كيبراتشو هيرادو»، وبوالدة الملازم «باتريسيو أولموس» الذي سقط هناك أيضاً. والعقيد «بونيفاسيو أسيفيدو» ملتح ويائس، رث وبائس، فوق صهوة جواده يغذ السير نحو الشمال أيضاً. ومئة واثنان وسبعون رجلاً غريباً، وامرأة واحدة. ليلاً ونهاراً يهربون نحو الشمال باتجاه الحدود.

(1) «غرينغو» لقب احتقار يطلق على الأمريكيين الشماليين وعلى الإنكليز (المترجم).
(2) «توركو» لقب يطلق على العرب في أمريكا الجنوبية (المترجم).

ويتمتم بينما فكه الأسفل متدلٍ يرتجف:

ـ عمي «بانشيتو» وجدي الجريحان في «كيبراتشو هيرادو» بطعنة رمح.

ويقول مارتين:

ـ لا أفهم شيئاً.

وقالت له أليخاندرا، في اليوم السابع والعشرين من حزيران 1806 زحف الإنكليز على شوارع بوينس أيرس، وعندما كنت هكذا ـ وضعت يدها قريباً من الأرض ـ روى لي العجوز القصة، مئة وخمساً وسبعين مرة. أوقفت الكتيبة التاسعة تقدم الفيلق 71 الشهير.

ـ لماذا الشهير؟.

ـ لست أدري، ولكن هكذا كانوا يقولون. أعتقد أنه لم يهزم في أي ناحية من أنحاء العالم، أتفهم؟. كانت الكتيبة التاسعة تتقدم في شارع الجامعة.

ـ شارع الجامعة؟.

ـ نعم أيها الساذج. شارع «بوليفار» الآن. إني أروي لك القصة كما يرويها العجوز تماماً، فأنا أحفظها عن ظهر قلب. عندما وصل الفيلق إلى زاوية شارع «نويسترا سنيورا ديل روساريو» أي شارع «فنزويلا» بالنسبة إلى المتخلفين، انتهى الأمر.

ـ أي أمر؟.

ـ انتظر، كانوا يمطرونه من فوق السطوح بكل شيء. أعني: بالزيت المغلي، بالصحون، بالزجاجات، بالأواني، وحتى بقطع الأثاث. وبالرصاص أيضاً. كان الجميع يرمي. النساء، الخدم، الأطفال. وهناك جرحوه.

ـ من؟.

ـ الملازم «باتريك» يا رجل. في زاوية ذلك الشارع كانت تقع دار «بونيفاسيو أسيفيدو». جد العجوز. وشقيق من أصبح فيما بعد الجنرال «كوسمي أسيفيدو».

ـ الذي يطلق اسمه على ذلك الشارع؟.

ـ نعم صاحب الشارع: هذا فقط ما تبقى لنا منهم. أسماء شوارع. «بونيفاسيو أسيفيدو» هذا، تزوج «ترينيداد أرياس». وهي من مدينة «سلتا». اقتربت من أحد الجدران، ثم عادت ومعها صورة، بينما بدا العجوز كأنه غارق في الماضي البعيد وفكه متدل وعيناه مغمضتان. ورأى مارتين في ضوء القنديل، وجه امرأة رائعة، بدت قسماتها المنغولية كأنها تشي بقسمات أليخاندرا الخفية، وتوحي بمزيج من قسمات إنكليزية ـ إسبانية. هذه الفتاة أنجبت كومة من الأولاد، منهم «ماريا دي لوس دولورس» و«بونيفاسيو» الذي سيصبح فيما بعد العقيد «بونيفاسيو أسيفيدو» صاحب الرأس المقطوع.

لكن مارتين فكر (وهكذا قال) إنها بقدر ما كانت تستغرق في الشرح، كان يستعصي عليه الفهم. فما علاقة الملازم «باتريك» بكل هذا؟. وكيف مات تحت إمرة الجنرال «لافاجي»؟.

ـ انتظر أيها الساذج. سيأتي الآن موضوع العلاقة. ألم تسمع العجوز يقول إن الحياة معقدة أكثر من دكان «توركو». كان القدر هذه المرة رجلاً أسود ضخماً شرساً، وعبداً من عبيد جدي الأول، اسمه «بنيتو». فالقدر لا يظهر مجرداً وإنما بسكين عبد حيناً، وابتسامة امرأة عزباء حيناً آخر. القدر يختار أدواته، وما إن يتجسد فيها حتى يحل العبث، تجسد هذه المرة في العبد «بنيتو» الذي سدد إلى الملازم «باتريك» طعنة سكين

تمكن بفضلها، لسوء الطالع، (حسب رأي الأسود) من أن يتحول فيما بعد من «باتريك إلمتريز» إلى «أولموس»، وهكذا أمكن لي أن أرى النور. كان وجودي يتوقف، كما يقال، على خيط من حرير، وعلى ظروف واهية للغاية. فلو أن العبد لم يسمع «ماريا دي لوس دولوريس» تصيح من فوق السطح وتأمره بألاّ يجهز عليه لكان قد قتله، كما كان يريد هو لا كما أراد القدر، الذي تجسد في «بنيتو». إلا أن القدر لم يكن يفكر مثل «بنيتو»، وإنما على نحو مختلف تماماً، وهو أمر كثيراً ما يحدث. إذ من الواضح أن القدر لا يستطيع دائماً أن يختار بدقة البشر الذين سيستخدمهم كأدوات له، مثلما لا تستطيع أنت، لو كنت على عجلة من أمرك كي تصل إلى مكان ما، لأمر يتعلق بقضية حياة أو موت، أن تدقق كثيراً في فرش السيارة التي ستستقلها إن كان أخضر، أو في ذيل الحصان الذي ستمتطيه إن كان يروقك، فما يقع تحت يدك ستتناوله. ولذلك فإن القدر محاط بالإبهام، وكثيراً ما يثير الالتباس: فهو يعرف في الواقع، ما يريد تماماً، ولكن الناس الذين ينفذون إرادته ليسوا كذلك. فهم كالمرؤوسين البلهاء الذين يستحيل عليهم أن ينفذوا بدقة، ما يطلب منهم. ولذلك يجد القدر نفسه أحياناً مضطراً إلى أن يتصرف كما قال «سارمينتو»[1]: «اعمل ولو أخطأت، ولكن اعمل». ويتعين عليه في كثير من الأحيان أن يسكر أدواته ويبلبلها، ولهذا يقال إن فلاناً خرج عن طوره، وإنه لم يكن يعرف ما يفعل، وإنه فقد زمام نفسه. طبعاً، لو أنهم بدلاً من قتل «ديدمونه» أو قيصر جعلوا الأمر على غير هذا النحو، لكنا رأينا أي تهريج كان ذلك. وهكذا كما قلت لك. في اللحظة التي كان فيها «بنيتو» يستعد لإلغاء وجودي، صرخت به «ماريا دي لوس

(1) دومينغو سارمينتو: سياسي وكاتب أرجنتيني أصبح رئيساً للجمهورية (١٨٦٨ - ١٨٧٤). (المترجم).

دولورس» من الأعلى صرخة قوية جعلت العبد يتوقف. كان عمرها أربعة عشر ربيعاً، وكانت تصبّ الزيت المغلي من الأعلى. لكنها صرخت في الوقت المناسب.

- ومع ذلك فإني لا أفهم، ألم تكن القضية هي منع الإنكليز من تحقيق الانتصار؟.

- أيها الساذج. ألم تسمع بـ «صعقة الحب»؟. لقد حدثت وسط تلك الفوضى. وسترى كيف يعمل القدر. لبى العبد الأسود سيدته الصغيرة مكرهاً، ولكنه جر الضابط إلى الداخل كما أمرته جدة والد جدي «بانشو»، حيث قامت النساء بإسعافه قبل أن يصل الطبيب «أرخيديتش». نزعن معطفه. كانت «ترينيداد» تردد مذعورة: يا له من طفل..!. وكنّ مندهشات يرددن: لا يتجاوز سبعة عشر عاماً..!. يا للجسارة..!. وكنّ يرثين لحاله، بينما يغسلنه بالماء النظيف وكحول القصب، ويضمدن جراحه بضمادات انتزعنها من غطاء السرير. كان أثناء الليل يهذي وينطق كلمات إنكليزية، بينما كانت «ماريا دي لوس دولورس» ترطب جبينه بمناديل مبللة بالخل، وتصلي وتبكي. لقد وقعت الصغيرة، كما روى لي العجوز، في حب الإنكليزي الصغير، وقررت أن تتزوجه. وقال لي جدي أيضاً، لا بد أن تعلمي أنه عندما تستولي فكرة كهذه على عقل امرأة، فليس هناك قوة في السماء أو في الأرض قادرة على انتزاعها منها. فبينما كان الملازم المسكين يهذي ويحلم بوطنه - بلا أدنى شك -، كانت الفتاة تقرر أن ذلك الوطن لم يعد موجوداً وأن سلالة «باتريك» ستولد في الأرجنتين. وعندما بدأ يستعيد وعيه، تبين أنه ابن أخ الجنرال «بيريسفورد» ذاته. ويمكنك أن تتصور مشهد وصول الجنرال «بيريسفورد» إلى البيت واللحظة التي قبّل فيها يد السيدة «ترينيداد».

تمتم العجوز:

ـ مئة وخمسة وسبعون رجلاً.

ـ وهذا؟.

ـ الفيلق، إنه يفكر بذلك دائماً: في الطفولة، أو الفيلق. أتابع الآن رواية القصة: شكرهم «بيريسفورد» على صنيعهم وعلى اهتمامهم بالفتى، واستقرّ الرأي على أن يبقى في البيت إلى أن يشفى تماماً. وهكذا، بينما كان الإنكليز يحتلون «بوينس أيرس» كان «باتريك» يغزو قلوب العائلة، ويصبح صديقاً لها، ولم يكن ذلك بالأمر السهل، فالجميع ـ وأسرتي منهم ـ كانوا يكرهون الاحتلال. ولكن ما حدث عندما بدأت حملة استرداد المدينة كان أسوأ: مشاهد الدموع تنهمر، وما إلى ذلك، فقد التحق «باتريك» بجيشه طبعاً، وكان يتعين عليه أن يحارب ضدنا، وعندما اضطر الإنكليز إلى أن يستسلموا، شعر بسعادة غامرة، وبحزن عميق في الوقت ذاته. طلب كثير من المهزومين الاستقرار والبقاء هنا، فَقُبلوا، وأراد «باتريك» بالطبع أن يبقى فاحتجزوه في مزرعة «لاهوركتيا»، وكانت إحدى مزارع أسرتي التي تقع قرب بلدة «برغامينو».

كان ذلك في 1807. وبعد سنة تزوجا، وكانا سعيدين وتقاسما نعم الحياة. أهداه دون «بونيفاسيو» قسماً من المزرعة، وباشر «باتريسيو» مهمته في التحول إلى «الميتري» ثم «المتريو» ثم «دون ديميتريو» ثم الملازم «ديمتريو»، وسرعان ما أصبح «باتريسيو أولموس» والويل لمن تجرأ وقال الإنكليزي أو ديمتريو.

تمتم العجوز:

ـ لو أنهم قتلوه في «كيبر اتشوهيرادو» لكان أفضل.

وعاد مارتين ينظر إلى أليخاندرا.

ـ إنه يعني العقيد أسيفيدو. أتفهم؟. لو أنهم قتلوه في «كيبر اتشو هيرادو» لما ذبح هنا، في الوقت الذي كان فيه ينتظر رؤية زوجته وابنته.

«لو أنهم قتلوني في «كيبراتشو هيرادو» لكان أفضل» هكذا يفكر «بونيفاسيو أسفيدو» وهو يهرب باتجاه الشمال. يفكر إنما لسبب آخر، لأسباب كان يحسبها فظيعة (ذلك النزوح اليائس وذلك القنوط، وذلك البؤس، وتلك الهزيمة الماحقة) ولكن فظاعة ذلك كله، لا يمكن أن تقاس بما كان يتعين عليه أن يواجهه بعد اثنتي عشرة سنة، لحظة إحساسه بالسكين تحزّ رقبته، أمام بيته.

رأى أليخاندرا تتجه نحو الصوان، فصرخ. ولكنها قالت وهي تتناول العلبة، (كفاك تخنثاً). ثم رفعت الغطاء وعرضت عليه رأس العقيد، وفيما كان مارتين يغطي عينيه كانت تضحك بفظاظة وتعيد العلبة إلى مكانها.

وتمتم العجوز قائلاً:

ـ في «كيبراتشو هيرادو».

فقالت أليخاندرا:

ـ وهكذا، فقد كانت ولادتي، مرة أخرى معجزة. فلو أنهم قتلوا الفارس «سيليدونيو أولموس» والد جدها في «كيبراتشوهيرّادو»، كما قتلوا والده وأخاه، أو لو أنهم ذبحوه أمام منزله كما فعلوا بالعقيد «أسفيدو» لما رأت هي النور، ولما كانت في تلك الغرفة تستعيد ذلك الماضي، هناك في تلك اللحظة. صرخت في أذن العجوز (حدثه عن قصة الرأس) وقالت لمارتين إنها يجب أن تذهب. واختفت قبل أن يثوب إلى رشده ويجري وراءها. (ربما لأنه كان كالمذهول)، تركته مع العجوز الذي كان يردد قائلاً (الرأس، نعم، الرأس) ويهز رأسه كنواس أبعد عن مركز ثقله، ثم

اهتزّ فكه الأسفل وتدلى وهو يرتعد هنيهة، وتحركت شفتاه بهمهمات مبهمة (لعله كان يحضّر في ذهنه ملخص الأحداث، كالصغار الذين يتعين عليهم تسميع درسهم). وقال في نهاية المطاف: «لاماسوركا» نعم، قذفوا بالرأس إلى هنا، إلى هذا المكان، تماماً، عبر نافذة القاعة. ترجلوا عن جيادهم وهم يقهقهون ويصرخون فرحين، واقتربوا من النافذة وصاحوا: بطيخ يا سيدة..!. بطيخ طازج..!. وعندما فتحت الصفق، قذفوا برأس «بونيفاسيو» الملطخ بالدم. لو أنهم قتلوه في «كيبراتشو هيرادو» أيضاً، مثلما قتلوا عمي «بانشيتو» وجدي «باتريسيو» لكان أفضل، أعتقد ذلك.

والعقيد «أسيفيدو» كان يفكر كذلك أيضاً عندما كان يولي الأدبار فاراً نحو الشمال في شعب «هوما هواكا» مع مئة وأربعة وسبعين زميلاً (وامرأة) طريداً ورثاً، مهزوماً ومحزوناً، ولكنه يجهل أنه سيعيش اثني عشر عاماً في أرض نائية ينتظر لحظة العودة ليرى زوجته وابنته.

تمتم:

- صاحوا، بطيخ طازج، وكان الرأس. وخرت «إنكارناسيون» المسكينة كالميتة عندما رأته، وماتت فعلاً بعد ساعات قليلة، قبل أن تستعيد وعيها. و«إسكولاستيكا» المسكينة، التي كانت فتاة صغيرة لا تتجاوز الأحد عشر ربيعاً، فقدت عقلها كذلك. هكذا كان.

أطرق. وبدأ يغفو، بينما كان مارتين يقف كالمشلول، يلفه صمتٌ، وذعر غريب، وسط تلك الغرفة المظلمة، مع العجوز التسعيني، ورأس العقيد «أسيفيدو» في علبته، وذلك المجنون الذي ربما كان هائماً على وجهه يتجول في تلك الأنحاء. وفكر بأن الخروج من هناك أفضل ما

يمكن أن يفعل، ولكن خوفه من أن يلتقي المجنون جعله يقف ساكناً، ثم قال في دخيلته، إن انتظار عودة أليخاندرا أفضل، فقد لا تتأخر، لا يمكن أن تتأخر. كانت تعلم أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً مع ذلك العجوز. وشعر كأنه يلج شيئاً فشيئاً في حلم هادئ، جميع ما فيه ليس واقعيا وغير معقول. وبدا كأن ذلك السيد وتلك المرأة ذات المشط الكبير، يطلان من الجدار ويراقبانه. وكأن أرواح محاربين وغزاة ومجانين وحكام وكهنة، تملأ الغرفة خفية، وتتهامس وتتداول فيما بينها: قصص غزوات، ومعارك وطعنات وبتر أعناق.

- مئة وخمسة وسبعون رجلاً.

حملق إلى العجوز: فكه الأسفل متدل يرتجف، وهو يتمتم:

- مئة وخمسة وسبعون رجلاً، نعم يا سيدي.

وامرأة، لكن العجوز لا يعلم أو لا يود أن يعلم، هذا كل ما تبقى من ذلك الفيلق الأبي، بعد ثمانمئة فرسخ من التقهقر والهزيمة، وعامين من الخيبة والموت. رتل من مئة وخمسة وسبعين رجلاً بائساً كئيباً (وامرأة) على خيولهم المنهكة، يغذون السير باتجاه الشمال دوماً. لن يصلوا أبداً. أتوجد أرض بوليفيا حقاً وراء ذلك الوادي الذي لا نهاية له؟. أشعة شمس تشرين الأول تسقط ثقيلة كالرصاص، وجثة الجنرال تنتن. برد الليل يجمد الصديد ويوقف زحف جيش الديدان، ثم النهار من جديد، وطلقات حماة المؤخرة وتهديد رماة «أوريبي».

والرائحة. رائحة الجنرال النتنة الكريهة. والصوت الذي يغني في هدوء الليل.

حمامتي البيضاء

اعبري الوادي

اذهبي إلى الجميع وقولي
لقد مات لافاجي

ـ عجباً. لقد تخلى «هورنوس» عنهم. قال: سألتحق بجيش السلم. وتركهم القائد «أوكمبو» أيضاً، فياللعجب. ورآهما لافاجي يبتعدان ورجالهما نحو الشرق وسط الغبار. ويقول والدي إن عيني الجنرال كانتا تغصان بالدموع وهو يرى الجيشين يبتعدان. مئة وخمسة وسبعون رجلاً كل ما تبقى.

تمتم العجوز واستغرق في التفكير ورأسه ينوس باستمرار.

ـ كان السود يحبون «هورنوس» كانوا يحبونه كثيراً. ثم أصبح والدي يستقبله. كان يأتي إلى هنا، إلى المنتجع، ويشربان «الماتي» سوياً، ويتذكران أحداث الحملة.

وعاد يتمتم ويردد كلمات غير مفهومة.

هز رأسه. تدلى حنكه وتمتم بشيء حول القائد «هورنوس»، والعقيد «بيدرنيرا» ثم صمت، أكان نائماً؟.. أكان يفكر؟. ربما كانت تسري في داخله حياة كامنة قريبة من الخلود، مثل حياة بعض أنواع الضب في أشهر الشتاء الطويلة.

«بيدرنيرا» يفكر: خمسة وعشرون عاماً من الحملات والمعارك والانتصارات والهزائم، ولكننا في تلك الأيام كنا نعرف ما الذي نحارب من أجله. حاربنا من أجل «الوطن الكبير» إنما الآن.. أريقت دماء كثيرة على أرض أمريكا. لقد شهدنا بقلق بالغ أمسيات كثيرة، وسمعنا الكثير من صيحات الحرب بين الأخوة.. إلى هنا يأتي «أوريبي» مستعداً لذبحنا وطعننا، والقضاء علينا، ألم يحارب معي في جيش «لوس أندس»؟. أوريبي. الجنرال الشجاع القاسي. فأين

هي الحقيقة؟.. ما أروع تلك الأيام..!. كم كان لافاجي متغطرساً وهو يختال في زي قائد الفرسان عندما دخلنا ليما..!. كان كل شيء في تلك الأيام واضحاً، كان كل شيء جميلاً كالزي الذي كنا نرتديه.

سعل، ولكنه عاد يتكلم بغتة:

- بوسع المرء يا بني أن يقول أي شيء عن «لافاجي»، ولكن لا يمكن لأي ابن حلال أن ينكر عليه حسن نيته ورجولته الخيرة وفروسيته وعفته. نعم يا سيدي.

حارب في خمس ومئة معركة من أجل حرية هذه القارة. حارب في ساحات تشيلي بإمرة الجنرال «سان مارتين»، وفي البيرو بقيادة الجنرال «بوليفار» وحارب فيما بعد القوات الملكية في أراضي البرازيل، ثم في هاتين السنتين من البؤس، في طول وطننا المسكين وعرضه. لعله ارتكب أخطاء فادحة، كان أكبرها إعدام «دوّريجو» ولكن من يملك ناصية الحقيقة؟. إني لا أعرف سوى أن هذه الأرض القاسية أرضي، وهنا يتعيّن عليّ أن أقاتل وأن أموت، جسدي يبلى فوق حصاني وأنا أقاتل، ولكن هذا كل ما أعرف.

قال العجوز وهو يسعل ويتنحنح كأنه مستغرق في التفكير، بينما عيناه تدمعان: «نعم يا سيدي»، وردد تلك العبارة مرات عدة، كأنه يخاطب محاوراً خفياً.

وتطلع وهو مستغرق يفكر، بعينيه الدامعتين، نحو الواقع، ذلك الواقع الوحيد.

واقع كان يرتبه حسب قوانين غريبة للغاية.

- كان ذلك حوالي سنة 32 كما روى والدي. نعم، لأن مسألة

تحسين المواشي لها خصوم وأنصار، وكان الإنكليزي «ميلر» هو الذي بدأ بها مع «تاركينو» حوالي سنة 30، نعم «تاركينو» الشهير في مزرعة «كاليدونيا».

عاد يضحك ويسعل ثم مسح عينيه الدامعتين بمنديل:

ـ عن أي شيء كنت أحدثك؟.

ـ عن ثيران تحسين النسل يا سيدي.

ـ نعم، صحيح الثيران.

سعل وأطرق لحظة ثم قال:

ـ لم تغفر لنا أسرة «إفاريستو» قط، وحتى عندما ذبحوا عمي كذلك. وانقسمت أسرتنا بسبب الطاغية. لم يكن بوسع أحد أن ينام قرير العين. ويمكنك أن تتصور ما كان يخيم على منزل والدي من غم، وحالة أمي التي بقيت وحيدة منذ أن التحق والدي بالفيلق. وكان جدي «دون باتريسيو» قد ذهب إلى هناك أيضاً. هل رويت لك قصة «دون باتريسيو»؟. وذهب شقيق جدتي «بونيفاسيو» وعمي «بانشيتو» كذلك. وهكذا، لم يبقَ في المزرعة أحد سوى عمي الصغير غضّ العود «ساتورنيو» والباقي نساء، كلهن نساء.

وعاد يمسح عينيه الدامعتين بالمنديل. سعل، ثم أطرق وبدا كأنه نائم لكنه قال فجأة:

ـ ستون فرسخاً، ورجال «أوريبي» في أعقابهم. وروى والدي أن شمس تشرين الأول/ أكتوبر كانت قوية جداً. وأنتَنَ جثمان الجنرال بسرعة، وبعد يومين من العدو السريع على ظهور الجياد، لم يعد أحد يطيق الرائحة، وكان لا يزال هناك أربعون فرسخاً لبلوغ الحدود. خمسة أيام، وأربعون فرسخاً أخرى، لإنقاذ عظام «لافاجي» ورأسه فقط، وليس

سوى ذلك يا بني. لأنهم هُزموا وتشتتوا ولم يكن بوسعهم القيام بأي شيء آخر: لا الحرب ضد «روساس» ولا غير ذلك. كان خصومهم سيفصلون الرأس عن الجثة، ويرسلونه إلى «روساس» ويعلقونه على رأس رمح كي ينالوا منه.. ويعلقون عليه يافطة تقول: «هذا رأس المتوحش، النجس، الكلب النذل، الوحدوي لافاجي». ولذلك كان يجب إنقاذ جثمان الجنرال مهما كلف الأمر، والدفاع عنه ببسالة طيلة ستة أيام من الهروب المتواصل، قبل الوصول إلى «بوليفيا». ستون فرسخاً من التقهقر الشرس المتواصل بلا نوم أو راحة.

أنا القائد «أليخاندرو دانيل» ابن ضابط الجيش النابوليوني «دانيل». لا أزال أتذكره عندما عاد مع الجيش العظيم، في حدائق «توليري» أو في ساحات «الإليزي» ممتطياً صهوة جواده. ما زلت أرى نابليون يتقدم موكب كبار القادة، بسيوفهم الأسطورية المعقوفة. وفيما بعد، حين لم تعد فرنسا أرض الحرية كما كانت من قبل، وعندما كنت لا أزال أحلم بالنضال من أجل الشعوب المضطهدة، أبحرت قاصداً هذه الأرض، جنباً إلى جنب مع «بروكس» و«فييل» و«بارديل» و«براندسن» و«روش» ممن حاربوا في صف نابليون، يا إلهي، كم من الزمن قد انقضى، وكم من معركة، وكم من انتصار وكم من هزيمة، وكم من ضحية، وكم من دماء أريقت..!. تلك الأمسية من سنة 1825 التي عرفته فيها بدا لي وهو على رأس فيلقه المدرع، نسراً إمبراطورياً، فانطلقت معه إلى حرب البرازيل، وعندما خرّ في «يربال» احتضنته، وعلى ظهري حملته عبر ثمانين فرسخاً، بين الأنهار والجبال، يطاردني العدو كما هو حالي الآن.. ولم أنفصل عنه قط.. والآن بعد ثمانمئة فرسخ من رحلة الأسى أسير بجانب جثمانه النتن نحو العدم.

بدا كأنه يصحو وقال:

ـ رأيت بعض الأمور بنفسي، وسمعت بعضها من أبي، ولكنني سمعت الكثير من أمي، لأن والدي كان صموتاً قلما يتكلم. وعندما كان الجنرال هورنوس أو العقيد أوكامبو يأتي لشرب «الماتي»، ويتذكرون أحداث الماضي القديم والفيلق، كان والدي يكتفي بالإصغاء ويقول ما بين حين وآخر: يا للعجب، أليس كذلك؟.

أطرق برأسه وبدأ يشخر فجأة.

وعاد مارتين ينظر نحو الباب، لكنه لم يسمع أي حركة.

أين أليخاندرا؟. وماذا تفعل في غرفتها؟. وفكر أيضاً، إنه لم يذهب، لكي لا يترك العجوز وحده، حتى وإن لم يكن يسمعه، حتى وإن لم يكن يراه أيضاً: كان العجوز مستغرقاً في حياته الدفينة التحتية العجيبة، لا يعيره اهتماماً ولا يهتم بأحد ممن يعيشون في هذا الزمن، تعزله الأعوام، والصَّمم والعشا، وذكريات الماضي الذي يقف معترضاً كأنه هو سور حلم مظلم. يعيش في قعر بئر، ويتذكر عبيداً وفرساناً، وبتر أعناق، وأحداث الفيلق. لم يكن قد بقي احتراماً للعجوز، وإنما كان مشدوداً يسيطر عليه ضرب من خوف اجتياز تلك المنطقة من الواقع الذي بدا أن العجوز والمجنون، وحتى أليخاندرا، يعيشون فيه. أرض غريبة كالأحلام يحيط بها الإبهام والجنون، ومخيفة مثيرة كالأحلام أيضاً، ومع ذلك فإنه نهض من الكرسي الذي كان يبدو مسمراً فوقه، وبدأ ينسَلّ بصمت بين الأمتعة البالية مبتعداً عن العجوز، بينما تتأمله وتترصده صور الأسلاف المعلقة على الجدران، وهو ينظر نحو العلبة في الخزانة. وما إن وصل إلى الباب حتى وقف أمامه لا يجرؤ على فتحه. اقترب ووضع أذنه بين الصفقين، كان يتملكه شعور بأن المجنون يقف في الجانب الآخر منتظراً

خروجه والكلارنيت في يده، ووصل به الأمر حد الظن بأنه كان يسمع تردد أنفاسه، فعاد ببطء مذعوراً إلى كرسيه وجلس.

وتمتم العجوز فجأة:

ـ خمسة وثلاثون فرسخاً لا أكثر.

نعم، بقي خمسة وثلاثون فرسخاً. ثلاثة أيام من العدو السريع في الوادي، والجثمان متنفخ ونتن، تزكم رائحته الأنوف من بعد مئات الأمتار، يقطر سائلاً صديدياً نتناً مخيفاً. إلى الأمام دوماً، وبعض الرماة في المؤخرة. من «خوخوي» إلى «هواكاليرا»، أربعة وعشرون فرسخاً. ليس أكثر من خمسة وثلاثين فرسخاً أخرى، هكذا يقولون لحفز الهمم. ليس سوى أربعة، أو ربما خمسة أيام أخرى من العدو السريع، إن حالفهم الحظ.

في سكون الليل الهادئ، يمكن سماع وقع حوافر جحفل الأشباح. نحو الشمال دوماً.

ويقول العجوز:

ـ لأن الشمس قوية جداً في الوادي يا بني، فهي أرض عالية جداً، والهواء بالغ النقاء. ولذا فإن الجثمان، بعد مسيرة يومين ـ انتفخ، وانتشرت رائحته إلى مئات الأمتار. وفي اليوم الثالث كان لا بد من سلخ اللحم عنه، نعم هكذا قال والدي.

العقيد «بيدرنيرا» يأمر بالوقوف، ويتحدث إلى رفاقه: الجثمان يتفسخ والرائحة لا تطاق، سيسلخ لحمه، ويحتفظ بالعظام. ويقول أحدهم: والقلب أيضاً، ولكن الرأس قبل أي شيء آخر: لن يحصل «أوريبي» على الرأس أبداً. لن ينال من الجنرال أبداً.

من يود القيام بذلك؟. من بوسعه أن يفعل ذلك؟.

العقيد «أليخاندرو دانيل» سيفعل.

وينزلون جثمان الجنرال النتن ويضعونه على حافة جدول «هواكاليرا». ويجثو العقيد دانيل بجانبه، ويستل سكينه. ويتأمل من خلال دموعه المنهمرة جثمان قائده العاري المشوه. وينظر إليه كذلك بقسوة وإمعان، ومن خلال دموعهم أيضاً، الرجال الذين التفوا حوله بأسمالهم البالية.

ثم يغرز السكين في اللحم النتن رويداً رويداً.

13

انتظر مارتين، ومضى الوقت، لكن العجوز لم يستيقظ، ظن أنه نام الآن فعلاً، فنهض وراح يسير رويداً رويداً، محاولا ألاّ يثير أي ضجة، نحو الباب الذي دخلت منه أليخاندرا. كان خائفا جداً لأنه تأخر، وكانت أضواء الفجر قد بدأت تغمر غرفة «دون بانشو». فكر بأنه قد يلتقي الخال «بيبي». أو الخادمة العجوز «خوستينا»، التي قد تكون مستيقظة. فماذا يقول لها؟.

أيقول: (أتيت مع أليخاندرا الليلة الماضية).؟.

ثم فكر بأن هذه الدار ليس فيها ما يمكن أن يسترعي الانتباه، ولذا يجب ألاّ يخشى أي مكروه، سوى احتمال لقاء المجنون «بيبي».

شعر ـ أو خيل إليه أنه شعر ـ بحركة وقع خطوات في الممر المؤدي إلى باب الغرفة. انتظر صامتاً، يده على مقبض الباب وقلبه يخفق بشدة. سمع صفير قطار بعيد. قرّب أذنه من الباب وأصغى باهتمام: لم يسمع شيئاً. وكان على وشك أن يفتحه عندما عاد يسمع من جديد، حركة خفيفة، كانت هذه المرة واضحة: إنها خطوات وئيدة واسعة، كأن أحداً ما يقترب بهدوء وحذر من الجانب الآخر للباب.

فكر مارتين مذعوراً: إنه المجنون، وأبعد أذنه عن الباب بسرعة خشية أن يفتحه المجنون من الجانب الآخر، ويباغته في موقف مشبوه.

وقف طويلاً لا يعرف ماذا يفعل: كان يخشى أن يفتح الباب فيجد

المجنون أمامه، وكان من ناحية أخرى ينظر إلى حيث كان «دون بانشو» وهو خائف من أن يستيقظ ويفتقده. فكر أنه ربما كان من الأفضل لو استيقظ العجوز، فإن دخل المجنون سيراه معه، وحينئذ يمكنه أن يشرح له الأمر، أو لعله لن يحتاج إلى تقديم أي إيضاحات للمجنون.

تذكر أن أليخاندرا قالت له إنه مجنون هادئ لا يفعل شيئاً سوى العزف على الكلارنيت: تعني أنه يكرر نوعاً من النغمات المشوشة باستمرار. ولكن، هل يتجول طليقاً في البيت؟. أم أنه محبوس في إحدى الغرف مثلما كانت «اسكولاستيكا»، وكما هو مألوف في مثل تلك البيوت القديمة؟.

أمضى بعض الوقت تتنازعه هذه الأفكار، وهو يصغي باستمرار.

لم يسمع أي حركة، فهدأ روعه، وعاد يضع أذنه قرب الباب، ويصيخ السمع. حاول أن ينتبه إلى أي حركة تثير الشبهة مهما قل شأنها، لكنه لم يعد يسمع شيئاً الآن.

وبدأ، شيئاً فشيئاً، يدير مقبض الباب: كان مرتاجه من ذلك النوع المألوف في أبواب البيوت القديمة، له مفتاح يربو طوله على عشرة سنتمترات. وبدت له الجلبة التي رافقت دوران المقبض هائلة، وفكر بأن المجنون لو كان يتجول هناك، فلا بد أن يسمعه ويقف متحفزاً، ولكن ما العمل؟. ولذلك فإنه، أمام الأمر الواقع، حزم أمره وفتح الباب.

كاد يصرخ.

كان المجنون ينتصب أمامه خاشعاً. رجل في العقد الخامس من عمره طويل اللحية، رث الثياب، بلا ربطة عنق، أشعث الشعر، يلبس معطفاً كان لونه فيما مضى أزرق، وسروالاً صوفياً رمادي اللون وقميصاً مفتوحاً، وكانت ملابسه مجعدة وقذرة، يحمل في يمينه الكلارنيت العتيد، ووجهه شاحب شارد، وعيناه زائغتان وبراقتان، كما هو معهود

في المجانين، كان وجهه نحيلاً بارز القسمات تتوسطه عينان رماديتان مخضبتان بالخضرة كعيون آل «أولموس» وأنف كبير معقوف، لكن رأسه كان ضخماً ومفلطحاً كالمنطاد.

كان مارتين يقف مصعوقاً من الخوف، لا يقوى على التفوه بأي كلمة. تأمله المجنون بهدوء ملياً، ثم استدار ولم يقل شيئا، إنما نفخ بعض النغمات الخفيفة (كتلك التي يطلقها الأطفال أثناء التدريب في جوقة مبتدئة)، وراح يسير في الممر متوغلاً في الداخل، متجهاً نحو غرفته. أما مارتين فركض في الاتجاه المعاكس نحو فناء الدار، الذي غمره نور الصباح الوليد.

رأى امرأة هندية طاعنة في السن تغسل في حوض. ففكر مارتين، وقد عاوده الجزع: إنها خوستينا.

قال وهو يحاول أن يبدو هادئاً، وكأن كل شيء طبيعي:

ـ صباح الخير.

لم تنبس العجوز بنت شفة. وفكر مارتين: (قد تكون صماء) مثل «دون بانشو».

إلا أنها راحت تتأمله بنظراتها الهندية المبهمة الغريبة خلال لحظات، خيل إليه أن لا نهاية لها. ثم تابعت تغسل.

وأدرك مارتين، الذي وقف حائراً لا يدري ماذا يفعل، أنه يتعين عليه أن يمضي في سبيله بشكل طبيعي. وهكذا توجه نحو السلم اللولبي، كي يصعد إلى البرج.

وصل إلى الباب وقرعه.

انتظر لحظات. ولما لم يتلقَ جواباً عاد يقرعه ثانية، ولكنه لم يلقَ أي جواب أيضاً. فقرب أذنه من خصاص الباب ونادى بصوت عال، أليخاندرا، فلم يجبه أحد.

ظن أنها نائمة.

وفكر بأنه لو ذهب لكان أفضل. ولكنه وجد نفسه يسير نحو نافذة البرج. وعندما أصبح أمامها لاحظ أن الستائر لم تكن مسدلة. نظر إلى الداخل محاولاً رؤية أليخاندرا وسط الظلمة التي ما زالت مخيمة داخل الغرفة، وعندما تمكنت عيناه من الإحاطة بما فيها، تبين له أنها لم تكن هناك.

بقي لحظات حائراً لا يدري ماذا يفعل، ولا يستطيع لملمة شتات فكره. ثم اتجه نحو السلم وبدأ يهبط بحذر، ويحاول أن يفكر بوضوح.

عبر الفناء وسار حول الدار القديمة من جهة الحديقة الجانبية الخربة. وأخيراً، وجد نفسه في الشارع. مشى على الرصيف حائراً، ثم اتجه نحو شارع «مونتيس دي أوكا» لكي يستقل الحافلة من هناك. ولكن ما إن قطع مسافة قصيرة حتى توقف ونظر إلى الخلف نحو دار آل «أولموس». كانت تعصف به حيرة مطلقة، فلم يهتد إلى القيام بأي شيء معين.

عاد بضع خطوات نحو الدار ثم توقف ثانية، ينظر إلى السور الصدئ كأنما ينتظر شيئاً. ما هو؟.. كانت الدار في ضوء النهار تبدو أشد غرابة منها في عتمة الليل. فجدرانها المهدمة المتسلخة، وأعشاب حديقتها النامية على هواها، وسورها الصدئ، وبابها المتداعي، كانت في ضوء النهار، تتناقض على نحو صارخ مع المعامل والمداخن التي تنتصب خلفها، وتبدو غير معقولة كأنها شبح ماثل في وضح النهار.

ثم استقرت عينا مارتين على البرج: بدا له هناك في الأعلى، وحيداً وغريباً، كأليخاندرا ذاتها. فردد في دخيلته: يا إلهي..!. ما هذا؟.

كانت تلك الليلة التي قضاها في هذه الدار تبدو له الآن في ضوء النهار كأنها حلم: العجوز الذي لا يكاد يفنى. ورأس القائد «أسيفيدو» في تلك العلبة. الخال المجنون يحمل الكلارنيت وعيناه زائغتان. العجوز

الهندية صماء لا تبالي بأي شيء، ولم تكلف نفسها عناء معرفة من هو وماذا يفعل هناك غريب مثله يتجول بين الغرف ثم يصعد إلى البرج. قصة الكاييتان «إلمتريز» قصة «إسكولاستيكا» الغريبة، وقصة جنونها. ثم إلى جانب ذلك كله أليخاندرا نفسها.

بدأ يفكر ببطء: كان الذهاب إلى «مونتس دي أوكا» وركوب الحافلة مستحيلاً، ويبدو أمراً صعبا للغاية: فقرر أن يذهب مشياً على الأقدام. سار في شارع «إيزابيل الكاثوليكية» باتجاه شارع «مارتين غارسيّا». ساعده الشارع القديم على لملمة شتات أفكاره شيئاً فشيئاً.

كان غياب أليخاندرا أكثر ما يثير شكوكه وقلقه، أين قضت ليلتها؟. أكانت تبتغي التخلص منه عندما أخذته ليرى جدها؟. لا، كان بوسعها أن تدعه يذهب عندما رغب في ذلك، بعد أن روت له تلك القصة عن «ماركوس مولينيا» وعن كل ما حدث في الشاطئ، وعن التبشير في الأمازون. لماذا لم تدعه يذهب في ذلك الحين؟.

لا، ربما كان ذلك طارئاً كله وغير مقصود. ربما خطر لها أن تذهب عندما كان مع «دون بانشو». ولكن، إن كان الأمر كذلك فلماذا لم تقل له؟. ثم، إن طريقة ذهابها ليست ذات أهمية كبيرة، ما كان يكتسي أهمية فعلاً، هو أنها لم تقض الليلة في البرج. ولذلك لا بد من الافتراض أن هناك مكاناً آخر قضت فيه ليلتها، وأنها كانت تفعل مثل ذلك عادة، ولم يكن ثمة سبب يدعو إلى الظن بأن ما حدث في تلك الليلة أمرٌ غير مألوف.

أم لعلها خرجت لمجرد التسكع في الشوارع؟.

وفكر وهو مغمور بفرح مفاجئ، وشيء من الحماسة أيضاً: نعم. نعم، لقد خرجت لتتسكع في تلك النواحي، وتفكر وتروِّح عن نفسها. لقد كانت هكذا دائماً: عفوية، هوجاء، وغريبة الأطوار، وأهلاً للتسكع

وحدها ليلاً، في تلك النواحي. ولم لا؟. ألم يتعرفا في إحدى الحدائق؟. ألم تكن تتردد على الحدائق حين التقيا أول مرة؟.

نعم، لقد كان كل شيء ممكناً.

سار فَرِحاً بضع مئات من الأمتار، إلى أن تذكر فجأة أمرين، قد استرعيا انتباهه في حينه ولكنهما يثيران الآن قلقه: فرناندو، ذلك الاسم الذي ما إن لفظته مرة، حتى بدت نادمة على ما فعلته، ورد فعل أليخاندرا العنيف عندما بدرت منه تلك الإشارة إلى العميان. ما لها وللعميان؟. لا بد أن الأمر هام. لم يداخله الشك في ذلك، فقد وقفت كالمصعوقة. هل يكمن ذلك اللغز في أن فرناندو أعمى؟. ومن كان فرناندو هذا الذي بدا أنها تخشى ذكر اسمه، مثل بعض الشعوب عندما تحجم عن ذكر اسم الإله؟.

ثم عاد إلى حزنه يفكر بأن هاوية مظلمة تفصله عنها، وأنها ربما بقيت إلى الأبد تفصل بينهما.

ولكنه عاد يتساءل وقد غمره الأمل. لماذا اقتربت منه عندما كان في الحديقة؟. ألم تقل له إنها كانت بحاجة إليه، وأن شيئاً مشتركاً يكتسي أهمية بالغة يربط بينهما؟.

مشى بضع خطوات حائراً. ثم توقف وكأنه يستجوب نفسه: ولكن لماذا تحتاجني؟.

شعر بحب أليخاندرا يملأ كيانه، وفكر والحزن يتملكه، أنها لا تبادله الشعور ذاته. وأنها، وإن كانت بحاجة إليه، إلى مارتين، لكنها مع ذلك، لا تكنّ له المشاعر ذاتها التي يكنها لها.

كان رأسه يضطرم بالفوضى.

14

لم يحصل طيلة أيام عديدة على أي أنباء عنها. طاف حول الدار في «باراكاس» وراقب في مناسبات كثيرة باب السور الصدئ من بعيد.

بلغ اليأس به الذروة عندما فقد عمله في المطبعة، قالوا له: سيتوقف لبعض الوقت عن العمل. ولكنه كان يعرف تماماً أن الأمر ليس كذلك.

15

انتظر بضعة أيام بلا جدوى. ولكن «تشيتشين» استقبله بعد ذلك بإيماءة وسلمه مغلفاً. فتحه وهو يرتعد، وفض الرسالة. كانت بحروفها القلقة الكبيرة وغير المتناسقة تقول له ببساطة، إنها ستنتظره عند الساعة السادسة.

قبل السادسة بقليل، كان جالساً على مقعد الحديقة، مضطرباً لكنه سعيد، يفكر بأن لديه الآن من يحدثه عن بؤسه. لديه امرأة كأليخاندرا متفوقة عليه إلى درجة تجعله أشبه بمتسول عثر على ثروة «مورغان».

هرع نحوها بحركة طفولية وروى لها مشكلة المطبعة.

قال مارتين:

ـ لقد حدثتِني عن شخص يدعى «موليناري». أظنك قلت إنه صاحب شركة كبرى.

التفتت أليخاندرا نحو الفتى وقد قطبت حاجبيها من الدهشة.

ـ «موليناري»؟. حدثتك أنا عن «موليناري»؟.

ـ نعم، في هذا المكان، عندما كنت نائماً. أتتذكرين؟. قلت لي: من المؤكد أنك لا تعمل لدى «موليناري». أتتذكرين؟.

ـ ربما.

ـ هل هو صديقك؟.

ـ نظرت إليه أليخاندرا وقد افتر ثغرها عن ابتسامة ساخرة.

ـ قلت لك إنه صديقي؟.

لكن مارتين كان يعلق آمالاً كبيرة في تلك اللحظة، ولكي يواري ما يخالجه. ألح قائلاً:

ـ ما رأيك؟. أتعتقدين أنه يمكن أن يسند إلي عملاً ما؟.

رمقته بنظرة متفحصة، كما ينظر طبيب إلى مجند يتقدم للخدمة العسكرية.

ـ أتقن الكتابة على الطابعة. ويمكنني إنشاء الرسائل، وتصحيح مسودات المطبوعات.

ـ أي إنك واحد من مظفري الغد، إيه؟.

تضرج وجه مارتين:

ـ ولكن هل لديك فكرة عمّا يعني العمل في شركة ذات أهمية؟. حيث الساعات تضبط أوقات الدخول والخروج، وما إلى ذلك..؟.

وتناول من جيبه مطواته البيضاء، فتح شفرتها الصغيرة، ثم طواها ثانية وقال وهو مطرق ينظر إلى الأرض:

ـ ليس لدي أي مطلب. إن لم يكن بوسعي العمل في المكتب يمكن أن أعمل في المطبعة، أو أن أشتغل في أي عمل عادي.

تأملت أليخاندرا ثيابه الرثة. وحذاءه البالي.

عندما رفع مارتين رأسه ونظر إليها، رأى أمارة جدّ على محياها، وتقطيبة بين حاجبيها.

ـ هل الأمر بالغ الصعوبة؟.

نفت بإيماءة من رأسها:

قالت:

ـ حسناً، لا تقلق. سنجد حلاً.

ونهضت:

ـ هيا بنا نتجول بعض الوقت، أشعر بألم شديد في معدتي.

ـ معدتك؟.

ـ نعم، إنها تؤلمني كثيراً. لا بد أن يكون ذلك ناجماً عن قرحة.

سارا إلى الحانة التي تقع عند تقاطع شارعي «البرازيل» و«بالكارسي». طلبت أليخاندرا كأساً من الماء. تناولت من محفظتها زجاجة صغيرة، وصبت منها بعض قطرات في الكأس.

ـ ما هذا؟.

ـ صبغة الأفيون.

اجتازا الحديقة ثانية.

قالت له:

ـ هيا بنا إلى المرفأ.

نزلا في شارع «ألميرانتي براون»، وانعطفا في شارع «الأسقف اسبينوسا» ثم في شارع «بيدرو دي مندوسا» حتى وصلا إلى جانب سفينة شحن سويدية. جلست أليخاندرا على إحدى الصناديق الضخمة الآتية من السويد، تنظر إلى النهر، وجلس مارتين على صندوق أصغر، كما يجلس العبد أمام سيدته الأميرة. كانا ينظران إلى النهر الكبير وقد اصطبغت مياهه بلون جلد الأسد.

قالت له:

ـ أرأيت كيف أن لدينا كثيراً من الأمور المشتركة؟.

فكر مارتين، ***أيكون ذلك ممكناً؟***. وعلى الرغم من ثقته بأنهما كلاهما كانا يحبان منظر النهر، لكنه فكر أيضاً بأن ذلك ليس سوى ترهة، أمام وقائع أخرى أعمق تنأى به عنها، ترهة لا يمكن لأحد أن

يحملها محمل الجد، حتى أليخاندرا ذاتها بصورة خاصة، فهي (فكر) بالابتسامة التي افترَّ ثغرها عنها بينما تقول له تلك العبارة، مثل أكابر الناس الذين يظهرون فجأة، لالتقاط الصور ديمقراطياً، في الشارع إلى جانب عامل أو خادمة، ويبتسمون بلطف. وتلك العبارة يمكن أن تكون أيضاً مفتاح سر حقيقي، كما أن تمتعهما سوياً بالنظر إلى عرض النهر يشكل صيغة تحالف خفية، من أجل أمور أكثر أهمية. إذ كيف يمكن معرفة حقيقة ما يجول في خاطرها؟ كان ينظر إليها بقلق وهي جالسة فوق، كمن يراقب بهلواناً عزيزاً يسير على حبل، في منطقة خطرة للغاية ولا يستطيع أحد أن يقدم له أي مساعدة. كان يراها غامضة تثير الحيرة، بينما تعبث النسمات بشعرها الأسود المنسدل، وتبرز نهديها المتوثبين المنفرجين قليلاً على جانبي صدرها، وتدخن وهي شاردة الذهن، وكان يبدو أن الكآبة قد حلت بتلك المنطقة التي عصفت بها الرياح فأخمدتها، وكما لو أن الرياح قد سكنت، وخيمت على المنطقة سحابة ضباب كثيفة.

قالت فجأة:

ـ ما أجمل الذهاب بعيداً. الذهاب من هذه المدينة النجسة.

أصغى مارتين بمرارة إلى تلك العبارة بصيغة المصدر: الذهاب. فسأل بصوت متهدج:

ـ أتذهبين؟.

فأجابت من دون أن تنظر إليه، وكأنها لا تزال شاردة.

ـ نعم، أذهب بكل سرور. إلى مكان بعيد لا أعرف فيه أحداً، وربما إلى جزيرة من تلك الجزر التي قد يكون بعضها موجوداً هناك.

أطرق مارتين، وبدأ ينكش الصندوق بالمطواة الصغيرة وهو يقرأ

بالإنكليزية عبارة: هذا الجانب إلى الأعلى. وبعد أن راقبته أليخاندرا قليلاً، التفتت إليه وسألته إن أصابه مكروه، فقال وهو ينكش الخشب ويقرأ، *هذا الجانب إلى الأعلى*.. لا لم يصبه أي شيء، لكن أليخاندرا مكثت تنظر إليه وتتأمله. وبقيا هكذا صامتين وقتاً طويلاً، في حين كان الليل يرخي سدوله والهدوء يخيم على الرصيف: كانت الرافعات قد توقفت عن العمل، وبدأ عمال الشحن والتفريغ بالانصراف إلى بيوتهم أو إلى حانات حي الـ «باخو».

فقالت أليخاندرا:

ـ هيا بنا إلى «موسكوفا».

ـ إلى موسكوفا؟.

ـ نعم إنها في شارع الاستقلال.

ـ ولكن. أليست غالية جداً؟.

ضحكت أليخاندرا وقالت:

ـ إنها حانة صغيرة يا رجل، ثم إن «فانيا» صديقي.

كان الباب مغلقاً.

قال مارتين:

ـ لا يوجد أحد.

فقالت أليخاندرا وهي تقرع الباب:

ـ صه.

وبعد لحظات، فتح الباب رجل يلبس قميصاً: كان شعره أبيض منسدلاً، ومحياه متوتراً يوحي بالطيبة، تعلوه ابتسامة حزينة، وكانت إحدى وجنتيه تهتز تحت عينه، ما بين حين وآخر، بحركة عصبية.

قالت أليخاندرا وهي تبسط له يدها:

ـ إيفان بتروفيتش.

فقربها الرجل من شفتيه، وانحنى قليلاً.

جلسوا جميعاً قرب نافذة تطل على شارع «باسيوكولون». كان يبدد ظلمة الحانة قنديل صغير معلق قرب صندوق المحاسبة، حيث كانت امرأة بدينة وقصيرة ذات ملامح سلافية تشرب «الماتي».

قال فانيا:

ـ لديّ «فودكا» بولونية. أتوني بها أمس. وصل مركب من بولونيا.

وعندما ابتعد قالت أليخاندرا:

ـ إنه طراز من البشر رائع. ولكن البدينة ـ وأشارت نحو الصندوق ـ تأتمر ليحجزوا على فانيا، كي تستولي على هذه الحانة.

ـ فانيا؟.. ألم تقولي إيفان بتروفيتش؟.

ـ أيها المتخلف: فانيا، تصغير إيفان. الجميع ينادونه فانيا. ولكنني أناديه إيفان بتروفيتش، فهكذا يشعر كأنه في روسيا، إضافة إلى أن ذلك يروقني.

ـ ولماذا الحجر عليه في مصح الأمراض العقلية؟.

ـ إنه مدمن مخدرات، تصيبه نوبات. ولذا فإن البدينة تود اقتناص الفرصة.

أتى بالفودكا. وبينما كان يقدمها قال:

ـ آلة التسجيل تعمل الآن جيداً. لدي «كونشرتو» «برامز» على الكمان. أتودين سماعه؟. إن العازف «هيفتز» وليس سواه.

قالت أليخاندرا عندما توارى:

ـ أرأيت. إنه كَرَمٌ كله. ستعلم أنه كان عازف كمان في دار الأوبرا «كولون»، ورؤيته الآن يعزف، تبعث في النفس الأسى. ولكنه يقدم لك

«كونشرتو» على الكمان. والعازف «هيفتز» ذاته..!.

أشارت إلى الجدران: بعض «القوزاق» يدخلون قرية على جيادهم. وبعض الكنائس البيزنطية بقبابها المذهبة. وبعض الغجر. كان كل شيء عرضياً وبائساً.

قالت:

ـ أحسبه أحياناً يود العودة. قال لي في أحد الأيام: ألا يبدو لك «ستالين»، رغم كل شيء، رجلاً عظيماً؟. ثم أضاف: إنه على نحو ما، بطرس الأكبر، وهو في نهاية المطاف ينشد عظمة روسيا. قال كل ذلك بصوت خفيض، وهو ينظر إلى البدينة ما بين حين وآخر. أعتقد أنها تعرف ما يقول من خلال حركات شفتيه.

كان فانيا يقوم من بعيد، رغبة منه في عدم إزعاج الفتيين، ببعض الإيماءات ذات المعنى، فيشير إلى آلة التسجيل كأنه يثني على الموسيقا. وبينما كانت أليخاندرا تداعبه بابتسامة، قالت لمارتين:

ـ إن العالم تافه.

فأجابها مارتين:

ـ لا أليخاندرا..!. يوجد كثير من الأشياء الجميلة في هذا العالم..!.

رمقته بنظرتها، ولعلها كانت تفكر في بؤسه، وفي أمه، وفي عزلته: ألا يزال قادراً بَعْدُ، على اكتشاف معجزات في هذا العالم..!. وطغت ابتسامة سخرية على أمارة الرقة التي كانت ترتسم على محياها، فجعلتها تتقلص، كما لو أن مادة حمضية صبت على بشرة بالغة الرقة.

ـ ماهي؟.

فقال مارتين وهو يضم إحدى يديها إلى صدره:

ـ كثيرة يا أليخاندرا..!. كثيرة..!. هذه الموسيقى.. ورجل مثل فانيا.. وقبل كل ذلك أنت يا أليخاندرا.. أنتِ.

سيتعين عليّ حقاً، أن أفكر بأنك لم تجتز بعدُ، مرحلة الطفولة أيها الساذج.

مكثت شاردة لحظة. رشفت قليلاً من الفودكا ثم أردفت تقول:

ـ نعم طبعاً، إنك محق فعلاً. في العالم أشياء رائعة حقاً.

ثم التفتت إليه وقالت بلهجة مفعمة بالمرارة:

ـ ولكنني يا مارتين نفاية. أتفهمني؟. لا تنخدع بي.

تناول مارتين يد أليخاندرا بكلتا يديه، وضمها إلى شفتيه وراح يقبلها.

ـ لا يا أليخاندرا، لماذا تقولين شيئاً بمثل هذه القسوة..!. إنني أعرف أن الأمر ليس كذلك. كل ما كنت تقولينه عن فانيا، وما سمعته منك عن أشياء كثيرة يدلل على أن الأمر ليس كذلك.

كانت عيناه قد اغرورقتا بالدموع.

فقالت أليخاندرا:

ـ حسناً حسناً. الأمر لا يستحق كل هذا.

اتكأ مارتين برأسه على صدر أليخاندرا، ولم يعد يشغله أي شيء في هذا العالم. ورأى عبر النافذة كيف كان الليل يخيم على «بوينس أيرس»، فغمره إحساس بالحماية والأمان في ذلك الركن المنعزل من المدينة التي لا ترحم، ولكن سؤالاً لم يكن قد طرحه على أحد (وعلى من كان بوسعه أن يطرحه؟.) انبثق من أعماقه واضحاً براقاً كوضوح نقوش قطعة نقد لامعة لم تمسها بعد أيدي الملايين المجهولة القذرة، وتمسحها وتشوه بريقها.

ـ أتحبينني؟.

بدت مترددة برهة لكنها أجابت:

ـ نعم، أحبك. أحبك كثيراً.

شعر مارتين بأن قوة سحرية تنأى به عن الواقع الخارجي الأليم الذي يحيط به، مثلما يحدث في المسرح (كان بعد سنوات يفكر) عندما نعيش دنيا المشهد، بينما تنتظرنا في الخارج أشواك الحياة اليومية المؤلمة، تلك الأمور التي لا بد أن تصدمنا، ما إن تُطفأ أنوار الكواليس ويزول سحر المشهد. ومثلما يحدث في المسرح أيضاً، يتناهى العالم الخارجي إلينا في لحظة من اللحظات، عبر جلبة بعيدة، خافتاً (كبوق سيارة، أو صياح بائع صحف، أو صفارة شرطي)، هكذا أيضاً كانت تتناهى إلى وعيه، كهمسات مقلقة، وقائع صغيرة، وبعض العبارات التي من شأنها تعكير الجو السحري وتمزيقه: تلك الكلمات التي قالتها في المرفأ، والتي استُثني هو منها، على نحو مريع، (أذهب بكل سرور، من هذه المدينة النجسة). والجملة التي قالتها الآن (أنا نفاية، لا تنخدع بي).. كلمات كانت تخفق في روحه كأنها ألم خفيف أصم، وكانت في تلك اللحظة، بينما هو متكئ برأسه على صدر اليخاندرا، مستسلماً للسعادة الهائلة، تنهش أكثر أنحاء نفسه عمقاً وغموضاً، وتوشوش مع كلمات مبهمة أخرى: العميان، فرناندو، موليناري. وكان يردد في دخيلته، ***ليس مهماً، ليس مهماً***، ويمرغ رأسه على نهديها الدافئين، ويلامس يديها، كأنما يضمن على هذا النحو، استمرار السحر.

سأل ببراءة طفولية:

ـ ولكن ما مدى حبك لي..؟.

ـ كبير. لقد قلت لك الآن.

بيد أن صوتها بدا له غريباً. وما إن رفع رأسه حتى لاحظ، ورأى بأم

عينه أنها كانت شاردة، وأن انتباهها كان منصرفاً إلى شيء ما، لم يكن هناك معه، وإنما في مكان آخر بعيد ومجهول.

- بم تفكرين؟.

لم تجب، وبدت كأنها لم تسمع.

وردد مارتين السؤال ثانية، وهو يضغط على ذراعها، كأنما يود أن يعيدها إلى الواقع.

فقالت عندئذ، إنها لا تفكر في شيء: لا شيء معين.

كثيراً ما شعر مارتين بذلك الشرود: عيناها مفتوحتان، حتى وهي تفعل شيئاً ما، لكنها تكون نائية شاردة، كأن قوة ما توجهها من بعيد.

قالت أليخاندرا فجأة، وهي تنظر إلى فانيا:

- أحب الناس الفاشلين. وأنت، هل أنت كذلك؟.

- مكث مارتين يفكر في تلك العبارة الغريبة.

ولكنها استطردت:

- ينطوي النجاح دائماً على شيء من الابتذال والفظاظة.

وصمتت برهة، ثم أردفت تقول:

- ويل لهذا البلد كيف سيكون لو انتصر الجميع..!. لا أود مجرد التفكير بذلك، ينقذنا قليلاً فشل كثير من الناس. ألست جائعاً..؟.

- بلى.

نهضت وذهبت لتحدث فانيا. وعندما عادت قال لها مارتين وقد تضرج وجهه، إنه لا يملك نقوداً. أخذت أليخاندرا تضحك. وفتحت محفظتها وأخرجت مئة «بيسو».

- خذ، عندما تحتاج أكثر، قل لي.

حاول مارتين أن يرفض. كان خجلاً، فنظرت إليه أليخاندرا بدهشة:

ـ أمجنون أنت؟. أم أنك أحد أولئك «البورجوازيين» الصغار الذين يعتقدون أنه يتعين عليهم ألا يقبلوا مالاً تقدمه إليهم امرأة؟.

عندما فرغا من تناول الطعام، تمشيا نحو «بارّاكاس». بعد أن عبرا صامتين حديقة «ليساما»، سارا في شارع «إرناندارياس».

سألته أليخاندرا:

ـ هل تعرف قصة مدينة «باتاغونيا» المسحورة.

ـ بعض الشيء، وليس كثيراً.

ـ سأريك يوماً ما، أوراقاً ما زالت محفوظة في علبة القائد، أوراقاً حول هذا.

ـ حول هذا؟. مَنْ؟.

أومأت أليخاندرا إلى اللوحة التي تحمل اسم الشارع:

ـ «ارناندارياس».

ـ في منزلك؟. كيف..؟.

ـ أوراق، أسماء شوارع، هذا ما يتبقى لنا وحسب. «ارناندارياس» هو جد آل «أسيفيدو». في سنة 1550 قام بحملة للبحث عن المدينة المسحورة.

مشيا صامتين مدة. ثم بدأت أليخاندرا تردد:

هاهي بوينس أيرس.
الزمن الذي يأتي للناس بالحب أو الذهب،
لا يكاد يترك لي سوى هذه الزهرة الذابلة،
هذه الشبكة التي لا فائدة منها من شوارع
تكرر الأسماء الماضية مِمَنْ من دمهم تحدرت:

لا بريدا، كابريرا، سولير، سواريس..
أسماء مازالت تدوي مرددة الأهداف السرية،
والجمهوريات، والخيول، والأصباح،
نشوة الانتصارات وممات العساكر....[1].

وبعد أن لاذت بالصمت أثناء مسيرة مئات من الأمتار سألت بغتة:

ـ أتسمع قرع أجراس؟.

أصاخ مارتين، ثم أجاب، لا، وبعد ذلك سأل متخابثاً:

ـ ما قصة الأجراس؟.

ـ لا شيء، أسمع أحياناً أجراساً موجودة، وأحياناً أخرى أجراساً لا وجود لها.

ضحكت ثم أردفت تقول:

بمناسبة ذكر الكنائس، رأيت أمس حلماً غريباً، كنت في كنيسة يخيم عليها الظلام تقريباً. وكان يتعين عليّ أن أسير بحذر كي لا أتعثر بأحد، وراودني شعور (لأنني لم أكن أرى شيئاً) بأن الممر يغص بالناس. تمكنت بعد لأي، من أن أقترب من الكاهن الذي كان يتكلم وسط الجمهور. كان يتعذر عليّ أن أفهم ما كان يقول، على الرغم من أنه كان قريباً جداً، والأسوأ من ذلك أنني كنت متأكدة من أنه كان يخاطبني. كنت أسمع همهمة مبهمة، وكأنه يتحدث عبر جهاز هاتف معطل، وهذا ما زادني غماً، حملقتُ كي أتمكن، على أقل

(١) من شعر الكاتب الأرجنتيني الشهير «بورخيس» وهو ينتمي إلى الجيل السابق لجيل «ساباتو» (المترجم).

تقدير، من مشاهدة تعابير وجهه. فذعرت عندما رأيت أنه ليس له وجه، بل كان وجهه أملس، ورأسه بلا شعر. أخذت الأجراس في تلك اللحظة تقرع. بطيئة في البدء، ثم بشدة شيئاً فشيئاً، وتحولت في نهاية الأمر، إلى صخب وضجيج، حتى استيقظت. والأمر الغريب أنني كنت في الحلم ذاته، أقول وأنا أسد أذني، وكأن في ذلك مدعاة للخوف: إنها أجراس «سانتا لوسيا». الكنيسة التي كنت أرتادها عندما كنت صغيرة..!.

واستغرقت في التفكير. ثم قالت:

ـ إني أتساءل، ماذا يمكن أن يعني ذلك؟. ألا تؤمن بتفسير الأحلام؟.

ـ تعنين مسألة التحليل النفسي؟.

ـ لا، لا. حسناً، وذلك أيضاً. لم لا. ولكن أمر الأحلام غريب، والبشر منذ آلاف السنين وهم يسبغون عليها تفسيرات شتى.

وضحكت ضحكتها الغريبة المعهودة، مثلما فعلت قبل قليل: لم تكن ضحكة سليمة أو هادئة بل: كانت قلقة ومثيرة للكآبة.

ـ أحلم دائماً بالنار، والطيور، وبمستنقعات أغرق فيها، أو فهود تمزقني، وبأفاع، ولكن بالنار على نحو خاص، فالنار تكون موجودة دائماً. ألا تعتقد أن النار تنطوي على أمر مبهم وقدسي؟.

وصلا. ونظر مارتين من بعيد إلى الدارة وبرجها العالي. شبح بقايا عالم لم يعد له وجود.

دخلا عبر الحديقة، سارا نحو البيت: كانت تسمع نغمات كلارنيت المجنون مشوشة إنما هادئة.

ـ هل يعزف دائماً؟.

ـ تقريباً، ولكن، مع ذلك، فإنك لا تشعر بوجوده.

ـ أتعلمين أنني رأيته في تلك الليلة عندما خرجت؟. كان وراء الباب يسترق السمع.

ـ نعم، من عادته القيام بذلك.

ـ صعدا السلم اللولبي، وعاد مارتين ثانية، يتمتع بسحر تلك الشرفة في ليلة صيف. كل شيء يمكن أن يحدث في ذلك الجو الذي بدا أنه خارج الزمان، وخارج المكان.

دخلا إلى البرج، وقالت أليخاندرا:

ـ اجلس على السرير، فأنت تعلم أن الجلوس على الكراسي هنا خطر.

وفيما كان مارتين يجلس، ألقت بمحفظتها، وتركت الماء فوق النار يسخن، ثم اختارت أسطوانة: بدأت نغمات الكلمات المؤثرة تشيع جواً كئيباً:

ـ اسمع ما أروع هذه الكلمات:

أود أن أموت وإياك.

بلا اعتراف ولا إله،

مصلوبة على خشبة أحزاني،

كأنما أعانق حقداً.

بعد أن شربا القهوة، خرجا إلى الشرفة واتكأا على الحاجز. كان صوت الكلارنيت يُسمع آتياً من تحت. وكان الليل عميقاً ودافئاً.

ـ يقول برونو دائماً، إننا لسوء الحظ، نصوغ حياتنا على مسودة. يستطيع الكاتب أن يغير صياغة نص لتلافي العيوب، كما يستطيع إلقاءه في سلة المهملات. ولكن الحياة ليست كذلك: ما عاشه المرء لا سبيل إلى تصحيحه ولا تغييره ولا إلقائه جانباً. أترى ما أفظع ذلك؟.

ـ من هو برونو؟.

ـ إنه صديق.

ـ ماذا يعمل؟.

ـ لا شيء. يفكر، ورغم قوله إنه فاقد الإرادة، لكنني أعتقد أنه يكتب، إلا أنه لم يعرض على أحد قط ما كتب، وأعتقد أنه لن ينشر شيئاً أبداً.

ـ ومَم يعيش.

ـ يملَك والده طاحوناً في «كابيتان أولموس»، تعرفناه هناك. كان صديقاً حميماً لوالدتي.

ثم أضافت وهي تبتسم:

ـ أعتقد أنه كان مغرماً بها.

ـ وكيف كانت والدتك؟.

ـ يقولون إنها كان تشبهني تماماً، أعني خَلْقاً، لا أكاد أتذكرها: تصور، كان عمري خمس سنوات عندما قضت نحبها. كان اسمها خورخينا.

ـ لماذا قلت إنها كانت تشبهك خَلْقاً.

ـ لأنني، خُلُقاً، أختلف عنها كثيراً. فقد كانت كما قال لي برونو، رقيقة، مفعمة بالأنوثة، حساسة، وقلما تتكلم.

ـ وأنت، من تشبهين؟.. والدك؟.

لاذت أليخاندرا بالصمت، ثم ابتعدت وقالت بصوت لم يعد كما كان من قبل، بل أصبح واهناً فظاً:

ـ أنا..؟. لا أدري.. لعلي تجسيد أحد أولئك الأبالسة الصغار الذين يقومون على خدمة الشيطان.

فكت زري قميصها العلويين، وهزت طرفي ياقته الصغيرة بكلتا يديها، كأنما تود مزيداً من الهواء. واقتربت من النافذة وهي تتنفس بعمق، وبدأت تتنشق الهواء مرات عديدة، حتى بدا أنها هدأت.

قالت بعد أن جلست على حافة السرير كعادتها، وتركت لمارتين فسحة بجانبها:

ـ إنها دعابة.. أطفئ النور، إنه أحياناً يزعجني جداً، عيناي تلتهبان.

سألها مارتين:

ـ هل تودين أن أذهب؟. أترغبين في أن تنامي؟.

ـ لا، لا أستطيع أن أنام، ابقَ إن لم تمل السكوت هكذا من دون محاور. سأستلقي قليلاً، ويمكنك البقاء هنا.

ـ يبدو لي، أنه من الأفضل أن أذهب وأدعك ترتاحين.

فأجابت أليخاندرا بلهجة يخالطها بعض السخط:

ـ ألم تدرك بعد إنني أود أن تبقى؟. حسناً، اطفئ نور هذا المصباح.

أطفأ مارتين النور وعاد، يجلس بجانب أليخاندرا، مشوشاً تضطرم نفسه بالحيرة والخجل: لماذا تحتاج أليخاندرا إليه؟. كان يفكر بأنه ليس سوى نكرة وأرعن، لا يتقن سوى الاستماع إليها والإعجاب بها. وكانت قوية. فأي مساعدة يمكن أن يقدم إليها؟.

هزته أليخاندرا من أحد ذراعيه وقالت من تحت الغطاء، كأنها تود أن تعيده إلى الواقع:

ـ بماذا تغمغم؟.

ـ أغمغم؟. أبداً.

ـ إذن تفكر. إنك تفكر بأمر ما، أيها الأبله.

رفض مارتين الإفصاح عما كان يفكر به، لكنه افترض أنها كانت، في جميع الأحوال، تعرف، كعهده بها دائماً.

قال:

ـ كنت أفكر.. بأنك.. لماذا يمكن أن تحتاجي إلي؟.

ـ ولم لا؟.

ـ إنني فتى تافه.. وأنت بالمقابل قوية، أفكارك واضحة، وشجاعة.. بوسعك وحدك الدفاع عن نفسك أمام قبيلة من أكلة لحوم البشر.

سمعها تضحك ثم قالت:

ـ أنا نفسي لا أعرف لماذا. ولكنني بحثت عنك لأنني بحاجة إليك، لأنك.. على كل حال، لماذا نتعب أنفسنا؟.

أجاب مارتين بلهجة توحي بالمرارة:

ـ ولكنك قلت لي اليوم في المرفأ إنك تذهبين بكل سرور، إلى جزيرة نائية.. ألم تقولي ذلك؟.

ـ وماذا في هذا؟.

ـ قلت تذهبين، ولم تقولي نذهب.

ضحكت أليخاندرا ثانية.

أمسك مارتين يدها منتشياً وسأل:

ـ أتذهبين معي؟.

بدت أليخاندرا مستغرقة في التفكير: لم يتمكن مارتين من تخمين ما ارتسم على وجهها من ملامح:

ـ نعم.. أعتقد أنني أذهب.. ولكن لست أدري لِمَ يجعلك هذا الاحتمال سعيداً.

فسأل مارتين بألم:

ـ ولم لا؟.

فأجابته بلهجة جادة:

ـ لأنني لا أتحمل أن يكون بجانبي أحد، ولأنني قد ألحق بك الكثير، بل الكثير من الأذى.

ـ أي إنك لا تحبينني..؟.

ـ آه يا مارتين.. دعنا من هذه الأسئلة.

ـ إذاً لأنك لا تحبيني.

ـ ولكن، نعم، بل، أحبك وقد ألحق بك الأذى لأنني أحبك، ألا تفهم؟. لا يلحق المرء الأذى بمن لا يبالي بهم. ولكن كلمة حب يا مارتين فضفاضة جداً.. يحب المرء عشيقاً، يحب كلباً. يحب صديقاً.

فسأل مارتين وهو يرتعد:

ـ وأنا؟. من أنا بالنسبة إليك؟. عشيق أم كلب أم صديق..؟.

ـ قلت لك إنني بأمس الحاجة إليك ألا يكفيك ذلك؟.

مكث مارتين صامتاً: كانت الأشباح التي ظلت تحوم بعيداً قد اقتربت ساخرة: كلمة ***«فرناندو»***، وعبارة ***«تذكّر دائماً إنني لست سوى نفاية»***، وغيابها تلك الليلة عن غرفتها. وفكر بكآبة ومرارة: «أبداً، أبداً». وامتلأت عيناه بالدموع ومال رأسه نحو الأمام كما لو أنه ينوء تحت ثقل تلك الأفكار.

رفعت أليخاندرا يدها إلى وجهه، ولمست عينيه بأطراف أصابعها:

ـ لقد تصورت ذلك. تعال إلى هنا.

طوقته بإحدى ذراعيها، وجذبته نحوها، وقالت كأنما تخاطب طفلاً:

ـ هات نرَ إنْ كنت ستحسن التصرف. قلت لك إنني أحتاج إليك، وإنني أحبك كثيراً. ماذا تريد أكثر من ذلك؟.

قربت شفتيها من خده وقبلته. وشعر مارتين بأن جسمه قد انتفض كله.

عانق أليخاندرا بقوة، وأحس بجسدها الدافئ يلامس جسمه، وكأن قوة خفية تتحكم به، ثم بدأ يقبل وجهها وعينيها ووجنتيها وشعرها، وحتى إنه بحث عن ثغرها الكبير المكتنز الذي أحسن به قريباً منه. شعر للحظة عابرة بأن أليخاندرا تقاوم قبلته: بدت كأن جسمها قد تصلب كله، وأن حركة رفض راودت ذراعيها، ثم ارتخت، وبدا كأن ثورة جنون تتملكها. وعندئذ؟. حدث ما أرعب مارتين: قبضت بكلتا يديها على ذراعيه، وضغطت عليهما، وغرزت أظافرها في لحمه وأقصته عنها، ثم انكفأت.

وصرخت بينما كانت تنهض وتتجه نحو النافذة:

ـ لا..!.

ورآها مارتين خائفاً ـ من دون أن يجرؤ على الاقتراب منها ـ كيف كانت مشعثة الشعر، تتنشق هواء الليل بعمق، وصدرها يختلج، بينما تشبثت يداها بإفريز النافذة، وذراعاها متصلّبتان، ثم كيف فتحت بحركة عنيفة، قميصها بكلتا يديها، فتقطعت أزراره. تشنجت وارتمت على الأرض واصطبغ وجهها بلون بنفسجي، إلى أن بدأ جسمها يرتجف فجأة.

سيطر الذعر على مارتين فلم يكن يعرف ماذا يفعل، أو كيف يتصرف. وعندما رآها تسقط على الأرض هرع نحوها، وحملها بين ذراعيه، وحاول أن يهدئ من روعها. لكن أليخاندرا لم تكن تسمع أو ترى شيئاً: كانت تتلوى وتئن وعيناها مفتوحتان تلمعان. فكر مارتين بأنه لا يستطيع القيام بأي شيء سوى نقلها إلى سريرها. وهكذا فعل. وشيئاً فشيئاً رأى كيف بدأت أناتها تسكن وتهدأ تدريجياً.

وشاهد مارتين، وهو جالس على حافة السرير حائراً وخائفاً، نهديها العاريين على طرفي قميصها المفتوح. فكر للحظات، بأنه هو بالذات، من كانت تلك المخلوقة المعذبة البائسة تحتاج إليه فعلاً. جمع طرفي قميص أليخاندرا وانتظر. عاد تنفسها ينتظم شيئاً فشيئاً. كانت عيناها مغمضتين فبدت كأنها مخدرة. وهكذا أمضى أكثر من ساعة. عندما فتحت عينيها ونظرت إليه، طلبت قليلاً من الماء. فطوقها بإحدى ذراعيه وسقاها.

قالت:

ـ اطفئ المصباح.

عاد بعد أن أطفأه، وجلس بجانبها.

فقالت بصوت واجف:

ـ مارتين، إنني متعبة جداً. أود أن أنام، ولكن لا تذهب. يمكنك أن تنام هنا بجانبي.

خلع نعليه، واستلقى بجانب أليخاندرا.

قالت وهي ترقد بجانبه:

ـ إنك قديس.

وأحس مارتين كيف استغرقت في النوم فجأة، بينما كان يحاول تنظيم ما يعانيه من فوضى أفكاره. لكن الدوار تمكن منه، وكانت أفكاره تقوده إلى تناقضات شتى دائماً. وشيئاً فشيئاً بدأ يهيمن عليه (رغم كل شيء) نعاس خفي، وشعور رائع بأنه يجلس بجانب المرأة التي أحب.

لكن أمراً ما، بدأ رويداً رويداً، يثير فيه الضيق والغم ويمنعه من أن ينام.

وفكر، كأن الأمير، بعد أن اجتاز مسافات شاسعة، وأماكن مقفرة

يجد نفسه في نهاية المطاف، أمام المغارة التي تنام فيها يحرسها التنين. وكأنه يدرك أيضاً، أن التنين لا يحرس الناحية التي يأتي الخطر منها، كما نتصور في أساطير الأطفال، بل، ما كان مثيراً للكآبة، أن التنين قابع في داخلها: كما لو أنها كانت أميرة ـ تنيناً، وحشاً فظيعاً غريباً، عفيفاً ومضطرماً معاً، بريئاً ومنفراً في آن واحد: كما لو أن طفلة بالغة العفة والطهر، ترتدي ثوب المعمودية، لكنها تحلم بأنها وطواط أو حيوان زاحف.

كانت الرياح السحرية التي يبدو أنها تهب من مغارة التنين ـ الأميرة المظلمة تعصف بروحه وتمزقها. وكانت أفكاره مشتتة ومختلطة كلها، وجسمه يختلج بأحاسيس معقدة شتى. أمه.. (فكر). أمه لحم وقذارة، حمام رطب وحار، كتلة سوداء من شعر وروائح، قَذَرٌ جلديٌّ وشفاه حارة. ولكنه، (كان يحاول أن ينظم فوضى أفكاره)، هو الذي قسّم الحب إلى لحم قذر ومشاعر نقية؛ إلى مشاعر نقية وشهوة جنسية كريهة منحطة يتعين عليه أن ينبذها، رغم أن غرائزه (أو لأنها) كانت تتمرد في أحيان كثيرة، تمرداً يثير في نفسه ذعراً كالذي يتملكه عندما كان يكتشف في وجهه فجأة ملامح أمه ـ الفراش. كأن أمه ـ الفراش، استطاعت، كحيوان غدار زاحف أن تتخلص من الخنادق الواسعة التي كان يحفرها كل يوم ليحمي برجه، لتعود كل ليلة مثل أفعى لا ترحم، فتظهر كشبح نتنٍ، حيث كان يقف مدافعاً عن ذلك البرج بسيفه الماضي النظيف. وماذا جرى ياإلهي لأليخاندرا؟...أي إحساس غامض يربك الآن دفاعاته؟. فاللحم سرعان ما يبدو له كأنه روح، وحبه لها يتحول إلى لحم، إلى رغبة حارة في جلدها، وفي مغارتها الرطبة المظلمة، مغارة التنين ـ الأميرة. ولكن، يا إلهي، لماذا تبدو أنها تدافع عن تلك المغارة برياح ملتهبة وصرخات غاضبة كأنها تنين جريح؟. وقال لنفسه وهو

يضغط على صدغيه «يجب ألا أفكر»، وحاول أن يظل هكذا، كأنما يحبس تنفس عقله. حاول أن يوقف الضجيج. ومكث لحظة عابرة متوتراً وخالي الذهن. ثم، ما إن عاودته لحظة صفاء حتى فكر بإشراق يخالطه الألم: ***ولكن مع ماركوس مولينا هنالك على الشاطئ، ألم يكن الأمر كذلك..؟***. فهي التي أحبته أو اشتهته وقبلته بضراوة. وإذاً فإنها ترفضه هو، مارتين ذاته. وما إن تراخى توتره، حتى عادت تلك الرياح تعصف بروحه من جديد، كإعصار عاتٍ، بينما يحس أن أليخاندرا بجانبه، ترتعد وتئن وتغمغم بكلمات مبهمة. سبق أن قالت: «تحضرني الكوابيس عندما أنام».

جلس مارتين على طرف السرير وتأملها ملياً: تمكن في ضوء القمر من أن يدقق في وجهها الذي يهزه الإعصار الآخر، إعصارها الذي لا يستطيع أبداً (إنما أبداً) معرفته. كما لو أنها زهرة بيضاء غضة وسط الظلمات، وبين الروث والطين. والأمر الغريب حقاً، أنه كان يحب ذلك الوحش الغريب المبهم: التنين ـ الأميرة، الوردة ـ الحمأ، الطفلة ـ الوطواط. يحب ذلك المخلوق العفيف الدافئ، ولعله فاسد أيضاً، ذلك الكائن الذي ينتفض قربه، قريباً من جلده ويرتعد، من يعرف من أي كوابيس مرعبة يا ترى؟.!. وكان أشد ما يثير الكآبة في النفس، أنه برغم قبوله بها هكذا، فإنها هي التي يبدو أنها لا تود قبوله: وكأنما الطفلة بثوبها الأبيض (وسط الطين، تحيط بها أسراب وطاويط ليلية، وطاويط لزجة قذرة) تتأوه طالبة عونه، وترفض في الوقت ذاته وجوده بإيماءات عنيفة، وتبعده عن ذلك المكان المريع. نعم: إن الأميرة ترتعد وتتأوه. ومن مناطق موحشة تلفها الظلمات تناديه، تنادي مارتين، الفتى المسكين المشتت، لكنه لم يكن قادراً على الوصول إلى حيث كانت، تفصلها عنه هوىً لا يمكن اجتيازها.

ولذلك فإنه لم يكن بوسعه أن يفعل شيئاً سوى النظر إليها من هناك، ثم الانتظار.

ـ لا، لا.

كانت أليخاندرا تصرخ وهي تضع يديها أمامها كأنها تصد شيئاً ما، حتى استيقظت. ثم تكرر المشهد الذي رآه مارتين في الليلة الأولى ثانية. هو يحاول أن يهدئ من روعها ويناديها باسمها، وهي غائبة عن الوعي تنهض شيئاً فشيئاً من هاوية عميقة غاصة بالوطاويط والعناكب.

كانت أليخاندرا تجلس وسط السرير، منحنية فوق ساقيها، ورأسها مستند إلى ركبتيها، تسترد وعيها تدريجياً. نظرت بعد ذلك إلى مارتين وقالت له:

ـ آمل أن تكون قد تعودت.

حاول مارتين، أن يرد على ما قالت، بملامسة وجهها بيده، فصرخت وانكفأت إلى الوراء:

ـ لا تلمسني.

ثم نهضت وقالت:

ـ سأستحم، ثم أعود.

سألها مارتين حين عادت:

ـ لماذا تأخرت هكذا..؟.

ـ كنت قذرة جداً.

استلقت بجانبه، بعد أن أشعلت لفافة.

نظر إليها مارتين: لم يكن يعرف أبداً متى تمزح.

ـ إنني لا أمزح أيها الأبله، أقول ذلك جادة.

مكث مارتين صامتاً: جعلته شكوكه، والتباس أفكاره ومشاعره،

كالمشلول. قطب حاجبيه، ونظر إلى السقف، وحاول أن ينظم أفكاره.

ـ بماذا تفكر؟.

تردد قليلاً قبل أن يجيب:

ـ بالكثير، وبلا شيء يا أليخاندرا.. الحقيقة أنني.

ـ لا تعرف. ماذا..؟.

ـ لا أعرف شيئاً.. منذ أن تعرفتك وأنا أعيش في فوضى مطلقة من الأفكار والمشاعر.. لا أعرف ماذا أفعل في أي لحظة.. الآن عندما استيقظت.. عندما أردت أن ألمسكِ.. وقبل أن تنامي.. عندما..

صمت. ولم تقل أليخاندرا شيئاً. ولبثا صامتين فترة طويلة.

لم تكن تُسمع سوى أنفاس أليخاندرا العميقة وهي تمتص لفافتها.

قال مارتين بمرارة:

ـ إنك لا تقولين شيئاً.

ـ لقد قلت لك إنني أحبك. أحبك كثيراً.

فسأل مارتين وقد تجهم وجهه:

ـ بماذا كنت تحلمين الآن؟.

ـ لماذا تود أن تعرف؟. ليس لذلك أي أهمية.

ـ أترين؟. لديك عالمك الذي أجهله، فكيف يمكنك أن تقولي إنك تحبينني؟.

ـ إني أحبك يا مارتين.

ـ إيه.. تحبينني كما تحبين طفلاً.

لم تقل شيئاً.

قال مارتين بمرارة:

ـ أترين.. أترين؟.

ـ لا، أيها المغفل، لا.. إني أفكر.. فالأمور ليست واضحة حتى لي أنا أيضاً.. ولكنني أحبك، وأحتاج إليك.. إنني متأكدة من ذلك.

ـ لم تدعيني أقبلك، وحتى إنك، منذ لحظات، لم تدعيني ألمسك.

ـ يا إلهي.. ألا ترى أنني مريضة وأعاني من أمور رهيبة؟. إنك لا تعلم شيئاً عن الكابوس الذي كنت تحت وطأته.

سألها مارتين بسخرية:

ـ ولهذا اغتسلت؟.

ـ نعم، إنني أستحم من الكابوس.

ـ وهل تغسل الكوابيس بالماء؟.

ـ نعم يا مارتين، بالماء، وبقليل من الصابون أيضاً.

ـ لا أخال أن ما أقوله مدعاة للضحك.

ـ إنني لا أضحك أيها الغر. لعلي أسخر من نفسي، ومن فكرتي السخيفة في أن أغسل النفس بالماء والصابون. آه لو ترى كيف كنت أدعك نفسي..!.

ـ إنها فكرة غير معقولة.

ـ طبعاً.

انحنت أليخاندرا، أطفأت عقب اللفافة في طبق كان فوق منضدة بجانب السرير ثم عادت لتضطجع.

ـ إنني فتى لا خبرة له يا أليخاندرا. ويحتمل أن تظني أنني مغفل. ولكنني مع ذلك أتساءل: إن كان لا يروق لك أن أمسّك وأقبل فاك، فلماذا طلبت مني أن أضطجع هنا، معك؟. أظن أن ذلك بالغ القسوة. أم إنها تجربة أخرى مثل تجربة «ماركوس مولينا»؟.

ـ لا يا مارتين، ليست تجربة أبداً. لم أحب ماركوس مولينا قط، إن ذلك واضح لي الآن تماماً. الأمر معك مختلف. والغريب أنه ليس واضحاً لي تماماً. أحتاج أن تكون قريباً مني، معي، أشعر بحرارة جسدك، وملامسة يدك.

ـ ولكن، من دون أن أقبلك فعلاً.

ترددت اليخاندرا قبل أن تقول:

ـ انظر يا مارتين، هناك أشياء كثيرة.. فيّ.. انظر.. لست أدري.. ربما لأنني أكنُّ لك عطفاً كبيراً، هل تفهمني؟.

ـ لا.

ـ نعم، طبعاً.. حتى أنا نفسي لا أفهم تماماً.

سأل مارتين بشيء من السذاجة والمرارة الطفوليتين:

ـ ألا أستطيع أن أقبلك؟. ألا أستطيع أن ألامس جسمك أبداً؟.

رآها كيف كانت تضع يديها على وجهها وتضغط على صدغيها كأنهما يؤلمانها. ثم أشعلت لفافة، واتجهت، من دون أن تتكلم، نحو النافذة، ومكثت هناك حتى فرغت من تدخينها، وعادت بعد ذلك إلى السرير، فجلست، وتأملت مارتين بجد ملياً، ثم بدأت تتعرى.

ورأى مارتين مذعوراً ـ كمن يحضر حدثاً طالما تاق إليه، ولكنه يدرك في لحظة وقوعه، أنه مريع، مريع جداً ـ رأى كيف أخذ جسمها يبرز شيئاً فشيئاً وسط الظلمة، فوقف وتأمل ملياً في ضوء القمر خصرها النحيل، الذي يمكن لذراع واحدة أن تطوقه، وردفيها العريضين، وثدييها البارزين، مثلثي الشكل، المنفرجين على جانبي صدرها، يهتزان كلما تحركت أليخاندرا، وشعرها الطويل المنسدل على كتفيها. كان وجهها

متجهماً، مأساوياً تقريباً، وبدا أن قنوطاً جافاً، قنوطاً متوتراً مشحوناً يغذيه.

أمر عجيب: غصت عينا مارتين بالدموع، وانتفض جلده كأنه أصيب بالحمى. كان يراها كدورق عتيق، دورق طويل جميل، من لحم يرتعد. لحم كان يخالطه، على نحو خفي، بالنسبة إلى مارتين، شوق للاندماج، لأن أحد أعراض الروح المزعزعة المأساوية، وأحد أعمق خفاياها، كما كان برونو يقول، هو استحالة كينونتها إلا عبر اللحم.

لم يعد العالم الخارجي موجوداً بالنسبة إلى مارتين، فقد عزلته الآن، الدائرة السحرية بسرعة عن تلك المدينة المريعة، وعن بؤسها وبشاعاتها، وعن ملايين الرجال والنساء والأطفال الذين يتكلمون، ويتألمون، ويتناقشون، ويتباغضون ويأكلون. كل ذلك ألغته قوى الحب العجيبة، ولم يبقَ سوى جسم أليخاندرا الذي ينتظر بجانبه، ذلك الجسم الذي سيموت في يوم من الأيام وسيفنى، ولكنه الآن خالد عصي على الفناء، وكأن الروح التي تقطنه، تنقل إلى لحمه خصائص خلودها. كانت خفقات قلبه تدله، تدل مارتين، على أنه يرتفع إلى آفاق لم يبلغها من قبل قط. يرتفع إلى قمة، حيث الهواء بالغ النقاء لكنه متوتر، إلى جبل عال، لعله محاط بجو مكهرب، إلى ذرى شاهقة، فوق المستنقعات المظلمة الموبوءة التي كان يسمع فيها من قبل تخبط حيوانات مشوهة قذرة.

وبرونو، (وليس مارتين طبعاً) فكر أن أليخاندرا كانت في تلك اللحظة تصدر رجاء صامتاً، رجاء مؤثراً، بل لعله مأساوياً أيضاً.

ولعله هو أيضاً، برونو، فكر فيما بعد، أن ذلك الابتهال لم يسمع.

16

عندما استيقظ مارتين، كانت تلوح تباشير الصباح الوليد.

لم تكن أليخاندرا بجانبه. نهض من فراشه قلقاً، فأدرك أنها كانت متكئة على إفريز النافذة، تنظر نحو الخارج، وهي مستغرقة في تفكير عميق.

ناداها برقة:

ـ أليخاندرا.

التفتت، وبدت على محياها أمارات تنم عن الكآبة والقلق.

اقتربت من السرير وجلست.

ـ هل استيقظت منذ زمن طويل؟.

ـ منذ مدة قصيرة. ولكنني أستيقظ عدة مرات عادة.

فسأل مارتين بدهشة:

ـ وهل استيقظت هذه الليلة أيضاً؟.

ـ طبعاً.

ـ وكيف لم أسمعك؟.

مالت أليخاندرا برأسها، وأشاحت بوجهها عنه، وقطّبت حاجبيها، كأنها مشغولة بما يساورها من قلق. كانت ستقول شيئاً، لكنها لم تنبس ببنت شفة. نظر إليها مارتين حزيناً، وعلى الرغم من أنه لم يفهم لتلك الكآبة سبباً، لكنه يعتقد أنه كان يشعر بجلبتها، جلبتها المبهمة الغامضة.

وقال وهو ينظر إليها بحرارة:

ـ أليخاندرا.. أنت.

فحدجته بنظرة مبهمة:

ـ أنا، ماذا؟.

ومن دون أن تنتظر جواباً، اتجهت نحو المنضدة فبحثت عن لفافاتها وعادت إلى النافذة.

تابعها مارتين قلقاً، يخشى، كما يحدث في قصص الأطفال، أن يختفي القصر المسحور الذي شُيد أثناء الليل، مثلما يتبدد ضوء الفجر بصمت. إحساس مبهم يحذره من أن ذلك الكائن الفظ الذي يخشاه كثيراً، كان على وشك النهوض ثانية. وبعد لحظات، عندما استدارت أليخاندرا نحوه، أدرك أن القصر السحري قد عاد إلى منطقة العدم.

ـ قلت لك يا مارتين إنني لست سوى نفاية. لا تنسَ أنني حذرتك.

ثم عادت بعد ذلك تنظر نحو الخارج، وتدخن لفافتها بصمت.

شعر مارتين بتفاهته. كان قد تدثر بغطاء السرير عندما رأى قسماتها تقسو، وفكر عندئذ بأنه يجب أن يرتدي ملابسه قبل أن تراه ثانية، فجلس على حافة السرير، وحاول ألا يثير أي جلبة، وأخذ يرتدي ثيابه من دون أن يرتد طرفه عن النافذة، خائفاً من لحظة عودة أليخاندرا، وعندما فرغ من ارتدائها، انتظر.

ـ هل انتهيت؟.

سألته، كما لو أنها كانت طيلة الوقت تعرف ما كان يفعل.

ـ نعم.

ـ حسناً. دعني الآن وحدي.

17

رأى مارتين في تلك الليلة الحلم التالي: وسط حشد من الناس، اقترب متسول كان يتعذر عليه رؤية وجهه، فأنزل حمله، ووضعه على الأرض، وفك عقد أحزمته وفتحه، وعرض محتوياته أمام عيني مارتين. ثم رفع ناظريه وتمتم بكلمات غير مفهومة.

لم يكن الحلم بذاته ينطوي على أي شيء مخيف: كان المتسول شحاذاً عادياً، وتصرفاته عادية. بيد أن مارتين استيقظ مكتئباً، وكأن ذلك كان الرمز المأساوي لأمر ما، لم يتمكن من إدراكه. وكما لو أنهم يسلمونه رسالة حاسمة، وما إن يفتحها حتى يلاحظ أن كلماتها أصبحت مشوهة وممسوحة وغير مفهومة، بفعل الزمن والرطوبة والطيات.

18

بعد سنوات، عندما حاول مارتين العثور على مفتاح سر تلك العلاقة، كان من بين ما قاله لـ «برونو»، إنه كان، برغم تناقضات مزاج أليخاندرا، سعيداً طيلة بضعة أسابيع. وبما أن «برونو» رفع حاجبيه، فبرزت على جبينه تلك الغضون الأفقية دهشة من تلك الكلمة، التي لا يتوقع سماعها، في كل ما يمت بصلة إلى أليخاندرا، فإن مارتين فهم مغزى ذلك الحديث الخفي العابر، فأضاف بعد أن فكر قليلاً:

ـ بل، الأفضل أن أقول: كنت سعيداً تقريباً، إنما على نحو بالغ.

لأن كلمة «سعادة»، لم تكن، في الواقع، الكلمة الملائمة لأي أمر يمت بصلة إلى أليخاندرا، ومع ذلك فقد كان ضرباً من شعور، أو من وضع روحي، يقترب أكثر من أي شيء آخر إلى ما ندعوه سعادة، وإن لم يَرْقَ إليها تماماً (لذلك، من هنا أتت كلمة «تقريباً») نظراً للالتباس والشك الذي يحيط بكل ما يخص أليخاندرا. وبما أنه بلغ ما يشبه الذرى الشاهقة (لذلك أضاف «على نحو بالغ»)، فهي ذرى شعر مارتين معها بتلك العظمة، وذلك النقاء، وذلك الإحساس بالصمت المطبق، والنشوة الفريدة، التي يشعر بها متسلقو الجبال عند بلوغ القمم الكبرى.

تأمله برونو ملياً وهو يفكر، بينما قبضته تسند ذقنه.

ثم سأل:

ـ وهي، أكانت سعيدةً أيضاً؟.

سؤال انطوى، حتى وإن كان من دون قصد، على جرس خفي وودي، من سخرية، تشبه إلى حد بعيد، ما يمكن أن ينطوي عليه سؤال مثل: هل الأهل جميعهم بخير؟. يوجه إلى أحد أفراد أسرة أولئك المتخصصين بإطفاء الحرائق البترولية. سؤال لعل مارتين لم يدرك ما يخالطه من شك، لكن صيغته الارتيابية جعلته يفكر، بأن مثل ذلك الاحتمال لم يخطر بباله من قبل، ولذلك أجاب بعد حين (ولكن بعد أن عكرت ريبة برونو صفو روحه، وسرى أثرها سريعاً، وإن على نحو خفي، فانتشر وانعكس على مزاجه):

ـ حسناً.. ربما.. في تلك الفترة.

ومكث يفكر ملياً بجرعة السعادة التي يمكن أن تكون أليخاندرا قد خبرتها أو في أقل تقدير، قد أعربت عنها: عبر ابتسامة ما، أو أغنية ما، أو كلمات ما. في حين كان برونو يقول في سره: ***حسناً، ولم لا..؟. وفي نهاية المطاف، ما السعادة؟. ولم لا تكون قد شعرت بها مع ذلك الفتى، وبخاصة، في لحظات انتصارها على نفسها، في ذلك الوقت الذي أخضعت فيه جسدها وروحها إلى معركة قاسية لتتحرر من الشياطين؟***. ولبث ينظر إلى مارتين ورأسه مستند إلى قبضته، يحاول أن يفهم أليخاندرا أكثر قليلاً عبر الأحزان، والآمال اليتيمة، وحماسة مارتين، بالاهتمام الكئيب ذاته (فكر) الذي توقظه فينا على نحو ما، حكايات مسافرين آخرين، يروونها عن بلد بعيد غريب، سبق أن زرناه بشغف مرة، وإن كنا قد سلكنا دروباً أخرى، في أزمنة أخرى.

وكما يحدث في كل حين تقريباً، عند تبادل الآراء، يتم الوصول إلى رأي أوسط، لا ينطوي على صلابة ودقة الآراء التي عرضت في البدء؛ بينما كان برونو يتوصل إلى أن أليخاندرا يمكن أن تكون قد شعرت بضرب، أو بقدر من السعادة، توصل مارتين بعد أن تفحص ذكريات (تعبير ما، وإيماءة ما، وضحكة سخرية ما) إلى أن أليخاندرا لم تكن سعيدة، حتى في تلك الأسابيع القليلة، وإن لم يكن الأمر كذلك، فكيف إذاً يمكن تفسير الانهيار المريع الذي حدث فيما بعد؟. ألا يعني أن روحها القلقة كانت لا تزال مسرحاً لصراع تلك الشياطين التي كان هو يعلم أنها موجودة، لكنه أراد تجاهل وجودها بظنه أنه ذاهل، وكأنه على هذا النحو السحري الساذج، كان قادراً على القضاء عليها؟. ولم يكن الأمر فقط ما يتوارد على ذاكرته من كلمات ذات مغزى، استرعت منذ البدء انتباهه مثل (العميان، فرناندو)، بل وما كان يبدو منها حيناً من إيماءات وحركات سخرية من آخرين، مثل «موليناري»، ومن صمت وكتمان في أحيان أخرى، وكذلك تلك الغيبوبة التي يبدو أنها كانت تعيش فيها أياماً كاملة، في حين كان مارتين أثناءها مقتنعاً بأن روحها توجد في مكان آخر، وأن جسدها يبقى مهجوراً كأجسام أولئك المتوحشين، الذين تنتزع أرواحهم بالسحر، وتهيم في مناطق مجهولة. وفكر كذلك بتقلبات مزاجها السريعة، وفي نوبات غضبها، وفي أحلامها التي كان، ما بين حين وآخر، يستنبط منها معلومات غامضة ومثيرة، ولكنه، رغم كل ذلك، ظل يعتقد أن أليخاندرا كانت في تلك الحقبة تحبه حباً جماً، وأنها حظيت فيها بلحظات من الهدوء والسلام، إن لم نقل من السعادة، ذلك أنه كان يتذكر أمسيات هادئة جميلة، وعبارات مضحكة مفعمة بالمحبة، كتلك التي تقال في مثل تلك المناسبات، وأمارات رقة،

ودعابات لطيفة. وكان الأمر، في جميع الأحوال، مثل المحاربين الذين يصلون من جبهة القتال جرحى، تعساء، نازفين، عزلاً، ولكنهم يعودون إلى الحياة شيئاً فشيئاً، فيقضون أيام هدوء حلوة بجانب أولئك الذين يهتمون بهم ويداوونهم.

شيء من كل هذا قاله لـ «برونو»، الذي مكث يفكر، غير متأكد من أن الأمر لم يكن كذلك، أو أنه لم يكن، في أقل تقدير، كذلك وحسب. ولما كان مارتين يرنو إليه، منتظراً إجابةً، تمتم برونو بشيء غير مفهوم، وقليل الوضوح، كأفكاره ذاتها.

ومارتين أيضاً، لم يكن يرى بوضوح، وفي الواقع، لم يستطع أن يفسر شكل ذلك التقدم، ولا تطوره، وإن كان يشعر بأنه يميل أكثر فأكثر إلى افتراض أن أليخاندرا لم تخرج قط من الفوضى التي كانت تعيش فيها قبل أن تتعرفه، وعلى الرغم من أنها توصلت إلى لحظات من الهدوء، بيد أن تلك القوى المخيفة التي كانت تمور في داخلها، لم تكن تفارقها أبداً، حتى تفجرت من جديد، وبكل جنونها في نهاية الأمر، وكما لو أنها، عندما استنفدت قدرتها على القتال، وأدركت فشلها، انطلقت ضراوتها بعنف مضاعف.

فتح مارتين مطواته وترك العنان لذاكرته تطوف في ذلك الزمان الذي يبدو له الآن بعيداً جداً. كانت ذاكرته كعجوز يكاد يكون أعمى يتلمس بعكازه دروباً قديمة تغطيها الآن أعشاب متسلقة. منظر شوهته الأيام والمصائب والأعاصير. هل كان سعيداً؟.. لا. يا للغباء، كان ثمة تناوب بين النشوة والمآسي. وعاد يتذكر تلك الأمسية في البرج، عندما انتهى من ارتداء ملابسه، وسمع عبارة أليخاندرا المريعة: (حسناً، إذن دعني الآن وحدي)، ثم، عندما كان يسير كإنسان آلي في شارع «إيزابيل الكاثوليكية» حائراً حزيناً، والأيام التي تلت، وهو عاطل عن العمل،

ووحيد ينتظر أي إشارة ملائمة من أليخاندرا، ولحظات أخرى من الحماسة والنشوة، ثم الخيبة والآلام ثانية. نعم. كخادمة كانت تؤخذ كل ليلة إلى القصر المسحور، لتستيقظ في اليوم التالي، فتجد نفسها في زريبتها.

(2)

الوجوه الخفية

1

أمر غريب (غريب لو نظر إليه في ضوء الأحداث التي جرت فيما بعد).

قلما كان مارتين سعيداً مثلما كان في الساعات التي سبقت مقابلة «بوردينابي». كانت أليخاندرا في غاية الانشراح، وكانت ترغب في الذهاب إلى السينما: حتى إنها لم تمتعض عندما أحبط «بوردينابي» تلك الرغبة، بتحديد الساعة السابعة موعداً للقاء مارتين، وعندما تحفّز مارتين، ليسأل عن الحانة «الأمريكية» جرّته من ذراعه، كمن يعرف المكان؛ أول حادثة عكرت صفو ذلك المساء.

دلّه نادل عليه. كان يجلس مع سيدين، يبحث في أوراق على المنضدة. رجل في العقد الرابع من عمره، طويل متأنق، يشبه، إلى حد بعيد، «أنطوني إيدن». لكن مسحة التهكم في عينيه، والابتسامة الجانبية في شفتيه، كانتا تضفيان عليه مسحة من شخصية الأرجنتيني القح. قال: (آه، أنت)، وطلب المعذرة من السيدين، ودعاه إلى الجلوس مشيراً إلى منضدة مجاورة، ولكن، بما أن مارتين تمتم ونظر نحو أليخاندرا قال «بوردينابي»، بعد أن نظر إليها ملياً: (آه، حسناً، هيا بنا نجلس هناك إذاً).

كان واضحاً لمارتين، ما أثاره ذلك الرجل من امتعاض في نفس أليخاندرا، التي كانت طيلة الوقت الذي استغرقه اللقاء، ترسم عصافير على قطعة من ورق المائدة: إحدى علامات الامتعاض التي كان مارتين

يعرفها حق المعرفة. ولما كان ذلك التغيير المفاجئ في مزاج أليخاندرا أقلقه، فقد ترتب عليه أن يبذل جهداً كبيراً كي يتمكن من متابعة الحديث مع «بوردينابي» الذي تكلم، على ما يبدو، عن أمور بعيدة كل البعد عن المهمة التي كُلِّف بها مارتين. وخلاصة القول، إنه بدا له إنتهازياً لا حدود لانتهازيته، لكن المهم، أن مسألة الإخلاء، قد سُويت.

عندما خرجا، عبرا الشارع، وجلسا على مقعد في الحديقة، فسأل مارتين أليخاندرا قلقاً، كيف بدا لها ذلك الشخص.

ـ وكيف سيبدو لي؟. إنه أرجنتيني.

في ضوء عود الثقاب الذي أشعلت به لفافتها، لاحظ مارتين أن القسوة هيمنت على قسمات وجهها. ثم لاذت بالصمت. أما مارتين فكان يتساءل عمّا يمكن أن يكون وراء هذا التحول السريع، ولكن كان من الواضح أن «بوردينابي» هو السبب. كان ذلك الرجل يتحدث بلا مسوغ، عن أمور، لم يكن لها وقع حسن في نفسها، تتعلق بالرجلين الإيطاليين اللذين كانا معه. ماذا يمكن أن تكون تلك الأمور يا ترى؟. والحقيقة أن ظهوره كان قد عكّر حالة الطمأنينة التي سبقته، مثلما يُعكّر دخول أحد الزواحف بئر الماء العذب الذي نشرب منه.

قالت أليخاندرا إنها تشعر بصداع وتفضل العودة إلى بيتها لتنام. وعندما كانا في سبيلهما إلى الافتراق، في شارع «ريوكوارتو»، قالت له إنها ستُحدّث «موليناري». ولكن يجب ألا يعلق على ذلك آمالاً كباراً.

ـ وماذا أفعل، هل ستزوديني برسالة؟.

ـ سنرى، قد أهتف إليه، وسأبعث من يبلّغك.

نظر إليها مارتين مستغرباً:

ـ نعم، سأترك لك رسالة.

تمتم:

ـ ولكن.

ـ ولكن، ماذا؟.

ـ أعني.. ألا يمكن أن تخبريني غداً عندما نلتقي؟.

بدا وجه أليخاندرا وكأن الشيخوخة قد أدركته:

ـ انظر، لا يمكنني أن أقول لك الآن متى نلتقي.

تمتم مارتين كالمفجوع بيضع كلمات حول ما كانا قد اتفقا عليه ذلك المساء، بشأن اللقاء في اليوم الثاني، فصرخت:

ـ لست على ما يرام، ألا ترى؟.

استدار مارتين ليذهب، بينما كانت تفتح باب السور، فسمعها عندما كان يبتعد عنها، تناديه:

ـ انتظر.

ثم قالت بصوت أقل قسوة:

ـ غداً صباحاً سأتصل هاتفياً بذلك الرجل، وعند الظهر سأترك لك رسالة.

وكانت قد دخلت، عندما أضافت قائلة، وهي تطلق ضحكة قاسية مريرة:

ـ انظر ملياً إلى «سكرتيرته» تلك الشقراء.

توقف مارتين ونظر إليها حائراً، فقالت:

ـ إنها إحدى عشيقاته.

تلك كانت وقائع ذلك اليوم، كان لا بد أن يمر بعض الوقت كي يعود مارتين إلى تفحص لقاء «بوردينابي» ثانية، مثلما يتفحصون باهتمام، بعد ارتكاب جريمة، مكاناً أو مادة، لم يعرها أحد أي اهتمام من قبل.

2

بعد سنوات، عندما عاد مارتين من الجنوب، كانت العلاقة بين أليخاندرا و«موليناري»، أحد المواضيع التي تناولتها أحاديثه مع برونو. كان يعود إلى الحديث عن أليخاندرا ـ فكر برونو ـ كمن يحاول ترميم روح بدأت تتفسخ، روح كان يتمنى ألا تفنى، لكنه يحسها الآن تتصدع وتضمحل شيئاً فشيئاً، كأنها تساير تفسخ الجسد، وكأنما يستحيل عليها أن تعيش طويلاً من دون الاستناد إليه، بل تدوم مدة من الزمن لا تزيد عمّا يستغرقه انسلاخها الخفي من ذلك الجسد لحظة الموت: ضرب من السديم أو الغاز المشع الذي يخمد فيما بعد تدريجياً، وذلك ما يعتبره البعض شبح الميت، هو شبح يحتفظ، إلى مدى طويل، بشكل الكائن الذي مات، لكنه يتلاشى رويداً رويداً، إلى أن ينحل في العدم المطلق في لحظة، ربما تكون الروح فيها قد اختفت إلى الأبد، عدا تلك الأجزاء، أو أصداء الأجزاء التي تدوم في نفوس الآخرين الذين عرفوا ذلك الكائن الراحل، أو كرهوه أو أحبوه. تدوم، ولكن حتى متى..؟.

هكذا كان مارتين يحاول إنقاذ شظايا، يتجول في دروب، يطوف في أماكن، يتحدث إليه، يلملم على نحو أحمق، أشياء صغيرة، وكلمات عابرة، مثل أولئك الأقرباء المهووسين الذين يتولون جمع أشلاء الجثة الممزقة، من المكان الذي سقطت فيه الطائرة، ولكن، ليس بعد السقوط حالاً، وإنما بعد مضي زمن طويل، عندما تكون تلك البقايا قد أصبحت

لا مزقاً وحسب، إنما أشلاء مِزَقٍ قد تفسخت.

لم يكن بوسع «برونو» أن يفسر على نحو آخر إصرار مارتين على تذكر مسألة «موليناري» وتخيلها. وبينما كانت تراوده هذه الأفكار عن الجسد واضمحلال الروح، قال مارتين ـ الذي كان يتحدث كأنما يخاطب نفسه ـ إن ذلك اللقاء الأحمق مع موليناري، كان برأيه، وبلا أدنى شك، لحظة حاسمة في سياق علاقته بأليخاندرا، فتلك المقابلة بدت له في ذلك الحين مفاجئة، لا لأن أليخاندرا أعدت لها وهي تعلم حق العلم أن موليناري لن يستخدمه وحسب، بل لأن رجلاً مرموقاً ومنشغلاً مثله قد كرس هذا الجزء الكبير من وقته لفتى تافه كمارتين.

وفكر برونو، لو أن مارتين، كان في ذلك الوقت، يتمتع بالوعي الذي يتمتع به الآن، لاستطاع أن يدرك، أو أن يراوده الشك على الأقل، في أن أمراً مقلقاً كان على وشك الانفجار في نفس أليخاندرا، ولتمكنت تلك الدلائل من تحذيره أن حبها لمارتين، أو عطفها عليه ـ أو كائناً ما كان ذلك الشعور الذي تكنه له ـ كان في سبيله إلى الوصول إلى نهايته: على نحو مأساوي.

أردفت أليخاندرا تقول آنذاك:

ـ يجب أن نعمل كلنا. العمل يشرف الإنسان. وأنا أيضاً، قررت أن أعمل.

عبارة أبهجت مارتين، برغم ما خالطها من سخرية، لأنه كان يفكر دائماً أن أي مهمة محددة لا بد أن تكون مفيدة لها. وأمارات البهجة التي بدت على وجهه جعلت أليخاندرا تضيف بلهجة احتفظت أصلاً بجرسها التهكمي، (أرى أن الأخبار تسرك)، ولكن يبدو أن بعض دلالات الحنان كانت تود أن تبرز من خلالها، مثلما تجاهد نبتة صغيرة

في حقل نزلت به المصائب (فكر فيما بعد) وتناثرت في أرجائه جيف حيوانات نفقت وانتفخت وأنتنت، وأجساد بُقرت ومزقتها الغربان، لكي تنمو وتمتص بقايا النزر الخفي من الماء الذي تعثر عليه على نحو عجيب، في طبقات القفر العميقة.

وقالت:

ـ ولكن يجب ألا تفرح كثيراً.

وبما أن مارتين نظر إليها، استدركت تقول:

ـ سأشتغل مع «واندا».

عندئذ تلاشى فرحه ـ قال برونو ـ مثلما يتوارى الماء النقي في بالوعة نعرف أنه سيختلط فيها بالفضلات المنفرة. لأن «واندا» كانت تنتمي إلى ذلك العالم الذي يبدو أن أليخاندرا أتت منه عندما عثرت عليه (وإن كان الأصح أن يقول، «عندما بحثت عنه»). عالم بقيت بعيدة عنه في تلك الأسابيع التي خيم عليها الصفاء، إلى حد ما، وإن كان سيراعي الدقة أكثر لو قال، إنه كان يظن أنها بقيت بعيدة عنه، لأنه يتذكر الآن على نحو صارخ كيف كانت أليخاندرا في الأيام الأخيرة تعود إلى معاقرة الخمرة ـ كما كانت من قبل ـ وكيف لم يعد تكرار اختفائها وغيابها أمراً متواتراً وحسب، إنما أشد إبهاماً كذلك. ولكن، مثلما يصعب تصور وقوع جريمة في وضح النهار وصفائه، لم يكن يسهل عليه، أن يتصور أنها يمكن أن ترتد إلى ذلك العالم، من قلب تلك العلاقة النقية جداً. وهكذا قال بغباء (صفة أضيفت بعد زمن طويل): (ألبسة نسائية؟. تصميم ألبسة نسائية؟. أنتِ)، سؤال أجابت عنه بقولها، إنه قد لا يدرك مدى المتعة التي يمكن أن تنجم عن ربح المال من شيء يحتقره المرء. في تلك اللحظة، بدت له هذه العبارة أسلوباً معهوداً تلجأ إليه

أليخاندرا للتملص، ولكن بعد موتها، سوف تتمخض عن أسباب تدعوه ليتذكر دويها الهائل.

ـ ثم، مثل الـ «بوميرانج» أتفهم؟. بقدر ما أزدري تلك الببغاوات المزركشة، أحتقر نفسي، ألا ترى أنها تجارة عظيمة؟.

كان تحليل هذه العبارات، يمنعه تلك الليلة من أن ينام، حتى أخذ العياء يدفعه برفق ـ إنما بتصميم ـ نحو ما كان يسميه برونو ضاحية الموت العابرة. مناطق أولية، نبتدئ فيها تدريبات الحلم العظيم، تمتمات المغامرة النهائية المريعة، الصغيرة الخرقاء، مسودات نص اللغز المبهمة، مع جحيم الكوابيس العابر. حيث نكون أو لا نكون في اليوم التالي كما كنا. لأن خبرات الليل السرية الكريهة تثقل كواهلنا، ولهذا فإننا (قال برونو) نمتلك قليلاً من صفات من يبعثون أحياء، وبعضاً من صفات الأشباح. فمن يدري أي انمساخ شريرٍ لروح «واندا» طارده طيلة تلك الليلة، لكنه في الصباح شعر لوقت طويل أن شيئاً ثقيلاً، لكنْ مبهماً، كان يتحرك في النواحي المظلمة من ذاته، حتى أدرك أن ذلك الذي كان يعكر صفوه لم يكن سوى طيف «واندا». ولسوء الطالع فإنه أدرك ذلك في اللحظة التي دخل فيها قاعة الانتظار الفخمة، عندما كان يتعذر عليه، حتى بسبب الخجل، أن يتراجع، وحين بلغ إحساسه بالاختلال أقصى مداه كما في قصة «تشيخوف» أو «أفر تشينكو». (فكر). حيث يصل شيطان مسكين إلى مدير أحد المصارف ليقول له إنه يود فتح حساب بمبلغ عشرين روبلاً. أي هذيان كل ذلك؟. وكان على وشك أن يستجمع كل قواه لينكفئ عائداً، حينما سمع إسبانياً يقول «سيد كاستيجو»، على نحو ساخر طبعاً (فكر) لأن أحداً لا يكنُّ مشاعر ازدراء للفقراء الشياطين أكثر من الفقراء الشياطين ذوي الزي الرسمي. وكان رجال في منتهى الكمال، بأحذية ملمعة جداً، وصدرات آخر أزرارها خارج عروته،

وحقائب ممتلئة بأوراق بالغة الأهمية، ينتظرون في المقاعد الجلدية الوثيرة، ويتابعونه بنظراتهم حيارى هازئين (كان يفكر)، كلما تقدم نحو الباب الكبير، فيما يردد في مكان آخر من زوايا وعيه «عشرين روبلاً»، ويزدري، على نحو أليم ذاته، وحذاءه الممزق، وثيابه الرثة. محترمون كلهم، الساعة الذهبية في المعصم تضبط وقتاً دقيقاً ذهبياً أيضاً، غاصّاً بالأحداث المالية الهامة، وقتاً كان يتناقض مع ذلك الوقت الذهبي، تناقض غرفته الحقيرة في حي «لابوكا» مع مبنى شركة «إيمبرا» الفخم. وفي لحظة توغله في الفناء المقدس فكر «إني محموم»، كما كان يحدث دائماً في لحظات الغم الشديد. وبينما كان يرى الرجل خلف مكتبه الضخم، غارقاً في كرسي كبير ضخم، كأنه صنع خصيصاً لذلك البناء، كان يردد في دخيلته بحماس أبله (أتيت يا سيدي كي أودع عشرين روبلاً).

- اجلس أرجوك.

قال له مشيراً إلى أحد المقاعد، بينما كان يوقع على وثائق تقدمها له امرأة شقراء الشعر وشهوانية، كانت تساهم في إغراقه أكثر فأكثر. لأنه (افترض) أنها قادرة على أن تتعرى أمامه، مثلما تتعرى أمام أي أداة من الأدوات أو أي شيء من الأشياء، بلا وعي أو مشاعر، أو مثلما تتعرى المحظيات العظيمات أمام عبيدهن. عندئذ فكر، «واندا»: واندا تحتسي كؤوس الـ «جين»، مغناج تغازل الرجال، وتغازله أيضاً، تضحك على نحو شهواني طائش، ترطب شفتيها بلسانها، وتأكل، كوالدته، سكاكر. في حين كان يرى سارية علم برونزية فوق المكتب الضخم، يرتفع عليها علم أرجنتيني صغير، ومحفظة أوراق جلدية وصورة «بيرون» الضخمة مهداة إلى السيد «موليناري» وشهادات متعددة ضمن إطارات، وصورة يضمها إطار جلدي موجهة نحو السيد «موليناري»، وترمساً مصنوعاً من

مادة بلاستيكية وقصيدة (نعم) الشعرية لـ (روديارد كيبلنغ) مخطوطة بأحرف قوطية، ومحفوظة ضمن إطار معلق فوق أحد الجدران. كان عدد كبير من المستخدمين والموظفين يدخلون ويخرجون ومعهم أوراقهم، والسكرتيرة بشعرها الأشقر، ما إن خرجت حتى عادت ثانية لتطلعه على بعض الأوراق وتحدثه بصوت خافت، إنما على نحو يخلو من الإلفة، من دون أن يراود الشك أحداً، حتى موظفي الشركة، بأنها تضاجع السيد «موليناري». ثم، قال موجهاً حديثه إلى مارتين.

ـ هكذا إذاً، أنت صديق دروتشا.

ولما اعترت وجه الفتى أمارات دهشة وتساؤل، ضحك موليناري وقال، كما لو أنه كان يمزح (آه، طبعاً)، في حين كان مارتين يردد في دخيلته بدهشة وبلاهة ***«أليخاندرا، أليخاندروتشا، دروتشا»*** وكان، على الرغم من ذلك، أو بسبب ذلك، يتفحص الرجل البدين الضخم ببدلة الكشمير الغامقة، الموشاة بخطوط فاتحة، وربطة العنق الزرقاء الملونة بنقط حمراء، وقميص الحرير، والأزرار الذهبية ودبوس اللؤلؤ الذي شُبَك على ربطة العنق، ومنديل الحرير يطل من فوق جيب سترته العلوي، إلى جانب شعار نادي «الروتري». رجل ذهب الصلع بشعره إلا بقية مُشطت وصُففت بإتقان. تعطر بماء «الكولونيا»، وبدا كأنه حلق قبل عُشر ثانية من دخول مارتين إلى مكتبه. سمعه، والرعب يتملكه يقول، بعد أن استند بظهره إلى كرسيه استعداداً لسماع اقتراحات مارتين:

ـ هات ما عندك.

رغبة غريبة في أن ينكل بذاته، وفي أن يذلها، وفي أن يعترف دفعة واحدة بتفاهته المريعة في هذا العالم، وحتى بسذاجته البليدة (ألم يكن يسمي أليخاندرا دروتشا؟.) كادت تدفعه إلى أن يقول (أتيت لأودع

عشرين روبلاً). لكنه تمكن من كبح الاندفاع الغريب فأوضح بصعوبة هائلة، كأنه تحت وطأة كابوس، أنه عاطل عن العمل منذ مدة، وفكر، تصور، ربما، لعل شركة إيمبرا، تستطيع أن توفر له عملاً.

وفيما كان يتكلم، أخذ السيد موليناري يقطب حاجبيه، حتى اختفت ابتسامته المهنية الأولية نهائياً، حين سأله أين كان يعمل.

ـ في مطبعة «لوبس».

ـ والعمل؟.

ـ مصحح.

ـ أوقات العمل؟.

تذكر مارتين كلمات أليخاندرا، واعترف خَجِلاً بأنه لم يكن يعمل في ساعات معينة، بل كان يأخذ الأوراق إلى البيت. في حين كان موليناري يقطب حاجبيه أكثر فأكثر، وهو يرد على مكالمة هاتفية:

ـ ولماذا تركت العمل؟.

ورد مارتين بأن الشغل في المطبعة يكثر في مواسم، ويقل في أخرى، وهذا يؤدي إلى تسريح المصححين المؤقتين.

ـ إذاً عندما يكثر العمل يمكنك أن تعود ثانية.

تضرج مارتين بحمرة الخجل ثانية. وكان يفكر بأن ذلك الرجل فطن جداً، لأن سؤاله الجديد كان يستهدف إجباره على أن يقول الحقيقة، الحقيقة التي كانت مميتة بالطبع.

ـ لا يا سيد موليناري، لا أعتقد ذلك.

فسأله وهو ينقر بأطراف أصابعه:

ـ الأسباب؟.

ـ أعتقد يا سيدي، أنك مشغول جداً و...

كان موليناري يراقبه صامتاً، ويتفحصه طويلاً. أطرق مارتين، ثم وجد نفسه يقول بلا وعي (أنا محتاج إلى العمل يا سيدي، أجتاز ظروفاً صعبة، أواجه مصاعب مالية جمة). وعندما رفع ناظريه، خال أنه لاحظ بريقاً ساخراً في نظرة موليناري.

ـ إذاً، أنا آسف جداً يا سيد «كاستيجو» إن لم أتمكن من أن أكون مفيداً: أولاً، لأن عملنا هنا يختلف جداً عمّا كنت تقوم به في المطبعة. ولكن، إلى جانب ذلك، هناك سبب آخر ذو أهمية، فأنت صديق أليخاندرا، وهذا يوقعني في مشكلة حساسة جداً مع الشركة. نحن نفضل ألاّ تقوم علاقتنا مع مستخدمينا على أسس شخصية. لا أدري إن كنت تفهمني.

قال مارتين وهو ينهض:

ـ نعم يا سيدي، أفهمك تماماً.

ولعل موليناري، لاحظ شيئاً ما في تصرفه لم يكن، لسبب ما، يعجبه فقال:

ـ إلا أنك، عندما تكبر.. كم عمرك؟. عشرون.

ـ تسعة عشر يا سيدي.

ـ عندما ستكون أكبر سناً، سوف تعطيني الحق، وحتى إنك سوف تشكرني على ذلك. تصور، لو أنني منحتك فرصة لتعمل، مستنداً إلى مجرد الصداقة، فلن أكون قد قدمت إليك أي خدمة، وبخاصة إن كنا بعد زمن قصير ـ كما يتراءى لي ببساطة ـ سوف نقع في مشكلات.

تفحص وثيقة قدمت إ ليه. تمتم ببعض الملاحظات واستطرد يقول:

ـ ذلك سيؤذي إلى عواقب وخيمة، تعود عليك، وعلى شركتنا، وعلى أليخاندرا. ويبدو لي، من جهة أخرى، إنك لعلى إباء عظيم، لا

تستطيع معه قبول وظيفة تقدم إليك لمجرد الصداقة، أليس كذلك؟. فلو قدمت إليك الوظيفة، مراعاة لأليخاندرا فقط، لما قبلت، أليس كذلك..؟.

ـ إنه كذلك يا سيدي.

ـ طبعاً، سنكون في نهاية المطاف قد خسرنا جميعاً: أنت، والشركة، والصداقة، الكل. إن شعاري عدم الخلط بين العواطف والأرقام.

في تلك اللحظة، دخل رجل يحمل بعض الأوراق، نظر إلى مارتين كأنه لا يدري ماذا يتعين عليه أن يفعل. فنهض مارتين، لكن موليناري تناول الأوراق في يده، ومن دون أن يرفع بصره، طلب منه أن يبقى، لأنه لم ينته من حديثه بعد. وبينما كان يتفحص تلك المذكرة، أو كائنة ما كانت، تمتم مارتين وقد اعتراه قلق بالغ، وشعور بالمهانة، وحاول أن يفهم ما وراء ذلك كله: لماذا استبقاه، ولماذا كان يبدد الوقت مع شخص تافه مثله. يضاف إلى ذلك، تلك الجلبة، التي يبدو أنها سرعان ما ستؤدي به إلى الجنون: مكالمات من أحد أجهزة الهاتف الأربعة، محادثات بـ «الأنترفون»، دخول السكرتيرة بشعرها الأشقر وخروجها، التوقيع على أوراق. وعندما قيل له عبر جهاز «الأنترفون» إن السيد «ويلسون» يود أن يعرف ماذا استقر عليه الرأي، فيما يخص المصرف المركزي، فكر مارتين بأن قامته لا بد وأن تكون قد تقلصت إلى أصغر من حجم حشرة. عندئذ ـ ورداً على استشارة من سكرتيره ـ رد موليناري بعنف مفاجئ، وكاد أن يصرخ:

ـ لينتظر.

أضاف، في اللحظة التي كان فيها السكرتير يجتاز الباب:

ـ لا أريد أن يزعجني أحد بدخوله إن لم أطلب منه ذلك، مفهوم؟.

وحل هدوء مفاجئ.. بدا أن الجميع قد تبخروا، وتوقفت الهواتف عن الرنين، والسيد موليناري، ممتعض، قلق ينقر بأصابعه فوق المكتب، لبث لحظات يفكر، ثم نظر إليه وسأل برفق:

ـ أين تعرفت إلى أليخاندرا؟.

ـ في بيت أحد الأصدقاء.

كذب مارتين، وتضرج خجلاً، لأنه لم يكن يكذب أبداً، لكنه أدرك أنه سيثير سخرية بالغة إن قال الحقيقة.

كان يبدو أنه يتفحصه.

ـ هل أنت صديق حميم لها؟.

ـ لا أدري.. أعني.

رفع «موليناري» يده اليمنى، كأنه يقول، ليس من الضروري ذكر تفاصيل أكثر. وبعد أن تفحصه باهتمام مدة، أردف قائلاً:

ـ أنتم شباب اليوم، تعتقدون أننا حفنة رجعيين. ومع ذلك، فإنك لا محالة ستندهش. لقد أصبحت اشتراكياً في أيام رخائي.

في تلك اللحظة، انفرج الباب الجانبي، وأطل منه رجل ذو أهمية.

قال موليناري:

ـ ادخل، ادخل.

اقترب السيد ووضع ذراعه على ظهر موليناري، وهمس في أذنه، بينما كان موليناري يومئ برأسه.

قال:

ـ حسناً، حسناً، لا بأس، ليفعلوا ما يريدون.

ثم أردف، بعد أن علق على وجهه ابتسامة بدت لمارتين، مبطنة بالسخرية، يقول، ويشير إليه بإيماءة خفيفة:

ـ هنا، هذا الشاب صديق أليخاندرا.

ابتسم الرجل الغريب ابتسامة مبهمة، وأومأ برأسه يحييه، وهو مستند بذراعه إلى ظهر كرسي موليناري.

قال موليناري:

ـ لقد أتيت في الوقت المناسب يا «هكتور». تعلم جيداً كم تقلقني مشكلة الشباب الأرجنتيني.

نظر الرجل الغريب إلى مارتين.

كنت أقول له إن الشباب يفكرون دائماً بأن الجيل السابق لا قيمة له، وأنه على خطأ، وأنه ليس سوى مجموعة من الرجعيين.

ابتسم الرجل الغريب برفق، وهو ينظر إليه كأنه ممثل «الجيل الجديد»، (فكر مارتين). وفكر أيضاً، بأن صراع الأجيال كان مختلاً وقد ازداد اختلاله أكثر من ذي قبل عندما بدا له أن شعوره بالتفاهة بلغ حداً لا يطاق: هما خلف المكتب الفخم، ومن ورائهما شركة «إيمبرا» المساهمة المغفلة، وصورة بيرون الموشاة بتوقيعه، والسارية والعلم ونادي الروتري الدولي والمبنى ذو الاثنتي عشرة طبقة. وهو بثيابه الرثة، وجوع يومين، ***كما لو أن قبائل «الزولو» تواجه الجيش الإمبراطوري الإنكليزي بسهام وتروس جلدية مزركشة.***

ـ كما كنت أقول له، أنا أيضاً كنت في شبابي اشتراكياً، وفوضوياً كذلك.

وابتسم، كما ابتسم الرجل الآخر، ابتسامة عريضة، كأنهما يتذكران أمراً مضحكاً.

ـ وها إن الصديق (بيرس موريتّي) شاهد على ما أقول، لأننا قمنا معاً بأمور كثيرة. كما أنك لن تظن أن هناك ما يخجلنا. إنني ممن يعتقدون

أنه لا يضير الشباب أن يؤمنوا في مرحلة معينة، بمثاليات بالغة النقاء، فلديهم الوقت الكافي لكي يتخلوا عن هذه الأوهام فيما بعد. ثم إن الحياة تبرهن للمرء أن الإنسان لم يخلق لمثل تلك المجتمعات الخيالية. ليس ثمة من رجلين *اثنين* متساويين في العالم: نجد الطَموح، واللامبالي، والنشيط والكسول، ومن يود أن يزدهر مثل الصديق بيرس موريتي، ومن لا يهمه قيد أنملة إن قضى حياته فقيراً وضيعاً. والخلاصة، لِمَ الاستطراد؟. إن عدم المساواة سمة من سمات طبيعية الإنسان، ولا فائدة ترجى من محاولة تأسيس مجتمعات تسود فيها المساواة بين بني البشر. ثم لاحظ معي، إن مثل ذلك سيكون ظلماً كبيراً، فلماذا يجب أن يتقاضى رجل عامل، ما يتقاضاه كسول عاطل؟. ولماذا يجب أن يعامل عبقري مثل «أديسون» أو «هنري فورد» مثلما يعامل شقي بائس، ولد كي ينظف أرض هذه القاعة؟. ألا يبدو لك أن المساواة هنا ستكون ظلماً فادحاً؟. وكيف يمكن أن يقام باسم العدالة ذاتها ـ نظام ظالم؟. إن في ذلك تناقضاً فاضحاً. وكنت أعتقد دائماً أنه يجب الكتابة مطولاً حول هذا الموضوع. وأصارحك القول، إنني وطدت العزم ـ مرات عدة ـ على أن أكتب عن هذه الأفكار ـ قال ذلك وهو ينظر إلى بيرس موريتي كأنه ينصبه شاهداً ـ وبينما كان مارتين يرى الآخر يومئ برأسه علامة الرضى، كان يتساءل: ***ولكن لماذا يقوم هذا الرجل بتبديد هذا الوقت كله معي؟***. وتوصل إلى نتيجة مفادها أن هناك، لا محالة، أمراً يتسم بأهمية بالغة يتعلق بأليخاندرا، أمراً لا بد أن تكون له قيمة عند هذا الرجل، لسبب ما، يجهله، وكان احتمال قيام علاقات ذات أهمية بين موليناري وأليخاندرا، مهما كان شأنها، يؤرقه أكثر فأكثر كلما كان أمد المقابلة يمتد، فطول المقابلة، كان بمثابة مقياس لتلك العلاقة. ثم كان يعود ليتساءل عن الأسباب التي كانت وراء إرساله ليلتقي موليناري، وكان

يتوصل ـ على نحو غامض، من دون أن يعرف لماذا ـ إلى أن أليخاندرا قامت بذلك (لتبرهن على أمر ما) في لحظة دخلت فيها علاقاتهما في مرحلة مظلمة، وعاد ثانية يراجع الأحداث، صغيرها وكبيرها، التي كانت في حينه تحيط بكلمة «موليناري»، كما يفتش محقق تحت المجهر عن أي أثر أو دليل يمكن أن يقود إلى الحقيقة بجلاء، مهما كان لأول وهلة تافهاً، ولكن عقله كان يرتبك، إذ كان صوت «موليناري» يعلو على تلك التحقيقات، مستطرداً في شرح مفهومه العام عن العالم: فالأعوام، والحياة القاسية التي لا ترحم، تقنع المرء تدريجياً، بأن تلك المثاليات، مهما كانت نبيلة ـ لأنها بلا شك، في غاية الكمال ـ لم تُبتدع لتطبق على البشر، كما هم في الواقع. إنها مثاليات تخيلها حالمون، وأكاد أقول شعراء، جميلة جداً ومناسبة جداً لتأليف كتب، وإلقاء خطب، إنما يستحيل تطبيقها عملياً. وبودي أن أرى «كروبوتكين»، وحتى «مالاتيستا»[1]، يدير شركة كهذه، ويصارع يوماً بعد يوم أوامر المصرف المركزي (وهنا ضحك، وشاركه بانشراح بالغ السيد بيرس موريتي أيضاً)، ويقوم بألف مناورة ليتجنب الوقوع في شراك النقابات أو «بيرون» أو الاثنين معاً. ومن جهة أخرى، فإن اعتناق شاب أو فتاة، أفكاراً مثالية، حول التحرر والعدالة الاجتماعية والمجتمعات المثالية أمر حسن جداً. ولكنك فيما بعد تتزوج، وتود أن ترتب وضعك في المجتمع، ولا بد أن تبني عش الزوجية، وهذا طموح طبيعي لكل رجل صالح، وسيؤدي إلى هجر تلك الأوهام تدريجياً، لست أدري إن كنت تدرك ما أود قوله. يسهل جداً اعتناق العقيدة عندما يكون المرء شاباً يعوله والده.

(1) كروبوتكن ومالاتيستا من زعماء الحركة الفوضوية المعروفين. الأول هو الأمير الروسي بيتر الكسندر رفيش كروبوتكين (١٨٤٢ ـ ١٩٢١). والثاني هو الإيطالي إريكو ما لاتيستا (1853 ـ 1932) (المترجم).

يختلف الأمر جداً عندما يتعين عليه أن يواجه الحياة، وأن يرى نفسه ملزماً بأن يحافظ على عش الزوجية الذي بناه، وبخاصة عندما يرزق الأطفال، وتتوارد الالتزامات المتصلة بالأسرة: مدارس، ملابس، وكتب وأمراض. النظريات الاجتماعية جميلة جداً، ولكن عندما يتعين عليك أن تضع القِدْرَ على الموقد، كما يقال بالعامية، فلا بد يا صديقي أن تحني ظهرك، ولا بدّ أن تفهم أن العالم لم يخلق من أجل أولئك الحالمين، ومن أجل أنصار «مالاتيستا» و«كروبوتكين». وانتبه جيداً إلى أنني أحدثك عن النظريين الثوريين، لأن هؤلاء على الأقل، لا يبشرون بدكتاتورية البروليتاريا كالشيوعيين. هل يمكن تصور ما هو أفظع من حكومة ديكتاتورية؟. هاك روسيا كمثال. ملايين العبيد يشتغلون والسوط مسلط عليهم. الحرية يا صديقي مقدسة، إنها إحدى القيم العظيمة التي يجب علينا إنقاذها مهما كلف الأمر. حرية للمجتمع، حرية للعامل الذي يمكنه أن يبحث عن شغل حيث يناسبه، وحرية لرب العمل الذي يمكنه أن يُشَغِّل من يؤثر تشغيله. قانون العرض والطلب، ولعبة المجتمع الحر. انظر إلى وضعك. تأتي إلى هنا بحرية، وتقدم لي قوة عملك. وأنا، لسبب ما، لا تناسبني، ولا أستخدمك. ولكنك إنسان حر، ويمكنك أن تخرج من هنا لتقدم خدماتك إلى الشركة المجاورة. فكر في كل هذا الذي لا يقدر بثمن: أنت شاب بسيط، وأنا رئيس شركة كبرى، ومع ذلك فإننا نتعامل في شروط متساوية، ضمن إطار قانون العرض والطلب: يمكن للقادة أن يقولوا ما يشاؤون، لكن هذا هو القانون الأسمى لمجتمع منظم تنظيماً جيداً. وهنا، في كل مرة يُقدم هذا الرجل (أشار إلى صورة بيرون)، في كل مرة يُقدم هذا السيد على التدخل في شؤون الشركة الخاصة، لا يؤدي الأمر إلاّ إلى الإضرار بنا، والإضرار بالبلاد في نهاية المطاف. ولهذا فإن شعاري، والصديق «موريتي» يعرف جيداً، هو: لا ديكتاتوريات، ولا

مجتمعات أشخاص خياليين. لا أقول لك شيئاً عن المشكلات الأخرى، تلك التي يمكن أن نسميها معضلات ذات طبيعة أخلاقية، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. أعني حاجة المجتمع الذي نعيش فيه إلى نظام، إلى مستوى أخلاقي، صدقني، إن كل شيء من دونه، سوف ينهار. هل يرضيك مثلاً، أن يضع أحدٌ ما شرف أمك موضع الشك؟. أرجوك، إنها مسألة افتراضية، أسمح لنفسي أن أتخذ منها مثالاً. أنتَ نفسك قطبت الآن حاجبيك، وهذه الإيماءة ذاتها التي تشرفك، تكشف كل ما يعني مفهوم الأم من قدسية لك ولي. وإذاً كيف نوفِّق بين هذا المفهوم، وبين مجتمع تتفشى فيه حرية الممارسة الجنسية، حيث لا يكون أحد مسؤولاً عن الأولاد، ثمرات تلك الممارسة، وحيث يصبح الزواج مجرد مؤسسة بورجوازية؟. لست أدري إن كنت تفهم ما أرمي إليه. ولكن، هل أصابك أي مكروه؟.

كان مارتين شاحباً يكاد يغمى عليه، يمسح بيده عرقاً بارداً يتصبب من جبينه.

أجاب: لا، لا.

حسناً، كما قلت لك. إن نسفت أسس الأسرة التي تشكّل قاعدة المجتمع الذي نعيش فيه، وإن هدمت المفهوم المقدس للزواج، فماذا يتبقى غير الفوضى؟ أي مثل عليا، وأي قدوة يمكن أن نقدمها إلى الشباب الناهضين؟. لا يمكن العبث بكل ذلك أيها الفتى. سوف أبوح لك بما هو أكثر من هذا، سأقول لك شيئاً نادراً ما أبوح به لأحد، وأشعر الآن بأن من واجبي أن أقوله لك. أعني مسألة الدعارة.

ولكن في تلك الأثناء رن جرس «الأنترفون»، وبينما كان موليناري يسأل والاستياء باد على وجهه، *ماذا؟. ماذا؟*. كان مارتين يتابع بمجهره،

متداعياً تائهاً أكثر فأكثر، وسط ذلك الضباب الكريه، ويقول في نفسه، *واندا، واندا*، ويردد تلك العبارة حول احتقار الببغاوات المزركشة، واحتقارها لنفسها، ملخصاً تحقيقاته بأن «واندا» كانت أحد عناصر ذلك اللغز، و«موليناري» كان عنصراً آخر. ومَنْ سواهما يمكن أن يكون؟. وعند هذا الحد كان يعود إلى مراجعة الفصول السابقة، فلا يعثر على أي شيء بارز، لم يكن هناك سوى تلك المقابلة مع المدعو «بوردينابي» وهو شخص تجهله أليخاندرا، بل كان فظاً على نحو جعل مزاجها يتكدر، ووجهها يتجهم ويعبس. وكان يرى الآن أيضاً، كيف أخذ وجه «موليناري»، الذي قست قسماته عندما كان يتحدث بـ «الأنترفون» يتحول إلى ذلك الوجه الذي قرر أن يتقدم به إلى مارتين. وكان السيد موليناري يحدق إلى وجهه باحثاً ـ على ما يبدو ـ عن طرف الخيط الذي سيستأنف منه حديثه، إلى أن أردف يقول:

ـ نعم، تلك هي، الدعارة. انظر ما تنطوي عليه من تناقض. لو قلت لك إن الدعارة أمر ضروري، أعلم تماماً، أنك في هذه اللحظة سوف تعبر عن رفضك، أليس كذلك؟. وإن كنت واثقاً أنني، ما إن أحلل المشكلة بعمق، حتى توافقني الرأي. تصور، في الواقع، ماذا سيكون عليه حال العالم من دون صمام الأمان هذا. الآن، في هذه الأيام بالذات، من دون أن نذهب بعيداً، هنا في بلدنا، يسود مفهوم خطأ عن الأخلاق، وأنبهك إلى أنني كاثوليكي، وقد أيدت الاكليروس الأرجنتيني لمنع البغاء، ثم، حسناً، مُنع البغاء سنة..

راوده الشك لحظة، ونظر نحو السيد «بيرس موريتّي» الذي كان يصغي إليه باهتمام.

قال السيد «موريتّي»:

ـ يبدو لي أن ذلك كان سنة 1935.

ـ حسناً، ماذا كانت النتيجة؟.. ظهور البغاء السري. ذلك أمر منطقي، ولكن البغاء السري أشد خطورة، بسبب افتقاره إلى الرقابة الصحية. ثم ما زال هناك أمر آخر: فهو مُكلف، وليس في متناول العامل أو المستخدم. لأن الكلفة ليست ما ينبغي دفعه إلى المرأة وحسب، بل ما يجب إنفاقه في البيت. والنتيجة: إن بوينس أيرس تعاني من انحلال أخلاقي لا يمكننا توقع نتائجه.

ورفع رأسه ملتفتاً نحو السيد «بيرس موريتّي» وقال له:

ـ في الاجتماع الأخير «للروتري» تحدثت مؤكداً على هذه المشكلة التي بدأت تتحول إلى وصمة من وصمات هذه المدينة، وربما البلاد بأسرها.

واسترسل يخاطب مارتين:

ـ الأمر يشبه مرجلاً يغلي، يرتفع فيه الضغط، وصمامات الأمان مغلقة، وما تلك الدعارة المشروعة سوى: صمام أمان، فإما بغايا تشرف عليهن الدولة، أو أن نصل إلى ما وصلنا إليه، إما وجود دعارة جيدة مراقبة، أو أن يواجه المجتمع، لا محالة ومهما طال الزمن، خطر انهيار المؤسسات الأساسية الفادح. أعلم أن هذه المعضلة صعبة، وأنا ممن يفكرون بأن المسألة ليست في أن نخفي رؤوسنا كالنعام عندما نواجه الأخطار، إنني أتساءل إن كان بميسور فتاة من أسرة محترمة أن تكون اليوم مطمئنة، أو أن يكون أهلها مطمئنين أيضاً. أدَعُ جانباً الألفاظ البذيئة والقذرة التي لا بد أن تسمعها الفتاة في الشارع من فتيان أو رجال لا يجدون متنفساً طبيعياً لغرائزهم. أدَعُ ذلك كله جانباً، مهما كان فظاً، ولكن، ما رأيكم في الخطر الآخر؟. ماذا تقولون عن خطر

العلاقات بين فتية وفتيات، بين خاطبين ومخطوبات أو بين مجرد محبين ومحبوبات، عندما لا تصل تلك العلاقات إلى منتهاها؟. عجباً!. إن أي فتى يسري الدم في جسده، تتحكم فيه غرائزه أولاً وأخيراً. أرجو أن تعذرني إن سميت الأشياء بأسمائها، إنما لا توجد طريقة لمواجهة هذه المشكلة، فذلك الفتى، في نهاية الأمر، يعيش حياته مهتاجاً بسبب عدم توفر دعارة في متناول إمكاناته المالية: تُهيّجه سينما، ليرحمنا الله منها، وتُهيّجه مطبوعات الدعارة. ثم ماذا يمكن أن ننتظر؟. ومن ناحية أخرى، ليس لدى الشباب الآن الكوابح التي كان يمليها فيما مضى بيت راسخ المبادئ. يجب أن نعترف بأننا هنا كاثوليكيون، بدءاً من بشرتنا وإلى ما هو خارجها. إنما كاثوليكيون حقيقيون، كاثوليكيون بالمعنى الحقيقي للكلمة، صدقني إنهم لا يتجاوزون خمسة في المئة، وأعتقد أنني متسامح، وما تبقى..؟. يفتقدون كلهم إلى ذلك الكابح الأخلاقي. الوالدان مشغولان بالأمور الشخصية أكثر من الاهتمام بما يجب أن يكون هيكلاً مقدساً حقيقياً. ولكن، ماذا جرى لك..؟.

هرع السيد «بيرس موريتّي» والسيد «موليناري» إلى حيث كان مارتين.

ـ لا شيء يا سيدي، لا شيء، أرجو أن تعذراني، إنما أوثر أن أنصرف.

نهض كي ينصرف، بيد أنه كان يبدو متداعياً، شاحباً يتصبب عرقاً.

قال السيد «موليناري»:

ـ ولكن لا يا رجل. انتظر، سأطلب لك شيئاً من القهوة.

ـ لا يا سيد «موليناري»، ها إنني الآن على ما يرام. شكراً جزيلاً. الهواء في الخارج سيريحني، شكراً جزيلاً، أمسية سعيدة.

وما إن اجتاز باب المكتب، حيث رافقه السيد «موليناري» والسيد «بيرس موريتّي» يتأبطان ذراعيه، وما ان توارى عن نظريهما، حتى هرول بما تبقى لديه من قوة. عندما وصل إلى الشارع، طوّف ناظريه بحثاً عن مقهى، فلم يعثر، ولم يتمكن من الانتظار. عندئذ اندفع إلى حيّز بين سيارتين واقفتين في الشارع. وهناك تقيأ.

3

بينما كان ينتظر في ***«ذي كريتيريون»***، يرى صور الملكة إيزابيل من جهة، وصور نساء عاريات من جهة أخرى، كأنما الإمبراطورية والدعارة (فكر) يمكن أن تتعايشا باحترام، مثلما تتعايش العائلات المحترمة والمواخير (ليس، على الرغم من ذلك، وإنما بسببه، كما شرح له على نحو ألمعي السيد «موليناري»..)، كانت أفكاره تعود إلى أليخاندرا، ويتساءل، كيف اكتشفت تلك الحانة ذات الطابع الفيكتوري، ومع من؟.

كان يجلس أمام «البار»، تحت صورة الملكة، وهي تبتسم ابتسامة بورجوازية صغيرة، (فيما بعد، قالت له أليخاندرا، لم تكن هناك أسرة ملكية تافهة كهذه قط..). مديرون وموظفون إنكليز يحتسون الـ «جين» أو الـ «ويسكي» ويتسامرون ويضحكون من نكاتهم. فكر في اللحظة التي رآها فيها تدخل. ***درة التاج***.

طلبت كأس «جلبي»، وبعد أن استمعت إلى مارتين قالت:

ـ «موليناري» رجل محترم، وأحد أعمدة الأمة. بكلمات أخرى: إنه خنزير حقيقي وابن عاهرة مرموق.

نادت النادل. ثم قالت لمارتين:

ـ سألتني كثيراً عن «برونو»، وبهذه المناسبة، سوف أقدمه لك الآن.

4

بقدر ما كانا يقتربان من تقاطع شارعي «كورينتس» و«سان مارتين»، كانت تسمع على نحو أشد، مكبرات صوت «التحالف»: لتحذر «أوليغارشية» الحي الشمالي[1]. ليبلل اليهود لحاهم. ليكف «الماسونيون» عن الإزعاج. ليكف الماركسيون عن التحريض.

دخلا ***«لاهلفتيكا»***. مكان مظلم، يتصدره خوان خشبي عال، والجدران قديمة مكسوة بالخشب، والمرايا مبقعة مكمدة، تضخم وتعكس على نحو مشوش غموض ذلك الركن القديم، الذي نجا من الهدم، وكآبته.

نهض رجل أشقر اللون، أزرق العينين، على أنفه نظارة عدستاها سميكتان للغاية. عليه مسحة من جاذبية، مفكر، ويبدو أنه يناهز الخامسة والأربعين. لاحظ أنه كان يرنو إليه باستحسان، فاعتراه الخجل وفكر: ***قد حَدَّثَتْهُ عني.***

تحدثا بعض الوقت، بيد أن أليخاندرا كانت شاردة، ثم نهضت وودعت. فوجد مارتين نفسه وحده أمام برونو. استبد به القلق، كأنه مقدم على امتحان، وتملكه الحزن لغياب أليخاندرا المفاجئ، الذي ليس له تفسير، كما هي عادتها دائماً. انتبه بغتة إلى أن برونو كان يطرح عليه سؤالاً لم يسمع الشق الأول منه. اضطرب وكاد يرجوه أن يطرح

(1) الحي الشمالي هو حي الطبقة الارستقراطية في بيونس ايرس (المترجم).

السؤال ثانية. عندما وصل ـ لحسن الحظ ـ رجل أحمر الشعر، منمش الوجه، معقوف الأنف، عيناه تحصي، من خلال نظارته كل حركة، ويبتسم على نحو سريع وقلق. كان مظهره كله يوحي بالقلق، ولكنه سرعان ما اكتسب مسحة ساخرة، خيل لمارتين معها، أنه لو بقي وإياه وحيدين لاستحال عليه أن يفتح فمه أمامه حتى لو شب حريق. وكان فضلاً عن ذلك، ينظر إلى العيون مباشرة ليسد أمام الخجولين كل مهرب. كان وهو يحدّث برونو ينحني فوق المنضدة الصغيرة ويختلس نظرات جانبية خاطفة، كمن يعاني ـ أو عانى في زمن مضى- مطاردات رجال الشرطة.

كان مارتين يراقب يديه الطويلتين العصبيتين ويتساءل، كيف كان أمراً ممكناً أن يحب ذلك الرجل أم أليخاندرا، جاهلاً حتى ذلك الحين أن ذلك الحب قد امتد بشكل ما إلى البنت، بحيث إن أليخاندرا نفسها التي كان مارتين يفكر فيها في تلك اللحظة، كانت محط تأملات الرجل الذي يجلس الآن أمام ناظريه ببراءة، على الرغم من أن أليخاندرا التي هي محط أفكاره (كما قد يكون برونو فكر مراراً، ولمّح إلى ذلك أيضاً)، لم تكن الآن هي نفسها التي تؤرق مارتين في تلك اللحظة. ذلك أن أحدنا (أكد) لا يكون أبداً الشخص ذاته إذا ما اختلف المتحاورون، أصدقاء كانوا أو عشاق، كتلك الآلات الصوتية المعقدة التي تستخدم في دروس الفيزياء، والتي يستجيب فيها وتر ما لنغمة معينة، في حين تبقى الأوتار الأخرى صامتة غافلة غريبة عما يحدث، تنتظر نداء يحتاج إلى استجابتها، قد لا يصل في بعض الأحيان أبداً، حينئذ فإن تلك الأوتار الصامتة تقضي أيامها غريبة ووحيدة، كأن العالم قد نسيها.

وسرعان ما سمع برونو يودع ذلك الشخص القلق «مندس»، ثم

يمسك مارتين بذراعه ويدعوه إلى الخروج من المقهى قائلاً:

ـ هيا بنا يا مارتين، الجو حار جداً هنا. هيا نقضي بعض الوقت قرب المرفأ.

بلغا جسر شارع «بلغرانو»، فوقف برونو وقال بعد أن توكأ على الجدار الحاجز: «الآن بوسعنا، على الأقل، أن نتنفس»، أما مارتين، فكان يتساءل عما إذا كانت أليخاندرا قد اقتبست عادة التسكع عند الجسر من برونو، لكنه فيما بعد، فكر بأن الأمر لا بد أن يكون معكوساً، لأنه كان يرى أن برونو إنسان رخو متردد يحوم حول أفكاره. كان يلاحظ بشرته الناعمة، ويديه النحيلتين، ويقارنهما بيدي أليخاندرا القاسيتين ومحياها المضغوط المثلث الشكل. أما برونو فكان يفكر: إن الانطباعية فقط تستطيع رسم هذه المشاهد، وتلك وَلَّت، ولذا فإن الفنان الذي يشعر بهذا ولا شيء سواه، يكون قد خُدِعَ، وكان ينظر إلى السماء الملبّدة بالغيوم والجو الرطب الثقيل، وإلى انعكاس أطياف السفن الراسية المنعكسة على سطح المياه الراكدة، ويفكر بأن بوينس أيرس تحظى بسماء وهواء يشبهان إلى حد بعيد، هواء فيينا وسماءها، بسبب رطوبة المياه الراكدة، في حين كان تفكيره، من جهة أخرى، يتابع «مندس» على مسرح أخر.

ـ في الأدب مثلاً، ينزعون إلى التوصيف بشدة. «بروست» في رأيهم فنان منحط، لأنه ينتمي إلى طبقة هي في سبيلها إلى الانهيار.

ضحك:

ـ لو كانت هذه النظرية صحيحة لما وُجدت الماركسية، وبالتالي لما وجد «مندس» أيضاً. كان يجب أن يبتدع الماركسية عامل من عمال الصناعة الثقيلة بصورة خاصة.

بعد أن مشيا على الرصيف، دعاه برونو إلى الجلوس على حافة الجدار الحاجز، وهو ينظر نحو النهر.

أدهشت مارتين تلك المكرمة من مكارم الشباب التي أولاه إيّاها، واكتسبت أمام عينيه مظهراً ودياً رفاقياً، كما بدا له الوقت الذي منحه إيّاه، والإلفة التي أحاطه بها بمثابة ضمانة لما تُكِنّ أليخاندرا له، لمارتين، من ود، فلا يمكن أن يحيطه رجل مرموق بكل ذلك، إن لم يكن هو، ذلك الفتى المغمور، يحظى بمساندة أليخاندرا وتقديرها، وربما، حبها أيضاً. فهذه المحاورة، وذلك المشوار وتلك الدعوة للجلوس معاً، هي بمثابة تأكيد (وإن كان غير مباشر، وإن كان هشاً) لحبها له، أو شهادة (وإن كانت مطموسة، وإن كانت مبهمة) على أنها ليست بعيدة عنه مثلما كان يظن.

وبينما كان برونو يتنشق النسيم الذي يهب من النهر ثقيلاً، كان مارتين يتذكر لحظات مشابهة قضاها على ذلك الحاجز مع أليخاندرا. كان (سبق له أن كان) سعيداً حقاً وهو يستلقي على الجدار الحاجز ورأسه يسكن في حضنها، كان يسمع وسط الصمت المخيم في ذلك الماء خرير النهر الهادئ من تحته، بينما يتأمل تشكيلات الغيوم التي لا تنقطع: رؤوس أنبياء، قوافل في صحراء من ثلج، مراكب شراعية، خلجان ثلجية. كل ذلك كان (سبق أن كان) آنذاك سلاماً وصفواً. وكما في لحظات النعاس التي تسبق النوم، كما في لحظات التثاؤب والتردد التي تسبق اليقظة، كان ينعم بلذة هادئة وهو يريح رأسه في حضن أليخاندرا، وفكر، ما أجمل أن يحس تحت عنقه لحمها الذي كان، برأي برونو شيئاً ما، أكثر من مجرد لحم، شيئاً ما، أشد تعقيداً وإبهاماً وغموضاً من مجرد لحم تشكله أنسجة وخلايا وأعصاب، فقد كان (لنقل بالنسبة إلى مارتين)، أو أصبح الآن *ذكرى*، ولذلك فإنه شيء

يستعصي على الموت والفساد، شيء شفاف، مرهف، إنما فيه بعض من صفات الخلود والأبدية، إنه (لويس أرمسترونغ) يعزف على بوقه في «البرج»، وهو آفاق بوينس أيرس وغيومها، وتماثيل حديقة لاساما البسيطة عند الغروب، وغريب يعزف على «سيتارا»، وليلة في مطعم «زوربوست»، وليلة ماطرة يختبئان فيها تحت سقيفة (فكر ضاحكاً)، وشوارع الحي الجنوبي، وسطوح بوينس أيرس تشاهد من حانة الطبقة العشرين في مبنى «كوميغا»، وكل ذلك كان يحسه عبر لحمها، من خلال لحمها الطري المرتعش الذي ـ وإن كان مصيره أن يتفسخ في التربة الرطبة بين الديدان والحمأ (تفكير برونو التقليدي) ـ إنما كان يستطيع أن يلمح فيه الخلود، لأننا كما قال له برونو أيضاً، مخلوقون على نحو لا نستطيع معه أن نلمح الخلود، إلا عبر اللحم الهش الفاني. وكان آنذاك قد تنهد، وقالت له (ماذا) وأجابها (لا شيء) مثلما نجيب عادة ونحن نفكر (كل شيء). وعندئذ قال مارتين لبرونو بلا قصد تقريباً:

ـ هنا كنت في إحدى الأمسيات مع أليخاندرا.

وكأنه لم يتمكن من كبح دراجته، وفقد قدرته على التحكم فأضاف:

ـ كم كنت سعيداً في تلك الأمسية..!.

وسرعان ما ندم على البوح بعبارة حميمة ومؤثرة كهذه. لكن برونو لم يضحك، ولم يبتسم (كان مارتين ينظر إليه مذعوراً أو يكاد)، إنما ظل شارداً، جاداً يفكر، وينظر نحو النهر، وعندما تصور مارتين، بعد أن مضت لحظات طويلة، أنه لن يعلق بشيء، قال:

ـ هكذا تكون السعادة.

سأله:

ـ ماذا يعني؟.

ومكث يصغي إليه، تواقاً، مثلما يفعل دوماً عندما يتناول الحديث أليخاندرا.

ـ نتفة فنتفة، ولحظة فلحظة. عندما يكون المرء طفلاً، ينتظر السعادة الكبرى، السعادة الهائلة المطلقة، وفيما هو ينتظر تحقيق تلك الظاهرة، يفوّت لحظات سعادة قصيرة هي الوحيدة المتاحة، أو لا يقدرها حق قدرها مثلما.

وصمت، إلا أنه قال بعد أن فكر قليلاً:

ـ تصور متسولاً يستهين بما يقدم إليه من صدقات في الطريق، لأنه حصل على معلومات عن كنز كبير. كنز ليس له وجود.

عاد يستغرق في التفكير:

ـ تبدو نتفاً ولحظات عابرة، سرعان ما تفقد حرارتها: حديث شيق مع صديق أو تلك النوارس التي تطير حائمة فوقنا، أو هذه السماء، أو الجعة التي حسوناها منذ قليل.

تحرك.

ـ لقد أصاب الخدر إحدى رجلي، كأنما حقنها أحد بالصودا.

نزل، ثم أضاف قائلاً:

ـ أفكر أحياناً، أن هذا النوع من السعادة لم يوجد إلا لأنه طفيف، مثله مثل أولئك الناس التافهين الذين يمرون ولا يسترعون انتباه أحد.

صمت، وقال دونما سبب ظاهر:

ـ نعم. أليخاندرا مخلوق معقد. وهي تختلف كثيراً عن والدتها. إنه لمن العبث، في الواقع، أن يتوقع المرء تشابه الأبناء والآباء، ولعل البوذية

على صواب، وإذاً كيف يتيسر لنا معرفة من سيتقمص أجساد أولادنا؟.

وقال كأنه يروي نادرة:

لعل الروح عند موتنا تهاجر:
إلى نملة،
أو شجرة،
أو نمر بنغالي؛
أما جسدنا فبين الديدان
يتفسخ
وإلى باطن الأرض بلا ذاكرة
يتسرب،
ثم إلى الجذوع والأوراق
يصعد
وإلى عبّاد شمس أو عشب
يتحول
ثم يصبح للمواشي علفاً
ودماً مجهولاً حيوانياً،
وهيكلاً عظمياً،
وبرازاً.

* * *

ولعل مصيراً أشد هولاً قد تواجه
في جسم طفل
سينظم في يوم من الأيام شعراً

أو سيكتب قصصاً،
وفي ظلمات كآبتها
(من دون أن تدري)
تتطهر،
من خطاياها القديمة
كمحارب أو مجرم
أو ستبعث رعباً،
ذعر ظبي،
قبح ابن عرس،
طبع ضبّ أو جنين أو برغوث بحر،
شهرة عاهرة أو ساحرة،
عزلتها القصية،
جبنها وخياناتها المنسية.

استمع إليه مارتين وقد اعترته الحيرة: بدا له برونو كأنه يروي نادرة، وشعر أن ذلك الشعر، يعبر على نحو ما، تعبيراً حقيقياً عما يدور في فكره عن الوجود: بكل ما تزخر به نفسه من تردد وشكوك. ولما كان يعرف عنه حياءه الشديد قال لنفسه: ***إنه شعره.***

ودّعه. كان يتعين عليه أن يلتقي «داركانخلو».

شيعه برونو بعينين حانيتين، وهو يقول في دخيلته، ***كم سيتعين عليه أن يعاني***، ثم استلقى على جدار الحاجز، ووضع يديه تحت رقبته، وأرخى العنان لأفكاره.

كانت النوارس تروح وتجيء.

كم كان كل شيء هشاً وعابراً. ليكتب، على الأقل، عن ذلك، لتخليد شيء عابر لعله حب، وفكر، *أليخاندرا*. وأيضاً: *خورخينا*. ولكن، ما الفائدة من ذلك..؟. كيف..؟. كم كان شاقاً كله، وكم كان مؤلماً ومترعاً بالقنوط.

ولكن الأمر لم يكن كذلك وحسب، لم يكن مسألة تخليد ذكرى فقط، وإنما التنقيب ونبش ما في القلب الإنساني، وتفحص أشد ثنايا طبيعتنا خفاءً.

لا شيء وكل شيء. كاد يقول ذلك بصوت عال ـ وهو يعدل جلسته فوق الحاجز ـ كما هي عادته المتمكنة في أن يتكلم فجأة بصوت مرتفع دونما سبب ظاهر. كان ينظر إلى السماء العاصفة، ويسمع وقع تلاطم الأمواج الرتيب على حافتي النهر الذي كان يبدو ساكناً لا يجري في أي اتجاه (مثل بقية أنهار العالم)، ذلك النهر الذي يمتد عرضه إلى مسافة تبلغ مائة كيلو متر كأنه بحيرة هادئة لا تكاد تتحرك، وعندما تهب العواصف الجنوبية يتحول إلى بحر هائج. ولكن في تلك اللحظة، في ذلك اليوم الصيفي الحار، في تلك الأمسية الرطبة الثقيلة، حيث ضباب بوينس أيرس الشفاف يغطي أطياف ناطحات السحاب المواجهة لسحب الغرب العاصفة الضخمة، كادت تحرك مويجات سطحه نسمة باردة، وأوشكت بشرته أن تهتز، كأنما تحركها بقايا ذكرى العواصف الكبرى، العواصف الضخمة التي لا شك أن البحار تحلم بها عندما تغفو، عواصف توشك أن تكون أشباح عواطف، أو خيالات عواصف، أو ربما أحلام عواصف ليس بوسعها سوى أن تهز سطح مياهه، مثلما تهتز وتهمهم بلا وعي، أو تكاد، كلاب الصيد النائمة، عندما تحلم بالقنص أو القتال.

لا شيء وكل شيء

مال نحو المدينة، وعاد يتأمل أطياف ناطحات السحاب.

وفكر، ***ستة ملايين إنسان.***

وسرعان ما بدا له كل شيء مستحيلاً. ولا فائدة ترجى منه.

وقال في دخيلته، ***أبداً.. أبداً.***

الحقيقة، كان يقول في سره وهو يبتسم ساخراً. الحقيقة. ***حسناً، لنقل: حقيقة واحدة***، ولكن، أليست حقيقة واحدة هي الحقيقة؟. ألا يمكن بلوغ «الـ » حقيقة بالغوص في أعماق قلب واحد فقط؟. أليست جميع القلوب في نهاية المطاف، متطابقة تماماً؟.

وقال في دخيلته، ***قلب واحد فقط.***

فتى كان يُقبِّل فتاة. مر بائع مثلجات «لابونيا» على دراجته: مازحه. وبينما كان يأكل المثلج وهو جالس فوق الجدار الضخم عاد يتأمل الغول الخرافي، ملايين الرجال والنساء والأطفال، والعمال، والمستخدمين والمؤجرين، فكيف يتحدث عن الكل إذاً؟. كيف نمثل تلك الحقيقة التي لا حصر لها في مئة صفحة، في ألف، في مليون؟. ولكن ـ فكر ـ العمل الفني محاولة، ولعله من العبث تقديم الحقيقة اللانهائية في إطار لوحة أو بين دفتي كتاب. الاختيار. ولكن ذلك الاختيار صعب للغاية، وهو عموماً، مأساوي.

ستة ملايين أرجنتيني، إسباني، طلياني، باسكي، ألماني، هنغاري، روسي، بولوني، يوغسلافي، تشيكي، سوري، لبناني، ليتواني، يوناني، أوكراني.

آه يا بابل.

أكبر مدينة «غاليسيّة» في العالم، أكبر مدينة «طليانية» في العالم.. الخ، فيك من مطاعم الـ «بيتزا» أكثر مما في «نابولي» و«روما» مجتمعتين.

«الوطني» يا إلهي!. ما الوطني؟.

آه يا بابل.

كان يتأمل بعين إله صغير عاجز، ذلك الخليط الصاخب الهائل، اللدن، الفظ، المملّ المحبب، الذي ينتصب كحوت خرافي مخيف يعترض السحب الغربية.

لا شيء وكل شيء.

ولكن، صحيح أيضاً ـ فكر ـ إن واحدة فقط تكفي. أو ربما اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً. إذا ما غاص في أعماقها.

أجراء أو أغنياء.. أجراء أو مصرفيون، رائعون أو مشوهون.

كانت الشمس تغرب، وفي كل لحظة تغير الغيوم في الغرب، حلة من الألوان الزاهية. وتبرز رقع ضخمة ذات ألوان بنفسجية فوق خلفية من غيوم بعيدة: رمادية، ليلكية، سوداء. وفكر كأنه في معرض رسم، وا أسفاه على ذلك اللون الزهري، ولكن اللون الزهري بدأ فيما بعد يسرع أكثر فأكثر، ويطغي على ما عداه، إلى أن أخذ يضمحل، بعد أن مر عبر البنفسجي الداكن فالليلكي ثم الرمادي، وأخيراً الأسود، نذير الموت الوقور دائماً، والذي يفضي أيضاً إلى إضفاء الكرامة دوماً.

واختفت الشمس.

وانقضى يوم آخر في بوينس أيرس. شيء ما، لا يمكن أن يعود أبداً، كان يُقربه، على نحو لا يرحم، خطوة أخرى إلى حتفه. وبهذه السرعة..!. أخيراً، بهذه السرعة..!. كانت السنوات تمضي من قبل بطيئة، وكان كل شيء يبدو ممكناً في زمن يمتد أمام ناظريه كطريق مفتوح الآفاق. لكن السنين تمضي الآن بسرعة مضطردة نحو الغروب، وفي كل لحظة تفاجئه قائلة: (منذ عشرين سنة عندما رأيتك آخر مرة).

أو أي عبارة تافهة، إنما مأساوية كهذه، ثم أخذ يفكر كأنه أمام هاوية. ما أقل ما تبقى، وما أتعس ما تبقى من تلك المسيرة نحو العدم. وإذاً، ما الفائدة؟.

وعندما وصل إلى تلك النقطة. وحين بدا أنه لم يعد لأي شيء معنى، تعثر بكلب صغير من تلك الكلاب المشردة الجائعة التوّاقة للعطف على مصيرها التافه (الضئيل ضآلة جسمها الصغير وقلبها الصغير الذي يقاوم بشجاعة حتى النهاية، دفاعاً عن تلك الحياة البسيطة المتواضعة، كأنها في حصن ملغوم) فالتقطه لينأى به إلى ركن ما يقيه من البرد، على الأقل، وليقدم له ما يسد به رمقه، مضفياً على وجود ذلك الحيوان المسكين معنى أشد غموضاً وأشد جبروتاً مما يبدو أن الفلسفة تضفيه على وجوده هو من معنى. مثلهما مثل مشردين وحيدين يضطجعان معاً، يمد كل منهما الآخر بالدفء.

5

"لعل الروح بعد موتنا تهاجر.. » كان مارتين يردد في دخيلته تلك العبارة بينما كان يتمشى.. من أين أتت روح أليخاندرا؟. كانت تبدو بلا عمر، كأنها أتت من أعماق الزمن. «طبيعتها المضطربة كجنين، شهرتها كعاهرة أو ساحرة، عزلتها القصية».

6

انصرمت أيام عديدة، ولم تبدر من أليخاندرا أي إشارة، فقرر أخيراً أن يهتف إليها، تيسر له أن يلتقي بها دقائق معدودات في المقهى عند تقاطع شارعي «إسميرالدا» و«تشاركس»، خلفته بعدها أسوأ مما كان من قبل: فقد اقتصرت على رواية أمور شنيعة عن نسوة الـ «بوتيك» (وما الهدف..؟.).

انقضت أيام وأيام، وعاد مارتين يخاطر ثانية فهتف إليها: أجابته «واندا» قائلة إن أليخاندرا ليست هناك، وستبلغها رسالته. لكنه لم يتلق منها أي شيء.

كاد ـ أكثر من مرة ـ يستسلم ويذهب إلى الـ «بوتيك»، لكنه كان يحجم في الوقت المناسب، لأنه كان يعي أن قيامه بذلك ينطوي على التدخل في شؤونها الشخصية، ولذلك (فكر) بأنه يجب أن ينأى عنها، مثلما يفعل البحار حين يستبد به الظمأ، وهو على ظهر مركبه، فيقاوم إغراء شرب الماء المالح، لأنه يعلم أن ذلك الماء لن يجلب له سوى ظمأ لا يرتوي. لا، طبعاً، لن يهتف إليها. لعل ما جرى يعود إلى أنه حدّ من حريتها، وتدخل في شؤونها، وتهافت عليها بشدة مدفوعاً بوحدته، ولعله لو ترك لها الحرية التامة لكانت عودة تلك الأيام الخوالي ثانية أمراً ممكناً.

لكن قناعة أخرى أشدّ رسوخاً، وإن كانت ضمنية، جعلته يميل إلى

الظن أن زمن البشر لا يعود القهقرى أبداً، وأن لا شيء يعود كما كان من قبل، وأن العواطف عندما تبلى أو تتبدل، ليس هناك معجزة بوسعها أن تعيدها إلى ما كانت عليه: مثلها مثل الراية حين يأخذ الوسخ والبلى طريقهما إليها، (كما سمع برونو يقول مرة). لكن أمله كان يقاوم، فالأمل، كما فكر برونو، لا يتخلى عن الكفاح، وإن كان كفاحه محكوماً بالفشل، لأن الأمل في الواقع، لا ينبثق إلا من قلب البلية، وبسببها، فهل كان بوسع أحد أن يقدم لها، فيما بعد، ما قدمه ؟.. رقته وتعاطفه وحبه المحدود؟. ولكن سرعان ما كانت عبارة «فيما بعد» تزيد من كآبته، لأنها تصور له مستقبلاً لن تكون فيه أليخاندرا إلى جانبه أبداً. مستقبلاً يقول لها فيه إنسان آخر..!. عبارات كالتي كان يرددها على مسامعها، وكانت تصغي إليها وعيناها مأخوذتان، في لحظات أصبحت تبدو له الآن أمراً مستحيلاً ولا يصدق، وكان يعتقد أنها ستُكرس له إلى الأبد، وأنها ستبقى، إلى الأبد أيضاً، على كمالها المطلق المثير، كأنها جَمَالُ تمثال، وهي وذلك الآخر، الذي لا يستطيع تصور شكل وجهه، يسيران معاً في الشوارع والأماكن ذاتها التي كان مارتين يجوبها معها، ولم يعد له أي وجود في حياة أليخاندرا، أو يكاد يكون مجرد ذكرى حزن وحنان، وربما سأم أو هزل، في سبيلها إلى الاضمحلال. وكان يصرّ على تصورها أثناء مطارحة الغرام، تنطق تلك العبارات السحرية التي تقال في مثل تلك اللحظات، عندما يكون العالم بأسره، ومارتين أيضاً، على نحو خاص، مقصياً، خارج الغرفة التي تضم جسميهما العاريين وتأوهاتهما؛ وحينئذ كان مارتين يهرع إلى الهاتف ممنياً النفس بأنه يكفي أن يدير القرص ست دورات ليسمع صوتها. لكنه، قبل أن ينتهي، كان يتوقف، لأن لديه من الخبرة ما يكفي لكي يدرك، أنه يمكن للمرء أن يكون بجانب إنسان آخر، يستمع إليه ويلمسه، مع أن أسواراً

منيعة تفصله عنه؛ كما يحدث بعد موت من نحب، حين يمكن أن تبقى أرواحنا قربه. وإن كان يفصلها على نحو كئيب، السور الخفيّ العصيّ الذي يحول ـ إلى الأبد ـ دون اتصال الأموات بعالم الأحياء.

ثم مرت أيام طويلة.

حتى قرر في نهاية المطاف أن يذهب إلى الـ «بوتيك»، برغم علمه، أنه لن يجني من وراء ذلك سوى إثارة الوحش الضاري القابع في أعماق أليخاندرا، ذلك الوحش الذي يمقت أيّ تدخل في شؤونه، وبينما كان يردد في دخيلته (لا لن أذهب)، كان في واقع الأمر يسير نحو شارع «سرّيتو». وما إن وصل إلى الباب حتى أخذ يردد بإصرار، إنما بعزيمة فاترة: (إنه لمن الضروري ألاّ أراها).

خرجت في تلك اللحظة امرأة مثقلة بالحلي والألوان الزاهية، ذات وجه تتوسطه عينان وثابتان شريرتان. لم يكن مارتين يشعر بأن أليخاندرا نائية إلى هذا الحد إلا عندما تكون بين نسوة على هذه الشاكلة: بين زوجات أو عشيقات مديرين وأطباء كبار ورجال أعمال. كانت تقول: (ويا لها من أحاديث..!. أحاديث لا يمكن سماعها إلا في إحدى دور الأزياء، أو أحد محلات حلاقة السيدات، بين أصبغة، وتحت أجهزة كالصحون الطائرة، وشعور مختلفة الألوان تقطر قذارة سائلة، من أفواه كأنها مصارف مياه، من فجوات نجسة تتوسط وجوهاً مطلية بالدهون، تنضح باستمرار الكلمات والنمائم ذاتها، تقدم نصائح، تبدي الحقد، وتروي ما يجب عمله، وما لا يجب عمله، مع «الزبون». ويختلط كل ذلك بأمراض، وأموال، وحلي، وخِرَق، وأورام ليفية، وحفلات، وولائم، وعمليات إجهاض، ورئاسات، وترقيات، وأسهم، وفحولة العشاق أو عجزهم، وطلاق، وخيانات، وسكرتيرات، وقرون..). وكان مارتين يستمع إليها مأخوذاً، أما هي فكانت تطلق ضحكة قاتمة كالمشهد الذي فرغت من

وصفه. وكان يتمتم قائلاً، (ولكن، كيف يمكنك احتمال هذا كله؟. كيف يمكن أن تشتغلي في مكان كهذا؟.) ويطرح أسئلة أخرى ساذجة كهذه، كانت تجيب عنها ببعض إيماءات الهزء المعهودة: (لأننا في الأعماق، انتبه جيداً، في الأعماق، جميع النساء، نحن سائر النساء، لدينا لحم ورحم، ويتعين على المرء ألاّ ينسى ذلك وهو ينظر إلى تلك الصور الممسوخة، مثلما كانت النساء الجميلاتٍ في رسومات العصور الوسطى تنظر إلى جمجمة. ولأن تلك المسوخ، فكِّرْ ما أغرب ذلك، لأنها في نهاية الأمر على جانب كبير من الاستقامة والشرف، فالقذارة واضحة للعيان وإلى درجة يستحيل معها أن تخدع أحداً). لا لم يكن مارتين يفهم، وكان واثقاً أن ذلك لم يكن كل ما كان يدور في خلد أليخاندرا.

ثم فتح الباب ودخل إلى البوتيك، فنظرت إليه أليخاندرا وقد اعترتها الدهشة، لكنها حيّته بإيماءة من رأسها، وتابعت عملها. ثم أشارت إليه أن يجلس هناك.

دخل في تلك اللحظة رجل غريب جداً. قال بالفرنسية وهو ينحني على نحو مضحك:

- سيدتيَّ.

وقبّل يد واندا ثم يد أليخاندرا وأضاف:

- كما كانت «لابوبسكو» تقول في مسرحية ***«الثوب الأخضر»: إنني عاهرة عند قدميك»***[1].

ثم التفتَ نحو مارتين فجأة، وتفحصه كمن يتفحص قطعة أثاث غريبة، عله يجد فيها ما يسوغ اقتناءها. وعرّفت به أليخاندرا من بعيد وهي تضحك.

(1) وردت العبارة في الأصل باللغة الفرنسية (المترجم).

قال بلهجة طبيعية:

ـ إنك تنظر إليّ مأخوذاً، ولك ملء الحق يا صديقي الفتى. سأبين لك. إنني مجموعة من العناصر المفاجئة. فالذين لا يعرفونني مثلاً، يظنون، عندما يرونني صامتاً، أن صوتي ينبغي أن يكون رخيماً مثل صوت «تشالياپين»[1]، لكنهم سرعان ما يتبينون إني لا أجيد سوى الصراخ. وعندما أكون جالساً، يفترضون أني قصير القامة، لأن جذعي قصير جداً، ولكن، لا يطول بهم الأمر حتى يكتشفوا إني عملاق. أبدو نحيلاً لمن ينظر إليّ مواجهة، ومن ينظر إليّ جانبياً يراني ضخماً.

كان وهو يتكلم يقوم بحركات تمثيلية ليبرهن على كل أقواله، أما مارتين فكان يلاحظ، مأخوذاً، أن كل ما قاله صحيح.

ـ أنتمي إلى النمط «جيلت» في تصنيف البرفسور «مونغو» الشهير. وجهي حاد، وأنفي طويل وحاد أيضاً، ومعدتي كبيرة لكنها حادة كذلك، مثل أصنام جزيرة «باسكوا»، وكأنني نشأت مضغوطاً بين لوحين عريضين.

انتبه مارتين إلى أن الفتاتين كانتا تضحكان، طيلة الوقت، ضحكة متواصلة كأنها موسيقى ترافق فيلماً سينمائياً، تخفت حيناً كي لا تعكر صفو أفكاره، وتصخب في اللحظات الحاسمة من دون إزعاج. وكان مارتين يتأمل وجه أليخاندرا بأسى. كم كان يمقت ذلك الوجه..!. وجه الـ (بوتيك) الذي كان يبدو أنها تتقنع به كي تقوم بدورها في ذلك العالم الخليع، وجه كان يبدو أنه يدوم، حتى عندما كانت تلتقيه على انفراد، وتتلاشى ملامحه ببطء، ثم تبرز من بين قسماته المنفرة بعض الوجوه التي كان يألفها وينتظرها، مثلما ينتظر مسافراً يتوق إليه ويحبه،

(1) تشالياپين: مغن روسي قديم (المترجم).

وسط حشد من وجوه تثير الاشمئزاز. وكما كان برونو يقول: «شخص» يعني قناع، ولكل امرئ أقنعة كثيرة: قناع الأب، وقناع المعلم، وقناع العاشق. ولكن أي قناع منها هو الحقيقي..؟. وهل هناك في الواقع واحد منها حقيقي؟. وفكر للحظات أن أليخاندرا التي كان يراها الآن هناك تضحك لدعابات كيكي لم تكن، ولا يمكن أن تكون هي ذاتها التي عرفها، ولا يمكن أن تكون أليخاندرا الأكثر عمقاً، أليخاندرا الرائعة والمريعة التي أحبها. لكنه في أحيان أخرى (وبقدر ما كانت الأسابيع تنقضي) كان يميل أكثر مما يظن، إلى التفكير، مثل برونو، بأن تلك الوجوه حقيقية *كلها*، وأن وجه الـ (بوتيك) أصيل أيضاً، ويعبر، على نحو ما، عن أحد ضروب حقيقة روح أليخاندرا. حقيقة، ومن يدري كم كان هناك من حقائق أخرى غريبة عنه..!. لم تكن تمت إليه بصلة قط، ولن تمت إليه بصلة أبداً. ولذلك فإنها عندما كانت تَمْثُل أمامه بتلك الملامح المتضائلة لتلك الشخصيات المعقدة ـ كأنما لم يكن لديها ما يكفي من وقت (أو رغبة..؟.) لتبديلها، فتبقى آثارها بادية في إحدى ثنايا شفتيها أو حركات يديها، أو في بعض من بريق عينها ـ كان مارتين يكتشف فيها بقايا حياة غريبة: كأنها امرؤ مكث زمناً بين القمامة، ولا يزال وهو واقف معنا يحتفظ برائحة النتن. فكر بذلك بينما كان يسمع واندا تقول وهي تمضغ الشكولاته:

ـ هات نادرة أخرى عن ليلة أمس.

سؤال أجاب عنه كيكي، برقة وكياسة وهدوء، بعد أن وضع على المنضدة كتاباً كان في يده:

ـ واحدة بذيئة. *يا عزيزي*[1].

(1) وردت العبارة في الأصل باللغة الفرنسية (المترجم).

ضحكت الفتاتان بشدة، وعندما استطاعت واندا أن تتكلم سألت:

- كم تتقاضى من الجريدة.

- أتقاضى خمسة آلاف وسبعمئة وثلاثة وعشرين «بيسو» وسبعة وخمسين «سنتيما» وأجر شهر إضافي في نهاية العام، إلى جانب الإكرامية التي يعطيها رئيسي عندما أشتري له اللفائف. أو ألمع حذاءه.

- خير لك يا كيكي أن تترك الجريدة، وسندفع لك هنا ألف بيسو زيادة، ولن تقوم بأي شيء سوى إضحاكنا فقط.

- آسف. إن الوجدان المهني يمنعني من ذلك. تصوري، لو أنني ذهبت لقام «روبروتو خ. مارتويل» بإعداد أخبار المسرح. كارثة قومية يا بنيتي.

ألحت واندا قائلة:

- كن طيباً يا كيكي. حدثنا عما جرى ليلة أمس.

- لقد قلت: منتهى البذاءة. فظة للغاية.

- نعم أيها الغبي، ولكن، ارو التفاصيل، عن كريستينا خاصة.

- *آه يا للمرأة..!*. واندا: إنك مثال امرأة «واينينغر». شوكولاته، عهر ونميمة. أعبدك.

سألت «واندا»:

- «واينينغر..؟.» ما هذا..؟.

فقال كيكي:

- تماماً، تماماً. أعبدك.

- هيا، كن طيباً، حدثنا عن كريستينا.

- يا للمسكينة، كانت تلوي ذراعها كما في المشاهد التي يقدمها أطفال نادي السينما. ولكن الذي مثّل دور الكاتب لم يكن سوى مستخدم في وزارة التجارة.

ـ ماذا تقول؟. أتعرفه؟.

ـ لا ولكنني متأكد. إنه مستخدم منهك ومعوز. يبدو أن مشكلة ما تقلقه وتتعلق بعمله أو تقاعده أو شيء من هذا القبيل. قصير القامة ممتلئ الجسم كأنما ترك الملفات وجاء تواً ليمثل دور الكاتب[1]. لا أستطيع أن أعبر عما أثاره في نفسي ذلك الخَرِف من شفقة.

دخلت في تلك اللحظة امرأة. ولما عرف مارتين، الذي كان كمن يعيش في حلم مضحك أنها كريستينا، التي كان كيكي يتحدث عنها، ورأى كيف استقبلها، تضرج وجهه خجلاً. أما كيكي فانحنى أمامها وقال:

ـ رائعة!.

وأردف وهو يلمس ثوبها.

ـ ما أجمله.. والبنفسجي يتناسب جداً مع تسريحة شعرك.

ابتسمت كريستينا بحياء وخوف: لم تكن تعرف أبداً إن كان ينبغي أن تصدقه أم لا. ولم تجرؤ على سؤاله عن رأيه في المسرحية، لكن كيكي أسرع يقول لها:

ـ رائعة يا كريستينا..!. كم من جهد بذلتموه أيها المساكين..!. رغم الضجيج الذي كان يأتي من جهة الجيران. ماذا يوجد في الجوار هناك؟.

أجابت كريستينا بحذر:

ـ قاعة رقص.

ـ آه صحيح، يا للهول..!. في اللحظات الحرجة تضج موسيقا الـ «مامبو»، ويبدو أن لديهم بوقاً أيضاً، كي تكتمل المصيبة. إنه أمر فظيع.

(1) العبارة في الأصل باللغة الفرنسية. (المترجم).

رأى مارتين أليخاندرا تخرج مسرعة إلى الغرفة الأخرى. أما واندا فكانت تتابع عملها وخلفها كيكي وكريستينا، لكن جسمها كان يهتز ويرتعش بصمت. وتابع كيكي يقول بلا رحمة:

ـ يجب أن يمنعوا الأبواق. أليس كذلك يا كريستينا؟. تباً لتلك الآلة..!. طبعاً، كان يتعين عليكم أيها المساكين أن تصرخوا كالبرابرة كي يسمع الجمهور أصواتكم. ما أصعب هذا، أليس كذلك؟. ما أصعبه على من يمثل دور الكاتب المشهور بخاصة. ما اسمه؟. تونازي؟.

ـ تونيلي.

ـ هكذا، نعم، تونيلي، يا للمسكين. جسمه لا يوحي بالدور الذي يضطلع به، أليس كذلك؟. هذا، إلى جانب أنه كان يتعين عليه أن يصارع البوق طول الوقت. يا له من جهد..!. إن الجمهور يا واندا لا يعير اهتماماً لما يعني كل ذلك. يخيل إلي يا كرستينا أنكم أحسنتم صنعاً باختيار رجل كهذا لا يوحي بأنه كاتب، بل مستخدم على وشك أن يتقاعد. هل يعمل ذلك العجوز نهاراً في إحدى الوزارات..؟.

ـ أي عجوز؟.

ـ تونازي.

ـ تونيلي، تونيلي ليس عجوزاً، لا يكاد عمره يناهز الأربعين عاماً.

ـ تصوري لو كان الأمر متروكاً لتقديري، لأقسمت أنه تجاوز الخمسين. هذه هي نتائج سوء الإضاءة. ولكنه يعمل في مكان آخر أثناء النهار، أليس كذلك؟. أخال أني رأيته في المقهى المواجه لوزارة التجارة.

ـ لا.. عنده دكان لبيع القرطاسية والأدوات المدرسية.

كان كتفا واندا يهتزان كأنها مصابة بالملاريا.

ـ آه، ما أحسن ما فعلتم، هذا يفسر لي لِمَ أُسند إليه دور الكاتب.

لعلي خلت أنه مستخدم حكومي لأنني كنت بالأمس مرهقاً جداً، وبسبب مسألة شركة الكهرباء، فالإضاءة سيئة جداً، وأنتم لا تتحملون مسؤولية ذلك طبعاً. إنه، لحسن الحظ، يملك دكاناً، ولا يتعين عليه أن ينهض باكراً في اليوم التالي للعرض، ولا بد أن تكون حالة حنجرته سيئة بسبب ذلك البوق والـ «مامبو» اللعين. حسناً. يجب أن أذهب. الوقت متأخر جداً. أهنئك يا كريستينا. وداعاً وداعاً، وداعاً..!.

وبينما كان يتناول قطعة من الشوكولاته من العلبة، قبّل وجنتي واندا.

ـ وداعاً يا واندا، وحافظي على رشاقتك، وداعاً يا كريستينا وأهنئك ثانية. هذا الثوب يلائمك جداً.

مد يده بلا اكتراث إلى مارتين الذي كان يقف مذهولاً، ثم أطل من فوق الحاجز الذي يفصل ما بين المشغل والجزء الخلفي حيث كانت أليخاندرا وصاح:

ـ وداعاً أيتها العزيزة الغالية.

7

كان مارتين يجلس على ذلك المقعد كأنه تمثال من حجر، ينتظر من أليخاندرا إشارة ما، أياً كانت. ما إن ذهب كيكي حتى أومأت إليه أن يتبعها إلى الغرفة الأخرى حيث كانت ترسم.

بادرته القول، كأنها تسوغ غيابها:

ـ أترى...؟. بقي أمامي عمل هائل.

تابع مارتين خطوط أليخاندرا على ورقة بيضاء، وهو يفتح مطواته البيضاء ثم يطويها. كانت ترسم بصمت، وبدا كأن الوقت يمر عبر حاجز من إسمنت.

قال مارتين وقد استجمع قواه:

ـ حسناً، إني ذاهب.

اقتربت أليخاندرا وقالت وهي تضغط على ذراعه، إنهما سيلتقيان قريباً فهز مارتين رأسه.

أكدت غاضبة:

ـ أقول لك إننا سنلتقي قريباً.

رفع مارتين رأسه وقال:

ـ تعلمين جيداً يا أليخاندرا، إنني لا أود التدخل في شؤونك، وأن حريتك.

لم يكمل الجملة، لكنه بعد ذلك أضاف:

ـ لا، أعني إنني.. على الأقل.. كنت أود رؤيتك في وقت لست فيه على عجلة من أمرك.

قالت له وكأنها تفكر:

ـ أجل، طبعاً.

تشجع مارتين فقال:

ـ لنحاول أن نعود كما كنا من قبل، أتتذكرين؟.

نظرت إليه أليخاندرا بعينين بدتا كأنهما تعبران عن كآبة هائلة.

ـ ماذا، ألا يبدو لك ذلك ممكناً؟.

قالت بعد أن انحسرت نظرتها، وبدأت تخط بعض الرسوم بالقلم:

ـ بلى يا مارتين. بلى. سوف نقضي يوماً ممتعاً. سترى.

فاسترسل مارتين متشجعاً:

ـ إن كثيراً من عدم توافقنا في الأيام الأخيرة يعود إلى انشغالك، وضيق وقتك، ومواعيدك.

كانت ملامح أليخاندرا قد بدأت تتغير عندما قالت:

ـ سأكون مشغولة جداً حتى نهاية الشهر. ولقد شرحت لك ذلك.

بذل مارتين جهداً كبيراً كي لا ينحي عليها بأي لائمة، لأنه كان يعلم أن أي عتاب سيكون أمراً غير ملائم. لكن الكلمات انبثقت من أعماق نفسه بقوة صامتة، لكنها لا تقاوم:

ـ تعذبني رؤيتك ودأبك النظر إلى الساعة في معصمك.

رفعت ناظريها وتفرّست في عينيه وقطبت حاجبيها. ففكر مارتين مذعوراً: ***ولا أي كلمة لوم أخرى.*** لكنه أضاف قائلاً:

ـ مثلما جرى يوم الثلاثاء، عندما ظننت أننا سنقضي الأمسية معاً.

كانت القسوة قد تمكنت من وجه أليخاندرا، وتوقف مارتين على حافتها كما لو أنه على شفير هاوية.

لكنها أجابت:

ـ الحقُّ معك يا مارتين.

تشجع مارتين فأضاف:

ـ لذلك أفضل أن تقولي أنت متى يمكن أن نلتقي.

فكرت أليخاندرا قليلاً ثم قالت:

ـ الجمعة. أعتقد أنني سأكون يوم الجمعة قد أنجزت الأعمال الملحة.

ثم عادت تفكر:

ـ ولكن في آخر لحظة، لا بد أن يتبقى ما هو بحاجة إلى إصلاح، أو إنجاز.. لست أدري.. لا أود أن أتركك تنتظر.. ألا يبدو لك أنه خير لنا أن ندع اللقاء حتى يوم الإثنين..؟.

الإثنين..!. بعد أسبوع تقريباً، ولكن ما عساه يفعل، سوى الاستسلام والخضوع..؟.

حاول طيلة ذلك الأسبوع الذي لا نهاية له أن ينغمس في العمل، أن يقرأ، أن يتمشى، أن يذهب إلى السينما، بحث عن برونو، ورغم توقه إلى أن يحدثه عنها، إلا أنه عجز حتى عن النطق باسمها، وبما أن برونو كان يخمّن ما يدور في نفسه. تحاشى الخوض في الموضوع أيضاً، وتحدث عن أمور أخرى ومواضيع عامة، فتشجع مارتين كذلك على قول ما كان يبدو أنه ينطوي على معنى عام، وينتمي إلى العالم المجرد، عالم الأفكار الخاصة، الذي كاد، في الواقع، يكون تعبيراً مجرداً عن كآبته وآماله، وعندما حدثه برونو عن المطلق، كان مارتين يسأل على سبيل المثال، عما إذا كان الحب الحقيقي أحد تلك المطلقات فعلاً. سؤال

كانت فيه كلمة «حب» تمت بصلة وثيقة إلى تلك التي استخدمها «كانت» أو «هيغل»، مثلها مثل صلة كلمة «كارثة» بخروج قطار عن سكته أو بحدوث هزة أرضية، وما ينجم عن ذلك من مشوهين وأموات وعويل ودماء. وكان «برونو» يجيب قائلاً إنه يعتقد أن نوع الحب الذي يوجد بين كائنين متحابين يتغير من لحظة إلى أخرى، فهو يسمو فجأة، وينحط بعد ذلك إلى درجة الابتذال، ليتحول فيما بعد إلى شعور مؤثر ومريح، ثم ينقلب بغتة إلى كراهية مأساوية، أو مدمرة.

ـ لأن ثمة حالات لا يكون فيها العاشقان متحابين، أو لا يحب أحدهما الآخر، أو يكرهه أو يزدريه.

كان يفكر في تلك العبارة التي قالتها له جانيت مرة: ***«ليس الحب سوى شخص يتألم وآخر يضيق ذرعاً»***[1]، وتذكّر، جرياً على عادته في مراقبة البائسين، ذينك الحبيبين يوماً، في الضوء الخافت في مقهى، الرجل في ركن منعزل شاحب، لم يحلق ذقنه، يتألم، يقرأ ثم يقرأ للمرة المئة رسالة، لا شك أنها رسالتها، يتخذ من الورقة السخيفة شاهداً على هات من يعلم، أي عهود أو وعود، في حين كانت هي، في اللحظات التي كان فيها يركز اهتمامه بشدة على إحدى عبارات الرسالة، تنظر إلى ساعتها وتتثاءب.

وبما أن مارتين سأله، ألا ينبغي أن يكون كل شيء بين مخلوقين متحابين نقياً وشفافاً ومبنياً على الحقيقة، أجاب برونو أنه لا يكاد لا يمكن الجهر بالحقيقة أبداً عندما يتعلق الأمر بمخلوقات بشرية، لأن الجهر بها لا يجرّ سوى الألم والحزن والخراب. وأضاف قائلاً إنه كان دائماً يشجع المشروع (قال وهو يبتسم بسخرية وخجل: لكنني لست سوى

(1) وردت العبارة في الأصل باللغة الفرنسية (المترجم).

هذا: رجل مشاريع خالصة)، لقد شجعت مشروع كتابة رواية أو مسرحية موضوعها: قصة فتى يفترض أنه يقول الحقيقة دائماً، ومهما كلف الأمر. لكنه أينما حل، لا يبذر سوى الخراب والرعب والموت. حتى ينتهي به الأمر إلى تدمير نفسه، بمقتله هو بالذات.

فقال مارتين بمرارة:

ـ إذاً. يجب أن نكذب.

ـ أقول، لا يمكن قول الحقيقة دائماً. وفي الواقع يكاد قولها يكون أمراً متعذراً.

ـ كذب مقصود؟.

أجاب برونو وهو ينظر إليه خلسة، خوفاً من أن يجرح مشاعره:

ـ شيء من هذا القبيل.

ـ وإذاً، فأنت لا تؤمن بالحقيقة.

ـ أعتقد أن الحقيقة تصح في الرياضيات، والكيمياء، والفلسفة، وليس في الحياة: ففي الحياة، يكون للوهم والخيال والرغبة والأمل أهمية أكبر. ثم، هل نعرف حقاً ما هي الحقيقة..؟. إن قلت لك إن ذلك الجزء من النافذة أزرق، أكون قد قلت حقيقة جزئية، ولذلك فهي ضرب من الكذب، لأن ذلك الجزء من النافذة ليس قائماً في ذاته، بل موجوداً في منزل، وفي مدينة، وفي منظر، وهو محاط بالرمادي ـ لون ذلك الجدار الإسمنتي ـ وبالأزرق الفاتح، لون هذه السماء، وبتلك الغيوم المنتشرة، وبأشياء أخرى لا نهاية لها. وإن لم أقل كل شيء، كل شيء تماماً، أكون قد كذبت. ولكن قول كل شيء أمر مستحيل، وحتى في مسألة النافذة هذه، في جزء بسيط من الحقيقة الفيزيائية، الحقيقة الفيزيائية البسيطة. فالحقيقة لا نهائية، وهي إلى جانب ذلك، ممشوجة على نحو لا نهاية له،

فإن أغفلت أي مشيج أكون قد كذبت. والآن، تصور ماذا يمكن أن تكون حقيقة الكائنات البشرية بكل تعقيداتها ومنعرجاتها وتناقضاتها ومتغيراتها. ففي كل لحظة تمر نتغير. وما كنّاه منذ لحظة، لن نكونه أبداً. أيكون أحدنا الشخص ذاته دائماً..؟. هل مشاعرنا هي المشاعر ذاتها دائماً..؟. يمكن أن نحب شخصاً ما، ثم نكرهه ونزدريه فجأة. فإن ارتكبنا خطأ مصارحته، لن نكون كذلك بعد ساعة، أو في اليوم التالي أو في ظروف أخرى. ثم، إن الشخص الذي صارحناه، سوف يعتقد أن تلك هي الحقيقة الأزلية الأبدية، وسيغرق في اليأس.

8

وحل يوم الإثنين.

عندما رآها مارتين مقبلة نحو المطعم قال في دخيلته، إن كلمة ***جميلة*** ليست الكلمة المناسبة، ولا كلمة ***بديعة*** كذلك، لعلنا يمكن أن نقول رائعة، بل ***فريدة*** في روعتها. حتى وهي مرتدية قميصها الأبيض البسيط، وتنورتها السوداء، وحذاءها المستوي البسيط. بساطة تبرز ملامحها المثيرة على نحو أوضح، مثلما يبرز التمثال على نحو أفضل، عندما يكون في ساحة خالية من الزخارف. كان كل شيء يبدو متألقاً في تلك الأمسية. وحتى هدوء اليوم، وسكون الريح، ودفء الشمس الذي بدا كأنه يؤجل وصول الخريف (فكر فيما بعد، أن الخريف كان ينتظر متحفزاً لكي يطلق كل ما لديه من حزن، عندما يكون هو وحيداً). كانت الأبراج تبشر بأن الظروف مواتية.

نزلا باتجاه ضفة النهر.

قاطرة تجر بضع عربات، رافعة تحمل آلة، طائرة تحلق على ارتفاع منخفض.

وقالت أليخاندرا:

ـ إنه تقدم الأمة.

جلسا على مقعد يطل على النهر.

قضيا حوالي ساعة، من دون أن يتكلما، أو من دون أن يقولا أي

شيء ذي أهمية، يفكران وسط ذلك الصمت الذي يقلق مارتين كثيراً. كانت العبارات وجيزة كالبرقيات، ولا تنطوي على أي معنى لو سمعها غريب: (هذا العصفور)، (صُفرة تلك المدخنة). (مونتيفيديو). لكنهما لم يخططا مشاريع كما في السابق. وحرص مارتين على ألاّ يذكر أي أمر يمكن أن يعكر صفو تلك الأمسية التي كان يداريها كما يداري مريضاً عزيزاً، ينبغي ألاّ يتحدث أمامه إلا بصوت خافت، وأن يجنبه أي انتكاسة.

لكن مارتين لم يتمكن من الكف عن التفكير بأن ذلك الشعور كان متناقضاً في جوهره، فإن كان يود المحافظة على سعادة الأمسية، فما ذلك إلا من أجل السعادة، من أجل ما كانت تعني، بالنسبة إليه، السعادة: أي أن يكون معها وليس مجرد أن يكون بجانبها. بل وأكثر من ذلك أيضاً: أن يكون فيها، مغروساً في كل صدع، وفي كل خلية، وفي كل خطوة، وفي كل إحساس، وفي كل خاطرة، متغلغلاً في جلدها، في جسمها وفي داخله، قريباً من ذلك اللحم المثير للشوق والإعجاب، معها وفيها: اندماج وليس مجرد قرب صامت كئيب. ولذلك فإن المحافظة على صفاء تلك الأمسية، بالكف عن الكلام، والامتناع عن محاولة التغلغل فيها، كان أمراً سهلاً وسخيفاً، كسهولة الاحتفاظ بنقاء ماء صاف، شريطة ألاّ يشرب منه من يكاد يموت من الظمأ، وكسخافته أيضاً.

قال لها:

ـ هيا بنا نذهب إلى غرفتك يا أليخاندرا.

حدجته بنظرة حادة، ثم قالت له بعد هنيهة، إنها تفضل أن يذهبا إلى السينما.

أخرج مارتين المطواة من جيبه.

ـ لا تمتعض هكذا يا مارتين، لست على ما يرام. أشعر بأنني لست على ما يرام.

قال وهو يفتح نصل المطواة:

ـ إنك متألقة.

ـ أقول لك ثانية إنني لست على ما يرام.

قال الفتى وقد خالط صوته بعض الحقد:

ـ الذنب ذنبك، أنت لا تهتمين بصحتك، رأيتك الآن تأكلين أشياء ينبغي ألا تأكليها. ثم إنك تجرعين الشراب دائماً.

ولاذ بالصمت. ثم بدأ يكشط المقعد بمطواته.

ـ لا تمتعض هكذا.

ولكن بما أنه أصرّ على أن يبقى مطرقاً، أمسكت برأسه ورفعته وقالت:

ـ تعاهدنا على أن نمضي أمسية هادئة بسلام يا مارتين.

همهم مارتين.

فاستطردت تقول:

ـ طبعاً، وتفكر الآن بأننا إن لم نقضِ أمسية سعيدة، فلن يكون ذلك بسببك أنت، أليس كذلك؟.

لم يجب مارتين: كان الكلام عبثاً.

صمتت أليخاندرا، ثم سمعها تقول بغتة:

ـ حسناً: هيا بنا نذهب إلى البيت.

لم يقل مارتين شيئاً. نهضت، وأمسكت بذراعه وسألته:

ـ ماذا دهاك الآن؟.

ـ لا شيء، تفعلين ذلك كأنه تضحية.

ـ لا تكن غبياً، هيا بنا.

أخذا يصعدان في شارع «بلغرانو». وكان مارتين قد تشجع، فقال فجأة وبشيء من الحماس تقريباً:

ـ هيا بنا نذهب إلى السينما.

ـ كفاك عبثاً.

ـ لا، لا أود أن تفوّتي مشاهدة هذا الفيلم، لقد انتظرته طويلاً.

ـ سنشاهده في يوم آخر.

ـ ألا تودين حقاً؟.

لو أنها استجابت، لانتابته كآبة سوداء لا مثيل لها.

ـ لا، لا.

شعر مارتين بأن الفرح عاد يغمر روحه، كنهر ينحدر من جبل أثناء موسم ذوبان الثلوج. مشى بعزم متأبطاً ذراع أليخاندرا. عندما اجتازا الجسر المتحرك، شاهدا سيارة أجرة تسير باتجاه النهر تقل راكباً. لوحا للسائق بيديهما مشيرين إلى أنهما ذاهبان إلى المدينة لكي يقلهما في طريق عودته، فأومأ موافقاً. كان يوماً دلت الأبراج على أنه من الأيام الملائمة. لبثا متكئين على حافة الجسر. ولاحت من بعيد، من ناحية الجنوب، وسط الضباب الذي بدأ يهبط فوق النهر، جسور «لابوكا» المتحركة.

عادت السيارة، وركبا.

كانت تعد القهوة، وبحثت في الوقت ذاته بين الأسطوانات، فعثرت على واحدة اشترتها مؤخراً: أحاول. فانساب صوت «إيلا فيتزجيرالد» يمزق الصمت، وهي تغني بالإنكليزية:

(أحاول أن أنساك، ولكن مهما حاولت
فإنك لا تزال في كل يوم،
محور كل فكرة من أفكاري).

رأى كيف توقفت أليخاندرا والكوب بيدها معلق في الهواء، تقول:

ـ ما أروعها: *(أقرع، أقرع بابك)*.

تأملها مارتين بصمت ملياً. كانت تؤرقه تلك الأشباح التي تتحرك دائماً خلف بعض عبارات أليخاندرا، وتثير فيه الحزن.

ولكن تلك الأفكار تبددت فيما بعد، كأنها أوراق في مهب العاصفة، وتعانقا ـ تذكر ـ وكأنهما كائنان يود كل منهما أن يبتلع الآخر، كلما حدث ذلك الطقس العجيب مرة، تكون أشد وحشية، وأعمق غوراً، وأدعى لليأس من سابقتها.

كانت روح مارتين تحاول، من أعماق الجسدالذي تسكنه، وفي خضم هيجان اللحم، أن تُسمع الروح الأخرى الموجودة على الجانب الآخر من الهاوية نداءها، ولكن محاولة التواصل تلك، التي تنتهي إلى صيحات يائسة تقريباً، كانت تبدأ منذ اللحظة التي تسبق الأزمة: ليس بالكلمات التي كانا يتبادلانها وحسب، بل وبالنظرات والإيماءات والمداعبات، وحتى حين ينشب كل منهما أظافره وأسنانه في لحم الآخر. وكان مارتين يحاول أن يصل، أن يحس، أن يفهم أليخاندرا، فيلامس وجهها، ويداعب شعرها ويقبل أذنيها وعنقها ونهديها وبطنها، مثل كلب يبحث عن كنز دفين، فيشم السطح المبهم، ذلك السطح المترع بدلالات غامضة لا يسبر غورها من لم يكن معداً للإحساس بها. ومثل الكلب أيضاً، عندما يشعر بغتة بأنه قريب من السر المنشود، فيبدأ بنبش الأرض بحماس وجنون محموم (فينسلخ عن

العالم الخارجي المحيط به، بهوس وجنون، يفكر ويحس بذلك السر الوحيد الهائل الذي أصبح الآن قريباً جداً منه)، كذلك كان مارتين يحتضن جسد أليخاندرا، ويحاول النفاذ إليها حتى العمق المظلم للغز الموجع: ينبش بأظافره، يعض بأسنانه، يتوغل بجنون، محاولاً أن يشعر من قرب، أكثر فأكثر، بالهمسات الخافتة للروح الخفية الغامضة، لذلك المخلوق القريب إلى حد لا يصدق، والبعيد إلى درجة لا تطاق. وبينما كان مارتين ينبش، ربما كانت أليخاندرا تجاهد من جزيرتها، وتطلق كلمات حافلة بالرموز، لا مارتين يفهما، ولا تجدي أليخاندرا نفعاً، وهي لكليهما مدعاة لليأس.

ثم، كما يحدث في معركة تخلف الساحة بعدها غاصة بالجثث، ولا تسفر عن أي فائدة، لاذا، كلاهما بالصمت.

حاول مارتين أن يقرأ ما ارتسم على محياها، لكنه لم يتمكن وسط الظلمة، من أن يتنبأ بشيء.

خرجا.

قالت أليخاندرا:

ـ ينبغي أن أتحدث بالهاتف.

ـ دخلت إلى الحانة وتحدثت.

كان مارتين عند الباب يحدق إليها قلقاً.. مع من..؟. وعمّ تتحدث يا ترى..؟.

عادت مكتئبة وقالت له:

ـ هيا بنا.

لاحظ مارتين أنها كانت شاردة، تقول له كلما حدثها عن أمر: إيه..؟. كيف؟. ودأبها النظر إلى ساعتها.

ـ ماذا ستفعلين؟.

نظرت إليه كأنها لم تفهم السؤال. وعندما كرره ثانية أجابت:

ـ ينبغي أن أكون في مكان آخر عند الساعة الثامنة.

فسألها مارتين وهو يرتعد:

ـ وهل هو بعيد؟.

فأجابت على نحو مبهم:

ـ لا.

9

رآها حزيناً كيف كانت تبتعد.

كان ذلك في أحد أيام أوائل نيسان/ أبريل، لكن تباشير الخريف بدأت تلوح مبكرة. وفكر: إنها مثل أصداء بوق تفيض بالحنين، تترامى إلى مسامعنا عبر أنغام «سمفونية»، لتنبهنا (بشيء من التردد، إنما بإلحاح لطيف متصاعد) إلى أن تلك الـ «سمفونية» قد شارفت على نهايتها، وأن أصداء ذلك البوق البعيدة، ستقترب شيئاً فشيئاً، لتصبح النغم المهيمن. كانت الأوراق الجافة، والسماء التي بدت كأنها تتهيأ لأيام أيار وحزيران/ مايو ويونيو، الطويلة المكفهرة تبشر بأن أروع فصول بيونيس آيرس يقترب بصمت. وكما لو أن السماء والأشجار بدأت بعد حدة الصيف الثقيل، تشيع تلك النفحات الحانية في الأشياء التي تتهيأ لتغط في سبات عميق.

10

افترق مارتين عن تيتو عند باب الحانة، وشرع يسير نحو الحديقة. صعد درجات المنتجع القديم، ووصلت إليه ثانية، رائحة البول الجاف النفاذة، التي كان يشمها دائماً كلما مر من هناك، ثم جلس على المقعد أمام التمثال، حيث كان يعود ليجلس كلما بدا أن ذلك الحب يجتاز أزمة. مكث زمناً طويلاً غارقاً في التأمل بمصيره، يخاف من مجرد التفكير بأن تكون أليخاندرا في تلك اللحظة مع رجل آخر. اضطجع وهجر أفكاره.

11

هتف مارتين في اليوم التالي إلى الإنسان الوحيد الذي يمكنه أن يراه عندما لا يرى أليخاندرا: إنه الجسر الوحيد نحو تلك الديار المجهولة، جسر سالك لكنه يؤدي إلى منطقة ضبابية كئيبة. وكان حياؤه ـ وحياء برونو ـ يحول دون الخوض في الحديث الوحيد الذي يهمه.

تواعدا على اللقاء في ***لاهيلفتيكا***.

ـ يتعين عليّ أن ألتقي الأب «رينالديني»، ولكن سنذهب معاً.

أخبره أنه كان مريضاً جداً، وأنه التمس من المطران «خنتيلي» أن يرى ما إذا كانوا سيسمحون له بالعودة إلى مدينة «لاريوخا». لكن الأساقفة كانوا يكرهونه، ومن الإنصاف أن نقول، إن «رينالديني» بذل كل ما في وسعه لمعالجة ذلك الأمر.

ـ يوماً ما، عندما يموت، سيتحدثون عنه كثيراً. إن حاله يشبه حال «غالي ماينيني» تماماً. ففي بلد الحاقدين هذا يصبح المرء عظيماً حين يتخلى عن أن يكون كذلك.

سارا في شارع «بيرو». ضغط برونو على ذراعه وأشار إلى رجل كان يمشي أمامهما يتوكأ على عكاز، وقال:

ـ بورخس.

عندما أصبحا قربه، حيّاه برونو، ووجد مارتين نفسه أمام يد صغيرة، بلا عظام، وبلا حيوية تقريباً. أما وجهه فبدا كأنه رُسِمَ، ثم مُحِيَ قليلاً فيما بعد بممحاة. تتم:

ـ إنه صديق «أليخاندرا فيدال أولموس».

ـ عجب. عجب أليخاندرا.. ولكن حسناً جداً.

ـ رفع حاجبيه، وتأمله ملياً بعينين زرقاوين زرقة الماء، وبنظرة شاردة تنطوي على ود مجرد، ليس موجهاً إلى شخص معين.

سأله برونو ماذا كان يكتب:

فتمتم قائلاً:

ـ حسناً.. عجباً.

وابتسم ابتسامة نمّت عن مسحة تمازج فيها الإثم والخبث، تلك المسحة التي اعتاد المواطنون الأرجنتينيون أن يفتعلوها ـ بتواضع مثير للسخرية، ومزيج من غطرسة خفية وصغار ظاهر ـ كلما أطرى أحد فيهم ناحية، أو مدح مهارتهم في شيء.

وأضاف:

ـ حسناً.. وعجباً، إنني أحاول أن أكتب صفحة ما، تكون أكثر من مجرد مسودة إيه، إيه..؟.

ثم تمتم، وهو يغمز بسلسلة من الإيماءات الدعابية.

وبينما كانا في طريقهما إلى منزل «رينالديني» كان برونو يتخيل «مندس» يقول ساخراً: ***يا له من محاضر على سيدات الأولغارشية..!.*** ولكن الأمور كانت أكثر تعقيداً مما تصور «مندس». قال:

ـ إن نوعية الأدب الروائي وأهميته في هذا البلد أمر غريب حقاً. ما

السبب في ذلك يا ترى؟.

وسأله مارتين بخجل، ألا يمكن أن يكون ذلك ـ نتيجة واقعنا السيئ ـ ضرباً من الهروب.

ـ لا، واقع أمريكا الشمالية سيئ أيضاً. لا بد من وجود تفسير آخر. أما رأي مندس في بورخس.

ابتسم.

قال مارتين:

ـ يقولون إن انتماءه إلى الأرجنتين مزعزع.

ـ ماذا يمكن أن يكون، إن لم يكن أرجنتينياً..؟. إنه نتاج وطني تقليدي، حتى أوروبيته أوربية أرجنتينية، الأوروبي لا يتفرنج: إنه، بكل بساطة، أوروبي وحسب.

ـ أتعتقد إنه كاتب عظيم؟.

لاذ برونو بالتفكير ثم قال:

ـ لست أدري. ما أنا متأكد منه هو أن نثره يعتبر من أبرز ما يكتب بالإسبانية في هذه الأيام. ولكنه مبالغ في التزويق، بما لا يرقى به إلى مصاف كبار الكتاب. هل تتصور أن يهتم تولستوي بمحاولة تزويق جملته، بظرف أو صفة، عندما تكون حياة إحدى شخصياته على كف عفريت؟. ولكن، ليس كل ما فيه بيزنطي، لا تظنن ذلك. ففي أفضل أعماله نفحة أرجنتينية بحت: مسحة من حنين، ومن حزن غيبي.

مشى قليلاً وهو صامت. ثم قال:

ـ يقولون، في الواقع، ترهات كثيرة حول ما يجب أن يكون عليه

الأدب الأرجنتيني. ولكن الأمر الذي يكتسب أهمية، أن يكون أدباً عميقاً، وكل ما عدا ذلك ليس سوى إضافات، إن لم يكن عميقاً، فلا جدوى من وضع «غاوتشو»[1] أو عرّاب في المشهد. كان شكسبير خير من مثل إنكلترا في عصر الملكة إليزابيث مع أن مسرح الكثير من أعماله لم يكن إنكلترا.

ثم أضاف:

ـ.. أشد ما يضحكني أن يستنكر «مندس» التأثير الأوروبي في كتابنا. وما الأساس الذي يستند إليه؟. هذا هو الأمر المضحك حقاً: عقيدة فلسفية وضعها اليهودي «ماركس» والألماني «أنجلز» واليوناني «هرقليس». ولو أننا اتبعنا أولئك النقاد، لكان يتعين أن تكون الكتابة عن صيد النعام في لغة هنود الـ «كيراندي»، وكل ما عداها سيكون دخيلاً ومعادياً للوطن. إن مصدر ثقافتنا من هناك، فكيف يمكن التغاضي عن ذلك..؟. ولماذا نتغاضى..؟. لا أتذكر من قال إنه لا يقرأ لكي لا يفقد أصالته. أترى..؟. من ولد ليقول أو يفعل أشياء أصيلة لن تفقده قراءة الكتب أصالته. وإن لم يولد من أجل ذلك، فلن تفقده قراءة الكتب شيئاً.. ثم، إن هذا شيء جديد، إننا في قارة مختلفة وقوية، وكل شيء يتطور على نحو مختلف. (فولكنر) قرأ أيضاً جويس وهكسلي ودستويفسكي وبروست. ماذا يريدون، أصالة كاملة ومطلقة..؟. إنها ليست موجودة. لا في الفن، ولا في أي

(1) الـ «غاوتشو»: هم سكان سهول منطقة «لابامبا» الواقعة في حوض النهر الفضي (ريودي لابلاتا) في الأرجنتين والأرغواي وجنوب البرازيل. وهم فرسان متحدرون غالباً من أصول إسبانية ـ هندية، وكرسوا حياتهم لتربية المواشي. (المترجم).

شيء آخر. فكل شيء يُشاد على ما سبقه. لا يوجد نقاء خالص في كل ما هو إنساني. الآلهة اليونانية أيضاً، كانت هجينة، ومصابة بعدوى ديانات شرقية ومصرية، (إن صح التعبير). يوجد مقطع في «طاحونة الجدول» تقوم فيه امرأة بتجربة قبعة أمام مرآة: إنه «بروست»، أعني بذرة «بروست»، وما سوى ذلك كله تطوير، تطوير إبداعي يكاد يكون سرطانياً، لكنه في نهاية المطاف تطوير. وكذلك الأمر في إحدى قصص «ملفيل»، أعتقد أنها (بيرتلباي) أو(بارتلباي) أو شيء من هذا القبيل. عندما قرأتها أثارت فيّ جواً من أجواء «كافكا»، والأمر كذلك في كل شيء. فنحن مثلاً، أرجنتينيون حتى عندما نتنكر للبلد، كما يفعل «بورخيس» أحياناً، وخاصة عندما ينطوي الجحود على ثورة غضب حقيقي، كما هو حال «أونامونو» مع أسبانيا، وكما هو حال أولئك الملحدين العنيفين، فإن لجوءهم إلى وضع القنابل في الكنائس، ليس سوى إحدى طرق الإيمان بالله. الملحدون الحقيقيون لا مبالون، ومستهترون. أما الذي يمكن أن نطلق عليه الكفر بالوطن فينطبق على الذين يعتبرون كل الأرض وطناً لهم. أولئك الأشخاص الذين يعيشون هنا، مثلما يمكن أن يعيشوا في باريس أو لندن. يعيشون في بلد ما، وكأنهم يعيشون في فندق، ولكن، لنكن منصفين: «بورخس» ليس من هؤلاء، أعتقد أنه يتألم على نحو ما غيرةً على البلد، حتى وإن لم تتوفر لديه الحساسية أو السماحة التي يمكن أن يرقى إليها ألم أجير حقل أو عامل مسلخ، غيرةً على وطنه. وهذا يدلل على افتقاره إلى العظمة، وعلى عجزه عن فهم كُلّية الوطن والإحساس بها، حتى في تعقيداتها الملوثة. عندما نقرأ ديكنز أو فولكنر أو تولستوي نشعر بذلك الفهم الكلي للنفس البشرية.

ـ و«غويرالدس»[1]؟.

ـ من أي ناحية؟.

ـ أعني التفرنج.

ـ حسناً. نعم. يبدو ـ على نحو ما، ولأول وهلة ـ كأن كاتب «دون سيجوندو سومبرا» فرنسي عاش في منطقة لابامبا في الأرجنتين. ولكن لاحظ يا مارتين أنني قلت «على نحو ما» و«لأول وهلة».. ما يعني أن كاتب تلك الرواية لا يمكن أن يكون فرنسياً. أعتقد أنه أرجنتيني في جوهره على الرغم من أن رجال الـ «غاوتشو» في أعمال «لينش»[2] أكثر أصالة من رجال الـ «غاوتشو» عند «غويرالدس». «دون سجوندو» ابن بلد أسطوري، وهو بهذه الصفة ليس سوى خرافة، والدليل على أنه خرافة أصيلة، رسوخ جذوره في روح شعبنا. بالإضافة إلى أن «غويرالدس» أرجنتيني بقلقه الغيبي. وتلك صفة أرجنتينية مميزة: سواء أكانت في «إرناندس»[3] أم في «كيروغا»[4] أم في «روبروتو أرلت»[5].

ـ روبرتوأرلت..؟.

(1) ريكادو غويرالدس: (1886 ـ 1927) أديب وشاعر أرجنتيني احتل مكانة رفيعة بعد روايته الشهيرة «دون سيجوندو سومبرا».(المترجم).

(2) بنيتو لينش: (1885 ـ 1952) روائي أرجنتيني اتسمت أعماله بالدرامية والنزعات الإنسانية لدى سكان سهول لاباميا. (المترجم).

(3) خوسيه إرناندس: (1883 ـ 1886) أشهر شعراء الـ «غاوتشو» قاطبة. أهّله ديوانه «مارتين فييرو» الذي يروي حكاية الـ «غاوتشو» المنتزع من حياته وبيئته، لأن يحتل المكانة الأولى في الأرجنتين. (المترجم).

(4) كارلوس ب. كيروغا: كاتب وروائي أرجنتيني اهتم بإبراز دور الطبيعة الجمالي في الأدب. (المترجم).

(5) روبروتو أرلت (1900 ـ 1942) روائي أرجنتيني أبدع مبكراً، له عدة روايات وقصص قصيرة أشهرها «المجانين السبعة». (المترجم).

- ينبغي ألاّ ترتاب في ذلك أبداً. كثير من الأغبياء، يعتقدون أن أهميته تعود إلى تلوينيته المبالغ فيها. لا يا مارتين، كل ما فيه من تلوينية عيب تقريباً. بيد أنه كبيرٌ *على الرغم* من ذلك. إنه كبير بما انطوت عليه، من توتر غيبي وديني هائل، مناجاة «أردوساين»[1]. *«المجانين السبعة»* موبوءة بالعيوب، لا أقول عيوب الأسلوب وقواعد اللغة، فهي ليست ذات أهمية، بل أقول إنها مملوءة بالأدب الركيك جداً، وبشخصيات مفتعلة وتفتقر إلى الأصالة، كشخصية المنجم. ولكنه كبير رغم ذلك كله.

ابتسم وقال:

- إنما.. مصير الفنانين الكبار محزن جداً.. ما يُعجب الناس به هو ضعفهم وعيوبهم عموماً.

فتح الباب «رينالديني» ذاته.

كان رجلاً فارع الطول، أشيب الشعر معقوف الأنف، عابس الوجه، توحي ملامحه بمجموعة متشابكة من الصفات، كالطيبة، والسخرية، والذكاء، والتواضع، والكبرياء.

كانت الشقة وضيعة جداً، ومملوءة بالكتب. عندما وصلا، كانت بقايا من خبز وجبن بجانب الأوراق والآلة الطابعة، حاول «رينالديني» بحياء، أن يزيلها خلسة.

قال وهو يبحث عن زجاجة.

- كل ما يمكنني تقديمه هو كأس من نبيذ «كافاياتي».

فقال برونو:

- رأينا بورخس في الشارع الآن.

(1) أردوساين: بطل رواية أرلت المذكورة (المجانين السبعة).(المترجم).

وبينما كان «رينالديني» يضع الأقداح أمامهما، ابتسم. فقال برونو عندئذ لمارتين إن «رينالديني» كتب أشياء بالغة الأهمية عن بورخس.

فقال:

ـ حسناً، ولكن مرّ كثير من المياه تحت الجسر.

ـ ماذا، هل تغير موقفك..؟.

أجاب بإيماءة غامضة:

ـ لا. ولكن، لعلي الآن أقول أشياء أخرى. كلما مضى يوم أضيق ذرعاً بحكاياه أكثر من ذي قبل.

ـ ولكن شعره كان يعجبك جداً أيها الأب.

ـ حسناً، نعم، بعضه. ولكن، فيه كثير من الحشو.

قال برونو إن أشعاره التي تذكّر بالطفولة تهز مشاعره، وكذلك تلك التي تذكّر بـ «بوينس أيرس» والأيام الخوالي، وأفنية الدور القديمة، ومرور الزمن.

أجاب رينالديني:

ـ نعم. بيد أن ما لا طاقة لي على احتماله عبثه الفلسفي، وإن كنت أوثر أن أقول، الفلسفي المزعوم. إنه كاتب ذكي، متحذلق، أو كما يقول الإنكليز، سفسطائي.

ـ إلا أن إحدى الصحف الفرنسية تتحدث أيها الأب عن عمق بورخس الفلسفي.

قدّم «رينالديني» لضيفه لفافة، بينما افتر ثغره عن ابتسامة شيطانية.

ـ ما قولك..؟.

أشعل اللفافة وقال:

ـ انظر، خذ أياً من تلك المسليات. ولتكن «مكتبة بابل» على سبيل

المثال. هنا يلجأ إلى السفسطة في مفهوم اللامتناهي، الذي يخلط بينه وبين مفهوم غير المحدود. ومنذ خمسة وعشرين قرناً يقوم التمييز بينهما على نحو أساسي عند تناول أي مفهوم منهما. وطبيعي أن ***(اللامعقول يقود إلى نتيجة أخرى)***[1]. ومن هذا الخلط الصبياني يتوصل إلى عالم غير مفهوم، وذلك ليس سوى ضرب من الهرطقة. إن أي تلميذ يعرف - وحتى إنني أجرؤ على أن أتوقع، (كما يقول بورخس) - إن تحقيق كل الممكنات في آن واحد أمر غير ممكن. يمكن أن أكون واقفاً ويمكن أن أكون جالساً، إنما لا يمكن أن أكون جالساً وواقفاً في آن واحد.

- وحكايته عن يهوذا؟.

قال لي كاهن إيرلندي مرة: بورخس كاتب إنكليزي يجدف في الضواحي.. وكان يجب أن يضيف: ضواحي بوينس أيرس وضواحي الفلسفة. والتعليل اللاهوتي الذي يقدمه السيد (بورخس - سورنسن) أو هذا النوع من القنطورس[2] (الإسكندنافي - الأرجنتيني) لا يكاد يحوز من العقلانية حتى مظهرها. إنها لاهوتية مرسومة رسماً. وأنا أيضاً لو كنت رساماً من المدرسة التجريدية، أستطيع أن أرسم دجاجة بدءاً من مثلث وبعض النقاط. ولكن لا يمكن استخراج مرق الدجاج من ذلك كله. وإنني الآن أتساءل: هل هذا اللعب في أعمال بورخس مقصود، أم عفوي؟. أود أن أقول: هل هو سفسطائي أم رفيع الثقافة؟. إن قضية ذلك الهزء أمر لا يطاق، مهما كان حظ صاحبه من الاحترام، حتى وإن قيل إنه ليس سوى ضرب من الأدب المحض.

(1) وردت العبارة في الأصل باللغة اللاتينية (المترجم).

(2) القنطورس: كائن خرافي نصفه رجل ونصفه الآخر فرس، كان يعيش في تساليا. حسب الأسطورة اليونانية. (المترجم).

ـ إنه عند بورخس أدب محض. هو نفسه يقول ذلك.

ـ هذا أسوأ.

تملكه الغضب:

ـ هذه الأوهام الأريحية عن يهوذا تدل على نزوع إلى الاستكانة والجبن. يحجم أمام الأمور العليا، أمام الخير وأمام الشر الرفيع، وهكذا فإن الكذاب اليوم ليس كذاباً: إنه سياسي، وهي إذن محاولة لإنقاذ الشيطان بلباقة. فليس الشيطان شريراً كما يصورونه..!. دعنا من هذا..!.

نظر إليهما كأنما يسأل رأياً:

ـ إنه في الواقع نقيض ذلك: فالشيطان أشرّ مما يصوره أولئك الناس. إنهم ليسوا فلاسفة رديئين، بل إنهم أسوأ من ذلك، إنهم كتاب رديئون أيضاً. لأنهم لا يدركون حتى تلك الحقيقة النفسانية الكبرى التي رآها أرسطو. ذلك ما أطلق عليه ادغار بيو ***(عفريت الضلال)***. لقد رآها كبار كتاب القرن الماضي بوضوح أيضاً، بدءاً من «بليك» وحتى «دستويفسكي». إنما طبعاً.

توقف عن إتمام العبارة. نظر لحظات عبر النافذة ثم خلص إلى القول بابتسامته الخفية:

ـ فيهوذا إذاً يتجول طليقاً في الأرجنتين.. شفيع وزراء المال، لقد حصل على المال، من حيث لم يخطر ببال أحد الحصول عليه. إلا أنه ـ يا للقلب المسكين ـ لم يكن يهوذا يحلم بالحكم. ويبدو أنه الآن في بلادنا، في سبيله إلى الحصول على مواقع في الحكومة. أو أنه حصل عليها فعلاً. حسناً إن يهوذا ـ سواء بالحكومة أو من دونها ـ ينتهي دائماً إلى الانتحار شنقاً.

حدثه برونو بعد ذلك عن مساعيه مع المطران خنتيلي فأومأ رينالديني بيده وهو يبتسم باستسلام واستهزاء:

ـ لا تغضب يا «باسان» فالأساقفة لن يدعوني.. أما ذلك المطران خنتيلي الذي تربطك به ـ لسوء الحظ ـ رابطة قربى، فالأجدر به أن يقوم بتلاوة الإنجيل ما بين حين وآخر، بدلاً من ممارسة الألاعيب السياسية الكهنوتية.

ذهبا.

وفكر مارتين. إنه باق هناك، وحيداً بائساً بجبته الرثة.

12

طال غياب اليخاندرا، في حين لجأ مارتين إلى عمله وصحبة برونو. كانت أيام كآبة متروّية: لم تكن قد حلت أيام الكآبة العاصفة المريعة بعد. يبدو أن تلك الكآبة كانت الروح الملائمة آنذاك لخريف بوينس أيرس، الذي لم يكن خريف أوراق جافة وأجواء رمادية وأمطار وحسب، بل خريف فوضى واستياء ضبابي أيضاً.

وبرونو أيضاً، الذي كان مارتين يتشبث به، ويتأمله بشوق وتساؤل، يبدو أن الشك كان يسوِّس في نفسه، دأبه السؤال عن معنى الوجود بعامة، وعن وجود تلك المنطقة المظلمة من العالم وعدم وجودها، تلك المنطقة التي يعيشون فيها جميعاً ويتألمون: هو ومارتين وأليخاندرا وملايين السكان الذين يروحون ويجيئون في بيونس أيرس، كأنهم في فوضى من أمرهم، لا يعرف أحد منهم أين الحقيقة، ولا يؤمن أحد بشيء على وجه اليقين. الشيوخ من أمثال «دون بانشو» يعيشون في حلم الماضي، والمغامرون يجمعون ثروة، ولا يهمهم شيء ولا يهتمون بأحد، والطلاب يناضلون ضد «بيرون» ويتحالفون «عملياً» مع منافقين وانتهازيين ممن يدَّعون الدفاع عن الحرية، والمهاجرون الشيوخ (هم أيضاً) يحلمون بواقع آخر، واقع وهمي بعيد، مثل العجوز «داركانخيلو» الذي يتطلع إلى تلك الأرض النائية ويتمتم:

(وداعاً يا أبي وأمي

وداعاً يا أخي وأختي)[1].

كلمات ربما رددها مهاجر شاعر كان بجانب العجوز في تلك اللحظة التي ابتعد فيها المركب عن شواطئ «رخيو» أو «باولا»، حين كان أولئك الرجال والنساء يحملقون إلى تلك الجبال التي كانت في ما مضى، بلاد الإغريق العظيمة، ينظرون، ليس بعيون الجسم (المتعبة الواهنة، العاجزة) وحسب، إنما بعيون أرواحهم التي لا تزال ترى تلك الجبال المكسوة بأشجار الكستناء، عبر البحار وعبر السنين: عيون ثابتة حمقاء، لا يروضها البؤس ولا صروف الزمان، ولا البعد ولا الشيخوخة، عيون، كان العجوز «داركانخيلو» يرى فيها قريته البعيدة «كالابريا» (وهو جالس في عربته البالية الخضراء، مزركشاً على نحو يثير السخرية، كأنه تجسيد هزلي للزمن والإحباط، ثابت الجأش، ووديعاً إنما بجنون) في حين كان ابنه«تيتو» يتأمله بعينيه الساخرتين وهو يشرب «الماتي» ويفكر *(آه يا للعاهرة لو أنني ميسون)*، وإذاً (فكر مارتين وهو ينظر إلى تيتو الذي يتأمل والده)، ما هي الأرجنتين..؟. أسئلة، كثيراً ما كان برونو يجيبه عنها قائلاً، ليست الأرجنتين روساس ولافاجي والـ غاوتشو ولابامبا وحسب، إنها أيضاً، ويا للفاجعة..!. العجوز داركانخيلو بعربته الخضراء، ونظرته التجريدية، وابنه هومبرتو خ. داركانخيلو، بما فطر عليه من ريبيّة ورقة، وحقد اجتماعي، وسخاء لا ينضب، وعاطفية بسيطة وذكاء تحليلي، ويأس مزمن، وتوق وترقب دائم لشيء ما. كان برونو يقول: نحن الأرجنتينيين متشائمون، لأن لدينا احتياطياً كبيراً من الآمال والأوهام، فلكي يكون المرء متشائماً، ينبغي أن يكون قد ترقب شيئاً ما. إن هذا ليس شعباً لا مبالياً، وإن كان

(1) في الأصل، باللغة الإيطالية (المترجم).

غاصّاً باللامبالين والمرفهين. إنه شعب من المعذبين. فاللامبالي يرضى بالجميع ولا يهمه أحد. والأرجنتيني يهتم بكل شيء، إنه يغضب من أي شيء، ويتألم، ويحتج، ويحقد. الأرجنتيني يتذمر من كل شيء حتى من نفسه. إنه حقود، تزخر نفسه بالضغينة، إنه مأساوي وعنيف.

نعم ـ قال برونو كأنه يحدث نفسه ـ نعم، حنين العجوز «داركانخيلو».. ولكن كل شيء هنا مثيرٌ للحنين، ولا بد أن قليلاً من البلدان في العالم تراكمت فيها هذه العاطفة مثلما تراكمت هنا: لدى الإسبان الأوائل، لأنهم كانوا يحنون إلى بلادهم النائية. ثم لدى الهنود الحمر لأنهم كانوا يحنون إلى حريتهم المفقودة، معنى وجودهم ذاته. ومن ثم، لدى الـ «غاوتشو» ممن رحّلتهم الحضارة الإنكليزية، فعاشوا لاجئين في أرضهم، يتذكرون العصر الذهبي لاستقلالهم البدائي في تجمعاتهم القروية البطركية القديمة، لأنهم كانوا، مثل «دون بانشو» يشعرون بأن الأيام الرائعة الطافحة بالسخاء والأنس أصبحت مملوءة بالشح والنفاق. وأخيراً، لدى المهاجرين، لأنهم يتوقون إلى مواطنهم القديمة، وإلى عاداتهم السالفة وإلى أساطيرهم واحتفالاتهم بالميلاد قرب المواقد. وكيف لن نفهم العجوز «داركانخيلو»..؟. إننا، كلما اقتربنا من الموت نقترب من الأرض أيضاً، ليس الأرض بمعناها العام بل تلك البقعة، تلك البقعة الصغيرة (ولكن، عجباً، كم نحبها وكم نتوق إليها..!.) بقعة من أرض شهدت مراتع طفولتنا، وربوع ملاعبنا، وسحرنا، السحر الذي لا يُسترد، لطفولة لا تُسترد أيضاً. فنتذكر شجرة ما، أو محيا صديق ما، أشياء من هذا القبيل، ليست كبيرة، بل صغيرة، أشياء متواضعة جداً، لكنها في تلك اللحظة التي تسبق الموت، تكتسي حجماً لا يخطر ببال، وبخاصة، عندما لا يستطيع المرء الذي يدركه الموت في بلد المهاجرين هذا، أن يحتمي إلا بذكرى ناقصة

شفافة حزينة مجردة، لتلك الشجرة أو ذلك الجدول، حيث مراتع الطفولة التي لا تفصلها عنا هاوية الزمن السحيق وحسب، بل المحيطات الشاسعة أيضاً. ولذلك فإنه يتاح لنا هنا، أن نرى الكثيرين من الشيوخ أمثال «داركانخيلو»، ممن لا يكادون يتكلمون، ونخال أنهم، طيلة الوقت، إلى البعيد ينظرون، في حين أنهم في واقع الأمر، ينظرون إلى دخيلتهم، إلى أعمق ما في ذاكرتهم، لأن الذاكرة هي التي تتصدى للزمن وتقاوم قواه التدميرية، وهي أشبه ما تكون بالشكل الذي يمكن للخلود أن يتخذه في هذه المسيرة التي لا تتوقف، وعلى الرغم من أننا (وعينا، ومشاعرنا، وخبرتنا القاسية) نتغير بمرور الأعوام، وتتحول بشرتنا وغضوننا أيضاً إلى برهان وشاهد على هذه المسيرة، إلا أن شيئاً ما فينا، في أعماقنا، في زوايا يخيم عليها الظلام المطبق، يتشبث وينشب أظافره وأسنانه، في الطفولة وفي الماضي، وفي الجذور وفي الأرض، في التقاليد وفي الأحلام، وكأنه يتصدى لتلك المسيرة المأساوية: إنه الذاكرة، ذاكرتنا نحن العجيبة المبهمة، ما نحن عليه، وما كُنّاه. ومن دونها (قال برونو لنفسه: ويا لهول ما يجب أن نكون من دونها..!.) فإن أولئك الذين فقدوها بعد انفجار هائل مدمر أصاب تلك الزوايا العميقة مثلاً، ليسوا سوى أوراق رخوة هشة ضعيفة تذروها رياح الزمن العاتية التي لا معنى لها.

13

حتى حدث في إحدى الأمسيات أمر مذهل: بينما كان ينتظر الحافلة عند تقاطع شارعي «لياندرو أليم» و«كانغاجو» رأى، أثناء توقف حركة المرور، أليخاندرا مع ذلك الرجل في سيارة «كاديلاك سبور».

ورأياه، هما أيضاً، وامتقع وجه أليخاندرا.

دعاه «بوردينابي» إلى الصعود، وانزاحت هي إلى وسط المقعد.

ـ وجدت صديقتك تنتظر الحافلة أيضاً، يا للمصادفة..!. إلى أين أنت ذاهب؟.

قال له مارتين إنه ذاهب إلى غرفته في حي «لابوكا».

ـ حسناً، إذاً ستنزل أنت أولاً.

ـ وتساءل مارتين في دخيلته كأنه في دوامة، لماذا؟. إن تلك الـ «أولاً» عبارة تثير تساؤلات كئيبة.

وقالت أليخاندرا:

ـ لا، سأنزل أنا أولاً، هناك، في شارع «دي مايو».

نظر إليها «بوردينابي» مندهشاً، أو هكذا بدا لمارتين، على الأقل، عندما فكر فيما بعد في الأمر ملياً، فقد لاحظ أن دهشة «بوردينابي» تثير الدهشة أيضاً.

عندما نزلت أليخاندرا، سألها مارتين إن كانت تود أن يرافقها فقالت، إنها على عجلة من أمرها ويستحسن أن يلتقيا في وقت آخر، ولكنها

عندما همت بالانصراف ترددت، ثم استدارت وقالت له إنها سوف تنتظره في الـ ***«جوكي كلوب»*** عند الساعة السادسة من عصر اليوم التالي.

كان بوردينابي صامتاً متجهم الوجه طيلة ما تبقى من الرحلة إلى حي «لابوكا»، في حين كان مارتين يحاول تحليل ما ينطوي عليه ذلك اللقاء الغريب. نعم، يمكن أن يكون ذلك الرجل قد التقى أليخاندرا مصادفة. أولم تلتق به هي مصادفة أيضاً..؟. كما أنه ليس أمراً غريباً كذلك، أن يكون قد دعاها إلى الركوب عندما رآها تسير في الشارع، فذلك ينسجم مع سلوكه الماجن، ليس في كل هذا أي غرابة، ولكن الأمر الغريب حقاً أن تقبل أليخاندرا بذلك، ثم، لماذا فوجئ «بوردينابي» عندما قالت إنها سوف تنزل في شارع «دي مايو»..؟. فرد فعله هذا، يمكن أن يدل على أن لقاءهما كان مدبراً وليس عارضاً، وأنها قررت أن تنزل قبله لكي تثبت لمارتين أن ما بينها وبين هذا الرجل لم يكن يتعدى ذلك اللقاء العابر، ولا بد أن يكون قرارها هذا قد فاجأ «بوردينابي» فلم يتمكن من تلافي تلك الحركة ذات المغزى.

شعر مارتين بأن شيئاً ما في روحه قد انهار، ولكنه حاول ألا يستسلم لليأس، وثابر بإشراق عنيد على تحليل ما حدث. ولذلك، فكر بشيء من الحماس أنه يمكن أن يعزو دهشة بوردينابي إلى سبب آخر: كأن تكون قد قالت له عندما ركبت السيارة إنها ذاهبة إلى بيتها في «بارّاكاس» (ويدلل على ذلك فعلاً، أنهما كانا ذاهبين نحو الجنوب عبر شارع «لياندرو أليم»)، ولكنها تلافياً لما يمكن أن تثيره من شكوك في نفس مارتين ـ لو بقيت مع بوردينابي بعد نزوله في لابوكا ـ قررت أن تنزل في شارع دي مايو وقرارها المفاجئ والمتناقض هذا استرعى انتباه بوردينابي. كل ذلك ممكن. ولكن لماذا تجهم وامتعض هذا الرجل..؟. حسناً. لأنه

كان، بلا شك، قد وطد العزم على مغازلة أليخاندرا ما إن تتاح له فرصة الانفراد بها، وقد أحبط ذلك القرار خطته. إلا أنه ما زال هناك داع للشك: لماذا رفضت أليخاندرا صحبة مارتين..؟. أليس لأنها كانت ستلتقي بوردينابي فيما بعد، في المكان الذي كانا سيذهبان إليه..؟.. ولكن، ثمة أمر يبعث الاطمئنان في النفس: هل كان بوسع أليخاندرا أن تلتقي بوردينابي إلا مصادفة؟. فهي لم تكن تعرفه، وتجهل مكان إقامته، أما هو فإنه لم يكن يعرف حتى اسم أليخاندرا.

ومع ذلك، فإن إحساساً منغصاً كان يحمله مراراً على التفكير في تلك المقابلة التي كانت تبدو لأول وهلة تافهة، ولكنها اكتسبت الآن، في ضوء هذا اللقاء الجديد أهمية بالغة. وبعد سنوات من موت أليخاندرا، تأكد له ما كاد يكون، في ذلك الوقت، بدء مكيدة مدبرة:.. إن بوردينابي لعب دوراً في اندفاع أليخاندرا لترتب له لقاء موليناري، بعد ذلك الاجتماع في فندق «لابلاسا». إن الأحداث التي أدت إلى انتحارها، والحديث الأخير مع بوردينابي، سيكشفان له في يوم من الأيام، الدور الذي اضطلع به ذلك الرجل في المأساة. وبعد سنوات عندما كان يتحدث مع برونو، لم يكن بوسعه سوى أن يهزأ بأسى، من كونه هو، مارتين، الإنسان الذي وضعه القدر في طريق أليخاندرا. وكان يتذكر أكثر فأكثر، بدقة تصل إلى حد الجنون، تفاصيل ذلك اللقاء الأول في فندق لابلاسا، ذلك اللقاء المبتذل، الذي كان سيضيع في خضم الأحداث التافهة نهائياً، لو لم تسلط الوقائع الأخيرة على ذلك المخطوط الغريب المنسي، ضوءاً مخيفاً وغير متوقع.

بيد أن مارتين لم يتمكن في ذلك الحين من التوصل إلى إدراك تلك الملابسات. كان يعود إلى التفكير في تلك المقابلة في فندق لابلاسا. ويتذكر أن بريقاً عابراً التمع في عيني أليخاندرا في اللحظة التي قدمها

إلى ذلك الرجل. بريقاً سبق التصلب الطارئ على موقفها. وإن كان من الجائز أيضاً (كما فكر برونو) أن ذلك الأمر الجزئي، كان ذكرى زائفة وجزئية لاحظه مارتين بفضل تلك الصحوة في تذكر الماضي، التي تضفيها المصائب، أو نظن أنها تضفيها عندما يقول أحدنا: (أتذكر الآن أنني سمعت ضجة مريبة)، في حين أن تلك الضجة ليست في الواقع، سوى أمر جزئي يضيفه الخيال إلى الوقائع الحقيقية والبسيطة التي تبقى في الذاكرة، وذلك أحد الأشكال التي يؤثر فيها الحاضر في الماضي عادة، فيعد له، أو يغنيه، أو يشوهه، بدلالات تحذيرية أولية.

حاول مارتين أن يتذكر ما قاله بوردينابي في ذلك اللقاء كلمة فكلمة. ولكن لم يكن هناك ما يعتد به، بالنسبة إلى مشكلته على الأقل. فقد قال، إن أولئك الطليان ـ وأشار إلى الرجلين اللذين كانا يجلسان هناك بإيماءةٍ من وجهه تنطوي على معنى الاستهزاء: كلهم سواء، كلهم مهندسون ومحامون وأناس مرموقون، ولكنهم ليسوا في واقع الأمر سوى حفنة من الأوغاد.

وتذكر مارتين أن أليخاندرا امتعضت في ذلك الحين فجأة، وأخذت ترسم ـ من دون أن تنظر نحوه ـ خطوطاً متشابكة على منديل من الورق. تابع بوردينابي حديثه قائلاً: إن أول كلمة يتفوهون بها هي كلمة (فساد)[1]. ويتعين على المرء، أن يذكرهم أن أولئك التعساء الذين بعثوا بهم لمحاربة الإنكليز في أفريقيا، كانت دباباتهم تفكك وتتعطل وهي في طريقها إليهم. بقيت المسألة مجمدة لدى هؤلاء، لم يكونوا يضربون على الوتر الحساس: يدفعون مالاً لمن يتعين عليهم ألا يدفعوا له، ويمنعونه عمن يجب أن يعطوه. ولكن يا للعنة، فإن الأمر

(1) وردت العبارة في الأصل باللغة الإيطالية (المترجم).

كان كما تصوره هو. بعض ضروب انتقام يقوم بها أحدهم، يا لهم من شياطين. ماذا أتى الأشراف يفعلون هنا..؟. ثم تساءل، لماذا دخلوا في اللعبة إن كانوا على هذه الدرجة من الحساسية؟. فالمرتشي قذر، مثله مثل الراشي. كان مارتين ينظر إليه مأخوذاً. وعندما عاد بعد موت أليخاندرا يتفحص من جديد كل فصل من تلك الفصول التي شهدتها استخلص أن بوردينابي كان ـ بلا شك ـ يتحدث آنذاك، إلى أليخاندرا، الأمر الذي أذهل مارتين. إذ لم يكن بوسعه أن يفهم، كيف يمكن لذلك الرجل أن يحاول استمالتها برواية مثل تلك الأمور، ثم تابع يتحدث عن السياسيين: فاسدون كلهم. لم يكن يعني البيرونيين بالطبع: كان يتحدث عن الجميع، تحدث بصورة عامة، عن أعضاء المجلس البلدي الـ 36، عن «قضية بالومار»، عن صفقة التنسيق الضخمة، عن أمور ليس لها آخر، ثم قال: أما الصناعيون، فكانوا يتذمرون (فكر مارتين بموليناري) ولكنهم لم يجنوا من الأرباح مثلما جنوا في هذا العهد قط، رغم أنهم يطلقون ترهات عن الفساد، وعما إذا كان يمكن، أو لا يمكن، استيراد إبرة نول من دون رشوة، وعما إذا كان العمال يودون أن يعملوا أم لا، وحول كل تلك المعزوفات، وكان يتساءل: ولكن متى تمكنت الصناعة أن تجني من الأرباح الهائلة ما جنت في هذه السنوات الأخيرة؟. لقد حشروا غسالات حتى في الحساء. ولم يكن هناك أي عامل ليس لديه خلاطة كهربائية، والعسكريون؟ لقد تم شراؤهم جميعاً ـ بدءاً من رتبة عقيد فصاعداً باستثناء بعض الشرفاء القليلين منهم، وبعض البلهاء، الذين لا يزالون يؤمنون بالوطن ـ برخص استيراد سيارات وإجازات لتحويل أموال إلى الخارج. والعمال؟ الأمر الوحيد الذي كانوا يهتمون به أن يعيشوا مرفهين، وأن يحصلوا على الراتب الإضافي في نهاية العام، وأن ينتصر

فريق «ريفر» أو «لابوكا»، وأن يقبضوا التعويضات الضخمة عند تسريحهم (يا لها من صناعة وطنية أخرى..!.)، وأن يحصلوا على إجازات مدفوعة الأجر، ويوم عطلة سان «بيرون». ثم قال وهو يضحك: (إن الشيء الوحيد الذي يحتاجون إليه لكي يصبحوا بورجوازيين، قليل من رأس المال وحسب) وأضاف، وهو يحرّك قطعة الجليد في كأس الـ «ويسكي» بسبابته: (إنها انتهازية، وليس سوى انتهازية..). عندما توضع الأوراق النقدية فوق الطاولة، لا شيء يبقى مستحيلاً في هذا البلد، إن كان لدى أحدهم ثروة، أحاطوه بالعناية، وأصبح سيداً مرموقاً، حتى ولو كان قاطع طريق. والخلاصة: يتعين على المرء ألا يمتعض من شيء هنا، فذلك ليس سوى فساد، محض فساد، ولا شيء يمكن إصلاحه. إن هذا البلد قد تعهر على أيدي الـ «غرينغو» ولم يعد كما كان من قبل، الأمة التي حملت راية الحرية إلى تشيلي والبيرو. إنه اليوم بلد مترفين، وجبناء ومقامرين، وعرّابين، ومقامرين دوليين ـ كأولئك الذين كانوا هنا ـ ولصوص، ومشجعي فرق كرة القدم. وعندما نهض، مدّ يده ليصافح مارتين. وقال له، إنه يجب ألاّ يقلق، فلن يجلوهم عن المنزل. عندما خرجا، عبرا الشارع، وجلسا على أحد المقاعد يتأملان النهر. وتذكر مارتين كل حركة من حركات أليخاندرا. حينما سألها كيف بدا لها ذلك الرجل: أشعلت لفافة، وتمكن في ضوء عود الثقاب، من أن يرى وجهها العابس المتجهم وهي تقول: (وماذا سيبدو لي..!. إنه أرجنتيني)، ثم لاذت بالصمت. وكان كل ما فيها يوحي بأنها لن تقول أي شيء آخر. كان مارتين لا يرى في تلك اللحظة، سوى أن ظهور بوردينابي، قد عكر طمأنينتها النفسية، مثلما يفعل حيوان زاحف عندما يدخل في بئر الماء النقي الذي نشرب منه. قالت أليخاندرا آنذاك إن صداعاً قد أصابها،

وإنها تؤثر أن تذهب إلى بيتها لتستريح. وقبل أن يذهب كل منهما في سبيله، قالت له أمام رصيف شارع «ريوكوارتو» بلهجة فظة، إنها ستكلم موليناري. ولكن يجب ألاّ يتوهم كثيراً.

عندما فحص تلك الوثيقة القديمة المحفوظة في ذاكرته، وثَبَتْ بوضوح هائل بعض كلماتها التي اكتسبت بعد موت أليخاندرا معنى لا يمكن توقعه. نعم: ما بين تلك الأمسية الوديعة، عندما كانا يسيران تحتضن يد أحدهما يد الآخر، وتلك المقابلة السخيفة مع موليناري كان ظهور بوردينابي، أمراً فظيعاً اقتحم حياتها.

14

حتى وجد نفسه مصادفة أمام مقهى «تشيتشين»، وما إن دخل حتى رأى المجنون بارّاغان يشرب خمرة القصب ويلقي المواعظ جرياً على عادته ويقول، أيام دم ونار آتية يا شباب، ويهدد ويتوعد ويتنبأ، وسبابته اليمنى تشير إلى السمّار المحتشدين حوله، ممن ليسوا أهلاً ليكونوا جادين مع أحد إن لم يكن «بيرون»، أو فريق سكة الحديد الشرقية في مباراة الأحد، أما مارتين فكان يفكر بأن أليخاندرا امتقعت لحظة لقائهما، وإن كان من الجائز أيضاً أن يكون قد خيل إليه ذلك، ففي الوضع الذي كانت فيه، يظللها غطاء السيارة، لم يكن من السهل أن يميز بجلاء، وذلك يكتسب أهمية بالغة طبعاً. فقد يدل على أن لقاء «بوردينابي» لم يكن من قبيل المصادفة، بل كان مدبراً. ولكن، يا إلهي.. كيف.. ومتى..؟. ***أيام انتقام يا شباب***، ويضيف وهو يرسم بيده اليمنى في الهواء بحروف كبيرة، إنه قدر مكتوب، فينفجر الفتية ضاحكين ما بوسعهم أن يضحكوا. ويفكر مارتين أن امتقاعها ليس أمراً واضح الدلالة أيضاً، فقد يكون مرده الخجل الذي اعتراها، حين رآها مع شخص سبق أن أعربت عن احتقاره. ثم، كيف يمكن أن يكون لقاءاً مدبراً إن كانت تجهل أين يسكن بوردينابي، وإن كان يبدو أمراً مستحيلاً، ولا يمكن أن يخطر ببال، أن تكون قد اتصلت به بعد أن بحثت في الدليل عن عنوانه أو رقم هاتفه؟. ***أيام دم ونار، لأن النار يجب أن تطهر هذه المدينة الملعونة، بابل الجديدة هذه، لأننا خطاة***

جميعنا، رغم أنه يمكن أيضاً أن يكونا قد التقيا في حانة فندق لابلاسا التي كان من الواضح أن أليخاندرا تتردد عليها، أو أنها كانت تتردد عليها من قبل، كما دللت على ذلك دقتها في إرشاده إليها أثناء تلك المقابلة. حين دخلت الحانة (ولكن ماذا ذهبت تفعل هناك، يا إلهي، ماذا ذهبت تفعل..؟.) وحين التقت بوردينابي هناك، لعل حديثاً دار بينهما، بمبادرة منه على الأرجح. فقد كان معروفاً بأنه رجل داعر ودنيوي. ***نعم، اضحكوا يا عصبة الصعاليك، لكنني أقول لكم إننا مقدمون على أيام دم ونار***. وعلى الرغم من أن الجميع كانوا يضحكون، وحتى بارّاغان كان يبدو للحظات منخرطاً معهم في الضحك، لكنه عندما وجه ناظريه نحو مارتين، اكتست عيناه بريقاً، لعله بريق نبويّ، وإن كان صاحبه نبيٌّ حيّ متواضعٍ، سكيراً وأخرقَ (ولكن لعل الأمر كما يفكر برونو. ماذا نعلم عن الأدوات التي يختارها القدر ليوحي لها، على نحو مبهم، بتنفيذ أهدافه..؟. وبما أن القدر يتصرف بغموض شيطاني، أليس من الممكن أن يختار لحمل رسائله الماكرة، مخلوقات نادراً ما تؤخذ مأخذ الجد كالمجانين والأطفال مثلاً..؟.) ثم أضاف قائلاً، وكأن شخصاً آخر يتكلم وليس ذلك الذي يمازح الفتيان في الحانة، ***ولكن أنت أيها الفتى، أنت لا، لأنه يتعين عليك أن تخلصنا جميعاً، وسكت الجميع***. وقوبلت تلك الكلمات غير المتوقعة التي فاه بها المجنون بالصمت، رغم أن الفتيان استأنفوا استفزازه وهم يسألون: ***هات قل، أي رقم سيربح غداً أيها المجنون***، بيد أن بارّاغان أومأ برأسه، ورشف كأسه الحارقة وأجاب، ***نعم، اضحكوا. ولكن، قريباً سترون ما قلته لكم، ستشاهدونه بأعينكم، لأنه من الضروري أن تنال هذه المدينة المتعهرة عقابها، وينبغي أن يأتي أحد، لأن العالم لا يمكن أن يستمر هكذا***. وكانت لحظة ربط

فيها مارتين ـ وهو يتأمله بإعجاب ـ بين كلماته وكلمات أخرى قالتها أليخاندرا عن الأحلام التنبؤية والتطهير بالنار.

ـ لقد انتزعوا منا المسيح، وماذا أعطونا بدلاً منه..؟. سيارات، وطيارات، وبرادات كهربائية. ولكنك أنت يا تشتيشين، أسألك، على سبيل المثال. إنك تملك الآن براداً كهربائياً، ولكن هل أنت أسعد حالاً مما كنت عليه عندما كان الأعرج «أكونيا» يأتيك بألواح الجليد..؟. لنفترض، مجرد افتراض وحسب، أنك يا «لوياكونو» يمكن أن تذهب غداً إلى القمر (عبارة، قوبلت بانفجار ثورة من الضحك) ولكنني أقول لكم أيها الأغبياء، إنه افتراض محض، وماذا بعد؟. هل سيجعلك ذلك أسعد حالاً مما أنت عليه الآن..؟.

قال «لوياكونو» غاضباً:

ـ عن أي سعادة تحدثني، كأنما أنا سعيد في هذه الحياة العاهرة.

ـ حسناً، حسناً، قلت لك إنه مجرد افتراض ولكن، ها إني أسألك: ستكون أسعد حالاً لو ذهبت إلى القمر..؟.

أجاب «لوياكونو» بامتعاض:

ـ وما أدراني؟.

لكن المجنون «بارّاغان» ثابر على إلقاء مواعظه، ولم يصغِ إليه، فقد كان سؤاله مفحماً:

ـ ولهذا أقول لكم أيها الشباب، يجب البحث عن السعادة في داخل القلب، ولكن ذلك يحتاج أن يأتي المسيح ثانية. لقد نسينا تعاليمه، نسينا أنه عانى من عذاب الشهادة بسببنا، ومن أجل خلاصنا، إننا حفنة من الجاحدين، والأوغاد، ولعله لو أتى ثانية لما تعرفناه. وربما هزئنا منه.

قال «ديّاس»:

ـ ومن يقول لك، إنك أنت المسيح ونحن الآن نسخر منك.

ضحك الجميع احتفاء بمبادرة «ديّاس» لكن «بارّاغان» استطرد وهو يومئ برأسه، وقد افتر ثغره عن ابتسامة استحسان، وتلعثم لسانه أكثر فأكثر من شدة السكر:

ـ إننا تعساء جميعاً.

احتج بعضهم قائلاً: أنا، لا، هات، قل من.. الخ.

ـ إننا تعساء كلنا يا شباب. يجب ألاّ نخدع أنفسنا، ولماذا نحن تعساء كلنا؟. لأن قلوبنا ليست عامرة بالقناعة، فنحن نعلم أننا لسنا سوى حفنة من البائسين والأوغاد. لأننا ظُلاّم ولصوص. لأن نفوسنا مترعة بالحقد، وجميعنا نركض لاهثين: وراء أي شيء..؟. وإلى أين، بحق السماء أسألكم..؟. نكافح جميعنا من أجل الحصول على بضعة آلاف، ولكن لماذا..؟. ألن نموت جميعنا..؟. ولماذا نريد الحياة إن كنا لا نؤمن بالله..؟.

قال «لوياكونو» بحزم:

ـ حسناً، أُفّ، كفى. وأنت أيضاً خيِّرٌ جداً أيها المجنون. تتحدث كثيراً عن الرب، وعن المسيح. كثير من هذا ـ وأشار إلى شفتيه ـ لكنك تدع زوجتك تكدح كالأتان لتعولك، بينما أنت تلقي الخطب هنا.

رمقه المجنون «بارّاغان» بنظرة تنم عن الطيبة، ثم رشف قليلاً من كأسه وسأل:

ـ ومن قال لك إنني لست وقحاً؟.

رفع كأس خمرة القصب وأضاف بصوت يفيض ألماً:

ـ إنني أيها الفتيان سكّير ومجنون، يقولون عني المجنون بارّاغان، أشرب الخمر، أقضي النهار متسكعاً هنا وهناك وأفكر بينما زوجتي تعمل

منذ طلوع الشمس حتى مغيبها. ماذا يمكنني أن أفعل..؟. هكذا ولدت، وهكذا سأموت. إنني وغد، لا أنكر ذلك، إنما، ليس هذا ما أردت قوله لكم أيها الشباب. ألا يقال إن الصغار والمجانين ينطقون بالحقيقة..؟. حسناً، إني مجنون. وفي كثير من الأحيان لا أدري - وحق هذا الصليب - لِمَ أتكلم.

ضحكوا جميعاً.

- نعم. اضحكوا. لكنني أقول لكم، إن المسيح ظهر أمامي في إحدى الليالي وقال لي: أيها المجنون، إن العالم يجب أن يتطهر بالدم والنار. شيء هائل ينبغي أن يأتي، ستطال النار جميع الناس، والحق أقول لك، إنه لن يبقى حجر فوق حجر. هذا ما قاله لي المسيح.

انفجر الفتية ضاحكين إلاّ، «لوياكونو».

- نعم، هيا يا شباب، استمروا بهزلكم، اضحكوا وسترون فيما بعد. يوجد هنا شخص واحد يعرف ما أقول.

توقف الضحك، وران الصمت بعد تلك الكلمات الأخيرة، ولكن سرعان ما عاد الجميع إلى المزاح، ثم راحوا يخمنون ما ستسفر عنه مباريات يوم الأحد.

لكن مارتين كان يتأمل المجنون، بينما يتذكر تلك الكلمات التي قالتها أليخاندرا عن النار.

15

لم تذهب أليخاندرا، بل وصلت واندا تحمل منها رسالة تقول، لا تستطيع أن تراك هذا الأسبوع.

وأضافت قائلة وهي تتأمل قداحتها التي تبث نغمات موسيقية:

ـ تعمل كثيراً.

وردد مارتين بينما اقتحمت عقله صورة «بورديناني» بإلحاح: تعمل كثيراً.

أما واندا فاقتصرت على إشعال القداحة ثم إطفائها عدة مرات.

ـ سوف تتصل بك هاتفياً.

ـ حسناً.

بعد أن ذهبت واندا، شعر بأنه يرزح تحت حمل ثقيل فلا يستطيع النهوض. لكنه وقف بعد لأي لكي يهتف إلى برونو. كَلَّمة خَجِلاً. لم يقل له إنه يود رؤيته، لكن برونو أصر، جرياً على عادته، وهو يدعوه كي يأتي.

جلس في ركن، وحاول برونو أن يسليه بالحديث عن أي أمر.

لأن الإنسان، لحسن الحظ، (فكّر)، ليس مجبولاً من اليأس وحسب، بل ومن الإيمان والأمل، وليس من الموت فقط، بل ومن رغبة في الحياة أيضاً، وليس من العزلة وحدها، بل ومن لحظات وصال وحب كذلك. فلو تغلب اليأس، لأودى بنا إلى الموت أو الانتحار، ليس هذا ما يحدث

أبداً. مما يدلل ـ برأيه ـ على ضآلة أهمية العقل، إذ ليس أمراً معقولاً أن نحافظ على الآمال في هذا العالم الذي نعيش فيه. فعقلنا وذكاؤنا يبرهنان لنا، باستمرار، على أن هذا العالم مريع، ولذلك فإن العقل هدام ويقود إلى الريبة والاستهتار ثم إلى الخراب. ولكن الإنسان، لحسن الحظ، لا يكاد يكون كائناً عقلانياً دائماً، ولهذا فإن الأمل ينبعث دوماً في خضم الكوارث. وهذا الانبعاث لشيء غير معقول، خفي، عزيز على النفس إلى حد لا يصدق، ولا يستند إلى أي أساس من الواقع خير برهان على أن الإنسان ليس كائناً عقلانياً. فما إن تضرب الهزات الأرضية مساحات شاسعة في اليابان وتشيلي، وما إن تقضي الفيضانات الهائلة على مئات الألوف من الصينيين في منطقة «يانغ تسي»، وما إن تنشب حرب همجية، تعتبرها أكثرية ضحايا الساحقة ليست ذات معنى ـ كحرب الثلاثين عاماً، بما شوهت وعذبت وقتلت واغتصبت وأحرقت ودمرت، من نساء وأطفال وأمم ـ حتى يبدأ الناجون ـ الذين شهدوا مذعورين وعاجزين تلك الكوارث الطبيعية أو البشرية، والذين فكروا في لحظات اليأس أنهم لا يريدون العيش أبداً، ولن يبنوا حياة جديدة، ولن يتمكنوا من بنائها، حتى وإن رغبوا ـ حتى يبدأ أولئك الرجال والنساء (النساء بخاصة، لأن المرأة هي الحياة ذاتها، وهي الأرض الأم التي لا تفقد البقية من الأمل أبداً) وتلك الكائنات البشرية المزعزعة من جديد، مثل نحلات بلهاء لكنها مترعة بالبطولة، بتشييد عالمها الصغير كل يوم: عالم صغير حقاً، لكنه مثير للعواطف فعلاً، فليست الأفكار هي التي أنقذت العالم، ولا الفكر، ولا العقل، بل على النقيض من ذلك تماماً: إنها آمال البشر الحمقاء وحُمّى إصرارهم على النجاة، وتوقهم إلى التنفس كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وبطولتهم البسيطة العنيدة والمضحكة، المتجددة كل يوم أمام المحنة. وإن كانت الكآبة إحدى تجارب العدم، أو

شيء من قبيل البرهان الوجودي على العدم، أليس الأمل هو البرهان على أن للوجود (حاسة خفية) أو، شيئاً يستحق أن نكافح من أجله؟. وإن كان الأمل أقوى من القنوط (لأنه ينتصر عليه دائماً، ولولا ذلك لكنا انتحرنا جميعاً)، أليست تلك (الحاسة الخفية) حقيقية أكثر من العدم.. إن صح أن نقول ذلك..؟.

في حين كان على مستوى آخر أكثر سطحية يقول لمارتين شيئاً ليس له من حيث الظاهر صلة بأفكاره العميقة وإنما مرتبط بها في الواقع تشده إليها أواصر غير منتظمة ولكنها حيوية.

ـ فكرت دائماً أنني أود أن أصبح إطفائياً، أو شيئاً من هذا القبيل.

وبما أن مارتين سينظر إليه بدهشة، أردف قائلاً بابتسامة لطَّفت من وقع محاولته، ظاناً أن مثل تلك الأفكار يمكن أن تخفف من وطأة بؤسه:

ـ أو ربما، رئيس فوج إطفاء. لأن المرء يشعر عندئذ، بأنه منخرط في عمل جماعي، عمل يقوم فيه بجهد من أجل الآخرين، في خضم الأخطار، قريباً من الموت. وإن كان المرء رئيس الفوج، فذلك يشعره، كما أظن، بالمسؤولية عن فريقه الصغير. فيكون له قدوة وأملاً. عالم صغير تتحول فيه روح المرء إلى روح جماعية صغيرة. بحيث تصبح الأتراح أتراح الجميع، والأفراح أفراحهم، والخطر خطراً على الجميع أيضاً. ويعرف المرء، في تلك اللحظات الفاصلة في الحياة، تلك اللحظات اللامعقولة الخاطفة، حيث يواجهنا الموت غاضباً مباغتاً، أنه يمكن، بل ويتعين عليه، أن يثق برفاقه، فأولئك الرفاق سيواجهون الموت دفاعاً عنا، وسيتألمون من أجلنا، وسينتظروننا. ثم، بعد ذلك، تأتي المهمة الصغيرة المتواضعة للمحافظة على المعدات نظيفة، كتلميع النحاس، وسن

البلطات وتنظيفها، والعيش ببساطة في تلك اللحظات التي تسبق الخطر، وربما الموت أيضاً.

تناول نظارته ومسح عدستيها، ثم قال:

ـ تصورت مرات عديدة «سانت اكسوبري»[1]، هناك في الأعالي، بطائرته الصغيرة، يصارع العاصفة في خضم الأطلسي، بطلاً عنيداً، وعامل اللاسلكي يجلس خلفه، يوحدهما الصمت والصداقة والخطر المشترك، والأمل المشترك أيضاً. يسمع زئير المحرك، ويراقب بقلق عداد المحروقات، وينظر إلى أعماقه. إنها الرفاقية في مواجهة الموت.

لبس نظارته، وابتسم وهو يرنو إلى البعيد.

ـ حسناً، لعل المرء يعجب كثيراً بما لا يستطيع القيام به. لست أدري إن كنت أهلاً للقيام بواحد من مئة مما قام به «سانت اكسوبري». طبعاً، هذا في الأمور الكبرى. ولكن، عنيت، حتى في الصغرى.. رئيس فوج إطفاء.. ثم إنني.. أنا، من أكون..؟. مفكر متوحد تافه. وحتى، إني لا أدري إن كنت سأتمكن، يوماً ما، من كتابة رواية أو مسرحية، وحتى لو كتبتها.. لست أدري إن كان مثل ذلك يمكن أن يساوي انخراط المرء في فصيل، وحماية أحلام رفاقه وحياتهم ببندقيته.. ليس مهماً إن كانت الحرب من صنع الأوغاد، أو عصابات رجال المال أو البترول: فذلك الفصيل، وذلك الحلم المصون، وتلك الثقة التي يولينا إياها رفاقنا، كل ذلك يبقى دائماً قيماً مطلقة.

نظر إليه مارتين بعينين كسيرتين، نظرة جامدة ساكنة. وقال برونو في

(1) انطوان دي سانت اكسوبري: (1900 ـ 1944) طيار وكاتب فرنسي، قضى نحبه عندما سقطت طائرته أثناء مهمة عسكرية. كتب عام 1927 أول رواياته (بريد الجنوب) وصف فيها الميتة التي تعين عليه أن يواجهها بعد 17 عاماً. (المترجم).

سريرته: حسناً، ألسنا في نهاية المطاف نخوض جميعاً ضرباً من ضروب الحرب..؟. ألا أنتمي إلى فصيل صغير؟. أو ليس مارتين، على نحو ما، مخلوقاً أسهر على حلمه، وأحاول مواساته في كآبته وأرعى آماله، كأنني ومضة وسط عاصفة عاتية.

ثم اعتراه الخجل فجأة

عندئذ روى دعابة.

16

انتظر مكالمتها يوم الإثنين، ولكن عبثاً. هتف يوم الثلاثاء، إلى الـ «بوتيك» بعد أن نفد صبره، فبدا له صوت اليخاندرا فظاً، ولكن قد يكون السبب إرهاق العمل، وعندما أصر مارتين، قالت له إنها ستنتظره لتشرب وإياه القهوة في المقهى الذي يقع عند تقاطع شارعي «شاركس» و«إسميرالدا».

هرع إلى هناك فوجدها بانتظاره: تنفث دخان لفافتها وتنظر نحو الشارع. كان الحوار قصيراً، لأنها يجب أن تعود إلى المشغل. قال لها إنه يود لقاءاً هادئاً يستغرق أمسية كاملة.

ـ يتعذر عليّ ذلك يا مارتين.

وعندما التقت عيناها عيني الفتى، بدأت تعبث بمشرب لفافة كان في يدها، بينما بدت كأنها مستغرقة، تفكر وتضرب أخماساً بأسداس. كانت مقطبة الحاجبين، ينم محياها عن أمارات قلق.

قالت:

ـ إنني مريضة جداً.

ـ ما الذي جرى لك؟.

ـ الأصح أن تقول ما الذي لم يجرِ لي.

حدثته عن أحلام رهيبة، وآلام في الرأس (تبدأ في الرقبة، وتمتد إلى سائر أنحاء الجسم) وشرر يتطاير من العينين:

ـ وكل ذلك يبدو بسيطاً أمام الأجراس الكنسية، مزيج من مستشفى وكنيسة كما ترى.

قال مارتين بشيء من السخرية:

ـ ولهذا. لا يمكنك أن تلتقي بي؟.

ـ لا، لا أقول ذلك، لكن هذه الأمور تتجمع كلها. أتفهم؟.

(تتجمع كلها)، ردد مارتين تلك العبارة في سريرته، وهو يعلم أن أشد ما كان يعذبه يكمن في تلك الكلمات.

ـ وإذن يتعذر عليك أن تلتقي بي؟.

لبثت أليخاندرا مدة تتأمل الفتى، ثم أسبلت عينيها وبدأت تنقر على المنضدة بالمشرب. ثم قالت:

ـ حسناً، سنلتقي غداً عند العصر.

سألها مارتين بشغف:

ـ كم من الوقت سنبقى سوياً..؟.

قالت من دون أن تنظر إليه، أو تدع العبث بمشربها:

ـ الأمسية كلها، إن كنت ترغب.

ثم أضافت، بعد أن نظرت إليه، ورأت كيف كانت عيناه تتألقان:

ـ ولكن، لدي شرط واحد يا مارتين.

فاختفى بريق عيني الفتى.

17

الشمس في اليوم التالي تسطع، مثلما كانت يوم ذلك الإثنين. ولكن الرياح كانت شديدة، والهواء يحمل كثيراً من الغبار. وهكذا كان كل شيء متشابهاً، إنما لا شيء بقي على حاله. وخشي مارتين أن يكون توافق الأبراج في ذلك اليوم قد تغير.

أضفى الاتفاق الذي تعاهدا عليه، هدوءاً كئيباً على اللقاء الجديد: تحدثا برفق كصديقين حميمين، وهذا بالذات ما كان مصدر كآبة مارتين البالغة. ولعله كان يتحين، من دون أن يعي تماماً، (فكر برونو)، لحظة النزول إلى ضفاف النهر، والجلوس على ذلك المقعد، كأنما يود تكرار واقعة بتكرار الصيغ السحرية التي أدت إلى حدوثها أول مرة، وكان يجهل طبعاً، كم كان ذلك الإثنين الذي شعر أنه بلغ الكمال، كئيباً ومقيتاً بنظر أليخاندرا، فالأحداث التي كان تكرارها مصدر سعادة له، كانت هي ذاتها، مصدر قلقها، لأن العودة إلى الأماكن التي كانت شاهداً على حقبة بلغت حد الكمال، تكون نذير شؤم دائماً.

حتى نزلا إلى ضفة النهر، وجلسا على المقعد ذاته.

لاذا بالصمت مدة طويلة يخيم عليهما ضرب من الصفاء. لكنه صفاء أخذ يصطبغ في نفس مارتين، بعد أمله الساذج عندما كانا في المقهى، بكآبة متفاقمة، لأن ذلك السلام حلّ نتيجة الشرط الذي كانت أليخاندرا قد فرضته، وأما فيما يتعلق بها (فكر برونو)، فإن ذلك الصفاء

كان مجرد فاصل عابر وعرضي، لا يُرتجى منه أكثر مما يرتجي مريض بالسرطان من حقنة مورفين.

شاهدا السفن والغيوم.

ثم عادت أليخاندرا لمراقبة النمل.

ـ أتذكر قصة «مارك توين» عن النمل؟.

ـ لا.

ـ تحاول بضع نملات أن تنقل ساق جرادة إلى كهفها. ذلك برهان على أنها أغبى ما خلق الله من حشرات. إنها مسلية جداً: تدغدغك كأنها حمّام، ألا تبدو لك في منتهى البلاهة؟.

ـ لم أفكر في ذلك قط.

لكن الدجاج أسوأ، أمضيت عصر ذات يوم ساعات في مزرعة «خوان كارلوس»، أحاول أن أعوّدها على الاستجابة الشرطية بعصا وبعض الطعام. أعني شيئاً من قبيل تجربة «بافلوف»، ولكن عبثاً. كان بودي أن أرى «بافلوف» يطبق تجاربه على الدجاج، فهو أحمق إلى درجة تثير الغضب. ألا تثير الحماقة غضبك؟.

ـ لست أدري، ربما تثير غضبي إذا اجتمعت الحماقة والحذلقة معاً.

قالت بحماس:

ـ لا، لا. أقول لك الحماقة الخالصة، لا أكثر ولا أقل.

تأملها مارتين بمكر وقال:

ـ لا أظن. إنها كالحجر، فهل يمكن أن يثير الحجر حفيظتي؟.

ـ ليس الأمر كذلك. ليست الدجاجة حجراً، إنها تتحرك وتأكل، ولها مقاصد.

قال مارتين بحيرة:

ـ لست أدري، لا أعلم لماذا يجب أن يثير ذلك حفيظتي.

لاذا بالصمت ثانية. ولعل كلاً منهما كان يتصور أشياء مختلفة عما يتصوره الآخر. مارتين يخال أن نفسها تمور دائماً بمشاعر وأفكار لا يمكنه أن يتوصل إلى إدراكها أبداً. وهي (فكر مارتين) تشعر بشيء من الكبرياء، أو بما هو أسوأ من ذلك. بإحساس ما، لا يمكنه حتى أن يتصور ما هو.

فتشت أليخاندرا في محفظتها، وتناولت مفكرة، أخرجت منها صورة. سألته:

ـ أتروقك..؟.

كانت صورتها على الشرفة في «بارّاكاس»، وهي متكئة على الحاجز، ترتسم على محياها تعابير تنبض بالعمق والشوق، وبانتظار شيء ما مبهم وغامض، طالما رزح تحت تأثيره منذ أن عرفها.

عادت تسأل:

ـ أتروقك؟. إنها من تلك الأيام.

وتعرف مارتين في الواقع، القميص والتنورة. كان كل شيء يبدو بعيداً جداً..!. فلماذا تعرض عليه الآن تلك الصورة؟.

أصرت على السؤال:

ـ أتروقك أم لا؟.

ـ طبعاً، وكيف لا تروقني. من الذي التقطها لك؟.

ـ شخص لا تعرفه.

وألقت غيمة قاتمة ظلالها على تلك السماء الكئيبة، الصافية.

ثم، بينما كان لا يزال ممسكاً بها، يتأملها وتتنازعه مشاعر متناقضة، سأل بحياء:

ـ أيمكنك أن تعطيني إياها؟.

ـ أتيت بها لكي أقدمها هدية إليك، إن كانت تروقك؟.

تأثر مارتين، وشعر بالأسى في الوقت ذاته: كانت تبدو له كأنها تحمل معنى الوداع. وقال لها شيئاً من هذا القبيل، لكنها لاذت بالصمت، وراحت تراقب النمل، بينما كان مارتين يحصي تعابير وجهها.

أطرق قانطاً، فوقع نظره على يد أليخاندرا التي كانت فوق المقعد بجانب جسم مارتين والمفكرة ما زالت مفتوحة: رأى رسالة بريد جوي مطوية. كانت العناوين التي سجلتها في المفكرة، والرسائل التي تلقتها، تشكل عالماً غريباً مؤلماً يؤرق مارتين.

ورغم أنه كان دائماً يتوقف عند الحافة، إلا أن سؤالاً بائساً، كان يفلت منه في بعض الأحيان. حدث هذا في ذلك الحين أيضاً.

فقالت أليخاندرا:

ـ إنها رسالة من «خوان كارلوس».

سأل مارتين بمرارة:

ـ ماذا يقول ذلك الأوز؟.

ـ يمكنك أن تتصور. ترهاته المعهودة.

ـ أي ترهات؟.

ـ عن أي شيء يمكن أن يتحدث «خوان كارلوس» في رسالة، سواء كانت بالبريد الجوي أو بغيره..؟. هات، قل أيها التلميذ «ديل كاستيجو».

نظرت إليه وهي تبتسم، لكن مارتين سألها بجد، وكان واثقاً من أن ذلك لا بد أن يبدو لها ضرباً من الحماقة.

ـ غَزَل؟.

ـ حسناً أيها الطفل، تسع علامات. لن أعطيك عشر علامات لأنك أجبت بصيغة الاستفهام، بدلاً من صيغة التقرير المباشرة. مئات، بل آلاف المغازلات مع دانيمركيات فارعات حمقاوات وشقراوات ناعمات، ثم، هذا النوع من الناس هو الذي يأسره، جميعهن ممن لوحت الشمس بشرتهن، لانكبابهن المنظم على الرياضة في الهواء الطلق، وسفرهن آلاف الأميال في قوارب، يرافقهن ـ أخوياً ـ فتيان شقر، فارعو الطول، لوحتهم الشمس أيضاً، وكثير من الدعابات العملية التي تسحر «خوان كارلوس».

قال لها مارتين:

ـ أرني الطابع..؟.

حافظ على هواية الطفولة في جمع طوابع البلدان النائية. وعندما تناول الرسالة، خال أن حركة عفوية لا شعورية بدرت من أليخاندرا، لعلها كانت بعض التلكؤ. أقلقته تلك الحركة، فتظاهر بأنه يتفحص الطابع. وعندما أعاد لها الرسالة، تأملها ملياً، وبدا له أنها كانت مضطربة.

غامر فقال:

ـ ليست من «خوان كارلوس».

ـ إنها بالطبع، من «خوان كارلوس»، ألا ترى الخط كأنه خط طفل في الصف الرابع؟.

لاذ مارتين بالصمت، جريا على عادته عندما يحدث أمر مشابه. لا يستطيع الذهاب بعيداً، والتوغل في تلك المنطقة المظلمة من نفسها.

تناول عوداً وبدأ ينكش في الأرض.

ـ لا تكن أحمق يامارتين، لا تعكر صفو هذا اليوم بالتفاهات.

قال مارتين وهو لا يزال ينكش بالعود.

ـ لقد حاولتِ التمسك بالرسالة.

خيم الصمت:

ـ ألا ترين..؟. لم أكن مخطئاً.

فقالت موافقة:

ـ إنك على حق يامرتين، فهو لا يتحدث عنك بعبارات مُرضية.

فقال بامتعاض ظاهر:

ـ وما أهمية ذلك، فأنا لم أكن عازماً على قراءتها.

ـ لا طبعاً لا... ولكن بدا لي، على نحو عفوي، أنه ليس مستحباً أن تقع بين يديك.. أعني، لأنني، الآن أفكر، انتبهت إلى أن هذا كان السبب.

رفع مارتين رأسه ونظر إليها ثم سأل:

ـ ولماذا يتحدث عني بالسوء؟.

ـ إيه، إنه لا يستحق أن تتوقف عنده كثيراً، إنك تمتعض دونما فائدة.

ـ ومن أين يعرفني ذلك الأحمق..؟. إن كان لم يرني قط.

ـ لك أن تتصور يامرتين، أنني لا بد أن أكون قد حدثته عنك مرة.

ـ حدّثت هذا البائس عني، وعنا..؟.

ـ ولكن الأمر.. كأني لا أحدث أحداً. كأنما أحدّث جداراً، كأني لم أقل لأحد شيئاً. أتفهم؟. الحديث معه كالحديث مع الجدار.

ـ لا يا أليخاندرا، لا أفهم، لماذا الحديث معه..؟. أود أن تقولي أو تقرئي ما يقوله عني.

ـ ولكن لماذا، إن كان الأمر لا يتعدى نطاق ترهات «خوان كارلوس» المعتاده...؟.

ناولته الرسالة. وقالت بتشف:

ـ لقد نبهتك إلى أنها ستجلب لك الأسى.

فأجاب مارتين:

ـ لا أهمية لذلك.

وتناول الرسالة نهماً قلقاً، بينما اقتربت منه أليخاندرا وانحنت كأنها ستقرؤها معه.

وتصور مارتين أنه يود أن يدقق الرسالة كلمة فكلمة، وهذا ما رواه لـ «برونو». وفكّر برونو أن موقف أليخاندرا كان أحمق، ويشبه إلى حد بعيد، الموقف الذي يؤدي بنا إلى مراقبة مناورات شخص يقود، على نحو سيء، السيارة التي نركبها.

كان مارتين في سبيله إلى إخراج الرسالة من المغلّف عندما أدرك فجأة أن مثل ذلك التصرف يمكن أن يهدم البقية الهشة القليلة الباقية من حب أليخاندرا. فتهاوت يده وهي ممسكة بالمغلّف، وبقي هكذا بعض الوقت، إلى أن ردّه إليها. فتناولته أليخاندرا لتحتفظ به.

قال:

ـ تأتمنين بائساً كهذا على أسرارك.

ولكنه أدرك بوعي مبهم أنه كان يرتكب ظلماً. لقد كان متأكداً من ذلك لأن أليخاندرا لا يمكن أن تبوح لذلك الشخص «بأسرار» أبداً. قد يكون ما حدثته عنه أفضل من ذلك أو أسوأ، إنما البوح بأسرار، ذلك لا يمكن أبداً.

كان يشعر بالحاجة إلى أن يقسو عليها، وكان يعلم، أو يدرك، أن

تلك الكلمة لا بد أن تجرح مشاعرها.

ـ كفاك ترهات...!. لقد قلت لك إن الحديث معه يشبه إلى حد بعيد حواراً يديره المرء مع الحصان ألا تفهم؟.: نعم، كان يتعين عليّ، مع ذلك، ألاّ أبوح له بشيء. في هذا أنت على حق. ولكنني كنت ثملة.

ثملة، معه (فكر مارتين بمزيد من المرارة).

أردفت بعد لحظة تقول بلهجة أقل قسوة:

ـ ذلك كما لو أنك تعرض على حصان صورة منظر رائع.

شعر مارتين بأن سعادة غامرة تحاول اختراق الغيوم الداكنة، وبأن تعبير «منظر رائع» قد وصل، رغم ذلك، حتى أعماق نفسه المعذبة، كأنه رسالة مضيئة.

ولكن، كان لا بد لها من أن تشق الطريق بصعوبة بين تلك الغيوم السوداء، وعبر تلك الـ «كنت ثملة».

ـ أتسمعني؟.

أومأ مارتين بإشارة تفيد الإيجاب.

ثم سمعها تقول بغتة:

ـ انظر يا مارتين. سأنفصل عنك، ولكن ينبغي ألا تفكر أبداً بعلاقتنا بطريقة خاطئة.

نظر إليها مارتين مذعوراً:

ـ نعم، إن هذا الوضع يا مارتين لا يمكن أن يستمر لأسباب عديدة. سيكون أفضل بالنسبة إليك، أفضل جداً.

لم يهتد مارتين إلى أي شيء يقوله. غصت عيناه بالدموع. ولكي يحول دون أن تلاحظ أليخاندرا ذلك، بدأ ينظر إلى الأمام، إلى البعيد:

كأنه لوحة إنطباعية. كان ينظر ولكنه لا يرى مركباً بني اللون، يبحر بعيداً، وبعض النوارس البيضاء، التي تحوم حوله.

قالت أليخاندرا:

ـ ستبدأ الآن تفكر بأنني لا أحبك، وبأنني لم أكن أحبك من قبل قط.

تابع مارتين مسار المركب البني بشيء من الافتتان.

فقالت أليخاندرا:

ـ ومع ذلك.

أطرق مارتين وعاد يراقب النمل: حملت إحداها ورقة كبيرة مثلث شكلها، بدت كشراع زورق صغير: كانت تتهادى مع هبوب الريح، وكان تمايلها يزيد الشبه وضوحاً.

شعر أن يد أليخاندرا تمسك بذقنه: قالت له بحرارة.

ـ هيا. أرني هذا الوجه.

لكن مارتين قاوم بشدة وعناد.

ـ لا، لا يا أليخاندرا. دعيني الآن. أود أن تذهبي وتتركيني وحدي.

ـ لا تكن أحمق يا مارتين. ملعونة تلك اللحظة التي رأيت فيها هذه الرسالة البلهاء.

ـ وأنا ألعن اللحظة التي التقيتك فيها، لقد كانت أبأس لحظات حياتي.

سمع أليخاندرا تقول:

ـ أهكذا تعتقد.؟.

ـ نعم.

لاذت بالصمت، ثم نهضت بعد برهة من المقعد وقالت:

ـ لنمش معاً بعض الوقت.

نهض مارتين متثاقلاً وبدأ يتبعها.

انتظرته أليخاندرا، أمسكت بذراعه وقالت:

ـ مارتين. لقد قلت لك أكثر من مرة إنني أحبك. أحبك كثيراً. ينبغي ألا تنسى ذلك. إنني لا أقول أشياء لا أؤمن بها أبداً.

أخذ يهبط على نفس مارتين مع هذه الكلمات إطمئنان قاتم، ولكن أليست أسوأ لحظات أليخاندرا وأشدها عصفاً أفضل من ذلك الهدوء القاتم الذي لا أمل فيه...!.

مشيا وكل مستغرق بأفكاره.

عندما وصلا قبالة مقهى «الشاطئ» قالت أليخاندرا إنه يتعين عليها أن تجري مكالمة هاتفية.

كان كل ما في المقهى يشيع تلك الكآبة التي توحي بها، حسب رأيه، أماكن التسلية في أيام العمل، حين لا يرتادها أحد تقريباً: المناضد مكدسة بعضها فوق بعضها الآخر، والكراسي كذلك، ونادل يلبس قميصاً، وقد شمر بنطاله ليغسل رجليه. وحينما كانت أليخاندرا تهتف، طلب مارتين قهوة فقيل له إن آلة إعداد القهوة مازالت باردة.

عندما عادت أليخاندرا وعلمت أنه ليس هناك قهوة اقترحت أن يذهبا إلى حانة «موسكوفا» ليشربا شيئاً ما هناك.

كانت الحانة مغلقة. قرعا الباب. وانتظرا، ولكن عبثاً.

استفسرا من صاحب جوسق في منعطف الشارع.

ـ كيف، ألا تعرفان؟.

لقد أودع مصح الأمراض العقلية.

بدت تلك الحانة رمزاً: كانت أول مكان عرف فيه معنى السعادة.

ففي أقسى لحظات علاقته بأليخاندرا، كانت تهب لإسعاف روح مارتين دائماً، ذكرى تلك الأمسية، وذلك الهدوء بجانب النافذة وهو يتأمل كيف كان الليل يخيم على سطوح منازل بونيس أيرس. لم يكن قد شعر من قبل قط، مثلما شعر في تلك اللحظة، بأنه بعيد عن المدينة، وعن الصخب والضجيج، وعن الإبهام والقسوة، كما أنه لم يكن قد شعر بمثل تلك العزلة عن مجتمع أمه، وعن هاجس المال، وعن أجواء النفعية والاستهتار، وحقد الجميع على الجميع. فهناك، في ذلك الركن الصغير، والملجأ الحصين، أمام نظراتَ ذلك الرجل المستسلم للكحول والمخدرات، الفاشل، بقدر ما هو كريم، كانت كل قسوة الواقع الخارجي تبدو كأنها قد ألغيت. وفكّر فيما بعد، ما إن كان لا بد لكائنات مفرطة الحساسية مثل «فانيا» من أن تستسلم للكحول والمخدرات. لقد أثرت في نفسه أيضاً، تلك الرسوم الرخيصة المعلقة على الجدران، التي تمثل بقسوة، الوطن النائي خير تمثيل. كم كانت مؤثرة كلها، برخصها وسذاجتها...!. فتلك لم تكن رسوم فنان سيء، ظن نفسه رساماً ماهراً، بل كانت بكل تأكيد، من إنتاج فنان مثل فانيا سكير وفاشل، بائس، ومبعد إلى الأبد عن بلاده مثله، محكوم عليه أن يعيش هنا في بلد، يشعر كلاهما أنه سخيف وناء، حتى الموت.

وتلك الصور الرخيصة، مع ذلك، تذكّر على نحو ما بالوطن البعيد، مثلما تساهم تزيينات المسرح، حتى إن كانت مصنوعة من ورق، وحتى إن كانت في كثير من الأحيان تافهة وبدائية، في جعلنا نحس المأساة أو الملهاة فعلاً.

أومأ صاحب جوسق الصحف برأسه وقال:

ـ كان رجلاً طيباً.

ولقد أضفى الفعل بصيغة الماضي على جدران مصح الأمراض العقلية المعنى المشؤوم الذي يعنيه حقاً.

عادا باتجاه شارع باسيوكولون.

قالت أليخاندرا:

ـ وأخيراً، فقد توصلت تلك النجسة إلى تحقيق مأربها.

اقترحت أليخاندرا التي سيطرت عليها كآبة بالغة، أن يذهبا إلى «لابوكا».

عندما نزلا في شارع بيدرو دي مندوسا ثم، ألميرانتي براون، دخلا الحانة الواقعة عند منعطف الشارع.

نزل من باخرة شحن برازيلية تدعى «*رسيفي*» رجل بدين أسود يتصبب عرقاً.

قالت أليخاندرا وهي تشير بشطيرتها.

ـ *لويس أرمسترونغ*.

ثم خرجا وتمشيا على أرصفة المرفأ، وجلسا في مكان بعيد مكشوف على حافة السور ينظران نحو أضواء إشارات المرور.

قالت أليخاندرا:

ـ هناك أيام تدل البروج على أنها سيئة الطالع.

نظر إليها مارتين وسأل:

ـ ما هو يومك المفضل؟.

ـ الثلاثاء...

ـ ولونك المفضل؟.

ـ الأسود.

ـ لوني المفضل هو البنفسجي.

سألت أليخاندرا بشيء من الدهشة:

ـ البنفسجي؟.

ـ قرأت ذلك في مجلة ***ماريبيل***.

ـ أرى أنك تختار مادة جيدة للقراءة.

قال مارتين:

ـ إنها إحدى مجلات أمي المفضلة. أحد مصادر ثقافتها: إنها ***(نقد العقل المحض)***.

أومأت أليخاندرا برأسها وقالت:

ـ لا مثيل لمجلة ***سيدات وفتيات*** للتنجيم، إنها فظيعة...

تابعا دخول المراكب وخروجها. واحد ناصع البياض طويل كطائر بري هزيل ينزلق في «ريا شويلو» مقطوراً نحو المصب. ارتفع الجسر المتحرك ببطء، ومر المركب وهو يطلق صفارته عدة مرات. كان التباين عجيباً بين شكله الانسيابي، وأناقته وهدوء انزلاقه من ناحية، وقوة ضجيج القاطرة التي تجره وصخبها من ناحية أخرى.

قالت أليخاندرا مشيرة إلى القاطرة الأمامية:

ـ ***إنها (دونيا أنيتا الثانية)***.

كانت تفتنهما تلك الأسماء، ويتباريان، ويقرران جوائز لمن يقع على أجمل اسم: ***غاريبالدي الثالث. تيرسينا الجديدة. دونيا أنيتا الثانية***، اسم لا بأس به. ولكن مارتين لم يكن يفكر في المباراة. فذلك كله، مثل سواه، أصبح ينتمي إلى زمن لن يعود.

جأرت القاطرة وقذفت سحابة من الدخان الأسود فاندفع متقهقراً إلى الخلف، وكانت الحبال مشدودة كأوتار قوس.

فقالت أليخاندرا:

- يراودني دائماً شعور بأن ذلك سيؤدي إلى إصابة إحدى القاطرات بالفتق.

فكر قانطاً، بأن ذلك كله يختفي من حياته إلى الأبد، مثلما يمضي ذلك المركب: بصمت، وتصميم. نحو مرافئ نائية مجهولة.

- ماذا تفكر يا مارتين؟.

- أشياء.

- قل ما هي؟.

- أشياء، أشياء لا على التعيين.

- لا تكن سيئاً. قل ما هي.

- عندما كنا نتبارى، عندما كنا نخطط للرحيل من هذه المدينة إلى أي مكان آخر.

فأكدت قائلة:

- نعم. نعم.

وفجأة قال لها مارتين إنه حصل على حقن تسبب الموت بشلل القلب.

قالت أليخاندرا من دون كبير اهتمام.

- كفاك هراء.

عرضها عليها ثم قال بكآبة.

- أتتذكرين عندما تحدثنا مرة عن الانتحار معاً؟.

- نعم.

تأملها مارتين ملياً، ثم أعاد الحقن إلى موضعها. كان الليل قد أرخى

سدوله، فقالت أليخاندرا، إن الوقت حان لكي يعودا.

سألها مارتين وهو يفكر بألم أن كل شيء قد انتهى:

ـ أذاهبة إلى وسط المدينة؟.

ـ لا، إلى البيت.

ـ أتودين أن أرافقك؟.

تصنع لهجة لا مبالية، لكن سؤاله كان مفعماً بالرغبة.

أجابت بعد تردد:

ـ حسناً. إن كنت ترغب.

عندما وصلا حتى باب المنزل، شعر مارتين بأنه لا يستطيع وداعها هناك.

فتوسل أن تسمح له بالصعود.

ومرة أخرى وافقت بعد تردد.

ما إن وصلا إلى البرج، حتى انهار مارتين، وكأن تعاسة الدنيا كلها جثمت فوق كتفيه.

استلقى على السرير وبكى.

جلست أليخاندرا بجانبه:

ـ إنه لمن الأفضل يا مارتين، أفضل بالنسبة إليك، إنني أدرك ما أقول. يجب ألاّ نلتقي بعد الآن.

قال لها الفتى وهو ينشج، إنه سينتحر بالحقن التي أراها إياها.

لاذت بالصمت والحيرة.

ثم، شيئاً فشيئاً، عاد مارتين إلى هدوئه، وحدث ما كان يجب ألاّ يحدث. وبعد أن انتهى كل شيء، سمعها تقول:

ـ قبلت أن أراك بعد أن وعدت بأن لا نتوصل إلى هذا. لقد قمت يا مارتين على نحو ما، بنوع من...

لكنها لم تكمل الجملة.

سأل مارتين خائفاً:

ـ نوع من.. ماذا؟.

ـ لا أهمية لذلك.. ما حدث قد حدث.

نهض وبدأ يرتدي ملابسه.

خرجا، وقالت إنها تود أن تشرب شيئاً ما. كان جرس صوتها كئيباً وفظاً.

سارت وكأنها شاردة الذهن، تمعن التفكير بهاجس أو بسر.

بدأت تتناول الشراب في حانة من حانات حي الـ «باخو»، وجرياً على عادتها ـ في كل مرة، عندما يسيطر عليها ذلك القلق المبهم، وذلك الشرود الذي كان يؤرق مارتين كثيراً ـ لم تمكث في الحانة طويلاً، بل كان لا بد من أن تخرج من واحدة لتدخل إلى أخرى.

كانت قلقة، كأنما يتعين عليها أن تستقل قطاراً، ولذلك كان لا بد لها من أن تراقب الساعة باستمرار، وتنقر بإصبعها على المنضدة، لا تسمع شيئاً مما يقال لها، وإن سمعت ردت، إيه؟. إيه؟. من دون أن تفهم شيئاً.

وأخيراً، دخلت إلى حانة صغيرة تزين واجهتها صور فتيات ونساء عاريات تقريباً. كان الضوء أحمر خافتاً. وكانت صاحبة المقهى تتحدث بالألمانية مع بحار يشرب من كأس أحمر وطويل جداً، وكان يتحلق حول المناضد الصغيرة بحارة وضباط، مع نساء رخيصات من مومسات منطقة حديقة «رتيرو». اعتلت المنصة امرأة في العقد السادس من عمرها،

مطلية بالأصباغ، ذات شعر فضي، وثديين كبيرين يبدوان تحت لباس أملس شفاف مثل بالونين منتفخين على وشك الانفجار، وتزين معصميها وأصابعها ورقبتها حلي رخيصة تلمع تحت الأضواء الحمراء. وكان صوتها مبحوحاً وسوقياً.

تأملتها أليخاندرا مفتونة.

وسأل مارتين قلقاً.

- ما بك؟.

لكنها لم تجب كانت عيناها مسمرتين على البدينة باستمرار.

ألح قائلاً وهو يهز ذراعها:

- أليخاندرا، أليخاندرا.

فنظرت إليه.

وعاد يسأل:

- ما بك...؟.

- بئست من امرأة مغلوبة على أمرها، لا تنفع للغناء، ولن تكون شيئاً ممتعاً في الفراش أيضاً، من يستطيع أن يضاجع غولاً كهذه؟.

وعادت تنظر إلى المغنية. ثم تمتمت كأنها تحدث نفسها؟.

- كم تبقى لي كي أصبح مثلها..!.

نظر إليها مارتين وقد اعترته الدهشة.

ثم تبع الدهشة شعوره المعتاد بالحزن العميق أمام اللغز الذي يحدق بأليخاندرا، والذي حكم عليه بأن يبقى غريباً عنه إلى الأبد.. لقد دلته الخبرة على أن الأمر حين كان يصل بأليخاندرا إلى هذا الحد، كانت تصبّ عليه حقدها الغريب، ذلك الحقد الملتهب الساخر الذي كان ينفجر في تلك المرحلة من علاقتهما، بقسوة، ولا يعرف مارتين له سبباً.

وعندما عادت ترمقه بتينك العينين اللتين تنمان عن السكر، أدرك أن عبارات انتقام قاسية ستخرج من بين شفتيها المشدودتين المتحفزتين ازدراء.

تأملته بكبرياء من فوق عرشها الجهنمي بعضاً من الوقت، خاله مارتين دهراً: بدت كأنها أحد آلهة الـ «أزتكس»[1] الساديين القدماء الذين يطلبون قلب ضحاياهم ساخناً. ثم قالت بصوت عنيف وخافت:

ـ لا أود أن أراك هنا...!. اذهب الآن حالاً ودعني وحدي..!.

حاول مارتين أن يعيدها إلى هدوئها، لكن ثورة غضبها اشتدت أكثر من ذي قبل. فنهضت وصرخت في وجهه أن يذهب.

نهض مارتين، كأنه تمثال متحرك. وبدأ يبتعد، تشيعه نظرات البحارة والمومسات.

وما إن أصبح في الخارج حتى بدأ الهواء البارد يعيد إليه رشده. سار باتجاه «رتيرو»، وانتهى بالجلوس على أحد مقاعد حديقة بريطانيا. كانت ساعة البرج أمامه تشير إلى الحادية عشرة والنصف ليلاً.

كان رأسه يغص بالفوضى.

حاول للحظات أن يحتفظ به مرفوعاً، لكن مقاومته سرعان ما انهارت.

---

(1) الـ «أزتكس»: شعب من الهنود الحمر موطنه المكسيك. (المترجم).

18

مضت أيام عديدة، وحين نفد صبره، أدار «مارتين» القرص ليهتف إلى الـ «بوتيك»، لكنه عندما سمع صوت «واندا» لم يجرؤ على الكلام، فعلق السماعة، وانتظر ثلاثة أيام أخرى، ثم هتف ثانية. كانت هي.

ردت أليخاندرا قائلة:

ـ ولماذا تشتاق؟. لقد اتفقنا، كما أتصور، على ألاّ نلتقي ثانية.

دارت بينهما محادثة ملتبسة، لم تكن عبارات مارتين فيها مفهومة. إلى أن وعدته أليخاندرا أن تذهب في اليوم التالي، إلى المقهى الواقع عند تقاطع شارعي «شركس» و«اسميرالدا». لكنها لم تفعل.

بعد انتظار دام أكثر من ساعة، قرر مارتين أن يذهب إلى الـ «بوتيك».

كان الباب موارباً، ورأى من موقعه في الظلمة، في ضوء مصباح خافت، «كيكي» يجلس وحيداً. لم يكن في القاعة أحد سواه، كان منزوياً مطرقاً ينظر إلى الأرض كأنه مستغرق يتأمل شيئاً ما. ظلّ مارتين واقفاً لا يدري ماذا يفعل. كان واضحاً أن أليخاندرا و واندا ليستا في القاعة الأخرى، فلو أنهما كانتا هناك، لسمع صوت حديثهما، لكن كل شيء كان غارقاً في الصمت. ومن المؤكد إذاً أنهما كانتا في غرفة «التجربة» الكائنة في الطبقة الأعلى، في القسم الخلفي من الشقة، حيث يتم الوصول إليها عبر سلم صغير، ولو لم يكن الأمر كذلك، لما كان لوجود كيكي والباب موارب أي تفسير.

ومع ذلك، لم يصمم على الدخول: شيء ما في وضع كيكي، الواجم المتوحد منعه. قد يكون ذلك الوضع الكئيب هو الذي جعله يظن أنه يرى ـ على نحو صارخ لم يكن قد لاحظه من قبل ـ كم كانت الشيخوخة قد أدركته. وشعر فجأة بأنه يشفق على ذلك الشخص الوحداني من دون أن يدرك على وجه الدقة لماذا.

وظل طيلة سنوات يتذكره هكذا ويحاول أن يفهم، هل شعر بتلك الرأفة، وذلك الإحساس الغامض بالشفقة، في تلك اللحظة بالذات، أم بعد مضي سنوات.

وتذكر ما كان «برونو» قد قال له: إنه لمن المروع دائماً، رؤية إنسان في وقت يعتقد فيه اعتقاداً مطلقاً وجازماً بأنه وحيد، فحينئذ يكون فيه شيء مأساوي، بل، وربما مقدس، ومريع ومعيب في الوقت ذاته. وقال كذلك، إننا دائماً نلبس قناعاً، لا يكون هو ذاته باستمرار، بل يتغير وفق الأدوار المقررة لنا في هذه الحياة: قناع المعلم، قناع العشيق، قناع المثقف، قناع الزوج المخدوع، قناع البطل، قناع الأخ الرؤوف. ولكن، أي قناع نضع، أو أي قناع يبقى لنا، عندما نكون في عزلة، عندما نعتقد أن أحداً لا يرانا، ولا يراقبنا، ولا يسمعنا، ولا يسألنا، ولا يتوسل إلينا، ولا يتهددنا ولا يهاجمنا...؟. لعل الطبيعة القدسية لتلك اللحظة، تعود إلى أن المرء يكون حينئذ، وجهاً لوجه، أمام الذات الإلهية، أو، في أقل تقدير، أمام ضميره الذي لا يهدأ. ولعل أحداً لا يغفر للمخلوق الذي يُباغت وهو عاري الوجه عرياً تاماً، حين يكون في تلك الحالة من عري الذات، في حالة تمثل أشد أنواع العري رهبة وكمالاً، لأنها تظهر النفس عزلاء لا تملك أي وسيلة للدفاع. ولكن الأمر يكون أشد هولاً وخزياً عندما يتعلق بمهرج مثل «كيكي»، فمن المنطقي (فكر برونو) أن يثير الشفقة أكثر من أي مخلوق بريء أو بسيط آخر. ولهذا فإن مارتين عندما قرر، في نهاية

المطاف، أن يدخل، سرعان ما انكفأ خلسة وراح يسير على الممر المؤدي إلى الـ بوتيك وهو يضرب الأرض بكعب حذائه. عندئذ ارتدى كيكي، بسرعة المهرجين ـ أمام مارتين ـ قناع الشر، قناع السذاجة والفضول الكاذب (ما الذي يمكن أن تنطوي عليه علاقة هذا الفتى بأليخاندرا...؟.) فأجهزت ابتسامته المستهترة على مشروع الشفقة الذي كان يختلج في نفس مارتين.

لم يكن مارتين ـ الذي يشعر أمام الآخرين بأنه أخرق ـ يعرف، بحضور كيكي، كيف يجلس، لأنه كان واثقاً من أنه يرصد حركاته وسكناته، ويحتفظ بها في ذاكرته الشريرة: ومن يدري أين وكيف سيهزؤون من مظهره وآلامه فيما بعد..؟. كانت حركات كيكي المسرحية وفضوله المقصود، وانطواؤه على نفسه، وعباراته البراقة، تساهم كلها في جعل مارتين يشعر كأنه حشرة تحت مجهر عالم سادي مستهتر.

قال له عندما رآه:

ـ هل تعلم أنك تذكرني بإحدى صور الـ «غريكو»...؟.

عبارة يمكن طبعاً أن تفسر ـ لأن قائلها كيكي ـ بأنها من قبيل المدح، أو الاستهزاء. فقد كان مشهوداً له بأسلوبه في المدح المبطن بالسخرية الذي يظهر في تعليقاته التي لم تكن في الحقيقة سوى انتقادات لاذعة مسمومة: «... لا يهبط أبداً إلى مستوى استعمال مجازات عميقة أبداً...»، «لا ينزلق في أي لحظة إلى إغراء أن يكون متميزاً...»، «... لا يخشى أن يواجه ملل المشاهد».

كان مارتين، كما في الزيارة السابقة، قد انزوى صامتاً فوق مقعد الرسم العالي، وانطوى غريزياً على نفسه، كما يفعل المرء أثناء الحرب،

ليعرض أصغر مساحة ممكنة من جسمه للرؤية. ولحسن حظه، بدأ كيكي يتحدث عن أليخاندرا.

ـ إنها في الغرفة مع واندا، والكونتيسة تيليكي.

وقال وهو يتفرّس فيه:

ـ أتعرف أليخاندرا منذ زمن طويل؟.

أجاب مارتين وقد تضرج وجهه:

ـ منذ بضعة أشهر.

اقترب كيكي بكرسيه منه وقال خافتاً صوته:

ـ أقول لك الحق، إني أحب آل أولموس إلى درجة العبادة. أبدأ بواقعة السكن في بارّاكاس، فهي وحدها تثير سخرية الطبقة الراقية، وتسبب آلام الكبد ونوبات الهستيريا لابنة عمي «لالا» كلما اكتشف أحدٌ أن أواصر قرابة بعيدة تربطنا بآل أولموس، فقد قالت لي غاضبة ذات مرة: هل بوسعك أن تقول لي من، أقول من، يمكن أن يسكن في بارّاكاس...؟. وأنا طبعاً طمأنتها، فقلت: لا يعيش هناك أحد سوى حوالي أربعمئة ألف جاهل، ومثل هذا العدد من الكلاب والقطط وعصافير الكناري والدجاج. وقلت: ليس من المتوقع أن يسبب هؤلاء الناس (آل أولموس) لنا أي إزعاج أبداً، فالعجوز دون بانشو يعيش في كرسي العجلات، لا يرى ولا يسمع أي شيء خارج نطاق فيلق لافاجي، ومن الصعب أن يخرج في يوم من الأيام ليقوم بزيارات في الحي الشمالي، أو يدلي بتصريحات للصحف. والعجوز اسكولاستيكا كانت مجنونة، ومع ذلك فقد ماتت. والعم بيبي، رغم أنه مجنون، فهو يعيش حبيس غرفته منصرفاً إلى تدريباته على الكلارنيت. والعمة تيريسا كانت مجنونة أيضاً، لكنها لحسن الحظ ماتت. ومع ذلك فإن تلك

المسكينة العزيزة قضت عمرها في الكنائس والمآتم، ولم يكن لديها من الوقت ما يكفي لتسيء إلى أحد في الأحياء المحترمة من المدينة، لأنها كرست حياتها لخدمة سانتا لوسيّا ولم تجتز عملياً، الخط الأحمر، حتى من أجل زيارة كاهن، أو التحري عن تطور مرض قسيس، أو الوضع الحقيقي لسرطان مطران. قلت للالا :بقي فرناندو وأليخاندرا، فصاحت ابنة عمي: مجنونان آخران..!... بئس النسل...!. والحقيقة هي أن لالا تكون هادئة جداً، إلا عندما يتعلق الأمر بآل أولموس.

سمعنا في تلك اللحظة صوت «واندا» و«الزبونة» تقتربان. وصلتا إلى القاعة، ودخلت أليخاندرا بعد قليل أيضاً. بدت كأنها تخفي دهشتها لوجود مارتين، ولكن ذلك الهدوء المتكلف الذي ألفه مارتين تماماً، كشف له عما كان يدور في نفسها من غيظ مكظوم عارم. فهي، حين ردت على تحيته في ذلك الوسط السخيف، بالود السطحي الذي يمكن أن تحيي به أياً من معارفها من دون أن تجشم نفسها مشقة الانفراد به لحظة لتبيان سبب تخلفها عن الموعد، وبمسحة الاستهتار التي ادعتها أمام واندا وكيكي، بدت له أنها تنتمي إلى جنس لا يتكلم اللغة التي يتكلم مارتين بها، وأنها لن تكون قادرة على فهم أليخاندرا الأخرى أبداً.

كانت «الزبونة» تثرثر هي و واندا باستمرار حول الضرورة الملحة لقتل «بيرون».

ـ يجب القضاء على كل أولئك الرعاع، فقد أصبحنا، نحن الناس المحترمين لا نستطيع حتى مجرد السير في الشوارع.

أغرقت سلسلة من المشاعر الغامضة والمتناقضة مارتين في الحزن أكثر فأكثر. بينما قالت المرأة بعد أن قبّلت كيكي:

ـ الحق أقول لكم، إن الشيوعية آتية. وذلك أمر فكرت فيه: إن أتت الشيوعية فسأذهب إلى المزرعة، وأبقى هناك.

كان كيكي ينظر من فوق كتفيها إلى أليخاندرا، وعلى وجهه أسارير البهجة، لأنه، كما قال فيما بعد: (كيف لم يتمكن أحد من ابتكار عبارة كتلك العبارة..؟.)

لاحظ مارتين كيف كانت أليخاندرا تعمل جاهدة كي تبدو لا مبالية، لكن وجهها أخذ يكتسي، كأنه استقل عن إرادتها، بتلك الدلالات المقيتة التي لا غنى عنها من اللوم والعذاب والتساؤل.

19

كان مارتين ينتظر أي إشارة، أو نداء، ولكن عبثاً. فقامر بكل شيء عندما اقترب منها وسألها إن كانت تستطيع أن تخرج للحظات. أجابت:

«حسناً»، وقالت لواندا:

ـ سأعود بعد بضع دقائق.

وفكر مارتين «... بضع دقائق...!.».

سارا في شارع شركس حتى مقهى منعطف شارع اسميرالدا.

قال لها:

ـ انتظرتك ساعة ونصف الساعة.

ـ حال دون حضوري عمل طارئ، ولم أجد وسيلة لأبلغك.

بعد أن صور مارتين الكارثة، حاول تغيير جرس صوته، وتناول الأمور بشيء من الهدوء واللامبالاة، ولكن ذلك كان مستحيلاً:

ـ تبدين أمام أولئك الناس إنساناً آخر، لا أتصور أن..

صمت. ثم أضاف بعد ذلك قائلاً:

ـ أعتقد أنك إنسان آخر حقاً...!.

لاذت أليخاندرا بالصمت ولم تجب.

ـ أليس كذلك؟.

ـ ربما.

قال مارتين:

- أليخاندرا، متى تكونين أنت، بشخصيتك الحقيقة. متى؟.

- أحاول أن أكون دائماً أنا بشخصيتي الحقيقية يامارتين.

- ولكن كيف يمكنك أن تنسي لحظات كالتي قضيناها معاً؟.

عاد الغضب يستولي عليها:

- ومن قال لك إنني نسيتها؟.

ثم أضافت بعد لحظة صمت:

- ولذلك، لأنني لا أود أن تصاب بالجنون، أفضل ألا أراك أبداً.

كانت متجهمة، صامتة، ومراوغة، فقالت بغتة:

- لا أود أن نقضي مثل تلك اللحظات ثانية.

ثم أضافت بسخرية وقسوة:

- تلك اللحظات الشهيرة التي ترقى إلى درجة الكمال.

تأملها مارتين يائساً، ليس السبب ما قالته وحسب، بل لهجتها القاطعة أيضاً.

- ستتساءل الآن، لماذا أعاملك بمثل هذا الاستهتار، ولماذا أجعلك تتألم هكذا، أليس كذلك..؟.

بدأ مارتين ينظر إلى بقعة بنيَّة على غطاء وردي وسخ.

فأضافت قائلة:

- حسناً لست أدري. كما أنني لست أدري أيضاً لماذا لا أريد أن أشاركك تلك اللحظات الشهيرة ثانية. ينبغي أن تفهم يا مارتين: هذا يجب أن ينتهي إلى الأبد. يعتور هذه العلاقة خلل ما. وإنه لمن الأفضل ألاّ نلتقي أبداً.

قال مارتين وقد اغرورقت عيناه بالدموع.

ـ إن تخليت عني، سوف انتحر.

رمقته أليخاندرا بنظرة حادة، ثم قالت بلهجة غريبة، تنم عن مزيج من القسوة والكآبة:

ـ ليس بوسعي أن أفعل شيئاً يا مارتين.

ـ ألا يعنيك الأمر لو انتحرت..؟.

ـ بلى. وكيف لا يعنيني؟.

ـ ولكنك لن تفعلي شيئاً لتحولي دونه.

ـ وكيف يمكنني أن أحول دونه؟.

ـ انتحاري إذاً، أو بقائي حياً عندك سيان.

ـ لم اقل ذلك، ليس الأمر سيان، أخال أن انتحارك أمر فظيع.

ـ ستهتمين كثيراً؟.

ـ جداً.

ـ وإذاً؟.

نظر إليها باهتمام وقلق، كمن ينظر إلى امرئ يتعرض لخطر وشيك ويفتش عن أي إشارة مهما صغرت، لإنقاذه. فكر «لا، لا يمكن.. إن شخصاً قضى وإياي تلك الأمور التي انقضت منذ أسابيع قليلة، لا يمكن أن يصدق حقاً كل هذا...».

ألحَّ يسأل:

ـ وإذاً...؟.

ـ إذاً، ماذا..؟.

ـ أقول لك، لو انتحرت، بإلقاء نفسي تحت القطار في إحدى

محطات «رتيرو» أو الـ «مترو» سيكون الأمر عندك سواء..؟.

ـ لقد قلت لك إنه لن يكون سواء، بل سأحزن بشكل مريع.

ـ ولكنكِ ستبقين حية.

لم تجب، حركت ما تبقى في الكوب من قهوة، ونظرت إلى قعره.

ـ ذلك يعني أن كل ما قضيناه معاً في الأشهر المنصرمة، لم يكن سوى نفايات يجب أن نلقي بها إلى الشارع..!.

قالت وهي توشك أن تصرخ:

ـ لم يقل لك أحد ذلك.

لاذ مارتين بالصمت حائراً معذباً ثم قال:

ـ لا أفهمك يا أليخاندرا، وفي الواقع، ما فهمتك قط. إن هذا الذي تقولينه وهذا الذي تفعلينه يناقض ما مضى أيضاً.

حاول جاهداً أن يفكر.

أما أليخاندرا فكانت مكتئبة، ولعلها لم تكن تسمع ما يقول، بل تنظر إلى الشارع وحسب.

فعاد مارتين يلحف بالسؤال:

ـ وإذاً..؟.

فردت بجفاء:

ـ أبداً، لن نلتقي ثانية. هذا أفضل لكلينا.

ـ أليخاندرا: لا أستطيع احتمال فكرة عدم رؤيتك بعد الآن. أود أن أراك مهما كان، وعلى النحو الذي يروقك.

لم تجب أليخاندرا بشيء، بل بدأت الدموع تنهمر من عينيها. بيد أن علامات القسوة، والشرود لم تفارق محياها.

- ماذا يا أليخاندرا؟.

- لا يا مارتين، أمقت الأمور المعلقة لأنها ستؤدي، إما إلى تكرار مشاهد تسبب لك الكثير من الألم، مثل هذا المشهد، وإما إلى العودة لنلتقي مثل لقاء يوم الإثنين، وهذا ما لا أريده. أتفهم؟. لا أريد أن أضاجعك ثانية مهما كلف الأمر.

صاح مارتين وهو يمسك بيدها:

- ولكن، لماذا؟.

وأحس على نحو صاخب، أن شيئاً ما، شيئاً بالغ الأهمية ما زال باقياً، رغم ذلك، بينهما.

فصرخت وهي ترمقه بنظرة تنم عن الحقد، بعد أن نزعت يدها من بين يديه.

- ولم لا..!.

فتمتم مارتين:

- لا أفهمك.. ولم أفهمك قط.

- لا تقلق، وأنا لا أفهم نفسي أيضاً، ولا أدري لِمَ أفعل بك كل هذا. ولا أدري لماذا أجعلك تتألم هكذا.

ثم صرخت وهي تستر وجهها.

- يا للهول..!.

وفيما كانت تغطي محياها بيديها، بدأت تنتحب على نحو هستيري وتردد وهي تتنهد «يا للهول.. يا للهول..!.».

نادراً ما رآها مارتين، طيلة المدة التي استغرقتها علاقتهما تبكي. لقد كان بكاؤها يثير استغرابه دائماً، ويكاد يثير الرعب في نفسه. فقد كانت دموعها تنهمر وكأنها تنين جريح جرحاً مميتاً. ولكن تلك الدموع (التي كان يفترض

أنها دموع التنين) كانت مخيفة، لم تكن تدل على الضعف أو الحاجة إلى العطف، كانت تبدو كأنها قطرات حقد مرّ سائل غزير يغلي.

ومع ذلك، فإن مارتين أقدم على الإمساك بيديها محاولاً أن يكشف عن محياها برقة، وبحزم أيضاً.

ـ كم تعانين يا أليخاندرا..!.

وتمتمت من تحت يديها، بجرس لا يمكن معرفة ما إن كان ينم عن الغضب أو الاحتقار أو السخرية أو الشفقة، أو كل تلك المشاعر مجتمعة.

ـ أما زلت ترأف بي..!.

ـ نعم يا أليخاندرا.. أرأف بك طبعاً، ألا أرى أنك تتألمين على نحو مريع..؟. لا أريدك أن تتألمي، أقسم لك أن ذلك لن يتكرر أبداً.

بدأت تهدأ شيئاً فشيئاً، ثم مسحت عبراتها بمنديل وقالت:

ـ لا يا مارتين. يفضل ألا نلتقي بعد الآن، لأننا، آجلاً أم عاجلاً، لا بد أن نفترق، وعلى نحو قد يكون أسوأ. لا أستطيع السيطرة على الأهوال التي تدور في داخلي.

ثم عاودت ستر وجهها بيديها، وعاود مارتين محاولة الإمساك بهما والكشف عنه.

ـ لا يا أليخاندرا، لن يؤذي أحدنا الآخر. سوف ترين، لقد كنت السبب، لأنني كنت أصر على رؤيتك، وعلى الذهاب للبحث عنك.

وأضاف وهو يحاول أن يضحك:

ـ وكأن أحداً ذهب للبحث عن الدكتور ***«جيكل»*** ووجد نفسه مع السيد ***«هيد»*** في الليل ملثماً، ومع مخالب ***«فريدريك مارش»***، أليس كذلك يا أليخاندرا..؟. سنلتقي عندما تودين أنت وحسب، عندما تهتفين إلي أنت، وعندما تشعرين بأنك على ما يرام.

لم تجب أليخاندرا.

انقضت دقائق طويلة، ومارتين يزداد قنوطاً بمرور ذلك الزمن عبثاً. لأنه كان يعلم أنها تأخرت، وينبغي أن تعود، وأنها ما بين لحظة وأخرى سوف تذهب وأنها ستخلفه، في هذه الحالة من الانهيار الكامل، لتحل بعد ذلك الأيام السوداء وهو بعيد عنها، ناءٍ عن حياتها.

وحدث ما كان لا بد أن يحدث: نظرت إلى ساعة معصمها وقالت:

ـ ينبغي أن أذهب.

ـ لا، لن نفترق هكذا يا أليخاندرا. إنه لأمر مروع. لنقرر قبل ذلك ماذا سنفعل.

ـ لست أدري يا مارتين، لست أدري.

ـ لنقرر على أقل تقدير أن نلتقي في يوم آخر، لا نكون فيه على عجلة من أمرنا. لنقرر ألا نبت بأي شيء الآن.

وفيما هما خارجان، فكر مارتين، ما أقل ما بقي، يا لهول ما بقي لكي يجتاز مئتي المتر الباقية..!. سارا ببطء، ومع ذلك، هاقد بقيت خمسون خطوة، عشرون خطوة، عشر خطوات، لا شيء. عندئذ، أمسك مارتين بذراعها يائساً وتشبث به وهو يتوسل أن يلتقيا ولو مرة واحدة فقط.

نظرت إليه أليخاندرا نظرة بدت أنها آتية من بعيد جداً. من مكان ناءٍ إلى حد يثير الحزن.

توسل إليها والدموع ملء عينيه.

ـ عديني يا أليخاندرا..!.

نظرت إليه ملياً:

ـ حسناً، حسناً، غداً عند الساعة السادسة عصراً في «آدام».

20

كانت الساعات تمضي طويلة أليمة: كمن يتسلق جبلاً، لاتكاد نهاياته للوصول إلى القمة تقهر. وكانت مشاعره معقدة. يشعر بالسعادة الجياشة لأنه سيراها ثانية، ويراوده شعور بأن ذلك اللقاء سيكون لقاءاً آخر، لعله الأخير.

كان قبل الساعة السادسة بوقت طويل في مقهى «آدام» ينظر نحو الباب.

وصلت بعد أن تجاوزت الساعة السادسة والنصف.

لم تكن أليخاندرا أمس العدوانية، ولكن كان يبدو عليها ذلك الشرود الذي يقلق مارتين كثيراً.

ولماذا أتت إذاً؟.

كان يتعين على النادل أن يردد السؤال على مسامعها مرتين أو ثلاثاً، فطلبت كأساً من الـ «جين»، ثم نظرت إلى ساعتها، الملعونة.

قال مارتين بحزن ساخر:

ـ ماذا.. أيتعين عليك أن تذهبي؟.

نظرت إليه أليخاندرا شاردة، من دون أن تدرك ما انطوت عليه لهجته من سخرية، ثم قالت. لا. ما زال لدي بعد، بضع دقائق. فأطرق مارتين، وحرك كأسه.

ولم يستطع أن يمسك عن القول:

ـ لماذا أتيت إذاً..؟.

نظرت إليه أليخاندرا: وكأنها تحاول أن تركز انتباهها.

ـ لقد وعدتك.. أليس كذلك؟.

ما إن أتى النادل بكأس الـ «جين» حتى جرعته دفعة واحدة. ثم قالت:

ـ هيا بنا نخرج. أود أن أتنشق قليلاً من الهواء.

عندما خرجا، اتجهت أليخاندرا نحو الحديقة. صعدت في الممر فوق العشب إلى أن استقرت على أحد المقاعد المواجهة للنهر.

لاذا بالصمت مدة طويلة، لكنها سرعان ما قالت:

ـ يا للحقد كم هو مريح..!.

كان مارتين يتأمل برج الإنكليز تسجل ساعته مرور الزمن، ومن خلفه مجمع شركة الكهرباء منتصباً بمداخنه الضخمة، والمرفأ الجديد برافعاته وشاحناته: كحيوانات أسطورية من عصر ما قبل الطوفان، تنحني بمناقيرها الفولاذية، ورؤوسها التي تشبه رؤوس طيور عملاقة، إلى الأسفل، كأنها تنقر بها البواخر.

شاهد صامتاً مكتئباً كيف كان الليل يخيم على المدينة، وكيف بدأت الأضواء الحمراء في أعلى المداخن والأبراج، والإعلانات المتلألئة في حديقة «رتيرو»، والمصابيح المنيرة في الساحة، تنعكس على السماء الزرقاء المسودة، بينما يخرج آلاف الرجال والنساء مسرعين من بوابات محطات الـ «ميترو» ليدخلوا بقلقهم اليومي المعهود ذاته بوابات محطات قطارات الضواحي. تأمل ملياً في مبنى الـ «كافاناج» حيث بدأ النور يضيء بعض النوافذ. هناك في الأعلى، في الطبقة الثلاثين أو الخامسة والثلاثين، ربما في غرفة رجل وحداني صغيرة، أضيء نور كذلك. كم من إنسان بين هؤلاء يلوعه الفراق مثله..!. وكم من مخلوق تحف به العزلة مثله، في ناطحة السحاب تلك، فقط..!.

ثم سمع ما كان، بين لحظة وأخرى، يخشى سماعه:

ـ يتعين علي أن أذهب.

ـ الآن..؟.

ـ نعم.

انحدرا معاً يسيران على الممر فوق العشب، وما إن وصلا إلى آخره حتى ودعته وبدأت تسير. تبعها مارتين بضع خطوات.

وكأن شخصاً آخر غيره صاح:

ـ أليخاندرا..!.

وقفت وانتظرت. كان مصباح واجهة أحد محلات بيع الأسلحة يلقي ضياءه عليها: كان وجهها متجهّماً، وكانت ملامحها متصلبة، ولكن أشد ما كان يؤلمه ذلك الحقد. أي ذنب ارتكب بحقها.؟. سأل من دون أن يفكر، مدفوعاً بآلامه. لكنها توترت أكثر من ذي قبل، وارتدّت نظرتها نحو الواجهة.

ـ لم يكن لدي ما أقدمه سوى الحنان والقدرة على التفاهم.

كل ما قالته أليخاندرا أنها لا تستطيع البقاء ولا دقيقة واحدة: ينبغي أن تكون في مكان آخر عند الساعة الثامنة.

رأى كيف كانت تبتعد.

وقرر فجأة أن يتبعها. وماذا يمكن أن يحدث أسوأ مما حدث، لو تنبهت إليه..؟.

سارت أليخاندرا في شارع «ريكونكستا» ودخلت حانة ومطعماً صغيراً يدعى «أوكرانيا». اقترب مارتين بحذر شديد، وبدأ يتلصص من موقعه في الظلمة. انقبض قلبه وتصلب، كأنه انتزع من صدره وترك وحيداً فوق لوح من جليد، لقد كانت أليخاندرا تجلس قبالة رجل بدا له

مشؤوماً كالحانة نفسها، أسمر البشرة، فاتح العينين، لعلهما رماديتان. كان شعره منسدلاً بدا فيه الشيب، ومُشط نحو الخلف. وكانت قسماته صلبة، وبدا وجهه كأنه منحوت بفأس. لم يكن ذلك الرجل قوياً وحسب، بل كان يتمتع بجمال غامض. كانت آلام مارتين هائلة، غير أنه، أمام ذلك الغريب، شعر بأنها أمر يسير، ولم يعد يهتم بأي شيء، فكان كمن يردد: ***وماذا يمكن أن يحدث أشد هولاً من هذا؟***. استطاع في غمرة حزنه وذهوله أن يتابع تعابير وجهه، وسكناته، وحركات يديه. كان يتحدث قليلاً، وعندما يفعل، تكون جملة مختصرة وقصيرة. وكانت يداه الضامرتان العصبيتان تبدوان، كأن رابطة قربى تشدهما إلى مخالب صقر أو عقاب. نعم: كل ما في ذلك الرجل ينطوي على شيء من طير جارح: أنفه حاد وجبار كأنف صقر، ويداه بارزة عظامهما، متحفزتان لا ترحمان. كان ذلك الرجل قاسياً وأهلاً للقيام بأي شيء.

وجده مارتين شبيهاً بأحد ما، لكنه لم يتمكن من أن يتذكر من هو. فكر لأول وهلة أنه قد يكون رآه في مناسبة ما، لأن وجهه لم يكن من الوجوه التي يمكن أن تنسى. فلو رآه في مناسبة واحدة فقط، كان لا بد أن يعرفه الآن.

كانت أليخاندرا تتكلم بعصبية. أمر غريب: كانا فظين كلاهما، ويبدوان متباغضين، ومع ذلك، فإن هذه الفكرة لم تهدئ من روعه، بل، على النقيض من ذلك، تضاعف قلقه عندما تنبه لها، لماذا..؟. حتى بدا له أنه فهم الحقيقة عندما فكر: إن ما يربط بين هذين المخلوقين، عاطفة وثيقة. كأنهما نسران متحابان، ومع ذلك، يمكنهما أو بودهما أن يتعاركا وينشب كل منهما منقاره ومخالبه في جسم الآخر حتى يقضي عليه. وعندما رأى أليخاندرا تتناول بإحدى يديها يد، بل مخلب ذلك المخلوق، شعر مارتين منذ تلك اللحظة بأن الأمور قد استوت جميعها، وأن العالم فقد كل معنى.

21

كان يتجول عند الفجر حينما اهتدى فجأة: إن ذلك الرجل يشبه أليخاندرا..!. وتذكر من فوره، المشهد في البرج، عندما لم تكد تنطق باسم فرناندو، حتى انكفأت بغتة، كأنها نطقت باسم يجب أن يبقى طي الكتمان.

وفكر: (ذلك الرجل، هو فرناندو..!.).

العينان الرماديتان الخضراوان، الوجنتان المنغوليتان قليلاً، اللون القاتم. والوجه، وجه «ترينيداد أرياس»..!. طبعاً: لقد وضح له الآن لماذا شعر بأنه يعرفه: فيه مَشَابِه كثيرة من أليخاندرا ومن ترينيداد أرياس صاحبة الوجه الذي رأى صورته هو و أليخاندرا التي سبق أن قالت «هي وفرناندو فقط». كأنما تعيش معزولةً عن العالم مع رجل. مع رجل أدرك الآن أنها كانت تحبه جداً.

ولكن، من فرناندو؟. شقيق أكبر: أخ لم تكن تود ذكر اسمه. إن الفكرة التي أوحت له بأن ذلك الرجل شقيقها خلفته شبه مطمئن، في حين كان يجب أن تطمئنه تماماً. فتساءل، لماذا لاأشعر أنني سعيد؟. لم يعثر في تلك اللحظة على إجابة عن ذلك السؤال. لكنه أدرك فقط، أنه كان يجب أن يطمئن، بيد أنه لم يتمكن.

لم يستطع أنْ ينام نوماً هادئاً: كان كمن يظن أن وطواطاً تسلل إلى الغرفة التي ينام فيها. وكان طيلة ذلك الوقت يلف ويدور حول ذلك

المشهد الذي رآه، ويحاول أن يكتشف سبب عدم اطمئنانه، إلى أن ظن أنه وجده: اليد..!. تذكر فجأة، وبمرارة، كيف كانت تربت على يده. لم تكن تلك طريقة مألوفة بين أخت وأخيها..!. كانت تعيش وهي تفكر فيه: هو المنوم المغناطيسي الذي كانت تهرب منه، ولكن مهما طال الزمن كان لا بد من أن تعود إليه كالمجنونة. ظن أنه فسّر الآن كثيراً من تحركاتها الغامضة المتناقضة.

ولكن ما إن حسب أنه عثر على مفتاح السر، حتى وقع من جديد في حيرة أشد وطأة: مسألة الشبه. فمما لا شك فيه أن ذلك الرجل كان أحد أفراد أسرتها. فكر بأنه قد يكون ابن عمها. نعم، إنه ابن عمها، ويدعى فرناندو.

لا يمكن أن يكون الأمر إلا كذلك. فهذا الافتراض يفسر كل شيء: الشبه الواضح. وتحفظها الفجائي تلك الليلة، عندما زلّ لسانها وذكرت اسم فرناندو.

إن ذلك الاسم (فكر) لغز، اسم سري: (كلهم إلا فرناندو وأنا)، هذا ما قالته من دون قصد، ثم توقفت فجأة، ولم تجب عن سؤاله. لقد فهم الآن كل شيء: هي، وهو، يعيشان معزولين، كل في عالمه الخاص، وكبريائه. وهي تحبه، تحب فرناندو، ولهذا ندمت عندما نطقت أمامه، أمام مارتين بتلك الكلمة الكاشفة.

كانت الأيام تمضي فتزيده اضطراباً وقلقاً، حتى لم يعد يحتمل، فهتف إلى أليخاندرا وقال إن أمراً طارئاً يتعين عليه أن يحدثها عنه: مسألة واحدة فقط. حتى وإن كانت الأخيرة. وعندما التقيا، لم يكد يستطيع أن يتكلم.

22

قالت بلهجة تتسم بالعنف:

ـ ماذا دهاك..؟.

لأنها أدركت أن مارتين كان يشعر بالإهانة من أمر ما قد حدث. وهذا ما أثار حفيظتها، فقد كرر ذلك عدة مرات، وليس له أن يمارس أي سلطة عليها. وهي لم تَعِدْه بشيء، وليست مضطرة إلى تقديم أي تفسير، الآن بصورة خاصة، بعد أن قررت وضع حد نهائي لعلاقتها به.

نفى مارتين بإيماءة من رأسه. لكن عينيه غصتا بالدموع.

قالت له وهي تهزه من ذراعيه:

ـ قل لي، ما الذي جرى لك؟.

انتظرت لحظات وهي تحملق إلى عينيه.

ـ أود أن أعرف أمراً واحداً يا أليخاندرا: أود أن أعرف من فرناندو.

اكفهر وجهها. ولمعت عيناها، وسألت:

ـ فرناندو؟. من أين أتيت بهذا الاسم؟.

ـ أنتِ التي أتيت على ذكره في غرفتك، تلك الليلة، عندما كنت تحدثينني عن تاريخ أسرتك.

ـ وما أهمية تلك الحماقة؟.

ـ إنها تعنيني أكثر مما تتصورين.

ـ لماذا؟.

ـ لأنه بدا لي آنذاك، أنك ندمت عندما بحت بتلك الكلمة، بذلك الاسم، أليس كذلك؟.

ـ لنفترض أن الأمر كان كذلك، فمن منحك الحق باستجوابي؟.

ـ أعرف أنني لا أملك أي حق، ولكن، أستحلفك بأغلى ما تحبين، أن تقولي من فرناندو. أهو شقيقك؟.

ـ ليس لي أخوة ولا أخوات.

ـ إذاً، هو ابن عمك.

ـ ولماذا ينبغي أن يكون ابن عمي؟.

ـ قلت إنك وفرناندو من بين جميع أفراد الأسرة، لستما وحدويين. لذلك أظن إنه، إن لم يكن شقيقك، فمن الراجح أن يكون ابن عمك، أليس كذلك؟. أليس ابن عمك؟.

تراخت يدا ها الممسكتان بذراعي مارتين، ولاذت أليخاندرا بالصمت والكآبة.

أشعلت لفافة. ثم قالت:

ـ يا مارتين: إن كنت تود أن أكنّ لك في نفسي ذكرى طيبة، فلا توجه إلي أي أسئلة.

ـ سؤال واحد فقط.

ـ ولكن، لماذا؟.

ـ لأنه يعنيني جداً.

ـ ولماذا يعنيك جداً؟.

ـ لأنني توصلت إلى نتيجة، هي أنك تحبين ذلك الشخص.

عادت أليخاندرا إلى أسوأ حالاتها، فهيمنت القسوة على ملامحها وتطاير الشرر من عينيها:

ـ وما الأسس التي استندت إليها؟.

ـ الحدس فقط.

ـ أنت مخطئ إذاً. فأنا لا أحب فرناندو.

ـ حسناً، لعلي لم أحسن التعبير، كنت أعني إنك مغرمة به. إنك تعشقينه، لعلك لا تريدينه، لكنك كَلِفة به.

قال تلك العبارات بصوت واهن.

أمسكت أليخاندرا ذراعيه بيديها القاسيتين القويتين (وفكر مارتين بألم مروع. إنهما مثل يديه..!. نعم، مثل يديه تماماً..!.) وقالت بصوت يغصّ بالحقد والغضب وهي تهزه بشدة:

ـ كنت تتبعني..!.

فصاح:

ـ لقد تبعتك حتى تلك الحانة في شارع «ريكونكيستا» ورأيتك تجلسين مع رجل يشبهك. وهو الشخص الذي تعشقين.

ـ وكيف تعرف أن ذلك الرجل هو فرناندو؟.

ـ لأنه يشبهك.. ولأنك قلت إن فرناندو أحد أفراد أسرتك، ولأنني خلت إن بينك وبينه سراً ما، وكأنكما، أنت وهو، تقومان بأمر خاص بمعزل عن الآخرين، ولأنك ندمت عندما نطقت باسمه، ولأنك كنت تمسكين يده على نحو مريب.

هزته أليخاندرا هزاً عنيفاً، بينما هو مستسلم بين يديها كجسم رخو خامد. ثم تركته وغطت وجهها بكلتا يديها، كأنما تريد أن تنشب فيه

أظافرها، وبدأت تجهش ببكاء جاف كعادتها، وسمع، من بين يديها صراخها وهي تقول:

ـ أيها الأحمق..!. أيها الأحمق..!. إن ذلك الرجل أبي..!.

ثم ذهبت تعدو بسرعة.

ومكث مارتين جامداً، لا يدري ماذا يفعل أو يقول.

23

عندما نطقت اليخاندرا بتلك الكلمات المريعة، بدا كأن ضربة طبل هائلة دوت، ثم حلت بعدها الظلمات، فشعر مارتين بأنه غارق في حلم عميق، أسود ثقيل، كأنه ينام في قعر بحر من رصاص سائل. ظل أياماً عديدة هائماً على وجهه، يجوب شوارع بوينس آيرس، ويفكر بأن ذلك المخلوق الرائع من المجهول أتى، و إلى المجهول عاد الآن. وفجأة أخذ يردّد في دخيلته، *البيت، البيت*، كلمات مبعثرة، تبدو بلا معنى، ولكنها تمت بصلة إلى ذلك الإنسان الذي يأوي، في خضم العاصفة وعندما يمزق البرق والرعد حجب الظلمات، إلى الملجأ الدافئ المألوف، إلى كهفه المفعم بالحنو، البيت، دفء وملجأ مضيء حنون، ولذلك فإن العزلة تكون (كما قال برونو) أشد وطأة في ديار الغربة، لأن الوطن كالبيت والدفء والطفولة، وكحضن الأم. ووجود المرء في ديار الغربة، أمر كئيب، كالسكن في فندق مجهول، لا يكترث بأحد؛ لا ذكريات ولا أنساب ولا طفولة، ولا خيالات. فالوطن هو الطفولة، ولعله كان من الأولى أن يكون مؤنثاً كالأمومة. إنه ينطوي على معنى الحماية والدفء في أوقات الوحدة والبرد. ولكن متى كان لمارتين أم..؟. ثم، إن هذا الوطن، يبدو قاسياً لا يؤوي ولا يحمي ولا يرحم. لأن مصيبتنا (كما قال برونو أيضاً، ولكن مارتين لا يتذكر الآن ذلك، إنما يحس به إحساساً حقيقياً كأنه في الخلاء وسط عاصفة هوجاء) مصيبتنا أننا عندما بدأ العالم الذي مدّنا بأسباب وجودنا يهتز ثم ينهار، لم نكن قد فرغنا بعد

من بناء أمة، ولذلك ليس لدينا هنا، حتى مظاهر الخلود، كالحجارة التي تعود إلى آلاف السنين، كما في أوروبا أو المكسيك أو كوسكو[1]. ونحن أيضاً (قال)، لسنا أوربا ولا أمريكا، وإنما بلد مضعضع، غير مستقر، مأساوي، مضطرب يعصف به الشقاق والتمزق. ولذلك فإن كل شيء هنا عابر وهش، ليس ثمة أي شيء راسخ نتشبث به، وحتى الإنسان يبدو عرضة للفناء، وحياته قصيرة سريعة الزوال. وهو(مارتين) الذي كان ينشد في خضم الكارثة، شيئاً قوياً ومطلقاً يتشبث به، وكهفاً دافئاً يأوي إليه، لم يكن لديه بيت ولا وطن. وما كان أسوأ من ذلك، أنه كان يملك بيتاً مبنياً فوق القذارة وخيبة الأمل، ووطناً مضعضعاً مبهماً غامضاً. وهكذا كان يشعر أنه وحيد، وحيد، وحيد: وهي الكلمات الوحيدة التي شعر بها، وفكر فيها بوضوح، وكانت بالتأكيد، تعبر عن كل ذلك. لقد كان مثل غريق في ظلمة الليل، يندفع نحو أليخاندرا، ولكنه كان كمن يبحث عن ملاذ في كهف اقتحمت أعماقه بغتة وحوش ضارية.

(1) كوسكو: بلدة في البيرو، تقع وسط جبال «لوس أندس» على ارتفاع 3650 م عن سطح البحر، كانت عاصمة هنود «الإنكا» ومركز حضارة هامة. (المترجم).

24

وفجأة: وجد نفسه في أحد تلك الأيام التي لا معنى لها، مندفعاً بين أناس يركضون، بينما تزأر في الأعلى طائرات نفاثة، والناس يصرخون: إلى *ساحة أيار/ مايو*، بين شاحنات محملة بعمال، تنطلق إلى هناك بجنون، وصيحات ملتبسة، وشبح الطائرات الخاطف فوق ناطحات السحاب. ثم، دويّ القنابل، وأزيز رصاص الرشاشات والمدافع المضادة للطائرات. والناس باستمرار يركضون، يدخلون الأبنية جماعات، وما إن تمضي الطائرات حتى يخرجوا من جديد، يتحدثون بعصبية وفضول إلى أن تعود، فيهرعون إلى الداخل ثانية. في حين ينظر أناس آخرون، وهم قرب الجدران (كما لو أن الأمر مجرد هطول مطر) أو يشيرون بأيديهم الممتدة باتجاهات غير معينة، حيرة وفضولاً.

ثم حل الليل. وبدأ المطر يتساقط بصمت فوق مدينة غارقة في الرعب وغاصة بالإشاعات.

25

كانت وطأة الوحشة كئيبة، وألقت الحرائق، في الليل، على السماء الرمادية بريقاً مشؤوماً.

كانت الطبول تقرع كما في مهرجان مجانين.

هاهو الآن أمام الكنيسة مندفع وراء قوم سيطر عليهم الجنون والفوضى، يحمل بعضهم مسدسات ومدى. قال أحدهم (إنهم من الحلف)، وفجأة تأججت نيران النفط الذي سكبوه على الأبواب. ودخلوا يصخبون ويصرخون. جروا المقاعد وألقوا بها على الأبواب واشتدت النيران لهيباً. وحمل آخرون كراسي المصلين، وتماثيل ومقاعد، إلى وسط الشارع. كان المطر يتساقط بطيئاً لا يكترث بما يحدث. دفقوا النفط، فاضطرم الخشب يحترق بجنون، وسط هبات الريح القارسة. وتعالى الصياح ولعلع الرصاص، وركض بعضهم، ولجأ بعضهم الآخر إلى مداخل الأبنية المقابلة، واحتمى آخرون بالجدران تبهرهم النيران والفوضى.

رفع أحدهم بين ساعديه تمثال العذراء ليلقي به إلى السنة اللهيب، ولكن فتى آخر كان يقف بجانب مارتين، وهو عامل ذو ملامح هندية صاح: (هاتها..!. لا تحرقها..!.).

فقال الآخر والتمثال مرفوع بين ذراعيه، بينما ينظر إليه بغضب:

ـ ماذا..؟.

وأجابه الفتى:

ـ لا تحرقها، لعلي أرتزق منها بعض النقود.

أنزل الآخر التمثال وأومأ إليه برأسه ليأخذه. ثم بدأ يلقي مقاعد ولوحات في النار.

أصبح تمثال العذراء الآن بحوزة الفتى، مطروحاً أرضاً قرب قدميه. بحث عمن يساعده. رأى شرطياً يعاين المشهد فطلب مساعدته لإخراج التمثال من الكنيسة.

نصحه الشرطي قائلاً:

ـ لا تزج نفسك في المشاكل أيها الفتى.

اقترب مارتين وقال له:

ـ أنا أساعدك.

فقال الفتى العامل:

ـ حسناً، امسك من الأسفل.

خرجا. كان المطر لا يزال يهطل في الخارج، ولكن الحريق في الشارع يمتد، وكل شيء يتأجج وسط النفط والماء. وامرأة شقراء، طويلة القوام شعرها منسدل أشعث، تحمل محراكاً برونزياً، تستخدمه كعكاز، وتجر كيساً غاصاً بالتماثيل وأدوات العبادة. قالت:

ـ يا لكم من أوغاد..!.

صرخوا في وجهها:

ـ اخرسي أيتها المجنونة.

قالت:

ـ أيها الأوغاد..!. سيكون الجحيم مصيركم جميعاً.

كانت تشق طريقها، تجر كيسها الضخم، وبالمحراك تدافع عن نفسها.

لمس أحد الفتية جسدها بفجور. وانهال آخر عليها بسيل من الشتائم، ولكنها كانت تتقدم بحزم، يحميها المحراك، وتردد قائلة: أيها الأوغاد.

وصرخوا:

ـ اذهبي أيتها المتدينة كذباً وتملقاً...!.

لم تأبه بهم بل كانت تشق طريقها وتردد بصوت جاف أجش، ينم عن الصلف والقسوة والصلابة: «أيها الأوغاد...!.».

وكانوا يصرخون:

ـ دعوها، إنها مجنونة.

كانت هناك امرأة ذات ملامح هندية، تحمل بيدها عصاً كبيرة تحرك بها النار، وتراقبها كأنها أمام موقد شواء ضخم.

وبينما كانوا يصرخون:

ـ إنها مجنونة. دعوها تمضي في سبيلها.

كانت المرأة الشقراء تتقدم بالكيس. تشق طريقها، بين فتية وفتيات يكيلون لها الشتائم، ويقذفونها بجذوات ملتهبة، ويحاولون مس جسدها.

ارتفعت الآن ألسنة النيران من مبنى الأسقفية: تلتهم الأوراق والسجلات، بينما كان رجل أسمر اللون، يعتمر قبعة، يضحك على نحو هستيري، ويقذف حجارة وأنقاضاً وقطعاً من بلاط الرصيف.

غابت المرأة الشقراء عن الدائرة المضيئة.

وتناهت إلى المسامع أنغام موسيقى احتفالية تصدح ببهجة.

كانت الحركات البهلوانية تبدو في ضوء ألسنة النيران بالغة الغرابة.

وكانت أواني القربان تستخدم كصنوج: مقنعون بألبسة الرهبان،

يرفعون الكؤوس والصلبان ويرسمون الحركات الإيقاعية بالمشاعل المذهبة.

عاد يسمع صوت طلقات، يعقبها تراكض الناس. لا يعرف أحد مصدرها ومن وراءها. ودبت الفوضى. سُمع من يقول: (إنهم جماعة الحلف)، وكان آخرون يدعون لضبط النفس، والحفاظ على النظام، وآخرون يركضون أو يصرخون: (سيأتون الآن...)، أو(الزموا الهدوء يا شباب).

والنار في وسط الشارع تمتد وتتأجج. ومجموعة من الفتية والفتيات يلقون بكرسي الاعتراف. ويأتون بالتماثيل واللوحات تباعاً.

كان هناك رجل يجر تمثال المسيح. وفجأة، ظهرت امرأة تصيح غاضبة مزمجرة:

ـ هاته.

ويرمقها الرجل بنظرة ازدراء ويقول:

ـ ماذا؟.

لحقت المرأة بالرجل، وأمسكت بالمسيح من رجليه، لتحول دون جره على الأرض.

وصاح الرجل:

ـ دَعِيه.

فصرخت المرأة:

ـ هاته

بقي المسيح معلقاً في الهواء، وهما يتنازعانه.

وقال الفتى الذي أخرج تمثال العذراء من الكنيسة:

ـ تعالي يا سيدتي.

فقالت المرأة وهي متمسكة برجلي المسيح.

ـ ماذا..؟.

ـ تعالي، دعي هذا.

فقالت المرأة كالمجنونة:

ـ ماذا تقول؟.

فقال لها:

ـ خذي هذا التمثال.

بدت كأنها مترددة، ولم تتخل عن المسيح الذي كان يهتز بين يديها.

فقال الفتى:

ـ تعالي يا سيدتي.

ترددت قليلاً، لكن الرجل شد المسيح بقوة، وانتزعه من بين يديها فنظرت إليه كالبلهاء، بينما كان يبتعد. ثم ارتدّت نظرتها إلى العذراء الملقاة على الأرض بجانب الفتى.

قال الفتى:

ـ تعالي يا سيدتي.

اقتربت المرأة فقال لها:

ـ إنها سيدة البؤساء.

رنت إليه المرأة ولم تفهم ما يعنيه، بدا أنها لم تفهم: كان الفتى أحد أتباع «بيرون» وربما فكرت أنهم يودون النيل منها.

قال مارتين:

ـ نعم يا سيدتي. أخرجناها من الكنيسة، وأنقذها هذا الفتى من النيران.

نظرت إلى الفتى البيروني

اقتربت وقالت:

ـ حسناً سوف ننقلها إلى البيت.

انحنى مارتين والفتى ليرفعا العذراء.

ـ لا، مهلاً.

فكت أزرار معطفها، ونضته عنها، وغطت التمثال. ثم أرادت أن تساعدهما.

قال الفتى:

ـ دعك من هذا، نحن قادران على ذلك وحدنا، أرشدينا إلى أين نذهب.

سارا والمرأة تتقدمهما، فتبعهم رجل. اشتد الآن تساقط المطر. وشعر الفتى بأن التاج المهشم ينغرز في وجهه. لم يكن يعرف أين يتجه: كان كل شيء ملتبساً.

قالوا:

ـ إنه جريح. أفسحوا في الطريق.

فسحوا لهم في الطريق.

ساروا في شارع «سانتا في» باتجاه «كاجاو» وبدأ البريق الأحمر ينحسر شيئاً فشيئاً، وحلت ظلمة الليل الدامس الموحش البارد. كان المطر يتساقط، وتسمع من بعيد صيحات متقطعة، وبعض الطلقات، والصفارات.

عندما وصلوا، صعدوا إلى الطبقة السابعة بالمصعد. ثم دخلوا إلى شقة فخمة، ولاحظ مارتين ارتباك العامل الفتى: كان ينظر باستحياء وخجل إلى الخادمة، ولا يعرف كيف يتحرك بين الأثاث، والقطع الفنية.

أوقفا التمثال على قدميه في أحد الأركان، وأستند الفتى حائراً برأسه الواهن إلى العذراء، كأنه يستريح بصمت. ولكن سرعان ما انتبه أنهم يكلمونه.

قالت له المرأة:

- هيا، يجب أن نعود.

قال الفتى بعفوية:

- نعم.

تلفت حوله كأنه يبحث عن شيء ما.

سألته المرأة:

- ما بك؟.

قال:

- كنت أود.

فقالت له:

- ماذا تريد أيها الفتى؟.

- كأس ماء، هذا ما كنت أريده.

أتوا بالماء فشرب الفتى بنهم.

قالت المرأة:

- حسناً، هيا بنا الآن.

كان هطلان المطر قد خف قليلاً، ولا بد أن الجوقة كانت مشغولة في حرائق أخرى. أما النيران فما زالت مشتعلة هناك، لكن الصمت كان الآن مخيماً: فقد تحول الرجال والنساء إلى مشاهدين صامتين ومبهورين، ينظرون من الرصيف المقابل.

كان أحدهم يحمل بعض ثياب الرهبان تحت إبطه.

قالت المرأة:

ـ هل لك أن تعطيني هذه الثياب؟.

قال الرجل:

ـ ماذا..؟.

ـ الثياب، هل لك أن تعطيني إياها؟.

لم يجب، بل صرف نظره إلى الحريق.

فعادت المرأة تقول بهدوء:

ـ الثياب. أود الاحتفاظ بها للكنيسة، عندما يعيدون بناءها.

لكن الرجل ظل ينظر إلى الحريق بصمت.

فقالت المرأة غاضبة:

ـ ألست كاثوليكياً؟.

لاذ بالصمت وهو ينظر إلى الحريق.

فقالت:

ـ ألست معمداً؟.

ظل ينظر إلى الحريق، لكن عينيه (كما لاحظ مارتين) اكتسبتا مزيداً من القسوة:

ـ أليس لك أولاد؟.... أليس لك أم؟.

انفجر الرجل غاضباً:

ـ لماذا لا تعودين إلى حيث ولدتك العاهرة أمك..؟.

قالت المرأة بهدوء وبرود:

ـ إنني كاثوليكية، وأريد أن آخذ الثياب، لأعيدها إلى الكنيسة عندما يتم بناؤها مجدداً.

رمقها بنظرة، وقال بصوت هادئ وعادي:

ـ أخذتها لكي أتقي بها المطر.

فقالت المرأة بهدوء أيضاً:

ـ أرجوك، هاتها.

فقال الرجل:

ـ إنني أقطن بعيداً من هنا. في «خنرال رودريغس».

قال له أحدهم، من خلف المرأة العنود:

ـ أتيت من «خنرال رودريغس»..!. أنت إذاً ممن كانوا يحرقون الكنيسة.

استدارت المرأة العنود، فرأته: عجوزاً غطى الشيب رأسه.

فك أحدهم، وكان يعتمر قبعة، أزرار معطفه، واستل مسدساً، وجابه العجوز ببرود واحتقار قائلاً:

ـ ومن تكون أنت!. لكي يحق لك استنطاق الناس؟.

واستل الرجل الذي يحمل ثياب الكهنوت مسدسه أيضاً. واقتربت امرأة بيدها سكين مطبخ كبيرة، من المرأة رابطة الجأش وقالت لها:

ـ أتودين أن ندخل ثياب الرهبان هذه في قفاك؟.

عرضت المرأة رابطة الجأش المجنونة على الرجل مقايضة الثياب قائلة:

ـ مقبض هذه المظلة من الذهب الخالص.

ـ ماذا؟.

ـ تعطيني الثياب، وتأخذ المظلة. المقبض من الذهب، انظر.

تأمل الرجل القبضة.

صوبت المرأة الأخرى سكينها إلى صاحبة العرض. وعادت تكرر على مسامعها العبارة السابقة.

قال الرجل:

ـ حسناً، هاتي المظلة.

صرخت حاملة السكين غاضبة:

ـ سافل خائن.

قال الرجل غاضباً:

ـ اشتمي كما يحلو لك. فما حاجتي إلى ثياب الكهنوت؟.

ـ إنك وغد خائن.

احتدم الرجل فجأة وقال:

ـ انظري. يحسن بك أن تلتزمي الصمت، إن كنت تودين ألاّ أقتلك يا ثقيلة الظل.

شتمته، وشهرت السكين في وجهه، لكنه أخذ المظلة ولاذ بالصمت.

غادرت المرأة تحمل ثياب الكهنوت، وهم يشيعونها بالصراخ والشتائم، فقال الرجل صاحب القبعة عندئذ:

ـ حسناً، أيها الفتيان، لا فائدة من وجودنا هنا. هيا بنا.

وصلت المرأة تحمل الثياب إلى حيث كان مارتين والفتى الآخر ينتظرانها بعيداً خائفين. رافقاها إلى بيتها في شارع «اسميرالدا» وبدا لمارتين ثانية، أن الفتى كان حزيناً، وهو يتأمل بهدوء من الباب، تلك المقاعد واللوحات والتحف.

ألحت المرأة قائلة:

ـ ادخل.

قال الفتى:

ـ لا يا سيدتي، أنا ذاهب، لست الآن بحاجة إلي.

قالت المرأة:

ـ انتظر.

انتظر الفتى باحترام ووقار.

تأملته وقالت:

ـ إنك عامل، أليس كذلك؟.

فأجاب الفتى:

ـ نعم. عامل نسيج.

ـ ما عمرك؟.

ـ عشرون عاماً.

ـ وأنت «بيروني»...؟.

صمت الفتى وأطرق برأسه:

تأملته المرأة ملياً ثم قالت:

ـ كيف يمكن أن تكون «بيرونياً». ألا ترى الفظائع التي يرتكبونها؟.

فقال:

ـ إن الذين أحرقوا الكنيسة ليسوا سوى حفنة من القتلة يا سيدة.

ـ ماذا؟. ماذا؟. إنهم «بيرونيون».

ـ لا يا سيدتي. ليسوا «بيرونيين» أبداً.

قالت غاضبة:

ـ ماذا؟. ماذا تقول؟.

قال الفتى وهو يرفع رأسه:

ـ هل يمكنني أن أذهب يا سيدتي.

قالت وكأنها تفكر:

ـ لا، انتظر... لماذا أنقذت العذراء شفيعة البؤَساء؟.

ـ ما أدراني يا سيدتي. أنا لا أحب حرق الكنائس. وأي ذنب للعذراء في كل هذا؟.

ـ كل ماذا؟.

ـ كل هذا القصف في ساحة مايو[1]... ما أدراني..!.

ـ إذاً، أنت ترى أن قصف ساحة ما يو عمل سيء؟.

نظر إليها الفتى بدهشة.

قالت:

ـ ألا تعلم أنه لا بد من القضاء على بيرون؟. على هذا الوغد، هذا المنحط؟.

تأملها الفتى.

فألحت تقول:

ـ إيه، أليس كذلك؟.

أطرق الفتى برأسه، ثم قال:

لقد كنتُ في ساحة مايو، أنا وآلاف من رفاقي، على مقربة مني، بترت قنبلة ذراع إحدى رفيقاتي، وأطاحت برأس احد أصدقائي، وبقرت

(1) في حزيران/ يونيو 1955 قامت القوات المسلحة في الأرجنتين بعصيان ضد بيرون وقصفت طائراتها تجمعاً للعمال البيرنيين، وما إن فشل العصيان حتى قامت مجموعات بيرونية بحرق عدد من المعابد لأن الكنيسة كانت تقف ضد بيرون. (المترجم)

بطن آخر. كان هنالك آلاف القتلى.

قالت المرأة:

ـ ولكن، ألا ترى أنك تدافع عن سافل؟.

لاذ الفتى بالصمت. ثم قال:

ـ نحن فقراء ياسيدتي. لقد ترعرعت في غرفة، حيث يقطن والدي وإخوتي السبعة.

صرخت المرأة.

ـ انتظر، انتظر

وهم مارتين بالخروج أيضاً.

قالت المرأة:

ـ وأنت؟. هل أنت بيروني أيضاً؟.

لم يجب مارتين.

خرج في عتمة الليل.

كانت السماء المظلمة الباردة تبدو رمزاً يعبر عن روحه وكان مطر لا يرحم يتساقط، تحمله رياح الجنوب الشرقية التي تغرق بالحزن (كما يقول برونو) مواطن «بوينس أيرس»، الذي ينظر نحو الشارع، عبر نافذة أحد المقاهي المبللة ويتمتم: ***بئس الطقس هذا***. في حين يقول آخر أشد عمقاً في دخيلته: ***يا له من حزن لا نهاية له***. أما مارتين الذي يلامس المطر البارد وجهه، وهو يسير على غير هدى، مقطباً حاجبيه، ينظر باستمرار نحو الأمام إلى لا شيء، كأنه يفكر في لغز واسع ومتشابك، فكان يردد ثلاث كلمات: أليخاندرا، فرناندو. عميان.

26

سار طيلة ساعات على غير هدى. وجد نفسه فجأة وسط ساحة كنيسة «الحبل بلا دنس» في بلغرانو. جلس على أحد المقاعد. بدت الكنيسة أمامه كأنها لا تزال تعيش رعب الليلة المنصرمة. كان الصمت المشؤوم، والنور الشاحب، وتوالي سقوط المطر، يضفي على ذلك الركن من «بوينس أيرس» معنى كئيباً: الأبنية القديمة الملاصقة للكنيسة بدت كأنها تخفي لغزاً هائلاً مرعباً، وضرب من ضروب الفتنة الغامضة جعل بصر مارتين يشخص إلى ذلك الركن الذي يراه أول مرة في حياته.

حينئذ، كاد يصرخ: كانت أليخاندرا تعبر الساحة باتجاه ذلك البناء القديم.

كان مارتين يجلس في الظلمة، تحت الأشجار، بعيداً عن مرمى نظرها. لكنها كانت تتقدم بخطوات ثابتة كمن يسير وهو نائم، وعلى نحو آلي كان قد استرعى انتباهه عدة مراة، لكنه تبدى له الآن بصورة أشد اقتداراً، وتجريداً. كانت أليخاندرا تتقدم على خط مستقيم فوق حجارة الرصيف كمن يسير في حلم نحو مصير رسمته قوى خارقة. وكان من الواضح أنها لا ترى ولا تسمع شيئاً. تتقدم بعزم، ولكن بعدم اكتراث، كمن نُوِّم مغناطيسياً.

وسرعان ما وصلت إلى البيت وتوجهت بلا تردد إلى أحد تلك الأبواب المغلقة التي يخيم عليها الصمت، فتحته ودخلت.

وفكر مارتين للحظات، بأنه قد يكون تحت وطأة حلم أو وهم: لم يسبق له من قبل قط أن كان في تلك الساحة الصغيرة من ساحات «بوينس أيرس». لم يجعله شعور واع يسير إلى هناك في تلك الليلة المشؤومة. ولم يكن هناك ما يمكن أن يقوده إلى توقع حدوث مثل ذلك اللقاء المفاجئ الغريب. كان الأمر يتجاوز حدود المصادفات. وكان من الطبيعي أن يفكر للحظات بأنه واقع تحت وطأة وهم أو حلم.

لكن ساعات الانتظار الطويلة أمام ذلك الباب لم تترك له مجالاً للشك: إن أليخاندرا هي التي دخلت، وهي التي بقيت هناك في الداخل، من دون أن يدرك لذلك سبباً.

حل الصباح، ولم يجرؤ مارتين على الانتظار أكثر مما انتظر، خشية أن تراه أليخاندرا في ضوء النهار. ثم، ماذا يجني إن رآها تخرج..؟.

سار نحو مبنى «الكابيلدو» يغمره حزن تجلى في ألم يغزو جميع أنحاء جسمه.

واستيقظ من قلب تلك الليلة المخادعة، يوم غائم رمادي متعب وكئيب.

(3)

تقرير عن العميان

يا آلهة الليل..!.
يا آلهة الظلمات. وزنا المحارم، والجريمة،
والكآبة والانتحار..!.
يا آلهة الفئران والكهوف،
والوطاويط والصراصير..!.
أيتها الآلهة القاسية التي لا حصر لها،
يا آلهة السبات والموت..!.

1

متى بدأ هذا الذي سيؤدي الآن إلى مقتلي..؟. هذه الصحوة الجبارة التي تنتابني الآن أشبه ما تكون بمصباح هائل، يمكن أن أقتنص منه حزمة ضوئية بالغة الشدة فأوجهها نحو زوايا واسعة في ذاكرتي: أرى وجوهاً، وفئراناً في مخزن قمح، وشوارع في «بيونس أيرس» أو في الجزائر، وعاهرات وبحارة. أحرك حزمة الضوء فأرى أشياء أبعد غوراً: أرى نبعاً في مزرعة، وهاجرة يوم خانق، وعصافير، وعيوناً أفقؤها بمسمار ربما هناك، ولكن من يعلم: يمكن أن تكون أبعد من ذلك، في حقب لا أتذكرها الآن، في فترات من طفولتي الأولى بعيدة جداً. لست أدري، ثم، ما أهمية هذا..؟.

وأتذكر كذلك تماماً، عندما بدأت تحقيقي المنظم (الآخر، اللاواعي، وربما الأعمق، كيف يمكنني أن أعرف..؟.). كان ذلك في أحد أيام صيف 1947 حين مررت أمام ساحة أيار/ مايو، مقبلاً من شارع «سان مارتين» أسير على رصيف مبنى البلدية. أقبلت شارد الذهن، وفجأة، سمعت جرساً، كما لو أن أحداً يود إيقاظي من حلم مغرق في القدم. كنت أسير، ولكن الجرس كان يحاول النفاذ إلى أعمق أغوار وعيي: توجسته، لكنني لم أسمعه. حتى بدا كأن ذلك الصوت الرقيق، إنما النافذ والملحاح في الوقت ذاته، يلامس جانباً حساساً، من تلك الجوانب التي تكون فيها دقة بشرة الذات وحساسيتها ليست طبيعية: استيقظت وأنا أنتفض كأنني أواجه خطراً مفاجئاً وشريراً، وكما لو أنني لامست

الجلد البارد لحيوان زاحف. رأيت العمياء التي تبيع هناك أشياء زهيدة القيمة، تقف منتصبة أمامي، مبهمة وصارمة، تتحدث إلي بكامل وجهها. كانت قد توقفت عن قرع جرسها، وكأنما كانت تحركه من أجلي فقط، لكي توقظني من حلمي الأحمق، ولكي تحذرني من أن حياتي السابقة قد انتهت كمرحلة تحضيرية حمقاء، ويتعين علي الآن أن أواجه الحقيقة. لبثنا، هي ثابتة لا تتحرك، وجهها المجرد يحملق إلي، وأنا واقف كأن شبحاً جهنمياً بارداً يشلني في تلك اللحظات التي لا تشكل جزءاً من الزمن، بل تتجاوزه لتدخل في الأبدية. وعندما عاد وعيي ليدخل في تيار الزمن، ولَّيت هارباً.

على هذا النحو بدأت المرحلة النهائية من حياتي.

أدركت، منذ ذلك اليوم أنه ليس من الممكن أن أدع أي لحظة تمر. وأنه يتعين عليّ أن أبدأ سبر غور ذلك العالم المظلم حالاً.

مضت عدة أشهر قبل أن يتحقق اللقاء الثاني الحاسم، في أحد أيام ذلك الخريف. كنت منهمكاً في تحقيقاتي، ولكن بلادة غامضة داهمتني، وأدت إلى تخلف عملي. والآن، أعتقد جازماً أنها كانت ضرباً مضللاً من ضروب الخوف من المجهول.

إلا أنني كنت، مع ذلك، أراقب وأدرس العميان.

لقد شغلني أمرهم دائماً، وناقشت في عدة مناسبات أصلهم، ومراتبهم وطريقة معيشتهم، وطبيعتهم الحيوانية. وما إن شرعت ـ آنئذ ـ في رسم ملامح فرضيتي عن الجلد البارد، حتى انهالت عليّ رسائل الشتم بعبارات قاسية، من أعضاء الجمعيات المرتبطة بعالم العميان، بفضل الفعالية والسرعة والمعلومات الغريبة التي تملكها المحافل والطوائف السرية دائماً؛ تلك المحافل والطوائف المبثوثة على نحو خفي بين الناس،

والتي تقوم باستمرار ـ من دون أن نعرف أو يتطرق إلينا الشك ـ بمراقبتنا وتتبعنا وتقرير مصائرنا وفشلنا، وحتى موتنا. وهو أمر تقوم به دائماً طائفة العميان، التي تسخِّر، لسوء طالع الأبرياء، رجالاً ونساء عاديين: ممن ضللتهم المنظمة حيناً، وخدعتهم دعاية عاطفية غوغائية حيناً آخر، ومن ثم، في كثير من الأحيان، خشية من العقوبات المادية والخارقة، التي يشاع أنها تلحق بأولئك الذين يجرؤون على نبش أسرارها. عقوبات، أقول بالمناسبة إنني كونت في ذلك الحين، انطباعاً بأنني قد نلتها جزئياً، وقناعة بأنني سأتلقى منها المزيد على نحو أدهى وأخفى، مما جعلني ـ بدافع من خيلائي حتماً ـ لا أجد سبيلاً، سوى مضاعفة تحرياتي ودفع تحقيقاتي إلى آخر مداها.

لو كنت أشد بلاهة، ربما تبجحت، لأنني أثبت بتلك الأبحاث، صحة الفرضية التي كونتها منذ زمن طويل عن عالم العميان. فقد كانت كوابيس طفولتي وأوهامها هي التي أمدتني بوحيها الأوليّ. وبعدئذٍ، بقدر ما كنت أنمو وأكبر كان يشتد حذري من أولئك المغتصبين، ممن يحترفون ضروب التشهير الأخلاقي، وتغصّ بهم محطات «المترو»، وذلك أمر طبيعي، ويعود إلى صلة القربى التي تشدهم إلى الحيوانات ذات الدم البارد والبشرة اللزجة، التي تقطن الكهوف والمغاور والأقبية والسراديب العميقة، والمناجم المهجورة التي ترشح منها المياه بصمت، ويقطن بعضها الآخر، الأشد بأساً تحت الأرض، في كهوف ضخمة يبلغ عمقها في بعض الأحيان مئات الأمتار، كما يمكن أن يُستنتج من بعض التقارير المبهمة والمتحفظة، التي يعدها المتخصصون بدراسة الكهوف، والمنقبون عن الكنوز، والتي هي، رغم ذلك، واضحة تماماً لمن خبروا التهديدات التي يتعرض لها من يحاول انتهاك السر العظيم.

فيما سبق، حين كنت ما أزال أصغر سناً وأقل شكوكاً، كنت أرفض

ـ على الرغم من قناعتي ـ تمحيص نظريتي، بل حتى إعلانها. لأن تلك الأحكام العاطفية المسبقة، وأعني غوغائية المشاعر، تحول دون اختراق دفاعات العميان المنيعة بقدر ما هي غامضة وخفية، المؤلفة من شعارات تلقن في المدارس وتتردد في الصحف، وتحترمها الحكومة والشرطة، وتروج لها الجمعيات الخيرية، والسيدات والمعلمون. دفاعات تمنع الوصول إلى تلك الضواحي المريعة، حيث تأخذ الأحاديث المبتذلة بالندرة أكثر فأكثر، وتبدأ فيها ريبة المرء بالحقيقة.

كان لا بد أن تنقضي سنوات عديدة قبل أن أتمكن من تجاوز الدفاعات الخارجية. وهكذا، تسللت بالتدريج ـ وبقوة هائلة غير مألوفة، ترقى إلى مصاف تلك القوة التي تجعلنا، أثناء الكوابيس، نحث الخطى نحو الأهوال ـ إلى المناطق الخطرة، حيث تخيم الظلمة المطلقة وتلوح هنا وهناك، على نحو ملتبس في البدء، أشباح عابرة ومبهمة، تتميز على نحو واضح ومخيف فيما بعد لتسفر عن عالم من كائنات مثيرة للاشمئزاز.

سأروي لكم الآن كيف بلغت هذا الامتياز الرهيب، وكيف استطعت، بعد سنوات من الكمائن والتهديدات، الدخول إلى ذلك المسرح الذي يعج بحشد من كائنات، لا يشكل العميان العاديون سوى مظهره الأقل إثارة.

2

أتذكر ذلك الرابع عشر من حزيران/ يونيو، تماماً: كان يوماً بارداً ماطراً. كنت أرصد سلوك أعمى يعمل في محطة مترو «باليرمو»: كان رجلاً قصير القامة قوي البنية، أسمر اللون، شديد البأس، سيئ الخلق، يتنقل بين العربات بسرعة مذهلة، عارضاً بضاعته الرخيصة على أناس اكتظ بهم المكان. يتقدم وسط الحشد بقوة وحقد، يمد يداً لتلقي الحسنات التي يقدمها إليه موظفو المكاتب والنساء بخشوع، ويحتفظ ببضاعته الرمزية الرخيصة باليد الأخرى: يستحيل أن يحصل أحد على رزقه من بيع تلك البضاعة، فقد يحتاج المرء إلى زوج من القطع العظمية لياقة قميصه في السنة، أو، ليكن، في الشهر: ولكن أحداً لا يمكن أن يشتري ـ سواء كان مجنوناً أو مليونيراً ـ اثني عشر زوجاً كل يوم. ولذلك فإن القطع العظمية، وهذا أمر منطقي يعرفه جميع الناس، ليست سوى رمز محض، وشيء من قبيل العلامة الفارقة التي تدل على الأعمى، أو الترخيص الممنوح له، الذي يميزه عن بقية البشر، إلى جانب عكازه الأبيض الشهير.

كنت إذاً أرصد تطور الأحداث مستعداً لمتابعة ذلك الشخص حتى النهاية، لكي أثبت صحة نظريتي مرة واحدة وإلى الأبد. قمت برحلات لا تحصى بين محطتي «ساحة مايو» و«باليرمو». وحاولت أن أموه وجودي في المحطات، لأنني كنت أخشى من إثارة شكوك الطائفة، ومن اتهامي باللصوصية، أو بأي حماقة مشابهة، في وقت كانت فيه أيامي لا

تقدر بثمن. وببالغ الحذر، حافظت على موقعي قريباً من الأعمى. وعندما قمنا برحلة الساعة الواحدة والنصف الأخيرة، في ذلك اليوم الرابع عشر من حزيران/ يونيو، وطدت العزم على متابعة الرجل حتى وكره.

نزل الأعمى في محطة «ساحة مايو» قبل أن يقوم القطار برحلته الأخيرة إلى «باليرمو»، وسار نحو بوابة الخروج التي تؤدي إلى شارع «سان مارتين».

وبدأنا نسير فيه معاً متجهين نحو شارع «كانغاجو».

انعطف في تلك الزاوية نحو منطقة «الباخو».

كان يتعين عليّ أن أضاعف حذري، ففي ليل الشتاء الموحش، انقطع سيل المارة، لم يكد يبقى هناك سوانا، أنا والأعمى. فتبعته تفصل بيننا مسافة معقولة، آخذاً بعين الاعتبار حاسة سمع العميان، وغريزتهم التي تحذرهم من أي خطر ينتهك أسرارهم.

كان الصمت مطبقاً والوحشة مخيمة، كما هو الحال دائماً عندما يهبط الليل على حي المصارف. ذلك الحي الذي يفوق أي حي آخر في صمته وعزلته. ولعل ذلك يعود إلى ما تشهده شوارعه نهاراً، من نشاط محموم ومن ضجيج، ومن سرعة وارتباك لا يوصف، ومن جموع غفيرة تموج هناك أثناء ساعات عمل المكاتب. كما يعود أيضاً ـ وبكل تأكيد ـ إلى العزلة القدسية التي تخيم على تلك الأماكن، عندما تخلد فيها الأموال إلى الراحة. فما إن ينصرف العمال والمديرون، حتى تكون قد انتهت تلك المهمة الجنونية المرهقة، حيث يقوم عامل بائس يتقاضى خمسة آلاف «بيسو» شهرياً، بإدارة خمسة ملايين، وحيث يقوم حشد غفير من الناس بكل حيطة وحذر، بإيداع قطع ورقية ذات قوة امتلاك

سحرية، ليقوم حشد آخر بسحبها من كوة أخرى بحذر مشابه. فعلى الرغم من أن المؤمنين بتلك العملية يعتقدون أنهم أشخاص واقعيون وعمليون، فإنهم يقبلون تلك الوريقات القذرة التي تنطوي على وعد سخيف يلتزم به أحد السادة باسم الدولة ـ من دون أن يوقع بخط يده ـ بأداء شيء لست أدري ما هو، لقاء تلك الوريقة. والأمر الغريب أن الشخص يكتفي بالوعد فقط، إذ حسبما أعرف، لم يلجأ أحد قط إلى المطالبة بتنفيذ الالتزام. والأغرب من ذلك، أن تسلم لقاء تلك الأوراق القذرة، ورقة أخرى أنظف، ولكنها أسخف، حيث يلتزم سيد آخر، بأن يسلم لقاء تلك الورقة، إلى المؤمن، كمية من الوريقات القذرة المذكورة: عملية كأنها جنون بجنون. وتتم كلها نيابة عن شيء لم يره أحد قط، ويقولون إنه يرقد سالماً في مكان ما، في الولايات المتحدة بخاصة، وفي كهوف من الحديد الصلب. إن هذه العملية كلها ما هي إلا قضية ديانة، تدل عليها في المقام الأول عبارات مثل: اعتمادات وائتمان.

قلت إذاً، إن تلك الأحياء، بعد أن تخلو من جماهير المؤمنين المحمومة تُقفر أثناء الليل أكثر من أي مكان آخر، إذ لا يقطن أحد في الليل هناك، ولا يمكنه أن يقطن، بسبب الصمت المخيم، ووحشة قاعة الهياكل الضخمة، والأقبية الكبيرة التي تحفظ فيها الكنوز الهائلة. وأما البشر الأثرياء الذين يديرون هذه العملية السحرية فينامون بفضل الأقراص والعقاقير المنومة، ويهيمن عليهم القلق وتطاردهم كوابيس الكوارث المالية. كما أن انعدام الحياة في تلك الأحياء، يعود إلى سبب واضح هو عدم وجود الغذاء، فليس فيها ما يساعد على استمرار حياة الإنسان، ولا حياة الفئران والصراصير، لأن تلك الأوراق التي يمكن أن تكون طعاماً للعث وبعض الحشرات الصغيرة الأخرى تكون محفوظة خلف أسوار حصينة من الصلب، تستعصي على مختلف أنواع الكائنات الحية.

تبعت الأعمى إذاً، وسط الصمت المطبق المخيم على حي البنوك، عبر شارع «كانغاجو» باتجاه منطقة «الباخو». كان وقع أقدامه على الأرض خافتاً، وأخذ يضفي عليه لحظة فلحظة، شخصية أشد غموضاً وتمادياً في الشر.

مشينا هكذا حتى شارع «لياندرو أليم»، وبعد أن اجتزناه، انعطفنا يمنة باتجاه المرفأ.

ضاعفت حذري: فكرت للحظات، أن ذلك الأعمى يمكن أن يسمع وقع أقدامي، أو حتى، أنفاسي المضطربة.

كان الرجل الآن يسير بثقة بدت لي مخيفة، ذلك أنني كنت أستبعد الفكرة السخيفة التي تزعم أنه لم يكن أعمى فعلاً.

ولكن ما أدهشني وأثار مخاوفي، انعطافه فجأة نحو اليسار، باتجاه «لونابارك». وأقول إنني ذعرت، لأن ذلك لم يكن أمراً منطقياً، فإن كان ذلك مخططه منذ البدء، لما كان هناك أي مسوغ لانعطافه نحو اليمين بعد أن عبر الشارع. وافتراض أن الرجل ضلّ سبيله، لا يمكن التسليم به إطلاقاً، نظراً لما كانت تتسم به حركته من ثقة وسرعة. أسقطت الافتراض «المريع»، وهو أن يكون قد تنبه إلى أنني كنت أتبعه، وحاول تضليلي، أو أنه، وذلك أسوأ بما لا يقاس، كان يحاول أن يدبر لي مكيدة.

بيد أن ذلك النزوع الذي يقودنا إلى الإطلال على الهاوية عندما تكون تحتنا، هو الذي كان يقودني إثر الأعمى بإصرار وتصميم. وهكذا (كان يمكن للمنظر أن يثير الضحك لولا الظلمة): شخص يسير، يكاد يعدو، يحمل عكازاً أبيض اللون، وجيوبه مملوءة بالقطع العظمية، يتتبَّع بصمت وجنون، شخصاً آخر: أولاً، في شارع «بوشارد» باتجاه الشمال.

ثم، بعد اجتياز مبنى «لونابارك» باتجاه اليمين، كمن يود النزول إلى منطقة المرفأ.

عندئذ، غاب عن ناظري، لأنني، وهذا أمر طبيعي، كنت أتبعه عن بعد يقدر بحوالي خمسين متراً.

حثثت الخطى قلقاً، أخشى من أن أفقد أثره في الوقت الذي كان جزء كبير من السر (هكذا ظننت آنذاك) قد أصبح في حوزتي.

عدوت مسرعاً، وما إن وصلت إلى زاوية الشارع حتى انعطفت نحو اليمين فجأة. تماماً، كما كان الآخر قد فعل.

يا للهول..!. كان الأعمى مستنداً إلى الجدار، متحفزاً يرتعد، وينتظرني بلا شك. لم أتمكن من تجنب الاصطدام به. أمسكني من ذراعي بقوة خارقة، وأحسست بأنفاسه أمام وجهي، كان النور خافتاً، وما كدت أتمكن من تمييز ملامحه، ولكن سائر تصرفاته: لهاثه، وذراعه المطبق على ذراعي مثل كماشة، وصوته، كانت كلها تعبر عن حقد وسخط لا يرحم.

قال بصوت خفيف وكأنه يصرخ:

ـ كنت تتبعني..!.

وتمتمت باشمئزاز وقد تملكني الذعر والقلق (كنت أحس أنفاسه فوق وجهي وأشم رائحة جلده الرطب): «إنك مخطئ يا سيد». وكاد يغمى عليّ من شدة الاشمئزاز والفزع.

كيف استطاع أن ينتبه؟. وفي أي لحظة..؟. وبأي وسيلة؟. كان من المستحيل التسليم بأنه تمكن من ملاحظة ملاحقتي له بالوسائل العادية التي تتوفر لمجرد كائن بشري. وإذاً؟.. لعلهم شركاؤه..؟. المعاونون المجهولون الذين توزعهم الطائفة بمكر، في جميع الأنحاء، وفي المراكز

والوظائف التي لا يمكن أن يتطرق إليها الشك: مربيات، معلمات المرحلة الثانوية، سيدات محترمات، موظفو مكتبات، حراس حافلات..؟. من يدري..؟. ولكني، على هذا النحو، أثبتت في تلك الليلة، صحة أحد حدسيّاتي عن الطائفة.

كان كل ذلك يدور في رأسي وأنا أجاهد لكي أتخلص من مخالبه.

وليت هارباً عندما تمكنت من الإفلات منه، ولم أجرؤ، خلال زمن طويل، على مواصلة تحرياتي. ليس بسبب من خوف شعرت بأنه لا يطاق وحسب، بل بسبب الحيطة أيضاً، لأنني تصورت أن تلك الحادثة الليلية، يمكن أن تؤدي إلى أن أُحاط بأخطر أنواع المراقبة وأشملها. وكان يتعين عليّ أن أنتظر شهوراً، وحتى سنوات، وأن ألجأ إلى التضليل، وأن أوهم الآخرين بأن تلك لم تكن سوى مطاردة عادية هدفها السرقة.

قادني حادث آخر، بعد أكثر من ثلاث سنوات، إلى خيط من الخيوط الهامة، فتمكنت في نهاية المطاف، من أن أدخل حصن العميان، حصن أولئك الناس الذين يطلق عليهم المجتمع مصطلح (فاقدو البصر): بدافع من شفقة شعبية مبالغ فيها، ولكن، أيضاً، بسبب يكاد يكون مؤكداً، هو ذلك الخوف الذي يؤدي بطوائف دينية كثيرة إلى ألا تأتي على ذكر اسم الألوهية على نحو مباشر.

3

يوجد اختلاف أساسي بين من فقدوا بصرهم بسبب مرض أو حادث، ومن ولدوا عمياناً. وهذا الاختلاف مكنني من التسلل في نهاية الأمر إلى حصونهم. وأنا إن لم أتمكن من دخول كهوفهم السرية التي يحكم منها الكبار المجهولون ذوو المراتب الرفيعة الطائفة والعالم، إلا أنني تمكنت من أن أحصل من تلك الضواحي، على معلومات جزئية مبهمة دائماً، عن أولئك العمالقة، وعن الطرق التي يلجؤون إليها للسيطرة على العالم بأسره. فعرفت أن بلوغ تلك الهيمنة ودوامها يتمان، ليس بالاستغلال المبتذل لرقة القلب الشعبية الكاذبة وحسب، إنما بوساطة الخداع، والمكائد وعدوى الأوبئة، والمشي أثناء النوم، وانتشار المخدرات أيضاً. ويكفي تذكر العملية التي كان أساسها الـ «ماريوانا» والـ «كوكائين»، التي اكتشفت في المدارس الثانوية في الولايات المتحدة، حيث أفسد فتيان وفتيات لا تتجاوز أعمارهم أحد عشر واثني عشر عاماً، بهدف وضعهم في الخدمة بلا قيد أو شرط. ولقد انتهت التحريات طبعاً حيث كان يجب أن تبدأ: عند العتبة المنيعة التي لا تقهر. أما السيطرة بوساطة الأحلام، والكوابيس، وأعمال السحر، فالأمر لا يحتاج إلى أن نثبت أن لدى الطائفة، وفي خدمتها، جيش المبصرين، وساحرات الأحياء، والمجبّرين، وأصحاب البركات، والمنجمين ومحضّري الأرواح: كثير منهم، بل غالبيتهم، ليسوا سوى منافقين، إلا أن بعضهم يتمتع بقدرات أصيلة، والأمر الفريد أن هؤلاء اعتادوا إخفاء تلك

القدرات خلف مظاهر الشعوذة، ليسيطروا على العالم الذي يحيط بهم، على نحو أفضل.

إن كان لله، كما يقولون، السيادة على ملكوت السماوات، فإن للطائفة السيادة على الأرض وعلى الجسد. أجهل إن كان يتعين على هذه المنظمة في نهاية المطاف، أن تخضع يوماً ما للحساب أمام ما يمكن أن نصطلح على تسميته (القوة المنيرة)، ولكن من الواضح حتى الآن أن العالم يقع تحت سلطتها المطلقة، وقدرتها على الحياة والموت، التي تُمارس عبر الوباء أو الثورة، المرض أو التعذيب، الخداع أو العواطف الكاذبة، الغش أو الدس، المعلمات أو المحققين.

لست عالم لاهوت، ولا تتوفر لديّ شروط الاعتقاد بأنه يمكن لهذه القدرات الجهنمية أن تجد تفسيراً لها في أحد المباحث الجدلية العقيمة عن العناية الإلهية. وفي جميع الأحوال، سيكون ذلك نظرية أو أملاً. وما سواه، ما رأيته وعانيته، كان وقائع.

ولكن لنعد إلى الاختلافات.

وحتى إن لم تكن موجودة: ما زال هناك الكثير مما أقوله عن مسألة القدرات الجهنمية، إذ قد يظن أحد السذج أن الأمر لا يعدو كونه مجازاً بسيطاً، وليس حقيقة صارخة. لقد شغلتني معضلة الشر دائماً منذ أن وقفت، عندما كنت طفلاً، إلى جانب بيت للنمل، مسلحاً بمطرقة، وبدأت أقتل الحشرات من دون سبب. سيطر الذعر على النمل الناجي وهو يركض في مختلف الاتجاهات. ثم وجهت إليه خرطوم الماء لكي يغرق. كنت أتصور المشهد في الداخل، أعمال الطوارئ، الركض، الأوامر، والأوامر المضادة، لإنقاذ مستودعات مؤونة، وبيوض، وحصون ملكات، وما إلى ذلك. قمت بعدئذ بتحريك كل شيء بعصا. فتحت

حفراً كبيرة، بحثت عن الكهوف ودمرتها بجنون: كارثة عامة، ثم رحت أتأمل المعنى العام لوجودنا، وأفكر بما يصيبنا من فيضانات وهزات أرضية، وهكذا بدأت أصوغ سلسلة من النظريات، ففكرة أننا محكومون بقوة إله خيّر رحيم قادر على كل شيء، بدت لي متناقضة إلى درجة اعتقدت معها أنه لا يمكن حملها على محمل الجد.

واستنتاجي واضح: ما زال الحكم معقوداً لأمير الظلمات. وهو يحكم بوساطة (طائفة العميان المقدسة). إن كل شيء واضح، ويكاد يجعلني أضحك، لولا الرعب الذي يتملكني.

4

ولكن، لنعد إلى الاختلافات مرة أخرى.

يوجد تباين جوهري بين العميان بالولادة والعميان الذين فقدوا بصرهم نتيجة مرض أو حادث. ويكتسب هؤلاء العميان الدخلاء، مع الوقت طبعاً، كثيراً من صفات سلالة العميان، مثلما يجري، على نحو جزئي، التمويه على اليهود في بيئة سلالة أخرى تكرههم أو تحتقرهم، لأن الحقد الذي يكنه العميان للمبصرين، وهو من الأمور البارزة، لا يفوقه إلا حقدهم على العميان الدخلاء.

ما سبب هذه الظاهرة..؟. فكرت في البدء، أنه يمكن ردها إلى أسباب شبيهة بتلك التي تثير الحقد بين البلدان المتجاورة، أو بين أبناء البلد الواحد، إذ من المعروف أن الحروب الأهلية أشد الحروب قسوة، ويكفي تذكر الحروب الأهلية الأرجنتينية في القرن الماضي، أو الحرب الأهلية الإسبانية. كانت «نورما غلاديس بوغليسي»، وهي معلمة استخدمتها بضعة شهور لدراسة بعض ردود فعل مثقفي الضواحي، تفكر أن الكراهية والحروب بين البشر أمر طبيعي يعود إلى الجهل المطبق وعدم التعارف فيما بينهم. وكان يتعين عليّ أن أبيّن لها أن الطريقة الوحيدة لإحلال السلام بين البشر هي المحافظة على الجهل المتبادل، وعدم التعارف فيما بينهم، وهما شرطان لا بد من توافرهما لتكون هذه الحشرات خيّرة وعادلة نسبياً لأننا جميعاً متساوون بما فيه الكفاية في

الأمور التي لا تهمنا. ولقد وجدت نفسي مجبراً على شرح ألف باء الطبيعة البشرية ـ مستعيناً ببعض كتب التاريخ، وأقسام الجرائم في الصحف المسائية ـ لتلك الشيطان البائسة، التي تثقفت على أيدي مربين مرموقين، وآمنت إلى حد ما، بأن مجرد تعليم القراءة والكتابة سيحل المعضلة العامة للإنسانية: ذكّرتها عندئذ بأن أكثر الشعوب تعلماً في العالم، الشعب الذي أقام معسكرات الاعتقال للتعذيب الجماعي والمحارق لليهود والكاثوليك. وكان من نتيجة ذلك أنها كانت في غالب الأحيان تنهض من سريرها غاضبة حاقدة عليّ، بدلاً من أن ينصبّ غضبها على الألمان: ذلك أن الخرافات أقوى من المحاولات التي تبذل من أجل إزالتها. وخرافة التعليم الابتدائي في الأرجنتين، مهما بدت تافهة ومضحكة، فإنها قاومت وستقاوم كل أنواع الانتقادات والمظاهرات.

ولكن، عندما عدت إلى المسألة التي تستأثر باهتمامنا، فكرت فيما بعد، حين تعرفت الطائفة ودرستها على نحو أفضل، أن العنصر الحاسم في ذلك الحقد على الدخلاء هو عنجهية الطائفة المغلقة، وما ينجم عن ذلك من حقد على الذين يحاولون الانضمام إلى صفوفها، وينجحون في بعض الأحيان. وهذا الأمر لا يقتصر على العميان وحسب، بل يحدث أيضاً في أوساط طبقات المجتمع العليا، حين يقبل على المدى البعيد وعلى مضض، انضمام أولئك الذين ينتهي بهم الأمر، بسبب ثرواتهم الضخمة أو زيجات أولادهم، إلى الانتساب إلى الشريحة العليا: هناك احتقار خفي، ولكن هذا الاحتقار المجرد، يأخذ فيما بعد بالاختلاط شيئاً فشيئاً بحقد متنام، لعل سببه، حدس تلك الطبقات بأن تعرضها على هذا النحو إلى ذلك الغزو البطيء، والمؤكد، لن يضمن أمنها كما كانت تتصور. وهكذا تبدأ معاناتها من شعور غير مألوف بالدونية.

ومما له تأثيره أيضاً، مفاجأة العميان باقتحام أسرارهم من قبل أناس

كانوا حتى الأمس القريب يعتبرون من ضحاياهم الجهلاء وهدف أعمالهم التي لا ترحم. فهؤلاء شهود مزعجون، وإن كانت عودتهم إلى عالمهم الأصلي أمراً مستحيلاً، فهم في جميع الأحوال يكتشفون مندهشين أفكار تلك المخلوقات التي كانوا يتصورون أنها ذروة البؤس، ومشاعرها.

بيد أن كل هذا ليس سوى تحليل، والأسوأ، أنه تحليل يقوم على أساس من تعابير ومفاهيم تصلح لنا نحن. ولدينا في الواقع، إمكانيات كثيرة لفهم عالم العميان، مثلما نفهم مثلاً عالم القطط والأفاعي. نقول: إن القطط مخلوقات مستقلة أرستقراطية، وغدارة، ولا يؤمن جانبها، ولكن ليس لهذه المفاهيم كلها في الواقع، سوى قيمة نسبية، لأننا نطبق مفاهيم وقيماً بشرية على كائنات بعيدة عنا كل البعد: مثلما يستحيل أن يتصور البشر آلهة لا تتوفر فيها بعض الصفات الإنسانية، ويصل الأمر إلى حد يثير الضحك حين توضع لرؤوس الآلهة اليونانية القرون.

5

سأروي الآن كيف دخل عامل المطبعة «سيليستينو إيجليسياس» في اللعبة وكيف وجدت نفسي في الطريق العظيم لكشف السر. ولكن أود قبل ذلك أن أقول من أنا، وما مهنتي.. وما إلى ذلك.

اسمي «فرناندو فيدال أولموس». ولدت في اليوم الرابع والعشرين من حزيران/ يونيو 1911 في «كابيتان أولموس» إحدى قرى محافظة بوينس أيرس التي أطلق عليها اسم جدي الأول. يبلغ طولي متراً وثمانية وسبعين سانتمتراً، ووزني حوالي سبعين كيلو غراماً، عيناي رماديتان خضراوان، وشعري مسترسل وأشيب. علامات فارقة: لا يوجد.

قد أسأل، أي شيطان أحوجني إلى تقديم هذا الوصف لسجلي المدني. لا شيء يحدث مصادفة في عالم البشر.

هناك حلم تكرر مراراً في طفولتي: كنت أرى طفلاً (الأمر الغريب أن ذلك الطفل هو أنا بالذات، وكان يتأملني كأنني إنسان آخر) يلعب بصمت لعبة لم أتوصل إلى فهمها. كنت أتأمله حذراً، وأحاول سبر معاني حركاته ونظراته وتمتماته. كان سرعان ما يرمقني بنظرة حادة ويقول: إنني أراقب ظل هذا الجدار على الأرض، وإن أتيح لهذا الظل أن يتحرك، لا أدري ماذا يمكن أن يحدث. كانت كلماته تنطوي على قناعة، وانتظار مريع، وكنت عندئذ أبدأ بمراقبة الظل مذعوراً. وغني عن القول، أن المقصود ليس الانتقال العادي، الذي يمكن أن يطرأ على

الظل نتيجة حركة الشمس البسيطة: كان *أمراً آخر*. وهكذا كنت أنا أيضاً، أبدأ المراقبة جزعاً. حتى ألاحظ أن الظل بدأ يتحرك ببطء وعلى نحو محسوس. فانهض هلعاً أتصبب عرقاً. ماذا كان ذلك، أي نذير، وأي رمز؟. كنت كل ليلة آوي إلى فراشي ينتابني الخوف من الحلم. وكنت كل صباح، عندما أستيقظ، أتنفس الصعداء بارتياح حين أدرك أنني نجوت ثانية من ذلك الخطر. ولكن كانت لحظات الرعب تحل في ليال أخرى: أرى مرة أخرى، الطفل، والجدار، والظل، ومرة أخرى أرى الطفل يرمقني بنظرة حادة، ومرة أخرى أسمعه يلفظ كلماته الغريبة. وأخيراً، بعد أن أراقب ظل الجدار بانتظار وقلق، أرى أنه يبدأ بالحركة، ويتغير شكله، فأستيقظ حينئذ مذعوراً وأنا أصرخ وأتصبب عرقاً.

كان الحلم يقضّ مضجعي طيلة سنوات، لأنني كنت أدرك أنه، مثل سائر الأحلام تقريباً، لا بد أن ينطوي على معنى خفي، ولذلك فقد كان، بلا شك إيذاناً بأمر ينبغي أن يصيبني يوماً ما. والآن: لست أدري إن كان ذلك الحلم إيذاناً بما جرى لي فيما بعد، أو أنه كان رمزاً لبدئه. حدث ذلك أول مرة منذ سنوات عديدة. عندما لم أكن قد بلغت العشرين من عمري بعد، وكنت أقود عصابة لصوص (سأرى فيما بعد إن كنت سأروي بعضاً من تلك التجربة). اكتشفت فجأة أن الواقع يمكن أن يأخذ في التشوه إن لم أكرس كل إرادتي لأحافظ عليه ثابتاً. كنت أخشى من أن يتمكن العالم الذي يحيط بي، من البدء بالحركة في أي لحظة، ببطء أولاً وبسرعة فيما بعد، ثم يتفتت ويتحول ويفقد معناه. فركزت، مثل طفل الحلم، كل قوتي أتطلع إلى ذلك الظل الذي هو الواقع المحيط بنا، ظِل بنية ما، أو جدار، لا يخطر ببالنا أن نتأمله ملياً، وبغتة (كنت لحسن الحظ وحيداً في غرفتي في أفيجانيدا، مستلقياً على

سريري))، رأيت مذعوراً أن الظل بدأ يتحرك، وأن الحلم القديم بدأ يتحقق فعلاً، شعرت بدوار غريب، وفقدت الإحساس، وغرقت في فوضى، ولكنني تمكنت بعد بذل جهد كبير من استرداد وعيي. وبدأت أربط أجزاء الواقع التي كان يبدو أنها تود المضي على هواها. كأنني استخدم مرساة. نعم إنه كذلك: كأنما وجدت نفسي مضطراً إلى إرساء الواقع، وكما لو أن السفينة كانت مؤلفة من عدد كبير من القطع المنفصلة، وكان ينبغي ربط بعضها إلى بعضها الآخر أولاً، ثم إرساء مرساة مناسبة كيلا تمضي كل قطعة على هواها. ولسوء الحظ، كان الحادث يتكرر مراراً، وبقوة أشد أحياناً، ***أشعر*** فجأة، أن الانزلاق بدأ، ثم يعقبه التفتت. ولكن بما أنني أعرف الأعراض لم أكن أدع نفسي على هواها كما حدث في المرة الأولى، بل أباشر العمل فوراً وبكل طاقتي. لم يدرك الناس ما كان يحدث لي. كانوا يرونني مستغرقاً أنظر نظرة ثابتة، وغريبة، فيظنون أن بي مساً من جنون، ولا ينتبهون إلى أنني نقيض ذلك، نقيضه تماماً، فبفضل ذلك الجهد، كنت أنجح في المحافظة على إبقاء الواقع في مكانه وبشكله. ولكن، في بعض الأحيان، كان الواقع، مهما بذلت من جهد، يبدأ بالتفتت شيئاً فشيئاً ويغير شكله، كأنه قطعة مطاط تتنازعها ضغوط هائلة من أطرافها (من نجم القطب ومن مركز الكرة الأرضية، ومن سائر الأنحاء): وجه يأخذ بالانتفاخ، فتبرز من أحد جوانبه فقاعة هائلة، وتقترب إحدى العينين من الأخرى شيئاً فشيئاً، ويتسع الفم حتى ينفجر، في حين، تأخذ تكشيرة مخيفة بتشويه الوجه. ومهما كان الأمر، فإن تلك اللحظات كانت تخيفني، وتلك الحاجة إلى أن أحافظ على عقلي يقظاً، متحفزاً، حذراً، وفعالاً، تقض مضجعي. وسرعان ما كنت أتمنى أن يزجوا بي في مصح الأمراض العقلية لأرتاح. فهناك، لا يضطر أحد إلى المحافظة على الواقع كما ينبغي أن يكون.

وكأن المرء يستطيع هنالك أن يقول، (بل من المؤكد أنه يقول): والآن ليتدبروا هم الأمر.

ولكن أسوأ الأمور لم يكن يحدث من حولي، بل في داخلي، لأن الأنا الخاصة بي كانت تبدأ فجأة بالتغير والاستطالة والانسلاخ والانمساخ. اسمي فرناندو فيدال أولموس، وهذه الكلمات الثلاث أشبه ما تكون بختم أو شهادة، تضمن أنني «شيء ما»: شيء محدد تماماً: ليس بلون عيني، وبطول قامتي وبعمري، وبيوم ميلادي، وبوالديّ وحسب (أي بتلك الوقائع التي تدون في بطاقة الهوية الشخصية) وإنما بشيء أعمق ذي طبيعة روحية: بمجموعة من الذكريات، والمشاعر والأفكار، التي تحافظ في دخيلة الفرد على بنية ذلك «الشيء» الذي هو فرناندو فيدال أولموس وليس ساعي البريد، ولا الجزار. ولكن ما الذي يحول دون أن تتمكن من سكنى هذا الجسم، المحدد التفاصيل في بطاقة هويتي بغتة، ونتيجة جائحة مفاجئة، روح البواب، أو المفكر الفرنسي «ساد»؟. هل توجد علاقة ما، لا تنتهك، بين جسمي ونفسي؟. كان يبدو لي دائماً أمراً عجيباً أن أحدنا يمكن أن يكبر وينساق وراء الأوهام ويعاني من المصائب، ويشارك في الحروب ويتدهور روحياً وتتغير أفكاره، وتتحول مشاعره ويبقى، مع ذلك، محتفظاً بالاسم ذاته: فرناندو فيدال. هل له أي معنى؟. أم أن هناك رغم ذلك، خيطاً ما، مطاطياً رفيعاً، وجامعاً غريباً، يحافظ عبر تلك التغيرات والكوارث على هوية الأنا؟.

لست أدري ما يمكن أن يحدث للآخرين. إنما يمكنني أن أقول، إن تلك الهوية، هويتي، تضيع فجأة، وذلك التشوه في ذاتي، سرعان ما يبلغ نسباً هائلة: تأخذ مناطق كبيرة من روحي بالانتفاخ (حتى أنني أحس أحياناً، بضغط جسمي المادي في رأسي بخاصة) وتتقدم كأنها استطالات زائفة هادئة عمياء صامتة، نحو مناطق أخرى من السلالة،

وأخيراً إلى مناطق حيوانية قديمة ومظلمة. تبدأ إحدى الذكريات بالانتفاخ، فتتخلى شيئاً فشيئاً عن كونها نغم ***رقصة اليعاسيب*** الذي سمعته من «بيانو» في إحدى الليالي أثناء طفولتي، ليصبح بعد ذلك، موسيقا بالغة الغرابة، خارج سياقها، ثم تتحول إلى صيحات وتنهدات، وأخيراً، إلى صرخات مروعة، ثم إلى ما هو أغرب من ذلك، حيث تأخذ بالتحول إلى طعوم حامضية أو مثيرة للاشمئزاز في فمي، وكأنها تمر من مسمعي، إلى حنجرتي، فتبدأ في معدتي تقلصات الغثيان، في حين تدخل أصوات أخرى، وذكريات أخرى، ومشاعر أخرى، أطوار تحوّل مشابهة. وأفكر أحياناً بأن التقمص ربما كان حقيقة، وأن ذكريات تلك الكائنات السالفة تغفو في أعماق الزوايا الخفية من الأنا كما لو أننا نحتفظ ببعض آثار سمكة أو حيوان زاحف، عندما تضعف وترتخي - لسبب ما نجهله - القوى والضغوط، والأسلاك والبراغي التي تمسك بالأنا الحاليّة، فتنطلق على هواها تلك الوحوش الضارية وحيوانات ما قبل التاريخ التي تقبع فينا. وذلك ما يحدث في كل ليلة ونحن نيام، إذ سرعان ما يفلت الزمام، وتأخذ بالتحكم فينا أيضاً كوابيس تتكشف في وضح النهار.

ولكن بقدر ما تستجيب لي إرادتي، أشعر بشيء من الأمان، فأنا أعلم أنني بفضلها يمكن أن أتخلص من الفوضى، وأنظم عالمي من جديد: إن إرادتي تكون جبارة عندما تؤدي وظيفتها. تحدث أسوأ الأمور عندما أشعر بأن الأنا فيّ تتفتت والإرادة تضمحل. أو عندما أشعر، بأن إرادتي ما زالت تخصني دونما أجزاء من الجسم أو الجهاز الذي يبثها فيَّ. أو كأنما الجسم جسمي ولكن «شيئاً ما» يقف معترضاً بين جسمي وإرادتي. مثلاً: أود تحريك ذراعي، ولكن الذراع لا تستجيب لي، أركز كل انتباهي عليها وأنظر إليها، أبذل جهداً، ولكن ألاحظ أنها لا تستجيب.

وكأن خطوط المواصلات بين عقلي وذراعي قد تقطّعت. حدث لي ذلك مرات عدة، كما لو كنت منطقة ضربها زلزال وخلف فيها شقوقاً، وأدى إلى تقطيع خطوطها الهاتفية. في مثل تلك الظروف يمكن أن يحدث أي شيء: لا شرطة ولا جيش. وأي كارثة يمكن أن تحل، من سرقة أو نهب أو سلب. أشعر كأن جسمي يخص شيئاً آخر، وأنا أقف عاجزاً صامتاً، أراقب كيف تجتاح تلك الأرض الغريبة تحركات مريبة وارتعاشات تبشر باختلاجات جديدة، حتى تعود الكارثة، شيئاً فشيئاً، وبسرعة، للسيطرة على جسمي، ثم على روحي.

أروي لكم ذلك كله لكي تفهموني.

وإن لم أفعل، فإن الكثير من الأحداث التي سأرويها لن تكون مفهومة، ولا يمكن تصديقها. لكنها مع ذلك، حدثت، ليس برغم هذا الانفصام في شخصيتي، وإنما بفضله.

6

إن هذا التقرير مكرس، بعد موتي الذي بات وشيكاً، لإحدى المؤسسات التي تؤمن بفائدة متابعة الأبحاث عن هذا العالم الذي لايزال حتى الآن مجهولاً. وهو بحالته الراهنة، يقتصر على الوقائع كما حدثت. والفضيلة التي ينطوي عليها، برأيي، موضوعيته المطلقة: أود أن أتحدث عن تجربتي، مثلما يمكن أن يتحدث باحث عن بعثته في الأمازون، أو في أفريقيا الوسطى. ورغم أن الهوى والكراهية يمكن في كثير من الأحيان أن يضللاني، وهذا أمر طبيعي، إلا أنني وطدت العزم على أن أبقى دقيقاً، وألا أنجرّ وراء مثل تلك المشاعر. لقد اكتسبت خبرات هائلة، ولهذا فإنني أودّ جازماً أن أعتدّ بالوقائع، على الرغم من أنها تسلط ضوءاً مقيتاً على حياتي. وبعد الذي قلته، لا يمكن أن يصرّ أحد يتمتع بعقل سليم على أن الهدف من هذه الأوراق، هو إثارة مشاعر العطف نحوي.

ها إني أعترف هنا على سبيل المثال بإحدى الحوادث الممقوتة، كتعبير عن مدى إخلاصي: ليس لديّ الآن، كما لم يكن لديّ من قبل أصدقاء قط. شعرت بالتأثر طبعاً، ولكنني لم أمحض، أياً كان، مودتي، ولا أعتقد أن أحداً محضني الود.

أقمت صلات مع كثير من الناس. كان لدي «معارف»، كما يقال ويقصد عادة بهذه العبارة المبهمة.

وكان أحد أولئك المعارف، الذي سيكتسب أهمية فيما جرى بعد ذلك، إسبانياً هزيلاً صموتاً يدعى سيليستينو إيجليسياس.

التقيته أول مرة سنة 1929 في أحد المراكز الفوضوية في أفيجانيدا، يُسمى (فجر). في ذلك الحين تعرفت سفرينو دي جيوفاني في المركز ذاته، قبل سنة من إعدامه. كنت أتردد على المراكز الفوضوية لأنني كنت أود تنظيم عصابة سطو، وقد قمت بذلك فيما بعد فعلاً. وعلى الرغم من أن سائر الفوضويين ليسوا قتلة، فقد كان بينهم جمع أجناس المغامرين والعدميين. كان ذلك الطراز من أعداء المجتمع يستهويني دائماً. وكان أحد أولئك، أوسفالدو. و. بوديستا، الذي شارك في السطو على مصرف سان مارتين ولقي مصرعه أثناء الحرب الإسبانية على أيدي الحمر قرب مرفأ تارّاغونا، عندما كان يحاول الهرب من إسبانيا على ظهر قارب كبير محمل بالأموال والحلي.

تعرفت إيجليسياس بوساطة بوديستا، كما لو أن ذئباً يقدم لي حملاً. فقد كان إيجليسياس واحداً من أولئك الفوضويين الطيبين، يعجز عن قتل ذبابة: كان مسالماً، وكان نباتياً (بسبب اشمئزازه من الحياة القائمة على أساس قتل أي كائن حي) وكان منساقاً وراء ذلك الحلم الرائع، بأن العالم سيصبح في يوم من الأيام مجتمعاً عطوفاً، يضم أناساً أحراراً ومتآخين ومتعاونين. وأن ذلك «العالم الجديد» سيتكلم لغة واحدة فقط هي لغة «الاسبرانتو»، ولذلك فإنه تعلم بصعوبة تلك المنظومة المقومة للتشويهات، التي لم تكن كريهة وحسب (فليس هناك ما يمكن أن يلحق بلغة عالمية أسوأ من ذلك)، بل لا يتكلمها أحد عملياً (وهذا ما يهدد بالقضاء عليها كلغة عالمية). وهكذا اتصل ببعض أولئك الأشخاص الخمسمئة المنتشرين في العالم - الذين يفكرون كما يفكر - برسائل انكب على كتابتها فاغراً فاه متدلياً لسانه من شدة الإجهاد.

ثمة أمر غريب لكنه متواتر في أوساط الفوضويين وهو أن يمتهن مخلوق ملائكي مثل إيجليسياس تزوير النقود. رأيته ثانية في أحد أقبية شارع بويدو حيث كان أوسفالدو. ر. بوديستا يحتفظ بجميع الأدوات اللازمة لذلك الطراز من العمليات، وحيث كان إيجليسياس يقوم بمهمات سرية.

كان في ذلك الوقت يناهز الثلاثين من عمره، أسمر اللون، قصير القامة نحيلاً، مثل كثير من الإسبانيين الذين يبدو كأنهم عاشوا فوق أرض محروقة، من دون غذاء تقريباً، تجففهم شمس الصيف التي لا تطاق، وبرودة الشتاء التي لا ترحم. كان كريماً معطاءً لم يدخر أي قرش (كانت الأموال التي يكسبها أو يزورها، تذهب كلها إلى النقابة، أو إلى النشاطات وأعمال الشغب التي يقوم بها بوديستا). وكان دائماً يؤوي في غرفته الصغيرة أحد المتطفلين ممن اعتادوا ارتياد الوسط الفوضوي. وعلى الرغم من أنه لم يكن أهلاً لقتل ذبابة، فقد قضى معظم سني حياته في سجون إسبانيا والأرجنتين. كان إيجليسياس، مثل نورما بوغليسي، يتصور أن كل شرور الإنسانية ستزول بمزيج من ***علم ومعرفة متبادلة***. وأنه لا بد من شن الحرب ضد ***قوى الظلام*** التي تقف منذ قرون في وجه انتصار ***الحقيقة***. لكن تقدم الأفكار لن يتوقف، ولا بد من أن ينبلج الفجر مهما طال الزمن، ولذلك لا غنى عن النضال ضد قوى ***الدولة*** المنظمة، وفضح دجل رجال ***الكهنوت***، وكان ينبغي تدمير ***الجيش*** وتشجيع ***الثقافة الشعبية***. وقد أنشئت مكتبات لا تحتوي على مؤلفات باكونين، أو كروبوتكين وحسب، بل روايات زولا ومجلدات سبنسر وداروين، وكان يبدو لهم أن نظرية ***النشوء والارتقاء*** إرهابية، وأن ثمة رابطة غريبة تربط تاريخ ***الأسماك والجرابيات***، ***وانتصار الأفكار الجديدة***. وتوفرت كذلك أبحاث أوستوالد عن علم الطاقة. تلك التوراة الحرارية الحركية،

التي يستبدل فيها بالله، كائن علماني، لا يُدرك أيضاً، ويدعى *طاقة*، ويفسر مثل سلفه بأنه قادر على كل شيء، إنما يفوقه بعلاقته الوثيقة *بالتقدم والقاطرة*. وارتبط فيما بعد رجال ونساء ممن كانوا يرتادون تلك المكتبات بعلاقات زواج حرة، وأنجبوا أولاداً، أطلقوا عليهم أسماء مثل: *ضوء*، *حرية*، *عهد جديد*، أو جيوردانو برونو. وتحول هؤلاء الأولاد ـ بفضل تلك الآلية التي يتمرد فيها الأبناء على آبائهم في غالب الأحيان، أو بفضل *المسيرة التاريخية* المعقدة والجدلية بعامة، في أحيان أخرى ـ إلى مجرد بورجوازيين، وقامعي مظاهرات، وحتى إلى مُضطهدين قساة *للحركة* مثلما كان حال مأمور الشرطة الشهير جيوردانو برونو ترنتي.

منذ أن بدأت الحرب الإسبانية، لم أعد أرى إيجليسياس لأنه ذهب، مثله مثل الكثيرين، ليقاتل تحت لواء «الاتحاد الفوضوي الإيبيري» والتجأ في 938 إلى فرنسا حيث أتيحت له الفرصة ليقدر عالياً مشاعر مواطني ذلك البلد الأخوية، ويكتشف *ما للجوار وللمعرفة وللبعد والجهل المتبادل* من ميزات. لقد تمكن أخيراً، من أن يعود من هناك إلى الأرجنتين. ورأيته هنا ثانية، بعد عامين من حادثة «المترو»، التي رويتها، وكانت لي صلات مع مجموعة من المزورين، وبما أننا كنا بحاجة إلى رجل نثق به، ولديه خبرة، فكرت بإيجليسياس. بحثت عنه بين الأصدقاء القدماء، وبين المجموعات الفوضوية في مدينتي لابلاتا وأفيجانيدا، إلى أن وقعت عليه: كان يشتغل منضّداً في مطبعة «كرافت».

وجدت أنه تغير كثيراً بسبب عَرَجه بخاصة: لقد بتروا رجله اليسرى أثناء الحرب. كان نحيلاً أكثر من ذي قبل، وحذراً أكثر من أي وقت مضى.

تردد، لكنه قبل عندما قلت له إن تلك الأموال ستستخدم لمساعدة

أحد الفصائل الفوضوية السويسرية. لم يكن من الصعب إقناعه بأي أمر يتعلق بالقضية، مهما بدا لأول وهلة خيالياً، بل حتى إن كان خيالياً فعلاً. كانت سذاجته واضحة للعيان: ألم يعمل لصالح وغد مثل بوديستا..؟. ترددت قليلاً في اختيار جنسية فصيل الفوضويين، ولكنني قررت أن تكون من السويسريين، لشدة ما ينطوي عليه ذلك من مجافاة للعقل. إذ لا يماثل اعتقاد أي إنسان سويّ، بوجود فوضويين سويسريين سوى التسليم بوجود فئران في صندوق حديدي. عندما مررت بذلك البلد أول مرة، خلت أن ربات البيوت يكنسنه كل يوم (ويلقين القمامة على إيطاليا طبعاً). ولقد كان هذا التصور قوياً إلى حد جعلني أعيد التفكير بالأسطورة الوطنية. فالحكايات تكون صحيحة أصلاً لأنها تخترع اختراعاً، وتبتكر بتؤدة لكي تنطبق على شخص ما، تمام الانطباق. ويحدث ما يشبه ذلك في الأساطير الوطنية التي تحاك عمداً، لكي تصف روح بلد ما. وهكذا خطر لي في تلك المناسبة أن أسطورة «غيّرمو تل[1]» تصف الروح السويسرية بصدق: فعندما أصاب مطلق السهم التفاحة في مركزها تماماً، ضيع السويسريون على أنفسهم الفرصة التاريخية الوحيدة ليكون لديهم مأساة قومية كبرى. ماذا يمكن أن ينتظر المرء من بلد كهذا؟. من شعب، هو في أحسن الأحوال ليس سوى صانع ساعات.

(1) غيّرمو تل: أو غليوم تل. بطل أسطوري من أبطال استقلال سويسرا، حُكم عليه بأن يطلق سهماً ليصيب تفاحة وضعت على رأس ابنه الصغير. وعندما أطلق السهم أصاب التفاحة فعلاً. (المترجم).

7

يمكن أن ينصرف التفكير إلى العدد الهائل من المصادفات التي قادتني في نهاية المطاف إلى ولوج عالم العميان: لو لم أكن وثيق الصلة بالفوضويين، ولو لم أعثر بين أولئك الفوضويين على شخص مثل إيجليسياس، ولو لم يكن إيجليسياس مزور نقود، وحتى إن كان كذلك، لكنه لم يُصب بالحادث الذي ذهب ببصره.. الخ. وَلِمَ الاستمرار؟. تكون الأحداث مصادفات، أو تبدو كذلك، حسب الزاوية التي يُرصد الواقع منها. فلماذا لا نفترض، من زاوية مقابلة، أن كل ما يحدث لنا ليس سوى استجابة لغاية معينة؟. كان العميان هاجسي منذ كنت طفلاً، وأتذكر، بقدر ما تسعفني الذاكرة، أن هدفي المبهم والعنيد، كان الولوج، في يوم من الأيام إلى العالم الذي يقطنون. ولو لم أعثر على إيجليسياس، لكنت تصورت وسيلة أخرى، لأن كل قواي الروحية اتجهت إلى تحقيق ذلك الهدف، فعندما يُنشد أحدنا بقوة وانتظام، هدفاً ممكن التحقيق في هذا العالم المحدد، وعندما يحشد له، ليس الطاقات الواعية لشخصيتنا وحسب، بل أقوى طاقات عقلنا الباطن أيضاً، يؤدي بنا الأمر إلى خلق حقل من قوى التخاطر حولنا، حيث نخضع مخلوقات أخرى لإرادتنا، فتقع أحداث تبدو كأنها مصادفات، بينما تمليها في الواقع تلك القوة الخفية لروحنا. لقد فكرت في عدة مناسبات، بعد فشل تجربتي مع أعمى المترو، كم مفيد أن أعثر على شخص يكون، بين بين، أي

يتوسط المملكتين، شخص لا يزال يشارك في عالمنا، عالم المبصرين، ولو بعض الوقت، لأنه فقد بصره في حادث، ويكون قد خطا، في الوقت ذاته، خطوة إلى عالم العميان. ومن يدري ما إن كانت تلك الفكرة، التي تحولت يوماً بعد يوم إلى هاجس، قد تمكنت من عقلي الباطن، حتى أصبحت تعمل، مثلما قلت، كحقل مغناطيسي خفي، ولكنه جبار، يملي على أحد الكائنات التي تدخل في نطاقه ما كنت أرغب به في تلك اللحظة من حياتي، ألا وهو: حادثة العمى، فعندما تفحصت الظروف التي كان فيها إيجليسياس يعالج تلك الحموض، تذكرت أن الانفجار حدث بعد دخولي المخبر، وبعد الفكرة الفجائية، التي اقتحمت عقلي بقوة تقريباً، مؤكدة أن انفجاراً سيحدث إذا ما اقترب إيجليسياس من جهاز اللحام الأوكسجيني. أكان ذلك نذيراً بوقوع الحادثة..؟. لست أدري. ومن يدري ما إذا كانت رغبتي هي التي أملت على نحو ما، كل ما حدث، وما إذا كانت تلك الحادثة، التي بدت فيما بعد ظاهرة عادية من ظواهر العالم المادي اللامبالي، ليست في الواقع سوى ظاهرة أصيلة من ظواهر العالم الذي تولد وتنمو فيه أشد هواجسنا اضطراباً. فأنا بالذات، لا أرى ذلك الحادث على نحو واضح، لأنني كنت أجتاز إحدى تلك المراحل التي كان فيها الحفاظ على حياتي يتطلب بذل جهد عظيم، حيث كنت أشعر كأنني قبطان سفينة تحيق بها العاصفة، أحاول، بعد أن دمرت الأعاصير الجسور، وزعزعت الزوابع الهيكل، أن أظل مشرق الوعي، لكي لا تنحرف سفينتي عن الطريق القويم، في خضم الهزات والظلمات. وكنت فيما بعد أسقط منهاراً، مشلول الإرادة، تملأ زوايا ذاكرتي فراغات كبيرة، وكما لو أن الإعصار دمر روحي، وكان لا بد من انقضاء أيام قبل أن تعود الأمور إلى حالتها الطبيعية قليلاً،

وكانت الكائنات والأحداث في حياتي الحقيقية، تظهر وتختفي تدريجياً، كئيبة، حزينة، مزعزعة، باهتة بقدر ما كانت المياه تعود إلى مجاريها.

بعد تلك الفترات، كنت أعود إلى الحياة العادية، أحمل ذكريات غامضة من حياتي السابقة. وهكذا عاد إيجليسياس يظهر في ذاكرتي شيئاً فشيئاً. وقد كلفني تذكر الأحداث التي تكللت بالانفجار جهداً كبيراً.

8

مرت العملية في سياق تطور طويل قبل أن أتمكن من أن ألمح النتائج الأولية. فتلك المنطقة الوسيطة، التي تفصل بين العالمين، غاصة ـ كما يسهل على المرء أن يتصور ـ بالغموض والتردد والإبهام: إذا ما أُخِذَتْ بعين الاعتبار طبيعة عالم العميان السرية المريعة، يكون أمراً طبيعياً ألا يتمكن أحد من دخول ذلك العالم، إلا بعد سلسلة من التحولات الخفية.

راقبت تلك العملية من قرب، ولم أفارق إيجليسياس إلا عند الضرورة: كان فرصتي المضمونة للتسلل إلى العالم المحرم، ولن أدع الأخطاء الفاحشة تفوّتها. حاولت أن أبقى إلى جانبه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، ولكن من دون إثارة أي شكوك أيضاً. كنت أرعاه، وأقرأ على مسامعه بعض كتب كروبوتكين، وأحدثه عن «المعونة المتبادلة»، لكنني كنت قبل أي شيء آخر، أراقب وأنتظر. علقت في غرفتي لافتة كبيرة أراها من رأس سريري تقول:

راقـــب انتظـــر

قلت: ينبغي، عاجلاً أم آجلاً، أن يظهروا. لا بد من وجود فترة في حياة الأعمى الجديد، يتعين عليهم بعدها أن يأتوا للبحث عنه. ولكن تلك الفترة (كنت أقول لنفسي بقلق أيضاً)، تلك الفترة، يمكن أن تكون غير محددة تماماً، بل على النقيض من ذلك، يحتمل أن تبدو من الأمور

العادية أو المألوفة. كان من الضروري أن أنتبه إلى أكثر التفاصيل تفاهة، وأراقب أي شخص يقترب منه مهما بدا ـ لأول وهلة ـ أنه ممن لا يمكن أن يتطرق إليهم الشك، وفي تلك الحالة، كان لا بد من مراقبة الرسائل والمكالمات الهاتفية.. وما إلى ذلك. ومعلوم أن البرنامج كان مرهقاً ومتشابكاً. ويكفي التفكير بأحد التفاصيل لتكوين فكرة عما كان ينتابني من قلق في تلك الأيام: قد يكون وسيط الطائفة شخصاً آخر من النُزل، بل قد يكون إنساناً بريئاً، وقد يرى ذلك الشخص إيجليسياس في وقت يتعذر عليّ فيه مراقبته، وحتى إنه ربما يكون في انتظاره في الحمام. رسمت في غرفتي ـ في ليال طويلة قضيتها في التأمل والتفكير ـ خططاً مفصلة، كان تنفيذها يحتاج إلى جهاز تجسس يضاهي تلك الأجهزة التي يحتاج إليها بلد بكامله أثناء الحرب. ولكن خطر التجسس المضاد قائم دائماً، ومن المعروف أن كل جاسوس يمكن أن يكون عميلاً مزدوجاً. ولذلك لا يمكن لأحد أن يكون آمناً. وأخيراً، بعد تحاليل طويلة، فكرت أثناءها أنني قد أصاب بالجنون، توصلت إلى التبسيط والتزام ما يمكن تنفيذه. كان لا بد لي من أن أكون دقيقاً وصبوراً، أتمتع بالشجاعة، وألبس قفازين من حرير: تجربتي الفاشلة مع صاحب القطع العظمية علمتني أن هجوماً مباشراً بالسبل السهلة القصيرة لن يؤدي إلى نتيجة.

كتبت كلمة «جرأة» وكان بوسعي أن أكتب أيضاً كلمة «قلق»، فقد كان الشك بأن تكون الطائفة قد ضربت حولي نطاقاً صارماً من المراقبة منذ حادثة ذلك الرجل، يقلقني كثيراً. واعتبرت أن جميع أنواع الحذر لم تكن كافية. سأقدم مثالاً: حينما كنت أنكب على قراءة الصحيفة في مقهى شارع «باسو» كنت أرفع فجأة، وبسرعة البرق، ناظري، أحاول مباغتة «خوانيتو» لأرى أمارة شك ما على وجهه، أو بريقاً ما في عينيه،

أو تعبير خجل ما على محياه. ثم كنت أستدعيه بإيماءة من يدي، وأقول له مفترضاً أنه لم يبدُ عليه ما ينم عن الخجل: «خوانيتو»، لماذا تضرج وجهك..؟. كان المسكين ينكر طبعاً. إلا أن تلك كانت أيضاً تجربة ممتازة: إن أنكر من دون أن يتضرج وجهه، لكان ذلك دليلاً قاطعاً على براءته، وإن تضرج، حذار..!. كونه لم يتضرج عندما فاجأته بسؤالي لا يبرهن أيضاً على أنه لم تكن له أي علاقة بالمؤامرة (ولهذا قلت دليلاً «قاطعاً») لأن الجاسوس الجيد يجب أن ينأى بنفسه عن هذا النوع من العيوب.

يمكن اعتبار هذا كله ضرباً من هذيان المطاردات. لكن الأحداث التي تلت برهنت على أن ظنوني وشكوكي لم تكن، لسوء الحظ، غير صائبة، كما يمكن أن يتصور شخص عاقل. ولكن، لماذا تجاسرت على المخاطرة والاقتراب من الهاوية..؟. لأنني كنت آخذ بعين الاعتبار عدم الكمال، وهو صفة حتمية لعالم الواقع. حتى إنه لا يمكن أن تُستثنى أجهزة العميان المتخصصة بالمراقبة والتجسس من العيوب، وقد أخذت بعين الاعتبار أيضاً أمراً كان من المنطقي أن أتوقعه: الضغائن والأحقاد التي لا بد من وجودها بين العميان، مثلهم في ذلك مثل أي جنس من الأجناس الحية. وأخيراً، فكرت بأن طبيعة الصعوبات التي يمكن للمبصر أن يتوقعها أثناء سبر ذلك العالم، لن تكون مختلفة كثيراً عن تلك التي يمكن لجاسوس إنكليزي أن يجدها أثناء الحرب، في النظام الهتلري المدروس والمليء بالفجوات، والأحقاد أيضاً.

ومع ذلك فإن المشكلة كانت مزدوجة، لأن عقلية إيجليسياس أخذت ـ كما كان متوقعاً ـ تتغير، وإن كان الأمر أكثر من مجرد عقلية (أو أقل)، إذ يجب أن أقول إن التبدل بدأ يطرأ على «جنسه» أو «طبيعته الحيوانية»، كما لو أن مخلوقاً بشرياً بدأ يتحول نتيجة تجربة بالمورثات

(الجينات) ـ على نحو بطيء، لكنه حتمي ـ إلى وطواط أو ضبّ. وما كان أشد هولاً، أن أياً من مظاهره الخارجية لم يطرأ عليه أي تحول عميق تقريباً. إنه لأمر مثير دائماً، بقاء المرء في الليل وحيداً، في غرفة مغلقة ومظلمة، وهو يعلم أن فيها وطواطاً، ويحس بذلك النوع من الفأر المجنح يطير. ويبلغ الأمر حداً لا يطاق عندما يحس بأحد جناحيه يقترب من وجهه أثناء طيرانه الصامت المثير للاشمئزاز. ولكن تباً لذلك الإحساس كم سيكون فظيعاً، إن كان لذلك الحيوان شكل إنسان..!. كان إيجليسياس يتعرض لتلك التغيرات الخفية التي قد لا ينتبه الآخرون إليها. ولكنها كانت بالنسبة إليّ، أنا الذي أراقبه بمكر وانتظام، محسوسة تماماً.

أصبح، يوماً بعد يوم، كثير الظنون، وذلك أمر طبيعي: لم يكن أعمى أصيلاً يتمتع بتلك القدرة الهائلة على التحرك وسط الظلمات، ولا بحاستي سمع ولمس مرهفتين، كما أنه لم يعد قادراً على الرؤية بعينيه العاديتين. شعرت بأنه كان يحس بالضياع: لم يكن قد توصل إلى إدراك المسافات الحقيقية. كان يرتكب أخطاء في تقدير المسافات، فيتعثر وتصطدم يداه المرتجفتان بكأس الماء. كان يتميز من الغيظ، رغم محاولة مداراة غضبه وراء قناع من الأنفة.

كنت، بدلاً من أن أبقى صامتاً، أتظاهر بعدم الانتباه، وأقول له:

ـ لا تبالِ يا إيجليسياس.

وكان ما أقوله يستوقد غضبه ويثير حفيظته.

وسرعان ما كنت ألوذ بالصمت، وأدع السكون المطبق يحيق به. حسناً، والآن: إن الصمت المطبق حول الأعمى يشبه هاوية مظلمة تفصلنا نحن المبصرين عن العالم، فهو لا يدري إلى أي شيء ينصرف، لأن كل صلاته بالعالم الخارجي تكون قد ألغيت وسط ظلمات العميان

التي هي الصمت المطلق. وهم لا بد أن يكونوا مشدودين إلى أي صوت مهما قل شأنه، لأن الخطر يتربص بهم من كل جانب.

فأثناء تلك اللحظات يشعرون بالوحدة والعجز. ويكون مجرد وجيب ساعة يد كالوميض البعيد الذي يلمحه البطل المذعور في قصص الأطفال، عندما يظن أنه ضلّ طريقه وسط الغابة.

كنت حينئذ أفتعل نقرة على الطاولة أو المقعد، وألاحظ كيف كان إيجليسياس ينصرف بكليته، وبقلق جنوني، إلى ذلك الاتجاه فوراً، ولعله كان في عزلته يتساءل: ما الذي يبتغيه فيدال؟.. أين هو؟.. ولماذا يلوذ بالصمت؟.

كان في الواقع، يسيء الظن بي كثيراً، وكانت تلك الظنون تتزايد كلما مرت الأيام. إلى أن انعدمت ثقته بي تماماً بعد ثلاثة أسابيع، عندما انتهى طور تحوله تحولاً كاملاً. كان ثمة مؤشر لا بد أن يدل ـ إن لم تكن نظرياتي خاطئة ـ على انتساب إيجليسياس القاطع إلى المملكة الجديدة، وتحوله التام، ألا وهو الاشمئزاز الذي يثيره العميان الأصليون في نفسي. ولم يكن ذلك الاشمئزاز أو الانقباض أو النفور يظهر بغتة: فقد دلتني خبرتي أيضاً على أن ذلك يحدث تدريجياً إلى أن نجد أنفسنا، في يوم من الأيام، أمام الأمر الواقع الذي تقشعر منه الأبدان: أمام الوطواط أو الحيوان الزاحف. أتذكر ذلك اليوم تماماً: ما إن اقتربت من غرفة إيجليسياس في النُزُل الذي كان يقيم فيه منذ إصابته بالحادث حتى انتابني شعور مبهم بالانزعاج، إحساس مريب بالاشمئزاز كان يشتد كلما اقتربت من غرفته. وقد ترددت طويلاً قبل أن أناديه. حتى قلت وأنا أكاد أرتعد: إيجليسياس. شيء ما أجاب: أدخل. فتحت الباب وسط الظلمة، (كان أمراً طبيعياً ألاّ ينير الغرفة عندما يكون وحيداً)، فأحسست حينئذ بأنفاس الغول الجديد.

9

ولكن، قبل الوصول إلى تلك المرحلة الحاسمة، حدثت أمور أخرى لا بد من أن أرويها، لأنها هي التي مكّنتني من دخول عالم العميان قبل أن يبلغ إيجليسياس مرحلة تطوره النهائية، مثلما يتمكن أولئك المراسلون أثناء الحرب من عبور جسر على دراجة نارية، وهم يعرفون أنه لا بد أن يُنسف ما بين لحظة وأخرى، هكذا كنت أرى لحظة اكتمال التطور الحاسمة تقترب، وأحاول حث خطاي. وفكرت للحظات أنني لن أصل في الوقت المناسب، وأن العدو سينسف الجسر قبل أن أتمكن، في غمرة سباقي اللامعقول مع الزمن، من اجتياز الخندق.

راقبت بقلق متزايد كيف كانت الأيام تمر، وقدرت أن عملية التحول الداخلي الذي يطرأ على إيجليسياس تسير في طريقها الحتمي، ولم تبدر أي إشارة تدل على أنهم سيظهرون. استبعدت فرضية واحدة فقط لأنها غير معقولة، وهي ألا يعلم العميان بأن أحداً فقد بصره، وأنه يجب العثور عليه وربطه بالطائفة. بيد أن انقضاء الأيام عبثاً، وتنامي ما انتابني من قلق، حملني على التفكر بمثل هذا الافتراض، وافتراضات أخرى أسخف. كما لو أن عاطفتي ألقت غمامة على قدراتي العقلية، وحملتني على نسيان ما كنت أعلمه عن الطائفة. قد تفيد العاطفة فعلاً في إبداع قصيدة شعرية، أو تأليف مقطوعة موسيقية، ولكنها في الأمور العقلية المحضة كارثة كبرى.

أخجل من مجرد تذكّر التفاهات التي خطرت ببالي. عندما بدأت أخشى ألاّ أتمكن من عبور الجسر. وبلغ بي الأمر حد الافتراض أنه يمكن لرجل أصيب بالعمى أن يبقى، كجزيرة صغيرة، وسط محيط هائل لا يبالي. أعني: ما الذي يمكن أن يحل بإنسان أصيب مثل إيجليسياس بالعمى ولا يرغب، ولا يريد أن يبحث، بسبب طبيعته الشخصية، عن وسيلة للاتصال بالعميان الآخرين؟. كما لا يود بسبب عقدة كراهية البشر المتحكّمة فيه، وبسبب انطوائه وخوفه، أن يتصل بتلك المؤسسات، التي هي المظاهر المرئية (والسطحية) لذلك العالم المحرّم: مكتبات العميان، جوقات المرتلين.. الخ..؟. ما الذي يمكن مبدئياً، أن يمنع إنساناً مثل إيجليسياس من أن يبقى معزولاً، وألاّ يكتفي بعدم البحث عن وسيلة للاقتراب من أبناء جنسه وحسب، بل أن يرفض ذلك أيضاً؟. انتابتني رعشة من الدوار لحظة تصوري تلك الترهات (لأن الترهات يمكن أن تثيرنا أيضاً). حاولت على الفور استعادة هدوئي. فكرت: يتعين على إيجليسياس أن يشتغل. إنه فقير، ولا يمكن أن يبقى عاطلاً لا عمل له. كيف يعمل الأعمى؟. ينبغي أن يخرج إلى الشارع، ويمارس أحد النشاطات، كأن يبيع أمشاطاً، وحلياً بخسة الثمن، وصور غارديل وليغيسامو وعظام ياقات القمصان الشهيرة، أو أي شيء يُسهّل للآخرين رؤيته، ويؤدي عاجلاً أو آجلاً إلى وثوق رجال الطائفة به. حاولت أن أسرّع العملية بإلحاحي على أن يبدأ بأي عمل من تلك الأعمال، حدثته بحماس عن عظام ياقات القمصان، وما يمكن أن يكسب في محطة واحدة من محطات المترو. صورت له مستقبلاً وردياً، ولكن إيجليسياس لاذ بالصمت والشك.

ـ ما زلت أدخر بعض النقود. سنرى فيما بعد.

فيما بعد..!. بئست من كلمات تدعو للقنوط..!. حدثته عن بيع الصحف لكنه لم يتحمس للأمر كذلك.

لم يكن أمامي سوى الانتظار، ومتابعة المراقبة، حتى تضطره الحاجة إلى أن يخرج.

أؤكد أنني أشعر الآن بالخجل، لأن هيمنة الخوف علي قادتني إلى ذلك الدرك من الطيش. كيف أمكنني وأنا بكامل قواي العقلية، أن أفترض أن الطائفة جاهلة إلى درجة تحتاج معها إلى قيام المنضد ببيع الصحف لكي تعلم بوجوده؟. والناس الذين شاهدوا إيجليسياس يخرج مصاباً..؟. والممرضون والأطباء في المستشفى..؟. هذا، إن لم نحسب حساباً للسلطات التي تتمتع بها الطائفة، ولنظام المعلومات والجاسوسية الواسع المتشابك، كنسيج عنكبوت خفي، الذي تغطي به العالم بأسره.

يجب ـ مع ذلك ـ أن أقول إنني، بعد بضع ليال من الانزعاج السخيف، خلصت إلى أن تلك الافتراضات لم تكن سوى ترهات، وليست هناك أي إمكانية لتخلي الطائفة عن إيجليسياس. كنت أخشى أن يتأخر الاتصال كثيراً. ولم يكن بوسعي أن أفعل أي شيء لأحول دون تأخره.

لم أكن أستطيع البقاء إلى جانب إيجليسياس طيلة الوقت. ولذلك بحثت عن وسيلة لمراقبته من دون أن أضطر إلى البقاء قريباً منه. كانت الإجراءات التي اتخذتها هي التالية:

1 ـ أعطيت صاحبة النزل السيدة «إيتشيباريبوردا» كمية كبيرة من النقود، وكانت تلك المرأة تبدو لي، بلهاء متخلفة عقلياً. ورجوتها أن تعني بإيجليسياس وأن تخبرني عن كل ما يتعلق بالمنضد، بعد أن حدثتها، طبعاً، عن عجزه.

2 ـ طلبت من المنضد ألاّ يقدم على أي أمر قبل أن يخبرني، لأنني كنت أود خدمته بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من معنى. ولم أثق كثيراً بهذا الأمر، لأنني تصورت أن الشقة بيننا تتسع يوماً بعد يوم، وأن عدم ثقته بي تزداد باضطراد.

3 ـ حاولت، قدر ما أستطيع، ضرب نطاق من الحراسة على تحركاته إذا ما خطر بباله أن يخرج، أو على تحركات الناس الذين يُفترض أن بوسعهم الاقتراب منه. كان نُزُله في شارع باسو، ولحسن الحظ، كان هناك، على بعد عشرين متراً تقريباً، مقهى، تمكنت كغيري ممن لا عمل له، من أن أمكث فيه ساعات وساعات، أتظاهر بأنني أقرأ الصحيفة، أو أتحدث مع النُدل الذين تعين عليّ أن أتخذ منهم أصدقاء. كنا في فصل الصيف، ومن النافذة المفتوحة، التي كنت أجلس بقربها، كان بوسعي مراقبة مدخل النزل.

4 ـ استخدمت نورما غلاديس بوغليسي واضعاً نصب عيني هدفاً مزدوجاً وهو: أن أتلافى ما يثيره من شكوك قيام رجل واحد بالمراقبة، وأن أمارس قليلاً كرة القدم، والسياسة الأرجنتينية، بالإضافة إلى المتعة البسيطة التي كنت أجدها في إفساد المعلمة.

10

أثارت تلك الأيام الخمسة التي تلت قلقي. ماذا كان بوسعي أن أفعل سوى الاستغراق في التفكير، والحديث مع النادل، وتصفح الصحف والمجلات؟. اغتنمت المناسبة لكي أنصرف إلى قراءة موضوعين سحراني دائماً: الإعلانات، وأخبار الجرائم. وهذه هي الأمور الوحيدة التي أثابر على قراءتها منذ عشرين عاماً. فهي التي تلقي ضوءاً على الطبيعة البشرية، وعلى المعضلات الماورائية الكبرى. نقرأ في طبعة الساعة السادسة مساء لصحيفة «لارأسون»: ***يصاب بالجنون فجأة، ويقتل زوجته وأولاده الأربعة بفأس.*** لا نعرف شيئاً عن هذا الرجل سوى أنه يدعى «دومينغو ساليرنو» وأنه كان عاملاً كادحاً ومحترماً، يملك متجراً صغيراً في فيّا لوغانو، ويحب زوجته وأولاده كثيراً، وفجأة يقتلهم بفأس. يا له من لغز عميق..!. ثم، أي إحساس يشعر به المرء حقاً، عندما يقرأ قسم الجرائم، بعد أن يكون قد قرأ تصريحات السياسيين..!. يبدو هؤلاء جميعهم مخادعين دوليين ومزورين، وأناساً يبيعون عقاقير لمداواة الصلع، ورجالاً يرقّصون الأفاعي. كيف يجوز مقارنة أحد أولئك المزورين بكائن طاهر مثل ساليرنو..؟. وتثيرني الإعلانات أيضاً: ***الذين سينتصرون في المستقبل يدرسون في معاهد بيتمان.*** وتحت ذلك صورة شابين، فتى وفتاة، بوجهيهما المشرقين، يتأبط كل منهما ذراع الآخر، يبتسمان ابتسامة الانتصار، ويسيران نحو المستقبل. ويظهر في إعلان آخر مكتب فوقه آلتا هاتف وجهاز اتصال داخلي، والكرسي الفارغ جاهز ينتظر من

يشغله، ويخرج من آلتي الهاتف شعاعان مضيئان يرسمان عبارة تقول: ***هذا المنصب ينتظرك***. استرعى انتباهي إعلان محلات بيع النظارات «بوديستا» لما ينطوي عليه من غوغائية: ***عيناك تستحقان الأفضل***. أما إعلانات صابون الحلاقة فترتدي شكل حكاية ذات مغزى: يبدو بيدرو في الصورة الأولى بلحيته الطويلة يدعو ماريّا كريستينا للرقص. ويبدو في الصورة الثانية متجهماً، وماريّا كريستينا تراقصه بامتعاض، وهي تحاول ما بوسعها إبعاد وجهها عنه. وتقول في الصورة الثالثة لإحدى صديقاتها: (بئس ذلك الرجل بيدرو، كم هو منفر بلحيته الطويلة..) وتجيب الأخرى: (لماذا لا تقولين له ذلك مباشرة؟.). فترد ماريا كريستينا في الصورة التالية قائلة، إنها لا تجرؤ، ولكن لعلها هي، باعتبارها صديقتها تقول لخطيبها، أن ينصح بيدرو. ويلاحظ في الصورة ما قبل الأخيرة، خطيب الصديقة يحدث بيدرو فعلاً بصوت منخفض. ويظهر في مقدمة الصورة الأخيرة بيدرو وماريا كريستينا سعيدين يرقصان ويبتسمان، وقد حلق بصابون بالموليف الشهير، وعبارة تقول: ***إهمال مؤسف كاد بسببه يفقد خطيبته***.

منوعات: يُفَوِّتُ الرجل في إحداها فرصة كبرى للفوز بالوظيفة، وفي الأخرى لا يحصل على أي ترقية: في صدر قاعة كبيرة مزدحمة بالمكاتب والموظفين، حيث تسهل رؤية بيدرو بلحيته الطويلة، ورئيسه ينظر إليه من بعيد ممتعضاً غاضباً. مراهم مزيلة لرائحة العرق: خطوبات، مناصب في شركات مرموقة، دعوات لحضور حفلات، كلها تضيع ببلاهة لعدم استعمال مزيل رائحة العرق ***أودورنو***.

إعلانات أبطالها سادة ذوو وجوه رياضية، وشعور مصففة بكل دقة، وابتسامات عريضة، أحناكهم كبيرة مثل «سوبرمان»، يخبطون المكاتب بقبضاتهم وسط آلات هاتف متعددة، ويُطِلّون بوجوههم نحو الشخص

الخفي المتردد الذي يخاطبون، ويصرخون: ***النجاح في متناول يديك..!.*** وأحياناً، لا يخبط «السوبرمان» الطاولة، بل يشير بسبابته بقوة، لا يعتريه أي تردد، إلى قارئ الصحيفة الجبان اليائس دائماً الذي يبدد باستمرار «وقته» و«إمكانياته البارزة» في ترهات ويقول: ***اربح خمسة آلاف «بيسو» شهرياً في أوقاتك المهدورة.*** وينصحه بأن يكتب اسمه وعنوانه على سطور القسيمة المنقطة.

يوجه «مستر أطلس» وقد سُلخ جلده، وبدت عضلاته قوية مفتولة، نداء عالمياً إلى ضعفاء البنية: ستلاحظ التقدم في غضون سبعة أيام، وستقرر إعادة تكوين جسمك وبناءه، وسرعان ما ستتمتع ببنية مثل بنية «مستر أطلس». يقول النداء: ***يعشق الناس اتساع فكيك، ستقع على أجمل فتاة، وأفضل وظيفة!.***

ولكن لا مثيل «للمختار ـ ريدرزدايجست» في إشاعة التفاؤل والمشاعر الخيرة. يبدأ أحد مقالات السيد «فرانك. ب. اندروز» المنشور تحت عنوان: ***عندما يجتمع أصحاب الفنادق.*** هكذا: (كانت أشد لحظات حياتي إثارة عندما تعرفت أصحاب الفنادق المرموقين، الذين أموا الولايات المتحدة، نيابة عن زملائهم في بلاد أمريكا الإسبانية..)، ثم، مئات المقالات مكرسة لتشجيع الفقراء، والبُرص، والعُرج، والمصابين بعقدة أوديب، والطُرش، والعُمي، والصُم والبُكم، والمصابين بالصرع والسل، والسرطان، والكساح، وتضخم الجمجمة، وضمورها، والمجانين، وأبناء المجانين وأحفادهم، ومسطحي الأقدام، ومرضى الربو، والمعتوهين، والفأفائين، وذوي رائحة الفم الكريهة، والأزواج التعساء، والعصبيين، والرسامين الذين فقدوا بصرهم، والنحاتين الذين بُترت أذرعهم، والموسيقيين الذين أصيبوا بالصمم (تذكروا بتهوفن) والرياضيين الذين خلفتهم الحرب مشلولين، والأشخاص الذين عانوا من الغاز في الحرب

العالمية الأولى، والنساء القميئات، والأطفال مشقوقي الشفاه كالأرانب، والرجال الذين يتكلمون من أنوفهم، والبائعين الخجولين، وفارعي القامة جداً، وقصار القامة جداً (أقزام تقريباً) وأناس يَزِنون أكثر من مئتي كيلو غرام.. الخ. عنوان: ***طردوني من أول وظيفة. بدأ حبنا في مستشفى البرص. أعيش سعيداً مع سرطاني. فقدت بصري لكنني غنمت ثروة طائلة. صممك يمكن أن يكون مزيّة.. الخ.***

عندما خرجت من المقهى، وبعد أن قمت بزيارتي الليلية للنزُل، تأملت الإعلان الضخم في ساحة «أونسي» عن مُعجَّنات «سانتا كاتالينا»، وعلى الرغم من أنني لم أتذكر مَنْ القديسة «كاتالينا»، لم يكن من الصعب أن أتصور أنها عانت من عذاب الشهادة، لأن الشهادة دائماً بمثابة نهاية مِهَنِيَّة للقديسين، ولذلك لم أتمكن من أن أدع التأمل في تلك الطبيعة الخاصة بالحياة البشرية، التي تُحوِّل - مع الزمن - مصلوباً، أو مسلوخاً وهو حي، إلى ماركة معجنات أو معلبات.

11

أعتقد أن الضغينة التي تُكِنُّها لي نورما حدتها على أن تأتي في أحد تلك الأيام، مع كائن خنثوي يدعى إينيس غونسالس إيتورّات، امرأة ضخمة وقوية جداً، نما شعر شاربيها، وغطى الشيب رأسها، ترتدي ثوباً مفصلاً عند خياط، وتنتعل حذاء رجل. ولولا ثدياها الهائلان، لأمكن، لمن يراها فجأة، أن يرتكب خطأ مناداتها: يا سيد. لكنها، مع ذلك، نشيطة وقوية، وتسيطر على نورما سيطرة تامة.

قلت:

ـ أعتقد أنني أعرفك.

ـ أنا..؟.

سألت غاضبة، كأن في الأمر ما يشينها، ومن الطبيعي أن تكون نورما قد حدثتها عني كثيراً.

كنت أخال في الواقع، أنني رأيتها في مكان ما، ولكن ما إن انتهى ذلك اللقاء المزعج (كنت مضطراً إلى مراقبة المبنى 57 خلف جسمها الضخم) حتى توضح لي ذلك الالتباس البسيط.

كشفت نورما عن رغبة مضطرمة بأن يحدث ما يشبه الجدال: هزائمها المتكررة معي، جعلتها تتطلع ـ يحدوها أمل على الانتقام ـ إلى فكرة القيام بمناقشة حادة مع ذلك العالم الذري. ولكنني كنت منصرفاً إلى أمر آخر، لا أستطيع معه أن أنأى بانتباهي عن الرقم 57 ولا ينبغي أن

أفعل ذلك، لذا لم أُبْدِ أي اهتمام للانجرار إلى محاجّة مع تلك البضاعة، كان يتعذر عليّ أن أنهض، كما فعلت لسوء الحظ، في مناسبة أخرى.

كان صدر نورما يرتفع ويهبط كالكير وهي تقول:

- كانت إينيس معلمتي في مادة التاريخ كما سبق وقلت لك.

فقلت مجاملاً:

- نعم.

- إننا مجموعة متكاتفة من الفتيات، وهي موجهتنا.

قلت أيضاً:

- عظيم.

- ننتقد كتباً، نرتاد المعارض والمحاضرات.

- جيد.

- نقوم برحلات دراسية.

- هائل.

كان غضبها يتعاظم، وكاد سخطها ينفجر عندما أردفت تقول:

- نقوم الآن بجولات نقدية على قاعات المعارض، معها ومع الأستاذ روميرو بريست.

حدجتني بنظرة يتطاير منها الشرر، وبينما كانت تنتظر تعليقاً، قلت بلهجة مهذبة:

- يا لها من فكرة حسنة.

فأردفت تقول بصوت كاد يكون صراخاً:

- إنك تعتقد أن النساء يجب أن ينصرفن إلى تنظيف البلاط، وغسل الأطباق والاهتمام بالبيت فقط.

كان هناك رجل يحمل سلماً، بدا كأنه يود الدخول من الباب 57 ولكنه عندما تأكد من الرقم، مضى قدماً إلى الباب التالي. وعندما هدأت أعصابي، رجوتها أن تكرر على مسمعي عبارتها الأخيرة التي لم أسمعها جيداً، فاستشاط غضبها وصاحت:

ـ طبعاً..!. بلغ الأمر حداً أصبحت معه لا تسمع. هذا يدل على مدى اهتمامك بآرائي.

ـ إني أهتم بها كثيراً.

ـ تباً لك من منافق..!. قلت لي آلاف المرات إن النساء يختلفن عن الرجال.

ـ هذا مدعاة لأن أهتم بآرائك أكثر. يهتم المرء عادة بما هو مختلف أو مجهول.

ـ آه. تُقرُّ إذاً بأنك تعتقد أن المرأة تختلف عن الرجل.

ـ يجب ألا يثيرك أمر جليّ كهذا يا نورما.

قالت معلمة التاريخ، التي كانت طيلة الوقت تتابع المشهد، بينما ترتسم على وجهها أمارات التهكم، ظناً منها أنني، بلا شك، من دعاة التجهيل:

ـ أتظن ذلك..؟.

فسألتها متظاهراً بالسذاجة:

ـ أظن.. ماذا؟.

قالت وهي تشدد على الكلمة:

ـ ذلك الأمر *الجلي*، الاختلاف بين الرجل والمرأة.

فقلت بهدوء:

ـ إن جميع الناس متفقون على أن بين الرجل والمرأة تباينات أساسية.

قالت المربية وهي تداري غضبها خلف قناع من هدوء كاذب:

ـ لا.. لا نعني هذا، وأنت تعرف تماماً.

ـ هذا..؟. ماذا تعنين بهذا؟.

فقالت بلهجة قاطعة:

ـ الجنس، وأنت تعرف ذلك تماماً.

بدت لهجتها كأنها سكين حادة، قاطعة ومعقمة. فسألتها:

ـ وتظنين أن ذلك أمر لا يُعتدُّ به؟.

كنت منشرحاً مستبشراً، وكانتا تخففان من وطأة انتظاري. ولكن ذلك الشعور الغامض بأنني رأيت المعلمة في مكان ما لم أتذكره، ظل يؤرقني.

ـ ليس الأهم طبعاً!. إنما نعني شيئاً آخر. نقصد القيم الروحية. الاختلافات التي ترسخونها أنتم بين نشاط الرجل والمرأة سمات تقليدية لمجتمع متخلف.

قلت بهدوء:

ـ آه. لقد فهمت، تقصدين أن الاختلافات بين الفرج والقضيب هي من مخلفات (العصور المظلمة) وستختفي، جنباً إلى جنب، مع اختفاء الإنارة بالغاز، ومع اختفاء الأمية.

تضرجت المربية: لم تثر تلك الكلمات حفيظتها وحسب، بل خجلها أيضاً، ولم يكن السبب مجرد لفظ كلمات مثل فرج وقضيب (وهما، كتعبيرين علميين، لا يمكن أن يثيرا فيها سوى إحساس «محايد» أو «رد فعل تسلسلي»). سبب خجلها يعود إلى الآلية ذاتها التي تؤدي إلى امتعاض الأستاذ إنشتاين إذا ما سئل عن انتظام وظيفة أمعائه.

قالت بحزم:

ـ كلام فارغ. الحقيقة أن المرأة في أيامنا هذه تزاحم الرجل في مختلف النشاطات، وهذا ما يثير سخطكم. تصور، وفد النساء الأمريكيات اللواتي وصلن مؤخراً: يضم ثلاث مديرات في حقل الصناعات الثقيلة.

حدجتني نورما، ويا لها من أنثى، بنظرة انتصار بكل ما أوتيت من ضغينة. كان ذانك الغولان يثأران، على نحو ما، من عبودية السرير. تطور صناعة التعدين في الولايات المتحدة، خفّف إلى حد ما الصيحات التي كنّ يطلقنها في لحظات النشوة، ولطّف من حدة استسلامهن المطلقة. موقف مهين، ولكن «البتروكيميا» الأميركية أعادت الأمر إلى نصابه.

صحيح: الآن وقد وجدتني مضطراً إلى العودة للصحف، تذكرت أنني رأيت خبر وصول تلك ***الجوقة***.

قلت:

ـ توجد نساء احترفن المصارعة أيضاً. فهل ترضيكن هذه الوحشية؟.

ـ تدعو وصول امرأة إلى عضوية مجلس إدارة شركة صناعية كبرى وحشية؟.

ورأيتني، من جديد، مضطراً إلى التطلع من فوق كتفي الآنسة غونالس إيتورّات الرياضيين، لرصد عابر سبيل اشتبهت به. وأثار هذا الحادث، الذي له ما يسوغه تماماً، غضب تلك القميئة الموقرة.

فقالت وهي تغمض عينيها بلؤم:

ـ ويبدو لك وحشية أيضاً، تقدير عبقرية مثل مدام كوري، في ميدان العلم؟.

كان لا بد مما ليس منه بد.

شرحت لها بهدوء، وجرس تعليمي:

العبقري هو الذي يكتشف هوية الوقائع المتناقضة، والعلاقات بين أحداث تبدو من حيث الظاهر متباعدة. هو من يكشف عن الوحدة وراء التنوع، والواقع وراء المظهر، هو من يكتشف أن الحجر الذي يسقط في الفراغ والقمر الذي لا يسقط، مظهران لظاهرة واحدة.

تابعت المربية حديثي بعينين ساخرتين، كمعلمة تستمع إلى طفل يهوى الكذب.

ـ وهل ما اكتشفته مدام كوري أمر يسير..؟.

ـ لم تكتشف مدام كوري يا آنسة قانون تطور الأجناس. خرج ببندقية لاصطياد النمور، فعثر على «ديناصور»، بمثل هذا المنطق سيكون عبقرياً أيضاً أول بحار وقعت عينه على مضيق «هورنوس».

ـ بوسعك أن تقول ما يحلو لك. ولكن اكتشاف مدام كوري أدى إلى ثورة في ميدان العلم.

ـ إن خرجتِ يا آنسة لصيد النمور وعثرت على «قنطورس»[1] فإنك ستثيرين أيضاً ثورة في علم الحيوان، ولكن ما يثيره العباقرة، ليس هذا النوع من الثورات.

ـ هل العلم محرم على المرأة برأيك؟.

ـ لا، ومتى قلت ذلك؟. ثم، إن الكيمياء تشبه الطبخ.

ـ والفلسفة؟. لا شك أنك تحظّر على الفتيات الانتساب إلى كلية الفلسفة والآداب.

ـ لا، ولماذا؟. إنهن لا يُسئن إلى أحد. ثم إنهن يعثرن هناك على عرسان ويتزوجن.

(1) القنطورس: كائن خرافي نصفه رجل ونصف الآخر فرس. (المترجم).

- والفلسفة؟.

- ليدرسنها إن رغبن، فلن تضيرهن. كما أنها، في الواقع، لن تنفعهن، إنها لن تقدم ولن تؤخر، وليس هناك أي خطر من أن تحولهن إلى فيلسوفات أبداً.

صرخت الآنسة غونالس إيتورّات:

- المشكلة أن هذا المجتمع السخيف لا يوفر لهن فرصاً متكافئة مع الفرص التي يوفرها للرجال..!.

- كيف..؟. إن كنا نقول إن أحداً لا يمنعهن من دخول كلية الفلسفة ثم: قيل لي إن تلك الكلية تغص بالنساء. لا أحد يمنعهن من ممارسة الفلسفة، ولم يمنعهن من التفكير في منازلهن، ولا خارجها. وكيف يمكن منع إنسان من التفكير..؟. والفلسفة لا تحتاج إلى أكثر من رأس ورغبة في التفكير. والآن، يمكن لمجتمع ما، سواء في العصر الإغريقي، أو في القرن الثلاثين، أن يمنع عَرَضَاً، امرأة ما، من نشر كتاب فلسفي: بالسخرية أو المقاطعة، أو بأي وسيلة أخرى ولكن، أن يمنعها من التفكير..؟. كيف يمكن لأي مجتمع أن يعرقل فكرة العالم الأفلاطوني في رأس امرأة..؟.

فانفجرت الآنسة غونسالس إيتورّات تقول:

- لو كان الناس على شاكلتك، لما تمكن هذا العالم من أن يتقدم..!.

- ومن أين أتيت بفكرة أن العالم يتقدم..؟.

قالت وهي تبتسم بازدراء:

- طبعاً، والوصول إلى نيويورك خلال عشرين ساعة ليس تقدماً..!.

- لست أدري. لا أرى فضيلة في الوصول بسرعة إلى نيويورك، فكلما تأخر المرء كان أفضل. ثم، كنت أظن أنك تعنين التقدم الروحي.

ـ كلاهما يا سيدي. فالطائرة ليست سوى رمز التقدم العام الذي يشمل أيضاً القيم الوجدانية. لن تقول لي يا سيد، إن البشرية لا تتمتع الآن بأخلاق أسمى من أخلاق مجتمع الرق.

ـ آه!. إنك تفضلين العبيد بمرتّبات.

ـ يسهل على المرء أن ينظر إلى الأمور نظرة استهتار. ولكن أي إنسان سليم الطوية، يعلم أن العالم يعرف اليوم قيماً أخلاقية كانت في القديم مجهولة.

ـ صحيح. فهمت. «لاندرو» الذي يستخدم القطار في أسفاره أسمى من «ديوجين» الذي يستخدم قارباً بدائياً.

ـ إنك تختار عامداً، أمثلة مضحكة. ولكن الأمر واضح.

ـ قائد معسكر «بوتشينوالد»[1] أسمى من قائد قافلة عربات تجرها الخيول، والقضاء على الحشرات الإنسانية بقنابل «النابالم» أفضل من استخدام القوس والسهام. قنبلة «هيروشيما» خير من معركة «بواتيه». التعذيب بالمهماز الكهربائي أكثر تقدمية من التعذيب بالفئران على الطريقة الصينية.

ـ تلك ليست سوى حجج واهية تمثل وقائع محدودة، والإنسانية ستتجاوز هذه الأعمال الهمجية أيضاً. وينبغي أن ينحسر الجهل في نهاية الأمر عن كل المجالات أمام العلم والمعرفة.

قلت بهدوء ينطوي على نية شريرة:

ـ الروح الدينية أقوى حالياً مما كانت عليه في القرن التاسع عشر.

ـ سيتراجع الجهل في النهاية، مهما كان نوعه، ولكن مسيرة التقدم لا

(1) بوتشينوالد: قرية ألمانية استخدمت معسكر اعتقال أثناء الحرب العالمية الثانية (المترجم).

بد أن تواجه بعض العراقيل والانحرافات. ذكرت سيادتك منذ لحظات نظرية الارتقاء: إنها مثال على ما للعلم من قدرة على مواجهة جميع أشكال الخرافات الدينية.

ـ إني لا أرى الآثار الساحقة لتلك النظرية. ألم نتفق على أن موجة الروح الدينية تتعاظم؟.

ـ ذلك يعود إلى أسباب أخرى. ولكن النظرية قضت على كثير من الأضاليل قضاء مبرماً، مثل تلك التي تقول بخلق العالم في ستة أيام.

ـ يا آنسة: إذا كان الله قادراً على كل شيء، فما الذي يضيره إن خلق العالم في ستة أيام، ووزع بعض هياكل «البعاضم»[1] العظمية هنا وهناك، لكي يمتحن إيمان البشر أو بلاهتهم ؟.

ـ هيا..!. لا أعتقد أنك تحاول إقناعي بجدية حديثك عن هذه المغالطة. ثم، إنك منذ لحظة كنت تطري العبقري الذي اكتشف نظرية الارتقاء، لكنك الآن تهزأ من تلك النظرية.

ـ أنا لا أهزأ منها، ولكنني أقول ببساطة إنها لا تثبت عدم وجود الله، ولا تدحض خلق العالم في ستة أيام.

ـ لو كان الأمر متروكاً لك، لما وجدت المدارس، أعتقد ـ غير مخطئة ـ أنك، بلا شك، من أنصار الأمية.

ـ كان الألمان في 1933 من أكثر شعوب العالم تعلماً. لو لم يكن الناس يعرفون القراءة، لما تمكنت الصحف والمجلات من أن تزيدهم بلاهة يوماً بعد يوم. ولكن، لسوء الطالع، حتى لو كان الناس أميين، فهناك عجائب أخرى للتقدم: الراديو والتلفزيون. كان يجب استئصال آذان الأطفال، واقتلاع عيونهم، ولكن ذلك يحتاج إلى برنامج أصعب.

(1) البعاضم: جمع بعضم، وهو من الحيوانات الضخمة المنقرضة (المترجم).

ـ برغم المغالطات، ستكون الغلبة دائماً للنور على الظلام، وللخير على الشر. الشر هو الجهل بعينه.

ـ حتى الآن يا آنسة، كانت الغلبة للشر على الخير دائماً.

ـ مغالطة أخرى. من أين تأتي بمثل هذه الشنائع؟.

ـ لم آتِ بشيء من عندي أبداً يا آنسة: إنه البرهان التاريخي الثابت، افتحي تاريخ «اونكن» على أي صفحة، ولن تعثري إلا على حروب، وإعدامات، ومؤامرات، وتعذيب، وانقلابات، ومطاردات. ثم إن كانت الغلبة للخير دائماً، فلماذا ينبغي الوعظ به؟. وإن لم يكن الإنسان بطبيعته ميالاً للشر، فلماذا يحرّم عليه ارتكابه؟. ولماذا يوصم به؟. فكري: إن أسمى الديانات ***تعظ*** بالخير. بل وأكثر من ذلك: إنها تملي ***وصايا***، تطالب المرء بألا يزني. ولا يقتل، ولا يسرق ***وتفرض*** التقيد بها، كما أن قدرة الشر هائلة جداً. فهو يجعلنا نستخدمه للتبشير بالخير: ***يهدّدوننا***، إن لم نفعل كذا، أو كذا، بأن الجحيم سيكون مصيرنا.

فصاحت الآنسة غونسالس إيتورّات تقول:

ـ رأيك إذاً، أنه يجب الوعظ بالشر؟.

ـ لم أقل ذلك يا آنسة: جل ما في الأمر أنكِ تحمست جداً، ولم تستمعي إليّ. لا ينبغي الوعظ بالشر: الشر يأتي وحده.

ـ ولكن ماذا تريد أن تثبت؟.

ـ لا تثوري يا آنسة، لا تنسي أنك تؤيدين نظرية تفوق الخير، وأرى أنك تودين أن تقطّعيني إرباً. أود أن أقول بكل بساطة، إن ذلك التقدم الروحي ليس موجوداً بل، يجب أن نتأكد حتى من حقيقة وجود التقدم المادي الشهير أيضاً.

شوهت تصعيرة سخرية شكل شاربي المربية:

ـ آه، ستثبت لي الآن أن إنسان اليوم يعيش أسوأ من إنسان الأمس.

ـ الأمر يتوقف على الأحوال. فأنا لا أعتقد، مثلاً، أن شيطاناً مسكيناً يشتغل ثماني ساعات يومياً، في فرن الصهر الذي يعمل بنظام المراقبة «الإلكترونية»، سيكون أسعد حالاً من راع إغريقي. ثلثا سكان الولايات المتحدة، فردوس المكننة، مصابون باضطرابات عصبية.

ـ يسرني أن أعلم ما إن كنت تفضل السفر في عربة تجرها الخيول، على السفر في القطار.

ـ طبعاً. كان السفر في العربة أمتع، وأكثر اطمئناناً. وعندما كان على ظهور الجياد كان أفضل: يتمتع المرء بالهواء الطلق والشمس، ويتأمل الطبيعة بهدوء. زعم حواريو الآلة، أنها ستوفر للإنسان، يوماً بعد يوم، أوقات فراغ أطول. ولكن الحقيقة أن وقت الإنسان يضيق أكثر فأكثر، وهو يسير كل يوم بجنون أكبر. وحتى الحرب كانت في الماضي جميلة ومسلية، وفيها رجولة، وجاذبية: بتلك الأزياء المزركشة، بل لقد كانت صحيّة. فكري مثلاً بحربنا من أجل الاستقلال وبحربنا الأهلية: فمن لم تصبه طعنة رمح، أو لم يقطع رأسه، كان بوسعه أن يعيش بعد ذلك مئة عام، كما حدث لجدي الأكبر أولموس. طبعاً: حياة الهواء الطلق، والنشاط، وامتطاء الخيول. كانوا يرسلون الفتى الهزيل إلى الحرب لكي يشتد عوده.

نهضت الآنسة غونسالس إيتورّات غاضبة وقالت لتلميذتها:

ـ أنا ذاهبة يا نورما. وأنت ستعرفين ما ينبغي أن تفعلي.

ثم انصرفت.

ونهضت نورما أيضاً يتطاير الشرر من عينيها، وقالت وهي تتوارى:

ـ تباً لك من فظ مستهتر..!.

طويت جريدتي، وانصرفت إلى مراقبة الرقم 57، لا يعيقني الآن جسم المربية الهائل.

بينما كنت في تلك الليلة جالساً في المرحاض، في تلك الحالة التي تتراوح بين العضوية المرضية، والغيبية الماورائية، أبذل جهداً من جهة، وأتأمل في الوقت ذاته المعنى العام للعالم، كما يحدث عادة في هذا الجزء الفلسفي الوحيد من المنزل، أدركت في نهاية المطاف سبب تلك الحالة من اعتلال الذاكرة التي كانت تؤرقني في أول اللقاء: لا، لم أرَ الآنسة غونسالس إيتورّات من قبل، لكنها كانت تشبه إلى حد بعيد ذلك الكائن البشري الفظ الشرس الذي كان يلقي من منطاد منشورات تؤيد حق المرأة في التصويت، في فيلم (***السبعة المحكومون بالإعدام***).

12

بينما كنت في تلك الليلة أقلب الأمور على مختلف وجوهها، وأعيد النظر في الأحداث كعادتي كل ليلة، شعرت بالخطر: لماذا جاءتني نورما بالآنسة غونسالس إيتورّات؟. لم يكن مجرد مصادفة ذلك النقاش حول الشر الذي أجبرت على الخوض فيه. بعد أن فكرت ملياً وجدت أن المعلمة تتمتع بجميع صفات العضو في (مكتبة العميان). وسرعان ما امتدت ريبتي إلى نورما بوغليسي ذاتها، وهذا ما استأثر باهتمامي في نهاية الأمر، لأن والدها كان اشتراكياً، يكرس ساعتين من وقته يومياً لنسخ كتب معدة بطريقة بريل.

إنني أقدم في كثير من الأحيان فكرة خاطئة عن طبيعتي، وربما يُفاجئ هذا النوع من الطيش قراء هذا التقرير. والحقيقة أنني - برغم حماستي المنظمة - أهل للقيام بأكثر الأعمال طيشاً، بل خطورة، إذا ما أُخِذَ النشاط الذي أقوم به بعين الاعتبار. ولقد ارتكبت أسوأ أنواع الحماقات بسبب النساء. سأحاول تفسير ما جرى، فهو ليس من قبيل الجنون، كما يمكن أن يبدو ظاهرياً. ذلك أنني كنت أعتبر دائماً أن عالم المرأة أشبه ما يكون بضاحية من ضواحي عالم العميان، ولذلك فإن تعاملي معهنّ لا ينطوي على كبير حمق، أو انتفاء فائدة كما يمكن أن يتصور أي مراقب سطحي. ليس هذا هو ما أشكو منه الآن، لكنّ فرط الإهمال الذي لا يمكن تصوره هو الذي أتورط فيه فجأة كما هو حالي مع نورما بوغليسي، وهو أمر منطقي من وجهة نظر القدر، لأن القدر يعمي من

ينشد الفشل، أما من وجهة نظري فهو عبث لا يغتفر. ولكن تطرأ على فترات الصحوة المشرقة التي تعتريني فترات أخال فيها أن شخصاً آخر يملي عليّ تصرفاتي وينفذها. فأجدني فجأة أواجه اختلالاً خطيراً، كالذي يمكن أن يحدث لقبطان وحيد وسط منطقة خطرة، عندما يسيطر عليه النعاس بغتة، فيثقل رأسه ويغط في النوم للحظات.

ليس الأمر سهلاً. كنت أود أن أرى أياً من نُقادي في موقف مماثل لموقفي، يحيط به عدو ماكر، منظم في شبكة خفية هائلة من الجواسيس والمراقبين، ويتعين عليه أن يراقب ليلاً نهاراً كل شخص. وكل حادث من حوله. عندئذ سيشعر بأنه أقل كفاءة، وسيدرك أن تلك الأخطاء ليست ممكنة الحدوث وحسب، بل لا يمكن، عملياً، تلافيها.

كل الوقت الذي سبق لقاء «سلستينو إيجليسياس» مثلاً، كان ضرباً من الالتباس في نفسي، وكأن لظلمات كانت تمتصُّني في تلك الفترة فعلاً بوساطة الكحول والنساء: هكذا يلج المرء متاهات الجحيم، أو لنقل، عالم العميان. وليس الأمر أنني كنت في تلك الفترات المريعة أنسى هدفي الكبير، وإنما كان يطرأ على المطاردة الواعية والعلمية اقتحام الفوضى على شكل موجات، حيث يسيطر ظاهرياً ذلك الذي يسميه ضيقو الأفق سوء طالع، والذي هو في واقع الأمر المصادفة العمياء. وفي خضم الاختلال والذهول والسكر والبؤس، سرعان ما كنت أجدني أتمتم: «ليس مهماً، فهذا في جميع الأحوال هو العالم الذي ينبغي أن أسبر غوره» ثم أستسلم إلى لذة النشوة الحمقاء، تلك اللذة التي يشعر بها الأبطال في أسوأ لحظات المعركة وأشدها خطراً، حين لا يستطيع أحد أن ينصح بالتعقل، وحين تتحرك إرادتنا بقوة الدم الثائر والغرائز الهوجاء. إلى أن كنت أصحو فجأة من تلك الفترات المظلمة الطويلة، وكما يحل الزهد في أعقاب غلمة الشبق، كان يلي الفوضى، هوسي المنظم، الذي

يعتريني، ليس على الرغم من نزوعي إلى الفوضى وإنما بسبب ذلك النزوع نفسه. فيستأنف رأسي عندئذ عمله بخطى حثيثة وبسرعة وصفاء مدهشين. أتخذ قرارات لازمة وصائبة، ويكون كل شيء مشرقاً وبراقاً كأنه نظرية. لا أفعل شيئاً استجابة إلى غرائزي التي أراقبها وأتحكم فيها تماماً. ولكن الأمر الغريب أنه سرعان ما تقودني، قرارات وأشخاص، مرة أخرى إلى فترة من الخلل. أتعرف مثلاً، لنقل، زوجة رئيس (لجنة مساعدة جوقة غير المبصرين)، أدرك ما يمكن أن أحصل عليه من معلومات قيمة بوساطتها، وأحضّرها، ثم أقوم لأهداف علمية بحتة بمضاجعتها، ولكن النتيجة تكون في نهاية المطاف أن تلك المرأة تدير رأسي، لأنها إما أن تكون شبقة أو مسحورة، فتتعرض جميع خططي للتأخير أو التأجيل، إن لم يكن للخطر الجسيم.

لم يكن ذلك حال نورما بوغليسي طبعاً، ولكنني، مع ذلك، ارتكبت أخطاء كان يجب ألا أرتكبها.

السيد أمريكو بوغليسي عضو قديم في الحزب الاشتراكي، وربى ابنته على المبادئ التي نادى بها منذ البدء «خوان .ب. خوستو»[1]، وهي الحقيقة والعلم والتعاون ومحاربة تعاطي التبغ ومحاربة الكحول. كان رجلاً موقراً جداً، يكره «بيرون»، ويتمتع باحترام مَنْ حوله في المكتب مِنْ خصومه السياسيين. وسيكون من السهل فهم ما أثارته تلك الأسس من رغبة عارمة في نفسي لمضاجعة ابنته.

كانت مخطوبة لملازم في سلاح البحرية. وهو أمر ينسجم وعقلية السيد بوغليسي المناهضة للعسكريين، بفضل تلك الآلية «السيكولوجية» التي تجعل مناهضي العسكريين يعجبون بالبحريين منهم: فهم ليسوا بالغي

(1) مؤسس الحزب الاشتراكي الأرجنتيني (المترجم).

القسوة. وكثرة أسفارهم تجعلهم يشبهون المدنيين كثيراً. وكأن ذلك العيب يمكن أن يصبح سبباً للإطراء. وكما قلت لنورما (التي استشاط غضبها)، إن إطراء عسكري بما ليس فيه، أو بأكثر مما فيه، هو مثل محاولة إيجاد فضيلة في غواصة لا تقوى على الغطس.

لغمت قواعد (سلاح البحرية) بمثل تلك الحجج، وتمكنت في النهاية من مضاجعة نورما. مما يدلل على أن الطريق إلى الفراش يمكن أن يمر عبر مؤسسات لا تخطر على بال. وأن الحجج المنطقية الوحيدة التي تكتسب أهمية لدى المرأة، هي تلك التي تتصل، على نحو أو آخر، بالوضع الأفقي. وذلك نقيض ما يحدث للرجل. ولهذا فإنه يصعب وضع رجل وامرأة في مركز هندسي واحد لسبب منطقي أصيل: يجب اللجوء إلى التوازي أو التماس.

عندما تمكنت من تحقيق الوضع الأفقي، تطلب مني وقتاً طويلاً تعليمها لكي تعتاد (تصوراً جديداً للعالم): من الأستاذ «خوان.ب. خوستو»، إلى «المركيز ساد». ولم يكن ذلك بالأمر السهل أبداً. كان من الضروري البدء من اللغة ذاتها، لأنها كانت متعصبة للعلوم، وقارئة كتب على شاكلة الزواج المثالي، وتستخدم كلمات لا تناسب الفراش أبداً، مثل (قانون الانكسار الضوئي) لوصف الشفق. ارتكزت على أساس من الحقيقة الأصيلة (كانت الحقيقة عندها مقدسة)، فقدتها على السلم درجة درجة، إلى أن وصلت بها إلى أسوأ الموبقات.

تلك السنوات الطويلة كلها من العمل الصبور لنواب، وأعضاء مجالس بلديات ومحاضرين اشتراكيين، قضي عليها في بضعة أيام؛ ومكتبات الأحياء كلها، والتعاونيات والأشغال العامة، لكي تنتهي نورما بعد ذلك إلى ممارسة هذا النوع من العمليات. كأنما يجب بعد ذلك أن نؤمن بالتعاون.

نعم. لنهزأ بنورما بوغليسي، كما فعلتُ في كثير من لحظات الشعور بالتفوق، ولكن تنتابني الآن، في الواقع، سلسلة من الشكوك، ويراودني شعور مفاجئ بأنها كانت واحدة من جواسيس العدو الفطنات، وذلك أمر متوقع، فليس سوى عدو غبي أو أبله ذلك الذي يستخدم كجواسيس، أشخاصاً مشبوهين، ونورما، الكائن البريء المستقيم وعدو الرياء والزيف، ألا يشكل ذلك الحجة الحاسمة لكي أحذر منها؟.

عندما أخذت أحلل بعض تفاصيل علاقاتنا، بدأ الغم يسيطر عليّ.

ظننت أنني كنت أضع «نورما بوغليسي» في مكانها الصحيح، ولم يبد لي أنه من الصعب ـ بسبب تربيتها الاشتراكية والعلمية ـ أن أصل إلى أعماقها. إنه لخطأ فاحش. لقد فاجأني أكثر من مرة رد فعل منها غير متوقع، وحتى فسادها لم يكن يتفق مع تكوينها السليم والنظيف الذي نشّأها عليه والدها. ولكن، إن كان منطق الرجل قاصراً إلى هذا الحد، فماذا يمكن أن ننتظر من المرأة؟.

قضيت تلك الليلة ساهراً أتذكر وأحلل كل حادثة جرت بيني وبينها، وتوفرت لديّ أسباب كثيرة لكي أشعر بالخطر، ولكن كان هناك، على الأقل سبب مرضٍ: كوني أدركت أخطار تلك العلاقة في الوقت المناسب.

13

أخال أن أياً منكم سيفكر، عندما يقرأ قصة «نورما بوغليسي»، أنني لست سوى وغد. وأقول لكم سلفاً، إنكم أصبتم كبد الحقيقة. فأنا أعتبر نفسي وغداً ولا أكنّ أي احترام لشخصي. إني إنسان نفذ إلى أعماق ضميره. ومن ذا الذي ينفذ إلى ثنايا ضميره يستطيع أن يحترم نفسه..؟.

أعتبر أنني، على أقل تقدير، إنسان شريف. فأنا لا أخدع نفسي ولا أحاول خداع الآخرين. ولعلكم ستسألونني الآن، كيف خدعت، بلا أي رادع من ضمير، هذا العدد من التعساء والنساء الذين وضعهم القدر في طريقي. تلك خدع بسيطة لا تكتسي أي أهمية. وكما لا يمكن وصف جنرال بالجبن لأنه يأمر بانسحاب قوّاته استعداداً للهجوم النهائي، فتلك أيضاً كانت، وما زالت، خدعاً «تكتيكية» مرحلية وانتقالية لخدمة حقيقة جوهرية وتحقيق لا يرحم. إنني باحث أستقصي (الشر). وكيف يمكن للمرء استقصاء (الشر) من دون أن يغرق في الأقذار حتى أذنيه؟. ستقولون لي إنني وجدت، كما يبدو، متعة كبرى في فعل الشر، بدلاً من السخط والاشمئزاز اللذين ينبغي أن يشعر بهما باحث أصيل عندما يجد نفسه مضطراً إلى فعل الشر بدافع من واجب مقيت. وإنها لحقيقة أعترف بها بكل وضوح أيضاً.. انظروا كم أنا شريف؟. فلم أقل قط إنني إنسان خيّر: قلت إنني إنسان أستقصي (الشر)، وهذا أمر مختلف عن ذاك. وأعترف أيضاً بأنني وغد، فماذا تبتغون مني أكثر من ذلك..؟.

وغدٌ مشهور، نعم، وفخور بأنني لا أنتمي إلى تلك الطبقة من المنافقين الأشرار من أمثالي، الذين يدّعون أنهم أناس شرفاء، وأعمدة المجتمع، وسادة يتصفون بالاستقامة، ومواطنون مرموقون يشارك في جنازاتهم جمع غفير من الناس، وتُنشر بعد ذلك أخبارهم في الصحف الرصينة. لا: إذا نشرت تلك الصحف في يوم من الأيام عني شيئاً، فسيكون في قسم الجرائم. أظن أنني بينت رأيي في الصحافة الرصينة وفي قسم الجرائم، لذلك فإنني أبعد ما أكون عن الشعور بالخجل.

إنني أمقت تلك المهزلة الشاملة من مشاعر الاحترام، ذلك النسق من المواصفات التي لا تكف عن الإعراب عنها مصطلحات اللغة: المزور الأكبر للحقيقة الصارخة. تلك المواصفات التي لا بد معها من أن تَتبع كلمة «عجوز» صفة «مسكين» دائماً؛ وكما لو أننا لا نعلم جميعنا أن السافل لا يُقلع عن سفالته بسبب تقدمه في السن، بل على النقيض من ذلك، تُشحن مشاعره الشريرة بمزيد من أنانية يكتسبها، ومن حقد ينميه، كلما اشتعل رأسه شيباً. كان يجب شن حملة هائلة للقضاء على تلك الكلمات الزائفة كلها، التي اخترعتها المشاعر الشعبية الكاذبة، وكرسها المنافقون الذين يُسيِّرون المجتمع، ونشرتها المدرسة ومؤسسات الشرطة: «عجائز موقرون»، (غالبيتهم لا يستحقون سوى أن يُبصق في وجوههم)، «سيدات محترمات» (تحركهن كلهن تقريباً، العجرفة وأشد أنواع الأنانية فظاظة)، وإلى آخر ما هنالك. أقول هذا كي لا أتحدث عن «العميان المساكين» الذين هم سبب هذا التقرير، كما يتعين عليّ أن أقول: إن كان أولئك العميان المساكين يخشون مني، فما ذلك إلا لأنني وغد، ولأنهم يعرفون أنني واحد منهم، شخص لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً ولن يستسلم للجري وراء ترهات ومجاملات. كيف يمكن أن يخشوا من أولئك التعساء الذين يمدون لهم يد المساعدة لاجتياز الشارع

وسط سيل من دموع التعاطف على طريقة أفلام «ديزني» وما يزينها من عصافير وشرائط أعياد الميلاد الملونة..؟.

لو حشدوا سائر أوغاد المعمورة في صف واحد، فأي جيش هائل سنرى..!. وبأي مجموعة من العينات سنفاجأ..!. ابتداءً من أطفال بمآزر بيضاء (براءة الطفولة الخالصة) وموظفي بلديات مستقيمين، لكنهم، مع ذلك، يأخذون أوراقاً وأقلاماً إلى منازلهم، ووزراء وحكام جلهم تقريباً أطبّاء ومحامين، ومن ذكرنا كذلك من العجائز المساكين (بأعداد هائلة)، والسيدات المحترمات اللواتي ذكرناهن أيضاً، ويترأسن الآن جمعيات مساعدة المجذوم أو مريض القلب (بعد أن كن يرتعن في فرشٍ محرمة ويساهمن، بلا شك، في ازدياد عدد مرضى القلب)، ورؤساء شركات كبرى، وفتيات ذوات مظاهر رقيقة وعيون غزلانية، (ولكنهن أهل لخداع أي مغفل يؤمن برومانسية الأنثى أو بضعف المرأة وحاجتها إلى الحماية)، ومفتشي بلديات، وموظفي مستعمرات، وسفراء حاملي أوسمة.. الخ.. والخ، أوغاد إلى الأمام سر..!. إلهي، يا له من جيش..!. تقدموا يا أبناء العاهرة..!. فلا توقف ولا تباك، ينتظركم الآن ما أعددت لكم..!.

أيها الأوغاد إلى الأمام..!.

استعراض تدريبي رائع.

سيأكل كل جندي عند وصوله إلى الإسطبل نذالته التي تحولت إلى غائط حقيقي (وليس مجازياً) من دون أي اعتبار ولا مراعاة؛ لا يمكن السماح لابن الوزير المدلل أن يأكل خبزاً يابساً بدلاً من برازه. لا يا سيدي: ينبغي أن تتم الأمور كما يجب، و إلا ليس هناك ضرورة لعمل أي شيء. ليأكل ***كل*** برازه، بل وأكثر من ذلك: ليأكل برازه كله، ولن نقبل أبداً أن يأكل كمية رمزية. لا رمزية أبداً: كلٌّ يجب أن يأكل نذالته

كلها تماماً. ذلك عدل، ومفهوم: لا يمكن معاملة إنسان بائس انتظر مجرد موت أسلافه فَرِحاً ليرث بضعة دراهم، مثل معاملة أحد (معمدانيي مينيابوليس) الذين يتضرعون إلى السماء بينما يستغلون السود في غواتيمالا. لا يا سيدي..!. ***عدالة، ومزيد من العدالة***: لكل امرئ غائطه، أو لا شيء أبداً، لا تعتمدوا عليّ في حيل من هذا القبيل إطلاقاً.

كونوا على يقين من أن موقفي ليس موقفاً لا يقهر وحسب، بل منزهاً عن أي غرض أيضاً. ربما لأنني وغد حقيقي، فأنا أنتمي إلى صفوف جيش الأنذال، ولكنني أنادي فقط بفضيلة عدم خداع أحد.

وهذا يدعوني إلى التفكير في ضرورة الإسراع في اختراع جهاز للكشف عن نذالة الشخصيات المحترمة وقياسها بكل دقة. لكي يحسم من نصيب كل فرد الكمية التي يستحق حسمها. اختراع من قبيل «وغدومتر» يشير عقرب منه إلى كمية الغائط التي أنتجها فلان طيلة حياته، وحتى يوم الحساب هذا، والكمية التي يجب حسمها لقاء الصدق، أو لقاء الاستعداد الخيّر، والكمية التي يجب أن يأكلها بعد إجراء هذه العمليات الحسابية.

وبعد الانتهاء من عملية القياس الخاصة بكل فرد، سيتعين على الجيش الضخم أن يسير إلى إسطبلاته، حيث يقوم كل فرد من أفراده بأكل كمية القذارة المعينة التي تخصه. وهي كما هو معلوم، عملية لا نهاية لها، (وهنا تكمن المهزلة الحقيقية)، سوف تخرج عند التغوط استناداً إلى مبدأ عدم فناء الغائط ـ الكمية ذاتها التي أُكلت، وهي كمية ستوضع ثانية أمام أنف صاحبها، لكي يتم أكلها من جديد، في حركة جماعية عند إصدار أمر عسكري.

وهكذا إلى ***ما لانهاية***.

14

كان يتعيّن عليّ أن أنتظر يومين آخرين. استلمت أثناء ذلك رسالة من تلك الرسائل التي توزع على شكل سلسلة، ويكون مصيرها عادة سلة المهملات. ولكنها أثارت في نفسي قلقاً بالغاً. فقد دلتني تجاربي على أن لا شيء، أقول:

لاشـــيء

يمكن أن يدعو للاستهانة بمثل تلك الدسيسة المحبوكة بإتقان. ولذلك قرأتها باهتمام وأنا أحاول العثور على ما بين قضيتي مع العميان، وتلك الحوادث القديمة التي أصابت حملة إجازات جامعية وجنرالات، من صلات. تقول الرسالة: «مصدر هذه السلسلة فنزويلا. كتبتها السيد «بلدوميرو مندوسا» وينبغي أن تطوف العالم. اكتبْ 24 نسخة ووزعها على أصدقائك، ولكن حذار أن تبعث بأي منها إلى أحد أقربائك مهما كانت درجة قرابته بعيدة. إن الوقائع ستثبت لك حقيقتها حتى إن كنت ممن لا يؤمنون بالخرافات. فمثلاً: كتب السيد «حزقيال غويتيكوا» النسخ وبعث بها إلى أصدقائه، فاستلم بعد تسعة أيام 150 ألف «بوليفر»[1]. ولم يأخذ سيد يدعى «باركيتا» تلك السلسلة مأخذ الجد فتعرض منزله لحريق تسبب في القضاء على قسم من أفراد أسرته، ولهذا أصيب بالجنون.

(1) البوليفر: الوحدة النقدية في فنزويلا. (المترجم).

وعندما لحقت بالجنرال «خواكين ديّاس» ضربة قوية أدت إلى إصابته بمرض خطير في سنة 1904، عثر على تلك السلسلة، وأمر سكرتيرته بأن تكتب النسخ وتبعث بها، فشفي في الحال، وهو يتمتع الآن بصحة جيدة. وكتب أحد مستخدمي «غارِّيتا» النسخ ولكنه نسي أن يرسلها، فلم تمضِ تسعة أيام حتى خسر وظيفته؛ فكتب نسخاً جديدة وبعث بها فاسترد وظيفته وقبض تعويضاً كذلك. استلم السيد «ألفونسو ميخيا رييس» وهو من المكسيك العاصمة، نسخة تلك السلسلة وأهملها فضاعت، وبعد تسعة أيام سقط على رأسه إفريز ومات في الحال. قطع المهندس «دلغادو» السلسلة، وبعد قليل اكتشفوا أنه اختلس أموالاً عامة. لا تقطع هذه السلسلة مهما كان السبب. اكتب النسخ وابعث بها. كانون الأول/ ديسمبر 1954».

15

حتى رأيت في أحد الأيام أعمى يسير في شارع «باسو» قادماً من شارع «ريفادافيا» ومتجهاً نحو شارع «بارتولومي ميتري» فبدأ قلبي يخفق بشدة.

قالت غريزتي إن لذلك الرجل الطويل الأشقر علاقة بقضية «إيجليسياس» لأنه لم يكن يتقدم ولا يكترث، كمن يسير في طريقه إلى مكان ما زال بعيداً.

لم يتوقف عند الرقم 57 بل مر ببطء قرب المدخل، وكان يبدو بعكازه الأبيض كأنه يتعرف أرضاً سوف تشهد أحداثاً جسيمة. افترضت أن الأمر مجرد جولة استكشافية، ومنذ تلك اللحظة ضاعفت حذري.

ولكن لم يحدث في ذلك اليوم ما يسترعي انتباهي. قبل التاسعة مساء بدقائق قليلة صعدت إلى الطبقة السابعة فلم يحدث هناك أيضاً ما يمكن أن أعتبره غير مألوف.

لم أذق في تلك الليلة طعم النوم: تقلبت في سريري كثيراً، نهضت قبل الفجر وهرعت إلى شارع باسو خشية أن يتمكن أحد ذو أهمية من الصعود إلى الغرفة في اللحظة التي يفتح فيها باب النزل الرئيسي.

ولكن لم يدخل أحد ممن قد يبدو لي مشبوهاً، ولم ألاحظ، طيلة

ذلك اليوم، أي إشارة تستدعي الاهتمام. أكان ظهور ذلك الأعمى الطويل الأشقر مجرد مصادفة؟.

قلت إني قلما أؤمن بالمصادفات، وبخاصة تلك التي تتعلق بالعميان. ولذلك، ما إن أنهيت في تلك الليلة ما يمكن تسميته نوبة حراستي اليومية، حتى قررت أن أصعد إلى النزل لأخضع السيدة «إيتشيباريبوردا»إلى استجواب محكم.

انحدرت في غمرة اندفاعي إلى أحط درجات الغوغائية إثارة للاشمئزاز. إني أمقت النساء البدينات، وكانت صاحبة النزل بدينة، محشوة في ثوب بدا أنه مصنوع لامرأة عادية، فبرزت منه أكداس لحمها، وصدرها الأبيض الهائل، كقطعة «كريم كراميل»: لكنها ذات أمعاء.

امتدحت بشرتها، وقلت لها إنني لا أصدق أنها بلغت الخامسة والأربعين عاماً. وأطريت أيضاً الغرفة التي تقطنها، حيث كان يغطي كل منضدة كبيرة أو صغيرة، وكل سطح أفقي نسيج يدوي «ماكرامي»، ولعل ضرباً من مرض الخوف من الفراغ، حال دون أن تترك أي حيز من دون أن تغطيه أو تملأه: كلاب من البورسلين، فيلة من البرونز، بجعات من الزجاج، دون كيشوت من الكروم، وغزال بحجم طبيعي تقريباً، وفوق بيانو لم يلمسه أحد منذ وفاة المرحوم زوجها، كما قالت، ثمة غطاءان كبيران من النسيج ذاته: واحد يغطي مفاتيح العزف، وآخر يغطي القسم العلوي الذي وضعت فوقه صورة السيد «إيتشيباريبوردا» بنظرته الرصينة الموجهة نحو فيل برونزي ضخم: بدا كأنه يترأس تلك المجموعة المختارة من عجائب الطبيعة.

امتدحت إطارها البغيض المطلي بالكروم، فقالت وهي تتأمل الصورة

بنظرة حزينة حالمة: لقد مات منذ سنتين في ريعان الشباب، عن عمر يناهز الثامنة والأربعين عاماً، وعندما كان على وشك أن يشهد تحقيق حلمه في الحصول على نصف راتب تقاعدي:

ـ كان وكيل رئيس قسم شحن البضائع للأرياف في شركة الغوبيلين.

كانت تضطرم في داخلي سورة من الغضب والقلق، إذ لم أتمكن حتى تلك اللحظة من البدء باستجوابها، فقلت:

ـ إنها شركة ذات أهمية حقاً.

فقالت مستبشرة:

ـ نعم.

فأضفت:

ـ ومنصب يدل على الثقة.

فقالت:

ـ أعتقد ذلك، وليس من قبيل المس بالآخرين إن قلت إن المرحوم زوجي كان مناط ثقة مطلقة.

ـ فخر للأسرة.

ـ إنه لكذلك يا سيد فيدال.

استقامة الباسك، برودة الإنكليز، روح الحرص عند الفرنسيين، أساطير كسائر الأساطير، معصومة لا تنال منها الوقائع البائسة. فأي قيمة يمكن أن تعطى لمقامرين كالوزير ايتشيفيري، أو مجانين كالقرصان مورغان، أو مبدعين مثل رابيليه..؟. انصرفت أدقق في الصورة التي راحت المرأة تعرضها من مجلد يضم مجموعة عائلية. كانا معاً في صورة أثناء إجازة 1948 في «مار دل بلاتا» وسط الماء.

قالت وهي تشير إلى فانوس مصنوع من أصداف البحر، وضع فوق أحد الأغطية.

ـ أهداني الفانوس في ذلك الصيف.

نهضت. تناولته، وأرتني العبارة المكتوبة عليه: (ذكرى ماردل بلاتا) وتحت العبارة أضيف بالحبر: 1948.

ثم عادت إلى مجموعة الصور، بينما كنت تواقاً للاستجواب.

كان السيد «إيتشيباريبوردا» في إحدى الصور يقف بجانب زوجته في حدائق باليرمو، وفي أخرى كان، كما أظن، محاطاً بأولاد أخته وصهره الذي يدعى السيد «رابوفيتي» أو شيء من هذا القبيل. وكان في صورة أخرى مع مستخدمي الشركة، كما قالت السيدة «إيتشيباريبوردا» يحتفلون بمناسبة خاصة في مطعم السمكة الصغيرة في حي لابوكا.

صور أطفال عراة أو مضطجعين يحملقون إلى عدسة آلة التصوير، وصور بمناسبة الزواج، أو الإجازة وصور أبناء الأخت، أو أبناء العم أو الأصدقاء (وكانت صاحبة النزل تصف تلك الشخصيات التي تضاهيها ضخامة).

وأخيراً، رأيتها فرحاً كيف أغلقت مجلد الصور وراحت تضعه في درج إحدى المناضد التي عُلق فوقها، بجانب العديد من التماثيل الصغيرة إطار كُتبت في وسطه عبارة:

امنـح بيتـك ما في قلبـك

سألت:

ـ هكذا إذاً، لا جديد عن المسكين «إيجليسياس».

ـ نعم يا سيد فيدال، إن المسكين يمكث هناك في غرفته، ولا يود

أن يرى أحداً، أصدقك القول يا سيد فيدال: إن قلبي يتقطع حزناً عليه.

ـ نعم، طبعاً. ألم يأت أحد للسؤال عنه؟. ألم يهتم أحد بوضعه؟.

ـ لا يا سيد فيدال، حتى هذه اللحظة على الأقل.

قلت كأنني أحدث نفسي:

ـ غريب، أمر غريب.

سبق أن قلت لها إنني أجريت اتصالات مع الجمعيات المعنية. وبهذه الكذبة حققت غرضين لا تقدر قيمتهما بثمن: حلت دون قيامها بأي مبادرة شخصية (مبادرة تنطوي كما هو معلوم على خطر قد لا يمكن التحكم فيه)، وتمكنت من جهة ثانية، من أن أتحرى عن أي أمر يمكن أن يحدث. ويجب ألا ننسى أنني لم أضع نصب عيني استغلال «إيجليسياس» للتسلل إلى الدائرة السرية وحسب، بل لكي أبحث وأتأكد من صحة بعض فرضياتي عن المنظمة: إن عُثر على المنضد رغم عدم إبلاغ أحد عن وضعه، فذلك يثبت نظريتي بكل أبعادها، ويتعين عليّ عندئذ مضاعفة الحذر، ولكن ذلك الانتظار كان خطراً وجعلني أخشى قلقاً خائفاً ألا أصل في الوقت المناسب.

كنت أثناء ذلك الانتظار البائس أعاين تطور تحوله باختبار ملامح وجهه وسلوكه، فأدخل إلى غرفته ليلاً بعد إغلاق باب النزل، وزوال خطر وصول المبعوث خائفاً قلقاً (ينبغي ألا تباغتني الطائفة وأنا مع المنضد مهما كلف الأمر)، وأحاول أن أتحدث وإياه، وفي أسوأ الحالات أحاول أن أشاركه الاستماع إلى المذياع. أصبح «إيجليسياس» كما ذكرت، يلوذ بالصمت كثيراً، وأصبح ارتيابه واضحاً، وكذلك الحقد الدفين الذي يتصف به أفراد الطائفة.

كنت أعاين أيضاً ما يطرأ على أعضائه من أعراض مظهرية خالصة، فأراقب، حين أصافحه، إن كانت بشرته قد بدأت تفرز ذلك العرق البارد. وهو من المظاهر التي تنم عن قرابته من الضفادع أو الزواحف، أو ما شابه ذلك.

كنت بعد أن أقرع الباب وأسمعه يقول ادخل، أدخلُ، وأشعل النور من مفتاح بجانب قائمة الباب اليسارية. فأجد «إيجليسياس» جالساً في زاوية قرب المذياع يزداد رصانة وتركيزاً. كان ينظر إلي كما يفعل العميان تماماً، نظرة زائغة ومجردة، تدلني خبرتي على أنها أول الأسارير التي يكتسبها الأعمى أثناء عملية تحوله البطيء. وكانت نظّارته السوداء التي يستخدمها لمجرد ستر محجري عينيه المحترقتين، تضفي على نظرته وقعاً مؤثراً، كنت أعلم علم اليقين أن لا شيء وراء تينك العدستين السوداوين. ولكن ذلك الـ (لا شيء) كان هو بالتأكيد، أشد ما يخيفني. كنت أشعر بأن عيوناً أخرى مركبة خلف جبينه، عيوناً خفيةً ولكنها أشد يقظة ومكراً تحدق إليَّ باستمرار، وتنفذ إلى أعماقي.

لم يتفوه بأي كلمة فظة قط: بل كان على النقيض من ذلك تماماً، قد ترسخ لديه ذلك التهذيب الشائع بين أبناء بعض مناطق إسبانيا، ذلك التهذيب الموروث الذي يجعل فلاحي هضبة قشتالة الوعرة البُسطاء يبدون كالسادة. ولكن كلما كانت الأيام تمضي، وكلما كان يتكرر ذلك المشهد الصامت حيث نمكث معاً يتأمل أحدنا الآخر كتمثالين مصريين راسخين باردين، كنت أشعر بأن حقد إيجليسياس يستولي على كل زاوية من زوايا نفسه.

كنا ندخن بصمت. وكنت أقول بغتة ـ لكي أخرق الصمت الذي لا يطاق ـ أي شيء كان فيما مضى يثير اهتمام المنضد:

ـ أعلنت النقابة عن إضراب عمال الشحن.

ولكن إيجليسياس كان يتمتم ببضعة أحرف، ويمتص لفافته بنهم، ثم يفكر بعد ذلك في دخيلته: «إنني أعرفك أيها الوغد».

كنت أنسحب عندما يصل الوضع إلى حد لا يطاق، ومع ذلك، وبرغم كل المنغصات التي كانت ترافق تلك اللقاءات، فقد حققت ما كنت أصبو إليه من رصد تحوّله.

وكنت، عندما أخرج إلى الشارع، أقوم بجولة ليلية: كما لو أن غايتي تنشق الهواء ليلاً، أو أن أتمشى على غير هدى وأصفر، ولكنني كنت في الواقع، أراقب أي بادرة تشير إلى وجود العدو.

لم ألاحظ طيلة اليومين اللذين أعقبا ظهور الأعمى الطويل الأشقر أي شيء ذي شأن.

16

عندما دخلت النزل في اليوم التالي، لأقوم بزيارتي الليلية لاحظت دلالة جديدة مثيرة للقلق.

كنت قبل أن أذهب إلى غرفة «إيجليسياس» أزور السيدة «إيتشيباريبوردا» لأنقب قليلاً. فدعتني في تلك الليلة جرياً على عادتها إلى تناول كوب من القهوة التي بدأت تحضيرها. فكرت آنئذ بأن صاحبة النزل كانت تتصور أنني في حقيقة الأمر أرتاد منزلها لكي أراها، وأن عمي «إيجليسياس» لم يكن سوى ذريعة.

وكنت أشجعها فعلاً على المضي قدماً في أوهامها: أطري ثوبها حيناً، وأحدق مشدوهاً إلى حلية جديدة حيناً، أو أطلب منها أن تحدثني عن آراء السيد «إيتشيباريبوردا» حيناً آخر.

وبينما كانت تلك الليلة تعد القهوة الشهيرة، طرحت أسئلتي المعتادة، وأجابتني جرياً على عادتها أن أحداً لم يحفل بعد بمصير المنضد:

ـ إخالني لا أصدق يا سيد فيدال. يكاد المرء يفقد أي أمل في الإنسانية.

قلت:

ـ يجب ألاّ نفقد الأمل أبداً.

وكنت أردد بعض أقوال السيد «إيتشيباريبوردا» الشهيرة (يجب أن نؤمن بالبلد)، (هكذا هي الحياة)، (ينبغي أن نثق بما في الأمة من

إمكانيات). أقوال تدل على مكانة المرحوم، وكيل رئيس قسم شحن البضائع للأرياف في شركة الـ غوبيلن، وهي تثير الآن، بعد موته، كوامن نفس زوجته.

قالت وهي تقدم القهوة:

ـ هذا ما كان يردده المرحوم زوجي.

ثم عرَّجت على موضوع غلاء المعيشة، وقالت إن الذنب كله يقع على عاتق ذلك الوغد «بيرون»، لم تكن تحب ذلك الرجل أبداً، وكنت أعرف لماذا. بسبب طريقته في فرك يديه وابتسامته عندما يتحدث: كان يبدو مثل كاهن، وهي لا تحب الكهنة، على الرغم من أنها تحترم سائر الديانات طبعاً (كانت وزوجها المرحوم من أتباع مدرسة الأخ باسيليو[1]). ثم تحدثت عن فضيحة ما يعنيه الارتفاع الجديد في أسعار الكهرباء.

قالت:

ـ هؤلاء الناس يفعلون ما يحلو لهم. ألم يأت اليوم مثلاً، رجل من شركة الكهرباء ليتفقد جميع أنحاء النزل كي يرى إن كانت سائر الآلات والمكاوي والسخانات وما إلى ذلك بحالة جيدة..؟. وإني أتساءل يا سيد فيدال، هل يحق لهم أن يتفقدوا منازل الآخرين؟.

وكما تتوقف الخيول وتشب أمام كل ما تراه مثيراً للشبهة على الأرض، فترفع رؤوسها، وتنتصب آذانها وتهتز، انتقضتُ عندما سمعت ما قالته.

سألتها وأنا أكاد أثب من مقعدي:

ـ موظف من شركة الكهرباء...؟.

(1) جمعية دينية معروفة في بونيس آيرس

فقالت وقد اعترتها الدهشة:

ـ نعم، من شركة الكهرباء..!.

ـ في أي وقت؟.

حاولت أن أتذكر. ثم قالت:

ـ حوالي الساعة الثالثة عصراً.

ـ رجل سمين؟. يرتدي بذلة فاتحة اللون؟.

فأجابت بارتباك وهي تحدق إلي:

ـ نعم، سمين، نعم.

فألحفت أسأل بجفاء:

ـ ولكن، أكان يرتدي بذلة فاتحة اللون أم لا؟.

ـ نعم فاتحة اللون، لعلها من البوبلين، مما يستخدمون الآن من ثياب خفيفة.

كانت تنظر إلي بدهشة بالغة. وتعين علي أن أقدم تفسيراً معقولاً: وإن لم أفعل، من يضمن ألاّ يكون موقفي عرضة لشبهات تلك البائسة. أي تفسير أقدم لها؟. حاولت أن أختلق ما يمكن تصديقه: تحدثت عن دين لذلك الرجل عندي. تلعثمت بسلسلة من العبارات بسرعة، لأنني كنت أعلم أن ليس ثمة ما يمكن أن يسوغ ذعري الذي يعود إلى أنه قد استرعى انتباهي عند الساعة الثالثة من عصر ذلك اليوم، شخص بدين يرتدي بذلة من البوبلين ذات لون فاتح، و يحمل حقيبة صغيرة بيده، ويحوم حول الرقم 57 في شارع «باسو». بدا لي ذلك الرجل مثيراً للشبهة. والآن تؤكد كلمات صاحبة النزل ما ذهبت إليه. فقولها إنه تفقد النزل كان كافياً لإثارة جنوني.

بعد أن دققت فيما بعد في الأحداث المتصلة بتحرياتي، فكرت أن

طيشي وتصرفي إزاء قضية رجل شركة الكهرباء، والكلمات التي افترضت أنها تنطوي على تفسير مقنع للمرأة صاحبة النزل، كانت كلها من قبيل التهور.

فقد كان ذلك يكفي لإثارة شكوكها، لو أنها تتمتع بشيء من الذكاء.

ولكن ذلك الشرخ لن يؤدي إلى تصدع البناء الذي كلفني تشييده غالياً.

كان رأسي في تلك الليلة مضطرماً: كنت أحس بأن اللحظة الحاسمة تقترب.

مكثت منذ صباح اليوم التالي في مرصدي، جرياً على عادتي، يعتريني مزيد من القلق. تناولت قهوتي مع الحليب، وفردت الجريدة، ولكن عينيّ في الواقع لم تفارقا الرقم 57. كنت أتمتع بنشاط فعال للقيام بمثل تلك اللعبة المزدوجة. وبينما كان «خوانسيتو» يحدثني عن أمر لا أدري ما هو، لكنه يتصل بإضراب المعدّنين، لاحظت بانفعال لا يطاق رجل شركة الكهرباء في شارع «باسو» بحقيبته ذاتها، وبذلته الفاتحة نفسها التي كان يلبسها يوم أمس.

ولكن كان يصحبه هذه المرة سيد نحيل قصير القامة، يشبه وجهه إلى حد بعيد وجه «بيير فريسناي»[1]: أتيا يتحدثان، وعندما همس البدين في أذنه ببضع كلمات، كان يتعين عليه أن ينحني ليقترب من مسمعه، فهز الآخر رأسه موافقاً.

وما إن وصلا إلى الرقم 57 حتى دخل القصير إلى البناء، بينما واصل رجل شركة الكهرباء سيره باتجاه شارع «ميتري»؛ ثم وقف ينتظر في

(1) ممثل فرنسي كوميدي توفي عام 1975 (المترجم).

منعطف الشارع. تناول لفافة وأخذ يدخن:

ـ هل ينزل «إيجليسياس» مع الآخر يا ترى..؟.

لم يبد لي ذلك أمراً متوقعاً، لأنه لم يكن رجلاً يمكن أن يقبل ببساطة عرضاً أو دعوة من هذا القبيل.

حاولت أن أتصور المشهد هناك في الأعلى. ماذا عساه يقول لإيجليسياس؟. وكيف سيقدم نفسه؟. لعل من الأرجح أن يقول إنه عضو في المكتبة أو الجوقة أو أي من تلك المؤسسات: علم بمصيبته، وقد نظموا أمر المساعدة، وما إلى ذلك.

ولكن بدا لي، كما قلت، أنه من الصعب أن يقبل «إيجليسياس» بمسايرته في المناسبة الأولى هذه: أصبح بالغ الإرتياب، ثم إن عنفوانه تأصل أكثر من ذي قبل، وكان قبل عماه مثل كثير من الإسبان، فخوراً بنفسه كثيراً.

عندما نزل المبعوث وحده، وذهب ليلتقي رجل شركة الكهرباء شعرت بالرضى، لأن افتراضاتي كانت صحيحة، مما أوحى لي بأن لديّ فكرة دقيقة عن سير الأحداث.

بدا لي أن رجل شركة الكهرباء كان يستمع باهتمام إلى تقرير قصير القامة، وبعد أن تحدث بحماسة ذهبا باتجاه شارع «بويرّيدون».

عدوت مسرعاً إلى الأعلى: كان لابد أن أبدأ التحقيق بأسرع ما يمكن، ولكن من دون إثارة شكوك «إيجليسياس».

استقبلتني الأرملة بشيء من القلق.

فقالت وقد أمسكت يدي اليمنى بكلتا يديها:

ـ أخيراً أتوا من تلك المؤسسة..!.

حاولت أن أهدئ من انفعالها. فقلت لها:

ـ ومع ذلك يا سيدتي لن تبوحي بأي كلمة «لإيجليسياس»، لن يخفى عليك أنني أنا مَن حضّ أولئك الناس على الاهتمام به.

أكدت لي أنها ستتذكر نصائحي بدقة.

قلت:

ـ حسناً. وماذا كان قرار «إيجليسياس»؟.

ـ عرضوا عليه أن يعمل.

ـ أي نوع من العمل؟.

ـ لا أدري. لم يقل لي شيئاً.

ـ ماذا كان جوابه؟.

ـ قال إنه سيفكر بالأمر.

ـ حتى متى؟.

ـ حتى عصر اليوم، لأن السيد سيعود عند العصر. يود أن يقدمه.

ـ يقدمه؟. أين؟.

ـ لا أدري يا سيد فيدال.

اطمأنت نفسي لذلك الاستجواب، فودعت، وقبل أن انصرف سألتها:

ـ لقد نسيت، متى سيعود ذلك السيد؟.

ـ الساعة الثالثة.

ـ حسناً.

لقد بدأت الأمور تسير في سبيلها القويم.

17

وكما في مناسبات أخرى، جعلني القلق أشعر برغبة ملحة في الذهاب إلى المرحاض. دخلت درة «الأونسي» القديمة، واتجهت إلى المراحيض مباشرة.

والأمر الغريب أن المكان الوحيد في هذا البلد الذي يتحدث عن سيدات ورجال، هو المكان الذي يصبحون فيه لا أولئك ولا هؤلاء. وأفكر أحياناً أن ذلك ليس سوى شكل مضحك من أشكال عدم الإيمان الأرجنتيني الكثيرة. ما إن استرخيت في تلك الغرفة الصغيرة النتنة مؤكداً نظريتي القديمة، بأن المرحاض هو المكان الفلسفي الوحيد الذي لم تَشُبه شائبة بعد، حتى بدأت أحل رموز الكتابات المتشابكة. فوق القاعدة الأساسية التي لا غنى عنها: يعيش بيرون، مسح أحدهم بقسوة كلمة يعيش وأحل مكانها كلمة يسقط، وهذه أيضاً وجد من مسحها وأبدل بها كلمة يعيش جديدة، حفيدة الكلمة الأصلية، وهكذا بالتناوب على شكل «باغود»[1] أو هيكل مضعضع قيد البناء. وكان يزين ذلك التعبير الأصلي ويغنيه ويفسره، من يمينه ومن يساره، ومن فوقه ومن تحته، بأسهم إرشادية وعلامات تعجب، (وكأنما تولت ذلك سلالة من شراح الدعارة) تعليقات مختلفة، عن أم «بيرون» وعن صفات «إيفا دوارتي»[2] المميزة، الاجتماعية والجسدية، وعما سيفعل المعلق المجهول المتغوط، لو أتيح له الانفراد بها في سرير، أو على مقعد، أو حتى في مرحاض

(1) باغود: معبد صيني متعدد الطبقات (المترجم).
(2) إيفا دوارتي: هي إيفا بيرون زوجة بيرون الأولى (المترجم).

(درة «الأونسي» القديمة) ذاته. كما خضعت بدورها جمل وعبارات أخرى للشطب جزئياً أو كلياً، وانمحت أو حورت أو اغتنت بإضافة صفة قادحة أو مادحة، وشددت أو خففت بنعوت كتبت بألوان مختلفة، بقلم رصاصي وبالحوار، وبرسوم توضيحية، بدت وكأن أستاذاً ثملاً وبزّاقاً رسمها. وطلبات وعروض، في أماكن أخرى مختلفة، في الأسفل أو الجوانب، محاطة أحياناً (كالإعلانات الهامة التي تنشرها الصحف) بإطار، أو مكتوبة بأشكال مختلفة من خط (قلق أو هزيل، متفائل أو مستهتر عنيد أو طائش، متقن أو مضحك)، طلبات وعروض لأرقام هواتف رجال يتمتعون بهذه المزية أو تلك، أو أنهم على استعداد للقيام بهذه وتلك من المعجزات أو المهارات أو الخوارق أو الفظائع المازوكية أو السادية. عروض وطلبات عدّلتها بدورها، تعليقات تتسم بالسخرية أو الشتم، وبالعدوانية أو الدعابة، وقام أشخاص ليسوا ـ لسبب ما ـ على استعداد للتدخل في التركيبة ذاتها، ولكنهم كانوا، بشكل أو بآخر، يرغبون بالمشاركة أيضاً (وقد برهنت تعليقاتهم على ذلك)، فشاركوا فعلاً بذلك السحر الشبق المجنون. وفي خضم تلك الفوضى كانت تدل أسهم إرشادية على الجواب المنتظر بفارغ الصبر، لمن يشير كيف ومتى سينتظر (الأمير الخطاط الشرجي)، مكتوباً بتعليق رقيق، يبدو أنه لا يلائم أحياناً، ذلك المطلع على الخبر المرحاضي: سأكون حاملاً زهرة في يدي.

وفكرت: (الوجه الآخر للعالم).

وكما في صفحات قسم الجرائم في الجرائد، كان يبدو أن الحقيقة النهائية للجنس البشري تظهر هناك.

وفكرت: (الحب والغائط).

وبينما كنت أزرر فكرت أيضاً: «سيدات» و«رجال».

18

كنت دفعاً للشك، أجلس في المقهى منذ الساعة الثانية عصراً حتى الساعة الثالثة، لم يكن الرجل القصير الذي يشبه «بيير فريسناي»، قد ظهر. ولكن هاهو الآن يسير بلا أدنى تردد. عندما اقترب من الباب رفع عينيه ليتأكد من الرقم (لأنه كان يسير مطرقاً كأنه يتمتم بأشياء في سره)، ثم دخل من الباب 57.

انتظرت خروجه بأعصاب مشدودة: كان أخطر فصول مغامرتي يقترب، وعلى الرغم من أنني فكرت للحظات بأشد التوقعات ابتذالاً، كأن يأخذوه إلى إحدى جمعيات المعونة، أو الجمعيات الخيرية، لكن سرعان ما قال لي حدسي إن الأمر لن يكون كذلك أبداً: سيفعلون هذا فيما بعد. الخطوة الأولى ينبغي أن تنطوي على قدر أقل من البراءة، كأن يقودوه ليمثل أمام أحد العميان ذوي الأهمية، لعله أحد وسطاء أصحاب المراتب العالية. ولكن ما الأساس الذي جعلني أميل إلى مثل هذا الافتراض..؟. فكرت بأن الرؤساء ذوي المراتب العليا يودون عند وضع أعمى في التداول ـ إن صح قول ذلك ـ معرفة صفاته وخصاله ومهامه ودرجة فطنته أو غبائه: لا يُكلِّف رئيس مؤسسة تجسس أحد عملائه بمهمة قبل أن يختبر فضائله وعيوبه. وواضح أن التجول في محطات الـ مترو لجمع التبرعات لا يتطلب المواصفات ذاتها التي تتطلبها مراقبة مكان ذي أهمية بالغة مثل «مركز سلاح البحرية» (ذلك الأعمى الطويل ذي القبعة العريضة الذي يناهز الستين عاماً، الصامت أبداً، وأقلام

الرصاص بيده، يوحي بأنه سيد إنكليزي حلت به نوائب الدهر). ثمة، كما سبق وقلت، عميان وعميان، وعلى الرغم من أنهم يتصفون جميعاً بمزيّة أساسية مشتركة تضفي عليهم ذلك الحد الأدنى من الخصائص العرقية، إلا أننا يجب ألا نبسط المسألة إلى حد الاعتقاد بأنهم جميعاً على درجة واحدة من الفطنة والبصيرة. هناك عميان لا يصلحون إلا للأعمال الصعبة، وبينهم من يتساوون وعمال الشحن أو الدرك، وهناك الـ «كيركيغارديون» والـ «بروستيون». ثم، لا يمكن معرفة ما سيكون عليه حال رجل انضم إلى الطائفة المقدسة بسبب مرض أو حادث، فكما تسفر الحرب عن مفاجآت غريبة، وكما لم يكن بوسع أحد أن يتوقع أن ذلك المستخدم البسيط الخجول في أحد بنوك بوسطن سيصبح بطل معركة «جواد القنال»[1]، كذلك لا يمكن التنبؤ سلفاً، على أي نحو مفاجئ يمكن للعمى أن يرفع مرتبة بواب أو منضد: يقال إن أحد الكهنة الأربعة الذين يقودون الطائفة عالمياً (والذين يقطنون في مكان ما من جبال «البيرينيه»، في مغارة هائلة العمق، أودت بحياة فريق من الباحثين المختصين بالتنقيب عن المغاور، حاول اكتشافها في العام 1950) لم يكن أعمى بالولادة، وإنه كان قبل عماه، وهذا ما هو غريب في الأمر، مجرد «جوكي» بسيط يمتطي خيول الرهان في ميدان سباق ميلانو، حيث فقد بصره. فأنا، وإن كنت لا أؤمن بإمكانية انضمام رجل ليس أعمى بالولادة إلى زعامة الطائفة، لكنني أروي القصة لكي أبين إلى أي مدى يمكن الاعتقاد بقابلية ارتقاء المرء سلم العظمة إذا ما فقد بصره. إن السرية الصارمة لنظام الترقيات تحملني على الاعتقاد بأنه يستحيل على أي كان معرفة هوية الكهنة الأربعة. ففي عالم العميان، تنشر وتشاع معلومات

(1) جواد القنال أو غواد القنال: جزيرة في المحيط الهادي استولى عليها اليابانيون في الحرب العالمية الثانية واستردها الجيش الأمريكي بعد قتال دام ستة أشهر (المترجم).

ليست صحيحة: ربما لأنهم يحافظون بذلك على نوازع الشر والنميمة- وهي من صفات الكائنات البشرية- نامية في الجنس بنسب مرضية من جهة، ولأن الكهنة، من جهة أخرى، يستخدمون، كما أفترض، المعلومات المضللة وسيلة للمحافظة على السرية والإبهام، كسلاحين فعالين لا غنى عنهما لأي منظمة من هذا الطراز. ومع ذلك، فإن أي نبأ، ينبغي - لكي يكون حقيقياً - أن يكون، من حيث المبدأ ممكناً. وهذا وحده كاف كي أثبت - كما هو الحال في مسألة «الجوكي» السابق - إلى أي مدى يمكن أن يضاعف العمى شخصية فرد عادي.

حين عدت إلى مشكلتنا تصورت أن إيجليسياس لن يؤخذ بعد خروجه أول مرة إلى إحدى الجمعيات العامة، أو المؤسسات التي يستخدم فيها العميان مبصرين بائسين أو سيدات ذوات قلوب ساذجة وعقول ذباب، فيقامرون بأسوأ مصادر الغوغائية العاطفية وأرخصها. ولذلك حدست بأن خروج إيجليسياس الأول يمكن أن يدخلني فجأة إلى أحد المعاقل السرية، بكل ما ينطوي عليه ذلك من مخاطر وما يزخر به من إمكانيات هائلة أيضاً. ولذلك فإنني عندما جلست في المقهى عصر ذلك اليوم، كنت قد اتخذت جميع التدابير التي تفتق عنها ذكائي من أجل رحلة من هذا القبيل. يمكن القول إنه من السهل اتخاذ تدابير معقولة من أجل رحلة إلى جبال «قرطبة» ولكن ليس بوسع أي امرئ - إلا إذا كان مجنوناً - معرفة ما يمكن اتخاذه من تدابير معقولة لارتياد عالم العميان. حسناً، الحقيقة أن تلك التدابير الشهيرة كانت ثلاثة أشياء منطقية نسبياً أو أربعة: مصباح كهربائي، غذاء مركز، وأشياء أخرى من هذا القبيل. قررت، كما يفعل الغواصون، أن الشكولاته هي أفضل ما يمكن أن آخذه معي كغذاء مركز.

وهكذا اصطحبت، وأعصابي في أقصى درجات التوتر، مصباح

الجيب الكهربائي، والشكولاته وعكازاً أبيض، خطر لي في اللحظة الأخيرة أنه يمكن الاستفادة منه (مثله مثل زيّ العدو عندما يستخدمه رجل الدورية). انتظرت خروج «إيجليسياس» مع الرجل قصير القامة؛ ولكن بقي في الواقع احتمال أن يرفض المنضد، نظراً لطباعة الأسبانية، مرافقة الرجل، وأن يقرر بإباء البقاء وحيداً. إن حدث ذلك فسوف ينهار كل البناء الذي شيدته مثلما ينهار حصن من ورق، وسوف تنقلب تجهيزاتي آلياً، سواء الشكولاته، أو المصباح، أو العكاز الأبيض، إلى تجهيزات مجنون مضحكة.

ولكن «إيجليسياس» نزل..!.

كان السيد قصير القامة يحدثه بحماس، والمنضد يستمع إليه بعنفوان نبيل بائس. لم يتنازل عن عنفوانه قط، ولن يتنازل عنه أبداً. كان يمشي مرتبكاً، ويحرك العكاز الأبيض الذي زوده به ذلك الرجل خَجِلاً، يحمله مرفوعاً عن الأرض حيناً بضع خطوات، كمن يحمل ترمساً.

تباً له، ما زال لديه وقت طويل لكي يكمل تعليمه..!. لقد عزز هذا البرهان ثقتي بنفسي، فخرجت وراءهما رابط الجأش.

لم تبدر من السيد قصير القامة في أي وقت، أي إشارة تدل على أن مطاردتي تثير شكوكه. فقد رسخ ذلك اطمئناني أيضاً، إلى حد شعرت معه بضرب من العنفوان، إن الأمور تسير كما كنت أقدر طيلة سنوات من الانتظار والدراسة التمهيدية، ولأنني، منذ فشل محاولتي مع أعمى محطة «مترو باليرمو» ـ لست أدري إن قلت ذلك من قبل ـ كرست حياتي كلها تقريباً لأراقب على نحو منتظم ودقيق النشاطات المنظورة لعدد كبير من العميان في شوارع بوينس أيرس، فاشتريت في هذه المدة التي تربو على ثلاث سنوات، مئات المجلات التي لا تفيد شيئاً، كما

اشتريت الكثير من عظمات ياقات القمصان وطوحت بها، وآلاف الأقلام والمفكرات من جميع الأحجام، وشاهدت فرق موسيقى العميان، وتعلمت طريقة «بريل» وأمضيت أياماً لا حصر لعددها في المكتبة، رغم أن هذا النشاط ينطوي، كما هو معلوم، على خطر هائل ـ لو ارتابوا فيّ لانهارت جميع خططي، وتعرضت حياتي ذاتها للخطر ـ لكن كان لا بد منه وكان، إلى حد ما، فرصة الخلاص الوحيدة أمام تلك الأخطار: كاد يكون مثل تلك التدريبات التي تعرض لخطر الموت الجنود الذين يتعلمون كيف يكشفون عن الألغام ويتعين عليهم أن يواجهوا، في آخر لحظات تدريبهم، الأخطار ذاتها التي كرسوا حياتهم لتجنبها.

إلا أنني لست ساذجاً إلى حد مواجهة تلك الأخطار الجسيمة من دون اتخاذ احتياجات أساسية: كنت أغير ملابسي، وأستخدم شاربين اصطناعيين ولحية اصطناعية، ونظارة سوداء، وأغير صوتي.

هكذا حققت في كثير من الأشياء خلال تلك السنوات الثلاث، وتمكنت بفضل ذلك الجهد التمهيدي الحثيث من أن أتسلل إلى النطاق السري.

وإلى هذا انتهيت.

لم أعد، في هذه الأيام التي تسبق موتي، أشك أبداً بأن مصيري كان مقرراً، ربما منذ أن بدأت تحقيقاتي، بل منذ ذلك اليوم الشؤم الذي راقبت فيه أعمى المترو في رحلات عديدة بين محطتي «بلاسا مايو» و«باليرمو»، وأفكر أحياناً أنني بقدر ما كنت أعتقد أنني أشد مكراً، وأشد غطرسة في إطراء ما تصورته مهاراتي، كنت أخضع لمراقبة أشد إحكاماً، وأسير قدماً بخطى أوسع نحو ضياعي ؛ حتى بلغ بي الأمر حد الشك في الأرملة «إيتشيباريبوردا» ذاتها. كم تبدو لي الآن سخيفة فكرة أن

ذلك الإخراج المسرحي كله، بتزييناته وبتماثيل الغزلان الضخمة، وبخدعة صور زوجين بورجوازيين صغيرين أثناء الإجازة، وبتلك الإطارات الريفية البسيطة، وبكل ذلك الذي سمح لي بأن أضحك في سري رغم غطرستي، لم يكن كله سوى مهزلة، وإخراجاً مسرحياً هزلياً مريعاً..!.

ومع ذلك، فتلك ليست سوى افتراضات، ورغم أنها كانت عملياً كذلك، إلا أنني وعدت أن أتحدث عن وقائع. فلنعد إذاً إلى الأحداث كما جرت.

كنت في الأيام التي سبقت خروج إيجليسياس قد درست، كما يدرس المرء لعبة شطرنج، سائر الخيارات التي يمكن أن تترتب على ذلك الخروج. فقد كان يتعين عليَّ أن أكون على استعداد لمواجهة أي منها. كان ممكناً، على سبيل المثال، أن يأتي هؤلاء الناس لاصطحابه في سيارة أجرة أو عربة خاصة. وبما أنني عزمت على ألا أفوت أروع مناسبة في حياتي بسبب نسيان أمر من الأمور التي لا بد أن أتوقعها، فقد كانت لدي عربة تقف قريباً من هناك استعرتها من السيد (ر) أحد شركائي في تزوير الأوراق النقدية. ولكنني حينما رأيت في ذلك اليوم المبعوث الذي يشبه بيير فريسناي يصل راجلاً أدركت أن حذري لم يكن في محله، وكان احتمال أن يستقل وإيجليسياس فيما بعد سيارة أجرة لا يزال قائماً. ورغم أن العثور على سيارة أجرة في بوينس آيرس، في هذه الأيام، أمر صعب كصعوبة العثور على «ماموت»[1]، فقد كنت أفكر في ذلك الاحتمال عندما رأيته ينزل. بيد أنهما لم يمكثا عند الباب مثلما يفعل من ينتظر أحداً ما بل على العكس من ذلك، لم يلق الرجل القصير نظرة

(1) الماموت: فيل ضخم منقرض (المترجم)

واحدة ذات اليمين أو اليسار، وإنما تأبط ذراع المنضد، وقاده باتجاه شارع «بارتولومي ميتري». كان من الواضح أنهما سيذهبان إلى المكان المقصود بإحدى وسائط المواصلات العامة.

بقي في الواقع احتمال أن يكون الآخر، رجل شركة الكهرباء البدين، منتظراً في مكان ما بسيارته، ولكن لم يبد لي ذلك منطقياً، لأنني لم أرَ أي سبب لكيلا ينتظر هناك في شارع باسو. كما أنه خطر ببالي، أن ركب باص أو حافلة أمر مناسب تماماً. لعلهم يريدون ألا يشعروا الأعمى الجديد منذ البدء بأنهم طائفة قادرة على كل شيء: تواضع الوسائل، وحتى شح الموارد أسلحة فعالة في جمعية مخيفة وأنانية، لكنها تميل إلى الاعتماد على العاطفة، وإن كان ينبغي إحلال حرف العطف (و) مكان كلمة «لكنها».

تبعتهما من مسافة بعيدة تتفق والفطنة.

عندما وصلا إلى منعطف الشارع، انعطفا نحو اليسار، واتجها إلى شارع بويريدون وتوقفا هناك أمام لافتة تدل على اتجاهات الباصات. كان يصطف هناك بضعة رجال وبضع نساء، وبمبادرة من سيد يحمل حقيبة ويستخدم نظارة وينم مظهره عن الاحترام - ولكن حدسي أنه سافل - تراجع الجميع ليمنحوا «الأعمى المسكين» أولوية التقدم.

ثم عاد الجميع يصطفون وراء الرجلين.

كتب على لافتة الموقف ثلاثة أرقام. كانت كما أعتقد مفتاح السر المبدئي للغز كبير: فهي لم تكن أرقام الباصات التي تذهب إلى محطة رتيرو وكلية الحقوق ومستشفى الجامعة. أو إلى بلغرانو، بل إلى أبواب المجهول.

صعدا الباص الذي يذهب إلى بلغرانو وتبعتهما مختبئاً وراء عدة أشخاص ليفصلوا بيننا.

عندما وصل الباص إلى شارع كابيلدو بدأت أتساءل، في أي ناحية من حي بلغرانو سينزلان يا ترى... تابع الباص السير، ولم تبدُ على الرجل القصير أي أمارة تنم عن القلق، وما إن وصل شارع «فيري دل بينو» حتى أخذا يشقان الطريق إلى أن استقرا عند باب الخروج. نزلا في شارع «سوكري» وسارا فيه حتى انعطفا في شارع «أوبليغادو» باتجاه الشمال وصولاً إلى شارع «خورامنتو». سارا فيه إلى أن بلغا شارع كوبا فاتجها نحو الشمال ثانية. وما إن وصلا شارع مونروي حتى عادا إلى شارع أوبليغادو ومنه رجعا إلى الحديقة الكائنة عند تقاطع شارعي اشيفرّيا وأوبليغادو التي مرا بها من قبل.

الأمر واضح: محاولة تضليل. ولكن، تضليل من؟. تضليلي أنا ؟. أم تضليل أي شخص آخر يفترضون أنه يتبع مثلي السبيل ذاته ؟. لم تكن تلك الفرضية مستبعدة، فمن الطبيعي ألا أكون الشخص الوحيد الذي يحاول التسلل إلى العالم السري، ولعل هناك كثيرين على امتداد التاريخ الإنساني، لكنني وفي جميع الأحوال، أشك في اثنين: الأول «ستريندبرج» وقد أودى به الأمر إلى الجنون، والثاني رامبو الذي بدؤوا بمطاردته قبل سفره إلى إفريقيا، كما تدل رسالة بعث بها ذلك الشاعر إلى أخته، وينحو «جاك ريفيير» في تفسيرها منحى خاطئاً. يبقى الافتراض بأن الأمر يتعلق بتضليل «إيجليسياس» قائماً، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار حس الاتجاه المرهف الذي يكتسبه الإنسان منذ أن يفقد بصره. ولكن، لماذا؟.

وكائناً ما كان ذلك، فقد عادا بعد تلك الجولة إلى الحديقة حيث تقع كنيسة «الحبَل بلا دَنَس». ظننت للحظات أنهما سيدخلانها، وتصورت

فجأة أقبية وميثاقاً سرياً بين المنظمتين. ولكن لا: اتجها نحو ذلك الركن الغريب من بوينس آيرس الذي يشكل صفاً من بيوت قديمة ذات طبقتين ملاصقاً لسور الكنيسة.

دخلا من أحد الأبواب التي تؤدي إلى الطبقة العليا، وأخذا يصعدان السلم الخشبي القذر العتيق.

19

بدأت هنا أصعب مراحل تحرياتي وأخطرها.

توقفت في الحديقة، أفكر في الخطوات التالية التي يمكنني، ويتعين علي، أن أقوم بها.

وكان واضحاً أنني لا أستطيع أن ألحق بهما مباشرة، نظراً لما تتمتع به الطائفة من صفات مميزة خطيرة. كان أمامي خياران: إما أن أنتظر خروجهما، ثم ابتعادهما، فأصعد بدوري لأنقب ما بوسعي التنقيب عنه، وإما أن أصعد بعد مدة معقولة من دون انتظار خروجهما.

وعلى الرغم من أن الخيار الثاني كان أخطر، إلا أنه يتيح فرصاً أكثر. فهو يجنبني، في جميع الأحوال ـ حتى إذا عدت صفر اليدين من تحرياتي ـ انتظار عودتهما، وأنا جالس على أحد مقاعد الحديقة. انتظرت حوالي عشر دقائق، ثم بدأت أصعد بحذر، فقد كان تصوري أن المسعى، أو التقديم، أو كائنة ما كانت تلك العملية التي ذهب من أجلها إيجليسياس، لن تكون مسألة دقائق، وإنما ساعات، ولو كان الأمر غير ذلك لكانت فكرتي عن تلك المنظمة خاطئة تماماً. كان السلم قذراً ومهترئاً، لأنه يعود إلى أحد تلك البيوت القديمة التي كانت في حقبة ماضية مرموقة، ولكنها الآن مهملة وقذرة، وبصورة عامة مؤجرة: فهي كبيرة جداً بالنسبة إلى أسرة فقيرة واحدة، وقذرة جداً لا تليق بأسرة ذات مركز مرموق. فكرت بذلك لأن المشكلة تتعقد تعقيداً بالغاً إن كان

يقطن البيت عدة مستأجرين. ذهبا لرؤية من يا ترى؟.. وفي أي شقة؟. وخطر ببالي أن يكون الزعيم، أو مخبر الزعيم، قاطناً هناك، يعيش حياة متواضعة جداً، بل بائسة.

وبينما كنت أصعد السلم، كانت تلك الأفكار تزيدني ريبة ومرارة. كان يثبط عزائمي احتمال وصولي، بعد أن انتظرت كل هذه السنوات، إلى مدخل متاهة.

إنني لحسن الحظ ميال إلى تصور الأسوأ دائماً، وأقول «لحسن الحظ» لأن استعداداتي تكون أقوى من المشكلات التي يسفر عنها الواقع فيما بعد. ومع أن استعدادي لما هو أسوأ أجد ذلك الواقع أسهل مما كنت أتوقع.

هكذا كان الأمر حيال المشكلة الحالية لذلك البيت. أما الأمر الآخر فقد كان، لأول مرة في حياتي، أسوأ مما كنت أنتظر.

عندما وصلت إلى الطبقة الأولى، تأكدت من وجود باب واحد فقط، وأن السلم ينتهي عنده، ولذلك لم يكن هناك أي بهو، ولا يوجد أي مدخل لشقتين:

وبرغم ذلك، فإن المشكلة كانت من أبسط ما يمكن أن يبرز من مشكلات.

مكثت بعض الوقت أمام ذلك الباب المغلق وأذناي مشدودتان إلى وقع أي خطوة، ورجلاي مستعدتان للنزول في أي لحظة. أقدمت على مجازفة حين قرّبت مسمعي من خصاص الباب وحاولت أن ألتقط أي اشارة. ولكن لم أسمع شيئاً.

كنت أشعر بأن ذلك البيت ليس مأهولاً.

لم يبق أمامي سوى الانتظار في الحديقة.

نزلت. وما إن جلست على المقعد حتى قررت استغلال الوقت لدراسة كل ما يتعلق بتلك الناحية. قلت إن البناء غريب، فهو يمتد على طول مئة متر في خط مستقيم يلاصق محيط الكنيسة. لا شك أن الجزء الأوسط الذي يتصل ببناء الكنيسة يدخل في ملكيتها، ويضم كما أعتقد مستودع الأدوات المقدسة، وبعض غرف الكهنة. ولكن ما تبقى من البناء، من جهة اليسار أو اليمين، تسكنه أسر، كما تدل أحواض الزهور، والألبسة، وأقفاص الكناري وغيرها، الموجودة في الشرفات. ولا يمكن أن يغيب عني ما لاحظت من اختلاف نوافذ شقق العميان عن سواها: لا توجد أي دلائل على وجود أناس فيها. ثم إنها كانت مغلقة. يمكن القول إن العميان ليسوا بحاجة إلى النور، لكن، والهواء؟. تلك الدلائل تؤكد ما توصلت إليه عندما كنت في الأعلى أصغي عبر الباب. استغرقت أفكر، وأنا أراقب المخرج، في ذلك الأمر الغريب، وتوصلت بعد أن فكرت فيه ملياً، إلى نتيجة بدت لي مفاجئة ولا يمكن دحضها: ***إن أحداً لا يسكن في تلك الشقة***.

أقول مفاجئة لأن البيت إن كان خالياً لا يقطن فيه أحد، فلماذا دخل إليه إيجليسياس مع الرجل القصير الذي يشبه بيير فريسناي؟. والنتيجة التي لا يمكن دحضها إذاً: ***لم يكن المنزل سوى مدخل إلى شيء آخر***. وأقول ذلك لأنه إن كان شقة أخرى وربما شقة مجاورة يمكن الوصول إليها من أحد الأبواب الداخلية، فمن الممكن أيضاً أن يكون «شيئاً» يصعب تصوره باعتباره يتعلق، كما هو الحال فعلاً، بالعميان. أهو ممر سري داخلي خفي يؤدي إلى الأقبية؟. لم يكن ذلك أمراً مستبعداً.

فكرت أخيراً، أن لا فائدة ترجى، في تلك اللحظة، من استمرار اختبار عقلي؛ وأنني سأغتنم الفرصة فيما بعد، عندما يخرج الرجلان، للقيام بفحص معمق للمشكلة.

تصورت أن يكون تقديم إيجليسياس أمراً معقداً، ولذلك توقعت أنه سيستغرق وقتاً طويلاً. ولكن لا بد أنه كان أعقد مما تصورت، لأنهما لم يخرجا قبل الساعة الثانية صباحاً. حوالي منتصف الليل، وبعد ثماني ساعات من الانتظار اليقظ، عندما كانت الظلمة قد أضفت على ذلك الركن الغريب من بوينس أيرس ظلالاً مبهمة بدأ قلبي ينقبض، كما لو أن الشك أخذ يتنازعه حول ما يقوم به من أعمال حقيرة، في أعماق قبو أو مغارة رطبة، رجل مخيف وأعمى من معلمي أسرار الدين، وكأنما تلك الطقوس الكئيبة تجلب لي نذيراً مبكراً، عما كان ينتظرني في تلك الأيام.

الساعة الثانية صباحاً...!.

بدا لي أن خطوات إيجليسياس كانت أكثر تردداً عندما دخل، وشعرت بأن ضيقاً هائلاً يجثم على صدره، ولكن لعل كل ذلك لم يكن سوى مجرد انطباع ولّدته لدي مجموعة الظروف المحزنة: آرائي عن الطائفة، ونور الحديقة الشاحب، وقبة تلك الكنيسة الضخمة، ثم، الضوء المبهم الذي يعكسه على السلم، المصباح المعلق في أعلى المدخل.

انتظرت حتى ذهبا. وراقبت كيف تواريا في شارع كابيلدو. وحينما تأكدت من أنهما لن يعودا ثانية، ذهبت مسرعاً نحو المنزل.

بدا لي وقع أقدامي وسط صمت الليل المطبق، كقصف الرعد، وكان صرير درجات السلم المهترئة يدفعني باستمرار إلى الالتفات يميناً ويساراً.

وعندما وصلت إلى أعلى السلم، كانت تنتظرني أكبر مفاجأة واجهتها حتى تلك اللحظة. كان هناك قفل على الباب..!. وهذا ما لم أكن قد توقعته من قبل. تملكتني الخيبة، فجلست على أول درجات ذلك السلم اللعين، ومكثت هناك زمناً طويلاً يلفني الضياع. ولكن سرعان ما بدأ عقلي يعمل، وخيالي يقدم سلسلة من الافتراضات.

خرجا منذ لحظات، وبعدهما لم يخرج أحد قط، وإذاً لم يُقدم أحد سوى الرجل قصير القامة الذي يشبه بيير فريسناي على نزع القفل عند الدخول، ثم وضعه ثانية عند الخروج. وإذاً، لو كان في ذلك البيت أي نوع من السكان، أو لو أنه يتصل «بشيء ما» مأهول، بواسطة ممر سري، فإن تلك الكائنات التي تقطن فيه لم تكن بأي شكل من الأشكال تخرج أو تدخل من ذلك الباب المنتصب الآن أمام عيني، ولا بد أن يكون لذلك «الشيء»، سواء كان شقة أو بيتاً أو مغارة، أو كائناً ما كان، مخرج آخر، أو مخارج أخرى عديدة، لعلها متصلة بمناطق أخرى من الحي أو المدينة. أكان الباب ذو القفل إذاً، مخصصاً للمبعوث أو الوسيط قصير القامة؟. نعم بالطبع: له ولأشخاص آخرين يضطلعون بمهمات مشابهة، ولابد من افتراض أن لدى كل منهم مفتاحاً.

أثبتت هذه السلسلة الأولى من الأفكار ما ذهبت إليه عندما كنت أراقب البيت من الحديقة: لا يقطن أحد هناك، ولذلك كان بوسعي إذاً أن أؤكد نتيجة ستكتسب أهمية في المراحل التالية: إن ذلك المنزل كان مجرد ممر يقود إلى ناحية أخرى.

ماذا يمكن أن تكون تلك الناحية الأخرى يا ترى؟.. هذا ما لم يكن بوسعي تصوره، والوسيلة الوحيدة لمعرفته كانت محاولة جريئة لفض ذلك القفل والدخول إلى البيت الغريب، والبحث هناك، إلى أين يمكن أن يؤدي. كنت أحتاج كي أقوم بذلك إما إلى خطاف معدني أو ـ بكل بساطة ـ إلى كسر ذلك القفل بكماشة، أو بأي وسيلة أخرى مشابهة.

نفد صبري، ولم أستطع حينئذ الانتظار إلى الغد. نحيت فكرة كسر القفل جانباً بسبب الضجة التي ترافق تلك العملية، وفكرت بأن أفضل ما أفعله هو طلب مساعدة أحد معارفي. نزلت، ثم ذهب إلى شارع

كابيلدو، وانتظرت مرور إحدى سيارات الأجرة التي لا تنقطع في مثل تلك الساعة من الصباح.

ويبدو أن الحظ كان حليفي. ما إن مضت بضع دقائق حتى ركبت واحدة وأمرت سائقها أن يتجه إلى شارع باسو. أخذت من هناك السيارة التي كنت قد تركتها فيه واتجهت إلى منزل في فلورستا حيث يقطن «ف». شرحت له وأنا أصرخ (فهو مشهور بنومه الثقيل) إنني أحتاج إلى فتح قفل في تلك الليلة بالذات. وعندما صحا ووعى نوع القفل كاد ـ من شدة الغضب ـ يعود إلى سريره لينام ثانية. فإيقاظه لفتح قفل كان بمثابة استشارة (ستافيكي) في أمر سرقة ألف فرنك. كنت أهزه وأهدده، ثم سحبته جراً إلى العربة. وانطلقت مسرعاً كما لو أن المنظمة ستنهار في تلك الليلة بالذات، فوصلت الحديقة في أقل من نصف ساعة. أوقفت السيارة في شارع ايتشيفيريّا. وبعد أن تأكدت من أن أحداً لم يكن هناك، نزلت مع «ف» وسرنا نحو البيت.

استغرقت عملية فتح القفل حوالي نصف دقيقة، قلت له بعدها إنه يتعين عليه أن يذهب وحده إلى فلورستا لأنني يجب أن أبقى طويلاً في ذلك البيت، فأثار ذلك حنقه، لكنني أقنعته بأن الأمر يتسم بأهمية بالغة وبأنه من السهل أن يعثر على سيارة أجرة في شارع كابيلدو. رفض استلام المبلغ الذي حاولت أن أعطيه إياه ليدفع أجرة السيارة وانصرف من دون أن يحييني.

ينبغي أن أقول إنني حينما كنت منطلقاً بسيارتي نحو شارع باسو خطر لي سؤال: لماذا لم يكن القفل موجوداً عندما صعدت أول مرة؟. كان أمراً منطقياً بالطبع ألاّ يكون موجوداً، لأن الرجلين دخلا ولم يكن بوسعهما وضع قفل من الجهة الخارجية. ولكن، إن كان ذلك المدخل بالغ الأهمية، كما ينبغي أن أفترض، فكيف يفسر تركه مفتوحاً أمام أي

دخيل؟. فكرت بأن ذلك كله سيكون أمراً مسوغاً إن قام الرجل القصير، بعد دخولهما، بإغلاق الباب بسقاطة أو مزلاج من الداخل.

وكما كنت أتوقع، كان يخيم في الداخل ظلام مطبق، وصمت كصمت القبور. رافق فتح الباب صرير متواصل خلته قصف رعد. وجهت مصباحي اليدوي نحو الجانب الخلفي من الباب فوجدت، بارتياح، أن له مزلاجاً نحاسياً، لم يلحقه الصدأ بعد.

وهكذا تأكدت صحة فرضيتي عن إغلاقه من الداخل. وتأكد معها افتراضي (المخيف) بأن ذلك الباب، لا يمكن أن يترك مفتوحاً في أي لحظة.

فكرت بعد ذلك بوقت طويل في تلك الوقائع، وتساءلت إن كان ذلك الباب يتسم حقاً بأهمية بالغة، فلماذا كان مغلقاً بقفل تمكن «ف» من أن يفتحه في أقل من نصف دقيقة؟.. كان لتلك الواقعة المثيرة جداً، تفسير واحد فقط: جعل البيت يبدو كغيره من البيوت، بيتاً ـ لسبب أو لآخر ـ غير مأهول.

وعلى الرغم من أنني أتيت وأنا قانع بأن أي صنف من أصناف السكان لا يقطن هناك، دخلت بحذر وبدأت أسلط الضوء على جدران الغرفة الأولى.

لست جباناً، ولكن لو كان أي إنسان في موقفي لشعر بما شعرت به من خوف في تلك اللحظات التي كنت فيها أتجول ببطء وحذر في ذلك البيت العريان الخالي الغارق في الظلمات. والأمر الغريب حقاً أنني كنت أدق على الجدران بعكازي الأبيض كأعمى أصيل..!.. لم أكن قد فكرت حتى الآن بتلك الدلالة المقلقة، وإن كنت أظن دائماً أنه لا يمكن للمرء أن يحارب طيلة سنوات عدواً قوياً إلا وينتهي به الأمر إلى أن

يصبح شبيهاً به، فإن اخترع المدفع الرشاش يتعين علينا، مهما طال الزمن ـ إن كنا لا نرغب في أن يقضي علينا ـ أن نخترعه ونستخدمه أيضاً. وما ينطبق على واقعة بارزة ومادية كقطعة سلاح حربي ينطبق أيضاً لأسباب أعمق وأدهى على الأسلحة النفسية والروحية: التصعيرات، والابتسامات، وأساليب الحركة، وأساليب الغدر، وتعابير المحادثات، وشكل الإحساس، والحياة. ولذلك فإنه لمن المألوف جداً أن ينتهي الأمر بالزوج والزوجة إلى أن يشبه أحدهما الآخر.

نعم: كنت أكتسب شيئاً فشيئاً كثيراً من عيوب السلالة الملعونة وفضائلها.ومثلما يحدث دائماً، كان سبر عالمها قد أصبح، حسبما بدأت ألمح الآن أيضاً، سبر عالمي المظلم.

ثم، سرعان ما كشف لي ضوء مصباحي عدم وجود أي شيء في تلك الغرفة الأولى: لا قطعة أثاث، ولا أي متاع آخر. لم يكن هناك سوى الغبار. أرض محفّرة، وجدران مسلخة عليها بقايا تالفة من ورق جدران قديم فاخر. طمأنني هذا الفحص كثيراً، لأنه أكد صحة ما سبق وتوقعته عندما كنت في الحديقة: إن المنزل غير مأهول، ولذلك تجولت بثقة وسرعة في بقية أنحائه.

ورحت أكمل، وأثبت شيئاً فشيئاً، ذلك الانطباع الأولي. وحينئذ أدركت لماذا لم يكن من الضروري اتخاذ تدابير حذر شديد لحماية الباب. فلو ساقت المصادفة لصاً وكسر القفل، لخرج تواً، خائباً لا يلوي على شيء.

كان الأمر بالنسبة إلي مختلفاً، لأنني ***كنت أعلم*** أن ذلك المنزل لم يكن هدفاً، بل وسيلة.

ولو لم يكن الأمر كذلك، لكان ينبغي أن أفترض أن الرجل قصير

القامة، الذي ذهب ليرافق إيجليسياس لم يكن سوى معتوه، أتى بالإسباني إلى كهف كهذا، حيث يحل الظلام المطبق، ولا يوجد أي مقعد يجلس عليه، لكي يحدثه طيلة عشر ساعات عن أمر كان بوسعه، مهما كان ذلك الأمر رهيباً، أن يحدثه عنه في غرفة المنضد في النزل.

صممت على أن أبحث عن المخرج الذي يؤدي إلى الناحية الأخرى.

أول أمرفكرت فيه بسيط للغاية وهو باب ظاهر أو خفي يؤدي إلى المنزل المجاور. الأمر الثاني، والأبسط، (لكنه ليس لهذا السبب أقل رجحاناً. فلماذا يجب أن يكون ما يتعلق بكائنات مريعة كهذه بسيطاً...؟.) كان افتراض أن وراء ذلك الباب الظاهر أو الخفي ممراً ضيقاً يؤدي إلى أقبية أو بحيرات نائية وخطيرة. وكانت مهمتي في جميع الأحوال تكمن الآن في البحث عن ذلك الباب الخفي.

فحصت جميع الأبواب الظاهرة أولاً: كانت بلا استثناء، تؤدي إلى غرف البيت المختلفة. فالباب كما ينبغي أن أفترض إذاً، لا بد أن يكون باباً خفياً وليس ظاهراً للعيان.

افترضت أوضاعاً كنت قد رأيتها في أفلام أو قرأت عنها في كتب مغامرات:

أي مربع، أو إطار صورة يمكن أن يكون باباً مموهاً. ولما لم تكن هناك أي صورة في البيت المهجور، لم يكن من الضروري إذاً تبديد الوقت في ذلك.

جبت البيت غرفة غرفة وتفحصت الجدران المسلخة لأرى إن كان أي ركن أو طنف أو إفريز يخفي مفاتيحَ كهربائية مموهة أو أي آلية مشابهة.

لا شيء.

تفحصت بانتباه أشد الغرفتين اللتين تتميزان، بحكم طبيعتهما، بخصائص أوفر: المطبخ والحمام. فهما برغم خرابهما، يوفران في الواقع إمكانيات غنية لا يمكن إيجادها في الغرف الأخرى. فكرسي المرحاض منزوع الغطاء لم يقدم كثيراً من الاحتمالات، إلا أنني حاولت تحريك مفصلات الغطاء المفقود، ثم سحبت السلسلة، وأفرغت خزان الماء. حاولت فتح كل أنواع الصنابير وإغلاقها، كما حاولت أن أرفع حوض الماء القديم من مكانه، وقمت بتحليل مشابه في المطبخ، ولكن عبثاً. تكرر الفحص بتؤدة مراراً، ولو أنني لم أكن أعلم علم اليقين أن ذينك الرجلين كانا في ذلك المساء بالذات هناك، لتخليت عن تلك المهمة.

جلست مثبط العزم فوق فرن الغاز القديم. كنت أعرف من خبراتي السابقة أنه بعد الوصول إلى نقطة معينة، لا فائدة ترجى من تكرار البراهين العقلية ذاتها، لأنها تخلّف أثراً عقلياً يحول دون التفكير في المخارج الجانبية.

ووجدتني فجأة آكل «الشوكولاته» وكان ذلك منظراً هزلياً يضحك أي مشاهد مختبئ هناك خفي علي. وكنت على وشك أن أضحك في دخيلتي من ذلك المشهد الذي ابتدعه خيالي عندما كدت أموت من شدة الانفعال: من كان يضمن لي أن أحداً لم يكن يراقبني من مكان خفي؟.

كانت السقوف محفرة والجدران مسلخة، ويمكن أن تخفي ثقوباً تصلح للمراقبة من المنزل المجاور. واستولى علي الرعب ثانية، فأطفأت المصباح الكهربائي لحظات كما لو أن ذلك الحذر المتأخر يمكن أن يفيدني. وفيما أنا واقف وسط الظلام أحاول تفسير أي حركة مهما كانت ضئيلة، كنت أتمتع ـ مع ذلك ـ بدرجة من الإشراق تكفي لكي

أدرك أن حذري لم يكن ضرباً من غباء لا فائدة منه وحسب، بل مؤذ أيضاً، فأنا وسط الظلمة أعزل أكثر مما لو كنت في الضوء.

أشعلت عندئذ مصباحي، وحاولت رغم شدة قلقي أن أفكر في السر الذي يجب أن أكشف عنه.

بدأت، بينما يسيطر علي هاجس ثقوب المراقبة، أفحص في ضوء المصباح سقوف غرف البيت المهجور: كانت من ذلك الطراز من سقوف الجبس المبنية على شبكة من الخشب، تساقطت أجزاء منها، وتكسرت بعض قواعدها الخشبية.

وكان ممكناً بالطبع أن يقوم شخص أو عدة أشخاص بالمراقبة من خلال تلك الشقوق. ولكنني في جميع الأحوال، لم ألاحظ أن في تلك السقوف ما يمكن أن يشبه المخرج أو المدخل. و لا بد في مثل تلك الحالة من وجود سلم، ولم يكن للسلم أثر في أي مكان من المنزل، هذا إن لم يكن قد سحب من الأعلى بعد أن انتهت مهمته: سلم من تلك السلالم المصنوعة من الحبال.

وكنت أتأمل السقف وأفكر، عندما خطر لي الحل فجأة: والأرض..!. لقد كان من أبسط الأمور، لكنه، كما يحدث مراراً، آخر ما يخطر على البال.

20

بدأت، بينما أعصابي تزداد توتراً، أسلط الضوء على كل بقعة من أرض المنزل، إلى أن عثرت على ما كان لا بد من العثور عليه: شق خفي مربع الشكل، كان، ولا ريب، غطاء لما يؤدي إلى الأقبية. من يمكن أن يخطر بباله حقاً، أنه يمكن العثور على مدخل إلى القبو من شقة في الطبقة الأولى؟. كان ذلك يثبت، على نحو ما، صحة فكرتي البدائية، عن اتصال البيت بمنزل مجاور يؤدي إليه باب خفي. ولكن من يتصور أن المنزل المجاور يقع تحت ذلك البيت؟. حملني قلقي الشديد في ذلك الوقت على ألا أفكر في أمر، لعلي لو فكرت فيه لفررت مذعوراً: وقع أقدامي. كيف كان بوسعي أن أقتنع بأنه لم ينبه العميان. أقول العميان، الذين يقطنون في الطبقة الأدنى؟. هذا الإهمال، هذا الخطأ سهّل عليّ المضي قدماً في البحث. ذلك أن الحقيقة ليست هي التي تقودنا دائماً إلى القيام باكتشافات عظيمة. وأقول هذا لتروا مثالاً تقليدياً على الأخطاء والمثالب الكثيرة التي ارتكبتها أثناء بحثي، على الرغم من أن عقلي كان باستمرار يعمل بيقظة شديدة. أعتقد الآن، أن في هذا النوع من الأبحاث شيئاً أشد قوة يقودنا، هو حدس قوي معصوم عن الخطأ ولا تفسير له، إلا أنه مؤكد، كتلك البصيرة التي تتوفر لمن يسيرون وهم نيام وتسمح لهم بالتوجه إلى أهدافهم مباشرة. إلى أهدافهم التي ليس لها تفسير.

كان الغطاء محكماً، وكان يجب ألا يخطر لي مجرد التفكير برفعه

من دون الاستعانة بأداة حادة وقوية، كان واضحاً أنه يفتح من الأسفل وفي ساعة معينة، بالاتفاق مع المبعوث. كنت قلقاً أفكر بأنني يجب أن أقوم بالعملية في تلك الليلة بالذات، إذ لو أجّلتها إلى اليوم التالي، لتنبه أحدهم إلى فض القفل، وعندئذ ستكون الأمور أصعب، هذا إن لم تصبح مستحيلة. ما العمل؟. ليس لدي ما يمكن أن يساعدني. استعرضت عقلياً ما تطاله يدي: يمكن أن أعثر في المطبخ أو الحمام على شيء يفيدني. هرعت إلى المطبخ فلم أجد شيئاً، ذهبت إلى الحمام فوراً. واستنتجت أن ذراع عوامة خزان المرحاض أداة مفيدة إلى حد ما. نزعت العوامة وعالجت الذارع حتى حررته منها، وأسرعت عائداً إلى الغرفة التي عثرت فيها على الفتحة. اشتغلت طيلة ساعة أو أكثر، حتى تمكنت من نقب أحد أطرافها مستعيناً بالجانب الذي تركت فيه آثار اللحام نقطاً بارزة على الذراع.

وأخيراً، تمكنت من غرز ذلك الذراع الحديدي، وبرفق بالغ استخدمته كعتلة.

وبعد محاولات فاشلة زادتني قلقاً تمكنت في، نهاية الأمر، من رفع الغطاء بكل ما أوتيت من هدوء وصمت، ووضعته جانباً، وسلطت ضوء مصباحي على الداخل: الفتحة لا تؤدي، كما كنت أفكر، إلى المنزل التحتاني. وإنما إلى سلم طويل أسطواني، بدأت أهبط فيه.

وصلت إلى قبو قديم يقع تحت الشقة الأولى. لعله ـ وهذا أمر منطقي ـ كان جزءاً من الشقة الأرضية، وأصبح، باتفاق المالكين الأوائل، جزءاً من الشقة الأعلى، يتصل بها بوساطة ذلك السلم الغريب الخفي.

كان القبو قبواً عادياً، مثل كثير من أقبية بيوت بوينس أيرس، ولكنه خال تماماً، ومهجور كالبيت الذي يتصل به. هل أخطأت؟. هل وجدت

بعد هذا الجهد الكبير مخرجاً لم يكن يقود إلى أي ناحية؟. ومع ذلك، كان لابد من أن أتفحصه باهتمام وحذر، كما فعلت في جميع أنحاء البيت.

بيد أنه لم يكن هناك الكثير لكي أفحص: كانت جدرانه الإسمنتية ملساء، ولا تقدم كثيراً من الاحتمالات الهامة. كانت هناك كوة تؤدي، كما هو مألوف في مثل ذلك الطراز من البناء، إلى الشارع: كانت أضواء الحديقة تتسرب من خلالها. ثم كان القبو يشكل زاوية (لأنه على شكل حرف L اللاتيني).

وعندما تجولت بمصباحي لألقي نظرة على ذلك الركن الخفي رأيت كوة أخرى، إنما أكبر، تؤدي.... ولكن إلى أين يمكن أن تؤدي؟. إلى قبو البيت المجاور..؟. ولما لم يكن ثمة مخرج آخر ولا غرفة أخرى، فكرت بأن غطاء تلك الكوة قد يكون متحركاً، وأنها، هي المخرج الشهير. أمسكت بكلتا يدي قضيبين من طرفيها، ووجدت أن الغطاء طَيِّع فعلاً: بدأ قلبي، من جديد، يخفق بعنف.

تركت غطاء الكوة جانباً وأشعلت مصباحي. لم يكن ذلك قبو منزل مجاور بل ممراً لم أستطع في ضوء مصباحي أن أرى نهايته. وقد عزوت الأمر طبعاً إلى قصور مدى ضوء المصباح.

انعطف الممر نحو اليمين بعد مسافة قدرت أنها حوالي مائتي متر، في ذلك المنعطف أخذت أصعد سلماً

بلغت درجاته اثنتي عشرة درجة (أحصيتها لكي أقدر المسافة التي صعدتها) وكنت مستغرقاً في تلك العملية، عندما رأيت بدهشة، أن عتبة في أعلى السلم تنتهي إلى باب، أو لعله بويب صغير، كان يتعين عليّ أن أنحني لأدخل منه.

لم أشعر بالمفاجأة وحسب، بل بالتناقض أيضاً عندما افترضت أن ذلك الباب سيسد أمامي في تلك الليلة المدخل إلى الحصن السري. ولعل قولي، في تلك الليلة، كان كقولي إلى الأبد، فبعد كل الذي قمت به في الشقة المزيفة، سيتخذ العميان في اليوم التالي إجراءات أمن تجعل من رجوعي أمراً مستحيلاً.

لعنت نفاد صبري الدائم، وقيامي قبل الوقت المناسب بالتخلص من «ف».

لأنني إن كنت لا أستطيع فعلاً أن أجعل منه شريكاً في خطتي (التي كان سيعتبرها، بالتأكيد، ضرباً من الجنون)، إلا أنه كان بوسعي أن أطلب منه أن يرافقني حتى الوقت الذي يتبين لي فيه أنني لم أعد بحاجة إليه. والآن بحق الشياطين، كيف سأفتح ذلك الباب وحدي؟.

وقفت عند العتبة أفكر بهدوء: أهو مدخل إلى البيت أو الشقة التي توقعت وجودها عندما كنت في الحديقة؟. إثنتا عشرة درجة، ارتفاع كل درجة حوالي عشرين سنتيمتراً، يكون المجموع حوالي ثلاثة أمتار. فالمنزل سيكون إذاً بمستوى الشارع. ويكاد يكون من المؤكد أن له مدخلاً عادياً من أحد الشوارع القريبة. قد يكون أي محل تجاري. لست أدري لماذا خطر ببالي أنه قد يكون منزل خياطة.

من سيشك فعلاً، في أن منزل خياطة يمكن أن يكون مدخل المتاهة الكبرى؟. وإذاً فإن عدم دخول الرجل الذي يشبه بيير فريسناي من المدخل العادي كان أمراً منطقياً: ماذا يمكن لرجلين، أحدهما أعمى، أن يفعلا في منزل خياطة؟. لعل زيارة واحدة لا تثير الشبهات، ولكن لو تكررت لبدأ الناس يتصورون أموراً أكثر أهمية. ولا أعتقد أن المحفل يستهين باحتمال وجود شخص مثلي بين الناس.

ولذلك فإن الاحتفاظ ببيت مهجور يستخدم كمدخل كان أمراً منطقياً.

فكرت في كل ذلك بينما كنت أنتظر أمام ذلك الباب العجيب. لم تسمع أي حركة، ففي تلك الساعة كانت الخياطة مستغرقة في النوم: كانت الساعة تشير إلى الرابعة والنصف صباحاً.

انتهى كل شيء إلى لا شيء. وكما يوصف الثائرون عندما ينتهي انقلاب عسكري إلى الفشل بأنهم عصابة قطاع طرق وحفنة من المهرجين، كذلك رأيتني الآن في موقف يثير الهزء: نظرت إلى عكازي الأبيض وفكرت في سريرتي. «تباً لي كم كنت سخيفاً وأحمق يثير السخرية!.» رجل راشد، شخص قرأ هيغل وشارك في السطو على مصرف، يقف الآن في أحد اقبية بوينس أيرس عند الساعة الرابعة والنصف صباحاً أمام باب صغير يفترض أن وراءه تسكن امرأة تدّعي أنها خياطة، وتعمل في خدمة محفل سري، ألم يكن ذلك مضحكاً؟. وكان العكاز الأبيض الذي عدت أتأمله في ضوء المصباح ملياً، بتلك المتعة المعذبة التي نحس بها ونحن نضغط على بعض المناطق التي تؤلمنا، يضفي على موقفي مزيداً من الغرابة.

قلت، حسناً، هذا قد انتهى.

وكنت سأبدأ طريق العودة الشاق، عندما خطر ببالي أن الباب قد لا يكون مقفلاً بالمفتاح، وأيقظت تلك الفكرة في أملاً جديداً مقلقاً، فلم أتصور في تلك اللحظة النتيجة التي يمكن أن تستخلص من هذه الحالة التي تبدو من حيث الظاهر أنها مواتية: الاستنتاج المريع بأنهم ***كانوا ينتظرونني***.

عدت إلى الباب الصغير وسلطت عليه ضوء مصباحي، ومكثت

لحظات أسيراً للريبة. قلت «لا، لا، مستحيل. هذا الباب يجب أن يفتح، حين ينتظر حضور أحد العميان مع المبعوث فقط».

إلا أن شعوراً داخلياً عاصفاً قاد يدي إلى القبضة. أدرتها ودفعته.

لم يكن الباب مقفلاً بمفتاح..!.

21

انحنيت بما يكفي لكي أتمكن من اجتياز ذلك الباب الصغير، والتسلل إلى الغرفة، وبعد أن استويت رفعت مصباحي لأرى أين أصبحت.

لكن تياراً كهربائياً جليدياً هزّ جسمي: أنارت حزمة الضوء أمامي وجهاً.

عمياء كانت تتأملني كأنها شبح جهنمي، ولكنه آت من جحيم جليدي وأسود.

وكان واضحاً أن الجلبة الضئيلة التي يمكن أن تكون قد حدثت من جراء دخولي، لم تكن هي التي نبهتها لكي تقف أمام ذلك الباب السري. لا: كانت مرتدية ملابسها. كان واضحاً أنها كانت تنتظر.

لست أدري كم من الوقت مكثت مشلولاً أمام النظرة المروعة الباردة لذلك القنديل البحري قبل أن يغمى عليّ.

لم يسبق أن أغمي علي من قبل قط، ولقد تساءلت فيما بعد، إن كان ما أصابني قد أثاره الرعب، أو قوى العمياء السحرية. وكما يبدو لي الآن بوضوح، فإن تلك الكاهنة كانت تمتلك القدرة على إطلاق قوى شيطانية، أو إثارتها.

إن ما أصابني لم يكن في حقيقة الأمر إغماء تاماً فقدت خلاله الوعي، ولكنني عندما سقطت على الأرض (وإن كان يفضّل أن أقول،

عندما «تداعيت»)، أخذ يستولي عليّ سبات وإعياء هيمنا بغتة على جميع عضلاتي، كما يحدث أثناء الإصابة بنوبة حمى شديدة تماماً.

أتذكر كيف كان نبض صدغي يزداد بشدة، حتى شعرت في إحدى اللحظات أن رأسي يمكن أن ينفجر كمرجل محقون بقوة ضغط هائلة. وأخذ نوع من الحمى يصعد في جسمي كأنه سائل يغلي في إناء، في حين كان ألق فوسفوري يلقي بريقه على العمياء فتبدو وسط الظلمات أكثر فأكثر.

حتى بدا لي كأن انفجاراً مزق غشاء أذني، فسقطت، أو كما قلت، تداعيت، فاقد الوعي فوق أرض تلك الغرفة.

22

لم أر بعد ذلك شيئاً، ولكن خلت أنني أستيقظ على واقع بدا لي أو يبدو لي الآن، أشد وطأة من الآخر. واقع له قوة التخيلات الجامحة التي تحدث أثناء الحمى.

كنت في زورق ينساب فوق بحيرة شاسعة الأبعاد، مياهها ساكنة سوداء ليس لها قرار. وكان الصمت ثقيلاً ومثيراً للقلق في الوقت ذاته، لأنني كنت وأنا وسط تلك الظلال (لم يكن هناك نور شمس بل شبح نور مبهم آت من الشمس الليلية) أشك بأنني لست وحدي، بل تراقبني وتتأملني كائنات لم أتمكن من تمييزها، لكنها تقيم بلا أدنى شك، أبعد من مدى نظري الملتبس. ماذا كانت تنتظر مني؟. ثم ماذا كان ينتظرني في ذلك الامتداد الموحش من المياه الآسنة الكئيبة؟.

لم أقو على التفكير أكثر من ذلك، على الرغم من أنني كنت أحتفظ بنوع من وعي غامض، ومن ذاكرة ثقيلة تعود إلى أيام طفولتي، طيور فقأت عيونها في تلك السنين الدامية، بدت لي أنها تطير في الأعالي، وتحوم فوقي كأنها تحرس رحلتي، بينما أجدِّف من دون أن أعي، كمن جرد من تفكيره، متجهاً بزورقي إلى اتجاه بدا لي أنه الاتجاه الذي ستغرب فيه تلك الشمس الليلية بعد ساعات أو قرون. وخلت أنني أسمع خفق أجنحتها الكبيرة الثقيل، وكأن طيور طفولتي قد تحولت الآن إلى زواحف مجنحة أو وطاويط هائلة. في حين أتصور أيضاً أن عجوزاً يملؤه الحقد،

يراقب من فوقي ومن ورائي، أي من شرق ذلك الخضم الأسود، مسيرتي: كانت له عين واحدة ضخمة في جبهته «كالسيكلوب»[1] وأطرافه مترامية بحيث يكاد رأسه يطاول السمت، بينما ينحدر جسمه ليغطي الأفق. وكان حضوره الذي *أحسست* به على نحو لا يطاق ـ وإلى حد كنت أستطيع معه وصف ملامح وجهه المريعة ـ يمنعني من أن أتجه إلى الوراء، بل يجعلني أحتفظ، ليس بجسمي فقط، وإنما بوجهي أيضاً في الاتجاه المعاكس دائماً.

ووجدتني أفكر أو أقول: «المسألة هي أن أتمكن من الوصول إلى الشاطئ قبل غروب الشمس». وجدفت بالزورق في ذلك الاتجاه ولكن تقدمي كان بطيئاً، وكأنني أسير تحت وطأة كابوس، والمجدافان يغوصان في تلك المياه السوداء الموحلة فأحس بثقلهما وهما يغرقان ببطء.

كانت تطفو على السطح أوراق كبيرة وأزهار كئيبة متعفنة، تبتعد وتتبعثر لدى كل ضربة مجداف. وأنا أحاول تركيز اهتمامي على مهمتي الشاقة، كي لا أتصور شكل الوحوش الفظيعة، التي كانت بلا شك تقيم في تلك المياه الجهنمية القذرة، وهولها: واضعاً الغرب، أو ما كنت أفترض أنه الغرب، نصب عيني، أجدف بجزعٍ وعنادٍ نحو ذلك الاتجاه محاولاً أن أصل قبل غروب تلك الشمس.

كان الإبحار صعباً وبطيئاً على نحو لا يطاق وكانت الشمس تنحدر نحو الغرب، ببطء كذلك، بينما تحفز حميّا حماستي في تحريك المجدافين الثقيلين البطيئين فكرة ملحة واحدة فقط: أن أصل قبل الغروب.

كان ذلك الكوكب قد اقترب من الأفق عندما شعرت بأن زورقي

(1) السيكلوب: مسخ جبار له عين واحدة في جبهته، مهمته صناعة الصواعق وأسلحة الآلهة في الأساطير اليونانية (المترجم).

يلامس القاع. تركت المجدافين وأسرعت إلى المقدمة، قفزت من الزورق إلى قلب المياه الموحلة التي غمرتني حتى ركبتي، وسرت نحو الشاطئ، الذي لاح لي وسط تلك الظلال الشبيهة بالظلمة. وشعرت فجأة بأنني أطأ ما يمكن أن أسميه الأرض الصلبة التي لم تكن في الواقع سوى مستنقع لا يقل السير فيه صعوبة عن الإبحار في الزورق: كان يتعين عليّ أن أبذل جهداً هائلاً لكي أرفع رجلي وأمضي قدماً. ولكنني برغم ذلك، كنت من شدة قلقي، أتقدم ببطء، ولكن أمضي قدماً إلى الأمام.

ولما كانت فكرتي من قبل أنني يجب أن أبلغ الأرض الصلبة، أصبحت تحدوني الآن فكرة أن أصل إلى جبل يكاد يلوح لي من بعيد، في اتجاه الغرب دائماً. أتذكر أنني فكرت: (إن المغارة هناك) أي مغارة؟. ولماذا كان يجب أن أصل إليها؟. لم أطرح في ذلك الوقت أي سؤال من هذين السؤالين، ولا أستطيع الآن أن أجيب على أي منهما. جل ما كنت أعرفه أنني يجب أن أصل، ويجب أن أتوغل في المغارة مهما كلف الأمر. ولا بد لي من القول، إنني كنت أشعر بالحضور الهائل لذلك المجهول خلفي. كان يبدو أنه يراقبني بعينه الوحيدة المفتوحة أبداً والمملوءة حقداً، ويوجه، كضابط دورية طرق غدار، مسيرتي نحو الغرب. كانت ذراعاه من وراء ظهري تغطيان السماء، وخلته يستند بيديه من جهة الشمال ومن جهة الجنوب فيحيط على هذا النحو بالنصف الخلفي للقبة السماوية كله. وهكذا لم يكن أمامي سوى السير قدماً نحو الغرب، وأرى هذا أمراً منطقياً واستنتاجاً معقولاً في ذلك الواقع الجنوبي. كانت فكرتي أن أهرب من نظرته وأدخل المغارة، حيث كنت أعرف أن نظرته ستكون، في نهاية المطاف، عاجزة. هكذا سرت زمناً خلته دهراً. كان الكوكب لا يزال يهبط، ورغم أن الجبل أصبح أقرب، إلا أن المسافة كانت هائلة. اجتزت آخر مرحلة أقاوم فيها العياء

والخوف واليأس. أشعر وراء ظهري بابتسامة الرجل المشؤومة، وأحس فوقي بطيران الزواحف المجنحة الثقيل، وهي تحوم وتقترب، حتى تلامسني بأجنحتها.لم يكن مصدر خوفي لمساتها اللزجة الباردة وحسب، بل احتمال أن تنقض بمناقيرها المسننة، وتقتلع عيني. كنت أظن أنها تركتني أستنفد جهدي عبثاً، طيلة مسيرة بلهاء ومرهقة استغرقت سنوات، لكي تقوم، في الوقت الذي أعتقد فيه أن النهاية أصبحت في متناول يدي، باقتلاع عيني ومن ثم اقتلاع آمالي الحمقاء.

أخذ ذلك الشعور يراودني في الشوط الأخير من مسيرتي، وكما لو أن كل شيء كان مخططاً لإلحاق أكبر قدر ممكن من الأذى بي. وفكرت بوعي معقول: «لو اقتلعوا عيني منذ البدء، لما بقي لدي أي أمل، ولما حاولت الانخراط في هذه المسيرة الخطيرة عبر بحار مجهولة ومستنقعات قذرة».

شعرت أن وجه العجوز يشع ضرباً من سعادة ضارية عندما كانت تلك الأفكار تراودني. فأدركت أن كل ذلك حقيقي وأن أسوأ مصائب تلك المسيرة كان الآن بانتظاري. لم أكن راغباً في أن أنظر إلى الأعلى كما أن ذلك لم يكن ضرورياً: كنت بمسمعي أدرك أن الطيور أخذت تحوم بمناقيرها الضخمة الحادة قريباً من رأسي وأحس بخفقان أجنحتها الثقيل، أجنحة لا بد أن طولها يبلغ المترين، وأشعر بلمساتها العابرة الخفيفة المثيرة للاشمئزاز فوق وجنتي وفوق شعري.

لم يبق سوى القليل، القليل جداً لكي أصل إلى المغارة التي كانت تلوح من بين الظلال. كان ذلك الوحل اللزج يغطي جسمي وأنا أزحف على أطرافي الأربعة. كانت يداي تنفران وهما تلامسان باشمئزاز، أفاعيَ يغص بها المستنقع الشاسع، ولكن هول الرعب الذي كنت أعلم أنه ينتظرني، جعل ذلك كله يبدو أمراً لا يعتد به.

بيد أن إرهاقي تغلب في نهاية الأمر على اندفاعي اليائس فسقطت.

حاولت أن أحافظ على رأسي مرفوعاً خارج الطين، وأضع المغارة نصب عينيّ، بينما جسمي غارق في تلك المياه المثيرة للاشمئزاز.

وفكرت: «ينبغي أن أتنفس».

ولكنني فكرت أيضاً: «هكذا أحتفظ بالمغارة في مرمى نظري».

كنت أفكر بذلك، وكأنني مدان ملعون، محكوم علي بأن أتابع تلك العملية الرهيبة، ولا مناص من أن أستسلم لممارسة تلك «الطقوس».

وبينما أنا غارق في الوحل، قلبي يخفق بشدة والقذارة تغمرني وعيناي شاخصتان نحو الأمام وإلى الأعلى، رأيت كيف كانت الطيور الكبيرة تحوم فوق رأسي. شعرت بأحدها يهبط من الخلف، كان هائلاً، ورأيته قريباً مني، يهوي نحو الغرب، ثم يعود نحوي ثانية، يخفق بجناحيه وهو يحط فوق الوحل أمام رأسي، منقاره حاد كالخنجر، وملامح وجهه تنم عن تلك النظرة المجردة التي يتصف بها العميان. لم تكن له عينان: استطعت أن أميز محجريه الفارغين. كان يبدو كأنه أحد الآلهة القديمة في اللحظة التي تسبق تقديم الذبيحة.

شعرت بذلك المنقار يدخل في عيني اليسرى، وشعرت للحظة بأن مرونة البؤبؤ المطاطي تقاومه، وأحسست كيف انغرز بحدة مؤلمة، وكيف بدأ السائل يجري على خدي بينما كنت ـ لأسباب لم أتوصل إلى إدراكها بعد، لأنها ليست منطقية ـ احتفظ برأسي مرفوعاً بالاتجاه نفسه دائماً. وكأنني أود تسهيل تلك العملية اللعينة. مثلما نفعل، رغم الألم، عندما ندع فمنا ورأسنا بين يدي طبيب الأسنان.

وفيما كنت أحس بماء عيني ودمها يسيلان فوق خدي الأيسر، فكرت: «يتعين عليّ الآن أن أعاني الآلام في العين الأخرى»، وما أتذكره

أثار دهشتي، فالطير الكبير تراجع قليلاً بعد أن فرغ من عمله في العين اليسرى بهدوء وبلا بغضاء حسبما أظن، وبدأ منقاره ينفّذ العملية ذاتها في عيني اليمنى، وبدأت ثانية أشعر بتلك المقاومة الخفيفة العابرة في بؤبؤ عيني ثم انغراز المنقار بحدة مؤلمة وانسياب السائل الصافي والدم على خدي: سائلان مختلفان تماماً، سائل العين الصافي الخفيف البارد، والآخر، الدم الساخن اللزج.

ثم طار الطائر الضخم بعد ذلك، وطارت خلفه بقية الطيور، وسمعت كيف أخذت أجنحتها تخفق، ثم تتوارى بعيداً عني. وفكرت: (ها إن أسوأ ما يمكن أن يحدث قد حدث).

لم أعد أرى الآن شيئاً. ولكن، برغم الآلام الهائلة، وبرغم ما كنت أحس به آنئذ من اشمئزاز غريب من نفسي، لم أتراجع عن قصدي في استمرار الزحف باتجاه المغارة.

ولقد قمت بذلك بمشقة بالغة.

وشيئاً فشيئاً بدأ جهدي يتكلل بالنجاح: كان المستنقع قد اختفى من تحت رجليّ ويديّ، وفجأة أوحى ذلك الصمت الغريب والإحساس بالثقة والأمان بأنني، في نهاية المطاف، دخلت المغارة. وتداعيت لأستغرق في النوم.

23

عندما استعدت الوعي، كان يسيطر علي إعياء شديد، كأنما قمت في أحلامي بإنجاز أعمال هائلة.

كنت ملقى على الأرض لا أهتدي إلى معرفة المكان الذي كنت فيه؛ أشعر بثقل في رأسي وأنظر إلى ما حولي وأحاول إن أتذكر: افترضت أنني وصلت، كما حدث في مناسبات أخرى، إلى غرفتي ثملاً ثم سقطت فاقد الوعي.

كان يتسلل إلى الغرفة، ضوء الصباح شاحباً، من مكان ما. حاولت أن أرفع رأسي، ثم تفحصت ببطء وصعوبة المكان المحيط بي.

كدت رغم إرهاقي أن أقفز: إنها العمياء..!.

أدركت ما حدث بسرعة: إيجليسياس، الشخص الذي يشبه بيير فريسناي، حديقة حي بلغرانو، الممر السري. بذلت جهداً خارقاً لكي أتمكن من النهوض، أمعنت النظر بسرعة هائلة في وضعي، وفكرت كيف سأخرج منه.

تمكنت من أن أقف على قدمي.

بقيت (العمياء) محافظة على موقفها الرصين كما رأيتها أول مرة، حين رفعت ضوء مصباحي وسط الظلمة. أكنت أعاني من مجرد وهم آنيّ خادع؟. هل بدأ ذلك الكابوس عندما سقطت مغمى علي..؟.

حاولت، في ضوء الفجر، أن أرسم مخططاً مجملاً لما يحيط بي:

كانت غرفة عادية، فيها سرير، ومنضدة (منضدة عمل؟.)، وكرسي، ومقعد، ومجموعة صوتية «ستريو». استرعى انتباهي عدم وجود لوحات أو صور، مما أكد لي عمى قاطنيها.

كان الباب الذي يأتي منه ضوء الفجر يتصل ولا شك بغرفة أخرى تطل على الشارع، ربما كانت ما افترضته في تأملاتي السابقة مشغل خياطة. وكان ثمة باب جانبي، ربما يؤدي إلى الحمام. نظرت نحو الخلف: نعم، هنا كان الباب الصغير، وكدت أتمنى ألا يكون ذلك المدخل السخيف القزم، الذي سبب لي الرعب، موجوداً.

استغرقت تلك العملية الإحصائية كلها بضع ثوان.

كانت العمياء أمامي تلوذ بالصمت.

ساهم في مضاعفة جزعي أمران: الأول تذكري الآن بوضوح هائل، أنها هي التي كانت تنتظرني أمام الباب الصغير المغلق الذي دخلت منه. والثاني الذي لا يمكن تصوره سكونها هذا المبهم المتوعد.

تساءلت عما كان بوسعي أن أفعل، وعما يمكنني أن أقول من كلمات تنطوي على أقل قدر من الحماقة وأكبر قدر من قابلية التصديق. فتمتمت:

ـ اعذريني، دخلت لأسرق فأغمي علي عندما رأيتك.

أدركت وأنا أتكلم، كم كانت تلك الكلمات سخيفة. لعلها تصلح لإقناع قاطن عادي في بيت عادي، ولكن كيف يمكنني إقناع العمياء بمثل هذا الهراء؟. عمياء كانت بلا شك تنتظرني؟.

خلت أنني رأيت على وجهها تعبيراً ساخراً.

وبعد ذلك ذهبت، ثم، توارت وراء الباب الذي كان مفتوحاً وأغلقته وراءها، وسمعت صوت حركة المفتاح.

بقيت وحدي وسط الظلام، هرعت نحو الباب أتلمس إليه طريقي. أدرت قبضته، ولكن بلا جدوى، ثم سرت ألامس الجدار حتى وصلت إلى الباب الآخر من جهة اليمين فعالجته، لكن عبثاً، لأنه كان، كما افترضت، مقفلاً بالمفتاح أيضاً.

مكثت مكتئباً أستند إلى الجدار، يهيمن علي الخوف والشك، وتعصف فوضى من الأفكار برأسي.

لقد وقعت في شرك لا أستطيع منه خلاصاً.

لقد ذهبت (العمياء) لتأتي بالآخرين: سوف يقررون الآن مصيري.

لقد كانت (العمياء) بانتظاري، ولذلك فإنها كانت تعلم بوصولي. ولكن منذ متى؟.

كانت منذ أمس تعلم: نظام مراقبة كهربائي كان يسمح لهم بأن يراقبوا، من بعيد، حركة الباب ذي القفل.

كانت تعلم ذلك منذ اللحظة التي اكتسب فيها «إيجليسياس» قوى المحفل الخارقة. ثم، منذ اللحظة التي تمكن فيها من النفوذ إلى مقاصدي السرية.

كانت قبل ذلك تعلم: لقد أدركت الآن فجوة كبرى في بنياني السابق، فلم يخطر ببالي، نتيجة نسيان لا مسوغ له (نسيان؟.) أن ايجليسياس عندما خرج من المستشفى، ذهب إلى نزل دله عليه ممرض إسباني، لأنهم، كما قال، سيعتنون به جيداً هناك.

وقد تأكدت في تلك اللحظة المشرقة، على نحو مخيف ومضحك في الوقت ذاته، أنني حين كنت أصر بغطرسة على مكري، كانت الطائفة تراقبني من قرب، ولم تكن وسيلتها إلى ذلك سوى السيدة المثيرة للضحك إيتشيباريبوردا.. كم بدا لي حينذاك أمراً مثيراً للسخرية،

التفكير بأن تلك التحف الرخيصة، واللافتات، والصور المخادعة للزوجين ايتشيباريبوردا، لم تكن سوى مهزلة حسنة الإخراج..!.

وفكرت خَجِلاً: إنهم لم يحتاجوا إلى خداعي على نحو أشد مكراً، أو لعلهم كانوا يودون، إلى جانب خداعي، جرح كبريائي بخدعة تثير فيما بعد سخريتي من نفسي أيضاً.

24

لست أدري كم ساعة مكثت في ذلك السجن، تحيط بي الظلمة والريبة.

وقد بلغ السيل الزبى حين أخذت إخال أن الهواء لا يكفيني، وكان ذلك أمراً طبيعياً، إذ لم يكن في تلك الغرفة الملعونة منفذ للتهوية سوى شقوق الباب: استطعت أن أتأكد أن تياراً ضعيفاً جداً من الهواء كان يدخل إليها من الباب الذي يؤدي إلى الغرفة الأولى، أكان يكفي لتجديد الأوكسجين؟. يبدو أنه لا يكفي، لأن ما أحسست به كان شعوراً متزايداً بالاختناق، وإن كان أمراً ممكناً أن ذلك الشعور يعود، كما فكرت، إلى أسباب نفسية.

ولكن ماذا لو كانت فكرة الطائفة دفني حياً في تلك الغرفة المغلقة..؟.

تذكرت فجأة إحدى الحادثات التي اكتشفتها أثناء بحثي الطويل. عندما كان العجوز إيتشاغوي لا يزال حياً، كان يستغِّل إحدى خادمات دارته الكائنة في شارع «غيدو» أعمى، دفعها إلى العمل مومساً أيام العطل في حديقة رتيرو. دخل في خدمة المنزل شاب إسباني عنيد للعمل كبواب في العام 1935، فأحب الفتاة وتمكن في نهاية الأمر من إبعادها عن ذلك الداعر، فعاشت أشهراً تعاني من شدة الرعب، إلى أن رأت شيئاً فشيئاً ما حاول البواب أن يجعلها تتوصل إلى إدراكه تماماً وهو أن

العقوبات التي يمكن أن يوقعها بها ذلك المستغل هي نظرية بحت. مضت سنتان. وعندما حل مطلع العام 1937، غادرت الأسرة الدارة لكي تقضي أشهر الصيف في الريف. كان الجميع قد خرجوا من المنزل إلا البواب والخادمة، فقد كانا يسكنان في الطبقة العليا، وظن الخادم العجوز خوان الذي يقوم بوظيفة رئيس الخدم، أن الجميع خرجوا، فقطع التيار الكهربائي، ثم خرج، وأغلق باب المدخل الكبير بالمفتاح. ولكن، في اللحظة التي قطع فيها خوان التيار الكهربائي، كان البواب وزوجته في المصعد. ولما عادت أسرة إيتشاغوي بعد ثلاثة أشهر، وجدت البواب والخادمة، اللذين كانا قد اتفقا على البقاء في بوينس أيرس أثناء العطلة، هيكلين عظميين في المصعد.

عندما روى لي إيتشاغوي هذه القصة، لم أكن أتصور أنني سأبدأ في يوم من الأيام، هذا البحث عن العميان. ولكنني بعد سنوات، عندما كنت أقوم بمراجعة تاريخية لسائر المعلومات التي تتصل، على نحو أو آخر، بهذه الطائفة، تذكرت الداعر الأعمى، وكنت مقتنعاً بأن ذلك الحادث الذي يعزى ظاهرياً إلى المصادفة كان أمراً صممته وخططت له الطائفة بإتقان. كيف أمكن ألا يجري أي تحقيق في الأمر؟.. حدثت إيتشاغوي، وجعلته يشاركني شكوكي. نظر إلي مندهشاً وأعتقد أنني لاحظت في عينيه المنغوليتين ما ينم عن السخرية، إلا أنه قبل ظاهرياً الاحتمال الذي ذهبت إليه وقال:

ـ وكيف يمكننا أن نتحقق من ذلك؟.

ـ هل تعلم أين يسكن خوان؟.

ـ يمكن أن نسأل غونسالس. أعتقد أن صلاته به ما زالت قائمة.

ـ حسناً. وتذكر ما قلته لك: إن ذلك الرجل متورط في القضية.

كان يعلم أنهما كانا في الأعلى، بل أكثر من ذلك: لقد راقب اللحظة التي هبط فيها المصعد، وعندما قدر أنهما أصبحا بين الطبقتين (كان كل شيء محسوباً، الساعة في يده، وخبراته السابقة) قطع التيار، أو أصدر أمراً بصرخة، أو إشارة. إلى الآخر الذي كان بالتأكيد، يضع يده على المفتاح.

ـ الآخر؟. أي آخر؟.

ـ وكيف تريدني أن أعلم؟.. آخر، أي عضو آخر في العصابة، ليس من الضروري أن يكون أحد خدم منزلك، وإن كان من الراجح أنه غونسالس.

ـ وإذاً فأنت تفكر بأن خوان كان ينتمي إلى عصابة لها علاقة بالعميان أو إن العميان يقودونها..؟.

ـ لا شك في ذلك أبداً. حقق في الأمر وسترى.

عاد ثانية يرمقني بنظرة تهكم عميقة. ولكنه لم يقل شيئاً سوى أنه سوف يقوم بالتحريات.

هاتفته بعد ذلك، وسألته إن كان لديه أنباء جديدة فقال إنه يود رؤيتي، وطلب أن نلتقي في إحدى الحانات. عندما وصل، لم يكن حاله كما كان من قبل: نظر إليّ مذهولاً.

سألته:

ـ والشهير خوان؟.

ـ ما زالت علاقة غونسالس به قائمة. قلت له إنني أود العثور على خوان فقال لي على نحو خلت أنه يثير الشبهة، إنه لم يره منذ مدة طويلة ولكنه سيحاول العثور عليه في منزل ليس متأكداً بعد، إن كان لا يزال يقيم فيه أم إنه رحل. وسألني إن كان الأمر هاماً أو عاجلاً. شعرت بأنه

كان يسألني بشيء من القلق، لم أدرك ذلك في تلك اللحظة، وإنما فيما بعد، عندما فكرت في الأمر. لقد ذهبت إليه خالي الذهن تماماً، وقلت له إنني كنت دائماً أتوق إلى معرفة الظروف التي وقع فيها حادث المصعد، وفكرت أن خوان، ربما يستطيع إيضاح الأمر قليلاً. كان غونسالس يصغي إلي بوجه لا يمكن إدراك ما يخفي وراءه، وجه لاعب «بوكر»، وجه كما بدا لي، بلا إحساس. ولقد فكرت في هذا أيضاً ـ لسوء الحظ ـ فيما بعد. إذ لو فكرت فيه في تلك اللحظة، لكنت قدته إلى مكان منعزل، وجذبته من ياقته وبضربتين أو ثلاث، حصلت منه على كل شيء. ومع ذلك، لا فائدة ترجى من رواية النهاية.

ـ ما هي النهاية؟.

شرب إتشاغوي ما تبقى في كوبه من قهوة وقال:

ـ لا شيء. لم أر غونساس بعد ذلك قط. اختفى من المقهى الذي كان يعمل فيه. يمكننا طبعاً، إن رغبت، أن نبدأ البحث مع الشرطة، والعثور ـ بعد معرفة مكان إقامته ـ على الاثنين معاً.

ـ ينبغي ألا يخطر لك ذلك أبداً. هذا كله ما أردت أن أعرفه. والباقي، أستطيع تصوره.

عدت الآن لأتذكر تلك القصة بدافع من نزوعي إلى تصور أشياء رهيبة، فكرت في تفاصيل الحادث. يستغرب البواب في البدء قليلاً عندما يرى المصعد يتوقف فجأة. يضغط على الزر مرة، ثم مرات. يفتح بابه الداخلي ويغلقه. ثم يصرخ لكي يغلق خوان الباب في الأسفل، إن كان قد فتحه. لا يجيب أحد. يصرخ بصوت أقوى (يعرف أن خوان ينتظر في الأسفل، لكي يخرج الجميع معاً)، لا أحد يجيب. يصرخ مرات عديدة، ثم يصرخ خائفاً. يمر بعض الوقت، ينظر أحدهما إلى

الآخر وكأنه يسأله ما الذي جرى. ثم يصرخ، وتصرخ هي، ثم يصرخان معاً. ينتظران قليلاً، وبعد ذلك يتشاوران: (لقد ذهب إلى الحمام، إنه في الخارج يثرثر مع «دمبرويسكي» البولوني بواب البيت المجاور. ذهب ليتفقد إن كان لا يزال أحد في البيت.. الخ). تنقضي خمس عشرة دقيقة، فيصرخان ثانية: لايجيب أحد. يصرخان بعد خمس دقائق أوعشر دقائق أخرى: ليس هناك من يجيب. ينتظران الآن وهما أشد قلقاً مرة أخرى، وينظر كل منهما إلى الآخر بجزع وخوف. لايود أي منهما أن يبوح بشيء ينم عن اليأس، ولكنهما يفكران أن الآخرين ربما ذهبوا جميعاً، وقطعوا التيار الكهربائي. ثم يبدأان عند ذلك بالصراخ، الواحد تلو الآخر، ثم سوياً: بقوة هائلة في البدء ثم بصيحات خوف، وبعد ذلك بعويل كعويل حيوانات مذعورة تحيط بها وحوش ضارية. يمتد العويل ساعات إلى أن يخفت شيئاً فشيئاً: ينشجان، يضربان بوهن متزايد جدار ما بين الطبقتين الصلب. يمكن تصور مشاهد مختلفة أخرى لاحقة: لعل الذهول خيم بعض الوقت، فمكثا وسط الظلمة صامتين بلا وعي، ولعلهما بعد ذلك تكلما، وتبادلا الآراء، وأعربا عن آمال ضئيلة: سيعود خوان. ذهب إلى الحانة في منعطف الشارع ليشرب كأساً، نسي شيئاً في البيت وسيعود ثانية: عندما يستدعي المصعد سيفاجأ بوجودهما وسيستقبلانه بالبكاء، وسيقولان له: (آه يا خوان لو تدري ما قاسينا من خوف). ثم، يخرج الثلاثة وهم يتحدثون عن الحلم المزعج ويضحكون من شدة فرحهم لأي حماقة تجري في الشارع. ولكن خوان لا يعود. لم يذهب إلى الحانة المجاورة، لم يتأخر لأنه يثرثر مع بواب الجوار البولوني: الحقيقة أن الساعات تمضي ولم يحدث أي شيء في تلك الدارة الهادئة الساكنة المهجورة. حينئذ سيكونان قد استعادا شيئاً من القوة فيبدأان بالصراخ، ثم بالعويل والنحيب، لينتهيا كما هو مفترض بأنات تفقد

معناها شيئاً فشيئاً. ويرجح أن يكونا قد انطرحا آنذاك في أرض المصعد، يفكران في استحالة أن يحدث أمر مرعب كهذا: وذلك مألوف جداً بين البشر. فعندما يواجهون الهول، يقولون: (هذا لا يمكن أن يحدث. لا يمكن أبداً). ولكن هاهو يحدث، ويبدأ الرعب يهيمن عليهما ثانية. وعند ذلك، يمكن أن تبدأ نوبة جديدة من الصياح والعويل. ولكن ما الفائدة..؟. إن خوان في طريقه الآن إلى الريف، لأنه مسافر مع مستخدميه، والقطار يغادر عند الساعة العاشرة مساءً. لن تفيدهما الصرخات في شيء. ولكن سائر البشر هكذا، تبقى لديهم ثقة حمقاء في الصراخ والعويل. وهذا ما تؤكده الكوارث الكثيرة. فهما رغم القليل النادر مما تبقى لديهما من قوة يعودان إلى الصراخ والنشيج لينتهيا بالأنين، كما هو الحال دائماً. ولكن ذلك لا يمكن أن يستمر: يأتي وقت يفقدان فيه كل أمل، وعندئذ ـ وإن بدا ذلك مضحكاً ـ يفكران في الطعام. ولماذا يأكلان؟. لإطالة أمد العذاب؟. كلاهما مطروح أرضاً في تلك الحظيرة القذرة وسط الظلام (إنهما يشعران، يلمس أحدهما الآخر). يفكران معاً بالأمر المخيف ذاته: ماذا سيأكلان عندما يستبد بهما الجوع إلى درجة لا تطاق؟. الوقت يمضي، ويفكران أيضاً بالموت الذي لابد أن يطالهما بعد عدة أيام. كيف سيكون؟. كيف يكون الموت جوعاً؟. يفكران في الماضي، تحضر إلى الذاكرة الآن ذكريات أيام سعيدة. تبدو لها تلك الأيام التي كانت تمارس فيها البغاء في حديقة ريترو رائعة: أيام مشمسة. والفتيان البحارة، المجندون الجدد، كانوا، أحياناً، طيبين يفيضون حناناً. تلك الأشياء، تبدو دائماً رائعة عندما تحين ساعة الموت، حتى وإن كانت خسيسة.

وهو، لا بد أن يتذكر أشياء من طفولته، ضفة نهر ما في «غاليسيا»، سيتذكر أغنيات قريته ورقصاتها. ما أسعد ذلك كله..!. ثم يعود،

وتعود، ويعودان كلاهما إلى التفكير: (وإن لم يكن ذلك مستحيلاً!.) تلك الأمور في الواقع لا تحدث، كيف يمكن أن تحدث؟. ولعل سلسلة جديدة من الصرخات تبدأ. ولكنهما الآن أضعف قوة، وأقل دواماً من السلاسل السابقة. ثم يعودان إلى التفكير والذكريات في «غاليسيا»، وأيام البغاء السعيدة، ثم، لماذا الانسياق وراء الوصف الدقيق؟. إن أي امرئ، مهما تضاءل خياله، يمكن أن يتصور ما حدث: جوع يستفحل، شكوك متبادلة، مهاترات، عتاب حول أمور مضت. لعله يود أن يأكل الخادمة.ولكي يبقى مرتاح الضمير، يبدأ بلومها على ما ارتكبت من بغاء: ألم تشعري بالخجل؟. ألم يخطر في بالك أن ذلك كان دنساً كله؟.. الخ.

ولكنه يفكر (بعد أن قضى يوماً أو يومين يتضور جوعاً) أنه يستطيع، على الأقل، أن يأكل ـ من دون أن يقتلها ـ قطعة من جسمها: لعله يستطيع أن يقلع إصبعاً أو إصبعين، أو أن يأكل أذنها. يجب ألا ينسى، من يود رسم صورة لذلك الحادث، أنه لابد لذينك المخلوقين من قضاء حاجاتهما الطبيعية، مما يجعل المكان أشد قذارة ونجساً وإثارة للاشمئزاز. ولكن، مع ذلك، هناك جوع وعطش يستفحلان. يمكن إطفاء العطش بشرب البول الذي يجمعانه بين يديهما لكي يشربانه بعد ذلك، كما هو معروف وثابت. لكن، والجوع؟. من الثابت أيضاً، أن أحداً لا يأكل أعضاء جسمه إن كان في متناول يده إنسان آخر. هل تذكرون حبس الكونت «اوغلينو»[1] مع أولاده؟. ثم، إنه لمن المحتمل أن أقول: من المؤكد، بعد انقضاء أربعة أيام أو ربما أقل، في حبس نتن ووحشي، حيث

(1) اوغلينودي لاجيرار ديسكا: سياسي من «بيزا» توفي في 1288، حاول الاستيلاء على السلطة فيها فاتهم بالخيانة وسجن في قلعة هو وأولاده وتركوا ليموتوا جوعاً. وقد اقتبس دانتي هذه الواقعة في الكوميديا الإلهية (المترجم).

الأحقاد متبادلة متزايدة، أن يأكل القوي الضعيف. فالبواب، والحالة هذه سيأكل الخادمة، ربما يأكل جزءاً منها أولاً، فيبدأ بأصابعها، بعد أن يسدد ضربة إلى رأسها، أو يخبطه على جدران المصعد، إلى أن يأكلها كلها.

يؤكد تصوري أمران: ثيابها المنتزعة مزقاً وجدت على الأرض بين القذارة. وكثير من أعضائها كانت أيضاً كذلك، وكأن الخادم آكل لحوم البشر ألقى بها هنا وهناك واحدة بعد الأخرى، بينما كان جسمه المتفسخ بهيكله العظمي، ملقى جانباً، ولكنه كامل.

لقد ذهبت بعيداً، وأنا في خضم قلقي، فتصورت أن مصيري قد يكون مقرراً منذ مغامرتي مع أعمى عظمات ياقات القمصان، وإنني كنت طيلة أكثر من ثلاث سنوات، أعتقد أنني أطارد العميان، في حين كانوا في الواقع، هم الذين يطاردونني. تصورت أن التحريات التي قمت بها لم تكن مقصودة ومن تدبير إرادتي المشهورة، وإنما حتمية، وأنني كنت ***محكوماً*** بأن أجري خلف رجال الطائفة، لكي أسير بذلك قدماً إلى حتفي، أو إلى ما هو أسوأ من حتفي.

ماذا كنت أعلم حقاً عما كان ينتظرني؟. أيكون الكابوس الذي رأيته نذيراً مبكراً؟. ألن يقتلعوا عيني؟. أتكون الطيور الكبيرة رموز العملية الفعلية الفظيعة التي تنتظرني؟.

وأخيراً، ألم أكن قد تذكرت في الكابوس، ما اقترفت في طفولتي من اقتلاع عيون قطط وطيور..؟. هل أنا مدان منذ طفولتي؟.

25

استولت هذه التصورات، ومعها ذكريات أخرى تتصل بتحرياتي عن العميان، في ذلك الحين، على تفكيري. كنت أعود ما بين لحظة وأخرى إلى التفكير في العمياء، وفي اختفائها، وفي سجني. وفيما كنت أمعن النظر في مأساة المصعد وصل بي الأمر، في إحدى اللحظات، إلى التفكير بأن عقوبتي يمكن أن تكون الموت جوعاً في تلك الغرفة المجهولة، ولكنني سرعان ما أدركت أن تلك العقوبة ستكون رحيمة جداً، إذا ما قورنت بالعقوبة التي فرضت على ذينك التعيسين. الموت جوعاً وسط الظلام..؟. دعك من هذا..!. وكدت أضحك من تفاؤلي.

خلت في إحدى لحظات التأمل، وسط الصمت المطبق أنني أسمع أصواتاً خافتة، عبر أحد الأبواب. نهضت بهدوء، وسرت حافياً، واقتربت من ذلك الباب الذي يفترض أن يؤدي إلى غرفة أخرى. قربت مسمعي بحذر شديد من ثقب المفتاح: لا شيء. ثم تلمست طريقي محاذياً الجدران، حتى وصلت إلى الباب الثاني، وقمت بالعملية ذاتها: بدا لي أن الذين كانوا يتحدثون أمسكو عن الكلام في اللحظة التي قربت فيها أذني من ثقب المفتاح. لاشك أنهم شعروا بتحركاتي، على الرغم من حذري. ومع ذلك مكثت مدة طويلة وأذني مشدودة إلى ثقب المفتاح، ولكن، استحال علي أن أسمع أي صوت أو حركة. وافترضت أن (مجلس العميان) كان منعقداً في الجانب الآخر، وتوقف منتظراً أن أقلع عن تلك الحماقة. وحين أدركت أنني لن أجني أي شيء من تلصصي سوى إثارة

أولئك الناس أكثر من ذي قبل، عدت أدراجي، إنما الآن بحذر أقل، لأنني قدرت أنهم عرفوا، في جميع الأحوال، ما كنت بصدده. استلقيت فوق السرير وعزمت على أن أدخن. ماذا كان بوسعي أن أفعل..؟. كنت متأكداً أن ذلك المجمع السري، سيعلن قريباً، قراره بشأني.

وكنت حتى تلك اللحظة أقاوم رغبتي، كي لا أستهلك الأكسجين الذي يحمله - كما قدرت - تيار الهواء عبر ثقوب الباب، ولكنني فكرت: أي أمر يمكن أن يحدث في مثل تلك الظروف أفضل من أن أموت مختنقاً بدخان لفافة؟. بدأت منذ تلك اللحظة أنفث الدخان بنهم، فأصبح الجو خائفاً أكثر من ذي قبل.

فكرت، وتذكرت سائر ضروب انتقام الطائفة، ثم، عدت إلى تحليل مسألة كاستيل[1] وهي مسألة لم تشتهر كثيراً بسبب المتورطين فيها وحسب، بل بسبب الأخبار التي تمكن القاتل من أن يبعث بها من مصح الأمراض العقلية إلى إحدى دور النشر، وأثارت القضية بالغ اهتمامي لسببين: إنني كنت أعرف «ماريا إيريبارني» من جهة، وكنت أعرف من جهة أخرى أن زوجها أعمى. كان من السهل تصور مدى اهتمامي بأن أتعرف «كاستيل»، ولكن من السهل أيضاً تقدير مدى الخوف الذي منعني من ذلك. لأن إقدامي على مثل هذا الأمر، كان بمثابة الدخول إلى فم الذئب. ماذا بقي لدي سوى قراءة روايته ودراستها بدقة؟. إنه يعترف: (كنت أمقت العميان دائماً). ذعرت عندما قرأت حرفياً تلك الوثيقة أول مرة. فهو يتحدث عن البشرة الباردة، والأيدي الرطبة وعن صفات أخرى مميزة للسلالة التي راقبتها أنا أيضاً، وأصبحت هاجسي. كالنزوع إلى العيش في الكهوف وفي الأماكن المظلمة. حتى أن بدني

(1) كاستيل بطل رواية أرنستو ساباتو(النفق) (المترجم).

اقشّعر من عنوان الرواية نظراً لما ينطوي عليه من معنى: (النفق).

كان أول ما خطر ببالي أن أهرع إلى مصح الأمراض العقلية، وأرى الرسام، لأستقصي مدى ما وصل إليه في تحقيقاته، ولكن سرعان ما أدركت أن فكرتي تنطوي على خطورة شبيهة بخطورة إشعال عود ثقاب في مستودع بارود أثناء التفتيش وسط الظلام.

لاشك أن جريمة كاستل كانت النتيجة الحتمية لانتقام الطائفة، ولكن ما هي ـ على وجه الدقة ـ الآلية التي استخدمت؟. لقد حاولت طيلة سنوات أن أفك رموزها وأحللها. ولكني لم أتمكن من تجاوز ذلك الإبهام الذي يهيمن تقليدياً، على أي عمل يخطط له العميان. وسأعرض هنا النتائج التي توصلت إليها. والتي تتشعب فجأة مثل ممرات متاهة.

كان كاستيل رجلاً معروفاً في الوسط الثقافي، في «بوينس أيرس». ولذلك فإن آراءه في أي أمر، لا بد أن تكون معروفة أيضاً. ويكاد يكون مستحيلاً، أن يبقى هاجس عميق ـ كالذي ترسخ لديه عن العميان ـ خافياً، ولذلك قررت الطائفة أن تعاقبه، بوساطة «أجنيدي» زوج ماريا إيريبارني.

يطلب أجنيدي من زوجته أن تذهب إلى القاعة حيث يعرض كاستيل آخر لوحاته. تبدي اهتماماً بإحداها، وتمكث بجانبها ـ على نحو مدروس ـ الوقت الكافي لإثارة انتباه «كاستيل»واهتمامه: ثم تختفي. تختفي.. كلمة تقال، وكما يحدث مع الطائفة دائماً، المطارد يُدفع، في الواقع، للمطاردة دفعاً، وتتم العملية على نحو يكون فيه سقوط الضحية بين يديه طال الزمان أو قصر أمراً حتمياً.

يعثر كاستيل في نهاية المطاف على ماريا ويهيم بحبها، ويطاردها كالمجنون (وكالأبله أيضاً) في السر وفي العلن، حتى إنه يذهب إلى منزلها، حيث يسلمه زوجها رسالة حب من ماريا. إن هذه الواقعة هي

مفتاح السر: هل يمكن تفسير قيام الزوج بمثل هذا التصرف، إلا بما كانت الطائفة تخطط له من أهداف مشؤومة؟. تذكروا أن كاستيل استاء من ذلك العمل الذي ليس له ما يسوغه. ما حدث بعد ذلك لا ضرورة لتكراره هنا: يكفي أن تتذكروا أن كاستيل ـ بدافع من جنون غيرته ـ يقتل «ماريا»، ويسجن في مصح للأمراض العقلية. المكان المناسب لبقاء خطة الطائفة طي الكتمان، بعيداً عن خطر الذيوع، إلى الأبد. من سيصدق ما يدلي به مجنون من حجج...؟.

إن كل هذا واضح، ولكن الإبهام والتيه يبدأان الآن، إذ تبرز البدائل الممكنة التالية:

1 ـ كان موت ماريا مقرراً لكي يؤدي إلى إدانة «كاستيل» بالحبس في المصح، ولكن «أجنيدي» الذي كان يحب زوجته فعلاً، ويحتاج إليها، كان يجهل الخطة. ومن هنا أتت كلمة «أيها الأحمق» التي نَعَتَ بها «كاستيل»، ونفاذ صبر ذلك الرجل في المشهد الأخير.

2 ـ كان موت ماريا مقرراً، وكان «أجنيدي» يعرف ذلك. هنا يرز احتمالان:

أ ـ إن «أجنيدي» قبل به صاغراً، لأنه كان يحب زوجته، ولكن تعين عليه أن ينال عقاب ذنب ارتكبه قبل عماه. ذنب نجهل ما هو، ولكنه نال جزءاً من العقوبة عندما ذهبت الطائفة ببصره.

ب ـ إن «أجنيدي» قبل به راضياً، لأنه لم يكن يحب زوجته بل كان يكرهها، وكان ينتظر أن ينتقم، على هذا النحو، منها بسبب خياناتها الكثيرة، ولكن كيف نوفق بين هذا الرأي، ونفاد صبر «أجنيدي» في المشهد الأخير؟. الأمر في غاية البساطة: عملية

مسرحية. مسرحية من وضع الطائفة لمحو آثار ذلك الانتقام.

وهناك أيضاً بعض بدائل البدائل، التي لا تستحق أن آتي على ذكرها الآن، لأن كلاً منكم، يستطيع بسهولة أن يختبرها على سبيل التجربة التي لا بد أن تكون مفيدة، فليس بوسع أحد أن يعلم أبداً كيف يمكن أن يقع في أحد حبائل الطائفة الغامضة ومتى.

وفيما يتعلق بي، فقد أدى ذلك الحدث الذي وقع، بعد وقت قصير من مغامرتي مع رجل عظمات ياقات القمصان، إلى إخافتي. مكثت مذعوراً، وقررت أن ألجأ إلى التضليل، فاستخدمت ـ ليس الزمان وحسب ـ إنما المكان أيضاً: غادرت البلاد. وقد يبدو هذا للكثيرين ممن يقرؤون هذا التقرير عملاً يتسم بالمبالغة. يضحكني دائماً قصور خيال أولئك السادة الذين يعتقدون أننا ـ لكي نصيب كبد الحقيقة ـ يجب أن نعطي للوقائع (نصيبها الواجب): يتصور أولئك الأقزام (لهم تصورهم أيضاً ولكنه تصور قزم) أن الحقيقة لا تتجاوز قاماتهم، وأنها ليست أعقد من عقولهم الذبابية. أولئك الذين يصفون أنفسهم بأنهم (واقعيون)، لأنهم ليسوا قادرين على رؤية ما هو أبعد من أنوفهم، ويخلطون ما بين الحقيقة و(دائرة ـ قطرها ـ متران) ومركزها في رؤوسهم المتواضعة. قرويون يضحكون استخفافاً مما لا يستطيعون فهمه، وينكرون كل ما هو خارج نطاقهم الشهير. وهم، بمكر الفلاح التقليدي، يعرضون إعراضاً قاطعاً عن أولئك المجانين الذين يأتونهم بخطط لاكتشاف أمريكا، ولكنهم عندما ينزلون إلى المدينة يشترون صندوق «البريد» ويميلون إلى اعتبار ما هو «سيكولوجي»، منطقي (كلمة أخرى من الكلمات التي تروق لهم..!.) وهكذا يتحول المألوف إلى معقول، بآلية كتلك التي يبدو فيها لرجل «لابوني»[1] أمراً مألوفاً تقديم امرأته لعابر سبيل، في حين يبدو ذلك لأوروبي ضرباً من الجنون. هذا النوع من الشطّار رفض باستمرار

وجود النقيض، والمدفع الرشاش، والجراثيم، والموجات الهرتزية.

واقعيون، لكنهم يتميزون برفضهم الحقائق المستقبلية (بالضحك، أو بالقوة، وحتى بالسجن ومصحات الأمراض العقلية).

هذا كي لا نقول شيئاً عن الحكمة السامية الأخرى.. (النسب الواجبة) وكما لو أن في تاريخ البشرية شيئاً هاماً لم يكن موضوع مبالغة، بدءاً من الإمبراطورية الرومانية وانتهاء بـ «دوستويفسكي».

ولكن، لندع هذه الترهات، ولنعد إلى ***الموضوع الوحيد الذي لا بد أن يهم البشرية***.

قررت أن أغادر البلاد. وعلى الرغم من أنني فكرت في البدء بأن أسافر عبر الدلتا، في أحد قوارب المهربين من معارف «ف»، وجدت بعد أن تأملت في الأمر ملياً، أنه سيستحيل عندئذ أن أنأى إلى مكان أبعد من الأورغواي. لم يكن ثمة من سبيل آخر سوى الحصول على جواز سفر مزور. تمكنت من العثور على المدعو «توركيتو ناصيف» وحصلت منه على جواز باسم «فيدريكو فيراري هارودي».من الجوازات الكثيرة التي تقوم عصابة بسرقتها، وتنتظر من هو بحاجة إليها. وقع اختياري على هذا الاسم، بسبب اختلاف حدث، منذ زمن، بيني وبين «فيراري هارودي» ولقد سنحت لي الفرصة الآن لأرتكب باسمه بعض الأفعال الدنيئة.

اعتقدت ـ برغم حصولي على الجواز ـ أنه من الأفضل أن أذهب إلى «مونتيفيديو» أولاً، عبر النهر، في أحد قوارب المهربين. وصلت إلى «كارميلو» وذهبت من هناك «بالباص» إلى «كولونيا» حيث ركبت «باصاً» آخر حتى وصلت إلى «مونتيفيديو».

(1) لا بونيا: منطقة أوروبية تقع في شمال الدائرة القطبية. يقطنها حوالي 35 ألف نسمة وتتقاسمها النروج، وفنلندا والسويد وروسيا (المترجم).

أشّرت على جواز سفري في القنصلية الأرجنتينية، وحجزت بطاقة سفر في شركة «إير فرانس» لأسافر بعد يومين. ماذا سأفعل في هذين اليومين من الانتظار؟. كنت قلقاً عصبي المزاج، تمشيت في شارع 18 تموز/ يوليو. دخلت إحدى المكتبات، ثم ذهبت لتناول عدة أكواب من القهوة، والـ «كونياك»، لكي أتمكن من مقاومة البرد القارس. ولكن، كان اليوم ينقضي ببطء لا يطاق: كنت تواقاً إلى وضع بحر محيط بيني وبين رجل عظمات ياقات القمصان.

دخلت إحدى دور السينما، ثم إحدى الحانات، ثم مكثت أخيراً في الفندق.وعندما حلقت طائرة إيرفرانس، في اليوم التالي، من مطار «كارّاسكو» بدأت أتنفس الصعداء.

وصلت مطار «أورلي» فكانت الحرارة خانقة (كنا في شهر آب/ أغسطس) كنت ألهث وأتصبب عرقاً. أحد الموظفين، الذي فحص جواز سفري، وهو من أولئك الفرنسيين الذين يبالغون في استخدام الإيماءات، في حين يعزون مثل ذلك إلى مواطني أمريكا اللاتينية، قال بمزيج من التهكم والتواضع:

ـ ولكن لا بد أنكم هناك معتادون على ما هو أسوأ من هذا. أليس كذلك؟.

ومن المعروف أن الفرنسيين منطقيون جداً، وآلية تفكير «ديكارت» الخدمات الجمركية هي: إن مارسيليا تقع في الجنوب، حيث تشتد الحرارة، وبوينس أيرس، التي تقع في أقصى الجنوب لا بد أن تكون الحرارة فيها جهنمية. مما يوضح، أي ضرب من الجنون يقود إليه المنطق: بشيء من العقلانية يمكن إلغاء القطب الجنوبي.

طمأنته (امتدحته) مثنياً على عبقريته، وقلت إننا في بوينس أيرس

نلبس باستمرار سترة كالزنوج، وإن ارتدينا أي لباس آخر يضنينا الحر الشديد. وبذلك وضع الرجل الختم على جواز سفري بحماسة، وأعطانيه مبتسماً: ***اذهب، اذهب*** لتتحضر قليلاً..!.

لم أكن قد أعددت خططاً محددة لما سأفعل في باريس، ولكن بدا لي أن الحذر يقتضي أن أقرر أمرين: أن أتصل أولاً بأصدقاء «ف» خوفاً من نضوب مواردي المالية، وأن أموه، كما هو الحال دائماً، ترددي على أصدقائي (؟.) في «مونبرناس» و«الحي»: تلك المجموعة من الكاتالونيين، والإيطاليين، واليهود البولونيين، واليهود الرومان، الذين يشكلون «مدرسة باريس».

ذهبت للإقامة في نزل في شارع «دوسوميرار»حيث أقمت قبل الحرب، ولكن وجدت أن صاحبة النزل لم تعد مدام «بينار». كانت هناك سيدة بدينة أخرى تقوم من غرفة البواب بمراقبة دخول وخروج طلاب وفنانين فاشلين وداعرين ممن لا يشكلون سكان ذلك النزل وحسب، بل المادة التي لا تهدأ لثرثرة البوابة وفلسفتها.

استأجرت غرفة في الطبقة الثالثة. ثم خرجت أبحث عن معارفي.

ذهبت إلى مقهى الـ «دوم» فلم أرَ أحداً. وقيل لي إنهم رحلوا إلى مقهى آخر. حصلت على معلومات عن «دومينغس». وذهبت لأبحث عنه في مرسمه الذي يقع الآن في «غراند شوميير».

ولكن من الملاحظ أنني لا أستطيع أن أقوم بشيء، إلا ويقودني في نهاية المطاف إلى «النطاق المحرّم» بل أكثر من ذلك: يبدو أن حاسة شم لا تخطئ تقود خطاي إليه بلا تردد. قال لي «دومينغس» وهو يريني قطعة قماش، إنها صورة «موديل عمياء». ثم ضحك. إنه يحب مثل تلك الأعمال الشريرة.

ووجدتني أتداعى فأجلس.

قال:

ـ ماذا دهاك؟. لقد امتقع وجهك.

أتى بكأس من الـ «كونياك» فقلت له:

ـ المشكلة أن معدتي تؤلمني.

خرجت، بعد أن قررت ألا أعود إلى المرسم ثانية. ولكنني أدركت في اليوم التالي ـ كما تبرهن السلسلة التالية ـ أن ذلك أسوأ ما يمكن أن أفعله:

1 ـ إن دومينغس سيستغرب من اختفائي.

2 ـ سيبحث في ذاكرته عما يمكن أن يفسر له الأمر: فيجد الواقعة الوحيدة: كاد يغمى علي عندما أراني قطعة القماش التي رسم عليها صورة العمياء.

3 ـ يسترعي الأمر انتباهه فيرويه، ويردده على مسامع العمياء بخاصة.

وهذا أمر ممكن جداً، ممكن تماماً. ويترتب عليه ما يلي:

ـ تسأل العمياء عن شخصي.

ـ تبحث عن اسمي ولقبي، وأصلي، وما إلى ذلك.

ـ تتصل مباشرة بالطائفة.

والباقي واضح: تتعرض حياتي إلى الخطر ثانية، ويتعين عليّ أن أتبخر من باريس، ربما إلى أفريقيا، أو إلى «غرونلانديا».

وكان قراري ما تصورتموه، وما يتوقعه أي إنسان ذكي: ليست هناك وسيلة للتمويه سوى العودة إلى مرسم «دومينغس»، وكأن شيئاً لم يحدث، وإن تعرضت لخطر لقاء العمياء.

بعد سفر طويل ومكلف، عدت لأواجه مصيري.

26

إشراق عجيب أحظى به في هذه اللحظات التي تسبق موتي.

ألاحظ بسرعة أموراً أود تحليلها إن إمهلوني:

عميان مصابون بالبرص.

قضية «كليتشي»، جاسوسة في المكتبة.

نفق بين قبو «سان ـ جوليان المسكين» ومقبرة الأب «لاشيز»، «جان بيير».

احذروا.

27

هذيان مطاردة..!. دائماً الواقعيون، أصحاب «النسب الواجبة» المشهورون. عندما يقدمون في نهاية المطاف على حرقي بالنار سوف يقتنعون عندئذٍ. كأنما لابد من قياس قطر الشمس بالمتر لكي يصدقوا ما يؤكده الفلكيون.

ستكون هذه الأوراق شاهداً.

غرور *ما بعد الموت*؟. ربما: إن الغرور عجيب حقاً، وهو يفتقر إلى «الواقعية» إلى حد يقودنا معه إلى الاهتمام بما سيفكرون به عنا بعد أن نموت وندفن.

ذلك ضرب من البرهنة على خلود النفس؟.

28

يا لها من عصابة أوغاد حقاً..!. لكي يصدقوا إنساناً يحتاجون إلى أن يحرقوه بالنار أولاً.

29

عدت إلى المرسم إذاً. يدفعني الآن، بعد أن قررت العودة، ضرب من الشوق الجامح. وما إن وصلت حتى طلبت إليه أن يحدثني عن العمياء. ولكن دومينغس كان ثملاً، فبدأ، كعهدي به عندما يفقد السيطرة على نفسه، يكيل لي الشتائم. تجهم وجهه وتقوقع جسمه الضخم بعد أن حوله الكحول إلى غول مريع.

كان في اليوم التالي وديعاً يرسم بهدوء. وتبدو عليه سيماء ثور.

سألته عن العمياء، قلت له إنني تواق إلى رؤيتها، ولكن من دون أن تعلم بوجودي. عدت إلى البحث إذاً، ولكن بعد وقت أطول مما كان منتظراً، فقد كانت مسافة خمسة عشر ألف كيلو متر تعادل، في جميع الأحوال، سنتين من الزمن. هذا ما فكرت فيه بغباء في تلك اللحظات. لا فائدة ترجى من القول إنني لم أبح بشيء لدومينغس عن تلك الأفكار السرية. ادعيت الفضول، مجرد فضول جامح.

قال لي إنه يمكن أن يتركني في الأعلى لأسمع وأرى ما طاب لي. أفترض أنكم تعرفون بنية مرسم الرسام: مساحة مسقوفة، عالية جداً. توضع في الأسفل منصة الرسم وخزانة اللوحات، وفراش لجلوس «الموديل» ومناضد ومقاعد للأكل والجلوس.. وما إلى ذلك. ويوضع على سقيفة خشبية جانبية ترتفع حوالي مترين، سرير النوم. كان مرصدي هناك: لو أنه بني خصيصاً لمهمتي، لما كان أفضل.

كنت تواقاً إلى تلك الفرصة، وبينما كنا ننتظر العمياء، تحدثت و دومينغس عن الأصدقاء. تذكرنا متّى الذي كان في نيويورك، واستيبان فرانسيس، وبريتون، وتريستان تزارا، وبيريت، ماذا كان يفعل مارسيل فيري؟[1] (أتذكر تماماً أنني لم أسأله آنذاك عن فيكتور برونر: (القدر يعمينا..!.)، إلى أن سمعنا قرع الباب إيذاناً بوصول «الموديل». هرعت إلى السقيفة، حيث كان سرير دومينغس منكوشاً وقذراً، كعهدي به دائماً، وبدأت أستعد بصمت لأشهد من موقعي، أموراً عجيبة، ذلك أن دومينغس ذكر لي، أنه كان أحياناً، (لا يجد مفراً) من مضاجعة العمياء لأنها كانت شبقة جداً.

ما إن رأيت المرأة في عتبة الباب حتى اعترتني قشعريرة جليدية انتفض منها بدني. يا إلهي..!. لم أستطع أن أتعود قط، رؤية أعمى، من دون أن يقشعر بدني.

كانت متوسطة الطول، نحيلة القامة، ولكن حركاتها تفصح عن غلمة قطة شبقة. ذهبت مباشرة، ومن دون مساعدة أحد، حتى المنصة، وتعرت. كان جسمها بضاً جذاباً. ولكن حركاتها الرشيقة كانت أشد جاذبية.

كان دومينغس يرسم، وهي تتحدث وتكيل الشتائم لزوجها، ولم يثر ذلك اهتمامي إلا حين أدركت أن زوجها أعمى أيضاً: أحد الشروخ التي كنت أبحث عنها دائماً...!. أمة معادية، تبدي لمن ينظر إليها من بعيد، مظهراً صلباً لا يمكن النفوذ إليه، كراهية وحقداً، ورغبة في الانتقام. إن التجسس، في غير هذه الحالة، يكاد يكون مستحيلاً، كما أن التواطؤ مع

(1) الأسماء التي أتى الكاتب على ذكرها هنا، تعود إلى أدباء أو فنانين ينتمون إلى المدرسة السوريالية (المترجم).

العدو في البلدان المحتلة، لا يكاد يكون موجوداً.

وطبيعي أنني لم أتهالك على ذلك الشرخ فرحاً، فقد كان من الضروري، قبل ذلك، أن أبحث:

أ ـ إن كانت تلك المرأة تجهل فعلاً وجودي وحضوري.

ب ـ إن كانت تكره زوجها فعلاً (يمكن أن تكون مكيدة لاصطياد جواسيس).

ج ـ إن كان زوجها أيضاً، أعمى فعلاً.

لقد اختلط الالتباس الذي دار في رأسي ـ عندما أعربت العمياء عن تلك الكراهية ـ بما فاضت به مشاعري حين رأيت المشهد الذي حدث بعد ذلك. فقد قام دومينيغس ـ بما انطوت عليه نفسه من سادية وشر ـ باستغلال عمى تلك السيدة، وفعل بها آلاف الأفاعيل القذرة، فكانت تبحث عنه، وتتلمس طريقها إليه، وحتى إنه أومأ إلي كي أساهم بدوري معه، ولكن لما كنت بحاجة إلى رعاية تلك الفرصة رعايتي لكنز، لم أكن على استعداد لتبديدها وإضاعتها لمجرد إشباع نزوة جنسية عابرة. استمرت الملهاة التي انحطت، فيما بعد، إلى صراع جنسي غريب ومخيف، بين مخلوقين أصيبا بمس من جنون، يصرخان، ويتعاضان، ويتخامشان.

لا. لم يخامرني الشك بأنها كانت أصيلة، وهو أمر يكتسي أهمية بالغة فيما يتعلق بالبحث الذي سأقوم به فيما بعد. ورغم معرفتي بأن المرأة تستطيع أن تكذب، حتى في أشد اللحظات انفعالاً، فقد كنت أميل إلى التفكير بأنها كانت صادقة في حديثها عن الأعمى. ولكن كان يجب أن أتأكد.

عندما أخذا يثوبان إلى رشدهما وسط فوضى المرسم (لأن الأمر لم يقتصر على الصراخ والعويل وحسب: بل كان دومينغس يطارد العمياء

هائجاً، ويثيرها بالشتائم وبأشياء فظيعة)، مكثا وقتاً طويلاً صامتين. ثم ارتدت بعد ذلك ملابسها، وقالت كأنها موظفة تغادر مكتبها (إلى اللقاء غداً). لكن دومينغس لم يرد عليها، بل بقي في الفراش عارياً نعساناً. أما أنا، فقد كنت أقبع في مرصدي على نحو مثير للضحك. وقررت، في نهاية الأمر، أن أنزل.

سألته إن كان زوجها أعمى فعلاً، وإن كان قد رآه من قبل، وإن كانت حقاً تكرهه على النحو الذي أعربت عنه.

كان ما قاله دومينغس جواباً عن أسئلتي، هو أن إحدى وسائل التعذيب التي تفتقت عنها قريحة تلك المرأة، كانت اصطحاب عشاقها إلى الغرفة حيث تعيش وزوجها، ومضاجعتهم بحضوره. ولما لم أفهم كيف يمكن أن يحدث ذلك، أوضح لي أن الأمر كان ممكناً، لأن الرجل لم يكن أعمى وحسب، بل مشلولاً أيضاً. وكان، وهو يجلس على الكرسي ذي العجلات، يخضع للتعذيب المنظم الذي ابتدعته.

سألته:

ـ ولكن كيف؟. ألا يستطيع أن يحرك الكرسي؟. ألا يستطيع مطاردتهما في الغرفة؟.

كان دومينغس يتثائب وفمه مفتوح كالكركدن حينما أومأ برأسه علامة النفي.لا: كان الأعمى مشلولاً شللاً كاملاً، وكل ما كان يستطيع فعله هو أن يحرك زوجاً من أصابع يده اليمنى قليلاً، ويهمهم ويتأوه. وعندما كان المشهد يصل إلى اللحظة الحاسمة، كان الأعمى يحرك، كالمجنون، بعضاً من سلاميات إصبعيه، ولساناً كقطعة من العجين، ليصدر بعض الصرخات.

ولكن. لماذا كانت تكرهه إلى هذه الدرجة؟. لم يكن دومينغس يعلم.

30

ولكن لنعد إلى العمياء. ما زال بدني حتى الآن يقشعر عندما أتذكر تلك العلاقة العابرة معها، ذلك إنني لم أكن قريباً من الهاوية مثلما كنت في تلك اللحظة.

كم من معين للطيش والبلاهة، ما زالت نفسي تزخر به..!. أنا الذي أعتبر نفسي حذراً كنمر جبلي، ولا أخطو خطوة قبل أن أفحص موضع قدمي، وأدعي أنني مفكر عاقل يكاد يكون معصوماً، تباً لي ما أتعسني.

لم أجد صعوبة في إقامة علاقات مع العمياء. (كمن يقول، بمنتهى البلاهة، «لم أجد صعوبة في أن يحتالوا علي»)، وجدتها في مرسم دومينغس خرجنا سوياً، تحدثنا عن المناخ، وعن الأرجنتين، وعن دومينغس. كانت تجهل طبعاً أنني كنت يوم أمس حاضراً أراقبهما من المرصد. قالت لي:

ـ نعم الرجل، أحبه كما أحب أخي.

وذلك أكد لي أمرين: الأول أنها كانت تجهل وجودي في المرصد. والثاني أنها كذوبة. وهذه النتيجة الأخيرة جعلتني أحذر اعترافاتها المستقبلية: كل شيء يجب أن يفحص ويمحص. كان لابد أن يمر بعض الوقت ـ القصير كماً، المعتبر كيفاً ـ لكي أدرك أن الريبة تكتنف النتيجة الأولى. بحدس منها؟. أبتلك الحاسة السادسة التي تسمح لهم بتكهن

وجود أحد؟. أم بالتواطؤ مع دومينغس؟. سأقول لكم فيما بعد، ولكن دعوني الآن أتابع رواية الوقائع.

إنني بالغ القسوة، لا أرحم نفسي، ولا أرحم أحداً من بني البشر. ما زلت حتى الآن أسأل نفسي: هل مجرد هوسي بالطائفة فقط قادني إلى تلك المغامرة مع «لويز»؟.وأتساءل مثلاً: حين وصل بي الأمر إلى مضاجعة عمياء مريعة، هل فعلت ذلك بدافع من روح علمية أصيلة كما يفعل أولئك الفلكيون الذين يقضون ليالي شقاء طويلة تحت القباب يرتعدون من البرد ليسجلوا مواقع النجوم وهم مضطجعون على أسرّة خشبية؟. أسرّة لو كانت مريحة لأدركهم النوم، لكن هدفهم الذي يجرون وراءه، ليس النوم وإنما الحقيقة. أما أنا، فبالطيش وغلمة الشبق أرخيت العنان لنفسي لأنجرّ إلى مواقع يترصدني فيها الخطر في كل لحظة، واستهنت بالأهداف الكبيرة والهامة التي وضعتها، طيلة سنوات، نصب عيني.

إنه لمن المستحيل أن أميز الآن ما كان ينطوي عليه الأمر آنذاك من روح بحث خالصة، ومن متعة جسدية جامحة، وأقول كذلك، إن تلك المتعة كانت مفيدة للغوص في أسرار الطائفة. فهي كانت تسيطر على العالم بوساطة قوى الظلام، فما الذي سيكون أفضل من الغوص في أهوال الجسد والروح لدراسة حدود تلك القوى ونطاقها ومداها ؟. لا أقول الآن شيئاً مما أنا في هذه اللحظة متأكد منه تماماً، إنني أفكر، وأحاول أن أعرف، بعيداً عن متعة نزواتي، إلى أي مدى خضعت في تلك الأيام إلى هذه النزوات، وإلى أي حد حظيت بالإقدام والشجاعة، لكي أقترب من قلب الحقيقة وأغوص فيها.

لا يحتاج الأمر إلى الغوص في تفاصيل الصفقة القذرة التي عقدتها مع العمياء، ذلك لن يضيف شيئاً ذا بال إلى التقرير الذي أود أن أتركه

لباحثي المستقبل، إنه تقرير أرغب في أن تكون علاقته بذلك النوع من البيانات، مثل علاقة الجغرافيا الاجتماعية في إفريقيا الوسطى بوصف عمل من أعمال آكل لحوم البشر. وسأكتفي بالقول إنني لو عشت خمسة آلاف سنة، لما استطعت أن أنسى حتى مماتي قيلولات ذلك الصيف؛ مع تلك الأنثى المجهولة، المتعددة كأخطبوط، البطيئة المدققة كبزاقة، الطرية الشريرة كأفعى كبيرة، المكهربة الهذاءة كقطة ليلية. بينما الآخر جالس في كرسيه، مشلولاً عاجزاً كئيباً، يهز إصبعي يده اليمنى ويتمتم بلسان كخرقة بالية، هات نرَ أي شتائم وأي تهديدات بلهاء (ولا فائدة ترجى منها) يطلق يا ترى. حتى حوّلتني مصاصة الدماء تلك، بعد أن امتصت دمي كله إلى مايشبه إحدى الرخويات المشوهة المثيرة للاشمئزاز.

لندع هذا الجانب من المسألة، ولنفحص الوقائع التي تعني التقرير، والدلالات التي يمكن أن تلقي ضوءاً على العالم المحرم.

كان واضحاً أن أولى مهماتي: استقصاء طبيعة كراهية العمياء لزوجها، وعمقها. فهذا الشرخ كان، كما قلت، أحد السبل الممكنة، التي كثيراً ما بحثت عنها. ولا حاجة بي إلى القول إن ذلك الاستقصاء لم يكن بتوجيه سؤال مباشر إلى لويز، لأن سؤالها على هذا النحو لا بد أن يسترعي الانتباه ويثير الشكوك، إنما كان حصيلة محادثات طويلة حول الحياة بصورة عامة، ثم التحليل الذي أقوم به بعد ذلك في سكون غرفتي لإجاباتها وأحاديثها، وصمتها وترددها. وهكذا استنتجت، مستنداً إلى قاعدة صلبة، أن ذلك الرجل كان زوجها حقاً، وأن الضغينة كانت بالغة العمق، وكشفت عنها فعلاً تلك الفكرة الشريرة بأن تضاجع عشاقها أمامه.

قلت: (كشفت عنها فعلاً)، لأن أول ما ارتبت فيه طبعاً، هو أن

يكون الأمر مجرد ملهاة، هدفها الإيقاع بي، وفق الخطة التالية:

أ ـ كراهية للزوج.

ب ـ كراهية للعميان بصورة عامة.

ج ـ انفتاح قلبي..!.

كانت خبرتي تحذرني من شرك نصب بمهارة، والوسيلة الوحيدة لضمان السلامة، تكمن في الاستقصاء عن أصالة ذلك الحقد. كان العنصر الذي اعتبرت أنه ملائم جداً، هو نمط عماه. فقد الرجل بصره عندما كان كبيراً، أما «لويز» فكانت عمياء بالولادة. ولقد بينت أن العميان بالولادة يكنّون كراهية لا ترحم للوافدين الجدد.

جرت أحداث القصة كما يلي: تعارفا في مكتبة العميان، وتحابا، ذهبا للعيش معاً، ثم بدأت سلسلة من المناقشات سببتها غيرته، وانتهت بشتائم ومهاترات.

لم تكن تلك الغيرة ـ برأي «لويز» ـ تستند إلى أي أساس، لأنها كانت تحب «غاستون»: الرجل اللطيف القدير. ولكن غيرته وصلت إلى حد غير معقول، وأدت به إلى أن يقرر في أحد الأيام أن ينتقم من العمياء فربطها إلى السرير واتى بامرأة ليضاجعها أمامها. وأقسمت «لويز» وهي في أوج غضبها أن تنتقم. بعد أن مضت بضعة أيام، وفي اللحظة التي خرجا فيها معاً من الغرفة (كانا يسكنان في غرفة في الطبقة الرابعة، ومعروف أن المصعد في مثل تلك الفنادق الباريسية، يستخدم للصعود فقط)، وحين أصبحا أمام السلم تماماً، دفعته. سقط و هوى حتى الطبقة الأرضية، وكان من نتيجة ذلك الحادث أن أصيب بالشلل. وعندما شفي، كان الحقد هو الحاسة الوحيدة التي بقيت لديه سالمة.

ولما كان معزولاً عن العالم الخارجي، لا يستطيع أن يتكلم أو يكتب،

لم يهتم أحد قط بحقيقة ما جرى، وصدّق الجميع رواية «لويز» عن حادثة السقوط، التي يمكن جداً، أن يتعرض لها أي أعمى. كان (غاستون) بما يعانيه من عجز عن إعلان الحقيقة، ومن عذاب من تلك المشاهد التي تنفذها «لويز» انتقاماً منه، يبدو كأنه حبيس تلك القوقعة الصلبة، بينما جيش من النمل يقوم بنهش لحمه الحي كلما علا صراخ العمياء في أحضان عشاقها.

عندما تأكدت من أصالة الكراهية، أردت أن أمضي قدماً لأتقصى شيئاً أكثر من ذلك عن «غاستون»، وبينما كنت في إحدى الليالي أفكر في وقائع ذلك اليوم، سرعان ما راودني الشك. ماذا لو كان ذلك الرجل قبل عماه أحد الأشخاص المجهولين الجريئين الأذكياء العنيدين الذين ما انفكوا يحاولون منذ آلاف السنين النفوذ إلى العالم المحرم؟. أليس ممكناً أن تكون الطائفة، بعد أن ذهبت ببصره، كمرحلة أولى من العقاب، قد أسلمت أمره لانتقام العمياء الفظيع الأبدي، بعد أن جعلتهما يتحابان؟.

وتصورت نفسي للحظات، حبيساً في تلك القوقعة حياً، ذكائي يتألق ورغباتي تتفاقم، وأحقادي تتأجج، أسمع المرأة التي أحببتها يوماً ما، تئن وتصرخ بين أحضان عشاقها واحداً بعد الآخر. ليس بوسع أحد أن يبتكر تعذيباً كهذا، سوى هؤلاء الناس.

نهضت مذعوراً، لم أذق طعم النوم في تلك الليلة. كنت ألف وأدور في غرفتي طيلة ساعات، أدخن وأفكر. كان لا بد من مواصلة البحث في تلك الإمكانية على نحو ما. ولكن ذلك أخطر بحث عن الطائفة قمت به. كان الأمر أن أرى حقاً إلى أي مدى كان ذلك الشهيد صورة مستقبلي أنا بالذات..!.

عندما أصبحت، كان رأسي يلف ويدور. اغتسلت كي أضفي على

تصوراتي وضوحاً أشد. قلت في دخيلتي، مهلاً: إن كان ذلك الرجل يخضع لعقاب الطائفة، فلماذا أطلعتني العمياء على تلك المعلومات التي لا ريب أنها يمكن أن تثير تلك الشكوك في نفسي؟. ولماذا قالت لي إنها ***كانت تعاقبه؟***. كان بوسعها، بل يتعين عليها التكتم على تلك الواقعة، إن كانت تود إيقاعي بشرك ما. فأنا لم يكن بوسعي إطلاقاً أن أستقصي أي شيء من دون مساعدتها، فبفضل معلوماتها، عرفت أن ذلك الرجل كان يسمع ويتألم. بل أكثر من ذلك: إذا كان هدف الطائفة الإيقاع بي في شرك العمياء فما حاجتها إلى أن تريني الأعمى في ذلك الموقف الغريب، الذي كان لا بد أن يثير شكوكي..؟. وبعد ذلك فكرت، إن دومينغس كان أيضاً يضاجع تلك المرأة في الظروف ذاتها، وذلك ما كشفته بمنأى عما أقوم به من استقصاء. اطمأنت نفسي. ولكنني قررت أن أضاعف حذري.

اتبعت في ذلك اليوم طريقة كنت قد فكرت بها من قبل، ولكنني حتى تلك اللحظة لم أستخدمها: الإصغاء عبرخصاص الباب. فلو كان ذلك الحقد أصيلاً، لكان من المحتمل أن تصرخ في وجهه وتشتمه في لحظات انفرادهما معاً.

صعدت إلى الطبقة الخامسة بالمصعد، ثم نزلت بعد ذلك بحذر إلى الطبقة الرابعة. كنت أدع خمس دقائق تمر قبل أن أنتقل من درجة إلى أخرى، وهكذا، إلى أن اقتربت من الغرفة، ووضعت أذني مقابل الباب. سمعت حديثاً يدور بين «لويز» ورجل. لقد استرعى ذلك انتباهي، فهي إن كانت تنتظر حضوري بعد ساعة، أيتسنى لها أن تبقى مع رجل آخر حتى لحظة وصولي؟.، لم يكن أمامي من سبيل سوى الانتظار.

سرت في الممر بهدوء، وانتظرت في أحد أركانه، فكرت: إن أتى، أو مر أي كان من هنا، سأسير نحو الأسفل، وعندئذ لن يرتاب بي. ولحسن

الحظ، كانت الحركة في تلك الساعة منعدمة، فتمكنت من الانتظار هناك حتى الساعة المتفق عليها مع «لويز» لكن ذلك الشخص لم يخرج من الغرفة. فكرت عندئذ أن أحد الأصدقاء أو المعارف كان يتحدث مع العمياء لحين وصولي. ولكن مهما كان الأمر، فقد حانت ساعة اللقاء، ولذلك اقتربت، وقرعت الباب، فتحته ودخلت إلى الغرفة.

كاد يغمى علي..!.

لم يكن في الغرفة أحد سوى العمياء والمشلول في كرسيه.

وتصورت الملهاة المشؤومة بسرعة: أعمى رغم أنه مشلول وأخرس، نصّبته الطائفة زوجاً لتلك الوغدة، لكي أقع أنا في شرك الكراهية المعهودة، والشرخ المعهود، ومن ثم، الاعتراف الذي لا مفر منه.

خرجت مسرعاً، وذكرني عقلي المشرق الدقيق، كعهدي به في حالات قليلة، بأنني لم أبح لأحد، بدافع من مكري، عن عنواني، وحتى دومينغس نفسه لا يعرف شيئاً عنه، وأما ذلك المهرج، سواء كان مشلولاً أو لم يكن، فإن عماه سيمنعه من أن يلحق بي وأنا أهبط درجات السلم.

عبرت الشارع كأني نيزك. ودخلت حديقة «لوكسمبورغ». فاجتزتها راكضاً حتى خرجت من الطرف الآخر. ومن هناك، ركبت سيارة أجرة، وفكرت، من دون أي تبديد للوقت، في أن أذهب إلى فندقي لآخذ حقيبتي، كي أهرب من باريس. وبينما كنت مندفعاً أفكر في الرحلة، خطر لي أنني وإن كنت لم أبح لأحد بمكان إقامتي، إلا أنه من الراجح (بل أقول: من المؤكد) أن الطائفة كانت تتبعني إلى هناك آخذة بالحسبان أي عملية هروب طائش. يا للشيطان، وما أهمية حقيبتي..؟. فجواز سفري ونقودي أحتفظ بهما في جيببي دائماً، بل وأكثر من هذا: خبرتي الطويلة في ذلك البحث جعلتني ـ وإن لم أكن أدري ماذا يمكن

أن يحدث لي تماماً ـ أتخذ إجراء، أرى الآن أنه ينم عن عبقرية: الحصول دائماً على تأشيرات دخول إلى بلدين أو ثلاثة على جواز سفري، لأنني أعتقد أن الطائفة ضربت نطاقاً من الحراسة حول القنصلية الأرجنتينية لكي تتابع خطاي. وها إن شعوراً واضحاً بالقوة، مصدره حذري وألمعيتي، يهيمن عليّ من جديد في خضم اضطرابي.

ذهبت إلى (الشوارع الرئيسية) وطلبت من السائق أن يقلني إلى أي وكالة سفر. حصلت على تذكرة للمغادرة على أول طائرة. فكرت أيضاً في طوق الحراسة المضروب على المطار، ولكن بدا لي أن انتظار الطائفة في القنصلية أولاً سوف يضللها. وهكذا غادرت إلى روما.

31

كم من حماقة نرتكب بانسياقنا وراء المعقولية الصارمة..!. لا شك أننا نفكر بحصافة. نفكر جيداً بالمقدمات (آ) و(ب) و(ج). إنما لا نكون قد أخذنا بعين الاعتبار، المقدمات (د) و(هـ)... وسواها من الأحرف الأبجدية اللاتينية والروسية أيضاً، فبفضل هذه الآلية يطمئن تماماً أولئك المحققون الماكرون الذين يعتمدون التحليل النفسي، بعد أن يكونوا قد انتزعوا نتائج بالغة الدقة استناداً إلى قواعد واهية.

كم من فكرة مريرة راودتني أثناء تلك الرحلة إلى روما..!. حاولت أن أرتب أفكاري ونظرياتي والوقائع التي شهدتها، لأننا يمكن أن نوفق في المستقبل إذا حاولنا اكتشاف قوانين الماضي.

تبأً لذلك الماضي، ما أكثر ما فيه من أخطاء..!. ومن زلات..!. ومن سذاجات..!. لقد أدركت في تلك اللحظة دور دومينغس الغامض، حين تذكرت مسألة فيكتور براونر، وها إني الآن، أثبت بعد سنوات فرضيتي: دومينغس دفع إلى مصح الأمراض العقلية وإلى الانتحار دفعاً.

نعم، تذكرت في الرحلة حادثة فيكتور براونر الغريبة، وتذكرت أيضاً أنني عندما التقيت دومينغس سألته عن الجميع: عن بريتون، وعن بيريت، وعن استيبان فرانسي، وعن متّى، وعن مارسيل فيري، ولم أسأله عن فيكتور براونر. «نسيان» له معنى..!.

سأروي الحادثة إن كنتم لا تعرفونها. كان يسيطر على ذلك الرسام

هاجس العمى. ورسم في عدة لوحات، أناساً عيونهم منتفخة أو نافرة. وحتى إنه عندما رسم نفسه في إحدى لوحاته، بدا فيها أحد محجريه فارغاً. والآن: قبل الحرب بقليل، وأثناء سهرة حمراء في مرسم أحد أفراد المجموعة السوريالية قذف دومينغيس، وهو ثمل، أحدهم بقدح. ولكن هذا ابتعد، فأصاب القدح عين فيكتور براونر واقتلعها.

فكروا الآن إن كان يمكن الكلام عن المصادفات، وإن كان لها بين بني البشر أي معنى. فالناس على النقيض من ذلك تماماً يجرون كمن يسير وهو نائم وراء أهداف كثيراً ما يدركونها على نحو مبهم، ولكنهم ينجذبون إليها، كما تنجذب الفراشة، إلى اللهب. وهكذا سعى براونر إلى قدح دومينغس، ومن ثم، إلى عماه. وعندما قادتني قدماي إلى دومينغس في العام 1953، لم أكن أعلم أنني كنت ألبي ثانية نداء قدري.لم يخطر ببالي قط من بين جميع الأشخاص الذين كان بوسعي أن أراهم في ذلك الصيف من العام 1953 سوى الرجل الذي كان مسخراً بشكل ما لخدمة الطائفة كي ألجأ إليه. وما تبقى أصبح واضحاً: اللوحة التي استرعت انتباهي وملأت لبي خوفاً، العمياء الـ «موديل». («موديل» من أجل هذه المناسبة الفريدة فقط)، ومهزلة مضاجعة دومنيغس لها، وبلاهتي وأنا أراقب من المرصد، واتصالي بالعمياء ومهزلة المشلول.. الخ.

إعلان إلى السذج:

ليست هناك مصادفات..!.

وهو أيضاً إعلان لقراء هذا التقرير الذين يقررون من بعدي البدء في البحث والوصول أبعد مما وصلت. كم من رائد بائس مثل موباسان (أدى به الأمر إلى الجنون)، ورامبو، الذي انتهى به الأمر إلى الهذيان

والإصابة بـ «الغرغرينا»، (رغم هربه إلى أفريقيا)، وأبطال آخرين كثيرين مجهولين لا نعرفهم كان يتعين عليهم أن تنتهي حياتهم ـ من دون أن يعرف أحد ـ بين جدران مصحات الأمراض العقلية، أو أساليب تعذيب الشرطة السياسية، أو خنقاً في آبار مهجورة، أو غرقاً في مستنقعات، أو طعاماً، يأكلهم النمل المفترس في أفريقيا، أو يلتهمهم سمك القرش، أو يباعون خصياناً إلى سلاطين الشرق، أو يحكم عليهم، مثلي أنا ـ بالموت حرقاً.

هربت من روما إلى مصر، وسافرت من هناك بمركب إلى الهند. وفي بومباي وجدت نفسي فجأة ـ وكأن «القدر» كان يسبقني وينتظرني ـ في ماخور عميان: هربت مذعوراً إلى الصين. وانتقلت من هناك إلى «سان فرانسيسكو».

مكثت حذراً، عدة أشهر، في نزل سيدة إيطالية تدعى «جيوفانا»، حتى قررت العودة إلى الأرجنتين، حين بدا لي أنه لم يحدث أي أمر مريب.

بعد أن وصلت إلى هنا مزوداً بما اكتسبته من خبرة، مكثت أنتظر، عساي أوثق صلتي بأحد أصحابي، أو معارفي ممن يصاب بالعمى نتيجة حادث ما.

ما جرى بعد ذلك تعرفونه: المنضد «سيليستينو إيجليسياس»، والانتظار والحادث، والانتظار ثانية، ومنزل حي بلغرانو، وأخيراً، الغرفة المحكمة، حيث ظننت أنني سأواجه مصيري الحاسم.

32

لست أدري إن كان ما شعرت به يعود إلى التعب، أو التوتر الناشئ عن الانتظار طيلة ساعات، أو الهواء الملوث، ولكن الحقيقة هي أن نعاساً ثقيلاً أخذ يستولي عليّ، حتى سقطت، أو يبدو لي الآن أنني سقطت في غفوة مشوبة بالقلق والاضطراب: كوابيس لا تفارقني، تختلط فيها أو تغذيها ذكريات شبيهة بقصة المصعد أو قصة لويز.

أتذكر أنني في إحدى اللحظات ظننت أنني أختنق، فنهضت مذعوراً أركض نحو الأبواب وأخبطها بغضب. ثم نزعت سترتي، وبعد ذلك قميصي، لأن كل شيء كان يثقل عليّ ويجعلني أشعر بالاختناق.

أتذكر، إلى هنا، كل شيء بوضوح.

ولست أدري إن كانوا، نتيجة لضرباتي وصراخي، أم لأمر آخر، فتحوا الباب فظهرت العمياء.

ما زلت حتى الآن أراها تلوح من عتبة الباب وسط نور بدا لي فوسفورياً: وقورة، مجللة بالعظمة، ينبعث منها، من وجهها بخاصة، سحر لا يقاوم، وكما لو أنها أفعى تنتصب صامتة في عتبة الباب وعيناها لا تحيدان عني.

بذلت جهداً كي أتغلب على السحر الذي كان يشلني: كنت أبتغي (بحماقة ولا شك، ولكن بمنطق تقريباً، إذا ما نظر بعين الاعتبار إلى فقداني الأمل في أي شيء آخر)، أن أنقضّ عليها وأطرحها أرضاً ـ إن

كان ذلك ضرورياً ثم أركض بحثاً عن مخرج يؤدي إلى الشارع. ولكنني كنت في الواقع لا أكاد أقوى على البقاء واقفاً على قدمي: أخذ يسيطر على عضلاتي سبات، وإرهاق شديد، وعياء سقيم كالذي نشعر به أثناء نوبات الحمى الشديدة. كان صدغاي ينبضان بشدة، حتى خلت في إحدى اللحظات أن رأسي سينفجر مثلما ينفجر مستودع غاز.

إلا أن بقية من وعي كانت تقول لي، إنني إن لم أغتنم تلك الفرصة لأنجو، فلن أستطيع إلى ذلك سبيلاً أبداً.

استجمعت بإرادة مشدودة ما تبقى لدي من قوة واندفعت نحو (العمياء). أبعدتها بقوة عن طريقي، وقفزت إلى الغرفة الثانية.

33

بحثت عن أي مخرج وأنا أتعثر وسط الظلمة. فتحت باباً فوجدتني في غرفة أخرى أشد ظلمة من الأولى، أصطدم من شدة قلقي بالمقاعد والكراسي. تلمست الجدران فعثرت على باب آخر. فتحته فلم أجد أمامي سوى الظلمة الداجية تخيم ثانية، أشد من ذي قبل.

أتذكر أنني فكرت وأنا في غمرة الضياع: (إني تائه ضال)، وكأنما استنفدت كل ما تبقى لدي من قوة فاستسلمت وسقطت قانطاً فاقداً الأمل: لا شك أنني كنت محاصراً في متاهة لن أخرج منها أبداً. هكذا مكثت بضع دقائق ألهث وأتصبب عرقاً. وفكرت: (ينبغي ألا أفقد وعيي). حاولت أن أفكر بوضوح فتذكرت أنني أحمل قداحة. أشعلتها، فوجدت تلك الغرفة فارغة، ولها باب آخر.

اقتربت منه وفتحته: كان يؤدي إلى ممر لم أتمكن من رؤية آخره. ولكن، ماذا كان بوسعي أن أفعل سوى الجري وراء تلك الفرصة الوحيدة التي لم يبقَ لي سواها؟. ثم، إن قليلاً من التفكير يكفي لكي أدرك خطأ تصوري السابق بأنني ضال في متاهة، فالطائفة في جميع الأحوال لن تحكم عليّ بميتة مريحة إلى هذا الحد.

وبدأت أسير في السرداب بحماس شديد، إنما ببطء كذلك، فقد كان ضوء قداحتي واهناً، كما أنني كنت أستخدمها ما بين حين وآخر، كي لا ينفد وقودها مبكراً.

انتهى السرداب بعد ثلاثين خطوة تقريباً إلى سلم ينحدر بشكل أسطواني، يشبه ذلك الذي قادني من الشقة الأولى إلى القبو. ولاشك أنه كان يمر عبر الشقة أو البيوت إلى أقبية بوينس أيرس وسراديبها. وبعد حوالي عشرة أمتار لم يعد ذلك السلم أسطوانياً، بل أفضى إلى فراغ كبير مكشوف مظلم تماماً، يمكن أن يكون أقبية أو مستودعات، فضوء قداحتي لم يمكني من أن أرى إلى مسافة بعيدة.

34

كنت كلما أوغلت في هبوط السلم أشعر بالصوت المميز لخرير المياه الجارية، وهذا ما قادني إلى الاعتقاد أنني اقتربت من إحدى القنوات التي تجري تحت الأرض، وتشكل خطوط متاهة واسعة من مصارف المياه التي يبلغ طولها آلاف وآلاف الكيلو مترات في بوينس أيرس، لكنني في الواقع، سرعان ما وصلت إلى أحد الأنفاق النتنة، الذي يجري في أعماقه جدول شديد الاندفاع من مياه كريهة الرائحة. كان يلوح من بعيد نور ضئيل يدل على وجود ما يسمى «فتحة السيول» أو مَنْوَراً يطل على أحد الشوارع، أو مصب إحدى القنوات الرئيسية. قررت أن أتجه إلى هناك. وتعين عليّ أن أسير بحذر فوق شعب ضيق، على حافة ذلك النفق، لأن انزلاقي هناك ليس أمراً يمكن أن يكون قاتلاً وحسب، بل لابد أن يثير الاشمئزاز أيضاً.

كان كل شيء قذراً ونتناً ولزجاً. كان جدار ذلك النفق أو سوره رطباً، وتسيل منه خيوط مياه، لا شك أنها ترشح من طبقات الأرض الأعلى.

فكرت أكثر من مرة في حياتي، بوجود تلك الشبكة تحت الأرض، ولا شك أن سبب ذلك هو نزوعي إلى الاستغراق في التفكير بالأقبية والآبار والأنفاق والكهوف والمغاور، وبكل ما هو متصل، على نحو أو آخر، بذلك الواقع التحتاني الغامض: جرذان، أفاع، فئران، صراصير، بنات عرس، وعميان.

يا لمصارف بوينس أيرس الكريهة..!. يا للعالم التحتاني المريع، وطن الدنس والقذارة..!. فكرت بالعالم الفوقاني، بقاعات متلألئة ونساء جميلات بالغات الرقة، ورؤساء مصارف يتسمون بالاستقامة والحصافة، ومعلمي مدارس ينهون عن كتابة كلمات بذيئة على الجدران، تصورت أزياء مدرسية بيضاء منشّاة، وألبسة سهرات مزركشة من أقمشة رقيقة شفافة، وعبارات شعرية تردد على مسامع الحبيبات، وخطباً مثيرة عن الفضائل الوطنية. في حين تجري هنا، في العالم التحتاني وسط الصخب والقذارة والنتن، دماء طمث الحبيبات الشاعريات، وبراز الفتيات الرقيقات ذوات الألبسة الشفافة، وأكياس اتقاء الحمل التي استخدمها مديرون يتصفون بالاستقامة، وآلاف الأجنة الممزقة بالإجهاض، وبقايا أطعمة ملايين المنازل والمطاعم، وقذارات بوينس أيرس التي لا تحصى.

كل ذلك يسير نحو العدم، إلى البحر بأنفاق سرية تحت الأرض. وكأن أولئك، سكان العالم العلوي، يؤثرون النسيان، كأنهم يحاولون الظهور بمظهر الغافل عن ذلك الجزء من حياتهم، وكأن أبطالاً، بالمعنى المقلوب للكلمة، مثلي، قد سُخِّروا للعمل الجهنمي الملعون، لكي يسترعوا الانتباه إلى ذلك الواقع.

يا لبحّاثة القذارة، شهود القمامة والأفكار الشريرة..!. نعم، واعتراني فجأة شعور بأنني بطل. مقلوب بطل. بطل أسود يثير الاشمئزاز، ولكنه بطل. ضرب من «سغفريد» الظلمات، أتقدم وسط الظلام والنتن حاملاً رايتي السوداء الخفاقة، تهزها العواصف الجهنمية، ولكنني أتقدم.

إلى أين يا ترى؟. هذا ما لم أتمكن من إدراكه. وحتى الآن، في هذه اللحظات التي تسبق موتي، لم أتوصل إلى إدراكه بعد.

وأخيراً وصلت إلى ما تصورت انه فتحة السيول، فمن هناك كان

يلوح ذلك الضوء الخافت الذي كنت أسير على هديه في القناة. لكنه لم يكن، في الواقع، سوى مصب القناة التي كنت أجتازها، في قناة أخرى أكبر حجماً وأشد صخباً، وكانت هناك في الأعلى فتحة عرضانية صغيرة قدرت أنها عبارة عن شق طوله حوالي متر، وارتفاعه عشرين سنتمتر. وكان أمراً مستحيلاً أن أفكر بالخروج من هناك، نظراً لضيق الفتحة من جهة، واستحالة الوصول إليها من جهة أخرى.

ولذلك انعطفت نحو اليمين يعتريني القنوط، لأتابع السير في القناة الجديدة الواسعة، أتصور أنني لا بد، مهما طال الزمن، أن أصل إلى المصب العام، إن لم يودِ بي الجو الخانق المسموم إلى الإغماء، فأغرق في تيار القذارة.

ولكن، ما إن قطعت مئة خطوة حتى رأيت بفرح غامر، أن الشعب الضيق الذي أسير فوقه يفضي إلى سلم صغير مبني بالحجر والإسمنت. كان، ولا شك، أحد المخارج أو المداخل التي يستخدمها العمال الذين يضطرون، ما بين حين وآخر، إلى دخول تلك الكهوف.

حفزتني هذه الفرصة، فصعدت درجات السلم الصغير، وبعد ست درجات أو سبع انعطفت يمنة ومضيت صاعداً، وبعد أن قطعت مسافة تقارب الأولى، وصلت إلى سطح دخلت منه إلى سرداب آخر، وبدأت أسير إلى أن وصلت إلى سلم شبيه بالأول تماماً، ولكن مفاجأتي الكبرى أنه كان منحدراً يقود إلى الأسفل.

ترددت قليلاً وأنا أتمتم، ماذا يتعين علي أن أفعل؟. هل أرجع أدراجي إلى القناة الكبرى، وأواصل السير إلى أن أعثر على سلم يقود إلى الأعلى؟. كان أمراً غريباً أن يتعين علي أن أنزل ثانية، في حين، كان المنطق يقضي بأن أصعد.

إلا أنني تصورت أن السلم والسرداب اللذين اجتزتهما، يشكلان مع هذا السلم الآخر الذي يقود إلى الأسفل، جسر اتصال فوق إحدى القنوات العريضة، كما هو الحال في محطات خطوط «المترو»، حيث توجد جسور اتصال تقود إلى الخطوط الأخرى. وفكرت بأن استمراري في الاتجاه ذاته، لا يمكن إلا أن يؤدي، على نحو أو آخر، إلى الخروج، إلى سطح الأرض. وهكذا استأنفت مسيرتي: هبطت درجات السلم الجديد ثم سرت في ممر آخر، أخذ ينفرج في آخره.

35

وبقدر ما كنت أتوغل، كان ذلك السرداب يتحول إلى دهليز أشبه ما يكون بمنجم فحم.

بدأت أشعر ببرودة رطبة، فأدركت حينئذ، أنني كنت أسير منذ مدة فوق أرض بللتها ولا شك خيوط مياه ترشح بصمت من الجدران المتشققة التي لم تعد جدراناً إسمنتية نظامية لسرداب بناه مهندسون، وإنما جدار دهليز ترابي حفر تحت أرض مدينة بوينس أيرس.

أصبح الهواء نادراً أكثر فأكثر، أو لعل ذلك كان انطباعاً ذاتياً، شعرت به بسبب الظلمة المخيمة في تلك القناة المغلقة التي تبدو كأن ليس لها آخر.

لاحظت كذلك أن الأرض لم تعد مستوية، بل أخذت تنحدر تدريجياً، على نحو غير منتظم، وكأن حفر الدهليز ساير سهولة الأرض، ولم يخطط ويبنى على أيدي مهندسين وبآليات مناسبة، لذلك يخال المرء أنه يسير وسط دهليز أرضي قذر، حفرته أيدي بشر، أو حيوانات ما قبل التاريخ، فاستغلت شقوقاً طبيعية ومجاري جداول تجري تحت الأرض أو ربما وسّعتها. يؤكد ذلك فيض المياه المزعجة المتزايد. تخبطت في الطين حيناً، حتى خرجت إلى أجزاء صخرية أشد صلابة. كانت المياه تتسرب من الجدران بشدة. واتسع الدهليز حتى وجدت فجأة أنه يصب في تجويف لاشك أنه كان ضخماً لأن صدى وقع خطواتي كان

يتردد كأني أسير تحت بهو هائل. ولكن ـ لسوء الطالع ـ لم أستطع أن ألمح أبعاده في ضوء قداحتي الشاحب. كما لاحظت وجود ضباب لم يتشكل من بخار ماء كما بدا لي من رائحته، بل ربما من احتراق خشبة أو حطبة متفسخة، احتراقاً تلقائياً بطيئاً.

كنت قد توقفت من شدة الرهبة التي أشاعها ـ كما أعتقد ـ جو المغارة أو البهو الهائل الغريب. أحس تحت قدمي، بسطح الأرض تغمره مياه، ليست ساكنة، بل تجري باتجاه تصورت أنه يؤدي إلى إحدى تلك البحيرات الموجودة تحت الأرض، والتي يستغلها المتخصصون في التنقيب عن الكهوف والمغاور.

ضاعف قلقي إلى حد لا يطاق شعوري بالعزلة المطلقة، وعجزي عن إدراك حدود الكهف الذي كنت فيه، وامتداد تلك المياه التي خلت إنها شاسعة الأبعاد، والبخار أو الدخان الذي سبب لي الدوار. فظننت أنني وحيد في العالم، وخطر لي، مثل لمح البصر، أنني انحدرت حتى أصوله، فشعرت بالعظمة والتفاهة معاً.

خشيت أن تودي بي تلك الأبخرة إلى فقدان الوعي، والسقوط في الماء والموت غرقاً، في اللحظات التي كنت فيها على وشك اكتشاف السر المركزي للوجود.

وبدءاً من تلك اللحظة لم أعد أستطيع التمييز بين ما حدث فعلاً وما حلمت به أو ما جعلوني أحلم به، ولم أعد متأكداً من أي شيء، بما في ذلك ما كنت أعتقد أنه جرى في الأعوام، بل في الأيام السابقة.

ولو لم أكن متأكداً من أن إيجليسياس فقد بصره في حادث حضرته بنفسي، لكنت سأشك حتى اليوم بتلك الحادثة. ولكن أي أمر آخر، بدءاً من ذلك الحادث، أتذكره بوضوح هائل، وكأنه كابوس طويل مرعب:

نزل شارع «باسو»، السيدة ايتشيباريبوردا، رجل شركة الكهرباء، المبعوث الذي يشبه بيير فريسناي، الدخول إلى بيت حي بلغرانو، العمياء، والسجن بانتظار صدور الحكم.

بدأت الأمور تختلط في رأسي، ولما كنت واثقاً بأنني ـ طال الأمر أو قصر ـ سأسقط مغمى عليّ، مع ذلك اهتديت، إلى أن أنكفئ إلى مكان كان مستوى الماء فيه منخفضاً، وما إن وصلت إلى هناك حتى خارت عزيمتي فسقطت.

شعرت حينئذ ـ في أحلامي كما أفترض ـ بخرير جدول «لاس موخارّاس» لدى اصطدام مياهه عند المصب في نهر «أرّسيفي» في مزرعة «كابيتان أولموس». كنت مستلقياً على ظهري فوق العشب عصر أحد أيام الصيف أسمع من بعيد، صوت أمي، كأنه آت من مسافة نائية، تترنم، كما كانت عادتها، بأغنية، وهي تستحم في الجدول. كان ذلك الغناء الذي أسمعه الآن يبدو مفرحاً في البدء، ولكنه أخذ فيما بعد يغمرني شيئاً فشيئاً بالكآبة: كنت أود أن أفهمه، ولكنني برغم ما بذلت من جهد، لم أتمكن، ووصلت بي الكآبة إلى حد لا يطاق، لمجرد أن كلماته كانت حاسمة: قضية حياة أو موت. استيقظت وأنا أصرخ: (لا أستطيع أن أفهم..!.).

حاولت، كما يحدث عادة عندما نستيقظ من كابوس، أن أتعرف المكان الذي كنت فيه، وأعي وضعي الحقيقي، لأنني كثيراً ما كنت ـ حتى بعد أن كبرت ـ أصحو ظاناً أنني في غرفة طفولتي في كابيتان أولموس، وأحاول خلال دقائق طويلة مريعة أن أتذكر الواقع، الغرفة الحقيقية، والحقبة الزمنية التي أنا فيها فعلاً: أتخبط كمن يغرق، كمن يخشى أن يجرفه تيار النهر المخيف الجارف ثانية، بعد أن بذل جهداً مريراً كي يتمكن من النجاة، والتشبث بضفاف الواقع.

وفي تلك اللحظة، عندما كانت الكآبة التي أشاعها ذلك الغناء أو الأنين قد وصلت إلى أقصى مداها، عدت أشعر بذلك الإحساس الغريب، وحاولت أن أتشبث، تشبث اليائس، بضفاف الواقع الحقيقي الذي استيقظت فوجدت نفسي فيه. ولكن الواقع كان الآن أسوأ، لأنني كنت كمن استيقظ من مقلوب كابوس.

وأعادتني إلى الحقيقة صيحاتي التي تردد صداها الخافت في فناء الكهف الهائل.

ووسط الصمت المطبق، والظلام المخيف (فقد ضاعت قداحتي في الماء عندما سقطت)، كانت الكلمات التي نطقت بها وأنا أصحو، تتردد ثم تخبو وتغيب في الظلمة والمدى البعيد.

وعندما غيب الصمت آخر أصداء صيحاتي، اعتراني الذهول زمناً طويلاً:

يبدو أنني حينذاك فقط أدركت تماماً عزلتي والظلمات الهائلة المحدقة بي. وكنت حتى تلك اللحظة، أو بالأصح، حتى اللحظة التي سبقت حلم الطفولة، أعيش في دوامة تحقيقاتي، وأشعر كأنني منجرف في خضم غيبوبة جنون، وأن المخاوف ومشاعر الرعب لم تكن، حتى تلك اللحظة، قادرة على أن تهيمن علي، لأن كياني كله، كان يبدو مدفوعاً في سباق شيطاني نحو الجحيم، ولا شيء يستطيع وقفه.

في تلك اللحظة فقط، بينما كنت جالساً فوق الطين غارقاً في الظلمات وسط كهف تحت الأرض لا أستطيع إدراك حدوده، بدأت أعي بوضوح عزلتي المطلقة القاسية.

وتذكرت عندئذ ـ كأن كل ذلك يتعلق بوهم من الأوهام ـ صخب العالم الآخر، العالم العلوي، عالم دمى مجنونة تحركها خيطان في

فوضى بوينس أيرس: بدا لي ذلك كله، كخيال ظل طفولي، لا يمت إلى الواقع والحقيقة بصلة.

كان الواقع هذا الآخر، وفي ذروة ذلك العالم فقط، شعرت كما قلت من قبل، بالعظمة وبالتفاهة. ولست أدري كم من الزمن قد انقضى وأنا في تلك الغيبوبة.

لكن الصمت لم يكن صمتاً بسيطاً ومجرداً، وإنما أخذ يكتسب شيئاً فشيئاً، ذلك التعقيد الذي يكتسبه عندما يعيش المرء في كنفه زمناً طويلاً.

حينذاك يلاحظ أنه يغص بأشياء صغيرة غير مألوفة، وبأصوات لا تدرك في بادئ الأمر، وبخرير خافت وخشخشات غريبة. وكما تلوح ـ حين يتأمل المرء ملياً البقع على جدار رطب ـ معالم وجوه، وحيوانات، ووحوش أسطورية، كذلك أخذ السمع المرهف، وسط الصمت المطبق في ذلك الكهف، يكتشف بِنىً، ويرسم صوراً، ويكتسب بالتدريج معنى: الخرير المألوف لشلال بعيد، والأصوات الخافتة لأناس حذرين، والهمسات الخفيفة لكائنات قد تكون قريبة جداً، وصلوات مبهمة ومتقطعة، وزعيق طيور ليلية، وما إلى ذلك من أصوات وإشارات لا حصر لها تؤدي إلى مخاوف جديدة أو آمال غير معقولة.

وكما هو الحال في البقع الرطبة فإن «ليونارد» لم يكن يخترع وجوهاً وكائنات، بل كان يكتشفها في متاهات تلك الحصون، كذلك ينبغي ألا يظن أحد أن ذعري وخيالي الجامح جعلاني أسمع أصواتاً خافتة ذات معنى، وتوسلات، وزقزقات أو زعيق طيور ضخمة. لا، ولكن توقي، وخيالي، وخبراتي الهائلة في أمور الطائفة التي امتدت زمناً طويلاً، ورهافة حواسي وعقلي طيلة سنوات البحث المضني، هي التي أهلتني لأن أكتشف أصواتاً، وبنى شريرة لا يعيرها الإنسان العادي أي اهتمام.

فقد كونت أثناء طفولتي المبكرة في كوابيسي وأوهامي صورة أولية عن ذلك العالم الشرير، وكل ما فعلت في حياتي أو رأيت كان مرتبطاً، على نحو أو آخر، بتلك اللحمة الخفية، حيث تبرز أحداث لم تكن تعني للناس العاديين شيئاً، تبرز أمام ناظري بمعالمها الصحيحة مثل رسوم الأطفال، التي لا بد من العثور فيها على التنين متوارياً في مكان ما بين الأشجار والجداول. وهكذا، بينما كان الفتيان الآخرون يرضخون لأوامر معلميهم، فيمرون بملل وعدم اكتراث، على صفحات «هوميروس» الطوال، شعرت، أنا الذي فقأت عيون الطيور، بأولى اختلاجاتي حين يصف ذلك الرجل بقوة مخيفة، وبدقة متناهية، وبشيطانية عارف، ومنتقم سادي، اللحظة التي يشق فيها «أوليس» ورفاقه عين «السيكلوب» الضخمة، ويجعلونها تغلي بوساطة هراوة ملتهبة. ألم يكن «هوميروس» أعمى؟. وفي أحد الأيام فتحت مصادفة مجلد أساطير أمي الضخم، وقرأت: (وأنا «تيريسياس»، كان عقابي العمى لأنني رأيت «أثينا» حينما كانت تستحم واشتهيتها، ولكن الآلهة أشفقت علي فمنحتني موهبة فهم لغة الطيور النبوية، ولذلك أقول لك يا «أوديب»، إنك ـ وإن كنت لا تعلم ـ أنت الرجل الذي قتل أباه وتزوج أمه، ولهذا يجب أن تنال عقابك..). ولما كنت لا أؤمن بالمصادفات أبداً منذ أن كنت طفلاً فإن ذلك العبث، ذلك الذي ظننت أنه ليس سوى ضرب من العبث، بدا لي كأنه نذير. ولم تعد تفارق مخيلتي أبداً نهاية «أوديب» وهو يفقأ عينيه بدبوس، بعد أن سمع تلك الكلمات من «تيريسياس»، وشهد شنق أمه. كما لم تعد تفارقني قناعتي التي ترسخت وتأصلت في نفسي، يوماً بعد يوم، بأن العميان يتحكمون في العالم: بوساطة الكوابيس والأوهام، والأوبئة والساحرات، والعرافين، والطيور، والأفاعي، وكل وحوش الظلمات والكهوف بصورة عامة. وهكذا أخذت أدرك، بعيداً عن

المظاهر، العالم المثير للاشمئزاز، كما أخذت أعد حواسي، وأشحذها بالعذاب والشوق، وبالانتظار والخوف، لأرى في نهاية المطاف، قوى الظلمات الكبرى، مثلما يرى الصوفيون إله النور والخير. وبوسعي، بل يتعين علي أن أقول لكم، أنا نبي القذارة والجحيم: آمنوا بي.

هكذا كانت تلوح لي، في ذلك الكهف الفسيح، ضواحي العالم المحرم. عالم لا بد أن قليلاً من البشر، باستثناء العميان قد استطاعوا دخوله، فاكتشافه يعرض لعقوبات مريعة، والشاهد عليه لم يصل قط حتى اليوم إلى أيدي أولئك الناس الذين لا يزالون يعيشون هناك في الأعلى، مستغرقين في حلمهم الساذج، يسخرون منه، ولا يعبؤون بالدلائل التي ينبغي أن تنبههم إليه: حلم من الأحلام، نظرة عابرة ما، رواية أحد الأطفال أو المجانين. يقرؤون لمجرد التسلية، الروايات المبتورة لبعض أولئك الذين ربما تمكنوا من التسلل إلى العالم المحرم، كتاب كان مصيرهم الجنون والانتحار مثل أرتود، ولوترموند ورامبو، وهم لم يستحقوا ـ لذلك ـ سوى مزيج من الإعجاب والتعالي، كالذي يكنه الكبار للصغار.

كنت أشعر بكائنات خفية تتحرك في الظلمات، وقطعان زواحف ضخمة، وأفاع مكدسة في الطين، كأنها هوائم تجوب جيفة حيوان عملاق، ووطاويط هائلة، وحيوانات مجنحة من عصر ما قبل التاريخ، أسمع الآن خفوق أجنحتها الصامت تلامس برفق وعلى نحو مثير للاشمئزاز جسمي وتصل حتى وجهي. وأناس لم يعودوا كما كانوا من قبل بشراً، سواء كان سبب ذلك عشرتهم الأبدية للوحوش الهائلة التي تقطن تحت الأرض أو اضطرارهم للتحرك في أرض مستنقعية وسط الطين والقذارة التي تتراكم في تلك الكهوف. هذه تفاصيل، على الرغم من أنني لا أستطيع أن أقول إني تأكدت منها بأم عيني (بسبب الظلام

المخيم)، لكنني أدركتها من جراء آلاف الإشارات التي لا تترك مجالاً للخطأ:

لهاث ما. ضرب من الهمهمة، أو ضرب من التخبط.

لذت بالصمت والهدوء زمناً طويلاً، أشعر بتلك الحياة الخامدة المثيرة للاشمئزاز.

وعندما وقفت، شعرت كأن تلافيف دماغي محشوة بالتراب، وملفوفة بشبكة عنكبوت.

لبثت بعض الوقت واقفاً أرتعد ولا أدري ماذا يجب أن أفعل، حتى أدركت في نهاية المطاف، أنه يتعين علي أن أسير نحو المنطقة التي كان يبدو لي أن ضوءاً خافتاً يلوح منها. وحينذاك أدركت مدى الصلة التي يجب أن تربط ـ في لغة الإنسان البدائي ـ بين كلمتي ***ضوء وأمل***.

لم تكن الأرض التي مشيت عليها تلك المسيرة مستوية: كانت المياه تصل أحياناً حتى ركبتي. وفي أحيان أخرى لا تكاد تبلل سوى الأرض التي تبدو لي كأنها قاع بحيرات «لابامبا» مرتع طفولتي: طينية لزجة. كنت حين يرتفع مستوى الماء، أنحرف نحو الجهة الأخرى قليلة العمق، لأواصل مسيرتي في الاتجاه الذي يقود إلى ذلك الضوء البعيد.

36

بقدر ما كنت أتقدم، كان ذلك الضوء يشتد. حتى أدركت أن الكهف الذي خلت أني موجود فيه، لم يكن سوى مدرج كبير، يشرف على سهل فسيح يغمره ضياء أحمر بنفسجي شاحب آت من نجم أكبر من شمسنا، لكن شحوب بريقه يدل على أنه أحد تلك النجوم التي توشك أن تنطفئ فتلقي ـ بما تبقى فيها من طاقة ـ على كواكب مهجورة، ضياء يشبه إلى حد بعيد ذلك الذي يتسرب ـ في ظلمة غرفة كبيرة يخيم عليها السكون ـ من موقد نفدت حطباته وأوشكت آخر جذواته المحاطة بالرماد على الانطفاء. بريق غريب يغرقنا في هدوء الليل بأفكار تفيض حنيناً وإبهاماً: نعود إلى أعماق الذات، نتأمل ملياً في الماضي وفي أساطير وبلدان نائية، وفي معنى الحياة ومعنى الموت. وما يكاد السبات يستولي علينا، حتى نبدو كأننا نطفو على غير هدى، فوق مياه لا تكاد تتحرك.

يا لديار الكآبة..!.

مكثت بلا حراك مثقلاً بالحزن والصمت زمناً طويلاً.

كانت تلوح من جهة الغرب، فوق شفق سماء عاصفة لكنها مشلولة كأنها إعصار تجمد فجأة بإشارة ما، وتكتنفها غيوم كأنها رقع قطن ممزقة متناثرة ومغمسة بالدم، أبراج غريبة شاهقة تهدمت بفعل آلاف السنين وبفعل كارثة لعلها ضربت هذه الأرض المشؤومة. هياكل أشجار زان

باسقة تنتصب قاماتها الرمادية أمام الغيوم الحمراء البنفسجية، توحي بأن كل شيء كان قد ابتدأ بفعل حريق كوني أو انتهى به.

وكان ينتصب بين الأبراج تمثال يضاهيها شموخاً، تسطع من وسطه، عند السرة، عين فوسفورية كنت مستعداً لأن أقسم أنها تومي إلي، لو لم يدل الموت المخيم في تلك الناحية على أن ذلك لم يكن سوى وهم خادع من أوهام حواسي.

كنت واثقاً من أن رحلتي الطويلة ستنتهي هناك، وأنني في نهاية المطاف قد أعثر على معنى وجودي في ذلك الحصن المكين.

كان السهل من ناحية الشمال ينتهي بسلسلة جبال فضية كأنها العمود الفقري لتنين هائل متحجر. بينما برزت من الطرف الجنوبي فوهات بقايا براكين كانت في عصر مضى قد حرقت تلك الديار بحممها المتدفقة.

كانت العين الفوسفورية تبدو كأنها تناديني. وسرعان ما شعرت بأنني محكوم بأن أسير نحو التمثال الهائل.

لكن قلبي بدا كأنه دخل ـ كالزواحف أثناء أشهر الشتاء الطويلة ـ في حالة سبات: يخفق ببطء، وينتابني شعور ضمني مؤلم بأنه قد انقبض وتصلب. لم يكن يسمع في تلك الإمبراطورية صوت ولا نغمة ولا خشخشة ولا همهمة، بل تخيم كآبة كأنها سحابة من ضباب حطت فوق الأرض الجنائزية.

عدت أتأمل الأبراج، وأتساءل عن المهمة التي كانت تؤديها قبل حلول الكارثة، أكانت حصون عمالقة من مبغضي البشر الشرسين.؟.

سرت نحوها زمناً يتعذر تقديره، لأن النجم ظل ثابتاً في القبة السماوية، وكانت تزداد عظمة وغرابة بقدر ما كنت أدنو منها. أحصيت

عددها فكان واحداً وعشرين برجاً أقيمت على مضلع لا بد أن محيطه يضاهي محيط مدينة هائلة، وبنيت من حجارة سوداء مما جعلها تبرز تحت تلك السماء التي مزقتها رقع من السحب الأرجوانية.

كنت أميز وسط ذلك المضلع الهائل، على نحو واضح جداً، تمثال (المعبودة العظيمة)، مريعة وموحشة، تملك السلطة على الحياة والموت، وتشكل الأبراج طوق حراسة حولها، كانت مصنوعة من حجر بازلتي لماع أحمر، لها جسم امرأة، وجناحا مصاص دماء ورأسه، ويدان وقدمان ينتهي كل منها بمخالب. لم يكن لها وجه، وربما كان وميض العين يعود إلى انعكاس نيران داخلية، لأن بريقها كان يزداد ثم يخبو ما بين حين وآخر.

وكانت تبدو، في السهل الكبير الذي يحيط بها، بقايا محروقة كما في متحف رعب ساكن: أصنام صفر العيون في دور مهجورة، وآلهة لها جلود مخططة كجلود الحمير الوحشية، وصور عبادة مبهمة ونقوش لا يمكن فك رموزها.

كان يبدو أنها ناحية تحتفل «بطقس» واحد فقط، ألا وهو الموت.

شعرت فجأة بوحدة لا تطاق، فصرخت. وضاع صوتي وسط الصمت المطلق.

تابعت مسيرتي لأن العين كانت تدعوني على نحو غامض، إلى أن وصلت إلى جدار المضلع الذي أقيم عليه تمثال المعبودة.

وقدرت أنه يضاهي ارتفاع كنيسة قوطية، لكن الأبراج كانت أعلى منه، وشاهقة جداً.

كنت أعلم أنه لابد من وجود منفذ يمكنني من الدخول، وربما من أجل ذلك وحسب، كان يهيمن علي في ذلك الحين يقين بأن ذلك كله

(الأبراج، المنطقة المدمرة، السور، النجم الخامد) ينتظر وصولي. وهو، بسبب ذلك، لم يهو نحو العدم، فما إن أتمكن من الولوج إلى العين حتى يضمحل كصورة مضت عليها آلاف السنين.

بعد أن سرت أياماً مضنية، تمكنت في نهاية المطاف من العثور على الباب.

كان المدخل إليه سلماً حجرياً خارجياً يؤدي إلى العين.

وكان يتعين علي أن أصعد آلاف الدرجات. خشيت أن يتمكن الدوار والعياء من تثبيط عزائمي، لكن العناد والصبر مداني بقوة هائلة، فبدأت بالصعود.

صعدت خلال زمن لم أتمكن من تقدير مداه، لأن النجم كان مستقراً في المكان ذاته دائماً، وكان يقيس ذلك الجهد الخارق وسط الصمت، قدماي الممزقان وقلبي المسحوق، لا يساعدني أحد بابتهالاته ولا بكراهيته أيضاً: كان صراعاً هائلاً تعين علي أن أخوضه وحدي. أغمي علي مرات عدة و فقدت الوعي أيضاً. ولكن ما إن كنت أصحو حتى أستأنف الصعود. كانت العين تزداد ضخامة، وذلك ما مدني بالشجاعة والرعب معاً.

وحين وصلت في نهاية المطاف إليها خررت ساجداً على ركبتي ومكثت كذلك وقتاً طويلاً.

حتى سمعت صوتاً يخرج من تلك العين، أو بدا لي أنه يخرج منها ويقول هذه العبارات: ادخل الآن. هذه هي بدايتك ونهايتك.

وقفت، ولكن البرق خطف بصري، فدخلت.

كان البريق القوي المبهم، كما هو مألوف في النور الفوسفوري الذي يجعل خطوط الأشياء تهتز وترتجف، يغمر نفقاً لحمياً طويلاً وضيقاً. كان

يتعين علي أن أزحف فيه على بطني. راودني شعور بأن ذلك البريق ينبعث من الأعلى، ظننت أنه من مغارة تحت الماء، وربما كان ناجماً عن شعاع طحالب بحرية شبيهاً بذلك الذي لاح لي في ليالي المدارات بينما كنت أبحر في بحر «الطحالب» وأنظر إلى أعماق المحيطات. احتراق مشع يضيء في السكون المخيم على تجاويف أعماق البحار مناطق تعج بوحوش عملاقة لا تخرج إلى السطح إلا في مناسبات نادرة، فتنشر الذعر بين بحارة السفن الذين يتحتم عليهم أن يمروا قريباً منها، وكثيراً ما يصاب أولئك بالجنون ويلقون بأنفسهم في الماء، فتبقى السفن مهجورة وخالية تواجه مصيرها، كشواهد خرساء على الكارثة التي حلت، وتبحر طيلة سنين على غير هدى، كأنها خيالات مبهمة، تروح وتجيء كيفما اتفق، تتقاذفها التيارات البحرية والرياح إلى أن تفنيها الأمطار والأعاصير وشمس المدارات والزمن، فتتفسخ ويتناثر حطامها وصواريها، حتى يتلف الملح واليود والفطور والأسماك كل شيء فيها، لتختفي في نهاية المطاف، في الأعماق.

أمر ما حدث لي وأنا أصعد في النفق اللحمي اللزج الخانق: أخذ جسمي يتحول إلى سمكة، أطرافي تحولت إلى زعانف منفرة، وجسمي غطته حراشف.

ازداد الوميض الذي كان يأتي من الأعلى شدة. وخلت وسط الصمت الرهيب أنني أتوجس من جديد ذلك الأنين أو النداء، أو ما كنت أتذكره وكأنني في حلم. وقائع مغرقة في القدم لم أتمكن من تحديدها.

كان جسمي السمكي ينزلق في الفتحة بصعوبة، ولم أعد أصعد بقوتي الذاتيةلأنه كان يتعذر علي تحريك زعانفي: كانت تقلصات ذلك اللحم هي التي تضغط علي وتمتصني نحو الأعلى. وفي تلك المرحلة

الأخيرة من صعودي مرت أمامي وجوه كان يبدو أنها تتأملني. مشاهد من طفولة، وفئران في صومعة في «كابيتان أولموس»، ومواخير مظلمة، ومجانين يطلقون عبارات ليست مفهومة، ونساء يُشِرْن أمامي بأيديهن إلى فروجهن المفتوحة، وجوارح تحوم فوق خيول نفقت في السهل، وطاحون هواء في مزرعة والدي، وسكارى يعبثون ببراميل قمامة، وطيور تنقض بمناقيرها على عيني انتقاماً.

حتى دخلت إلى الكهف، وغرقت في مياه دافئة لزجة.

عندئذ فقدت الوعي.

37

أجهل الوقت الذي بقيت فيه فاقد الوعي. بدأت أصحو شيئاً فشيئاً، لم أكن أعرف أين كنت، ولم أتذكر رحلتي، ولا الأحداث التي سبقتها. كنت مستلقياً على ظهري في سرير، رأسي ثقيل كما لو كان محشواً برصاص، ولاتكاد عيناي تريان شيئاً، تمكنت من أن ألمح وميضاً كالوميض ذاته الذي رأيته في غرفة العمياء قبل فراري. لم تقوَ عضلاتي على الحركة. وأخذت ذاكرتي تنتظم تدريجياً مثلما يعود للانتظام مركز اتصالات بعد هزة أرضية. وأخذت أجزاء من حياتي السالفة تعاود الظهور: سيليستينو ايجليسياس، دخول بيت بليغرانو، السراديب الأرضية، ظهور العمياء، الحبس في الغرفة، الهرب، ومن ثم، المسيرة نحو المعبودة. أدركت حينئذ فقط أن الوميض الذي هيمن على تلك الغرفة كان هو نفسه وميض المغارة أو بطن التمثال، وبقدر ما كانت عيناي تلمحان السقف والجدران، كان يساورني شك بأنني موجود في الغرفة ذاتها التي ظننت أني هربت منها.

وعلى الرغم من أنني لم أجرؤ على الالتفات نحو الباب، لكن راودني إحساس بأن العمياء كانت هناك. وهكذا فإن رحلتي في أنفاق بوينس آيرس ومجاريها، ومسيرتي في ذلك السهل الفلكي، وصعودي الأخير حتى بطن المغبودية، لم يكن ذلك كله سوى ضرب من خيال ظل أطلقته فنون العمياء السحرية بأمر من الطائفة. ومع ذلك فإنني كنت

أقاوم قبوله، لأنه كان يمتلك القوة والوضوح الصارخين لأمر كنت قد عشته حقاً. لم أكن في ذلك الوقت أتمتع بالإشراق الكافي ولا بالهدوء لكي أقوم بتحليله، ولكنني الآن واثق بأن الرحلة نحو المعبودة قد عشتها. وحتى لو كان جسمي قد خرج من غرفة العمياء، فإن روحي تجولت فعلاً في تلك المنطقة الغريبة.

شعرت بأن تلك المرأة تدنو من سريري. كانت حواسي اليقظة وغريزتي هي التي نبأتني، لا وقع خطواتها التي لم أتمكن من سماعها لأنها كانت تسير كما لو أنها حافية. كنت أنظر إلى السقف كأنني حجر جامد لا حراك فيه، حين أيقنت أنها تقترب.أغمضت عيني كأنني بذلك أتجنب ما كان لا بد أن يحدث، حتى توجستها عند قدمي سريري تتأملنني.

والأمر الغريب أنني فكرت أنها أتت إليّ تلبية لنداء مني مبهم، لكنه عنيد، لست أدري حتى الآن وأنا أتمتع بكامل قواي العقلية كيف أفسره. صحيح أنني كنت أسير الطائفة، وأن تلك المرأة التي سيكون لي معها أشد أنواع الصلات هولاً كانت جزءاً من العقاب الذي فرضته الطائفة علي، ولكن صحيح أيضاً أن ذلك كان الشوط النهائي في مطاردة قمت بها بمحض إرادتي طيلة سنوات وسنوات.

كان يشلني ويحثني في الوقت ذاته شعور معقد، مزيج من الخوف والقلق، والغثيان والشهوانية الشريرة. وحين تمكنت في نهاية المطاف من أن أفتح عيني، رأيتها عارية أمامي: تشع من جسمها سيالة تصل حتى أحشائي وتوقظ شهوتي. أدركت بأمل، يتعين علي أن أدعوه أملاً أسود لأنه لابد أن يوجد في الجحيم، أن تلك الأفعى قد ألقت بنفسها علي. كنت قد رأيت في ظلمات الليالي الاستوائية أطياف وهج «سان

تلمو»[1] تنطلق من السوارى، ومثل ذلك أرى الآن كيف كان ذلك الوميض الخاطف الذي غمر الغرفة ينطلق من رؤوس أصابعها، ومن شعرها المكهرب، ومن رموش عينيها، ومن حلمتي نهديها التواقتين كأن بوصلتين من لحم تقتربان من المغناطيس الجبار الذي يجذبهما عبر مناطق الهذيان. لقد تلقيت الوحي بسرعة هائلة: كانت هي..!. وذلك العالم، عالم العميان ما هو إلا أداة لإشباع عواطفنا، لكي ينفذ، في نهاية المطاف، انتقامه.

رأيت وأنا ساكن، هادئ، كعصفور أمام نظره أفعى تشله، كيف كانت تقترب ببطء وشهوانية، وعندما لامست أصابعها بشرتي شعرت كأن شحنة (الشعاع الأسود الجبار) الذي يقولون إنه يستقر في تجاويف أعماق البحار، تنصَبّ فيّ.

ثم فقدت الإحساس بالحياة اليومية، وذكرى حياتي الواقعية، والوعي الذي يقيم التقسيمات الكبرى والحاسمة التي يتعين على الإنسان أن يعيش ضمنها: النعيم والجحيم، الخير والشر، الجسد والروح. وكذلك الزمن والخلود، لأنني أجهل ولن أعرف أبداً، كم استغرق ذلك الاندماج، فلم يكن في ذلك الكهف نهار ولا ليل، وإنما حقبة واحدة مطلقة. شهدت كوارث وتعذيباً، ورأيت ماضي ومستقبلي (موتي)، شهدت أزمنة جيولوجية، وأظن أنني أتذكر منظراً عاصفاً، ونباتات مهجورة تجوبها زواحف، وقمراً مضطرباً ينير مستنقعات نتنة وسط رمال ملتهبة.

---

(1) وهج سان تلمو: ظاهرة تحدث بعد عاصفة أو إعصار حين يكون الجو مشحوناً بالكهرباء فيظهر طيف على صواري السفن وأعمدتها يدعى وهج سان تلمو. (المترجم).

ركضت كوحش محتدم نحو امرأة ذات بشرة سوداء، وعيون بنفسجية، كانت تنتظرني وهو تصرخ. جسمها يرشح عرقاً وفرجها مفتوح، فدخلت محتداً في ذلك البركان اللحمي الذي التهمني. ثم خرجت لكن مزارده الدامية تتوق لهجمة ثانية. أسرعت نحوها كوحيد قرن غليم أعبر مستنقعات طارت منها، على وقع خطاي، غربان تزعق، ثم دخلت ثانية في ذلك الكهف. وبالتتالي، كنت أفعى، وسمكة، وأخطبوطاً بملامس يدخل أحدها بعد الآخر، ومصاص دماء حاقداً، لأكون مُلْتَهَماً دوماً. وسط إعصار وبروق، كنت عاهرة، وكهفاً وبئراً، وعرّافة. الهواء المكهرب امتلأ بالعويل وكان يتعين علي مرة أخرى أن أشبع نهمها كفأرة شبقة، كسواري من لحم. أصبح الإعصار أشد رعباً وغموضاً: وحوش ساكَنَت المرأة، وحتى فرجها حفرته الفئران.

هزت البروق تلك المنطقة المهجورة فارتجفت. وفي نهاية المطاف انفجر القمر وتناثر شظايا حرقت الغابات الشاسعة وأطلقت الدمار الشامل. وانفتحت الأرض وغرقت وسط مستنفعات تعج بسرطانات ضخمة. وركضت بين الأنقاض مخلوقات مقطعة الأوصال، ورؤوس بلا عيون تتلمس طريقها، وأمعاء تشابكت كنباتات متسلقة قذرة، وأجنحة ديست وسط الأنقاض.

انهار الكون كله فوقنا.

38

لا أستطيع أن أعرف الآن أي شيء عن الزمن الذي استغرقته تلك الحقبة.

عندما استيقظت (أقول ذلك كي أعبر، على نحو ما، عما أريد قوله)، شعرت بأن هاويات لا تقهر تفصلني، إلى الأبد، عن ذلك العالم الليلي: هاويات هائلة من مكان وزمان. و أخذت وأنا أعمى أصم، كمن يطفو من أعماق المحيط، أصحو ثانية على الواقع اليومي المعتاد. واقع أتساءل عما إذا كان هو الواقع الحقيقي، لأنني عندما استعدت قوة وعيي، وتمكنت عيناي من تمييز ملامح العالم الذي يحيط بي، أدركت أنني في غرفتي في فياديفوتو. في غرفتي الوحيدة المعروفة في فياديفوتو، ففكرت مذعوراً أن كابوساً جديداً، ربما يكون قد بدأ ينتابني على نحو أشد إبهاماً.

كابوساً أعلم أنه لا بد أن ينتهي بموتي. لأنني أتذكر مستقبل الدم والنار الذي فكرت فيه ملياً أثناء ذلك السحر الجنوني. والأمر الغريب أنه يبدو أن أحداً لا يطاردني الآن. لقد انتهى كابوس منزل بلغرانو. لا أدري كيف أصبحت الآن حراً. إنني في غرفتي ولا أحد (على ما يبدو) يراقبني. لا بد أن الطائفة بعيدة عني مسافات لا تحصى ولا تعد.

كيف عدت ثانية إلى منزلي؟. كيف تركني العميان أخرج من تلك

الغرفة التي تحيط بها متاهة؟. لست أدري. ولكنني أعرف أن ذلك حدث خطوة خطوة، على الأخص..!. المرحلة النهائية الرهيبة.

أعرف أيضاً أن أيامي معدودة، وأن الموت ينتظرني. والأمر الغريب الذي لا أستطيع فهمه أن هذا الانتظار يتم بمحض إرادتي، لأن أحداً لن يأتي إلى هنا ليأخذني، بل أنا الذي سأذهب. أنا الذي ***يتعين علي*** أن أذهب إلى المكان الذي ينبغي أن تتحقق فيه النبوءة.

لقد جعلني الحذر والقلق والتمسك بالحياة، أتصور ألف مهرب، وألف طريقة للفرار من القدر المحتوم. ولكن هل يمكن لأي امرئ أن يهرب من مصيره المحتوم؟.

هنا أنهي تقريري الذي أحتفظ به في مكان لا يمكن للطائفة أن تطاله.

الساعة تشير إلى الثانية عشر ليلاً. إني ذاهب إلى هناك.

أعرف أنها ستكون بانتظاري.

(4)

إله مجهول

1

ليلة الرابع والعشرين من حزيران/ يونيو 1955 لم يتمكن مارتين من أن ينام. عاودته صورة أليخاندرا كما رآها أول مرة في الحديقة تقترب منه. ثم بدأت تخطر بباله، على نحو مضطرب، لحظات حنو أو قسوة. وعاد ثانية يراها تسير نحوه أثناء ذلك اللقاء الأول، أصيلة وأسطورية. حتى أخذ يهيمن عليه شيئاً فشيئاً خمول ثقيل، وبدأ خياله يجوب تلك المناطق المبهمة، فظن أنه يسمع رنين أجراس بعيداً وكئيباً، وأنيناً غامضاً، لعله نداء لايمكن فك رموزه، أخذ يتحول تدريجياً إلى صوت حزين لا يكاد يدرك، يردد اسمه، في حين كان رنين الأجراس يشتد، إلى أن أصبحت تقرع بصخب. أما السماء، سماء ذلك الحلم، فكان يبدو أن حريقاً قانياً كالدم ينيرها. ثم رأى أليخاندرا مقبلة نحوه كأنها وسط الظلمات القانية، شاحبة الوجه، تمد ذراعيها إلى الأمام، وتحرك شفتيها كأنها تردد بحزن وصمت، ذلك النداء. *أليخاندرا..!..* صرخ مارتين، ثم استيقظ، وحين أشعل النور وهو يرتعد، وجد نفسه وحيداً في غرفته.

كانت الساعة تشير إلى الثالثة بعد منتصف الليل.

مكث بعض الوقت حائراً لا يدري ماذا يفعل. ثم بدأ يرتدي ملابسه، وبقدر ما كان منهمكاً بذلك، كان يزداد توتراً، حتى وجد نفسه يندفع إلى الشارع، راكضاً نحو منزل آل أولموس.

وعندما لاح من بعيد، في السماء الغائمة، وهج حريق، تبدد كل ما

لديه من شك. ركض يائساً حتى وصل الدار فجرفه الحشد المتدافع. وحينما استرد وعيه في بيت أحد الجيران ركض ثانية إلى منزل آل أولموس، ولكن رجال الشرطة كانوا قد أخذوا الجثتين، في حين كان رجال الإطفاء يبذلون ما تبقى لديهم من جهد لتطويق الحريق في البرج.

تذكر مارتين، من تلك الليلة، وقائع منعزلة لا رابط بينها: كالفكرة التي يمكن أن يكونها أبله عن كارثة. ولكن يبدو أن الأحداث جرت على النحو التالي:

حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل، رأى رجل (كما صرح فيما بعد)، كان يمشي في شارع باتريسيوس متجهاً نحو رياتشويلو، دخاناً. ولكن تبين فيما بعد ـ كما يحدث دائماً ـ أن كثيرين أيضاً، رأوا دخاناً أو ناراً أو اشتبهوا بالأمر.

وصرح عجوز كان يقطن في بيت مجاور: (أنام قليلاً. ولذلك شعرت برائحة الدخان فأخبرت ابني الذي يعمل في شركة تاميت، وينام في الغرفة التي أنام فيها، فقال لي وقد أثقله النوم، أن أدعه بسلام..) وأضاف يقول بتلك المباهاة ـ فكر برونو ـ التي يلجأ إليها العدد الأكبر من الناس، والشيوخ بخاصة، حين يتنبؤون بأمراض خطيرة أو كوارث مميتة:

(وكما ترون، فقد كنت على حق..).

وبينما كانوا يحاولون إطفاء الحريق في البرج، بعد انتشال جثتي أليخاندرا ووالدها، أخرج رجال الشرطة «دون بانشو» من البيت ملفوفاً بدثار، وهو على الكرسي ذي العجلات. وتساءل الناس: ***والمجنون؟***. ***وخوستينا؟***. لكن هؤلاء رأوا فيما بعد كيف أتي برجل أشيب الشعر، رأسه مفلطح كالمنطاد، يحمل بيده «كلارينيت» وبدت على وجهه

بشائر الفرح. أما الخادمة الهندية العجوز، فقد بقيت محتفظة بلا مبالاتها المعهودة.

كانوا يصيحون طالبين إخلاء الطريق. وكان بعض الجيران يساعدون رجال الإطفاء والشرطة، وينقذون قطع أثاث وثياباً. ولوحظت حركة ناشطة، وذعر كالذي يتابع به الناس الكوارث التي تنتزعهم مؤقتاً من حياتهم الكئيبة المبتذلة.

لم يتمكن برونو من التحري عن أي أمر آخر جدير بالذكر، مما حدث في تلك الليلة.

2

هتفت «إستير ميلبرج» في اليوم التالي لتخبر برونو بعد أن فرغت من قراءة النبأ في صحيفة «**لا راسون**» المسائية. (من المؤكد أن صحف الصباح، لم تتمكن من نشر الخبر بسبب ضيق الوقت). كان برونو يجهل كل شيء: لم يكن مارتين، الذي كان يجوب شوارع بوينس أيرس كالأبله، قد وصل إلى منزله بعد.

ولم يهتد برونو، في اللحظات الأولى، إلى عمل أي شيء، ولكنه ذهب بعد ذلك إلى بارّاكاس ليرى آثار الحريق، وإن لم تكن هناك أي فائدة ترجى مما فعل. منعه شرطي من أن يقترب من الدار، فسأل عن العجوز أولموس وعن الخادمة والمجنون، واستنتج مما سمعه من الشرطي ومن المعلومات التي استقاها فيما بعد، أن آل أسيفيدو اتخذوا قرارات عاجلة، ساخطين ومذعورين من الأنباء التي نشرتها صحف المساء (ليس بسبب ما حدث بالذات، إذ يفترض ألا يضار آل أسيفيدو من أي أمر يصيب تلك العائلة المؤلفة من أناس مجانين ومنحطين)، فقد أثارت تلك الأنباء موجة من الفضائح والقيل والقال، حول الأسرة بكاملها، لا لشيء إلا لصلة القرابة الواهية التي تربط بين الأسرتين. ولذلك فإن آل أسيفيدو ـ فرع الأسرة الثري الرصين ـ الذين دأبهم أن يبقى الفرع الآخر الممقوت طي النسيان دوماً (حتى إن عدداً قليلاً جداً من الناس في مجتمع بوينس أيرس كان يعرف مَن مِن ذلك الفرع بقي على قيد الحياة، وعدداً أقل يعرف صلة القرابة بين الأسرتين). وجدوا انفسهم فجأة، يواجهون تلك

الفضيحة على صفحات الجرائد، فهرعوا (كما فكر برونو) لإبعاد دون بانشو وبيبي والخادمة خوستينا، حتى لا يبقى أي أثر لهؤلاء، ولكي لا يجد الصحفيون في تلك الكائنات المعتوهة مادة للنشر. ومن يعرف، مثلما كان برونو يعرف، ما يكنه آل أسيفيدو من كراهية لتلك الفضلة البائسة من ماض مجيد، يستبعد أن يكون وراء ذلك العمل أي أثر للعطف أو الشفقة.

وعندما عاد برونو إلى منزله في تلك الليلة. علم أن (ذلك الفتى النحيل) أتى يسأل عنه. فتى أصبح يبدو الآن، حسب التعبير المشحون باللوم الذي أطلقته بيبا ـ (التي يبدو أنها تُحمِّل برونو دائماً مسؤولية مايعتور أصدقاءه من عيوب) ـ ضالاً أيضاً. ولقد جعلته هذه الـ «أيضاً» يضحك في خضم الرعب، فهي تعني سلسلة عيوب، كانت خادمته قد اكتشفتها في المسكين مارتين، واحداً بعد الآخر، ثم توجتها أخيراً، بصفة «الضال» المشؤومة هذه، وهي عبارة تنطبق تماماً على وضع مارتين الروحي الحقيقي المعقد: فقد كان مثل طفل يرتعد مذعوراً بعد أن ضلّ في غابة مظلمة، فكيف يمكن أن يستغرب برونو إذا أتى يسأل عنه؟. كان متحفظاً جداً، ولم يكن برونو يسمع منه جملة تامة عن أي أمر، وعن أليخاندرا بخاصة، فكيف لا يلجأ إليه، إلى الإنسان الوحيد الذي يمكن أن يُفرِّج عمّا في نفسه من غم، أو يمكن أن يعثر لديه على تفسير ما، أو عزاء أو عون ما..؟. وكان من الواضح أن برونو لم يكن يجهل طبيعة العلاقة التي نشأت بينهما، لا لأن أليخاندرا كانت قد حدثته عن ذلك (فهي لم تكن من ذلك النوع من الأشخاص، الذين يبوحون بمثل تلك الأسرار)، وإنما لأنه كان يدركها من طبيعة ما كان ينشده ذلك الفتى في صحبتها من ملاذ هادئ ومن بعض الكلمات التي كان يتمتم بها، بين حين وآخر، عن أليخاندرا. ثم، قبل أي شيء آخر، مما كانت

تمور به نفسه من ظمأ العاشق الذي لا يرتوي للاستماع إلى كل ما يمكن أن يمت إلى المحبوب بصلة، جاهلاً أنه كان يسأل أو يسمع شخصاً، يكن أيضاً ـ وعلى نحو ما ـ عاطفة حب لأليخاندرا (وإن كان ذلك الحب ليس سوى رجع صدى، أو إسقاط مضلل وعابر لحبه الآخر الحقيقي لخورخينا)، ولكن، رغم أن برونو كان يعرف، أو يدرك أن مارتين يرتبط بعلاقات ما، مع أليخاندرا (وتعبير «علاقات ما»، لابد من استخدامه هنا، طالما تعلق الأمر بأليخاندرا)، إلا أنه كان يجهل تفاصيل تلك الصداقة الغرامية التي تتبعها بدهشة، على الرغم من أن مارتين كان فتى طيباً، بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من معنى، لكنه، في واقع الأمر، كاد يكون مراهقاً، في حين كانت أليخاندرا التي تكبره بسنة واحدة فقط تتمتع بخبرة هائلة، توشك أن تكون خبرة قرون. كانت دهشته تكشف (كما قال برونو في دخيلته) عن إصرار، وعن تصميم، يبدو أنه متجدد في نفسه، لا يفتر أبداً، فقد كان يعرف (يعرف بعقله وليس بقلبه) أن أي شيء يمت بصلة للمخلوقات البشرية يجب ألا يكون مثار دهشة أبداً، لأن عبارات مثل (برغم أن..) توشك أن تكون، كما يقول «بروست»، «لماذا» المجهولة، ولا بد أن تلك الهاوية القائمة بينهما، من عمر روحي، وخبرة في الحياة، هي التي يمكن أن تفسر ـ بلا أدنى شك ـ تقرب امرأة كأليخاندرا من فتى مثل مارتين، وكان ذلك الحدس يتأكد شيئاً فشيئاً بعد موتها والحريق، كلما سمع من ذلك الفتى التفاصيل المبهمة الجنونية والدقيقة أحياناً، عن علاقته بأليخاندرا، وهي جنونية ودقيقة، لا لأن مارتين كان شاذاً أو به مس من جنون، وإنما لأن شبكة الخداع التي كانت تتحرك فيها روح أليخاندرا دائماً، كانت تدفعه إلى هذا التحليل الذي يكاد يكون مضللاً، فالآلام الناجمة عن عاطفة جامحة تقوم في وجهها العوائق الغامضة التي ليس لها تفسير، تكون سبباً أكثر من كاف

(فكر برونو)، ليَجعَل أشد الناس رصانة، يشعر ويتصرف كالمجنون. وواضح أن مارتين لم يروِ له تلك التفاصيل في الليلة التي تلت الحريق والجريمة، بل رواها فيما بعد، في تلك الأيام والليالي القليلة اللاحقة، قبل أن تخطر له تلك الفكرة البائسة ويتذكر بوردينابي، رواها في تلك الأيام والليالي عندما كان يلوذ به، يلتزم الصمت ساعات حيناً، ويتكلم حيناً آخر كأنه إنسان تناول ذلك النوع من عقاقير الحقيقة، أو ربما كان من الأصوب أن نقول: جرعة من تلك العقاقير التي توقظ صوراً من الصخب والهذيان في أعمق زوايا النفس البشرية وأشدها إحكاماً، رواها أيضاً بعد سنوات، عندما كان يأتي من ذلك الجنوب البعيد ليراه، مدفوعاً (فكر برونو) بتلك الحماسة التي تحدو البشر على التشبث بأي أثر من تلك الآثار الجسدية أو الروحية، للمخلوق الذي أحبوه كثيراً، والتي تبقى مبعثرة هنا أو هناك: تتجلى في خلود الصور المضعضع الملتبس، وفي الكلمات التي قيلت ذات مرة لآخرين، وفي تعبير ما، يتذكره أحدهم، أو يقول إنه يتذكره، وحتى في تلك الأشياء الصغيرة التي تكتسب ـ على هذا النحو ـ قيمة رمزية لا تقدر (علبة ثقاب، بطاقة دخول للسينما..). وما إلى ذلك من أشياء وعبارات تجترح معجزة جعل تلك الروح حاضرة، وإن كان حضوراً عابراً قلقاً لا يمكن الإمساك به، يشبه إلى حد بعيد حضور ذكرى عزيزة لدى شم شذا عطر يفوح فجأة، أو سماع مقطع موسيقي، لا ينطوي على أي أهمية أو عمق، بل قد يكون لحناً بسيطاً أو مبتذلاً، يجعلنا في ذلك الوقت السحري نهزأ من ابتذاله، إنما الآن، بعد أن أضفى عليه الموت والفراق الأبدي تلك المنزلة الرفيعة، نخالة عميقاً يثير كوامن عاطفتنا.

وقال له مارتين في ذلك اللقاء بعد الإياب، وقد رفع رأسه الذي كان يصر على أن يبقى مطرقاً، وأومأ بتلك الإشارة التي رافقته منذ طفولته،

ولازمته في شبابه، كأنها بصمات الأصابع التي ترافق المرء حتى مماته:

ـ لأنك، كنت تحبها أيضاً. أليس كذلك..؟.

تلك نتيجة توصل إليها ـ في نهاية المطاف..!. ـ هناك في الجنوب بعد ليالي التفكير الصامتة الطويلة. وهز برونو كتفيه ولاذ بالصمت. فماذا كان بوسعه أن يقول له..؟. وكيف يمكن أن يفسر لمارتين تلك العلاقة بخورخينا، وذلك السراب الطفولي..؟. لأنه حتى هو بالذات لم يكن متأكداً من أن الأمر كان هكذا فعلاً، وبصورة خاصة في المعنى الذي تمكن مارتين من أن يتصوره، ولذلك فإنه لم يجب، واكتفى بالنظر إليه على نحو مبهم، وهو يفكر بأن ذلك الفتى الصبور الصامد ما زال بعد سنوات طويلة من الصمت والبعد، سنوات من التأمل والوحدة، بحاجة إلى من يروي له قصته، ولعله، لأنه لا يزال، أجل لا يزال..!. يأمل بأن يعثر على مفتاح سر ذلك التباين المأساوي الرائع، كان يستجيب إلى تلك الحاجة الملحة الساذجة، التي تشعر بها المخلوقات البشرية، وهي تبحث عن تفسير لذلك اللغز المزعوم. ولعل مثل تلك التفاسير، لو وجدت، لكانت بالغة الإبهام عصية على الفهم، كالأحداث ذاتها التي تحاول تفسيرها.

ولكن مارتين كان يبدو في تلك الليلة الأولى التي تلت الحريق كقبطان فقد ذاكرته.

جاب شوارع «بوينس أيرس»، وعندما التقاه وجهاً لوجه، لم يعرف ماذا يقول له.

كان يرى «برونو» يدخن وينتظر ويتأمله ويفهمه، ولكن ماذا بعد..؟. كانت أليخاندرا ميتة حقاً، التهمتها النيران بقسوة، وكان كل شيء مجرد عبث وضرباً من الأوهام. وعندما عزم على الذهاب، ضغط برونو

على يده وقال له شيئاً لم يفهمه تماماً، أو كان يستحيل فيما بعد أن يتذكره. ثم عاد ليجوب الشوارع كأنه يسير وهو نائم، وعاد ليطوف في تلك الأماكن التي كان يخال أنها يمكن أن تظهر فيها ثانية في أي لحظة.

ولكن برونو أخذ شيئاً فشيئاً يعرف أشياء، وبعضاً من أشياء، أثناء تلك اللقاءات الأخرى، تلك اللقاءات اللامعقولة التي كانت لا تطاق أحياناً، حيث كان مارتين يتكلم فجأة كأنه إنسان آلي، يقول جملاً مفككة، ويبدو كما لو أنه يبحث عن أثر معين وسط رمال شاطئ عصفت بها رياح شديدة. أو آثار أشباح هشة أيضاً. كان يبحث عن مفتاح السر، عن المعنى الخفي، وكان بوسع برونو أن يعلم، كان يجب أن يعلم: ألم يكن قد شهد مولد اليخاندرا أو كاد؟. ألم يكن صديقاً أو شبه صديق لفرناندو؟. لأن مارتين لم يكن يفهم شيئاً: غيابها المتكرر، وتلك الصداقات الغريبة، وفرناندو، ماذا كان وراء ذلك؟. وكان برونو يكتفي بالنظر إليه، ويفهمه ويشفق عليه طبعاً. لقد عرف أهم الوقائع الحاسمة فيما بعد، عندما عاد مارتين من تلك المنطقة البعيدة التي دفن نفسه فيها، عندما كان يبدو أن الزمن قد مكّن الألم في أعماق نفسه، ذلك الألم الذي يبدو أن روحه تعود لتضطرم فيه لدى أي هزة أو حركة تنجم عن لقاء الكائنات أو الأشياء التي كانت ترتبط بالمأساة بوشائج لا تنفصم: وعلى الرغم من أن جسد أليخاندرا كان في ذلك الحين قد تفسّخ وتحول إلى تراب، فإن ذلك الفتى الذي أمسى رجلاً حقاً، ما زال يهجس بحبها، ومن يدري إلى متى سيبقى أسير ذلك الهاجس؟. (ربما يستمر حتى يدركه الموت)، وذلك ما كان برأي برونو من قبيل البرهان على خلود الروح.

قال برونو في دخيلته بسخرية محزنة: كان«يجب» أن يعرف. صحيح أنه كان «يعرف» ولكن بأي قدر، وعلى أي نحو؟. وما الذي

نعرفه يقيناً عن اللغز العميق للكائنات البشرية، وحتى عن لغز أولئك الذين هم أقرب الناس إلينا؟. لقد تذكره في تلك الليلة الأولى هناك. تصوره كأحد أولئك الأطفال الذين تصورهم الصحف، بعد زلزال أو خروج قطار عن سكته، يجلسون على صرة من الألبسة أو كومة من الأنقاض، عيونهم واهنة كأن الشيخوخة أدركتهم فجأة، بفعل ما للكوارث من قدرة على أن تلحق بجسم الإنسان وروحه في ساعات قليلة ما تلحقه من دمار ـ ببطء وهدوء ـ السنون والأمراض وخيبات الأمل. شبهه بأولئك المشوهين الذين ينهضون شيئاً فشيئاً من بين الأنقاض، يتكئون على عكاكيزهم، بعد أن نأت بهم الأيام عن الحرب التي كادت تودي بحياتهم، ولكنهم لا يعودون كما كانوا من قبل، لأن تجربة الرعب والموت تكون قد ألقت بثقلها عليهم إلى الأبد. كان يراه وقد ارتخى ساعداه، وشخصت عيناه نحو نقطة غالباً ما تكون خلف رأس برونو وإلى ناحية اليمين. كان يبدو أنه ينبش في ذاكرته بتصميم ويتألم بصمت، كجريح على شفير الموت، يحاول بحذر بالغ انتزاع السهم المسموم من لحمه الممزق. وفكر برونو حينئذ. «يا للمسكين، كم كان وحيداً.. ».

وقال فجأة:

ـ لا أعرف شيئاً، لا أفهم شيئاً، فتلك العلاقة مع أليخاندرا كانت..

ولم يكمل الجملة، بل رفع رأسه، بعد أن كان مطرقاً، ونظر بعد لأي إلى برونو كما لو أنه، برغم ذلك، لا يراه. ثم راح يتمتم ويبحث عن الكلمات بإصرار وتصميم كأنما يخشى ألا يتمكن من التعبير بدقة:

ـ كانت.. تلك العلاقة مع أليخاندرا. كانت.

ولكن برونو الذي يكبره بثمانية وعشرين عاماً، تمكن من أن يكمل

العبارة بسهولة قائلاً: (كانت رائعة ومشؤومة في الوقت ذاته).

وتمتم وهو يشد على أصابعه من الألم:

ـ أنت تعرف.. لم تكن لي معها علاقة واضحة.. لم أكن أفهم قط..

وتناول مطواته البيضاء. تفحصها وفتحها، ثم قال:

ـ فكرت مراراً بأن ذلك كان كومضات.

كان يفتش عن التشبيه المناسب:

ـ كانفجارات نفط.. نعم كانفجارات نفط في ليلة مظلمة، في ليلة عاصفة.

وعادت عيناه تستقران على برونو، ولكنهما كانتا، بلا شك، تنظران إلى عالمه الداخلي الخاص، يأسرهما ذلك المشهد.

ثم أضاف يقول بعد مدة من التأمل:

ـ وإن كنت أحياناً، أحياناً قليلة حقاً، أخال أنها قضت بجانبي ضرباً من الراحة.

راحة.. (فكر برونو)، كتلك التي يقضيها الجنود في خندق، أو مأوى ما، عندما يتقدمون عبر أرض مجهولة ومظلمة، وسط جحيم نيران المدافع الرشاشة.

ـ كما أنني لم أتمكن من تحديد أي ضرب من المشاعر.

وحول نظرته إلى برونو ثانية، إنما، هذه المرة، لكي يراه، وكما لو أنه يطلب منه تفسيراً، ولما لم يقل برونو شيئاً، عاد يطرق برأسه، ويتفحص المطواة البيضاء ثم تمتم:

ـ طبعاً، لم يكن بوسع ذلك أن يدوم، فهو، كما في أيام الحرب، حين يعيش المرء، كما أتصور، لحظة بعد لحظة، لأن المستقبل غير أكيد ومخيف دائماً.

ثم بين له بعد ذلك، أن مؤشرات الكارثة شرعت، في غمرة ذلك الجنون، تظهر، مثلما يمكن تصور ما سيحدث في قطار أصيب سائقه بالجنون. كانت تثير قلقه وتجذبه في الوقت ذاته. وعاد ينظر إلى برونو.

ولكن برونو قال من قبيل المجاملة ولكي يكسر حدة الصمت:

- نعم إنني أفهم.

ولكن، ما الذي كان يفهمه..؟. ماذا..؟.

3

قال لي برونو، إن موت فرناندو، جعلني أعود إلى التفكير ملياً، ليس في حياته وحسب، بل في حياتي أيضاً، مما يكشف إلى أي مدى، وعلى أي نحو، كان وجود فرناندو يزلزل حياتي، وحياة خورخينا وحياة رجال ونساء آخرين كذلك.

يسألونني، ويتهمونني بقولهم: (أنت الذي عرفته من قرب).

ولكن كلمتي «عرفته» و «من قرب» تثيران الضحك، عندما يكون المعني فيدال. صحيح أنني عشت قريباً منه في مرحلتين أو ثلاث مراحل حاسمة، وتعرفت جزءاً من شخصيته: ذلك الجزء الذي كان كالجانب الذي يطل به القمر علينا. ولكن، صحيح أيضاً أن لدي بعض الظنون حول موته، وهي ظنون لا أشعر بأنني ميال إلى البوح بها، فاحتمالات الخطأ في الحكم عليه كبيرة جداً.

كنت قريباً من فرناندو «مادياً»، في بعض مراحل حياته، كما سبق وقلت:

أثناء الطفولة في كابيتان أولموس حوالي العام 1923، ثم، في منزله في بارّاكاس بعد ذلك بسنتين، وكانت أمه قد توفيت، وأخذه جده إلى هناك، ثم، في العام 1930، عندما كنا فتياناً في الحركة الفوضوية، وأثناء لقاءات عابرة في السنوات الأخيرة، بعد أن أصبح آنئذ بعيداً عن حياتي تماماً، وعلى نحو ما، عن حياة الجميع (باستثناء أليخاندرا طبعاً). فقد

أصبح في الواقع إنساناً بوسعنا أن ندعوه أو نسميه مجنوناً وكائناً غريباً عما نعتبره، بسذاجة ربما، «العالم». وما زلت أتذكر، عندما رأيته ـ ليس منذ زمن بعيد ـ يتمشى في شارع ريكونكيستا كأنه يسير وهو نائم. بدا أنه لم يرني، أو تظاهر بأنه لم يكن يراني، والافتراضان مشروعان كلاهما بالنسبة إليه، فنحن لم نلتق منذ أكثر من عشرين عاماً، إنما كانت هناك، برغم ذلك، أسباب كثيرة تدعوه ـ لو كان إنساناً عادياً ـ إلى أن يتوقف ويحادثني. وإن صح أنه رآني ـ وهذا أمر ممكن ـ فلماذا تظاهر بأنه لم يرني..؟. لا يمكن أن تكون الإجابة عن هذا السؤال محددة عندما يكون المعني «فيدال».

ولعل أحد الأجوبة الممكنة، أنه كان يمر آنذاك بإحدى نوبات هذيان المطاردة المعهودة فيه، وكوني من معارفه القدماء لم يكن سبباً لكي يطمئن إلي وإنما لكي يهرب مني.

كنت أجهل نواحي كثيرة من حياته جهلاً تاماً. أعرف طبعاً، أنه سافر إلى بلدان كثيرة. وإن كان أولى بي أن أقول «هرب» إلى بلدان شتى. ثمة آثار لتلك الرحلات والاستكشافات، ودلائل تعزى إلى أشخاص شاهدوه، أو سمعوا آخرين يتحدثون عنه: «ليا لوبلان» وجدته مرة في الـ «دوم»، و«كاستانينو» رآه مرة يأكل في مطعم في «بيازا دي اسبانيا» وما إن انتبه إلى أنهم عرفوه حتى اختبأ وراء جريدة كأنه مصاب بقصر البصر، وكأنه يقرأ باهتمام بالغ. وأكدت «بايسي» صحة أحد مقاطع تقريره: التقته في مقهى «توبي نامبا» في «مونتيفيديو». وهكذا كانت روايات الجميع. ذلك أننا لا نعرف شيئاً أكيداً أو متماسكاً عن رحلاته. أما تلك الاستكشافات التي قام بها في جزر الباسيفيك، وفي التيبت، فلا نكاد نعلم عنها شيئاً. وروى لي «غونسالو روخاس» أن بعضهم حدثه عن أرجنتيني (صفاته كذا وكذا)، كان يقوم بتحريات في

«فالبارا إيسو» ليبحر في سفينة شراعية، تقوم ما بين حين وآخر برحلات إلى جزيرة «خوان فرناندس»، وتوصلنا من هذه الوقائع ومما استطعت إضافته من تفاسير إلى أن ذلك الشخص كان «فرناندو فيدال».

ماذا كان يفعل في تلك الجزيرة..؟. نعلم أنه على صلة بأناس يمارسون تحضير الأرواح، وبآخرين يمارسون ضروب السحر الشيطاني، ولكن شهادة مثل هؤلاء الناس يجب ألا يعتد بها كثيراً، ولعل الواقعة الوحيدة، من بين كل تلك الأحداث الغامضة التي يمكن أن يكون لها قيمة إثباتية، لقاؤه «غوردجييف» في باريس، لأنهما تشاجرا وترتب على ذلك تدخل الشرطة. لعلك تود أن أحكم على مذكراته، على تقريره الشهير. أعتقد أنه لا يمكن اعتبارها وثائق تصور الوقائع الأصلية، وإن كان يجب اعتبارها حقيقية، وبمعنى أكثر عمقاً، يبدو أنها تعكس لحظات جنونه وهذيانه التي تشكل، في الواقع، مرحلة حياته الأخيرة كلها تقريباً. تلك اللحظات التي كان يختفي أو ينغلق فيها على نفسه.

ويخطر لي حيناً أن تلك الصفحات كانت كمنديل يلوح به «فيدال» مودعاً، بعد أن غرق في هاويات الجحيم، وكأنه يطلق، هاذياً ساخراً، كلمات الوداع الأخيرة أو صرخات نجدة يائسة غامضة مستترة وراء غروره وعجرفته.

كنت على طريقتي أيضاً أحب أليخاندرا، لكني أدركت أن أمها خورخينا من كنت أحب، وأنها حين صدتني دفعت بي نحو ابنتها. إن الزمن هو الذي جعلني أدرك خطئي، فعدت عندئذ إلى هواي الأول الذي سيدوم، كما أفترض، حتى موت خورخينا، حتى يتوافر بعض الأمل في أن أفوز بها. فهي، برغم ما قد يعتريك من دهشة، ما زالت حية، ولم تمت، كما تعتقد أليخاندرا.. أو كما تتظاهر بأنها تعتقد. كان

لدى أليخاندرا أسباب كثيرة لكي تكره أمها وتعتبرها ميتة، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار مزاجها وتصورها للعالم.

ولكن لا بد لي من أن أستدرك فأوضح أن خورخينا ـ عكس ما يمكن أن تفترض بعد هذا ـ امرأة بالغة الطيبة، ولا تستطيع إيذاء أحد، وعلى الأخص ابنتها.

فلماذا إذاً كانت أليخاندرا تكرهها على هذا النحو؟. ولماذا نأت بنفسها عن آل أولموس؟. لست أدري إن كنت سأتمكن من أن أجلو لك هذه القضايا، وسواها مما سيبرز فيما بعد من أمور تتعلق بتلك الأسرة التي أثرت كثيراً في حياتي، ثم في حياة هذا الفتى الآن. وأعترف بأنني كنت أنوي ألا أبوح لك بشيء عن حبي لخورخينا، لأنني، حسناً..لنقل، لأنني لا أميل إلى الحديث عن مآسيّ الشخصية، ولكنني أدرك الآن أن إلقاء الضوء على بعض نواحي شخصية «فرناندو» سيكون أمراً مستحيلاً إن لم أرو لك، على نحو وجيز، علاقتي بخورخينا. هل قلت لك إنها كانت ابنة خال فرناندو؟. نعم، والدها باتريسيو أولموس، وهي شقيقة البيبي، مجنون الكلارينيت، أما فرناندو فأمه آنا ماريا شقيقة باتريسيو أولموس، أرأيت؟. إن أواصر القرابة بين خورخينا وفرناندو وثيقة. والأمر بالغ الأهمية، أن خورخينا كانت تشبه آنا ماريا إلى حد يثير الدهشة: لم يكن شبهاً يقتصر على خصائصهما الجسدية وحسب، كما هو الأمر مع أليخاندرا، بل والروحية أيضاً: كانت أشبه ما تكون بالخلاصة النقية لأسرة أولموس من دون أن تُلَوّث بدم فيدال العنيف الشرير، حساسة وطيبة، خجولاً وخيالية قليلاً، وتمتاز بأنوثة مثيرة ورقيقة. أما علاقاتها بفرناندو..

لنتصور مشهد امرأة تأسرنا بنظرتها الحادة وجديتها وجمالها الفتان، ولكنها تُستخدم واسطة أو أداة في ممارسة التنويم المغناطيسي أو انتقال

الأفكار، يقوم به شخص مشؤوم يتمتع بقدرات هائلة. كلنا شاهد مثل هذا الاستعراض، وكلنا لاحظ كيف تطيع الواسطة آلياً أوامر الوسيط ونظراته البسيطة. وكلنا لاحظ نظرة ضحايا تلك الممارسة التي تشبه إلى حد بعيد نظرة الأعمى. لنتصور الآن أن تلك المرأة تجذبنا على نحو لا يقاوم، وأنها تميل إلينا قليلاً أثناء فترات صحوتها أو عندما تكون بكامل وعيها. ماذا يمكننا أن نفعل حين تكون تحت سيطرة المنوم..؟. لا شيء سوى القنوط والحزن.

هذا ما حدث لي مع خورخينا. فما إن كان يبدو أن تلك القوة الشريرة ـ في بعض الحالات الاستثنائية ـ كأنها تراجعت قليلاً (يا لتلك اللحظات الهشة العابرة ما أروعها) حتى تستند برأسها على صدري وتبكي. ولكن تلك اللحظات السعيدة كانت نادرة، إذ سرعان ما كانت خورخينا تعود إلى الانغماس في السحر، وعندئذ، لم يكن يجدي أي شيء معها: كنت أحرك يدي أمام عينيها وأكلمها، وأمسك بذراعيها، ولكن عبثاً، لأنها لم تكن تراني أو تسمعني أو تشعر بوجودي أبداً.

أما فرناندو، فهل كان يحبها؟. وكيف كان حبه لها؟. ليس بوسعي أن أبدي رأياً مؤكداً، لأنني أعتقد أولاً، إنه لم يكن يحب أحداً قط. ثم، إن شعوره بالتفوق الشديد كان يحول دون أن يشعر بالغيرة. وعندما كان يرى أحداً يحوم حولها كان يكتفي بالإعراب عن ازدرائه واحتقاره بإشارة عابرة. كان يعلم أن حركة بسيطة منه تكفي لتبديد أي شعور ينتابها، مهما كان شأنه. مثلما تكفي أي نقرة باليد لهدم حصن ورق اللعب الذي بني بجهد وصبر. وكان يبدو أن «خورخينا» تنتظر تلك الإشارة من فرناندو قلقة كأنها أكبر تعبير عن حبه.

كان عصياً لا يمكن أن ينال منه أحد. أتذكَّر على سبيل المثال، عندما تزوج فرناندو. ولكن، طبعاً، أنت لا تعرف ذلك. وإذاً سيكون لديك

سبب آخر للدهشة، لا لأنه تزوج وحسب، بل لأنه لم يتزوج ابنة خاله. والحقيقة أن المرء لو فكر ملياً، لكاد يكون من الصعب أن يتصور أن يتزوجها، وفي جميع الأحوال، لو كان الأمر كذلك، لأصبح مثار دهشة حقاً. لا: علاقته مع «خورخينا» كانت سرية، ففي ذلك الحين حظر عليه دخول منزل آل أولموس. ولا شك أن دون باتريسيو كان، برغم ماينطوي عليه من طيبة، يمكن أن يقتلها لو علم بالأمر. وحين وضعت خورخينا ابنتها.. حسناً، سيطول الشرح لو حدثتك عن كل ذلك، وليس ثمة فائدة ترجى منه. ولعله يكفي أن أقول إنها غادرت المنزل بدافع من الحياء والخجل أكثر من أي شيء آخر، ذلك أن أحداً ـ سواء دون «باتريسيو» أو زوجته «ماريا إلينا» ـ لم يكن قادراً على معاملتها بابتذال وقسوة، ولكنها ذهبت، واختفت قبل أن تضع أليخاندرا بقليل: وقد أستطيع أن أقول لك، كما يقال عادة، إن الأرض انشقت وابتلعتها. لماذا انفصلت إذاً عن أليخاندرا عندما كان عمر الفتاة عشر سنوات؟. ولماذا ذهبت الفتاة لتعيش مع جدتها في باراكاس؟. ولماذا لم تعد خورخينا إلى هناك بعدئذ..؟. إن كل ذلك ينأى بي بعيداً عن الموضوع، ولكن لعلك تُلمّ بالأسباب، لو تذكرتَ ما قلته لك عن الكراهية. كراهية أليخاندرا القاتلة لأمها التي كانت تتنامى كلما ترعرعت البنت وكبرت. أعود إذاً إلى ما كنت أحدثك عنه: زواج «فرناندو». يمكن أن يأخذ العجب أياً كان، من إقدام ذلك العدمي، ذلك الإرهابي الذي يهزأ بجميع أنواع المشاعر والأفكار البورجوازية، على الزواج، ولكنه سيتفاجأ أكثر عندما يعلم كيف تزوج. وممن.. كانت فتاة لا تتجاوز السبعة عشر ربيعاً، جميلة جداً، وثرية. وكان فرناندو يحب النساء الجميلات الشهوانيات، بقدر ما كان يزدريهن. وقد تأصلت في نفسه تلك النزعة منذ أن كان صغيراً. أجهل التفاصيل لأنني لم أكن أراه في ذلك الحين. وحتى لو كنت أتردد

عليه، لما تمكنت من معرفة الكثير عنه. كان رجلاً يمكن أن يعيش مرتاحاً في وضعين مختلفين أو أكثر. ولكنني سمعت كلاماً لا بد أن يكون له علاقة بالحقيقة المرة، مثل كل ما يمت بصلة إلى تصرفات «فرناندو» وآرائه. قيل لي إنه وضع نصب عينيه، طبعاً، ثروة تلك الفتاة اللعوب التي بهرها ذلك المهرج. كما قيل أيضاً إنه كان لفرناندو علاقات (بعضهم يؤكد قبل الزواج وآخرون خلاله وبعده) بأم الفتاة التي كانت امرأة يهودية بولونية في العقد الخامس من عمرها، ذات اهتمامات ثقافية، وتعتور حياتها مع زوجها صاحب مصنع النسيج السيد «زينفليد» صعوبات جمة. وهناك شائعات تقول إن فرناندو، حين كان يقيم علاقات مع الأم حبلت البنت، وإثر ذلك «لم يكن أمامه من سبيل سوى الزواج منها»، وقد أثارت هذه العبارة الضحك في نفسي كثيراً عندما سمعتهم يرددونها، فليس من المعقول أبداً أن تنطبق على فرناندو. وأكد بعض العارفين، ممن يوثق بهم أكثر من غيرهم، لأنهم كانوا يلعبون الـ «كانستا» معاً في المنزل في ضاحية سان إيسيدرو، أن مشاهد عاصفة من غيرة شديدة وتهديدات، حدثت بين ممثلي تلك المهزلة المضحكة، وأن فرناندو أكد حينئذ ـ وهذا ما أثار في نفسي الضحك أيضاً ـ أنه لا يمكن أن يتزوج السيدة «زينفيلد»، حتى إذا طلقت، لأنه ينتمي إلى أسرة كاثوليكية عريقة، وأن واجبه يقضي بأن يتزوج من الفتاة التي كان له علاقات بها.

من عرف «فرناندو» كما عرفته يعتبر تلك الأقاويل، كما يمكنك أن تفترض، ضرباً من التسلية المؤلمة، إلا أنها مع ذلك، تنطوي على جزء من الحقيقة، كما هو الحال دائماً في أشد الأساطير غرابة. فسرعان ما أصبحت وقائع حقيقية، وتزوج «فرناندو» من فتاة يهودية، ابنة سبعة عشر عاماً، وتَنعّم طيلة سنتين، في منزل في ضاحية (مارتينس)، اشتراه السيد

«زينفيلد» وقدمه هدية، وعندما بدد المال الذي حصل عليه من ذلك الزواج، ثم من ذلك المنزل، هجر الفتاة.

هذه وقائع.

أما التفسيرات والأقاويل فتحتاج إلى كثير من التحليل. ولعله ليس من نافلة القول أن أحدثك عما أفكر فيه، لأن تلك الأحداث تلقي على شخصية «فرناندو» ضوءاً ما، وإن لم يكن أكثر مما قد تلقي معرفة بعض شرور الشيطان المأساوية الهزلية من ضوء على ماهيته. أمر غريب: أول مرة يخطر لي فيها تعبير «مأساوية هزلية» وأنا أتناول شخصية «فرناندو»، وأعتقد أنه تعبير يستجيب للحقيقة. كان «فرناندو» شخصاً مأساوياً بشكل أساسي، ولكن ثمة لحظات في حياته يكتنفها المرح، وإن كان مرحاً شريراً. ومن المؤكد مثلاً، أنه انساق ـ أثناء تلك الأحداث المضطربة التي رافقت زواجه ـ وراء إحدى نوبات مرحه الشرير، ليقوم بأحد تلك الاستعراضات الهزلية الجهنمية التي كان يتلذذ بها كثيراً. فعبارة سيدات الـ «كانستا» مثلاً، التي رددنها، عن كاثوليكية أسرته، وعن استحالة زواجه من مطلقة، تنطوي على غلو مضاعف، لأنه إلى جانب الهزء بكاثوليكية أسرته، وبالكاثوليكية بعامة، وبجميع المبادئ وسائر الأسس التي يقوم عليها المجتمع، كان يرددها على مسامع أم الفتاة التي كانت له علاقات حميمة بها. تلك الطريقة في خلط ما هو محترم مع ما هو معيب، كانت إحدى خصائص فرناندو، كالكلمات التي قيل إنه كان يرددها لكي يحتفظ بمنزل ضاحية (مارتينس) الفخم: «لقد هجرت بيت الزوجية» في حين أن الفتاة لابد أن تكون، في الواقع، قد هربت مذعورة، أو ربما طردت بإحدى الطرق الشيطانية. كانت إحدى التسليات التي تروق فرناندو أن يصطحب إلى بيته نساء، ويقنع الفتاة (كانت قدرته على الإقناع تكاد تكون بلا حدود) باستقبالهن

وإكرامهن، بينما هن في الواقع عشيقاته، ولكن، مما شك فيه أنه كان يتدرج في تعذيبها على هذا النحو، لكي تتعب شيئاً فشيئاً، حتى تهرب في نهاية المطاف من المنزل، وهذا ما كان فرناندو ينتظره. لست أدري كيف استولى على المنزل، ولكنني أفترض أنه عرف كيف يرتب الأمر مع الأم (التي ظلت تحبه وتغار عليه من ابنتها) ومع السيد «زينفيلد». كيف تمكن هذا الرجل من أن يصبح صديق من جعلت منه الأقاويل عشيقاً لزوجته؟. وكيف تمكنت هذه الصداقة من جعل رجل الأعمال الماكر، يقدم على إهداء منزل فخم إلى ذلك الشخص الذي لم يكن عشيق زوجته وحسب، بل سبب تعاسة ابنته أيضاً؟. كل ذلك سيبقى دائماً أحد الألغاز التي تكتنف شخصية فيدال الغامضة. لكنني مقتنع بأنه لكي يحقق ذلك قام بصفقة خفية، كتلك الصفقات التي يعقدها الحكام «المكيافيلون» مع أحزاب المعارضة المتنافرة فيما بينها. رأيي هو ما يلي: كان «زينفيلد» يكره زوجته التي لم تكن تخونه مع «فرناندو» فقط، بل قبل ذلك مع شريك له يدعى «شابيرو». وقد شعر بارتياح بالغ عندما بلغه أن هناك من يقوم بإذلال تلك المتحذلقة التي طالما ازدرته، وتعذيبها. ولعل انتقاله من ذلك الارتياح البالغ إلى الإعجاب ثم التعاطف لم يكن يتطلب سوى خطوة واحدة، ساعد على اجتيازها موهبة فرناندو في إغواء من يشاء، عندما يستدعي الأمر ذلك، تلك الموهبة التي عززها افتقاره افتقاراً مطلقاً إلى الصدق والشرف، ذلك أن الأشخاص الصادقين والشرفاء، حين تشوب صداقاتهم بوادر الامتعاض التي لا بد أن تظهر في ألف مناسبة ومناسبة بين المخلوقات البشرية، وحتى بين أخلص الأصدقاء، لا يستطيعون أبداً بلوغ تلك المآثر السحرية المطلقة التي يستطيع المستهترون والمنافقون تحقيقها. ولذلك، فإن وقع الأكذوبة في نفوس الناس يكون دائماً مستساغاً أكثر من وقع الحقيقة التي تشوبها، باعتبارها

حقيقة، العيوب التي توجد لدى أقرب الناس إلى الكمال، أكثر من نود أن نسر ونرضي. ولعل السيد «زينفيلد» كان يزداد شعوراً بالرضى كلما ثبت له أن آلام زوجته تعود إلى الإذلال الذي يلحق بكبرياءها، لأسباب يفترض أنها تمت إلى عمرها بصلة، وذلك لأن «فرناندو»، كان يخونها مع فتاة شابة وجميلة. كما أن السيد «زينفيلد» (ولعل هذا كان عنصراً له أثره أيضاً) ليس الخاسر في هذه العملية، لأنه في جميع الأحوال، كان قبل ذلك، الزوج المخدوع، ولكن الخاسر هو السيد «شابيرو» الذي ربما كان يشعر، لأنه الخادع، بعنفوان شديد وهش أيضاً، يفوق عنفوان «زينفيلد»، وهزيمة السيد شابيرو في هذا المجال الذي يتفوق به على شريكه (لأن زينفيلد مهما كانت عيوبه كزوج، كان رجل أعمال مشهوداً له بالدهاء) أودت به إلى درك من الإذلال، برزت معه من جديد قوة «زينفيلد».

وكان لابد من أن يكون الأمر كذلك، لا لأن شركات النسيج تلقت دفعاً من عمليات جديدة وجريئة وحسب، بل لأن معاملة «شابيرو» اللطيفة واللبقة لشريكه أمام الآخرين، منذ أن تزوج فرناندو، أصبحت شائعة وحديث الجميع أيضاً.

أما عن خورخينا فسأروي لك شيئاً متميزاً. حدث الزواج في 1951 والتقيتها آنذاك في شارع (مايبو) قريباً من الجادة. وكان ذلك أمراً غريباً، لأنني لم أكن قد رأيتها منذ عشر سنوات. ما إن بلغت الأربعين من عمرها حتى خبت حيويتها وذهب شبابها وتملكها الحزن، وهيمن عليها الصمت أكثر من أي وقت مضى. وعلى الرغم من أنها كانت متحفظة قليلة الكلام دائماً، إلا أن صمتها كان في ذلك الحين لا يطاق. كانت تحمل رزمة، وشعرت، كما هو حالي دائماً، بعاطفة جياشة. أين كانت حبيسة في تلك السنوات؟. في أي أماكن سخيفة كانت تعيش مأساتها

خفية..؟. ما عساها فعلت طيلة ذلك الوقت، وبماذا فكرت ومم عانت..؟. كان بودي لو أستطيع أن أسألها عن كل ذلك، ولكن عبثاً، وإذا كان أمراً عسيراً بدء حوار معها، فإن الحصول منها على جواب عن حياتها الخاصة كان أمراً مستحيلاً، كانت خورخينا تبدو لي دائماً شبيهة بتلك البيوت التي توجد في بعض الأحياء المتطرفة، وتبقى تقريباً، مغلقة يخيم عليها الصمت دائماً، يقطنها أناس تقدم بهم العمر واكتنفت حياتهم الألغاز، شقيقان عازبان، رجل وحداني أصابته مأساة، فنان فاشل أو مجهول، كاره للبشر مع كناري وهر. بيوت لا تعرف عنها شيئاً سوى أن أبوابها تفتح وتوصد في ساعات معينة، ليدخل منها، على نحو لا يكاد يلاحظه أحد، ليس البائعون أو أجراؤهم، وإنما الأشياء التي يأتون بها وحسب، فتمتد من خلال باب موارب يد القاطن الوحداني لالتقاطها. بيوت ينيرها ليلاً مصباح واحد فقط، قد يكون مصباح مطبخ يستخدمه القاطن الوحداني لطعامه وإقامته، وما إن ينطفئ حتى يشتعل مصباح غرفة أخرى، حيث ينام أو يقرأ أو يقوم ببعض الأعمال السخيفة، كبناء مركب صغير وسط زجاجة. نور وحيد حملني دائماً على أن أتساءل كمخلوق فضولي يعيش على التكهنات، من ذلك الرجل، أو تلك المرأة، أو هذان العازبان يا ترى؟. ومم يعيش؟. أمن عقار مؤجر ورثه؟. لماذا لا يخرج أبداً؟. ولماذا يبقى هذا المصباح مضيئاً حتى ساعة متأخرة من الليل؟. أهو يقرأ؟. أم يكتب؟. أم أنه أحد تلك الكائنات المتوحدة الخائفة، التي لا تجد سبيلاً إلى مقاومة العزلة إلا بمساعدة العدو الكبير للأشباح، الحقيقية والوهمية، ألا وهو النور؟.

كان الأمر يتطلب أن أمسك بذراعيها، وأكاد أهزها لكي تعرفني. كانت تبدو كأنها تسير شبه نائمة، وكان أمراً مفاجئاً حقاً أن أراها حية في خضم فوضى حركة السير في بوينس أيرس.

ارتسمت على محياها المتعب ابتسامة، بدت كضوء شمعة خافت ينير قاعة مظلمة يخيم عليها الصمت والحزن.

قلت وأنا أقودها إلى مقهى *لندن*:

ـ تعالي.

جلسنا معاً، ووضعت يدي فوق إحدى يديها. كم كانت هزيلة..!. لكنني، مع ذلك، لم أعرف ماذا أقول لها، وماذا أسألها. لم يكن بوسعي أن أسأل عن الأمور التي تستأثر باهتمامي حقاً، وأما الأمور الأخرى، فما حاجتي إلى السؤال عنها؟.!. اقتصرت على النظر إليها بإمعان ـ كمن يتأمل بصمت مناظر قديمة تعود إلى أيام مضت ـ أشاهد بحنو وكآبة ما فعلت الأيام بمحياها: أشجار وقعت، وبيوت تهدمت، وأعمدة صدئت، ونباتات غريبة نمت في الحديقة القديمة، وطفيليات ملتفة، وغبار فوق ما بقي من أثاث.

لم أتمكن من كبح جماح انفعالي، فقلت بلهجة استنكار يخالطها التهكم والأسى:

ـ هكذا، فقد تزوج فرناندو إذاً.

كان ما أقدمت عليه أمراً بغيضاً، برغم أنني قلت ذلك بلا وعي، فندمت في الحال على ما فعلت.

وأخذت تنحدر من عيني خورخينا ببطء شديد دمعتان لا يكاد المرء يشعر بهما، وكأنهما عبرات إنسان يشرف على الموت من شدة الجوع والتعذيب، تنتزع منه آخر اعترافاته التي يتمتم بها، تحت وقع آخر الضربات القاسية.

والأمر الغريب أنني في تلك اللحظة، بدلاً من أن أقدم ما يخفف من وطأة عبارتي الجارحة، قلت بتشفٍ.

ـ أو تبكين كذلك..!.

لاح في عينيها للحظة بريق بدا أنه يشابه بريقهما القديم، مثلما تشابه الذكرى واقعاً مضى. قالت:

ـ لا أسمح لك بأن تحكم على فرناندو.

سحبت يدي.

لذنا بالصمت، وبعد أن انتهينا من شرب القهوة بهدوء قالت:

ـ ينبغي أن أذهب.

استولى علي ذلك الغم القديم، الذي بقي غافياً طيلة سنوات البعاد. من يدري متى سأراها ثانية؟.

ودعتها بصمت، ولكنها بعد أن ابتعدت عدة خطوات توقفت لحظة، واستدارت قليلاً والتفتت بحياء، وخلت إنني لمحت في نظرتها مزيجاً من الغم والحنان والقنوط، فكرت في أن أجري وراءها، وأقبل محياها الذاوي، وعينيها الدامعتين، وفمها المشبع بالمرارة، وأرجوها وأتوسل إليها أن نلتقي ثانية، وأن تسمح لي بأن أكون قريباً منها، ولكنني أحجمت. فقد كنت أعلم أنني أروم المستحيل، وأن قدرنا يحتم علينا ألا نلتقي، حتى الموت.

هجر فرناندو زوجته بعد قليل من ذلك اللقاء العارض، وعلمت أن منزل ضاحية (مرتينس)، هدية السيد «زينفيلد» الشهيرة، بيع بالمزاد، وأن «فرناندو» ذهب ليعيش في بيت متواضع في (فياديفوتو).

يحتمل أن كثيراً من الأمور قد حدثت في تلك الأثناء، وأن تلك العملية كانت نتيجة ما خالط حياة فرناندو من اضطراب. لأنني أعلم أنه كان في ذلك الوقت يقامر في «كازينو مار دل بلاتا» وقد خسر مبالغ طائلة، وقيل لي أيضاً إنه شارك في صفقة كبيرة لشراء أرض قرب مطار

(إيسيسا) على الرغم من أن تلك يمكن أن تكون مجرد إشاعات، روجها بعض أصدقاء أسرة زينفيلد. ولكن من المؤكد أنه ذهب في نهاية المطاف ليسكن في ذلك المنزل الوضيع في (فياديفوتو)، الذي عُثر فيه على ***التقرير عن العميان***.

قلت لك إن زينفليد ساعده. وأظن الآن، أنه من الأفضل لو قلت (كافأه) بمناسبة زواجه الغريب. لقد وقع، مثله مثل كثيرين، في شباك فرناندو، وحتى إنه مد له يد المساعدة فيما بعد، أثناء، مضارباته، وأنقذه من ورطات حينما كان يقامر. ومع ذلك، فإن تلك المفارقة، وأقصد، صداقته للسيد زينفيلد انتهت، أو لا بد أن تكون قد انتهت، لأسباب أجهلها، وإلا فليس هناك ما يفسر ما وصل إليه فرناندو من بؤس.

عندما التقيته آخر مرة في الشارع (لا أقصد اللقاء في كونستيتوسيون عندما تظاهر بأنه لم يعرفني، أو إنه ربما بسبب شروده لم يرني، بل أقصد، في المدة الأخيرة أثناء هوسه بالعميان)، كان يرافق شخصاً فارع القامة، أشقر اللون ذا ملامح قاسية لا ترحم. وبما أنني التقيت فرناندو وجهاً لوجه، فإنه لم يتمكن من الهرب مني، وتبادلنا بضع كلمات، بينما تنحى الآخر، بعد أن عرّفني باسمه، وأخذ ينظر إلى الشارع، أظن أن اسمه كان ألمانياً، لكنني الآن لا أتذكره. عثرت بعد مضي عشرة أشهر على صورته منشورة في صفحة الشرطة في جريدة «***لاراسون***». كان بوجهه الذي لا يرحم وبشفتيه الحادتين المطبقتين ممن لا يمكن أن ينسى. كانت الشرطة تبحث عنه وعن أشخاص آخرين بتهمة السطو على فرع مصرف غاليسيا في حي فلوريس. كانت عملية سطو متقنة. وتقول بعض الفرضيات إنها تمت على أيدي فدائيين مدربين على العمليات الحربية. كان ذلك الشخص بولونياً سبق له العمل كفدائي في جيش (أندريه) ولم يكن اسمه هو الاسم ذاته الذي ذكره لي فرناندو.

أكدت لي تلك الازدواجية في اسمه أن الشرطة ليست مخطئة. كان ذلك الشخص، حين حدث اللقاء العابر آنذاك، يُعِدُّ لأمر خطير. أكان لفرناندو علاقة بتلك العملية؟. ذلك محتمل جداً، فهو منذ صغره كان يقود عصابة سطو في أفيجانيدا. ووضعه المادي البائس يرجح أنه عاد إلى هواه القديم: السطو على مصرف. وكان يخال أن تلك طريقة مثالية للاستيلاء ـ بضربة واحدة ـ على مبلغ كبير من المال، إلى جانب أنها تنطوي على قيمة رمزية بالنسبة إليه.

قال لي أكثر من مرة، حين كنّا فتياناً:

ـ المصرف: إنه بالتأكيد، هيكل الروح البرجوازية.

ومع ذلك، لم يكن اسمه بين أولئك الذين كانت الشرطة تبحث عنهم.

ثم مضت السنتان الأخيرتان ولم أره، ويبدو أنه كان منهمكاً، يحاكم ـ بتلك الأوراق الغريبة، وبذلك الاستكشاف اللامعقول ـ العالم التحتي.

وأذكر أنه، منذ عرفته، عاش مهووساً بالعميان والعمى.

قبل قليل من موت أمه، عندما كنا نعيش في (كابيتان أولموس)، أتذكر حادثة لا يمكن أن تنسى. أمسك بدوري، وذهب به إلى غرفة في الأعلى كان يسميها حصنه، وفقأ عينيه بإبرة، ثم أطلق سراحه. راح العصفور الذي جن جنونه من الألم والخوف يتخبط على الجدران كالمجنون، من دون أن يتمكن من الاهتداء إلى الخروج عبر النافذة. شعرت وأنا أحاول أن أوقف تلك المجزرة بالغيثان، وأتذكر أنه أغمي عليّ وأنا أهبط درجات السلم. وكان لا بد، قبل أن أسترد قواي، من أن أتمسك بالحاجز وقتاً طويلاً، بينما أسمَع «فرناندو» في الأعلى يهزأ بي.

وعلى الرغم من أنه روى لي مراراً أنه اقتلع عيون عصافير وحيوانات أخرى، فقد كانت هذه أول مرة أراه فيها يفعل ذلك كما كانت الأخيرة، ولن أنسى ما دمت حياً الرعب الذي انتابني في ذلك اليوم.

لم أعد بعد تلك الحادثة إلى المزرعة، أو إلى بيته قط. وحرمت نفسي مما كان بالنسبة إلي أكثر أهمية: رؤية أمه وسماعها. ولكن، عندما أفكر في الأمر الآن، لا أشك في أنني فعلت ذلك، لأنني لم أكن أطيق أن تكون تلك المرأة أم فتى مثل فرناندو، وزوجة رجل مثل خوان كارلوس فيدال الذي ما زالت ذكراه، حتى اليوم، تثير الاشمئزاز في نفسي.

كان فرناندو يكره والده. كان عمره آنذاك اثني عشر عاماً، وكان أسمر اللون وفظاً مثله، وعلى الرغم من كراهيته له، فإن أوجه شبه كثيرة، جسمية ومزاجية، كانت مشتركة بينهما. كان وجهه يتسم ببعض الصفات الخاصة بآل أولموس: عيناه خضراوان ووجنتاه بارزتان. وكل ما سوى ذلك ورثه من والده. كان اشمئزازه من ذلك الشبه يزداد عاماً بعد عام، وأعتقد أن شبهه بأبيه كان أحد الأسباب الرئيسية لما كان ينتابه فجأة من كراهية لذاته. إن عنفه وشهوانيته الوحشية، ذلك كله ورثه من والده.

كنت أخشاه. كان صموتاً، ولكن سرعان ما كانت تنتابه فجأة حمى غضب أعمى. كانت ضحكته فظة. ولعله ـ كرد فعل ضد والده الذي كان داعراً وسكيراً ـ لم يذق طعم الخمر طيلة سنوات شبابه، وكثيراً ما رأيته يستسلم للزهد بغتة، كأنه يود تعذيب نفسه، ولكنه سرعان ما كان يعود إلى الانغماس في شبق سادي، فيستخدم النساء لإشباع ضروب من الرغبات الجهنمية، ثم يزدريهن ويطردهن باستهزاء شديد، كأنهن السبب في ما يشوبه من عيوب. وكان، على الرغم من تظاهره الكاذب وتهريجه، صارماً وحيداً وليس لديه أصدقاء، ولا يود أن يصادق أحداً،

أو لا يستطيع أن يفعل ذلك. أعتقد أنه كان يحب أمه فقط، وإن كان يصعب أن أتصور أن ذلك الفتى يمكن أن يحب أحداً، إذا كنا نعني بتلك الكلمة التعبير عن شكل من أشكال العاطفة أو الحنان أو الود. ولعل شعوره نحو أمه، لم يكن سوى شغف مرضي وهستيري. أتذكر حادثة: كنت قد رسمت بالألوان المائية صورة لحصان أصهب يدعى «فريتز» كانت آنا ماريا تمتطيه وتحبه حباً جماً، فأعجبت بالصورة، وقبلتني بشغف، فما كان من فرناندو إلا أن هاجمني واعتدى علي. وعندما أبعدته أمه عني وعنفته، توارى عن الأنظار، ولما وجدته قرب الجدول حيث اعتاد أن يسبح، حاولت أن أصالحه، فأصغى إلي بصمت وهو يقضم أظافره جرياً على عادته عندما يكون غاضباً، وفجأة، انقضّ عليّ والسكين مشرعة في يده. قاومته بفارغ الصبر، ولم أفهم لذلك الغضب سبباً. ولما تمكنت من انتزاع السكين من يده، طوحت بها بعيداً، فتركني وذهب ليلتقطها، وكم كانت دهشتي عظيمة عندما رأيت أنه لم يعد لينقض علي، كما كنت أتصور، بل غرز السكين في يده. وكان لابد أن تنصرم سنوات قبل أن أدرك، أي عنفوان يمكن أن يفسر تلك الحادثة.

وقع بعد زمن قصير حادث الدوري، ولم أره بعد ذلك، كما لم أعد إلى بيته أو إلى المزرعة البتة. كان عمرنا اثني عشر عاماً. وبعد أشهر، توفيت آنا ماريا، في الصيف. قال بعضهم إنها ماتت غمّاً، وقال البعض الآخر إنها تناولت أقراصاً منومة.

انصرمت ثلاث سنوات قبل أن ألتقيه. كنت أعيش في نزل في «بوينس أيرس» وحيداً مع الخمسة عشر عاماً من سنوات عمري المثيرة للضحك، ولكن أفكاري كانت تعود بإصرار، في أيام الأحد الطويلة، إلى كابيتان أولموس.

أظنني قلت لك إنني لا أكاد اعرف أمي التي ماتت عندما بلغت العام الثالث من عمري، فكيف يمكن أن تستغرب، إن قلت إن كابيتان أولموس قد ارتبطت بذهني، وإلى حد بعيد، بذكرى آنا ماريا؟. كنت أراها في تلك الأمسيات في المزرعة أيام الصيف تلقي بالفرنسية تلك الأبيات الشعرية التي لم أكن أفهمها، لكنها كانت تثير في نفسي وأنا أسمعها بصوت آنا ماريا الرصين لذة خفية.

كنت أفكر: (إنهم هناك.. إنهم هناك) وكنت في أعماق نفسي وإرادتي، وأنا أستخدم صيغة الجمع هذه، أقوم بعملية خداع ذاتي ساذجة، فأعتبر أنها موجودة بينهم: وكأن روحها تعيش على نحو ما في ذلك المنزل القديم في بارّاكاس، الذي كنت أعرفه كما لو أنني رأيته (من كثرة ما كانت آنا ماريا تحدثني عنه)، وكأنما يمكن تلمس آثارها، ظاهرة أو مستترة، في ابنها الذي يثير الاشمئزاز، وفي خورخينا، وفي والدها، وأخواتها. وكنت أطوف حول الدار، ولم أجرؤ قط على أن أطرق بابها، إلى أن رأيت في أحد الأيام فرناندو مقبلاً نحوها، فلم أود أن أهرب أو لم أستطع أن أفعل ذلك.

سألني وابتسامة احتقار تعلو وجهه:

ـ أنت..؟.

وعدت أشعر وأنا أمامه، بذلك الشعور المبهم بالذنب، الذي يعتريني دائماً كلّما لقيته.

ـ ما الذي تفعله هنا؟.

كانت عيناه النفاذتان الشريرتان تحولان بيني وبين أن أكذب، ثم إن الكذب لا يجدي معه: أدرك أنني كنت أطوف حول الدار. وشعرت كأنني مجرم مبتدئ وأخرق، لا قدرة لي على أن أبوح له بمشاعري

وحنيني، كمن يكتب قصيدة حب رومانسي في قاعة غاصة بأجساد الموتى، فقبلت خجلاً صامتاً أن يأخذني معه ـ وكأنه يتصدق علي ـ لكي أرى ذلك البيت، وحينما اجتزنا الحديقة مساء ذلك اليوم، كان يتضوع منها فوح الياسمين البلدي القوي، الذي سيبقى بالنسبة إلي دائماً «البلدي» وسيعني دائماً: ***بعيداً، أماً، حناناً، لا، لن يتكرر أبداً.*** خلت إنني رأيت في البرج وجه امرأة عجوز، أو شبحاً ما لاح وسط الظلال، وانكفأ بهدوء وصمت. كان مبنى البيت الرئيسي متصلاً بالبناء الصغير حيث أقيم البرج برواق مسقوف، وبعيداً عنه كأنه يشكل شبه جزيرة. وكان ذلك البناء الصغير مؤلفاً من غرفتين، لاشك أنهما كانتا فيما مضى مسكناً للخدم، ومن الطبقة الأرضية للبرج. (الذي كان، كما رأيته فيما بعد، أثناء التجربة التي أخضعني إليها فرناندو، مستودع أمتعة، يصله سلم خشبي بالطبقة العليا)، ومن سلم حلزوني يمتد من الخارج حتى الشرفة التي تؤدي إلى البرج. كانت الشرفة تغطي الغرفتين الكبيرتين، ويحيط بهما، كما هو مألوف في كثير من أبنية تلك الأيام، حاجز أصبح في ذلك الحين متداعياً. سار فرناندو في الرواق من دون أن ينبس بكلمة، ودخل إلى إحدى الغرفتين. حين أشعل المصباح، أدركت أنها لابد أن تكون غرفته: كانت الغرفة تحتوي على سرير، ومنضدة طعام قديمة يستخدمها مكتباً، وصواناً، ومجموعة من قطع أثاث متداعية لا فائدة منها، ويبدو أنها حُفظت هناك لعدم وجود مكان آخر توضع فيه، بعد أن تعرض البيت إلى سلسلة من الاقتطاعات. ما إن وصلنا، حتى دخل من باب يتصل بالغرفة الأخرى صبي أثار في نفسي، منذ رأيته، اشمئزازاً غريباً، فسأل من دون أن يلقي التحية، وبلا مقدمات: (هل أتيت به؟.) فقال فرناندو بجفاء: (لا). نظرت إليه مندهشاً: فتى يبلغ عمره حوالي أربعة عشر عاماً، ذو رأس ضخم متطاول كأنه كرة «ركبي»

وبشرة بلون العاج، وبضع شعرات ناعمات منسدلات، وفك ناتئ، وأنف حاد، وعينين محموتين خلفتا في نفسي اشمئزازاً غريباً: لعله كالاشمئزاز الذي يمكن أن ينتابنا إذا ما رأينا مخلوقاً من كوكب آخر، يكاد يكون مثلنا تماماً، ولكنه يتسم باختلافات مريعة جداً.

لم يجب فرناندو، في حين نظر الآخر إليه بعينيه المحموتين، وقرب إلى شفتيه فم مزمار أو كلارينيت، ليشرع في نفخ بعض النغمات. قلّب فرناندو كومة من مجلات «تيت ـ بيتس» ملقاة في ركن على الأرض. كان يبدو أنه يبحث عن شيء معين، ولا يشعر بحضوري، كأنني أحد سكان البيت العاديين. أخذ عدداً يحمل غلافه صورة بطل العدالة المجنحة. وعندما رأيته يستعد، كما يبدو، للخروج ولا يكترث بي، شعرت بانزعاج بالغ: فأنا لا أستطيع أن أخرج معه كأنني صديق من أصدقائه، لأنه لم يطلب مني أن أدخل من قبل، وهو لم يقم بدعوتي إلى مرافقته، وليس بوسعي أن أبقى في الغرفة مع الصبي الغريب صاحب «الكلارنيت». شعرت بأنني أتعس مخلوقات العالم وأتفهها، ولكنني أدرك الآن أن فرناندو فعل كل ذلك آنذاك عامداً وبدافع شرير محض.

وعندما دخلت تلك الفتاة ذات الشعر المخضب بالحمرة وابتسمت لي شعرت بارتياح عارم. أما فرناندو فذهب حاملاً مجلته وهو يبتسم بسخرية، من دون أن يكلف نفسه عناء تحيتي. مكثت أنظر إلى خورخينا: لقد تغيرت كثيراً. لم تعد تلك الفتاة النحيلة التي عرفتها في كابيتان أولموس حينما وافت المنية آنا ماريا. لقد أصبحت الآن ابنة أربعة عشر أو خمسة عشر ربيعاً، وبدأت تقترب من صورتها النهائية، مثلما يقترب مخطط الفنان البدائي الأولي إلى كماله الفني، ولعلي حين رأيت كيف أخذ نهداها ينموان تحت قميصها، تضرجت وأطرقت أنظر إلى الأرض.

قال «بيبي» و «الكلارنيت» في يده:

ـ لم يأت به.

فأجابته بلهجة أم تخاتل ابنها.

ـ حسناً، سيأتي به.

ـ متى؟.

ـ قريباً.

ـ حسناً. ولكن متى؟.

ـ قلت لك قريباً، سترى، والآن اجلس هناك، واعزف على «الكلارنيت».. هلاّ فعلت؟.

قادته من ذراعه إلى الغرفة الثانية برقة، وهي تقول لي «تعال يا برونو»، فتبعتهما ودخلت: قد تكون تلك الغرفة التي ينام فيها الأخوان. كانت تختلف كلياً عن غرفة فرناندو، وعلى الرغم من أن أثاثها كان متداعياً مثل أثاث الغرفة الأخرى، إلا أنها تميزت عنها بمسحة أعزوها إلى الرقة والأنوثة.

قادته إلى كرسي، وأجلسته وقالت له:

ـ ستبقى الآن هنا كي تعزف، أليس كذلك؟.

ثم بدأت، وكما لو أنها ربة منزل تستعد لاستقبال ضيوفها بعد أن فرغت من إتمام بعض الأعمال المنزلية، تريني أشياءها: إطار تطرز عليه منديل لوالدها، ودمية كبيرة سوداء أسمتها إلفيرا، كانت تضعها بجانبها عندما تأوي إلى فراشها، ومجموعة من صور ممثلي السينما وممثلاتها معلقة بدبابيس على الجدران: فالانتينو بلباس شيخ، بولا نيغري و غلوريا سوانسون في *الوصايا العشر*. وليم دونكان وبير لاهوايت. ناقشنا محاسن كل منهم ومساوئه، والأفلام التي شارك فيها، بينما كان الـ بيبي

يكرر تلك النغمة ذاتها على الكلارنيت. كانت تفضل رودولفو فالنتينو على الجميع، أما أنا فكنت أميل إلى «إيدي بولو» على الرغم من إقراري بأن فالانتينو كان ممثلاً عظيماً. وعن الأفلام، تحدثتُ بحرارة عن ***وجه الأخطبوط***، ولكن خورخينا قالت ـ ووجدت أنها على حق ـ إن ذلك الفيلم مخيف جداً، وكان يتعين عليها أن تدير وجهها في كثير من المناظر كي لا تراها.

توقف بيبي عن العزف وراح ينظر إلينا بعينيه المحمومتين، فقالت له، على نحو آلي، بينما بدأت توشي المنديل.

ـ اعزف يا بيبي.

ولكنه ظل صامتاً يحملق إلي.

فقالت:

ـ حسناً أَرِ برونو إذاً، ما لديك من صور.

انفرجت أساريره وترك «الكلارنيت» جانباً، وأخرج من تحت سريره، بحماسة علبة أحذية.

وبينما كان نظرها لا يحيد عن إطار التطريز قالت بجد، وبآلية كتلك التي تستخدمها الأمهات لتوجيه أبنائهن، عندما يكن منهمكات في أعمال منزلية ذات أهمية:

ـ أره يا بيبي.

وقف بيبي بجانبي وعرض علي كنزه.

هكذا كان أول لقاء لي بخورخينا في منزلها: كان لا بد أن تعتريني الدهشة في اللقاءين التاليين الثاني والثالث، حين كانت تنقلب بحضور «فرناندو» إلى كائن مستسلم أعزل. والأمر الغريب أنني لم أتجاوز قط الغرفتين الموجودتين في أطراف المنزل (باستثناء تجربة البرج المرعبة التي

سأتحدث عنها) واقتصرت صلتي على أولئك الفتيان الثلاثة، أو الكائنات الثلاثة المتناقضة الغريبة: طفلة رائعة مملوءة رقة وأنوثة، خاضعة لسيطرة كائن جهنمي، ومتخلف عقلياً أو شيء من هذا القبيل، وشيطان. أما غرف البيت الأخرى، فقد علمت عنها أنباء ملتبسة ومتباينة، ولكنني لم أتمكن في المرات القليلة التي كنت فيها هناك، من رؤية أي شيء مما يجري بين جدران المنزل الرئيسي. وقد حال خجلي آنذاك دون أن أسأل «خورخينا» (وهي الوحيدة التي كان بوسعي أن أسألها) عن والدها وعمتها ماريا تيريسا وجدها بانشو، وكيف يعيشون، ويبدو أن أولئك الفتيان كانوا يقطنون الغرفتين مستقلين، تحت سيطرة فرناندو.

بعد سنوات، أي حوالي 1930 تعرفت بقية من كان يقطن هناك، وأدرك الآن أن حدوث أي أمر أو عدم حدوثه، في ذلك المنزل في شارع «ريوكوارتو» بوجود تلك الشخصيات، كان من الأمور المتوقعة. أعتقد أنني سبق وقلت لك إن آل «أولموس» يعانون جميعاً (باستثناء فرناندو وابنته، ولأسباب أتيت على ذكرها) من ضرب من اللاواقعية، ويوحون بأنهم لايعيرون اهتماماً لقسوة العالم الذي يحيط بهم: يزدادون فقراً يوماً بعد يوم، ولا يهتدون إلى سبيل سليم لكسب المال، أو المحافظة ـ في أبسط الأحوال ـ على ما تبقى من ممتلكاتهم، ولا يدركون شيئاً عن التطورات ولا عن السياسة. يعيشون في منطقة كانت سبباً في ما أثاره أقاربهم من أقاويل السخرية والسوء. تزداد الهوة اتساعاً يوماً بعد يوم، بينهم وبين الطبقة التي ينتمون إليها. كان آل أولموس يوحون بأنهم يشكلون نهاية أسرة عريقة، وسط حميا الفوضى، في مدينة قاسية لا ترحم، تشكلت من عناصر اجتمعت من مختلف أنحاء العالم، تهيمن عليها روح الاحتكار والتجارة. كانوا يحافظون فيها ـ من دون أن يدركوا طبعاً ـ على فضائل قديمة، ألقتها جانباً أسر عريقة كثيرة، كما

يلقى الحمل الزائد من السفينة كي لا تغرق: كانوا مضيافين وكرماء، وزعماء بسطاء، وأرستقراطيين متواضعين. ولعل حقد أقربائهم عليهم يعود إلى أن أولئك الأقرباء، لم يتمكنوا من التمسك بتلك الفضائل، بل انخرطوا في العمل التجاري والمادي الذي أصبحت البلاد مسرحاً له منذ نهايات القرن.

وكما يكون الأبرياء محط حقد بعض المذنبين، كان آل أولموس السذج، المعزولون على نحو يثير الضحك في منتجع باراكاس القديم، محط حقد أقربائهم: لأنهم لا يزالون يعيشون في حي قديم أصبح الآن حياً شعبياً، بدلاً من أن ينتقلوا إلى «الحي الشمالي» أو إلى ضاحية «سان إيسيدرو»، ولأنهم لا يزالون يشربون «الماتي» بدلاً من الشاي، ولأنهم فقراء لا يملكون قبراً يُوارَون فيه، ولأنهم يخالطون أناساً بسطاء لا تقاليد لهم. وإذا ما أضفنا إلى ذلك أن آل أولموس لم يفعلوا أي شيء من كل هذا عمداً، وأن كل تلك الفضائل التي جرّت على الثلاثة عيوباً مذلة كانت تمارس ببراءة وبساطة، كان من السهل أن ندرك أن تلك الأسرة شكلت برأيي، وبرأي آخرين غيري، رمزاً مؤثراً وكئيباً لوضع انحسر عن البلد ولن يعود إليه أبداً.

حين خرجت في تلك الليلة من الدار، وكنت على وشك عبور بوابة السور، لست أدري لماذا ارتدت عيناي نحو البرج. كان النور المنبعث من النافذة خفيفاً، وخلت أنني لمحت من خلالها وجه امرأة تتلصص.

ترددت كثيراً في العودة: كان وجود فرناندو يثنيني، ولكن وجود خورخينا يثير أحلامي وشوقي إلى رؤيتها ثانية. كانت القوتان المتناقضتان، كما يبدو، تتنازعان في نفسي، فلم أقرر العودة. وبقيت هكذا حتى أصبحت رغبتي في رؤية خورخينا ثانية هي الأقوى. فكرت طيلة تلك الفترة كثيراً، وأصبحت مستعداً للتحري عن أمور، وتعرف

والديها، إن أمكن ذلك. كنت أقول في سري لكي أتشجع: (يمكن ألا يكون فرناندو موجوداً هناك). وكنت أفترض أنه ربما كان له أصدقاء أو معارف، لأنني كنت أتذكر بحثه عن مجلة (تيت ـ بيس) ثم خروجه، مما لا يمكن أن يعزى إلا إلى لقاء فتيان آخرين، على الرغم من أنني كنت أعرف «فرناندو» بما يكفي لكي أدرك، حتى في مثل سني، إنه لا يمكن أن يكون له أصدقاء، ولم يكن أمراً مستحيلاً قيام نوع آخر من العلاقات بينه وبين فتيان آخرين: تأكد لي ذلك الافتراض فيما بعد، واعترفت خورخينا أيضاً، ولو متأخراً، بأن ابن عمتها كان يقود عصابة من الفتيان شكلها مستوحياً بعض الأفلام، مثل فيلم «***أسرار نيويورك وقطعة النقد المكسورة***»، وكان لتلك العصابة قَسَمها السري، ومقابضها الحديدية، وأهدافها الشريرة. ويبدو لي الآن أن تلك المنظمة كانت من قبيل التدريب على ما قام به فيما بعد، حوالي سنة 1930، عندما نظم عصابة اللصوص.

وقفت منذ الظهر عند تقاطع شارعي ريوكوارتو، وإيزابيل الكاثوليكية وفكرت: بعد الغداء، قد يخرج، إن خرج سوف أدخل ولو كان الوقت متأخراً.

ويمكنك أن تتصور كم كنت تواقاً إلى رؤية «خورخينا» ثانية لو قلت لك إن انتظاري هناك استمر من الساعة الواحدة وحتى السابعة. رأيت فرناندو في تلك الساعة خارجاً، فركضت في شارع إيزابيل الكاثوليكية، وابتعدت بما يكفي لكي أختفي عن ناظريه إذا ما سار في الشارع ذاته، أو لأتمكن من العودة إلى المنزل إن رأيت أنه تابع سيره في شارع ريوكوارتو. وهكذا كان: مر لا مبالياً، فاندفعت نحو الدار.

إنني واثق بأن خورخينا سرت لرؤيتي. ثم، إنها كانت تلحّ علي كي أعود.

سألتها عن أسرتها. حدثتني عن أمها وعن أبيها، وعن عمتها ماريا تيريسا التي عاشت وهي تنشر أنباء الأمراض والكوارث، كما حدثتني عن جدها بانشو.

سألت:

ـ ذلك الذي يعيش هناك في الأعلى؟.

كنت أكذب، لأنني أدرك أن (هناك في الأعلى) يختفي سر ما.

نظرت خورخينا إليّ، وبدا أنها فوجئت:

ـ هناك في الأعلى؟.

ـ نعم في البرج.

أجابت بلهجة تشي بالمراوغة.

ـ لا، جدي لا يسكن هناك.

قلت:

ـ ولكن، يسكن أحد هناك.

بدا لي أن الإجابة تزعجها فقلت:

ـ أخال أنني رأيت أحداً هناك، عندما خرجت في تلك الليلة.

قالت بجفاء:

ـ تسكن إسكولاستيكا هناك.

سألت مستغرباً:

ـ إسكولاستيكا؟.

ـ نعم، كانوا قديماً يسمون مثل هذه الأسماء.

ـ ولكنها لا تنزل أبداً.

ـ لا

ـ لماذا؟.

هزت كتفيها:

تأملتها بحذر:

ـ أخالك سمعت شيئاً من فرناندو.

ـ شيء؟. أي شيء؟. متى؟.

ـ عن مجنونة. هناك في (كابيتان أولموس).

تضرجت وأطرقت:

ـ أقال لك ذلك؟. هل قال إن إسكولاستيكا مجنونة؟.

ـ لا، قال شيئاً عن مجنونة. أتكون هي؟.

ـ لست أدري إن كانت مجنونة، فأنا لم أكلمها قط.

سألت مستغرباً:

ـ لم تكليمها قط؟.

ـ نعم. لم أكلمها قط.

ـ ولماذا؟.

ـ ألم أقل لك إنها لا تنزل أبداً.

ـ وأنت، ألم تصعدي إليها؟.

ـ لا، لم أصعد قط.

مكثت أحملق إليها:

ـ كم عمرها؟.

ـ أربعة وثمانون عاماً.

ـ أهي جدتك؟.

ـ لا.

ـ أُمّ جدتك؟.

ـ لا....

ـ من هي إذاً؟.

ـ إنها ابنة شقيق جدة جدي (بانشو). ابنة القائد «أسيفيدو».

ـ ومنذ متى تعيش هناك؟.

ـ منذ 1853.

ـ من دون أن تنزل؟.

ـ من دون أن تنزل.

ـ لماذا؟.

هزت كتفيها مرة أخرى:

ـ بسبب الرأس كما أعتقد.

ـ الرأس؟. أي رأس؟.

ـ رأس والدها. رأس القائد «أسيفيدو» قذفوا به عبر النافذة.

ـ عبر النافذة؟. من..؟.

ـ «لاماسوركا». حملت الرأس وركضت.

ـ ركضت بالرأس؟. إلى أين؟.

ـ إلى هناك. إلى البرج، ولم تنزل منه قط.

ـ ولهذا فهي مجنونة؟.

ـ لست أدري. لست أدري إن كانت مجنونة، لم أصعد إليها قط.

ـ وفرناندو، ألم يصعد كذلك؟.

ـ فرناندو، بلى.

ورأيت في تلك اللحظة، بذعر وقنوط، فرناندو عائداً. ولا شك أنه

لم يكن قد خرج إلا لقضاء حاجة عابرة وحسب.

قال وهو يتفحصني بعينيه النافذتين، كأنه يحاول تقصي ما يمكن أن تنطوي عليه زيارتي من دوافع:

ـ ها إنك عدت...!.

تغيرت خورخينا منذ أن دخل ابن عمتها. ولعل اضطرابي في المرة السابقة حال دون أن ألاحظ ما لحضور فرناندو من تأثير على شخصيتها. انقلبت إلى كائن خجول جداً، لا تتكلم، بل تقوم بحركات بلهاء، وعندما تجد نفسها مضطرة لقول أي شيء إجابة عن سؤال أوجهه إليها، كانت تنظر إلى ابن عمتها بطرف عينيها. أما فرناندو، فقد اضطجع في سريره ينظر إلينا وهو يقضم أظافره بنهم. أصبح الموقف حرجاً جداً، إلا أن فرناندو قال فجأة إنه ابتكر لي لعبة لكي يبدد ما أصابه من ملل، ولكن نظراته لم تكن تدل على ذلك، وإنما على شيء لم أتمكن من إدراكه.

نظرت إليه خورخينا مذعورة، لكنها بعد ذلك أطرقت، وكأنها تنتظر منه أن يصدر حكماً.

جلس فرناندو في السرير، وبدا كأنه يتأمل بروية، وهو ينظر إلينا باستمرار ويقضم أظافره.

ثم سأل:

ـ أين الـ «بيبي»؟.

ـ مع أمه.

ـ هاتيه إلى هنا.

ـ خرجت خورخينا تنفذ الأمر، وخيم علينا الصمت، إلى أن عادت بالـ «بيبي» متأبطاً «الكلارينيت».

شرح فرناندو اللعبة: سيختبيء الثلاثة في أماكن مختلفة، في الغرفتين، أو في غرفة الحطب، أو في الحديقة (كان الليل قد حل) ويتعين عليّ أن أبحث عنهم وأعرفهم، من دون أن أتكلم أو أسأل، بل بوساطة لمس الوجه فقط.

سألت مذهولاً.

ـ لماذا؟.

فقال وهو يضحك بجفاء:

ـ سأشرح ذلك فيما بعد. إن نجحت ستحصل على جائزة.

خشيت أن يكون قد أعد أمراً ليسخر مني، كما كان يفعل في كابيتان أولموس، وخشيت أن أرفض، لأنه كان في مثل تلك الحالات يتهمني دائماً بالجبن، وكنت أعلم أن ألعابه لا بد أن تنطوي على أمر مخيف. لكنني تساءلت: أي رعب يمكن أن تنطوي عليه تلك اللعبة؟. كان يبدو أنها ليست سوى دعابة بلهاء هدفها جعل الآخرين يهزؤون بي. تطلعت إلى خورخينا أبحث عن أي أمارة أو نصيحة، ولكنها لم تكن كما كانت من قبل: وجهها ازرقّ، وعيناها مفتوحتان تدلان على ضرب من الافتتان أو الخوف، أو الأمرين معاً.

أطفأ فرناندو الأنوار، واختبأ الجميع، وبدأت أبحث عنهم وأنا أتعثر.

وسرعان ما عرفت الـ «بيبي» وهو جالس في سريره ببراءة. ولكن فرناندو كان قد اشترط أن أجد اثنين منهم على الأقل وأتعرفهما.

لم أعثر على أحد آخر في تلك الغرفة. وبقي أن أواصل البحث في الغرفة الأخرى، وفي غرفة الحطب. تجولت في غرفة فرناندو وأنا أسير بحذر وأتعثر هنا وهناك، إلى أن خلت أنني أسمع ـ وسط الصمت ـ أنفاس أحدهما. رجوت من الله ألا يكون فرناندو. ولست أدري لماذا

تصورت أن العثور عليه وسط الظلمة أمر يثير الاشمئزاز، تابعت السير حذراً، وسمعي مشدود إلى الجهة التي بدا لي أن الحركة الخافتة آتية منها، تعثرت بإحدى الكراسي، وفيما كنت أسير ماداً ذراعي إلى الأمام، أتلمس باستمرار يميناً ويساراً، وصلت إلى أحد الجدران: كان رطباً، يعلوه الغبار، وانسلخت الأوراق عنه. انحرفت، وأنا أتلمسه، نحو اليمين، نحو الاتجاه الذي خلت أن صدى الأنفاس الخافت آت منه، فاصطدمت يدي بخزانة. ثم تعثرت ركبتاي بسرير فرناندو. انحنيت وبدأت أتلمس، وأبحث ما إذا كان أحدهما مضطجعاً أو جالساً فيه، فلم أعثر على أحد. تابعت السير نحو اليمين دائماً، وأنا أمسك بحافة السرير، فعثرت على منضدة صغيرة، ثم الجدار المتسلخ ثانية. لقد كنت واثقاً تماماً: النفس الآن واضح، ها هو يتحول إلى لهاث خفيف قلق بسبب اقترابي منه. انتابني انفعال غريب، خفق له قلبي، كأنني كنت على شفير الكشف عن سر مريع. تقدمت ببطء شديد حتى لامست يدي اليمنى طرف جسم فجأة. سحبتها بسرعة وكأني ألمس قطعة معدن حمراء متأججة، وسرعان ما أدركت أنه كان جسم خورخينا.

قلت بصوت خافت، وكما لو أنني أكذب خجلاً.

ـ فرناندو.

لكنها لم تجب.

عادت يدي ترتفع وجلة، إنما بشغف، نحو وجهها، وجدت خدها، ثم فمها الذي كان مشدوداً يرتعد.

ثم كذبت ثانية. لقد شعرت بأنني تضرجت وأنها يمكن أن تراني على هذا الحال فقلت:

ـ فرناندو.

لم تجب، وما زلت حتى الآن أتساءل عن السبب. لكنني خلت في تلك اللحظة أنها كانت تبيح لي أن أستمر في البحث، لأن العمل بالقواعد التي سنها فرناندو كان يتطلب منها أن تعلن خطئي. كانت كمن يرتكب سرقة، ولكنها سرقة بتفويض من الضحية، وهذا ما كان يثير دهشتي.

توقفت يدي المترددة المرتعشة على خدها ببطء، ومرت على شفتيها وعينيها، كأني أحاول معرفتها، أو دغدغتها بخجل. (ألم أقل لك إن خورخينا نمت بسرعة خلال السنتين الأخيرتين، وأن تلك المراهقة بدأت تذكر بـ آنا ماريا؟.) كانت أنفاسها تتردد بشدة، وترتعد كأنها تقوم بجهد كبير، وكدت للحظة أن أصرخ خورخينا..!. لأخرج بعد ذلك بسرعة راكضاً.

ولكنني أحجمت وبقيت يدي مستقرة على محياها، ومن دون أن تفعل هي أي شيء لتنأى عني، ولعل ذلك التصرف هو الذي جدد أملي اللامعقول طيلة سنوات عديدة، امتدت حتى هذا اليوم بالذات.

وأخيراً، قلت بصوت مبحوح لا يكاد يفهم:

ـ خورخينا.

فصرخت بصوت خافت قبل أن تنفجر باكية.

ـ كفى..!. دعني..!.

وهربت نحو الباب.

خرجت في إثرها أترنح ببطء، ينتابني شعور بأن أمراً محيراً ومتناقضاً ـ لا أدري كيف أفسره ـ قد حدث. كانت رجلاي ترتعدان كأنني أواجه خطراً عظيماً، وعندما دخلت إلى الغرفة، وكانت أنوارها قد أضيئت، لم أجد سوى الـ بيبي: كانت خورخينا

قد اختفت. وصل فرناندو في الحال، فتفحصني بنظرة غريبة، وكأن تلك النيران الشيطانية التي كانت تضطرم في داخله، أصبحت تتأجج الآن وسط ظلمات.

قال بصوت حازم فظ:

ـ لقد ربحت. وكجائزة لك، يمكن أن تخوض غداً، تجربة أكبر أهمية.

أدركت أنني يجب أن أذهب، وأن خورخينا لن تعود ثانية. كان البيبي، والكلارينيت في يده، وفمه مفتوح قليلاً، يرمقني بعينيه الزائغتين البراقتين.

قلت وأنا أخرج.

ـ حسناً.

فقال لي:

ـ غداً ليلاً بعد العشاء. الساعة الحادية عشرة.

فكرت ملياً طيلة تلك الليلة في ما جرى، وفي ما يمكن أن يحدث في اليوم التالي. كان تفكيري بأن «فرناندو» قد قطع شوطاً بعيداً في الطريق ذاته يؤرقني كثيراً، على الرغم من أنني لم أكن أرى بوضوح لماذا، إنما أدرك أن لشخص خورخينا علاقة بالأمر. لماذا لم تعترض عندما لفظت أول مرة اسم فرناندو؟. لماذا ظلت صامتة وكأنها تبيح لي أن أقوم بتلك الحركة من يدي؟.

كنت عند الساعة الحادية عشرة من مساء اليوم التالي في غرفة فرناندو: كانا بانتظاري، هو وخورخينا. لاحظت أن في عينيها تعبيراً ينم عن ذعر متوقع، يؤكده شحوب وجهها الجامد كالرخام. قال لي فرناندو بصوت حازم وبارد، كأنه قائد دورية يصدر الأوامر:هناك في البرج

تعيش العجوز إسكولاستيكا. في مثل هذه الساعة تكون نائمة. ستدخل بهذا المصباح الكهربائي، وتذهب إلى صوان موجود مقابل السرير. ستفتح الدرج الثاني من الأعلى وتبحث فيه عن علبة قبعات. وستأتي بها إلى هنا.

قالت خورخينا بصوت كأنه صوت شبح بينما تنظر إلى الأرض، :

ـ الرأس لا يا فرناندو..!. أي شيء آخر، ولكن الرأس لا..!.

رمقها فرناندو بنظرة ازدراء وقال:

ـ وما أهمية أي شيء آخر؟. الرأس.

تذكرت، بينما كاد يغمى علي، القصة التي روتها لي خورخينا. لم يكن ذلك أمراً ممكناً، تلك الأمور لا تحدث في الواقع أبداً. ثم. لماذا يتعين علي أن أفعل؟. ومن يرغمني على أن أفعل؟.

رددتُ بصوت واهن:

ـ لماذا يجب أن أفعل ذلك؟. ومن يرغمني على فعله؟.

ـ وكيف تسأل لماذا؟. لماذا يتسلقون قمة (أكونكاغوا)[1]. لا فائدة ترجى أبداً من تسلق قمة (أكونكاغوا) يا «برونو». أم إنك جبان؟.

أدركت أنني لا أستطيع أن أرفض.

ـ حسناً. هات المصباح. ودلني كيف أصعد.

سلمني فرناندو المصباح، واستعد ليرشدني إلى طريق الصعود إلى البرج.

قلت:

(1) أكونكاغوا: أعلى قمم جبال «لوس أندس»، وارتفاعها 6959 متراً عن سطح البحر (المترجم).

ـ مهلاً. وإذا استيقظت العجوز؟. يمكن أن تستيقظ، ويمكن أن تصرخ، فماذا ينبغي أن أفعل؟.

قال:

ـ إن العجوز لا تكاد ترى أو تسمع، و لا تكاد تستطيع أن تتحرك. لا تقلق.

إن أسوأ ما يمكن أن يحدث، هو أن يتعين عليك أن تنزل من دون الرأس، ولكنني آمل أن يتوفر لديك قدر كاف من الشجاعة لكي تأتي به.

قلت لك إن مستودعاً للأمتعة موجود تحت البرج، ويمكن الصعود منه بوساطة سلم خشبي قديم. قادني فرناندو حتى ذلك المستودع الذي لم يكن فيه أي مصباح كهربائي وقال لي:

عندما تصل إلى الأعلى، ستجد باباً ليس له مفتاح. افتحه وادخل إلى البرج. أما نحن فسننتظرك في غرفتي.

ذهب، وبقيت وحدي والمصباح الكهربائي في يدي وسط ذلك المستودع المظلم، أسمع دقات قلبي قلقاً. بعد مضي لحظات تساءلت أثناءها ثانية، أي ضرب من الجنون كان ذلك، ومن يرغمني على الصعود سوى كبريائي، وضعت قدمي على أول درجات السلم، وصعدت بخوف متزايد وبطء خلت أنه معيب، ومع ذلك، صعدت.

كان في نهاية السلم فعلاً عتبة صغيرة فيها باب يؤدي إلى غرفة العجوز المجنونة. كنت أعلم أنها شبه عاجزة، ومع ذلك جعلني الخوف أتصبب عرقاً، وخشيت ألا أستطيع التحكم بمعدتي. لاحظت أن لجسمي أو لعرقي رائحة كريهة لا تطاق. ولكن لم يكن بوسعي أن أتراجع، ولذلك كان من الأفضل أن أعمل بأسرع ما يمكن.

حركت قبضة الباب بحذر وأنا أحاول ألا أثير أي ضجة، لأن الأمر سيكون أخف وطأة بالطبع، إن لم تستيقظ المجنونة. انفتح الباب وهو يصر على نحو خلته مرعباً. كان الظلام يغمر الغرفة. ولكنني ترددت قليلاً بين إنارة السرير الذي تخلد إليه العجوز بمصباحي، لكي أرى ما إذا كانت نائمة، والخوف من أن يوقظها النور إن فعلت. ولكن، كيف يمكنني أن أدخل إلى تلك الغرفة المجهولة، التي تقطن فيها مجنونة، من دون أن أتأكد، على الأقل، إن كانت العجوز نائمة أم واقفة تراقبني..؟. رفعت بمزيج من الإحجام والذعر مصباحي ووجهته إلى أنحاء الغرفة بحثاً عن السرير.

كاد يغمى علي: لم تكن العجوز نائمة، بل واقفة بجانب سريرها تنظر إلي بعينيها المفتوحتين مذعورة. كانت عجوزاً طاعنة بالسن كأنها مومياء محنطة، صغيرة الحجم، نحيلة الجسم، كهيكل عظمي يكاد يكون حياً. تسرب من بين شفتيها الجافتين ماخلت أنه يعني «لا ماسوركا». ولكن لم أتأكد من صحة ما ذهبت إليه، لأنني ما إن رأيت صورتها وسط الظلمة، حتى انطلقت إلى الخارج، وهبطت درجات السلم بسرعة. وحينما وصلت غرفة فرناندو أغمي علي.

عندما استعدت الوعي كانت خورخينا تطوق رأسي بذراعيها، وتتساقط الدموع غزيرة من عينيها. مضى وقت طويل قبل أن أتذكر ما جرى، وعندئذ، شعرت بخجل شديد لا حد له. بقيت وحيداً مع خورخينا. أما فرناندو فذهب بعد أن سخر من شجاعتي بقوله: لقد كنت متأكداً.

تمتمت قائلاً:

ـ كانت مستيقظة.

لم تقل خورخينا شيئاً: اكتفت بالبكاء بصمت.

أخذ فرناندو وابنة خاله يصبحان سراً مبهماً يجذبني ويخيفني في الوقت ذاته؛ كأنهما كاهنان يمارسان «طقساً» مجهولاً لم أتمكن من إدراك معناه، إنما يمكن أن تُنتظر منه أمور رهيبة. وسرعان ما تصورت أن فرناندو كان يهزأ بي، وخشيت فجأة أن يكون قد أعدّ لي شركاً مشؤوماً. كان الفتيان يعيشان وحيدين، معزولين عن بقية أنحاء الدار، كملك ليس له سوى تابع واحد، وإن كان يُفضل أن نقول: كبير كهنة يتبعه مؤمن واحد فقط، وكأني حين وصلت أصبحت الضحية الوحيدة لتلك العبادة المخيفة. كان فرناندو يحتقر الآخرين أو يتجاهلهم بصلف. ويطلب مني شيئاً لا أستطيع إدراكه تماماً، أعتقد أنه ذو صلة بأحاسيس مضطربة وعواطف غريبة، وشهوات لابد أن يشعر بها كهنة الـ «أزتيك»[1] الذين يستخرجون، وهم في أعلى الأهرامات المقدسة، قلوب ضحاياهم المختلجة الدافئة. ولكن الأمر الغريب حقاً أنني خضعت أيضاً، بشيء من الانقياد الأعمى، إلى التضحية التي كانت خورخينا تقوم بها كتابع مذعور.

ولأن تلك الأحداث كادت تكون البداية، فقد توالت كثير من «الطقوس» والشعائر الشريرة الغريبة، قبل أن أهرب، وقبل أن أدرك بذعر موجع أن تلك المخلوقة المسكينة كانت تنفذ ـ على نحو أعمى، وكأنها منومة مغناطيسياً ـ أوامر فرناندو.

والآن بعد مضي ثلاثين عاماً، ما زلت أحاول أن أفهم حقيقة تلك العلاقة بينهما، ولكن عبثاً. كأنهما عالمان متضادان، ولكن تربطهما على

(1) شعب متمدن من الهنود الحمر، حكم المكسيك قبل الفتح الاسباني سنة 1519 (المترجم).

نحو ما علاقة حميمة، مبهمة ولكنها وثيقة جداً. كان فرناندو يهيمن عليها، ولكن لا يمكنني الجزم بأن ما كان يشدها إلى ابن عمتها خوف قدسي وحسب: أخال أحياناً أن خورخينا كانت تُكِنّ له ضرباً من الشفقة. أهي شفقة على وحش فظيع مثل فرناندو؟. نعم كانت تهرب فجأة من أفعاله الشيطانية، وقد رأيتها تبكي مذعورة في أحد الأركان المظلمة في منزل باراكاس، ولكنني أتذكر أيضاً أنها كانت تدافع عنه بحماسة الأم عندما أتناول سيرته بسوء. كانت تقول لي: (أنت لا تتصور كم يعاني). والآن، بعد أن فكرت ملياً في شخصيته وفي الكثير من أعماله أقر بأن فرناندو لم يكن يتسم بتلك اللامبالاة التي يقال إن المجرمين الفطريين يتصفون بها، لقد قلت لك من قبل إنه يشعر بصراع داخلي فوضوي قلق، ولكن يجب أن أعترف لك بأنني لا أملك القدر الكافي من سمو النفس لأشفق على مخلوق كفرناندو. أما خورخينا فكانت تمتلك ذلك.

سوف تسألني أي ضرب من المعاناة...؟. وأقول لك إنها كثيرة ومن مختلف الأنواع: جسمية وعقلية، وروحية كذلك. والعقلية منها واضحة للعيان.

كان يهذي، ويرى أحلاماً جنونية، وكان يفقد الوعي فجأة. رأيته مرة كأنه غائب عن وعيه رغم أنه لم يكن مغمى عليه لا يتكلم ولا يسمع ولا يرى من كان حوله. وكانت خورخينا تقول لي وهي تراقب حالته باكتئاب: (مهلاً، سوف تزول). وكان في أحيان أخرى (كما روت لي خورخينا كذلك)، يقول لها: (ها إنني أشاهدك، أعلم أنني هنا بجانبك، ولكن أعلم كذلك أنني في مكان آخر، بعيد جداً، في غرفة مظلمة ومغلقة، إنهم يفتشون عني لكي يقتلعوا عيني ويقتلوني)، وكان يهبط من أشد الحالات هيجاناً وعنفاً إلى أكثر الحالات هدوءاً أو اكتئاباً:

فينقلب، كما كانت خورخينا تقول، إلى أشد مخلوقات العالم بؤساً وضعفاً، وينزوي كطفل صغير محتمياً بتنورة ابنة خاله.

طبعاً، أنا لم أره في مثل تلك الحالات المهينة قط، وأعتقد أنني لو رأيته لما تورع عن قتلي. لكن خورخينا روت لي ذلك، وهي لا تكذب أبداً. كما أن فرناندو حسب اعتقادي لم يكن يخادعها، على الرغم من أنه سيد من يتقنون الخداع.

إن ما رأيته منه كان يتسم بالفظاظة دائماً. كان يعتبر نفسه فوق المجتمع وفوق القانون. وكان يقول: (إن القانون يسن للشياطين البؤساء). وكان، لسبب لا أدركه، كَلِفاً بالمال، وأعتقد أنه كان يرى فيه شيئاً أكثر من مجرد المال الذي يتداوله الناس العاديون. يرى فيه شيئاً سحرياً شيطانياً، وكان يروقه أن يسميه «الذهب»، ولعل شغفه بكيمياء تحويل المعادن وبالسحر يعود إلى تلك النزعة الغريبة. لكن هوسه بكل ما يمت إلى العميان بصلة، بشكل مباشر أو غير مباشر، كان أشد جلاء. لقد تأكدت من ذلك شخصياً، أول مرة، عندما كنا لا نزال في كابيتان أولموس. كنا نسير معاً في شارع ميتري باتجاه منزله، فرأينا فجأة الأعمى الذي يقرع الطبل في جوقة البلدة متجهاً نحونا. كاد فرناندو ينهار، ورأى نفسه مضطراً إلى التمسك بذراعي. شعرت حينذاك بأنه يرتعد كمن أصيب بالملاريا، ورأيت وجهه كيف امتقع وتشنج كأنه وجه ميت. استغرق وقتاً طويلاً وهو يحاول أن يستجمع قواه، واضطر إلى أن يجلس على الرصيف، ثم تملكته بعد ذلك ثورة غضب جامح، وراح يكيل لي الشتائم بجنون، لأنني أمسكت بذراعه كي لا يهوي على الأرض.

انتهت تلك الحقبة السحرية من حياتي في أحد أيام شتاء 1925، عندما دخلت إلى غرفة خورخينا فوجدتها تبكي في سريرها. اندفعت

نحوها أواسيها وأسألها السبب، لكنها تمكنت من ترديد عبارة واحدة وحسب: (أريد، بحق السماء، أن تذهب يا برونو، وألا تأتي إلى هنا ثانية..!.). عرفت في خورخينا شخصيتين، واحدة رقيقة مترعة بالأنوثة كأمها، والأخرى ضعيفة تهيمن عليها قدرات فرناندو. وكنت أرى آنئذٍ خورخينا البائسة العزلاء المذعورة المشتتة التي تطلب مني أن أذهب وألا أعود ثانية. لماذا..؟. ما الحقيقة المروعة التي كانت تود إخفاءها عني...؟. لم تبح لي بها قط، ولكن ماجعلني أدركها وأتأكد منها، السنون والخبرة. و الأمر المحزن في كل هذا، لم يكن الرعب الذي كانت خورخينا تعاني منه، ولا التدمير الذي ألحقته روح فرناندو الشيطانية بتلك النفس الرقيقة الحساسة: الأمر المحزن حقاً، أنها كانت تحبه.

ألححت كالأبله، ولكنني أدركت أنه لم يعد بوسعي أن أفعل شيئاً في ذلك الركن الصغير من العالم، الذي كان يبدو أنه يخفي سراً مشؤوماً.

لم أر فرناندو ثانية إلا سنة 1930.

كان يقول على نحو لاذع: من السهل دائماً تنبؤ الماضي. والآن بعد مضي ما يقارب الثلاثين عاماً، تكشف أحداث صغيرة تعود إلى ذلك الزمان، عارضة وليست ذات أهمية كما يبدو، مرامي قوله؛ مثلما تكتسب معنى عميقاً ومأساوياً في كثير من الأحيان ـ لمن فرغ من قراءة رواية طويلة، بعد أن تكون المصائر النهائية قد تحددت، كالموت حين يضع حداً للحياة الحقيقية ـ كلمات مبتذلة جداً مثل: «أليخوكارامازوف كان الابن الثالث لملاّك ريفي من ناحيتنا..». لا يمكن أن يُعرف أبداً، وحتى النهاية، إن كان ما يحدث لنا في أي يوم من الأيام حدث تاريخي أو توافق وقائع، إن كان، كل شيء (مهما بدا مبتذلاً)، أو، لا شيء (مهما كان مؤلماً). لقد وضعتني وقائع صغيرة جداً في طريق فرناندو ثانية، بعد أن نأيت عنه طيلة سنوات عديدة، كأنه أمر لا مفر منه في

حياتي. وكما لو أن كل الجهود التي بذلت لكي أبتعد عنه كانت عبثاً.

أفكر في ذلك الزمان البعيد، وتتوارد على مخيلتي كلمات مثل: ***شطرنج، كابا بلانكا وأليخين، الجولسون، أغني تحت المطر، ساكو وفانزيتي، ساندينو ونيكاراغوا***. يا له من مزيج غريب يبعث في النفس الكآبة..!. ولكن، أي مجموعة من الكلمات المرتبطة بذكرى طفولتنا ليست غريبة ومثيرة للكآبة؟. كل ما يمكن أن توحي به تلك الكلمات كان سينتهي بتلك الحقبة القاسية والسحرية التي كانت حياة البلد، وحياتنا أيضاً، تتعرض فيها إلى تغيير جذري. إنها لحظة ارتبطت ولا شك بوجود فرناندو، وكما لو أنه كان رمزاً قاتماً لتلك المرحلة من حياتي، والسبب الأقوى لما لحق بي من تغيرات كذلك. لأن حياتي في تلك السنة (1930) دخلت في أزمة، وأعني مرحلة التفكير والمحاكمة. فأخذ كل شيء يميد تحت قدمي: معنى وجودي، ومعنى بلادي، ومعنى الجنس البشري بعامة: فعندما نبدأ بمحاكمة وجودنا لابد أن نضع الإنسانية بأسرها في الميزان أيضاً. رغم أننا يمكن أن نقول كذلك إننا عندما نبدأ بمحاكمة الإنسانية بأسرها، نكون في واقع الأمر، في معرض التدقيق في أعماق وعينا.

كانت أياماً مأساوية وعاصفة.

أفكر، على سبيل المثال، في كارلوس، الذي لم أكن أعرف قط لقبه الحقيقي. ما زلت أراه حتى الآن كيف كان ينكب باهتمام بالغ على تلك المطبوعات الرخيصة التي لا يتجاوز ثمن إحداها ثلاثين أو أربعين سنتاً، يحرك شفتيه بجهد كبير، ويشد قبضتيه على صدغيه، كأني به فتى فرغ صبره، يتصبب عرقاً، ويبذل جهداً شاقاً في البحث عن صندوق قالوا له إن فيه سر وجوده البائس، والمعنى الخفي لما يعانيه، كفتى عامل، من عذاب. الوطن..!. وطن من..؟. لقد وصلوا بالملايين من

كهوف إسبانيا، ومن القرى البائسة في إيطاليا، ومن مناطق الألب، منبوذين من جميع أنحاء العالم، مكدسين في عنابر البواخر، لكنهم يحلمون: كانوا هناك على موعد مع الحرية. لن يكونوا بعد اليوم كما كانوا من قبل بهائم تشحن أبداً. أمريكا..!. البلاد الأسطورية حيث يُعثر على المال مرمياً في الشوارع. وبعدئذٍ.. العمل الشاق، والأجور المزرية، وأيام عمل تمتد ما بين اثنتي عشرة ساعة، وأربع عشرة ساعة. تلك كانت، في نهاية المطاف، أمريكا الحقيقية كما عرفتها الأكثرية الساحقة: بؤس ودموع. إذلال وألم. شوق وحنين. كأنهم أطفال خدعتهم حكايات الجنيات، فانقادوا إلى العبودية.

ولذلك فإنهم يشخصون بأبصارهم، هم أو أولادهم من بعدهم، إلى أوهام طوباوية أخرى، إلى أراض مستقبلية أخرى، تتحدث عنها كتب بلهجة ثورية، لكنها مترعة بالحنان والعطف عليهم، على أولئك البؤساء.

كتب تحدثهم عن أرض وحرية، وتدفعهم إلى التمرد. وحينئذ سالت دماء كثيرة في شوارع بوينس أيرس، ولقي كثير من الرجال والنساء، وحتى من أبناء هؤلاء البائسين، حتفهم، في أعوام 1905 و1908 و1910 كان كارلوس يتساءل، وتصعيرة سخرية مفعمة بالألم ترتسم على وجهه: الذكرى المئوية لاستقلال الوطن..!. وطن من؟. لم يكن هناك وطن، ألا أعرف ذلك..؟. كان هناك عالم السادة وعالم العبيد. عمال أتوا من جميع أرجاء المعمورة، يصرخون: خبز وحرية..!. بينما السادة المذعورون الغاضبون يطلقون الشرطة والجيش لقمع تلك الحشود. وهكذا كانت تهدر دماء جديدة. وتقوم إضرابات جديدة، ثم مظاهرات، وقتلى وقنابل. وفيما كان ابن السيدينعم بالدراسة في إحدى جامعات سويسرا أو انكلترا أو فرنسا، كان ابن العامل يشتغل في معامل اللحوم لقاء نصف (بيسو) يومياً، ينهش السل رئتيه في الغرف المبردة،

ليذهب بعد ذلك كي يحتضر في مستشفيات مجهولة قذرة. وفيما كان ذلك الفتى يقرأ (كيتس) و(بودلير)، كان هذا يفك بصعوبة، مثلما يفعل كارلوس، حروف أحد نصوص «مالاتيستا» أو «باكونين»، وكان آخر مثل (روبيرتو أرلت) يتعلم في الشوارع المعنى العام للوجود الإنساني. وهكذا حتى انفجرت الثورة الكبرى. أصبح العصر الذهبي قريباً..!. يا عمال العالم هبوا..!. إنه انهيار الجبابرة. ثم، أجيال جديدة من فتيان فقراء، وطلاب قلقون أو ساخطون، يقرؤون ماركس و لينين وغوركي وكروبوتكين. أحد هؤلاء كان كارلوس، الذي أعود الآن لأراه كما لوأنه أمامي، يتهجى تلك الكتب نهماً مفتوناً، وكأن ثلاثين عاماً لم تكن قد انصرمت بعد. إنه يبدو لي الآن رمز ذلك الانهيار سنة 1930، عندما بدأت ديانة التقدم العشوائي تصل إلى منتهاها، بانهيار هياكلها في (وول ستريت). فأفلست سلسلة من البنوك الجبارة، وغرقت صناعات كبرى. وانتحر عشرات الملايين. أما أزمة عاصمة تلك الديانة الدنيوية الصلفة فاتسعت لتطال أمواج مدها العنيف أبعد أرجاء المعمورة.

لقد هيمن البؤس والكفر على المدينة الضخمة بشدة. قوادون ولصوص، وقاعات تزينها مرايا، ومحلات للرماية، وسكارى، وصعاليك، وعاطلون عن العمل، ومتسولون، وعاهرات رخيصات. ومثل بريق يسطع في الظلمة، كان أولئك الرجال والفتيان الذين يجتمعون في أكواخ وضيعة، كرسل العقاب والأمل، ليعدوا للثورة الاجتماعية.

كارلوس، حينئذٍ.

كان إحدى الحلقات التي قادتني مجدداً إلى فرناندو، على الرغم من أنه ابتعد عنه فيما بعد، كما يبتعد القديس عن الشيطان. وربما تكون عرفته، فقد كانت له صلات بمجموعة الفوضويين في مدينة (لابلاتا). و

حتى الآن أظنني أتذكر أنه أتى على ذكرك في إحدى المناسبات. أعتقد أن تجربته المرة مع فرناندو كانت السبب في تخليه عن الفوضوية وانضمامه إلى الحركة الشيوعية؛ وإن كانت تلك الحادثة البسيطة لاتستطيع، كما يمكنك أن تتصور، أن تغير عقليته التي بقيت على حالها، مما يفسر طرده من الحركة الشيوعية بتهمة الإرهاب. لم أعد أعرف شيئاً عنه حتى سنة 1938، عندما بدأ الرجال والنساء الذين تمكنوا من عبور الـ «بيريني» بعد هزيمتهم في إسبانيا، يدخلون خلسة إلى باريس في صيف ذلك العام. روت لي المسكينة باولينا التي اختبأت مرات عدة في غرفتي في شارع «رو ديز ايكول» كيف قتل كارلوس في الدبابة ذاتها التي قتل فيها الأرجنتيني (إيتشيبيري). ماذا، هل أصبح تروتسكياً؟. باولينا تجهل ذلك: رأته مرة واحدة فقط: متجهماً ووحيداً كعادته دائماً، صبوراً، عصياً على الفهم.

كان كارلوس نقياً وروحاً دينيةً. فكيف يمكنه أن يتقبل شيوعيين من أمثال (كرامر) ويتفهمهم..؟. كيف يمكنه أن يتقبل الناس بعامة ويتفهمهم..؟. التجسيد، الشر الأصلي. السقوط.. كيف كان بوسع ذلك الكائن النقي أن يتقبل تلك الطبيعة الملوثة للإنسان؟. ولكن الأمر بالغ الغرابة حقاً أن يمارس أناس ليسوا، بصورة أو بأخرى، ذوي نزعة إنسانية، تأثيراً كبيراً جداً على ذوي نفوس إنسانية خالصة. لقد جرّني إلى الشيوعية بقوة حضوره وشدة نقائه، كما أدى ابتعاده عنها إلى ابتعادي، ولعل ذلك يعود إلى أنني كنت مراهقاً لم يكن قد توصل بعد إلى تقبل الواقع القاسي. أشك بأن يُحكم الآن، بالقسوة ذاتها، على المناضلين من أمثال (كرامر)، وعلى صراعاتهم من أجل النفوذ الشخصي، وعلى تفاهاتهم، ونفاقهم ودناءتهم. كم إنساناً له حق في أن يفعل ذلك..؟. وأين يا إلهي يمكن العثور على مخلوقات بشرية منزهة،

وخالية من تلك الشوائب إلا في ميادين، تكاد تكون غريبة عن الطبيعة البشرية، كالمراهقة، أو القداسة، أو الجنون..؟.

كالمراسل الذي يجهل مضمون الرسالة التي يحملها، كان ذلك الفتى المجهول مَنْ سيضعني مرة أخرى في طريق فرناندو.

عدت في الأيام الأخيرة من شهر كانون الثاني/ يناير 1930، بعد أن قضيت أيام إجازتي في «كابيتان أولموس»، لأكتتب في نزل شارع «كنغاجو» واتجهت آلياً، مدفوعاً بقوة الاعتياد، إلى مقهى «**لا أكاديميا**». لماذا ذهبت..؟. لأرى كاستيجانوس وألونسو، وأتابع ألعاب الشطرنج التي ليس لها آخر، وأرى ما كنت أراه دائماً. لأن الوقت لم يكن قد حان بعد لكي أدرك أن العادة مخادعة، وأن خطواتنا الآلية لا تقودنا إلى الحقيقة ذاتها دائماً؛ لأنني كنت لا أزال أجهل أن الحقيقة تباغتنا، وأنها، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار طبيعة البشر، تكون على المدى البعيد مأساوية.

وجدت هناك شخصاً لا أعرفه، يشبه إميل لودويج يدعى ماكس ستينبرج يلعب مع ألونسو. قد يبدو من الأمور الغريبة أن يقودني أناس لا أعرفهم، اجتمعوا مصادفة، كما يبدو، إلى شخص ولد في القرية التي ولدت فيها، وينتمي إلى أسرة تشدها إلى أسرتي أواصر وثيقة جداً. وهنا، يتعين علينا قبول إحدى بديهات جنون فرناندو: ليس هناك مصادفات، وإنما أقدار. لا نجد إلا ما نبحث عنه. ونبحث عما يكون مخفياً، على نحو ما، في أعمق زوايا قلوبنا وأشدها ظلاماً. وإن لم يكن الأمر كذلك، فكيف لا يؤدي التقاء شخص بكائنين آخرين إلى الأثر ذاته لدى كل منهما؟. لماذا يقود لقاء ثوري بأحدهم إلى الثورة، بينما يخلف الآخر لا مبالياً؟. ولذلك يبدو، كأن الأمر ينتهي بالمرء إلى التقاء الأشخاص الذين يتعين عليه أن يلتقيهم، وتتقلص المصادفة، على هذا النحو، إلى حدود بسيطة جداً. بحيث لا تكون تلك اللقاءات التي تبدو في حياة كل منا

غريبة، كلقاء فرناندو، سوى النتيجة الحتمية لفعل تلك القوى المجهولة التي تقرب بعضنا من بعضنا الآخر عبر الحشود اللامبالية، مثلما تتجه برادة الحديد من بعيد، حتى تبلغ قطبي مغناطيس جبار، بحركات لا بد أن تشكل سبباً يثير دهشة برادة الحديد، لو أنها تعي شيئاً مما تفعل، حتى إن لم تبلغ حد الإلمام بالواقع إلماماً واضحاً وتاماً. ولذلك فإننا نتجه، كمن يسير وهو نائم، وبثقة الذين يسيرون وهم نيام، إلى الكائنات التي تكون، بشكل أو بآخر، هدفاً لنا منذ البدء. استغرقت في هذه الأفكار لأنني كنت منذ مدة على وشك أن أقول لك إن حياتي كانت حتى لقاء كارلوس كحياة أي تلميذ آخر: بمشكلاته التقليدية وأوهامه، ومزاحه في قاعات التدريس أو في النزل، وغرامه الأول، وجموحه أو انطوائه. وقد أدركت قبل البدء بكتابة هذه الكلمات، أنه ليس صحيحاً تماماً أنني سأقدم فكرة مغلوطة عن مرحلة حياتي التي سبقت اللقاء، وأن تلك الفكرة المغلوطة ستجعل مما كان في الحقيقة مجرد لقائي بفرناندو ثانية، أمراً مفاجئاً. فالمفاجأة يمكن أن تتلاشى ثم تزول نهائياً، عندما ننظر إلى الظروف التي أحاطت بالواقعة الغريبة ظاهرياً نظرة أشد نفاذاً. حينئذ، تبدو قد انحسرت نهائياً لتستقر في عالم المظاهر الخالصة، كثمرة من ثمار قصر النظر والبلاهة والشرود. كانت تلك الأسرة هاجسي طيلة تلك السنوات الخمس من حياتي. ولم أتمكن من إقصاء أحد منها عن ذاكرتي، سواء أكان آنا ماريا أم خورخينا أم فرناندو: كانوا ينبضون في أعماق ذاتي. ويظهرون باستمرار في أحلامي. وأظن أنني سمعت فرناندو، أثناء تلك اللقاءات سنة 1925، يتحدث مراراً عن خطته، في المستقبل، لتشكيل عصابة لصوص وإرهابيين. وأعتقد الآن أن فكرته تلك، وإن بدت في ذلك الحين تافهة، إلا أنها بقيت محفورة في دخيلتي، ولعل تقربي الأولي من المجموعات الفوضوية كانت تمليه من

دون أن أدري ـ شأن الكثير من مما يمور في نفسي ـ أفكار فرناندو وهواجسه. لقد بينت لك أن هذا الرجل مارس على عدد كبير من الفتيان والفتيات تأثيراً عنيداً ومؤذياً في كثير من الأحيان، وتفشت أفكاره، وحتى نوبات جنونه، بين عدد كبير من الناس فأصبحوا كمسوخ مشوهة وهزيلة لذلك الشيطان. وهكذا سيكون بوسعك فهم ما شرحته لك من قبل: إن لقائي به ثانية لم يكن أمراً مفاجئاً، فمن بين كثير من الأشخاص الذين كنت في سبيلي إلى معرفتهم، أقصيت، من دون أن أدري، الذين لم يُقَرِّبوني من (فرناندو)، وعندما أدركت أن ماكس وكارلوس ينتميان إلى مجموعات فوضوية، انضممت إليهما فوراً. وبما أن تلك المجموعات هنا، كما في أي مكان آخر في العالم، تشكل أقلية ضئيلة، ومترابطة فيما بينها دائماً (رغم الاستنكار أو الرفض كما جرى في مثل هذه الحالة)، فقد كان لا بد أن ألتقي فرناندو حتماً. ستقول لي، لماذا لم أبحث عنه في منزله في باراكاس إن كان ذلك ما كنت أهدف إليه، وسيتعين علي إذاً أن أجيبك إن العثور على فرناندو لم يكن هدفاً واعياً قط، بل هاجساً لا يمكن الاعتراف به تقريباً. ولم يكن عقلي ولا وعيي في أي وقت من الأوقات يقرّان، أو ينصحان، بالبحث عن ذلك الشخص الذي يمكن أن يجلب لي ما جلب من أذى وألم.

كانت هناك عوامل أخرى، سهلت تلك الحركة اللاواعية أيضاً. أعتقد أنني سبق وقلت لك إنني فقدت والدتي مبكراً، وبعثوا بي إلى مدينة كبيرة نائية عن بيتي لكي أدرس. كنت وحيداً وخجولاً، أحظى ـ لسوء الطالع ـ بحساسية مفرطة، فماذا يمكن أن أرى في العالم، سوى فوضى مترعة بالشر والظلم والعذاب..؟. وكيف لن ألوذ بالوحدة، وبتلك العوالم النائية، عوالم الخيال والرواية؟. قد يكون من غير المفيد أن أقول لك إنني كنت أعشق (شيلر) ولصوصه. و(شاتوبريان) وأبطاله

الأميركيين، و(غوتزفون بير ليشينجن)[1]. كنت معداً لقراءة الكتاب الروس، وربما تمكنت في ذلك الحين من قرءة أعمالهم لو أنني بدلاً من أن أكون ابن أسرة بورجوازية، كنت مثل كثير من الشبان الذين عرفتهم فيما بعد، ابن عامل أو أسرة فقيرة. فقد كانت الثورة الروسية تمثل لأولئك الشبان الأمل الكبير، وأعظم أحداث عصرنا، وكان العثور على فتيان يقرؤون غوركي أسهل من العثور على من يقرؤون (مانسيّا) أو(كاني). وهنا نجد أحد تناقضات تكويننا الكبرى، وإحدى الوقائع التي حفرت عبر زمن طويل هاويات سحيقة بيننا وبين وطننا، ذلك أننا لكي نكون على صلة بواقع اغتربنا عن آخر. ولكن، أليس وطننا سلسلة من الاغترابات؟.

أنجزت دراستي الثانوية سنة 1929. وما زلت أتذكر الأيام القليلة التي تلت انتهاء الامتحانات، عندما خيمت على المدرسة تلك الوحدة الكئيبة المطبقة، التي تلوذ بها المدارس بعد أن يهجرها التلاميذ ويتفرق شملهم أثناء العطل الطويلة. شعرت بالحاجة إلى أن أرى، آخر مرة، المكان الذي سلخت فيه خمس سنوات من عمري لن تعود أبداً. ذهبت إلى إحدى الحدائق، وجلست على أحد المقاعد، ومكثت زمناً طويلاً أفكر ملياً، ثم نهضت واقتربت من تلك الشجرة التي حفرت على جذعها منذ سنوات، حينما كنت لا أزال طفلاً، أول حروف اسمي: ***ب.ب 1924***. كم وجدت نفسي حينذاك وحيداً..!. كم يكون طفل قروي حزيناً وأعزل في مدينة نائية وهائلة..!.

كنت بعد بضعة أيام سأذهب إلى (كابيتان أولموس)، لتكون آخر

(1) غوتز أو غوتفريد فون بيرليشينجن: فارس ألماني (1480 ـ 1562) بطل أحد أعمال «غوته» و «سارتر» (المترجم).

إجازة أقضيها في قريتي. كانت الشيخوخة قد أدركت والدي، ولكنه ما زال قاسياً وفظاً. وكنت أشعر بأنني بعيد عنه وعن أخوتي، تضطرم نفسي بنبضات غامضة، ولكن رغباتي كانت ملتبسة ومبهمة كلها. كنت أتوجس أمراً ما وشيك الوقوع، ولكن لم أتمكن من إدراك ما هو، على الرغم من أن أحلامي وهواجسي التي تحوم حول منزل آل «فيدال» كان بوسعها أن ترشدني إليه.

ومع ذلك فقد قضيت تلك الأيام وأنا أرنو إلى قريتي، ولكنني لم أرها. كان يجب أن تنقضي أعوام كثيرة، وأن أعاني من صدمات عديدة، وأن أتخلى عن أوهام كبيرة، وأن أتعرف حشداً من الناس، لكي أعود، على نحو ما، إلى والدي ومسقط رأسي، ذلك أن السبيل إلى خصوصياتنا الحميمة يكون دائماً رحلة طويلة تمر عبر كائنات وعوالم شتى. وهكذا كنت سأرجع إلى والدي، ولكن بعد فوات الأوان، كما يحدث في غالب الأحيان تقريباً. فلو خطر لي آنذاك أن هذه هي آخر مرة أراه فيها معافى، ولو توقعت أنني بعد مضي خمس وعشرين سنة سأراه قد تحول إلى كومة من عظام قذرة وأحشاء متفسخة، ينظر إلي بحزن من عمق عينين كادتا تصبحان غريبتين عن هذا العالم، لكنت حاولت أن أفهم ذلك الرجل الذي كان فظاً وطيباً، قديراً وساذجاً، شديداً ونقياً، في الوقت ذاته. ولكننا نفهم أقرب المخلوقات إلينا بعد فوات الأوان دائماً، وعندما نبدأ نتعلم تلك المهمة الصعبة في الحياة، نكون قد شارفنا على الموت، ويكون أولئك الذين كانوا أكثر من يهمنا تطبيق ما اكتسبناه من معرفة عليهم، قد ماتوا أيضاً.

عندما عدت إلى بوينس أيرس، لم أكن قد كونت بعد فكرة عما يجب أن أدرس، كنت أرغب في كل شيء، أو ربما لم أكن أرغب في شيء. أحب الرسم، أكتب قصصاً وشعراً، ولكن، هل كانت تلك

مهنة؟. وهل كان بوسع أحد أن يقول للناس وهو جاد، إنه يود تكريس حياته للرسم أو الكتابة؟. ألم تكن تلك الأمور مضيعة للوقت ويقوم بها أناس لا عمل لهم ولا يشعرون بالمسؤولية؟. كان الآخرون جميعاً يبدون أشد تماسكاً بعد أن انتظموا في كليات الطب أو الهندسة، يدرسون كيفية القضاء على وباء، أو بناء جسر، وذلك ما لم أكن أحمله على محمل الجد. ولذلك حملني الخجل على أن أنتسب إلى كلية الحقوق، على الرغم من أنني كنت في أعماق نفسي واثقاً بأنني لن أستطيع العمل في مهنة المحاماة أبداً.

ها إني أبتعد عما يعنيك، ولكن يتعذر علي أن أتحدث عن الأشخاص الذين كانت لهم، بالنسبة إلي، أهمية بالغة، من دون أن أعرج على مشاعري في تلك الحقبة. فكيف يمكن أن ينال أولئك الناس اهتمامي، إن لم يكن سبب ذلك بالتأكيد رغباتي ومشاعري؟.

أعود إذاً إلى ماكس.

راقبته بفضول، بعد أن انتهيا من اللعب. كان غضاً كسولاً ومن أولئك اليهود الذين ينزعون إلى السمنة. أنفه عريض ومعكوف ولكن وجهه، بجبهته العالية، ينم عن نبل خفي، وما يتسم به من هدوء وتأمل وتفكير يضفي عليه سمات رجل ناضج ومتردد في كل شيء. كان مهملاً في لباسه، تنقص بذته بعض الأزرار دائماً، وربطة عنقه معقودة على نحو سيء، ويرتدي كل شيء كيفما اتفق، كأنما يفعل ذلك لمجرد ألا يمشي في الشارع عرياناً. وقد لاحظت، فيما بعد، أنه لا يحظى بأي حس عملي، وليست لديه أي فكرة عن كيفية التصرف بأمواله: بعد أيام قلائل من استلام مرتبه الشهري، الذي يبدده بمناسبة وبلا مناسبة، يتعين عليه أن يرهن كتباً وملابس، كما أن خاتماً أهدته إياه أمه يكون مصيره كغيره صندوق الرهن. عندما عرفت أسرته أدركت أن والده كان وديعاً

وأحمق مثله، وأن الأب والابن مثالان صارخان لصورة اليهودي التي توافق عليها بعض الناس. كلاهما يفتقران إلى الحس العملي، وكلاهما غبيان (رقيقان، إنما غبيان على نحو صارخ) ومسالمان وصديقان طيبان، ومفكران كسولان، ونزيهان لا يصلحان لكسب المال أبداً، وحالمان وسخيفان. وفيما بعد، عندما بدأت أتردد عليه في نزله، تمكنت من أن أتحقق من الفوضى التي كان يعيش في خضمها: لم يكن ينام عند ساعة معينة، وكان يأكل أي شيء يتيسر له وهو جالس في الفراش، ولذلك كان يحتفظ بكمية كبيرة من شطائر السمك أو الجبن على المنضدة الصغيرة بجانب السرير. وهناك كان يضع أيضاً سخاناً ليشرب «الماتي» ويدخن اللفائف من دون أن يتحرك من فراشه. وفي ذلك السرير القذر شبه العاري يدرس، ويتابع على لوحة شطرنج صغيرة ألعاباً مشهورة، ويرجع ما بين حين وآخر إلى كتب ومجلات متخصصة في تلك اللعبة.

عرّفني ذلك الفتى بـ (كارلوس): وكأني عبرت جسراً من مطاط على وشك أن يتداعى، لأصل إلى أرض يابسة وصلبة، أو إلى قارة بازلتية غاصة ببراكين توشك أن تنفجر. ولقد لاحظت مراراً، طيلة سنوات خبرتي الطويلة، أن هناك مخلوقات لا تقوم إلا بدور جسر مؤقت فقط، لخدمة شخصين يتعين عليهما فيما بعد الارتباط بأواصر عميقة ومصيرية: كتلك الجسور الهشة التي تنصب فوق الهاوية لنقل الجيوش ثم تسحب فيما بعد، عندما تكون القوات قد عبرت.

التقيته في إحدى الليالي في غرفة ماكس. عندما دخلت، لاذا بالصمت.

عرّفني به، ولكنني تمكنت من تمييز اسمه فقط، وأما لقبه فأعتقد أنه كان «طليانياً». وجدته فتى نحيل الجسم، سريع النظرات، ينطوي وجهه ويداه على شيء من قسوة وخشونة. بدا لي أنه بالغ التحفظ والحيطة،

ممعناً في التفكير، ويبدو أنه عانى من العذاب طويلاً، وإلى جانب فقره الظاهر، كانت روحه بالتأكيد تمور بأسباب أخرى للكآبة والألم. فيما بعد، عندما فكرت في أمره ملياً، بسبب صلاته بفرناندو، أثار في نفسي اهتماماً بالغاً، فخلت إنه روح محض، وكأنما أحرقت الحمى لحمه فتقلص جسمه المضطرم المحترق إلى مجرد عظام وبشرة وبضع عضلات قليلة لكنها صلبة تمكنه من الحركة ومن تحمل توتر وجوده. لم يكن يتكلم، ولكن سرعان ما كانت عيناه تتأججان بنيران الغضب، وتنزم شفتاه، كأنهما حزتا بسكين في وجهه قاسي القسمات، لتنطويا على أسرار هائلة وكئيبة.

أدهشتني في ذلك الحين علاقة ماكس بكارلوس: كأن رغيفاً من الخبز الطري يقطع بسكين من الفولاذ المسنون. لم نكن قد بلغنا بعد المرحلة التي يعرف فيها أحدنا أن لا شيء في الكائنات البشرية يجب أن يثير دهشتنا، ولكنني الآن أدرك أن ماكس كان يحظى بصفات تتلاءم مع تلك الصداقة بالغة الغرابة ظاهرياً: طيبته المفرطة التي كان لابد لها من أن تخمد توتر كارلوس الروحي، كما يطفئ الماء ظمأ امرئ اجتاز صحارى مترامية الأطراف، ثم مرونته التي ساعدته على أن يجمع بين كائنين مختلفين وقاسيين، مثل كارلوس وفرندو، ويحول ـ كما لو أنه نابض ـ دون حدوث صدامات قوية بينهما. وهل يخطر ببال أي شرطي في العالم أن يكون لإنسان مثل ماكس علاقات بإرهابيين وقتلة..؟.

هذا عن كارلوس. أما فرناندو فقد أثار ـ منذ البدء ـ شكوكي، وتأكدت فيما بعد من أمر دنيء للغاية: والدة ماكس. لست أدري إن كنت قد قلت لك إنه كان يميل ميلاً غريباً إلى صنفين من النساء: الفتيات الصغيرات جداً، والسيدات الناضجات. ولما كانت قدرته على التصنع لا حدود لها، كان يستطيع أن يغوي فتاة صغيرة يسرها أن

تتمشى متأبطة ذراعه، مثلما يغوي امرأة ذات خبرة واسعة ومريرة تعودت معاشرة الرجال. وإذا كان المرء يبدو بأكثر وجوهه أصالة عندما يكون وحيداً، فإن أكثر وجوه فرناندو أصالة كان قاسياً لا يرحم كأنه محفور بسكين. وكما يستطيع بائع قماش أن يبدو(ويتعين عليه أن يبدو) أمام الشاري منشرح الأسارير، حتى إذا باغته أي مكروه، كذلك كان فرناندو قادراً، حسب الأحوال، على أن يرتب على سطح وجهه أكمل التعابير محاكاة للرقة أو العطف أو الرومانسية أو السذاجة. يساعده على ذلك احتقاره للجنس البشري بعامة، وللمرأة بخاصة. وأعتقد أنه لم يجد في تلك الملهاة المشؤومة أفضل الطرق لإشباع غلمة شبقه وحسب، بل كان يجد فيها إحدى وسائل احتقاره لنفسه أيضاً. كان يهزأ من النظريات المبسطة عن المرأة، التي تلتقي آراء بعضهم حولها، سواء تلك التي تعتقد أن المرأة رومانسية بطبيعتها ويتعين لغزو قلبها معاملتها برقة وعذوبة، أو تلك التي تتصور أنها يجب أن تعامل بازدراء، فهو يرى أن ثمة نساء يحتجن إلى باقة من الزهور، وغيرهن إلى ركلة، وأخريات (وهن ذاتهن أحياناً، حسب الظروف) إلى الأمرين معاً. ولكنه كان، عاجلاً أم آجلاً، يسيء معاملتهن جميعاً، وكان في بعض الأحيان يقسو عليهن بشدة، كأن يتثاءب عند بلوغ ذروة النشوة وهو يضاجعهن.

كانت والدة ماكس في ذلك الحين تناهز الأربعين، سمراء اللون، سلافية القوام تماماً. لست أدري إن كانت جميلة أم لا، ولكنني أعلم أنها كانت مغرية: بدءاً من عينيها الجذابتين اللتين تضطرمان بنار الهوى، وحتى سيرة حياتها، ولا أرى فائدة ترجى إن قلت لك إن ماكس لم يكن يشبه أمه بشيء: لقد ورث من والده صفاته الجسمية والروحية.

كانت نادياً أخّاذة، ولعل سيرة حياتها كانت ما سحرني فيها. كانت والدتها طالبة طب في (سان بطرسبرغ)، هجرت، مثلها مثل الكثيرين،

دراستها لكي تقوم بنشر الدعوة الثورية بين الفلاحين، وتمكنت من الهرب عندما شرعت القيصرية بالقضاء على الحركة، بعد سلسلة من الاغتيالات. ثم انضمت إلى مجموعات «زوريخ». وتعرفت فتى منفياً يدعي «ايساييف»، وكانت ثمرة زواجهما ناديا التي عاشت في طفولتها ومراهقتها حياة مضطربة تنتقل من بلد أوروبي إلى آخر، حتى عادت الأسرة إلى زوريخ، حيث تزوجت هناك من طالب طب يدعى «ستينبرغ». أتوا إلى الأرجنتين فدرست ناديا الطب، وكافحت طويلاً لكي تربي أسرتها وتعيلها.

كانت بوجهها الذي يشبه وجه التتر قليلاً، وشعرها الناعم الفاحم، المسرح على جانبي رأسها، والمشدود إلى الوراء ليشكل ضفيرة خلفه، تبدو كأنها فتاة هاربة من أحد الأفلام الروسية.

لقد تعلمت من «ناديا» حب تلك البلاد الواسعة وعشقها، بلاد السكارى والعدميين، والثرثارين، والمسلولين، والبيروقراطيين والجنرالات، روسيا القياصرة.

بدأ «ماكس» صلاته بفرناندو في ليلة سبت سنة 1928 في ناد من نوادي «أفيجانيدا» يدعى صبح، حيث كان غونسالس باتشيكو يلقي محاضرة موضوعها «الفوضوية والعنف»، وكانت المشكلة في ذلك الحين مطروحة بحدة، نتيجة اعتداءات «دي جيوفاني» وهجماته. كما كانت المناقشات بالغة الخطورة، لأن عدداً كبيراً من المستمعين كان يأتي مسلحاً، وكانت الحركة الفوضوية منقسمة إلى شراذم متناحرة متباغضة حتى الموت. فمن الخطأ أن يتصور المرء، كما يفترض كثيرون ممن يرون حركة ثورية من بعيد أو من الخارج، أن أعضاءها جميعاً يشكلون نمطاً محدداً من الأشخاص. إنه خطأ في الرؤية، يشبه إلى حد بعيد الخطأ الذي نرتكبه عندما نعزو إلى الإنكليزي، أو من يمكن أن نسميه

(الإنكليزي)، صفات محددة تماماً، فنضع بسذاجة في سلة واحدة أشخاصاً لا تجانس بينهم، مثل «برومل الجميل» وحمّال في ميناء ليفربول. أو عندما نؤكد أن سائر اليابانيين سواسية، جاهلين أو مغفلين تبايناتهم الفردية، تدفعنا إلى ذلك آلية نفسية لإدرك السمات العامة من الخارج على نحو سطحي، ولكن عندما نكون داخل تلك الجمعيات ندرك الاختلافات، لأن ما يكتسي أهمية حينذاك تلك السمات التفصيلية.

ولكن المشيج كان بلا حدود. فهناك الـ «تولستوياني» الذي يأبى أكل اللحم، لأنه عدو كل أشكال القتل، والصوفي، ودعاة «الاسبرانتو»، ومن يؤيد العنف حتى في أشد أشكاله ضراوة، لأنه يؤمن بأن محاربة الدولة لا تكون إلا بالقوة، أو لأنه مثل «بودستا»، ينفس عن غرائزه السادية. وكان هناك أيضاً المثقف أو الطالب، الذي وصل إلى الحركة عبر «ستيرنر» و «نيتشه»، من أمثال فرناندو. وهؤلاء فرديون ومتطرفون وانطوائيون ممن انتهى بهم الأمر، في كثير من الأحيان، إلى تأييد الفاشية. كما أن عمالاً أشباه أميين حاقدين انضموا إلى الفوضوية جرياً وراء أمل غريزي فصبوا حقدهم على رب العمل أو المجتمع، وتحولوا في كثير من الأحيان، عندما جمعوا بعض الثروة، إلى أرباب عمل لا تعرف الشفقة إلى قلوبهم سبيلاً، أو أصبحوا موظفين في جهاز الشرطة. وكان هناك أناس بالغوا النقاء، تمتلئ نفوسهم بالخير والكبرياء، ولكنهم كانوا، برغم طيبتهم ونقائهم، مثل «سيمون رادوفيتسكي» أهلاً لارتكاب أعمال العدوان والقتل، يدفعهم ضرب من الإحساس بالعدالة إلى القضاء على الإنسان الذي يرون أنه مسؤول عن موت نساء وأطفال أبرياء. وكان هناك أيضاً، الطفيلي الذي يتخذ من نغمة الفوضوية سبباً ليتعيّش، فيأكل وينام مجاناً في بيوت الرفاق، ولا يتورع حين تسنح له الظروف عن

سرقتهم، أو إغواء زوجاتهم، وحين يتلقى من صاحب البيت أي لوم مهما كان بسيطاً، على وقاحته، يرد باحتقار: (ولكن أي ضرب من الفوضويين أنت أيها الرفيق..). وكان هناك الضليل الذي يحب الحياة الحرة في الحقول، تحت أشعة الشمس طليقاً كالعصفور، يحمل متاعه على ظهره، لكي يتجول في بلدان ويبشر ويعظ بالحسنى، يشتغل في حصاد محصول أو إصلاح طاحون أو محراث، وينام ليلاً في عنبر الأجراء، يعلم الأميين منهم القراءة والكتابة، أو يشرح لهم بعبارات بسيطة، ولكنها مثيرة، كيفية إقامة المجتمع الجديد، حيث لا فقر ولا قهر ولا عذاب، أو يتلو على مسامعهم صفحات من كتاب ما يحمله في صرته: صفحات من «مالاتيستا» إلى الفلاحين الطليان، أو من «باكونين»، في حين يشرب مستمعوه الصامتون «الماتي» وهم جلوس القرفصاء، أو فوق أحد صناديق «الكيروسين» متعبين من يوم عمل امتد من شروق الشمس حتى مغربها، ولعلهم يتذكرون قرية إيطالية، أو بولونية نائية، فيستسلمون لذلك الحلم الرائع قليلاً، يودون تصديقه، إنما (يغويهم الواقع القاسي الذي يواجهونه كل يوم)، فيتصورون استحالته، كما يحدث للذين يثقل البؤس كاهلهم، إلا أنهم، على الرغم من ذلك، يحلمون أحياناً بنعيم الآخرة. وربما كان، بين أولئك الأجراء أحد أبناء البلد ممن يفكر أن الله خلق الأرض والسماء بنجومها للجميع على السواء، أحد من ذلك الصنف من أبناء البلد الذي يحن إلى الحياة القديمة الشامخة، الحياة الحرة في سهول بلا حواجز تفصل بينها، كذلك الصنف الفردي الصبور من أبناء البلد، ممن اتخذ من الرسل القدماء ذوي الأسماء الغريبة قدوة له، واعتنق بحماسة وإلى الأبد عقيدة الأمل.

وعندما أكد إسكاف «تولستوياني» في تلك الليلة من سنة 1928 أنه ليس من حق أحد أن يقتل أحداً باسم الفوضوية بخاصة، وأن الحياة، بما

فيها حياة الحيوانات، مقدسة أيضاً، ولذلك فإنه لا يأكل إلا الخضار فقط، أجابه فتى غريب، فارع الطول، أسمر اللون، أخضر العينين، مقطب الوجه، ساخر القسمات، لا يتجاوز الثامنة عشرة من عمره قائلاً:

ـ يحتمل أن ينشط أكل الخس وظيفة أمعائك، ولكن يبدو لي أنه من الصعب جداً أن تقضي بذلك على المجتمع البورجوازي.

نظر الجميع إلى ذلك الفتى الغريب.

وهبّ «تولستوياني» آخر، ليدافع عن الإسكاف، مذكراً بحكاية بوذا عندما ترك النمر يلتهمه لكي يسد رمقه. ولكن أحد أنصار العنف العادل سأل، ماذا كان بوذا سيفعل، لو رأى أن النمر لم يندفع نحوه، وإنما نحو طفل أعزل. بعد ذلك اتخذت المناقشة منحى عاصفاً أو ساخراً أو شاعرياً أو عدوانياً أو غيبياً أو قاسياً، حسب الأمزجة، لتبرهن من جديد على أن مجتمعاً بلا طبقات، وبلا معتقدات اجتماعية، ربما كان كهذا، مسرحاً للعنف والتناحر. ثم بدأت تتوالى ثانية الحجج ذاتها، والذكريات ذاتها: ألم يكن قيام «رادوفيتسكي» بقتل قائد الشرطة المسؤول عن مجزرة الأول من أيار 1909 أمراً له ما يسوغه..؟. ألم يكن قتل البروليتاريين الثمانية وجرح الأربعين يتطلب الانتقام..؟. ألم يكن بين الضحايا نساء أيضاً؟. بلى، ربما. إن الدولة البورجوازية كانت تدافع بلا رحمة عن امتيازاتها، مسلحة حتى أسنانها، ولا تعبأ بحياة أحد أو بحريته، ولم يكن للعدالة والشرف وجود بالنسبة إلى أولئك الطغاة الذين لا يهمهم سوى المحافظة على امتيازاتهم. ولكن ما ذنب أولئك الأبرياء الذين يموتون بقنابل الفوضويين أحياناً..؟. ثم، هل يمكن بلوغ مجتمع أفضل بوساطة العنف والانتقام؟. أليس الفوضويون هم المعين الحقيقي لأفضل القيم الإنسانية: قيم العدالة. والحرية والإخاء، واحترام الكائن الحي..؟. وهل يجوز القضاء، باسم تلك المبادئ، على موظفي مصارف أو متاجر

صغار، ليسوا في نهاية المطاف سوى ضحايا أبرياء، يقتلون بغية الحصول على أموال تستخدم لأهداف مشبوهة؟. وانتهت المناقشة حينئذ، وسط صخب الشتائم والصراخ، ثم السلاح، وتمكن «غونسالس باتشيكو»، بفضل موهبته الخطابية، وتذكير الفوضويين الحاضرين بأن ما يفعلونه يسوغ أسوأ اتهامات البورجوازية، من تهدئة الموقف بصعوبة.

وروى لي «ماكس»، أنه التقى فرناندو في تلك المناسبة. واسترعى انتباهه وجهه وكلامه الساخر. خرجوا وإياه يرافقهم آخر يدعى «بوديستا»، تعرفته فيما بعد. وهكذا تمت الخطوة الأولى لتشكيل العصابة التي كان من المؤكد أن «بوديستا» يود تنظيمها وترؤسها، ولكن الذي ارتأس عليها لم يكن سوى فرناندو. نفرّني «اوسفالدو ر. بوديستا» حالما عرفته: كان يتسم بشيء من الغموض والمكر، كانت أساليبه ناعمة وشبه أنثوية، وكان مثقفاً نسبياً، فقد وصل إلى الصف الرابع الثانوي قبل أن ينضم إلى عصابة «دي جيوفاني». كان يزم عينيه، ويختلس نظرات جانبية، على نحو غير مستحب. ولقد ترسخ، بمضي الأيام، ذلك الانطباع الأولي الذي كونته عنه بعد أن عرفت سيرة حياته. فعندما أعدم «دي جيوفاني» وطوردت الحركة في ظل قانون الطوارئ، بعد أن قامت عصابة فرناندو بالسطو على محاسب متجر «براسيراس»، هرب إلى الأورغواي في أحد قوارب المهربين، ثم انتقل إلى أسبانيا. وبدأ يعمل هناك في فريق النقابات المسلح، وخاض حرباً لا هوادة فيها مع القيادات (سقط ثلاثمئة قتيل في تلك السنوات التي سبقت الحرب الأهلية). ولكن، لسبب ما أجهله، اشتبه بأنه كان متواطئاً مع الشرطة، ولكي يثبت إخلاصه أعرب عن استعداده لأن يقتل من يرغبون في أن يقتله.

طلبوا منه قتل رئيس شرطة «برشلونة»، فأطلق عليه «بوديستا» النار وأرداه قتيلاً، ويبدو أنه جدد بذلك ثقتهم به. لكنه أوقع أثناء الحرب

الأهلية كثيراً من الفظائع في عصابته، فحكم عليه اتحاد الفوضويين الإسبان بالموت. ولما علم «بوديستا» بذلك حاول الفرار مع اثنين من أصدقائه من مرفأ «تاراغونا»، في قارب آلي، محمل بالأمتعة والأموال. ولكن الرصاص حصدهم في الوقت المناسب.

إن ضم إنسان مثل «بوديستا» إلى عصابة فرناندو، أمر له ما يفسره. ولكن الأمر الغريب، أن يكون بوسع فتى مثل «كارلوس» العمل مع جماعة كهذه، ولا يفسر تلك الظاهرة سوى ما انطوت عليه نفسه من نقاء. وينبغي ألا تنسى أن قدرة فرناندو على الإقناع كانت بلا حدود، ويجب ألا يكون قد وجد صعوبة تذكر في إقناعه بأن ذلك هو السبيل الوحيد لمحاربة المجتمع البورجوازي، مع أن المال الذي حصلوا عليه من عمليات السطو لم يدخل صندوق أي نقابة، ولم يكرس لمساعدة الأيتام أو أسر الرفاق المسجونين أو المنفيين. ولذلك فإنه ابتعد عنهم حينما علم أن «غاتي» لم يستلم الأموال التي وعد «فرناندو» بأن يدفعها له من أجل عملية الهرب من سجن «مونتفيديو»، وقد نظمت تلك العملية التي لم يكن تأجيلها ممكناً، بأموال تم الحصول عليها بسرعة، من جهة أخرى. كان «كارلوس» يحترم «غاتي»، (وقد تأكدت من ذلك بنفسي)، وكانت تلك الحادثة بالنسبة إليه بالغة الدلالة. لعلك تتذكر حادثة الفرار المشهورة من سجن «مونتيفيديو»، حين هرب أربعة عشر سجيناً عبر نفق طوله أكثر من ثلاثين متراً أشرف على حفره «غاتي»، الذي كان يُعرف باسم المهندس، يمتد من دكان زعم أنه لبيع الفحم يقع مقابل السجن. عمل «غاتي» مسترشداً بالعلم، فاستخدم بوصلة وخرائط، وحفارة كهربائية صغيرة، وقطاراً صغيراً يسير على عجلات، ويُجر بحبل تفادياً للضجيج. وكانت الأتربة تجمع في أكياس، تبدو كأنها مملوءة بالفحم، لتشحن بالسيارات، فيما بعد. تطلبت تلك العملية الطويلة المعقدة أموالاً طائلة كان مصدر جزء كبير منها

عمليات السطو، ولكن كل ذلك كما سيتبين لك، وكما تعود فرناندو أن يقول بسخرية، لم يكن في نهاية المطاف سوى ضرب من التكافل الذاتي: يسرقون للإفراج عن فوضويين سجنوا بسبب عمليات سرقة سابقة.

كان لدى الفوضويين مصدران كبيران للحصول على المال: السرقة والتزوير. وكان لكلا المصدرين مايسوغهما فلسفياً. فالملكية، كما يرى بعض منظريهم، ليست سوى سرقة، وما النهب إلا وسيلة تعيد للمجتمع ما استولى عليه الفرد من دون حق. وليس الهدف من تزوير الأوراق النقدية الحصول على المال، للصرف على عمليات الفرار والمظاهرات وحسب، بل يرمي كذلك، عندما يتم على نطاق واسع بخاصة، إلى تدمير خزينة الدولة وتحطيم الأمة. ولقد اقتدى الفوضويون بالمثال التاريخي الذي اتبعته إنكلترا عندما أرسلت الأوراق النقدية المزورة الشهيرة بسفن الصيادين في محاولة تخريبية ضد حكومة الثورة الفرنسية، ولذلك قاموا، في عدة مناسبات، بعمليات تزوير على نطاق واسع. وكانت تلك مهمة سرية أغوتهم، ولم تكن بالغة الصعوبة، لأن عدداً من أعضاء الحركة كان ممن تستهويهم فنون الرسم، نظم «دي جيوفاني» مشغلاً كبيراً للنقش، حيث كانت تطبع أوراق نقدية من فئة «10 بيسو»، واشتغل فيه عامل طباعة يدعى «سيليستينو إيجليساس»، كان رجلاً نقياً كريماً، تعرفه «فرناندو» آنذاك، وفي السنوات الأخيرة التي سبقت موته، عاد يبحث عنه للقيام بعملية تزوير. كان ذلك، قبل الحادثة التي ذهبت ببصر «إيجليسياس».

ولكن، لنعد إلى لقائنا.

كان ذلك في كانون الثاني/ يناير 1930، كنا قد ذهبنا يرافقنا ماكس، لمشاهدة فيلم «*الخيانة العظمى*»، وعندما وصلنا إلى الحانة كنا لانزال نتحدث عن «إميل جانينغ»، وعن السينما الناطقة، وما لها وما عليها (كان «ماكس» يخشى ـ مثلما يخشى «ريني كلير» و«شابلين» ـ ما

تزخر به السينما الناطقة من إمكانيات)، فرأينا فرناندو ينتظره جالساً قرب المنضدة المعروفة التي تشغلها لوحة شطرنج ماكس. عرفته في الحال. ورغم أنه كان آنذاك قد أصبح رجلاً وتعمقت قسماته، إلا أنه لم يتغير، فقد كان من ذلك الطراز من المخلوقات البشرية التي تتسم، منذ الطفولة، بقسمات قوية لا تغيرها السنون، بل تبرزها أكثر فأكثر.

كنت أستطيع أن أعرفه وسط حشد كبير من الناس، فقسمات ذلك الوجه بارزة على نحو لا يمكن معه أن تنسى أبداً.

لست أدري أهو لم يعرفني حقاً، أم إنه أراد أن يتجاهلني. مددت له يدي.

قال وهو يصافحني كأنه شارد.

ـ آه، برونو.

انتحيا جانباً، وتحدث فرناندو إلى ماكس بصوت خافت. كنت أنظر إليه من دون أن تفارقني الدهشة، وكدت أعجز عن الكلام؛ فرغم أنني وجدت، فيما بعد، ما يفسر ذلك اللقاء، كما سبق وقلت لك، بيد أن ظهوره في تلك اللحظة بدا لي كأنه معجزة من المعجزات المشؤومة.

وعندما افترقا التفت إلي وأومأ بإشارة وداع من يده. سألت ماكس إن كان قد حدثه عني، وإن قال له أين تعارفنا فأجاب:

ـ لا لم يقل لي شيئاً.

واضح أن ذلك اللقاء لم يكن مفاجئاً له: يتعرف المرء كثيراً من الناس في المدينة.

وهكذا عدت إلى الدخول في فلك فرناندو، ورغم أنني رأيته في مناسبات معدودة، فقد كان لكلماته ونظرياته وسخريته أبلغ الأثر في تلك المرحلة الحاسمة من حياتي. وفي الواقع، لم أشترك قط في نشاطات

عصابته السرية، ولكنني تابعت قلقاً من بعيد، بوساطة ماكس أو كارلوس، دلالات تلك الحياة المضطربة. ما زلت حتى اليوم أجهل تماماً، إلى أي مدى، وعلى أي نحو، استطاع فتى مثل ماكس أن يشترك في ذلك التنظيم. وأعتقد أنه ربما اضطلع فيه بدور جانبي أو ثانوي، فطبائعه وأفكاره لم تكن تؤهله للقيام بأي عمل مهما كان، وبخاصة، الانخراط في نشاط من هذا القبيل. و ما زلت حتى الآن أتساءل: لماذا كان «ماكس» قريباً من تلك العصابة..؟. أبسبب الفضول..؟. أم بسبب وراثي يعود إلىتأثير تاريخ أسرته..؟. كما أنني ما زلت أبتسم في دخيلتي أحياناً، من وجود ماكس في ذلك الموقع الشاذ. كان متساهلاً إلى حد يستطيع معه إيجاد المسوغات لكي يعقد صداقة مع رئيس شرطة بوينس أيرس، ولا شك أنه كان بوسعه ـ لو سمحت له الظروف ـ أن يشترك وإياه في لعبة شطرنج. كان وجوده بين أولئك الناس أمراً غير معقول.

وكأننا نجد، أثناء هزة أرضية، امرءاً يستمتع بقراءة الجريدة وهو جالس على كرسي مريح، كذلك كان ماكس ـ وهو جالس بين لصوص وإرهابيين يتكلمون عن التزوير والديناميت والأنفاق ـ يحدثني عن الموشحة الدينية «*الملك داوود*» التي كان يقدمها «هونيجر»[1] آنذاك على مسرح «كولون»، وعن «تايروف»[2] الذي كان يعمل في مسرح «أوديون»، أو يحلل طويلاً أفضل ألعاب الشطرنج بين كابا بلانكا و أليخين، أو يخرج فجأة بأساريره المسرحية التي لم تكن تتلاءم قط مع ذلك الجو، كأنها كأس «أوبورتو»[3] يقدم في اجتماع لمحترفي شرب الـ «جين».

---

(1) أرتو هونيجر: موسيقي سويسري (892 ـ 1955) أحد أساتذة الأوركسترا (المترجم).

(2) الكسندر تايروف: (1885 ـ 1950) ممثل ومخرج سينما روسي. (المترجم).

(3) أوبورتو: صنف من الخمر الخفيف، ينسب إلى بلدة برتغالية (المترجم).

تسارعت الأحداث بدءاً من الثاني من أيلول/ سبتمبر: مظاهرات طلاب، إطلاق رصاص، ومقتل الطالب «أغيلار» ثم الإضرابات، وأخيراً ثورة اليوم السادس، وسقوط الرئيس «إريغوجن». فانتهت بذلك (هذا ما نعرفه الآن) مرحلة من حياة البلاد، لن نعود بعدها كما كنا من قبل أبداً.

نزلت بالحركة كلها، في عهد المجلس العسكري (لاخونتا)، وقانون الطوارئ، ضربة مروعة: دهمت مراكز عمالية وطلاّبية، وطرد العمال الأجانب خارج الحدود، وعذب وأعدم أعضاء الحركة الثورية.

لم أعد، في خضم تلك الفوضى، أرى كارلوس. ولكن كان يراودني الشك في أنه متورط في أمور خطيرة للغاية. وعندما قرأت في صحف الأول من كانون الأول/ ديسمبر، أخبار السرقة التي ذهب ضحيتها محاسب متجر «براسيراس» في شارع «كاتا ماركا»، سرعان ما تذكرت جولة طويلة ومشبوهة قام بها كارلوس منذ حوالي شهرين رافقته خلالها، بحجة البحث عن مقر لمطبعة سرية. لم يراودني أدنى شك، بأن عصابة «فرناندو» كانت وراء عملية السرقة، مما ثبت لي فيما بعد بالبرهان القاطع. ولا شك أن تلك كانت آخر العمليات التي يشارك فيها «كارلوس»، بعد أن أقتنع في ذلك الحين بأن الأهداف التي يجري وراءها فرناندو لا تمت بصلة إلى الأهداف التي يؤمن هو بها. وعلى الرغم من أن فرناندو تولى أمر تدمير تعاطفه مع الشيوعية بحجج لئيمة ولكنها ماحقة، فإن كارلوس قام، على الرغم من ذلك، بالانضمام إلى إحدى خلايا الحزب الشيوعي في «أفيجانيدا». وكنت أسمع في بعض الأحيان حجج فرناندو وسخرياته التي كان كارلوس يصغي إليها مطرقاً متوتراً يضغط على فكيه بأسنانه.

إلا أن فتياناً شيوعيين كانوا في ذلك الوقت يعملون لكسب كارلوس إلى صفوفهم، فبدأ يجد في تلك الحركة شروطاً مناسبة أفضل: كان

يبدو أنهم يناضلون من أجل هدف ثابت ومحدد، وقد برهنوا على أن الإرهاب الفردي لا جدوى منه، بل هو مؤذ، وانتقدوا، بالاستناد إلى حجج جديدة، تلك الحركة التي سمحت بقيام عصابات مثل عصابة «دي جيوفاني»، كما برهنوا على أن القوة المنظمة للبروليتاريا هي القوة الوحيدة القادرة على مجابهة القوة المنظمة للدولة البورجوازية. ولكن فرناندو لم يكن ينتقد ـ كما فعل فوضويون آخرون ـ إقامة دولة جديدة قد تكون أشد وطأة من السابقة، وإرساء ديكتاتورية تقمع الحرية الفردية في سبيل مجتمع المستقبل: لا. كان يأخذ على الشيوعية إسفافها، وطموحها إلى حل مشاكل الإنسانية الكبرى، بصناعة الصلب، وتوليد الكهرباء، وتوفير الأحذية، ووجبات الطعام الجيدة.

والأمر المريع لم يكن، برأيي، محاولة «فرناندو» تحطيم إيمان كارلوس الوليد بحجج سفسطائية: الأخطر من ذلك كله أنه لم يكن يهمه أي شيء أبداً، سواء كان الشيوعية أو الفوضوية. وكان يشهر أسلحته الجدلية لمجرد تحطيم مخلوق مسكين أعزل مثل كارلوس.

ولكن ذلك كان، كما قلت، قبل السطو على متجر «براسيراس». فمنذ ذلك الحين لم أر كارلوس ثانية إلا سنة 1934، أما فرناندو فلم أره إلا بعد عشرين عاماً.

دهمت الشرطة في كانون الثاني/ يناير 1930 «دي جيوفاني» ـ بعد وشاية ـ في مطبعة سرية. فحوصر وألقي القبض عليه بعد أن طورد في شوارع وسط المدينة، وسطوح كثير من المنازل. ثم أعدم في صبيحة الأول من شباط/ فبراير، ورفيقه «سكارفو»، بينما كانا يصيحان: تحيا الفوضوية..!. ولكن تلك الصرخات كانت، في الواقع، إيذاناً بالقضاء نهائياً على الفوضوية، في هذا الركن من العالم.

ولقد وضع ذلك حداً لكثير من الأمور.

ازددت شوقاً على نحو لا يطاق إلى العودة إلى «آل أولموس» بعد لقاء فرناندو ثانية، وبعد الأزمة التي كنت أجتازها، وجعلتني أشعر بأنني وحيد أكثر مما كنت أثناء السنوات الأخيرة من دراستي الثانوية.

كنت إنساناً دأبي التأمل دائماً، ووجدت نفسي فجأة في خضم تيار يجرفني معه، مثلما يجرف نهر ينحدر بين الجبال في موسم الفيضان أشياء كثيرة كانت قبل ذلك بلحظات تنعم بتأمل العالم بهدوء. ولكن ذلك الزمان يبدو لي الآن كله، بعد أن انقضت سنوات، وهماً أشبه ما يكون بحلم، ومخادعاً (لكنه غريب) مثل عالم رواية من الروايات.

كان من نتائج تورطي فجأة مع الشرطة، وعلاقتي بكارلوس، أن دهم رجالها النزل الذي أقيم فيه، فتعين علي أن ألجأ إلى نزل يقيم فيه «أورتيغا»، وهو طالب هندسة حاول ضمي إلى صفوف الشيوعية. كان يقطن قرب «كونستيتوسيون»، في شارع البرازيل، في نزل تملكه أرملة إسبانية تحبه جداً. ولذلك لم يكن من الصعب أن تجد حلاً مؤقتاً لمشكلتي، فأخلت غرفة صغيرة تطل على شارع «ليما» من محتوياتها من الأمتعة، ووضعت فيها فراشاً.

رأيت في تلك الليلة حلماً مقلقاً. حينما استيقظت عند الفجر، كاد يتملكني الخوف، لم أتذكر في الحال أحداث اليوم المنصرم، وإلى أن استعدت وعيي كاملاً، كنت أنظر مستغرباً إلى الواقع الملتبس الذي يحيط بي. ذلك أننا لا نستيقظ من النوم فجأة، وإنما في سياق عملية معقدة تدريجية، نشرع فيها بتعرف العالم الأصلي كمن يعود من رحلة طويلة في قارات نائية غامضة، ونكون بعد قرون من الحياة المظلمة قد فقدنا ذاكرة حياتنا السابقة، فلا نذكر منها إلا أجزاء مبعثرة فقط. وبعد

زمن لا حدود له يأخذ ضوء النهار بإنارة مخارج تلك المتاهة الكئيبة برفق. وحينئذ نهرع مسرعين نحو العالم اليومي. ونصل إلى تخوم الحلم مثلما يتمكن بحارون منهكون من بلوغ الشاطئ بعد صراع طويل مع العاصفة. وهناك فيما لا نزال في شبه غيبوبة نبدأ، بعد أن تطمئن نفوسنا شيئاً فشيئاً، بتذكر بعض صفات العالم اليومي، عالم المدنية الهادئ المريح. يروي أنطوان دي سانت اكسوبرى كيف استطاع أن يلمح ضوءاً خافتاً على الشاطئ الإفريقي، بعد صراع كئيب مع الأنواء، حين كان ضالاً في سماء الأطلسي، يكاد يفقد ومساعده الأمل في الوصول إلى الأرض، وكيف تمكنا في نهاية المطاف، بآخر ليتر من المحروقات، من بلوغ ذلك الشاطئ الذي طالما تاقا إلى بلوغه، وكيف كان كوب القهوة بالحليب الذي تناوله كل منهما في كوخ حينذاك رمز الاتصال البسيط والحاسم بالحياة كلها، ورمز اللقاء البسيط والرائع مع الوجود ثانية، ولذلك فإننا عندما نعود من عالم الحلم تكون منضدة صغيرة أو حذاء عتيق، أو قنديل بسيط مألوف أضواء مثيرة تنير الشاطئ الذي نتوق إلى بلوغه بأمان، ولذلك فإن الكآبة تهيمن علينا حين نجد أن أحد تلك الأجزاء من الواقع الذي شرعنا بتمييزه ليس هو ما كنا ننتظر: تلك المنضدة الصغيرة، ذلك الحذاء العتيق، ذلك القنديل المألوف. كما يحدث عادة عندما نستيقظ فجأة في غرفة مجهولة، في الغرفة الباردة الجرداء في فندق مجهول، أو في الغرفة التي ساقتنا إليها ظروف الليلة المنصرمة.

بدأت أدرك شيئاً فشيئاً أن تلك الغرفة لم تكن غرفتي. وتذكرت ما جرى في ذلك اليوم من مداهمات وملاحقات الشرطة. وبدا ذلك لي، الآن، في وضح النهار، سخيفاً جداً، وأبعد ما يكون عن طبيعتي. وأدركت مرة أخرى، أن الأحداث طالت حتى الأبرياء بعنفها

اللامعقول. ونتيجة سلسلة من القيود الغريبة وجدت نفسي، أنا الذي أعتقد أنني خلقت للتأمل والتفكير المجرد، في خضم أحداث ملتبسة، بل خطيرة.

نهضت، ثم فتحت النافذة، ونظرت إلى المدينة الغارقة في اللامبالاة.

شعرت بأنني وحيد ومشتت. وبدت لي الحياة معقدة وعدوانية.

وأتى «أورتيغا»، تبدو عليه سمات التفاؤل الساذج، كعهدي به دائماً، يمازحني بدعاباته عن الفوضويين. ترك لي، قبل ذهابه إلى الكلية أحد كتب لينين. ورغب إلي أن أقرأه، لأنه ينتقد فيه الإرهاب نقداً لاذعاً. فلم أتمكن ـ أنا الذي قرأت، بتأثير من «ناديا» مذكرات «فيرا فيغنر»، التي دفنت حية في سجون القيصر، بعد الاعتداء ـ من أن أستسيغ قراءة ذلك التحليل الساخر الذي لا يرحم (نفاد صبر بورجوازية صغيرة..). كم كان أولئك الرومانسيون يبدون مثاراً للسخرية، في ضوء تحليل المنظِّر الماركسي، الذي لا يرحم...!. وبمضي الأعوام، أخذت أدرك شيئاً فشيئاً، أن الحقيقة كانت أقرب إلى «لينين» منها إلى «فيرا فيغنر» ولكن قلبي بقي وفياً دائماً لأولئك الأبطال السذج وأشباه الحمقى.

خلت فجأة أن الزمن قد أصيب بالشلل. كان «أورتيغا» قد نصحني بألا أخرج من النزل، بل أبقى فيه بضعة أيام حتى أرى كيف تتطور الأمور. ولكن بعد مضي ثلاثة أيام لم أعد أستطيع البقاء، فبدأت أخرج، مفترضاً أن الشرطة لا يمكن أن تتعرف فتى لا سوابق له.

دخلت عند الظهر إحدى الحانات في «كونستيتوسيون» وأكلت. أثار استغرابي وجود كثير من الناس في الشوارع والمقاهي لا يقلقهم شيء، ولا تعترضهم المشاكل. عندما كنت في الغرفة أقرأ كتباً ثورية خلت أن العالم يمكن أن ينفجر في أي لحظة، ولكنني حين خرجت، وجدت أن

كل شيء يسير في مجراه السليم: المستخدمون يذهبون إلى أعمالهم. التجار يبيعون، وحتى يمكن رؤية أناس يجلسون متكاسلين على مقاعد الساحات يشهدون انقضاء الساعات: رتيبة مملة. ومرة أخرى، لن تكون الأخيرة، شعرت بأنني غريب في هذا العالم، وكأنما استيقظت فجأة جاهلاً قوانينه ومعناه. فسرت على غير هدى في شوارع بوينس أيرس، أنظر إلى أهلها، وجلست على أحد مقاعد ساحة «كونستيتوسيون» وفكرت. ثم عدت إلى غرفتي، فشعرت بوحدتي أكثر من أي وقت مضى. وخلت أن انغماسي في قراءة الكتب كفيل بأن يعيدني إلى الواقع ثانية، وكما لو أن تلك الحياة في الشوارع ليست سوى حلم كبير لأناس منومين مغناطيسياً. كان الأمر يتطلب مضي سنوات عديدة، لكي أدرك، أن هناك في تلك الشوارع، وفي تلك الساحات، وحتى في تلك المتاجر والمكاتب في بوينس أيرس، آلاف الأشخاص ممن كانوا يفكرون، أو يشعرون بأنهم يرون من حولهم عالماً نائماً، عالم أناس نوموا مغناطيسياً، أو تحولوا إلى آلات متحركة.

في ذلك الحصن المنعزل رحت أكتب قصصاً. والآن أدرك أنني كنت أكتب كلما شعرت بالتعاسة والوحدة، وباختلال صلتي بالعالم الذي قدر لي أن أولد فيه. وأفكر فيما إذا كان فن عصرنا، هذا الفن المتوتر الممزق، سيبقى دائماً هكذا، يولد على الدوام من اختلالنا، ومن قلقنا ومن تبرمنا، كضرب من محاولات وفاق مع عالم هذا الجنس الهش من مخلوقات قلقة تواقة، عالم الكائنات البشرية. فالحيوانات ليست بحاجة إليه: يكفيها أن تعيش، لأن وجودها يساير بانسجام حاجاتها الموروثة. يكفي العصفور بضع حبيبات، أو حشرات، وشجرةً يبني فيها عشه، وفضاءً رحباً يطير فيه، وتمضي حياته، منذ ولادته حتى موته، بإيقاع سعيد لا يمزقه القلق الغيبي أبداً، ولا الجنون. أما الإنسان، ما إ ن انتصب

على قائمتيه الخلفيتين، وحول أول حجر مسنون إلى فأس، حتى أرسى، ليس أسس عظمته وحسب، بل أسباب كآبته أيضاً. لأنه كان يشيد بيديه، وبالأدوات التي صنعتها يداه، ذلك الصرح الجبار والغريب الذي يدعى ثقافة، وكان يبدأ أيضاً تمزقه الكبير، لأنه سيكون قد تخلى عن كونه مجرد حيوان، إنما لن يكون قد توصل بعد إلى أن يصبح الإله الذي تصبو إليه نفسه. بل سيصبح ذلك الكائن الثنائي الشقي، الذي يتحرك ويعيش ما بين أرض الحيوانات وسماء الآلهة، بعد أن خسر نعيم براءته الدنيوي، ولم يربح نعيم خلاصه السماوي. سيكون ذلك الكائن المعذب، مريض الروح، الذي سيتساءل لأول مرة عن معنى وجوده. وهكذا ستكون اليدان، ثم ذلك الفأس، وتلك النار، ثم العلم والتقنية، قد شرعت تحفر يوماً بعد يوم الهاوية التي تفصله عن جنسه الأصلي، وعن سعادته الحيوانية. وستكون المدينة في نهاية المطاف، آخر أشواط سباقه الجنوني، وأرفع تعابير شموخه، وذروة أشكال جنونه. وحينئذ، تحاول مخلوقات بائسة، عمياء قليلاً، ومجنونة قليلاً أيضاً، تلمس طريقها، لاستعادة ذلك الانسجام المفقود، بالسحر والدم. تصور بالرسم أو الكتابة واقعاً يختلف على نحو غير معقول، عن الواقع البائس الذي يحيط بها، واقعاً يكون ظاهرياً خيالياً وجنونياً أحياناً، ولكن الأمر الغريب أن ذلك الواقع يصبح في نهاية المطاف حقيقياً وأشد عمقاً من الواقع اليومي. وهكذا فإن تلك الكائنات الهشة، فيما تحلم من أجل الجميع، تتمكن من التغلب على بؤسها الفردي لتتحول إلى ترجمان، وحتى إلى منقذ للمصير الجماعي.

ولكن بؤسي كان مضاعفاً دائماً، لأن ضعفي، وتفكيري وترددي، وإرادتي المشلوْلة، كل ذلك كان باستمرار يمنعني من بلوغ ذلك النظام الجديد، ذلك الكون الجديد، أعني العمل الفني. وكان الأمر ينتهي بي

دائماً، إلى السقوط من فوق سلالم ذلك الصرح المنشود الذي فيه خلاصي. وكنت ما إن أسقط مهزوماً حزيناً، حتى أهرع إلى البحث عن المخلوقات البشرية البسيطة.

هكذا كان الأمر في ذلك الحين أيضاً: ما بنيته كله كان محاولات خرقاء فاشلة. ومرة تلو أخرى، بعد كل فشل، أشعر بأنني وحيد وحائر. أسمع باستمرار في خضم وحدتي، هناك في أعماق روحي، صوت «آنا ماريا» التي تجلى فيها الشبه الوحيد للأم الحقيقية الذي عرفت، مختلطاً بأصوات ملتبسة، لأم من نسج الخيال، لا أكاد أتذكرها. كأنه صدى تلك الأجراس التي تهزها الرياح والعاصفة، في الكنيسة الغارقة في أعماق المحيط التي تتحدث عنها الأسطورة.

كنت كلما أظلمت الدنيا في عيني، أسمع ذلك النغم البعيد، على نحو أوضح كأنه نداء، وكما لو أنها تقول لي لا تنسَ أنني سأكون هنا دائماً، يمكن أن تلجأ إلي باستمرار.. وفي أحد تلك الأيام تصاعد النداء فجأة إلى حد فاق قدرتي على المقاومة. فقفزت من فراشي حيث كنت أقضي ساعات طويلة في تأمل لا جدوى منه، وركضت تهيمن على عقلي فكرة مباغتة ملحة بأنني كان يجب أن أهرع إليها قبل ذلك بكثير، لكي أستعيد ما تبقى من تلك الطفولة، وذلك الجدول، وتلك الأمسيات القديمة في المزرعة، ومن «آنا ماريا». نعم من «آنا ماريا».

كنت مخطئاً. ذلك أن أشواقنا لا تقودنا دائماً إلى الحقيقة. فذلك اللقاء مع خورخينا ثانية، لم يكن سوى ضياع وبدء تعاسة جديدة، استمرت على نحو ما حتى الآن، ولا شك أنها سوف تستمر حتى مماتي. ولكن هذه القصة ليست هي ما يعنيك.

نعم، طبعاً: لقد رأيتها في مناسبات عديدة، وسرت وإياها في هذه

الشوارع، وكانت طيبة جداً معي. ولكن، من قال إن الأشرار فقط هم الذين يمكن أن يلحقوا بنا العذاب؟.

لم تكن صموتة وحسب، بل كانت في كلماتها متحفظة وغامضة أيضاً، وكما لو أنها تعيش تحت وطأة خوف أبدي. ولم تكن كلماتها هي التي فسرت لي ما كانته «خورخينا» في ذلك الحين من حياتها، ولا ما كانت تكابده من آلام. بل كانت رسومها، هل قلت لك إنها كانت ترسم منذ أن كانت طفلة؟. لن تصدق إن قلت إن رسومها كانت تبوح لي بأشياء مباشرة. لم يكن فيها أي أثر للصور البشرية، ولم تكن تروي شيئاً. كانت صور طبيعة ميتة: كرسي بجانب نافذة، مزهرية.. ولكن يا لها من معجزة: نقول «كرسي» أو «نافذة» أو «ساعة»، كلمات تعني مجرد أشياء من هذا العالم البارد، اللا مبالي الذي يحيط بنا، بيد أننا سرعان ما نثبت شيئاً أشبه ما يكون برمز، كأنه رسالة مثيرة للشجون نابعة من أعمق زوايا ذاتنا. نقول «كرسي»، ولكن لا نعني «كرسياً» ويفهموننا، أو، في أسوأ الأحوال، يفهمنا أولئك الذين تكون الرسالة الرمزية موجهة إليهم سراً، فتمر بسلام عبر حشود لا مبالية معادية. ولذلك فإن ذلك القبقاب وتلك الشمعة وذلك الكرسي، لاتعني في الواقع، ذلك القبقاب ولا تلك الشمعة ولا ذلك الكرسي المصنوع من القش وإنما، «فان كوخ»، و «فانسانت» بخاصة: قلقه وكآبته ووحدته. إنها تكاد تكون صورة له رسمها بذاته، ووصفاً لأعمق حالات قلقه وأشدها إيلاماً، مستخدماً تلك الأشياء الخارجية اللامبالية، من أشياء هذا العالم العاجز والبارد، الموجود خارجنا، والذي ربما كان موجوداً قبلنا، ومن المحتمل جداً أن يبقى هكذا، لا مبالياً وبارداً بعد موتنا، وكأن تلك الأشياء لم تكن سوى جسور متداعية مؤقتة (كالكلمات بالنسبة إلى الشاعر) لاجتياز الهاوية التي تُفتح دائماً بين أحدنا والعالم؛ وكأنها رموز

ذلك العمق والخفاء الذي يعكسه. فهي لا مبالية، وحيادية ورمادية لمن ليسوا أهلاً لفهم مفتاح السر، ولكنها دافئة ومتوترة، ومفعمة بالمعاني الخفية لمن يعرفونه. فتلك الأشياء المرسومة ليست، في الواقع، أشياء ذلك العالم اللامبالي، وإنما أشياء خلقها ذلك الإنسان الوحداني القلق التواق للوصال، الذي يفعل بالأشياء ما تفعله الروح بالجسد: تخضّبه بحنينها ومشاعرها، وتتجلى عبر غضون اللحم، وبريق العينين، والابتسامات، وإطباقة الشفتين، كروح تحاول أن تتجلى في جسم غريب، غريب للغاية في بعض الأحيان، جسم مجنون أو وسيط روحي محترف لا يبالي.

هكذا تمكنت أنا أيضاً، من معرفة بعض ما كان يجري في الجانب الخفي، في أشد ما كنت أتوق إليه من الجوانب الخفية في روح خورخينا.

لماذا يا إلهي..؟. لماذا..؟.

4

طفق أياماً يطوِّف بالدار منتظراً انسحاب الحرس. اكتفى بالنظر من بعيد إلى أطلال تلك الغرفة التي عرف فيها النشوة والقنوط. لقد خلفتها ألسنة النيران هيكلاً أسود كالفحم، يكاد السلم الحلزوني يدنو منه كأنه يحنو عليه. وعندما حلّ الليل انفغر، وسط تلك الجدران التي كان مصباح زاوية الشارع يلقي عليها بعضاً من ضياء، فراغا الباب والنافذة، كأنهما محجران في جمجمة محترقة.

ما الذي كان يبحث عنه؟. ولماذا كان يود أن يدخل؟. لا يستطيع أن يجيب، ولكنه انتظر بصبر انصراف من يتولون تلك الحراسة التي لا تجدي نفعاً، ثم تسلق في تلك الليلة على الحاجز ودخل. اجتاز مستعيناً بضوء مصباحه الكهربائي، المسافة ذاتها التي اجتازاها سوياً، أول مرة، في ليلة صيف منذ ألف سنة: التف حول الدار وسار نحو البرج، لم يبق من ذلك الممر كله، ومن الغرفتين اللتين كانتا تحت البرج، ومن المستودع، سوى جدران سوداء أو رمادية.

كانت الليلة باردة وغائمة، وكان هدوء الفجر عميقاً. ترامى من بعيد صدى صفارة مركب، ثم حل الصمت ثانية. مكث مارتين هنيهة لا يتحرك لكنه كان يرتعد. عندئذٍ، (لا يمكن أن يكون ما سمعه إلا مجرد تصور من نسج خياله) سمع أليخاندرا تقول بصوت خافت، ولكنه واضح: «مارتين». فاتكأ الفتى المنهك بجسمه على الجدار، ومكث كذلك وقتاً طويلاً.

تمكن أخيراً من التغلب على وهنه، فسار ببطء نحو الدار. كان يشعر بحاجة إلى أن يدخل ويرى ثانية غرفة العجوز التي يبدو أنها تبلور على نحو ما روح «آل أولموس»، حيث تطلّ من الصور القديمة المعلقة على جدرانها بشائر عيني أليخاندرا، إلى الأبد.

كان باب الممر موصداً، ومقفلاً بالمفتاح. عاد إلى الخلف فلاحظ أن على أحد الأبواب سلسلة وقفل. بحث بين أنقاض الحريق عن قضيب معدني مناسب نزع به إحدى الحلقات الحديدية التي ربطت بها السلسلة: لم يواجه صعوبة تذكر، كان الخشب تالفاً. سار في ذلك الممر، فبدا له في ضوء مصباحه أن ما كان هناك تافه كله، ويشبه، إلى حد بعيد، إحدى دور المزاد.

بقي كل شيء في غرفة العجوز على حاله، إلا كرسيه الذي لم يكن موجوداً: القنديل العتيق، الصور الزيتية لسادة وسيدات بأمشاط الزينة مرسومة بريشة «بوييريدون»، والمنضدة بجانب الجدار، والمرآة «الفينيسية».

بحث عن صورة «ترينيداد أرياس». وراح يتأمل ملياً في وجه تلك المرأة الرائعة التي تبدو، بقسماتها الهندية، كأنها همسات خفية لقسمات أليخاندرا، خَبَتْ بين أحاديث إنكليز وغزاة إسبان.

خُيل إليه أنه يلج في حلم، كما في تلك الليلة التي دخل فيها وأليخاندرا الغرفة ذاتها، حلم غارق الآن في النار والموت. وبدا له أن ذلك السيد، وتلك السيدة ذات المشط، يطلان من الصور المعلقة على الجدران ويراقبانه، وأن أرواح محاربين ومجانين وحكام وكهنة، تدخل إلى الغرفة خفية، وتروي تاريخ غزوات ومعارك.

وروح «سيليدونيو أولموس»، جدّ جدّ أليخاندرا أيضاً، هناك بالذات،

ربما في ذلك المقعد، كان يتذكر طيلة سنوات شيخوخته ذلك الانسحاب الأخير، وتلك النهاية التي ليس لها أي معنى برأي العاقلين، بعد كارثة (فامايا)، وبعد أن أباد جيش «أوريبي» قوى الفيلق التي مزقتها الهزيمة والخيانة وضعضعها اليأس.

إنهم يسيرون الآن نحو (سلتا) في دروب مجهولة لا يعرفها سوى خبير متمرس. لا يكاد عددهم يبلغ ستمئة مهزوم. ورغم ذلك فإن «لافاجي» ما زال يؤمن بشيء ما، فهو كما يبدو يؤمن دائماً بشيء ما، ولو كان ـ كما يعتقد «إيريارتي»، وكما يتهامس القائدان «أوكامبو» و «هورنوس» ـ أوهاماً وخيالات. مَنْ سيجابه بهؤلاء البائسين..؟. ومع ذلك، ها هو يسير قدماً، بقبعة القش، والشعار الأزرق[1] (الذي لم يعد الآن أزرق، ولا أي شيء من هذا القبيل)، والعباءة الزرقاء (التي لم تعد زرقاء أيضا، بل أصبحت أقرب ما تكون إلى لون التراب)، يتخيل، هات نرَ أي محاولات جنونية. وإن كان يحتمل أيضاً أنه يحاول ألا يستسلم إلى اليأس والموت.

الملازم «سيليدونيو أولموس» فوق صهوة جواده، يحارب حفاظاً على أعوامه الثمانية عشر، لأنه يشعر بأن عمره يقف على حافة هاوية، ويمكن أن يسقط في أي لحظة إلى أعماق سحيقة، إلى عصور لا تعد ولا تحصى. إنه ما زال على صهوة جواده يراقب، منهمكاً جريح الذراع قائده الذي يقف أمامه، وبجانبه العقيد «بيدرنيرا» يفكر متجهماً، إنه يقاتل دفاعاً عن تلك الأبراج، أبراج شبابه الناصعة الشامخة، بتلك العبارات البراقة التي ترسم، بأحرفها الكبيرة، الحدود

(1) اتخذ الوحدويون اللون الأزرق رمزاً لهم مقابل اللون الأحمر الذي كان يرمز إلى الاتحاديين (المترجم).

الفاصلة بين الخير والشر، تلك الحامية الفخورة بالمطلق. إنه لا يزال يدافع متحصناً في تلك الأبراج. لأنه بعد ثمانمئة فرسخ من الهزائم والغدر، والخيانات والنزاعات، أصبح كل شيء ملتبساً. العدو يطارده، وهو جريح يائس. يصعد شاهراً سيفه درجة فدرجة سلم تلك الأبراج التي كانت في زمن مضى متألقة، لكنها الآن ملطخة بالدماء والأكاذيب، وبالهزيمة والشك. وفيما هو يدافع عن كل درجة، وينظر إلى رفاقه، يطلب بصمت عوناً ممن كانوا يشنون معارك مشابهة: من «فرياس»، وربما من «لاكسا». يسمع «فرياس» يقول لـ «بيلينغورت» وهو يتطلع إلى قادة قوات مقاطعة «كورينتس»: «إني لعلى يقين أنهما سيتخليان عنا..».

ويفكر قادة كتيبة بوينس أيرس أيضاً: «إنهما يعدان لخيانتنا..».

نعم «هورنوس» و«أوكمبو» اللذان يسيران معاً، والآخرون يراقبونهما ويلعنون الخيانة و الغدر. وعندما يبتعد «هورنوس» عن رفيقه ويقترب من الجنرال، تدور في خلد الجميع الفكرة ذاتها. وحينئذ يصدر (لافاجي) الأمر بالتوقف، ويتكلم الرجلان. عم يتكلمان؟. ماذا يناقشان؟. ثم، حينما يستأنف الركب مسيرته تنتشر الأقاويل المتناقضة المروعة: لقد أنذراه.. كانا يريدان إقناعه.. لقد أبلغاه أنهما تخليا عنه.. ويروون أيضاً أن «لافاجي» قال: لو لم يكن هناك أمل، لما واصلت القتال، لأن سلطات منطقتي (سلتا) و «خوري» ستمد لنا يد المساعدة. ستقدم رجالاً وذخائر. سوف نكون أقوياء في الجبال. وينبغي أن يسحب «أوريبي» جزءاً من قواته، لأن «لا مادريد» سيقاوم في «كوجو».

حينذاك، عندما همس أحدهم: «لقد أصبح «لافاجي» الآن مجنوناً حقاً»، شهر الملازم «سيليدونيو أولموس» سيفه ليدافع عن آخر مواقع

ذلك البرج، وهجم على ذلك الرجل. لكن رفاقه أمسكوا به، وصمت الآخر ذليلاً، لأنه يجب (كما يقولون) المحافظة على وحدة الصف والحيلولة دون أن يرى الجنرال أو يسمع أي شيء «وكما لو أن الجنرال (فكر فرياس) نائم ويجب أن يسهروا على حلمه، ذلك الحلم المشبع بالخرافات، وكما لو أن الجنرال طفل مجنون لكنه بريء ومحبوب، وهم إخوته الكبار وأبوه وأمه، الذين يسهرون على حلمه».

وينظر «فرياس» و «لاكاسا» و «أولموس» نحو قائدهم خوفاً من أن يكون قد استيقظ. ولكنه لا يزال ـ لحسن الحظ ـ يحلم، يحرسه العريف «سوسا» العريف الخالد الأبدي، العصي على قوى الأرض والبشر، المتفاني الصامت أبداً.

حتى انهار ذلك الحلم، حلم المساعدة، والمقاومة، والذخائر، والخيول، والرجال، في «سلتا» فجأة: لقد هرب الناس، وسيطر الذعر على شوارعها، و «أوريبي» على بعد تسعة فراسخ من المدينة، ولم يعد القيام بأي شيء ممكناً.

ويقول له «هورنوس»: «أرأيت الآن أيها الجنرال..؟.»

ويقول له «أوكامبو»: «نحن، من تبقى من فرقة «كورينتس»، قررنا عبور مقاطعة «تشاكو» ومد يد العون إلى الجنرال «باس»..».

وخيم الليل على المدينة الغارقة في الفوضى.

وأطرق «لافاجي» ولم يقل شيئاً.

ماذا دهاه، أما زال يحلم..؟. ويتبادل «هورنوس» و(أوكامبو) النظرات.

ولكن الجنرال يجيب في نهاية المطاف:

ـ إن الواجب يقتضي أن ندافع عن أصدقائنا في هذه المناطق. وإن

كان أصدقاؤنا قد انسحبوا إلى بوليفيا، فيجب أن نكون آخر من يفعل، ينبغي أن نحمي مؤخرتهم، ويتعين علينا أن نكون آخر من يغادر أرض الوطن.

ويتبادل القائدان «هورنوس» و «أوكامبو» النظرات ثانية. وتخطر في ذهن كل منهما فكرة واحدة وحسب: «إنه مجنون». فبأي قوات يمكن تغطية ذلك الانسحاب..؟. وكيف..؟.

ويردد «لافاجي» من دون أن يسمع شيئاً، بينما عيناه ساكنتان ترنوان إلى الأفق:

ـ نعم، آخر من يفعل.

ويفكر القائدان «هورنوس» و«أوكامبو»: «يحركه كبرياؤه، نعم كبرياؤه، وربما حقده على الجنرال «باس» أيضاً». ثم يقولان له:

ـ أيها الجنرال، إننا نأسف، سوف تنضم قوتنا إلى قوة الجنرال «باس».

وينظر «لافاجي» إليهما ملياً ثم يحني رأسه. وتزداد غضون وجهه لحظة بعد لحظة، وتجثم على صدره سنوات حياة وموت. وما إن يرفع رأسه، وينظر إليهما ثانية حتى تكون الشيخوخة قد أدركته:

ـ حسناً أيها القائدان، أتمنى لكما حظاً سعيداً. ليت الجنرال «باس» يستطيع متابعة هذه الحرب حتى النهاية. الحرب التي يبدو أنني لم أعد صالحاً لها.

وتعدو الجياد مبتعدة عمن تبقى من فرقة «هورنوس»، تشيعهم عيون مئتي رجل ممن ظلوا أوفياء للجنرال، بنظرات صامتة وقلوب واجفة، بينما تدور في مخيلة كل منهم فكرة واحدة فقط: «لقد انتهى الآن كل شيء.»، لم يبق أمامهم سوى انتظار الموت بجانب القائد. وعندما

يقول لهم «لافاجي». (سنقاوم، سوف ترون، سنخوض حرب أنصار في الجبال)، يصمتون ويطرقون. وحين يقول: (سنسير الآن إلى «خوخوي»)، يعرف أولئك الرجال أن الذهاب إلى «خورخي» جنون، ولا يجهلون أن الطريقة الوحيدة للنجاة بحياتهم، الفرار نحو بوليفيا، في دروب مجهولة. لكنهم يجيبون: «حسناً أيها الجنرال..» ترى من كان بوسعه انتزاع آخر أحلام الجنرال الطفل..؟.

إلى هناك هم ذاهبون، ولكنهم ليسوا الآن مئتي رجل. إنهم يسيرون في الطريق االعام إلى مدينة «خوخوي». نعم في الطريق العام..!.

5

"ديل كاستيجو"، قال له: ألخياندرا، قال له: ماذا، كيف؟. كانت كلها مجرد عبارات متقطعة، ليست متماسكة، لكن كلمتي موت وحريق أيقظتا، في نهاية المطاف، دهشة ذلك الرجل. وعلى الرغم من شعوره بأن الحديث معه عن ألخياندرا كان كمحاولة التقاط حجر كريم من مزيج من الطين والروث، فإنه قال له ذلك. حسناً، حسناً، وحين وصل «بوردينابي» نظر إليه نظرة من يريد أن يستقصي عن شيء ما، لكنها تنم عن الحيرة والخوف أيضاً: وجد أنه «بوردينابي» آخر، يختلف تماماً عن ذلك الذي عرفه أول مرة، لم يتمكن من الكلام. نصحه قائلاً: اشرب. كانت حنجرته جافة جداً، وشعر بوهن شديد. كان يود أن يحدثه عن... لكنه توقف لا يعرف كيف يواصل حديثه، ومكث ينظر إلى الكوب الفارغ. اشرب. فكر فجأة بأن ذلك رعونة وعبث لا جدوى منه: عن أي شيء يمكن أن يتحدثا؟. والكحول جعل الأمور تختلط في رأسه أكثر فأكثر، وبدا له أن العالم غارق في الفوضى. أليخاندرا، قال شخص آخر، نعم، انقلب كل شيء إلى فوضى. وذلك الشخص مختلف أيضاً: بدا له لطيفاً جداً وهو يميل نحوه بشيء من العطف تقريباً. ظل طيلة سنوات يحلل تلك اللحظة الغامضة، وفيما بعد، عندما عاد من الجنوب، حدّث «برونو» عنها، وفكر «برونو» بأن «بوردينابي» عندما أساء معاملة أليخاندرا لم يكن ينتقم منها لنفسه وحسب، بل انتقم لمارتين أيضاً، مثلما تفعل عصابات «كالابريا» التي

تسرق الأغنياء لتعطي الفقراء. ولكن مهلاً، لم يتبين أي شيء من ذلك بعد. فلماذا كان ينتقم من ألخياندرا..؟. بسبب أي شتيمة أو إهانة أو إذلال؟. إحدى الكلمات التي تذكرها مارتين وسط ذلك الالتباس تنطوي على معنى بالغ: تحدث عن الاحتقار. ولكن بدا «لبرونو» أن ذلك لم يكن احتقاراً، بل كراهية لها وحقداً عليها، فلا أحد يحتقر من يكره. لأن المرء يحتقر من هو دونه مكانة، ويكن مشاعر الحقد لمن هم أعلى منه وأرفع. و«بوردينابي» أساء، أو كان يسيء معاملتها (من الصعب تحديد زمن وقوع الفعل تماماً، بالعناصر القليلة التي بين أيدينا) لكي يشبع حقداً دفيناً. ذلك الحقد شعور تقليدي لدى الأرجنتيني الذي يرى المرأة بمثابة عدو، ولا يغفر لها أبداً أي إعراض عنه أو إذلال. ومثل ذلك الإعراض، أو الإذلال، يسهل تصوره حين معرفة طرفي اللعبة. ومما لاشك فيه أن «بوردينابي»، كان يتمتع بدرجة من الذكاء أو الحدس، تكفي لكي يدرك تفوق أليخاندرا، وكان أرجنتينياً أيضاً إلى درجة تكفي لكي يشعر بأنه مهان، بسبب عجزه عن بلوغ ما هو أبعد من السيطرة على جسدها، وبسبب إحساسه بأنه موضع استعلاء وتهكم وازدراء، إذا ما تعلق الأمر بالنفوذ إلى روح أليخاندرا المستعصية. وكان يثير قلقه أكثر من أي شيء آخر، التفكير بأنها كانت تستخدمه، مثلما تستخدم كثيرين غيره، مجرد أداة: أداة لانتقام يبدو أنه مشؤوم لم يتمكن من التوصل إلى إدراكه قط. ولعل كل هذه الأسباب جعلته يشعر بأنه يميل إلى تقدير مارتين وملاطفته، لا لأنه لم يكن يعتبره خصماً، ولا لأن الغرض من صداقته له مجابهة العدو المشترك، بل لأن لجوء أليخاندرا إلى فتى بالغ البؤس جعل منها مخلوقاً هشاً، وهدفاً سهلاً يمكن «لبوردينابي» أن يهاجمه. مثلما يؤدي شعور الكراهية الذي يكنه أحد الناس لغني بسبب ثروته رغم إدراكه أن ذلك الشعور دنيء وحقير- إلى استغلال أحد عيوبه الفظة

(كالبخل مثلاً) لكي يحقد عليه بلا أي رادع وجداني. ولكن مارتين لم يتمكن من تصور ذلك في تلك اللحظة. وإنما تذكره بعد زمن طويل. وكان الأمر كما لو أنهم استخرجوا قلبه وسحقوه على الأرض بحجر، أو انتزعوه بسكين أثلم ثم أنشبوا فيه أظافرهم. وقد جعلته مشاعره الملتبسة، وشعوره بالتفاهة المطلقة والضياع، وتأكده من أن ذلك الرجل كان عشيق أليخاندرا، يحجم عن الكلام. نظر إليه «بوردينابي» حائراً. ولكن لماذا؟. وقال إنها الآن ميتة. وظل مارتين مطرقاً. نعم. لماذا هذا الإصرار على أن يعرف؟. وهذه الرغبة السخيفة في أن يذهب حتى النهاية؟. لم يكن مارتين يعرف، وحتى لو أنه حدس على نحو غامض، لما كان بوسعه أن يعبر عن ذلك بالكلمات. إلاّ أن أمراً ما كان يدفعه بجنون. لكن بورديناني يقدره حق قدره. ويبدو أنه يزن شيئاً، أو يقيس جرعة مخدر هائلة.

قال وهو يناوله كأس الـ «كونياك».

ـ اشرب، إنك لست على ما يرام. اشرب:

وقال في سريرته، كأنما، تلقى الوحي فجأة: (نعم، أود أن أسكر، أود أن أموت..)، وكان يسمع «بوردينابي» يقول له شيئاً، (نعم، في الطبقة الأخرى، فوق، كما تعلم)، أو ما شابه ذلك، وينظر إليه حذراً، في حين عاد «مارتين» يشرب. وسرعان ما بدأ كل شيء يدور، شعر بالغيثان وتداعت رجلاه، وبدا له أن معدته الفارغة منذ ليلة الحريق تمتلئ بشيء كريه يغلي. بذل جهداً كبيراً حتى صعد إلى ذلك المكان الشنيع، ورأى، كما لو أنه في حلم، النهر عبر النافذة. فكر بينما يراوده شعور بالتفاهة وبالشفقة على نفسه: «نهرنا». كان يرى أنه صغير مثل طفل، وشعر بالشفقة عليه، كأنه أمامه، لم ير وسط الظلمة الحالكة المخيمة على ذلك المكان شيئاً. حفزه أريج عطر نفّاذ على الغيثان بين تلك الأرائك المبعثرة

على الأرض، وبينما كان «بوردينابي» يفتح تلك الخزانة التي تبين له فجأة أنها مجموعة آلات صوتية قال له: (إنك موهن) وأضاف شيئاً عن السر وقال: (عصابات.. فكر.. هذه الوثائق..) أمر كأنما هو مكيدة. وخال أنه سمع شيئاً حول صفقات. ذلك الشخص الآخر كان بالغ الأهمية، مما جعل «بوردينابي» يهتم به كثيراً من أجل مسألة مصنع الألمنيوم (وكان برونو يفكر، من يدري أي ضرب من الانتقام كان يعد ضد أليخاندرا، انتقام شينغ شيطاني، ولكنه انتقام في جميع الأحوال). ولما كان ينبغي أن يعرف، بعد أن أصر كثيراً، يستحسن أن يعرف أنها كانت تشعر بلذة هائلة في أن تضاجع لقاء أجر.. وبينما كان يشغل تلك الآلة، كان يتعين على مارتين الذي لم يكن قادراً على أن يطلب من «بوردينابي» إيقافها، أن يسمع كلمات وصرخات وعويلاً أيضاً، ضمن خليط مروع مظلم قذر. ولكن قوة خارقة أعانته على أن ينهض ويهبط مسرعاً كأن أحداً يطارده، يتعثر، ثم يسقط، لينهض ثانية من ذلك الجحيم النتن. وشرع يتجول ببطء كأنه جسم بلا روح ولا بشرة، يدفعه حشد لا يرحم، ليسير فوق حطام من زجاج.

ليسوا الآن مئتي رجل، وليسوا جنوداً أيضاً: إنهم مجرد مخلوقات مهزومة وقذرة، جلهم لا يعرف لماذا يحارب، ومن أجل أي هدف. الملازم «سيليدونيو أولموس» مثلهم جميعاً، يغذ السير، مقطباً صامتاً فوق صهوة جواده، يتذكر والده «الكابيتان أولموس» وشقيقه، اللذين ماتا في «كيبراتشو هيرادو».

ثمانمئة فرسخ من الهزائم. لم يعد يفهم شيئاً، وكلمات «إريارتي» الملعونة تتردد في ذهنه باستمرار: الجنرال المجنون، الرجل الذي لا يعرف ماذا يريد. ألم تتخل (لاسولانا سوتو ماجور) عن (بريسويلا) من أجل «لافاجي». إنه يرى الآن «بريسويلا»: أشعث الشعر ثملاً،

محاطاً بالكلاب. محظور اقتراب أي مبعوث من قبل «لافاجي»...!. والآن. ألا تسير تلك الفتاة بجانبه..؟. لم يعد يفهم، فكل شيء كان قبل سنتين واضحاً: الحرية أو الموت. ولكن، الآن..

تحول العالم إلى فوضى. ويفكر في أمه، وفي طفولته. ولكن تعود صورة «البريغادير بريسويلا» تمثل أمامه: دمية صارخة من أسمال قذرة، تحيط به الكلاب الضخمة غاضبة. ثم يعود ثانية ليحاول تذكر تلك الطفولة.

سار لا يرى ما حوله، تعصف انفعالات عنيفة بشتات أفكاره فتمزقها مرة أخرى، كأنها أبنية هدمها زلزال، وتهز أنقاضها زلازل جديدة أخرى.

استقل حافلة فراوده شعور صارخ بأن العالم ليس له معنى: حافلة تنطلق بتصميم وقوة نحو جهة ما، لا تعنيه أبداً. آلية متقنة تماماً، وتقنية فعالة جداً، تقله، هو الذي لم يكن يجري وراءه أي هدف، ولم يعد يؤمن بشيء، ولم يكن ينتظر شيئاً، وليس بحاجة إلى أن يذهب إلى أي مكان. فوضى متنقلة، تضبطها ساعات دقيقة، ولوائح أجور، وهيئات مفتشي مؤسسة النقل ومستخدميها. وكان كالأبله قد طوح بحقن القلب. والبحث عن «بابلو» الآن من أجل حقن جديدة، بمثابة الذهاب إلى حفلة رقص للقاء الله أو الشيطان. ولكن القطار... معبر القطار في شارع «دوريغو»، ربما هناك... لحظات وينتهي الأمر. تذكر ذلك الزحام مرة. ماذا يجري... ماذا حدث؟. تعذر عليه الوصول وسط الزحام، سمع من يقول: يا للهول..!. صدمه من دون أن ينتبه.. أي أمل؟. ماذا تقول.. ألقى بنفسه عمداً.. أراد أن يموت. ويصيح آخر: يوجد هنا حذاء ورجل. وربما يكون الماء أفضل، جسر «لابوكا» إذاً، ولكن المياه في القاع تكون ممزوجة بالزيت، وهناك إمكانية التردد أو الندم في تلك الثواني أثناء السقوط. فقد تكون. من يدري؟. حياة كاملة هائلة وفسيحة مثل ثواني

الكابوس. أو إغلاق الباب وفتح مفتاح الغاز، وتناول كثير من الحبوب مثلما فعل «خوان بيدرو». ولكن «نيني» تركت صفق نافذة مفتوحاً، وفكر بعطف ساخر، مسكينة «نيني». وكانت ابتسامته في قلب المأساة كشمس صغيرة تظهر بشكل عابر في يوم عاصف بارد تجتاحه الفيضانات والطوفان. وحينئذ سمع الحارس يصيح: المحطة الأخيرة..!. ونزل آخر من بقي من الركاب.. ماذا؟. ماذا؟. أين هو... لحظة... نعم، في شارع «خنرال باس». نعم هناك، برج عال.. خرج طفل صغير من دهليز يجري مسرعاً فصاحت امرأة من الداخل، لا شك أنها أمه، تقول: ستنال عقابك أيها الشقي، كان يلبس بنطالاً بني اللون، وقميصاً أحمر، ويبدو تحت السماء الممطرة الرمادية كأنه قطعة صغيرة من جمال عابر. ورأى على الرصيف أيضاً فتاة حي بمعطفها الأصفر، ففكر بأنها ذاهبة لتتسوق، أو لتشتري بعض الحلوى لتأكلها مع «الماتي»، ولعل والدتها، أو والدها المتقاعد قال لها: لقد حان وقت شرب «الماتي» يا جميلة، اذهبي واشتري لنا شيئاً نأكله. أو لعل فتى تتخذ منه فتاها المفضل، كان اليوم يوم راحته وذهب ليتجاذب أطراف الحديث معها. أو ربما أرسلها شقيقها الذي يملك مشغلاً هناك، لأنه يرى الآن مرآباً صغيراً ورجلاً في سن الشباب، قد يكون شقيقها، يلبس بذلة عمل زرقاء ملوثة بالشحم، وبيده مفتاح إنكليزي يقول للصبي: اذهب أيها الكسول واطلب منه الشاحن. ويخرج الصبي بخطى حثيثة. ولكن كل شيء يبدو كأنه حلم. فلماذا كل ذلك: شاحنات، مفاتيح إنكليزية وميكانيكيون.. وشعر بالشفقة على الطفل المذعور، وفكر بأننا نعيش كلنا في حلم، فلماذا عقاب الطفل، ولماذا إصلاح السيارات، والصداقات، ثم الزواج وإنجاب الأولاد، الذين يحلمون أيضاً، ويعيشون، ويتألمون، ويذهبون إلى الحرب أو يقاتلون، أو ييأسون، لمجرد أحلام. سار على غير هدى، كقارب بلا ربان

تتقاذفه تيارات حائرة، يقوم بحركات آلية، كأولئك المرضى الذين فقدوا إرادتهم ووعيهم تقريباً، إلا أنهم يذعنون لتوجيهات الممرضين ويطيعونها، بما لديهم من بقايا تلك الإرادة وذلك الوعي، وهم لا يعرفون لماذا. فكر، الحافلة 493.. أذهب إلى «تشاكاريتا»، أستقل «المترو» حتى فلوريدا، وأسير من هناك إلى النزل. بعد أن أحصل على تذكرة السفر آلياً استقل الحافلة 493. ومكث طيلة نصف ساعة يرى أشباحاً تحلم بأمور فعالة جداً، وخرج من محطة «فلوريدا» إلى شارع «سان مارتين»، ثم سار في شارع «كورينتس» حتى «ريكونكيستا»، وتوجه من هناك إلى نزل «وارساواي» لمبيت الرجال. صعد السلالم القذرة المتداعية حتى الطبقة الرابعة، واستلقى على الفراش، كأنه كان ـ طيلة قرون ـ يجوب متاهات.

«بيدرنيرا» ينظر إلى «لافاجي» الذي يسير أمامه مرتدياً سرواله الريفي، مشمراً قميصه الممزق، ومعتمراً قبعة القش. إنه مريض، نحيل غارق في أفكاره. يبدو شبحاً رثاً لذلك الجنرال «لافاجي» قائد جيش «لوس أندس».. ما أطول ما مضى من أعوام..!. خمسة وعشرون عاماً من المعارك والانتصارات والهزائم... ولكن في تلك الأيام كانوا يعرفون ما الذي يقاتلون من أجله: كانوا ينشدون حرية القارة، ويقاتلون من أجل الوطن الكبير. بينما الآن... جرت دماء كثيرة في أنهار أمريكا، وشوهدت أمسيات بائسة كثيرة. وسمعت صيحات معارك بين الأخوة وتردد ضجيجها أيضاً. ومن دون أن نذهب بعيداً، إلى هنا بالذات يأتي «أوريبي»: ألم يحارب وإياهم، جنباً إلى جنب، في جيش «لوس أندس»..؟. و«دوريغو»..؟.

ويحدق «بيدرنيرا» متهجماً إلى الجبال الشاهقة، ويطوِّف بصره ببطء في الوادي الموحش، يبدو أنه يسأل الحرب ما هو سر الزمن.

وهيمنت عتمة الغسق على الزوايا بصمت، وأخذت الألوان والأشياء

تتوارى في العدم، واكتست مرآة الخزانة الصغيرة المبتذلة الرخيصة الأهمية الغريبة ذاتها التي تكتسي بها جميع المرايا في عتمة الليل (سواء أكانت رخيصة أم لم تكن)، مثلما يكتسي جميع البشر بمواجهة الموت، العمق الغريب ذاته، سواء كانوا متسولين أو ملوكاً.

بيد أنه كان يود أن يراها.

أشعل المصباح، وجلس على حافة سريره. أخرج الصورة الممزقة من أحد جيوبه الداخلية واقترب من المصباح أكثر فأكثر، وتأملها برفق ملياً كأنه يتفحص وثيقة تصعب قراءتها، وتعتمد على صحة فك رموزها أحداث ذات أهمية كبرى. كان ذلك الوجه أكثر ما يخص مارتين، من بين الوجوه العديدة التي كانت أليخاندرا تظهر بها (مثلها مثل سائر المخلوقات الإنسانية)، أو على الأقل، أكثر ما كان يخصه: فقد كان التعبير العميق والحزين قليلاً، لمن يتوق إلى شيء يعلم مسبقاً أنه مستحيل. وجه تواق ولكنه يائس سلفاً، وكما لو أنه يمكن الإعراب عن التوق (أي الأمل) واليأس سوياً في آن واحد، يضاف إلى ذلك تلك المسحة التي تكاد تكون خفية وصارخة معاً، من ازدراء شيء ما، لعله الإله، أو البشرية بأسرها، أو هي ذاتها، أو كل ذلك مجتمعاً. لا، ليس الازدراء وحده بل الاحتقار وحتى الاشمئزاز أيضاً. ومع ذلك، فإنه كان قد قبّل ذلك القناع المريع ولامسه في وقت يبدو له الآن نائياً بعيداً، وإن امتد حتى زمن قريب جداً، مثلما يحدث حين لا نكاد نستيقظ حتى تبدو لنا الصور المهزوزة التي أثارت شجوننا في الحلم أو روعتنا في الكابوس بعيدة إلى حد لا يدرك. والآن، سيختفي ذلك الوجه في القريب العاجل إلى الأبد، وسيختفي هو، والغرفة، وبوينس آيرس، والعالم بأسره، وذكراه أيضاً. كما لو أن ذلك كله لم يكن سوى خيال ظل هائل أقامه ساحر ساخر شرير. وفيما كان مستغرقاً في تلك الصورة الجامدة، في ذلك

النوع من رموز المستحيل، كانت تلوح في خضم ما يدور في رأسه من فوضى، وإن على نحو ملتبس، فكرة أنه لن ينتحر من أجل أليخاندرا، وإنما من أجل شيء أعمق وأبقى، لم يتمكن من تمييزه: كأنما أليخاندرا لم تكن سوى سراب إحدى تلك الواحات الموهومة، التي تطيل أمد العبور اليائس لصحراء، يمكن أن يؤدي الفشل في اجتيازها إلى الموت، ذلك أن سبب اليأس أصلاً (ومن ثم الموت) ليس سراب الواحة، وإنما الصحراء اللامحدودة، التي لا ترحم.

كان رأسه كإعصار. إعصار بطيء وثقيل، لا يحمل مياهاً شفافة (برغم هيجانها)، بل مزيجاً لزجاً من روث ودهون، وجثثاً متفسخة، وصوراً جميلة بائسة، وبقايا أشياء عزيزة على النفس، كما يحدث في الفيضانات الكبيرة. رأى نفسه في هاجرة صيف مقفرة، يسير على ضفة «رياتشويلو»، مثل «غاوتشو» صغير، (هكذا سمعها تقول لأحد الجيران مرة)، حزيناً وحيداً، بعد موت جدته، حينما كرس كل ما في نفسه من عطف لـ «بونيتو»، الذي كان يركض أمامه، ويقفز، ويطارد دورياً، وينبح فرحاً، (ما أسعد المرء لو كان كلباً)، هكذا فكر آنذاك، وباح بذلك لـ «دون ماتشيتشا» الذي كان يستمع إليه، ويفكر وهو يدخن غليونه. وفجأة، تذكر أيضاً، في خضم التباس أفكاره ومشاعره، بيتاً من الشعر: لم ينظمه «دانتي» ولا «هوميروس»، بل شاعر ضليل متواضع مثل «بونيتو»، ذلك البائس كان يتساءل: (أين كان الله عندما ذهبت..)، أجل أين كان الله عندما كانت أمه تقفز على الحبل لكي تجهضه. وأين كان الله عندما سحقت «بونيتو» شاحنة شركة «أنجلو»: أجل «بونيتو»، كائن مسكين من كائنات هذا العالم، لا قيمة له، سال الدم من فمه، وتحولت مؤخرة جسمه الصغير إلى قطعة عجين قذرة، وشخصت عيناه، وهو في غمرة احتضاره ينظر إليه بأسى، كأنما يوجه إليه سؤالاً صامتاً متواضعاً. كائن لا يجب أن يكفر عن ذنب، سواء كان ذنبه أو ذنب آخرين.

كائن صغير مسكين يستحق العدل في ميتة وادعة، وهو غارق في شيخوخته، يتذكر ويحلم في بركة ما، في يوم صيف، وبإحدى المسيرات الطويلة على ضفة (رياتشويلو) في أيام نائية وسعيدة. وأين كان الله عندما كانت أليخاندرا تغرق في ذلك الدنس. وسرعان ما رأى أيضاً، ذلك المنظر الذي لن ينساه أبداً، في تلك الجريدة التي كان «ألفاريس» يحتفظ بها في بيته، ويعيره إياها دائماً بشيء من خبث شرير. وكان يعود ليرى دائماً وأبداً، ذلك الطفل الذي يناهز ستة أو سبعة الأعوام، أثناء الرحيل عبر الـ «بيرني» وسط الثلوج، بين عشرات الآلاف من الرجال والنساء الهاربين إلى فرنسا، وحيداً بائساً، يركض ويقفز بنشاط على رجله الوحيدة، مستنداً إلى عكازه، في خضم الحشد الغريب المذعور الهارب، كأن كابوس القصف في «برشلونة» لن ينتهي أبداً. وكأنه لم يكن قد ترك هناك، في إحدى الليالي الجهنمية المجهولة، رجله وحسب، وإنما كان منذ أيام بدت له قروناً يترك أجزاء من روحه يجرفها تيار الخوف والوحدة.

واهتز للفكرة بغتة.

فانبثقت في نفسه المضطرمة كشحنة بين سحب العاصفة الداكنة. إن كان لوجود العالم سبب، إن كان للحياة الإنسانية أي معنى، وإن كان الله موجوداً فليظهر إذن هناك، في غرفته، في تلك الغرفة القذرة في النزل. ولم لا..؟. لماذا يجب أن يرفض ذلك التحدي..؟. إن كان موجوداً، فهو القوي الجبار، والأقوياء الجبابرة يمكن أن يتفضلوا ويقدموا على شيء من التنازل. ولم لا..؟. من المستفيد إن لم يحضر..؟. وأي ضرب من العنجهية يمكن أن يرضي بعدم حضوره..؟.

المهلة، حتى الصباح. قالها في دخيلته بشيء من المتعة والحقد: شعر فجأة أن المهلة النهائية الثابتة تمده بقوة هائلة؟. وعززت قناعته الحاقدة، كما لو أنه يقول: هيا بنا نرَ الآن. إن لم يحضر سوف ينتحر.

نهض وهو يرتعد، وكأن حيوية مفاجئة متجددة وهائلة تمده بالقوة.

أخذ يسير بعصبية من ناحية إلى أخرى، يقضم أظافره ويفكر، كأنه في طائرة تهوي نحو الأرض وتلف وتدور بسرعة هائلة، لكن قوة خارقة تتمكن من التحكم فيها بصورة غير مستقرة. واعتراه فجأة شلل وقلق من رعب لا يدري ما هو.

ولكن إذا ظهر الله فكيف سيظهر؟. وماذا سيكون؟. حضوراً لا متناهياً ومروعاً، أم صورة، أم صمتاً مطبقاً، أم صوتاً، أم ضرباً من مداعبة لطيفة ومطمئنة..؟. وماذا إن ظهر ولم يستطع أن يدركه؟. سيكون انتحاره عندئذٍ عبثاً وخطأ.

كان الصمت في الغرفة مطبقاً: الجلبة في المدينة، هناك تحت، لا تكاد تسمع.

فكر بأن أي صوت من تلك الجلبة يمكن أن يكون له مغزى. شعر كأنه تائه وسط حشد مضطرب يضم ملايين المخلوقات البشرية، ويتعين عليه أن يتعرف وجه غريب أتاه برسالة الخلاص، ولا يعرف عنه شيئاً سوى: إنه حامل الرسالة التي يمكن أن تنفذه.

جلس على حافة السرير: كان يرتعد ووجهه يضطرم بالحمى. فكر: لست أدري... لست أدري، ليحضر بأي صورة كانت، على أي نحو كان. إن كان موجوداً ويود إنقاذه، فسيعرف كيف ينبغي أن يظهر لكي لا يمر بغفلة منه. طمأنته هذه الفكرة قليلاً فاضطجع، لكن الاضطراب عاوده، وسرعان ما وصل إلى حد لا يطاق.أخذ يطوف ثانية في غرفته حين وجد نفسه فجأة في الشارع يسير على غير هدى كملاح خارت سائر قواه، ومكث في قعر قاربه، تاركاً أمره للأعاصير تعصف به، وللرياح العاتية تتقاذفه.

خمس عشرة ساعة من المسير باتجاه «خوخوي». الجنرال يشتد مرضه، ولم يذق طعم النوم منذ ثلاثة أيام، إنه واجم يفكر، ترك العنان لجواده، بانتظار الأخبار التي يجب أن يأتي بها «لاكاسا».

أخبار المساعد «لاكاسا»..!. هذا ما يفكر فيه «بيدرنيرا» و «دانيل» و «أرتاجيتا» و «مانسيّا» و «إيتشاغوي» و «بيلينغورت» و «راموس مخيا». يا للجنرال المسكين، يجب السهر على حلمه، يجب الحيلولة دون أن يستيقظ على الحقيقة.

ها هو «لاكاسا» يصل، مُنْهِكاً خيوله، لكي يقول ما يعرفونه جميعهم.

ولذلك فإنهم لا يقتربون، ولا يريدون أن يلاحظ الجنرال أن الأخبار لم تفاجئ أياً منهم. فانتحوا جانباً يتابعون من بعيد ذلك الحوار اللامعقول بعطفٍ ساخرٍ واستسلامٍ كئيبٍ. وتلك الأنباء السوداء: إن جميع الوحدويين هربوا إلى بوليفياً.

والقائد العسكري لمنطقة العمليات «دومينغو أريناس» أصبح الآن في صف «الفيدراليين» ينتظر «لافاجي» لكي يقضي عليه. والدكتور «بيدوجا» نصحهم قبل مغادرة المدينة قائلاً: (اهربوا إلى بوليفيا بأي طريق كان).

ماذا سيفعل «لافاجي»..؟. ما الذي يستطيع الجنرال «لافاجي» ألا يفعله أبداً؟. يعرفون جميعاً أ لا فائدة ترجى: لن يدير ظهره للخطر أبداً، وهم مستعدون للمضي قدماً في ذلك العمل الجنوني المميت. ويصدر حينئذ الأوامر بالمسير نحو «خوخوي».

ولكن الأمر واضح: إن ذلك القائد يشيخ ساعة بعد ساعة، ويشعر بأن الموت يقترب، وكأنما يتعين عليه أن يجتاز المسافة الطبيعية بسرعة، ففي نظرة ذلك الرجل ذي الأربعة والأربعين عاماً، وفي ظهره

المحدوب، وفي وهنه البالغ ما يوحي بالشيخوخة والموت. رفاقه ينظرون إليه من بعيد.

إنهم يتابعون بعيونهم تلك البنية المزعزعة المحبوبة.

ويفكر «فريّاس»: (الشجاع ذو العينين الزرقاوين).

ويفكر «أسيفيدو»: (لقد قاتلت في مئة وخمس وعشرين معركة من أجل حرية هذه القارة..).

ويفكر «بيدرنيرا»: (ها هو الجنرال «خوان غالو دي لافاجي». سليل «هرنان كورتيس» و «دون بيلاجو»، الرجل الذي سماه «سان مارتين» طليعة سيوف جيش التحرير، الرجل الذي ما إن وضع يده على مقبض سيفه، حتى فرض الصمت على «بوليفر»).

ويفكر «لاكاسا»: (شعاره ساعد قوي يقبض على سيف لا يستسلم أبداً.

لم يهزمه المسلمون. وبعدهم، لم يهزمه الإسبان أيضاً. والآن، يجب ألا يستسلم كذلك. إنه لأمر محتم).

وتفكر «داما ستيا بويدو»، الفتاة التي تمتطي صهوة جوادها بجانبه، وتحاول جاهدة أن تنفذ إلى ما وراء وجه ذلك الرجل الذي تحبه، ولكنها تشعر بأنها في عالم غريب: (أتود أيها الجنرال أن تتكئ علي، أن تستند برأسك المتعب إلى صدري، أن تنام يحتضنك ذراعي. لن يتمكن أحد من أن ينال منك. لا يستطيع أحد أن ينال من طفل ينام في حضن أمه. إنني الآن أمك أيها الجنرال. أنظر إلي، قل إنك بحاجة إلى عوني).

ولكن الجنرال «خوان غالودي لافاجي» يسير متجهماً مستغرقاً في تأملات رجل يعرف أن الموت يقترب. إنها ساعة مراجعة الحساب، وإحصاء البؤس، وإلقاء نظرة على وجوه الماضي، وليست ساعة العبث،

ولا مجرد النظر إلى العالم الخارجي، فذلك العالم لم يعد له وجود تقريباً، وسرعان ما سيصبح حلماً من الأحلام. الآن تقفز إلى عقله الوجوه الحقيقية والدائمة، التي بقيت في عمق نفسه الموصدة، محفوظة وراء سبعة أقفال. أما كلبه فيواجه ذلك الوجه المهترئ المغطى بالتجاعيد، ذلك الوجه الذي كان في يوم من الأيام، أشبه بحديقة رائعة، فأصبح الآن قاعاً صفصفاً تغطيه الأعشاب الضارة، لا أزهار فيه ولا ورود. ولكنه، مع ذلك، يعود الآن ليرى نفسه، ويتعرف تلك الروضة الظليلة، حيث كانا يلتقيان عندما كانا لا يزالان طفلين تقريباً، وحين لم يكن اليأس ولا البؤس ولا الزمن قد أتم عمله التدميري بعد، وحين كان، بتلك اللمسات الحنونة من يديه، وتلك النظرات من عينيه يبشر بالأولاد الذين أتوا فيما بعد، كما تنبئ زهرة بأيام البرد القادمة: «دولورس»، تمتم باسمها، وارتسمت على وجهه الميت ابتسامة كالجذوة التي توشك أن تنطفئ وسط الرماد الذي نبعثره لننعم بالقليل الباقي من حرارتها.

أما «داماستيا بويدو» التي تراقبه بانتباه كئيب، والتي تكاد تسمعه وهو يتمتم بذلك الاسم القديم والحبيب، فتنظر الآن إلى الأمام وتشعر بالدموع تملأ عينيها. وحينئذ يصلون إلى مشارف «خوخوي»؛ هاهم يرون قبة الكنيسة وأبراجها. إنه منتجع «أسوار الكستناء». لقد حل الليل. يأمر «لافاجي» «بيدرنيرا» بأن يخيم هناك. أما هو فسيذهب مع كوكبة صغيرة، إلى «خوخوي». سيبحث عن منزل يقضي فيه تلك الليلة: إنه مريض يكاد ينهار من شدة التعب والحمى.

يتبادل رفاقه النظرات: ما الذي يمكن عمله..؟. إن ذلك جنون كله، والأمر سيان، سواء مات المرء على هذا النحو أو ذاك.

تجول على غير هدى. ارتاد حانات في حي «الباخو» كان قد ارتادها حيناً بصحبة أليخاندرا، وبقدر ما كان مارتين يسرف في الشراب كان

العالم يفقد شكله وتماسكه. سمع صراخاً وضحكاً، وأحس بأضواء نفاذة تخترق رأسه، ونساء مطليات بالأصبغة تعانقه. حتى طرحته أرضاً كتل ضخمة من رصاص أحمر، وقطني، فشق طريقه مستنداً إلى عصا اتخذ منها عكازاً، وسط سهل مترامي الأطراف تغطيه المستنقعات، بين قاذورات وجثث، وروث، وحيتان يمكن أن تلتهمه وتبتلعه، يحاول أن يقف على أرض ثابتة، وهو يحدق بعينيه بشدة لكي يتمكن من أن يسير وسط تلك الظلال، نحو ذلك الوجه المبهم، البعيد عن وجه الأرض مسافة تقدر بحوالي فرسخ، وكأنه قمر جهنمي، يود أن ينير ذلك السهل النتن المثير للاشمئزاز، ويجري بعكازه إلى هناك، حيث كان يبدو أن الوجه ينتظره، إلى الجهة التي لابد أن ذلك النداء يأتي منها، يركض في السهل ويتعثر، حتى نهض فجأة فرآه أمامه، بجانبه تقريباً، منفراً مشؤوماً، وكما لو أن سحراً شيطانياً غرر به من بعيد، فصرخ، وانتفض بشدة في السرير. كانت امرأة ممسكة بذراعيه تقول له:

ـ اهدأ أيها الفتى..!. اهدأ الآن..!.

و«بيدرنيرا» الذي ينام على صهوة جواده انتفض بشدة: ظن أنه سمع طلقات بندقية. ولكن ربما لم يكن ذلك سوى مجرد أوهام من نسج خياله. لقد حاول في تلك الليلة المشؤومة أن ينام، ولكن عبثاً. كانت تعذيه أشباح الدماء والموت.

نهض، وسار بين رفاقه النائمين، ووصل حيث كان الحارس، نعم، والحارس أيضاً سمع أصوات طلقات آتية من بعيد، من ناحية المدينة. يوقظ «بيدرنيرا» رفاقه ويراوده خاطر كئيب، يفكر بأنهم يجب أن يسرجوا خيولهم ويبقوا يقظين. ذلك ما بدأ بتنفيذه عندما وصل قناصان من كوكبة «لافاجي» يغذان السير وهما يصيحان: «لقد قتلوا الجنرال...!.».

حاول أن يفكر، ولكنه شعر أن رأسه محشو برصاص سائل وقاذورات. قالت له: عارض سيزول أيها الصغير، سيزول. كان رأسه يؤلمه، كأنه مرجل حقن بالغاز وبقوة ضغط شديدة، لكنه بدأ يدرك، كأنه يرى من خلال شبكة عنكبوت عتيقة وواسعة وكثيفة، أنه في غرفة مجهولة: لاحت له أمام سريره، صورة «كارليتوس غارديل» بلباس الـ «فراك»، وصورة «إيفيتا»، بالألوان أيضاً، ومزهرية تحتوي أزهاراً. شعر بيد المرأة تلامس جبينه كأنها تقيس درجة حرارته، مثلما كانت جدته تفعل منذ سنوات نائية مضت. وبدأ يسمع ضجيج سخّان. ابتعدت المرأة، وراحت تحقن السخان بالهواء فاشتد دويه أكثر فأكثر. وسمع أيضاً بكاء طفل رضيع قريباً منه، هناك بجانبه، لكن قواه لم تساعده على أن يتلفت ليراه، ثم استغرق في النوم من جديد. ورأى الشحاذ مرة أخرى يتقدم نحوه، ويتمتم بكلمات غير مفهومة، ثم يضع حمله على الأرض ويحل أربطته ويفتحه ويريه محتوياته التي كان الغم يسيطر على مارتين عندما يراها، كانت كلماته عصية على الفهم، كأنها كلمات رسالة **يعرف** أنها ذات أهمية حاسمة ومصيرية، ولكن الزمن والرطوبة محَوا حروفها وحولاها إلى لغز مبهم.

جثمان الجنرال يرقد في مدخل الدار سابحاً في الدم. و «داماسيتا بويدو» جاثية بجانبه، تعانقه وتبكي: والعريف «سوسا»، ينظر إلى كل ذلك الذي يجري حوله، هلعاً كأنه طفل فقد أمه أثناء زلزال.

يركضون ويصرخون جميعاً، ولا أحد يفهم شيئاً، أين الفيدراليون..؟. لماذا لم يقتلوا الباقين..؟. لماذا لم يقطعوا رأس «لافاجي»..؟.

يقول «فرياس»: (إنهم، في ظلام الليل، لم يعرفوا مَن قَتلوا). (لقد أطلقوا الرصاص وسط الظلام)، (ذلك أمر واضح). ويفكر «بيدرنيرا»: يجب أن نهرب قبل أن يدركوا ما فعلوا. يصدر أوامر سريعة ومحددة، وضعوا الجثمان ملفوفاً بالعباءة على صهوة حصان

الجنرال الأشهب، وراحوا يغذون السير لكي يصلوا ثانية إلى منتجع «أسوار الكستناء» حيث تنتظر بقية الفيلق.

يقول العقيد «بيدرنيرا»: (لقد أقسم «أوريبي» أن يعرض رأس الجنرال على سن رمح في ساحة النصر. ولكن ذلك لن يحدث أبداً أيها الرفاق. يمكننا في غضون ستة أيام بلوغ حدود بوليفيا، وهناك ستدفن رفات قائدنا).

ثم يوزع قواته، فيأمر مجموعة من الرماة بأن تحمي الانسحاب من المؤخرة، ويبدؤون بعد ذلك الشوط الأخير من مسيرة الرحيل إلى المنفى.

عاد يسمع بكاء الطفل. قالت المرأة وهي منهمكة تقدم له الشاي: حسناً، حسناً. وبعد ذلك ساعدته لكي يضطجع في السرير، ثم ذهبت إلى الناحية الأخرى حيث يسمع منها بكاء الرضيع وأخذت تدندن. بذل مارتين جهداً، ليتمكن من تحريك رأسه نحو الجانب الآخر: رآها منحنية فوق شيء ما، وهي تقول هيا، هيا، وجد فيما بعد أنه صندوق اتخذت منه مهداً للصغير ورأى فوقه صورة: المسيح مفتوح الصدر ـ كما في لوحة تشريحية بالألوان ـ يشير إلى قلبه بإصبعه، وتحتها بضعة رسوم لقديسين. وقريباً منه وُضع على صندوق آخر «بريموس» وفوقه إبريق. كانت المرأة تردد بصوت خافت: حسناً، حسناً، وتدندن بنغمة رتيبة، تلاشت شيئاً فشيئاً، إلى أن خيم الصمت على كل شيء، وبعد أن لبثت هنيهة وهي منحنية فوق الطفل، لكي تتأكد من أنه استغرق في النوم، عادت إلى مارتين بحذر تحاول ألا تثير أي ضجة، فابتسمت وقالت: لقد نام. ثم انحنت قليلاً فوقه، ووضعت كفها على جبينه وسألته: ألست الآن أحسن؟. كانت يدها خشنة. أومأ مارتين بما يفيد الإيجاب. لقد نام ثلاث ساعات. وأخذ يسترد وعيه. نظر إليها: لم تتمكن الآلام ولا

التعب، ولا البؤس ولا الشقاء، من أن تمحو أمارات العذوبة والأمومة من محيا تلك المرأة. قالت له: ساء وضعك فطلبت منهم أن يأتوا بك إلى هنا. تضرج مارتين وحاول أن يقف، لكنها أمسكت به. قالت: انتظر قليلاً، من يجري وراءك ثم أردفت تقول وهي تبتسم بأسى:

تحدثت عن أشياء كثيرة أيها الفتى. فسأل مارتين خجلاً: أي أشياء..؟. فقالت بخجل وهي تنظر إلى تنورتها وتمسك أطرافها بحذر، كأنها تتفحص خرقاً فيها لا يكاد يُرى: أشياء كثيرة، ولكنها لم تكن مفهومة تماماً. كان جرس صوتها مفعماً بالرقة التي تتسم بها عادة لهجة العتاب لدى بعض الأمهات.

وعندما رفعت عينيها، رأت مارتين يتأملها بنظرة سخرية ممزوجة بالألم. ولعلها أدركت مغزاها فأردفت تقول: وأنا أيضاً.. لا تظن أنني... ثم ترددت قليلاً، وأضافت: لكنني الآن، لدي عملي هنا، ويمكنني أن أحتفظ بالطفل. يتعين علي أن أعمل كثيراً، هذا صحيح، ولكن لدي هذه الغرفة الصغيرة والطفل. ثم عادت تتفحص الخرق الخفي وتلمس تنورتها. وقالت بينما لا تزال مطرقة: ثم.. هناك كثير من الأشياء الجميلة في الحياة. ورفعت ناظريها لتجد التعبير الساخر مرتسماً على وجه مارتين، فعادت تتحدث بتلك اللهجة من عتاب ممزوج بالعطف والخوف: فكر بحالي، لا تذهب بعيداً، انظر إلى كل ما أملك. فنظر مارتين إلى المرأة، وفكر بفقرها ووحدتها في تلك الحظيرة القذرة. ولكنها استطردت تقول بإصرار: لدي الطفل، ولدي هذا الحاكي العتيق، وبعض أسطوانات «غارديل»، ألا تبدو لك أغنية «***أزهار العسل متفتحة***» وأغنية «***الدرب***» رائعتين؟. ثم قالت بجرس حالم: ليس هناك ما هو أروع من الموسيقى. نعم. ثم شخص بصرها إلى صورة المغني الملونة: من الخلود، يختال «غارديل» «بالفراك»، وبدا أنه يبتسم لها أيضاً. ثم عادت إلى

مارتين واستطردت تقول: وهناك كذلك الأزهار، والعصافير، والكلاب.. ولست أدري ماذا أيضاً. يا للأسف.. لقد أكل قط المقهى الكناري. كان لي رفيقاً عظيماً. وفكر «مارتين»، لم تأت على ذكر زوجها، *ليس لها زوج، أو لعله ميت، أو ربما غرر بها أحد ما.* قالت بشيء من الحماسة: ما أجمل الحياة..!. فكر أيها الفتى: عمري خمسة وعشرون عاماً، وأشعر بالحزن لأنني سأموت في يوم من الأيام. نظر إليها مارتين: كان يظن أنها ابنة أربعين. أغمض عينيه ومكث يفكر. ظنت المرأة أن حالته أخذت تزداد سوءاً، فاقتربت منه ووضعت راحة كفها على جبينه. عاد مارتين يحس بتلك الكف الخشنة. وشعر بأن يدها ـ بعد أن اطمأنت ـ استقرت فوق جبينه بعض الوقت قلقة، تداعبه بحنان وخجل. ففتح عينيه وقال: يبدو أن الشاي قد أنعشني. وبدا كأن المرأة تشعر بسعادة غامرة. استوى مارتين على السرير، ثم قال: إني ذاهب. وشعر بوهن شديد وبالدوار أيضاً. فسألته بقلق: هل تشعر بأنك على ما يرام..؟. فقال: تماماً. ثم سألها :ما اسمك..؟. فأجابت: خادمتك «هورتنسيا باس». فقال: وأنا اسمي «مارتين ديل كاستيجو».

نزع خاتماً كان في خنصره، أهدته إياه جدته: أهديك هذا الخاتم.

تضرجت الفتاة، ولم تقبل. فسألها مارتين: ألم تقولي إن الحياة مملوءة بالسعادة...؟. إن قبلت مني هذا الخاتم للذكرى، فسأشعر بسعادة غامرة، السعادة الوحيدة التي أحظى بها في هذه الأيام الأخيرة. ألا تودين أن أصبح سعيداً؟. بقيت «هورتنسيا» على ترددها. لكنه وضع الخاتم في إصبعها وخرج مسرعاً.

6

وصل إلى غرفته عند الفجر. فتح النافذة، كانت ناطحات السحاب تغوص رويداً رويداً وسط سماء رمادية.

أكما قال برونو ذات مرة...؟. يمكن أن تكون الحرب سخفاً أو خطأ، لكن الفصيل الذي ينتمي إليه المرء يبقى شيئاً مطلق الكمال.

فهناك «دار كانخلو» مثلاً. و«هورتنسيا» أيضاً. مجرد كلب يكفي.

برد الليل قارس جداً، والقمر يضيء الشعاب بنوره الشاحب. مئة وخمسة وسبعون رجلاً يخيمون وانتباههم مشدود إلى أي حركة تأتي من الجنوب. النهر الكبير يزحف كأنه زئبق لماع، شاهد لا يبالي على حروب وحملات ومذابح. دمه الآن يجري في عروق جيوش «إينكا»[1] وقوافل أسرى وأرتال غزاة إسبان (يفكر «سيليدوينو أولموس»)، وبعد أربعمئة سنة سيعيشون خفية في دم أليخاندرا (يفكر مارتين). وفيما يدحر فرسان وطنيون الإسبانيين نحو الشمال، ويعود هؤلاء للتقدم نحو الجنوب ثانية. ومرة أخرى يدحرهم الوطنيون. وبالرمح والبندقية وحد السيف والسكين يتذابحون، ويبتر بعضهم أوصال بعضهم الآخر في حميا جنون الحرب بين الأخوة. ثم تحل ليالي الصمت الساكن المطبق، حيث لا يسمع سوى هدير النهر

(1) الـ «اينكا» إمبراطورية ازدهرت في أمريكا الجنوبية (البيرو) وقُضي عليها في مطلع القرن السادس عشر، بعد اكتشاف أمريكا (المترجم).

الكبير يعلو بطيئاً ولكن بتصميم، على صخب المعارك الدامية بين بني البشر، ولكن كم هي مؤقتة وعابرة في الوقت ذاته..!. حتى تعود صيحات الحرب من جديد لتلونه بلون قانٍ، ويرحل سكان مناطق بأسرهم نحو الجنوب هاربين، يقومون بأعمال غريبة، يحرقون بيوتهم، ويدمرون أملاكهم، لكي يعودوا مرة أخرى إلى الأرض الخالدة التي فوق ترابها ولدوا، وعلى أديمها لاقوا صنوف العذاب.

مئة وخمسة وسبعون رجلاً يخيمون، وفي هدوء تلك الليلة الساكنة، أنامل لا تكاد تلامس أوتار غيتار وصوت خافت يغني:

حمامتي البيضاء.

اعبري الوادي

اذهبي للجميع وقولي

لقد مات لافاجي.

وعندما ينبلج صبح اليوم الجديد. يبدؤون مسيرتهم نحو الشمال.

الملازم «سيليدونيو أولموس» علي صهوة جواده، وبجانبه العريف «أباريسيو سوسا»، يسير الآن صامتاً مفكراً.

يطيل الملازم النظر إليه. لقد مضت أيام وهو لا يني يسأل. لقد ذوى في الأشهر الأخيرة كأنه زهرة رقيقة تواجه كارثة كونية. ولكن، ها قد بدأ يفهم شيئاً فشيئاً مدى سخافة ذلك الانسحاب الأخير.

مئة وخمسة وسبعون رجلاً يغذون السير بجنون طيلة ستة أيام ممتطين صهوات جيادهم، من أجل جثة.

«لن يحصل «أوريبي» على الرأس أبداً». ذلك ما قاله العريف «سوسا».وهكذا، في خضم حطام تلك الأبراج بدأ الملازم الفتى يلمح

برجاً آخر، ساطعاً لا يفنى، برجاً واحداً يستحق من أجله أن يحيا ويموت.

وراح يولد في مدينة بوينس أيرس شيئاً فشيئاً، يوم جديد. يوم مثل بقية الأيام الأخرى التي ولدت منذ أن كان الإنسان إنساناً.

رأى مارتين من النافذة طفلاً يركض حاملاً صحف الصباح. لعله يسرع لكي يدفأ، أو ربما، لأن الحركة من مستلزمات ذلك العمل، ورأى كلباً ضالاً، لا يختلف كثيراً عن «بونيتو»، ينبش كومة قمامة. وفتاة مثل (هورتنسيا) ذاهبة إلى عملها.

فكر أيضاً في بوسيتش، وفي شاحنة الـ (ماك) ومقطورتها. فوضع حوائجه في كيس، وهبط درجات السلم المتداعية.

7

كانت تمطر، وكان الليل بارداً. وريح موحشة تهب بشدة فتعصف بالأوراق المتناثرة في الشوارع، وتعبث بأوراق الأشجار الجافة التي أخذت تخلِّف الأغصان عارية.

وأمام المرآب كانت تجري الترتيبات الأخيرة. قال «بوسيتش» وعقب «السيكار» مطفأ في فمه: الغطاء.. تعلم.. قد تمطر بشدة. ربطا الحبال، كان يستند برجله إلى الشاحنة، ويشد بقوة. مرّ عمال يتحدثون ويطلقون الدعابات، وبعضهم مر صامتاً مطرقاً. قال «بوسيتش»: شدّ من هنا يا فتى. وبعد ذلك دخلا إلى الحانة: كانت غاصة برجال يرتدون صدرات زرقاء ومعاطف جلدية، وينتعلون أحذية مطاطية، يتحدثون بصخب، ويشربون القهوة والـ «خينيبرا»، ويأكلون شطائر ضخمة، ويتبادلون النصائح. تناول الحديث أناساً ممن يعملون في ذلك الطريق: النحيل.. غونسالس، ويضربون بقوة على ظهره، فوق المعطف الجلدي ويقولون له: «بوسيتش» أيها العجوز القوي، وهو يبتسم صامتاً. وبعد أن أتى على تلك الشطيرة وكوب القهوة قال لمارتين: حان الوقت الآن يا فتى، وخرجا. صعد واستقر وراء المقود. شغّل المحرك، وأضاء المصابيح، وسار باتجاه جسر «أفيجانيدا» مبتدئاً الرحلة الطويلة نحو الجنوب. فاجتاز عند الفجر البارد الممطر تلك الأحياء التي حملت لمارتين ذكريات جمة. وبعد أن عبر «رياتشويلو»، مرّ بالأحياء الصناعية، وشيئاً فشيئاً، وصل إلى الطريق العام المفتوح نحو الجنوب الشرقي، فانطلق، بعد أن عبر تقاطع

طريق «لابلاتا»، بتصميم نحو الجنوب، في الطريق رقم 3 الذي ينتهي في طرف العالم، هنالك، حيث كان مارتين يتصور كل شيء أبيض وشديد البرودة. هناك في تلك البقعة الموحشة، إنما النظيفة النقية، المشرفة على القطب الجنوبي، التي تعصف بها رياح الـ «باتاغونيا». ***حصن الأمل الأخير، خليج بلا جدوى، مرفأ الجوع، جزيرة الوحشة***.. أسماء كان يتطلع إليها طيلة سنوات، منذ الطفولة في تلك العلّية، أثناء ساعات طويلة من الحزن والوحدة، أسماء توحي بمناطق نائية ومعزولة عن العالم، ولكنها نظيفة وصلدة، وبالغة النقاء، أماكن يبدو أنها لم تدنس بعد، لم يدنسها الرجال ولا النساء أيضاً.

سأله مارتين إن كان يعرف منطقة «باتاغونيا» جيداً، فقال وهو يبتسم بسخرية وطيبة:

ـ ها... إني من صف الأوائل يا فتى. ويمكن القول إني بدأت أجوب منطقة «باتاغونيا» منذ أن كنت طفلاً. هل تعلم؟.. كان والدي بحاراً، ويبدو أن أحداً في المركب حدثه عن الجنوب، عن مناجم الذهب. فأبحر حينذاك، من بوينس أيرس، على سفينة شحن كانت تسافر إلى مرفأ مادرين، وتعرّف هناك إنكليزياً يدعى «ستيف»، كان يجري أيضاً وراء الذهب. فتابعا سفرهما على السفينة نحو الجنوب، وفيما بعد: على حصان حيناً، ثم عربة، أو قارب حيناً آخر، حتى استقر به المقام في منطقة بحيرة «فييما» قرب «فيسروي»، وهناك ولدت.

ـ وأمك.

ـ تعرَّفها هناك. تشيلانية. اسمها «ألبينا روخاس».

كان مارتين ينظر إليه مفتوناً، بينما «بوسيتش» يبتسم ويفكر، ويراقب

الطريق بحذر شديد، والسيكار مطفأ في فمه. سأله إن كان الطقس شديد البرودة.

ـ في الشتاء، تصل درجة الحرارة في «لاغو أرخنتينو» و«ريّو غاييّغو» إلى ثلاثين درجة تحت الصفر. ولكن في الصيف، يصبح الطقس جميلاً.

حدثه بعد ذلك عن طفولته، وعن صيد الأسود. والـ «غواناكو»، والثعالب والخنازير، وعن رحلاته مع والده في القارب.

قال وهو يضحك:

ـ لم تكن فكرة العثور على الذهب تفارق والدي قط. ورغم أنه كان قوي البنية، ويرعى بعض المواشي، لكنه كان يعود إلى غيّه كلما وجد إلى ذلك سبيلاً. سافر في العام 3 مع دانيماركي يدعى «ماسين» وألماني يدعى «أوتن»، إلى منطقة «أرض النار». وكانوا أول ثلاثة من البيض يعبرون النهر الكبير، ثم عادوا بعد ذلك إلى الشمال بطريق «الأمل الأخير» حتى وصلوا إلى منطقة البحيرات، بحثاً عن الذهب دائماً.

ـ وهل عثروا على شيء؟.

ـ ماذا سيجدون؟. مجرد حكايات.

ـ وكيف كانوا يعيشون؟.

ـ مما يصطادون في البر وفي البحر. بعد ذلك اشتغل والدي مع «ماسين» في لجنة الحدود. ولما كان قريباً من «فييما» تعرّف هناك أحد أوائل المعمرين، إنكليزي يدعى «جاك ليفلي» فقال للعجوز: انظر يا «دون» بوسيتش، صدقني، إن هذا يبشر بمستقبل عظيم. لماذا لا تبقى هنا، بدلاً من تبديد الوقت بحثاً عن الذهب، الذهب هنا، هو الماشية. أنا أعلم ماذا كان جوابه.

مكث بعد ذلك صامتاً.

في هدوء الليل البارد، يمكن سماع وقع حوافر الخيل، المنسحبة نحو الشمال دائماً.

في سنة 21 اشتغلت عاملاً في «سانتا كروس». أثناء الإضراب الكبير حدثت مذبحة كبيرة.

ثم عاد يفكر ملياً. يلوك السيكار المطفأ حيناً، ويحيي سائق شاحنة يسير في الجانب المعاكس حيناً آخر.

قال مارتين:

- يبدو أنك تعرفهم جيداً.

ابتسم بوسيتش بتواضع واعتزاز:

- إني أجوب الطريق 3 يا فتى منذ أكثر من عشر سنوات، أعرفه أكثر مما أعرف أصابعي. ثلاثة آلاف كيلو متر، من بوينس أيرس حتى المضيق. هذه هي الحياة يا فتى.

كوارث هائلة رفعت تلك السلاسل الجبلية في الشمال الغربي. ومنذ مئتين وخمسين ألف عام تهب من وراء الحدود، من مناطق ما وراء القمم الغربية، رياح حفرت كاتدرائيات غريبة ضخمة ونقشتها.

والفيلق (بقايا الفيلق) يتابع مسيرته نحو الشمال، تطارده قوات «أوريبي». والجواد الأصهب. يحمل جثمان الجنرال ملفوفاً بعباءته، منتفخاً، نتناً يتفسخ.

أخذ الطقس يتغير، فتوقف هطول المطر، وهبت رياح قوية آتية من الداخل (كما قال بوسيتش)، البرد شديد، لكن، السماء صافية. وبقدر ما كانا يتوغلان نحو الجنوب الشرقي، كان السهل يتسع أكثر فأكثر، ويصبح منظره مهيمناً، والهواء يبدو لمارتين أنقى وأنصع، ويشعره بأنه

أنفع الآن وأفيد. كان يجب أن يغيرا أحد الإطارات.وما بين شرب الـ «ماتي» وإعداد الموقد، حلت الليلة الأولى.

بقي الآن خمسة وثلاثون فرسخاً. ثلاثة أيام من العدو السريع، بينما الجثمان ينتن، وينزّ صديداً سائلاً، وبعض رماة المؤخرة ممن يحمون ظهورهم ربما يكونون قد قُتلوا أو ذُبحوا، أو أصابتهم طعنات الرماح واحداً بعد آخر. من «خوخوي»، إلى «هواكاليرا»، أربعة وعشرون فرسخاً، يقولون في سرهم، ليس أكثر من خمسة وثلاثين فرسخاً، ليس أكثر من أربعة أيام أو خمسة أيام من المسير، إن شد الله في أزرهم.

وقال بوسيتش وهو يوقف الشاحنة في منعطف بجانب الطريق:

ـ إنني أيها الفتى لا أحب أن آكل في المطاعم.

كانت النجوم تلمع في تلك الليلة القاسية الباردة.

قال باعتزاز وهو يربت بكفه على شاحنة الـ «ماك»، وكما لو أنها حصان عزيز:هذه هي طريقتي. أتوقف عندما يحل الليل، إلا في الصيف، حين يكون الليل بارداً. السير في الليل خطر دائماً: تتعب، تنام، ثم.. زاك.. كما حدث للبدين «فيّا نويفا» في الصيف المنصرم قرب «أسول». وأقول لك صادقاً إني أفعل ذلك ليس من أجلي وحسب، إنما من أجل الآخرين أيضاً. تصوَّر.. لو صدمت شاحنة كهذه أحداً لعجنته عجناً.

بدأ مارتين يعد الموقد. وبينما كان سائق الشاحنة يمدد اللحم فوق المشواة قال:

ـ إنها قطعة شواء لذيذة. سوف ترى. إنني أشتري اللحم طازجاً، وليس من البراد أيها الفتى. تذكر ذلك دائماً: إنهم يستخرجون منه الدم.

أقسم بهذا الصليب، لو أنني حكومة لمنعت اللحوم المجمدة. صدقني، إن هذا هو سبب انتشار الكثير من الأمراض في هذه الأيام.

ـ ولكن، ألا يفسد اللحم في المدن الكبرى، بلا برادات ؟.

تناول بوسيتش السيكار، وأومأ بإصبعه قائلاً:

ـ كذب. كل ذلك تجارة. لو أنهم يبيعون اللحم طازجاً وفي الحال لما حدث شيء. أتفهم، يجب شراء اللحم بعد الذبح مباشرة، فكيف سيفسد إذن؟. هل بوسعك أن تفسر لي ذلك؟.

وبينما كان يضع الشواء بحيث لا تطاله النار فيحترق، أضاف قائلاً، وكما لو أنه ما زال يفكر في الأمر:

ـ إنني أصدقك القول يا فتى: ناس تلك الأيام السالفة كانوا أوفر صحة.لم تكن لديهم كماليات كثيرة كهذه الأيام، ولكنهم مع ذلك كانوا أحسن حالاً. أتعلم كم عمر والدي..؟.

لا، مارتين لا يعرف، رأى بوسيتش في ضوء النار يبتسم وهو جالس القرفصاء، والسيكار مطفأ في فمه، يشعر بالاعتزاز سلفاً:

ـ ثلاثة وثمانون عاماً. وأكون كاذباً لو قلت لك إنه رأى طبيباً، فهل تصدق ذلك..؟.

ثم جلسا صامتين على صندوقين قرب النار، ينتظران أن ينضج الشواء. كانت السماء صافية والبرد شديداً، وكان مارتين يتأمل ألسنة النيران.

«بيدرنيرا» يأمر بالوقوف، ويخاطب رفاقه: الجثمان ينتفخ والرائحة لا تطاق. يجب سلخ اللحم والإبقاء على العظام والرأس. لن يحصل «أورييي» على الرأس أبداً.

ولكن من يود أن يقوم بذلك؟. أو من بوسعه أن يفعل ذلك؟.

العقيد «أليخاندرو دانيل» سيفعل.

ثم ينزلون الجثمان، ويمددونه على ضفة الغدير. يجب نزع الثوب المشدود بسبب الانتفاخ بالسكين. وجثا «دانيل» على ركبتيه بجانبه واستل سكينه. ومكث هنيهة يتأمل جثمان قائده المشوه. وتأمله الرجال الذين التفوا حوله واجمين أيضاً. وغرز «دانيل» السكين، حيث كان النتن قد بدأ يفعل فعله. قطع اللحم يجرفها غدير «هواكاليرا» نحو الأسفل، أما العظام فتتجمع فوق العباءة.

روح «لافاجي» تنتبه إلى دموع «دانيل»، وتفكر: «...إنك تتألم حزناً عليّ، ولكنك يجب أن تتألم حزناً على نفسك، وعلى رفاقك الذين ما زالوا أحياء. أنا لم يعد لي الآن أهمية، ما فسد فيّ تنتزعه أنت، ومياه هذا النهر تذهب به بعيداً، وسرعان ما سيساعد نبتة على أن تنمو، قد تتحول مع الأيام إلى زهرة وأريج. ألا ترى أن ذلك يجب ألا يثير حزنك؟. ثم، إنّ ما تبقى مني، العظام فقط، الشيء الوحيد فينا الذي يقارب الحجر ويماثله في الخلود. أكون راضياً لو أنكم احتفظتم بالقلب.. كم كان صاحباً وفياً في الشدائد..!. والرأس أيضاً، نعم، ذلك الرأس الذي يقول أولئك السادة إنه لم يكن يساوي شيئاً. لعلهم قالوا هذا لأنني كنت أرفض التحالف مع الأجانب، أو لأن ذلك التراجع الطويل بدا لهم أمراً سخيفاً لا جدوى منه، أو لأنني لم أقرر الهجوم على بوينس أيرس عندما كانت قبابها على مرمى أبصارنا. أولئك المثقفون الذين لا يعرفون أنني في تلك الأيام حين عدت أرى الحقول التي أعدمت فيها «دوّريغو»، كانت ذكراه تؤرقني، وهي تؤرقني الآن أكثر، بعد أن رأيت أن الشعب كان أثناء الحملة معه وليس معنا، حين كان يغني:

يا سمائي، أيتها السماء الغائمة.

حزناً على موت «دوِّريغو».

نعم يا رفاق. أولئك السادة هم الذين جعلوني أرتكب جريمة. كنت آنذاك فتىً غضاً، أعتقد حقاً أنني أقوم بخدمة وطني. لقد آلمني ذلك كثيراً، لأنني كنت أحب «مانويل دوزّيغو» جداً، ولأنني كنت أميل إليه دائماً. ولكنني مع ذلك، وقّعت على ذلك الحكم الذي أدى إلى إهدار دماء كثيرة، طيلة السنوات ا لإحدى عشرة الأخيرة. وكانت تلك الميتة سرطاناً التهمني في المنفى، ومن ثم، في هذه الحملة الحمقاء. أنت يا «دانيل» الذي كنت معي في تلك اللحظة تعلم جيداً كم آلمني أن أفعل ذلك. كم كنت معجباً بشجاعة «مانويل» وبذكائه، و«أسيفيدو» يعرف ذلك أيضاً، ويعرفه كثير من الرفاق الذين ينظرون الآن إلى رفاتي، كما تعلم كذلك أن الرجال ذوي الرؤوس المفكرة، هم الذين دفعوني إلى فعل ما فعلته برسائل مخادعة، أرادوا بعد ذلك أن أتلفها. كانوا هم، وليس أنت يا «دانيل». ولا أنت يا «أسيفيدو»، وليس «لامادريد» ولا أي منا نحن الذين لا نملك سوى ساعد نقبض به على السيف، وقلب نواجه به الموت...».

ها إن العظام أصبحت ملفوفة بالعباءة التي كانت زرقاء اللون، ولكنها أصبحت الآن ـ كروح هؤلاء الرجال ـ أكثر من مجرد خرقة قذرة ممزقة لا يعرف أحد على وجه الدقة ماذا تمثل، وأكثر من مجرد صرة اصطبغت باللونين اللذين يمثلان عواطف البشر ومشاعرهم ـ الأزرق والأحمر ـ اللذين يعودان في نهاية المطاف ليصبحا بلون الأرض الخالد، ذلك اللون الذي يكون أكثر من مجرد لون القذارة، أو أقل منها، لأنه لون شيخوختنا ولون مصير البشر النهائي كلهم، مهما كانت أفكارهم. ها إن القلب قد وُضع في وعاء وغمر بكحول القصب. واحتفظ أولئك الرجال في جيوبهم الممزقة، من ذلك

الجسم، للذكرى: بعظمة صغيرة أو خصلة شعر.

«...وأنت يا «أباريسيو سوسا» أنت الذي لم تحاول أن تفهم شيئاً قط، لأنك التزمت حدود الوفاء لي، والإيمان الأعمى بكل ما أقول أو أفعل، أنت الذي رعيتني منذ أن كنت في الكلية الحربية تلميذاً شاباً صلفاً، أنت العريف الصامت «سوسا»، الأسمر «سوسا»، مجدور الوجه «سوسا»، أنت من أنقذني في «كانشا راجادا» ومن لا همّ له سوى حب هذا الجنرال البائس المهزوم، بعد حب هذا الوطن الرائع المشؤوم: أود أن يفكروا فيك.

أعني...».

وضع الرجال الهاربون الآن صرة العظام في صندوق الجنرال الجلدي، ووضعوا الصندوق على صهوة الجواد الأصهب، ولكنهم احتاروا بأمر الوعاء، إلى أن سلمه «دانيل» إلى «أباريسيو سوسا»، أشد من فُجع من الرجال بموت الجنرال بؤساً.

«... نعم أيها الرفاق. إلى العريف «سوسا»، لأنكم بذلك كأنما تقولون إلى هذه الأرض، إلى هذه الأرض الصلدة، التي روتها دماء جموع غفيرة من الأرجنتينيين. إلى هذه الشعاب الوعرة التي تسلقها منذ خمسة وعشرين عاماً «بلغرانو» وجنوده الأغرار: جنرال غر صغير، وغض كطفل، تعين عليه أن يجابه قوات إسبانيا المدربة بما يملك من شجاعة وحماسة، دفاعاً عن وطن لم نكن نعرف على نحو واضح، ماذا كان، وما زلنا حتى اليوم، لا نعرف ما هو، وإلى أين يمتد، ووطن من يكون حقاً: وطن روساس أم وطننا.؟. أم وطن الجميع..؟. أم إنه ليس وطن أحد.؟. نعم أيها العريف «سوسا»: أنت هذه الأرض وهذه الشعاب الراسخة منذ آلاف السنين وهذه العزلة

الأمريكية وهذا القلق المجهول الذي يعذبنا في خضم هذه الفوضى، وهذه الحرب بين الأخوة...».

يصدر «بيدرنيرا» الأمر بامتطاء الخيول. فالطلقات تسمع من المؤخرة، وتنذر بالخطر، وقد تبدد من الوقت الكثير. ثم يقول لرفاقه: إن حالفنا الحظ نبلغ الحدود في غضون أربعة أيام، نعم، خمسة وثلاثون فرسخاً، يمكن اجتيازها في أربعة أيام من العدو السريع. ثم يضيف: (ذلك، إن شد الله أزرنا).

واختفى الهاربون وسط الغبار، تحت أشعة شمس الشعاب الحادة، وهناك في المؤخرة، رفاق آخرون يموتون دفاعاً عنهم.

أكلا بصمت وهما جالسان على الصندوقين. وبعد أن فرغا من الطعام، أعد بوسيتش «الماتي» ثانية، وفيما كانا يتبادلانها، كان مارتين يتأمل السماء المرصعة بالنجوم ملياً، إلى أن تشجع فباح بما كان يود الاعتراف به منذ مدة:

ـ أصدقك القول أيها الفتى. كم كان يسعدني لو كنت فلكياً. ومم تستغرب؟. أضاف السؤال مدفوعاً بمجرد الخوف من أن يكون قد قال ما يثير السخرية، ولكن لم تظهر على وجه مارتين أي أمارة يمكن أن تقوده إلى مثل ذلك الاعتقاد.

قال له مارتين: لا، ولماذا يتعين عليه أن يستغرب؟.

وقال بوسيتش:

ـ كل ليلة، حينما أسافر، أنظر إلى النجوم وأتساءل. من يعيش في تلك العوالم يا ترى..؟. يقول الألماني «ماينسا»، إن ملايين الأشخاص يعيشون هناك، وكل نجم من تلك النجوم، هو مثل هذه الأرض.

أشعل السيكار، وعبّ الدخان طويلاً، ومكث يفكر.

ثم أضاف قائلاً:

ـ وقال لي «ماينسا» أيضاً، إن لدى الروس بعض الاختراعات الفظيعة. بينما نحن هنا نأكل الشواء باطمئنان، يرسلون فجأة، نوعاً من الأشعة، وعندئذ، عم مساء. شعاع الموت.

ناوله مارتين الماتي وسأل من هو ماينسا..؟.

ـ صهري، زوج شقيقتي «فيوليتا».

ـ وكيف يعرف كل ذلك؟.

مصَّ بوسيتش الماتي بهدوء، ثم قال يفسّر باعتزاز:

ـ منذ خمسة وعشرين عاماً، وهو يعمل في مكتب البرق في «باهيابلانكا». ولذلك فإنه يعرف معرفة معمقة كل تلك الأجهزة والأشعة. إنه ألماني وكفى.

ثم لاذا بالصمت، حتى وقف «بوسيتش» وقال:

ـ حسناً أيها الفتى. يجب أن ننام.

بحث عن دورق الـ «خينيبرا»، شرب جرعة، ونظر إلى السماء:

ـ لم تمطر هنا لحسن الحظ، غداً يتعين علينا أن نقطع مسافة ثلاثين كيلو متراً في طريق ترابية. لا، أخطأت: ستين كيلو متراً. ثلاثين ذهاباً ومثلها إياباً.

نظر إليه مارتين مستغرباً:

ـ طريق ترابية..؟.

نعم، يجب أن نبتعد عن الطريق العام قليلاً. يتعين علي أن أعود صديقاً في محطة (لاغارما)، ابني بالمعمودية وهو مريض. اشتريت له سيارة.

فتش في غرفة قيادة الشاحنة. تناول علبة، وأراه الهدية وهو يتسم

باعتزاز. شد النابض وحاول أن يجعل السيارة تمشي على الأرض.

ـ طبعاً. هنا، على هذه الأرض، لا تسير جيداً. ولكن على أرض الغرفة الخشبية أو الإسمنتية، تسير على أحسن ما يرام.

وضع الهدية في العلبة برفق، ومارتين يراقبه وأمارات الدهشة بادية على وجهه.

يغذّون السير قلقين نحو الحدود، لأن العقيد «بيدرنيرا» قال: (في هذه الليلة بالذات، ينبغي أن نكون في أرض بوليفيا..)، ومن الخلف تسمع طلقات حماة المؤخرة. وأولئك الرجال يفكرون، كم رفيقاً ممن يحمون ذلك الانسحاب طيلة أيام، جندلته طلقات رجال «أوريبي»، ومن هم يا ترى..؟.

حتى عبروا الحدود أثناء الليل، وتمكنوا في نهاية المطاف من أن يلقوا بأنفسهم على الأرض، ثم يرتاحوا ويناموا بسلام. سلام كان، مع ذلك، موحشاً كأنه يخيم على عالم ميت، في أرض ضربتها الجوائح، وتجوبها بصمت طيور جارحة، حزينة وجائعة.

وحين يصدر «بيدرنيرا» في صباح اليوم التالي الأمر بامتطاء الخيول والسير نحو «بوتوسي»، يمتطي أولئك الرجال صهوات خيولهم. ولكنهم يمكثون زمناً طويلاً أبصارهم جميعاً شاخصة إلى الجنوب (والعقيد بيدرنيرا كذلك) وجوه مئة وخمسة وسبعين رجلاً شارداً واجماً، وامرأة واحدة أيضاً، تتطلع جميعها نحو الجنوب، نحو الأرض التي عرفت باسم (محافظات الجنوب المتحدة «متحدة..!.»). نحو العالم الذي شهد مولد أولئك الرجال، والذي خلّفوا فيه أولادهم وإخوانهم ونساءهم وأمهاتهم، إلى الأبد..؟.

يتطلعون نحو الجنوب جميعاً، والعريف «أباريسيوسوسا» معهم،

يضم إلى صدره الإناء الذي يحتوي ذلك القلب، ويتطلع إلى هناك أيضاً.

ومعهم الملازم «سيليدونيو أولموس» الذي انضم إلى الفيلق وعمره سبعة عشر عاماً، جنباً إلى جنب، مع والده وشقيقه، اللذين قضيا في «كيبراتشو هيرادو»، لكي يحارب دفاعاً عن أفكارٍ تستحق أن تكتب بحروف كبيرة، وكلمات راحت، فيما بعد، تّمحي شيئاً فشيئاً، وتضمحل حروفها الكبيرة، وأبراجها البراقة بفعل السنين وفعل البشر.

حتى يدرك العقيد «بيدرنيرا» أن ذلك يكفي، ويصدر أمر السير، فيطلق الجميع العنان لخيولهم، ويتجهون نحو الشمال.

ويغيبون وسط الغبار والوحدة المطبقة في تلك المنطقة الموحشة. وسرعان ما يختفون كالغبار وسط الغبار.

لم يبقَ في شعاب تلك المنطقة أثر من ذلك الفيلق، من أولئك البائسين بقايا الفيلق: صدى وقع حوافر خيولهم يتلاشى، والأرض التي انطلقوا منها في مسيرتهم الغاضبة عادت ببطء وتصميم كما كانت، ولحم «لافاجي» جرفته مياه غدير نحو الجنوب (لكي يصبح شجرة أو نبتة أو أريجاً). لن يبقى سوى الذكرى الضبابية، التي تضمحل يوماً بعد يوم، لشبح ذلك الفيلق. يروي عجوز هندي: «...أنا رأيتهم أيضاً في الليالي المقمرة. أولاً، تسمع التراتيل وصهيل حصان، حصان أخّاذ يمتطيه الجنرال، حصان أبيض بلون الثلج. (هكذا يرى الهندي حصان الجنرال) وهو يحمل سيف فارس كبير، ويعتمر قبعة فارس عالية أيضاً...». (يا للهندي المسكين، فالجنرال كان ابن بائس، يعتمر قبعة قش قذرة، ويرتدي عباءة ضاع لونها الأزرق، رمز لون العلم..!. ولم يكن لدى ذلك البائس زيّ فارس ولا قبعة عالية،

ولا شيء من هذا أبداً..!. ولم يكن سوى بائس بين مجموعة من البائسين!).

لكنه كان مثل الحلم: لحظة، وسرعان ما يختفي في ظلمة الليل عابراً النهر، متجهاً نحو السلاسل الغربية.

دله بوسيتش على المكان الذي سيناما فيه ضمن المقطورة. فرد الفراشين الصغيرين. وضبط منبه الساعة وقال: ينبغي أن يوقظنا عند الخامسة. ثم ابتعد بضع خطوات ليبول. واعتقد مارتين أنه يجب أن يفعل ذلك قريباً من صديقه أيضاً.

كانت السماء صافية وصلدة كماسة سوداء. السهل يتسع في ضوء النجوم نحو امتداد ليس له نهاية. ورائحة البول الدافئة النفاذة تختلط بروائح الحقول. قال بوسيتش:

ـ ما أكبر بلادنا يا فتى.

وشعر مارتين، الذي كان يتأمل جسم سائق الشاحنة الضخم تحت تلك السماء المرصعة بالنجوم، وهما يبولان سوياً، بأن سلاماً نقياً ينفذ، للأول مرة إلى روحه المعذبة.

وقال بوسيتش وهو يرنو إلى الأفق، ويزرر بنطاله :

حسناً، إلى النوم أيها الفتى، ضبطنا المنبه على الساعة الخامسة. غداً سوف نجتاز «الكولورادو».

ο ο ο

أبطال وقبور

عالم «ساباتو» الروائي عالم غريب ومعقد، خفي ومتشابك، عجيب وغامض. وهو إلى جانب نوازعه الإنسانية، وشغفه بالهواجس الجنونية المبدعة، وأفكاره عن الشر، يقلقه خلاص الإنسان الذي يرى أنه لا يمكن إدراكه بالعقل الواعي والإرادة المباشرة، وإنما بقدرات أخرى تكمن وراء عالم المظاهر.

إنه كافكا نهاية القرن، ينبش في أعماق حيرة وارتباك الإنسان المعاصر، الملقى به في عالم غامض قاس لا يرحم، يرتعد إزاء استحالة وجود أي مخرج.

ولذلك فإن صوت «إرنستو ساباتو» يرتفع ، بعظمة الكلمة، متوسلاً، يناشد أولئك الذين يشعرون بأنهم جديرون بالحلم المثالي، أن يخوضوا المعركة الفاصلة لاستعادة ما يمكن إنقاذه من إنسانيتنا المفقودة.

تعد رواية ساباتو «أبطال وقبور» ملحمة ونشيداً «طقسياً»، ووثيقة اجتماعية، أخلاقية، نفسية، سياسية، تاريخية رائعة، فهي:

- عمل سحري غريب وشامخ، كأنها فيلم كتب نصه «دوستويفسكي» وأخرجه «بونويل» (نويورك تايمز).
- إنجاز عبقري، تعد واحدة من روايات هذا القرن، ومن أغرب ما كُتب في عصرنا. (دي ولت - برلين).
- مأساة خلاص شيطاني تقشعرّ منه الأبدان. (و. ماكري - جامعة فلوريدا).
- تمثل عظمة أدب أمريكا اللاتينية . (فولا دي سان باولو - البرازيل).

الناشـــر

السعر ٥٠٠ ل.س